العصور الجديدة

مذكرات مصطفى النحاس

ربع قرن من السياسة فى مصر

(١٩٢٧ - ١٩٥٢)

دراسة وتحقيق : أحمد عز الدين

الكتاب الأول (١٩٢٧ - ١٩٤٠)



مذكرات مصطفى النحاس
ربع قرن من السياسة فى مصر
(١٩٢٧ـ١٩٥٢)
الكتاب الأول (١٩٢٧ـ١٩٤٠)

اسم الكتاب: **مذكرات مصطفى النحاس**

ربع قرن من السياسة فى مصر
(١٩٢٧ - ١٩٥٢)
الكتاب الاول (١٩٢٧ - ١٩٤٠)

دراسة وتحقيق: **احمد عز الدين**

الناشر: **العصور الجديدة**

١٢ جمال الدين ابو المحاسن جاردن سيتى- القاهرة - ج م ع
تلفاكس: ٣٥٥٩١٣٣ . ٣٢٥٦٤٠٩٨
email: alousour @ Intouch. Com.

المدير العام : **راويـــة عـبدالعظيم**
المحرر العام : **مهـــدي مصطـفى**
الإشراف الفني والغلاف: **إينـــاس حسـني**
سـنة الطبع : ٢٠٠٠

رقم الإيداع: ٢٠٠٠/٢٦٨٣ . 5 -05 -5971 -977

مذكرات مصطفى النحاس

ربع قرن من السياسة فى مصر

(١٩٢٧ـ١٩٥٢)

الكتاب الأول (١٩٢٧ـ١٩٤٠)

دراسة وتحقيق : أحمد عز الدين

العصور الجديدة

إهــداء

إلى صلاح الدين وريـم أحمد عز الدين
الذين تحملا مشقة هـذه الرحلة

مدخل ضروري في المحاولة والمنهج

أربعة عشر شهراً أو يزيد، وأنا مُستوعب تماماً، فى ثنايا أوراق مصطفى النحاس، فى حكاياتها ووقائعها ووجوهها ومناخها، بانشداده، وتوهجه، وخصوصيته...

أربعة عشر شهراً أو يزيد، وأنا أعاشر حروفها، واتنسم روائحها، وأتصنت على أصواتها، ويخيل إلىَّ بعد سفر طال فى تلافيف هذه التواريخ، أن السماء كانت أعلى، وأنها كانت أكثر زرقة، وكأن الملائكة كانت تغسلها فى الليل، كل يوم!

بل أكاد أبصر حد التلامس، أن كل شىء قرب منابعها يبدو رائقاً وصافياً... فمن هنا تبدأ كل الظواهر... تبدأ متدفقة كأنها خيوط ماء لكنها سرعان ما تتحول إلى ينابيع وجداول، ثم تنحدر إلى ترع ومصارف ثم تتقاطع فى نهيرات، قبل أن تتصل وتتجمع فى بحار لجيّة تغشى وجوهنا بالعواصف والأنواء، قرب الشاطئ الأخير لقرن يؤذن بالأفول.

وسواء تحدثنا عن الثنائية بالمعنى الفكرى، أو عن المصالحة مع الغرب بالمعنى الثقافى، أو عن تيار العنف ونزيف الدم، وروافده فى البنية الفكرية الاجتماعية.

وسواء وقفنا عند تداخل مفهومى الحكومة والدولة أو السلطة والدولة فى الممارسة العلمية، أو عند عمليات ترويض الإدارة، واستئناسها ثم تضخمها، وبروز بيروقراطيتها بعد ذلك.

وسواء تحدثنا عن التطور أم العصرية أم عن التغريب، أم الأصولية، فسوف نجد الينابيع رائقة وصافية عند البواكير، ولذلك نستطيع أن نمسك بالأسباب والعلل قبل الجذور. لأن الخرائط مفتوحة، تعين على السير الآمن، والتتبع اليقظ، والرؤية العميقة، قبل أن تتلبد الآفاق، وتتصادم الغيوم.

فى تربة هذه السنوات تستقر البذور التى كانت قابلة للإنبات، والتى أعطت حصاداً اتصل، وظلاً اتسع، ونبض حياة عاش، كما تستقر أيضاً - بذور هجينة - أعشبت الأرض الطيبة - حيث شاءت أن تنبت - بالقش والرماد!

فمن هنا تبدأ قناطر التحول الفكرية قبل السياسية، ومن هنا يولد كل شىء جنينى التكوين، غض الأهاب، ثم يكبر، ويعبر مرحلة إثر مرحلة - وقد يصل الى الشيخوخة ولكنه لا يموت أبدا . ربما ليبق شاهداً على عصر مضى، أكثر من كونه لافتة لعصر سوف يجىء .

نعم إنه ربع قرن من الزمن ولكنه الرحم الذي أنجب معارك نصف قرن أو يزيد، بمسارحها وصراعاتها، وتناقضاتها، بطبقاتها التي ولدت، وصعدت وسقطت من حالق، بأبطالها المشبعين بدراما الحياة، هؤلاء الذين يبدون عبر مساربها، وكأنهم خرجوا مغسولين في ندى الفجر من متحف التاريخ .

لقد عاشرت هؤلاء الأبطال، أكلت خبزهم، وشربت ماءهم، واستحليت أحلامهم رغم أنها

كعصافير «بول ايلوار» (تغزل قبعات أكبر من رؤسها) .

يبقى لهؤلاء الأبطال أنهم تمسكوا بأحلام كبيرة لم تستطع القضبان والجدران أن تقص أجنحتها فحلقت في آفاق مفتوحة وعالية.

حلموا بإرادة وطنية مستقلة، رغم أن جسد وطنهم ذاته كان مضرجاً بالدم تحت حراب إمبراطورية كبرى، خرجت من أتون حرب عالمية، تقود الظاهرة الاستعمارية، وتدفع قطعانها الجائعة في العالم كله.

حلموا بمجتمع حر وعادل - في ظل نظام ملكي فاسد وآسن، وإن كانوا هم أنفسهم قد أسهموا في سد مجرى تطوره الليبرالي، بما ألقوه فيه من أحجار.

حلموا بمثل أخلاقية عليا في كل صنوف الحياة، رغم أنهم كثيراً ما سقطوا في صدام عدائي مفترس مع هذه المثل، حين طالت المصالح الذاتية - وضيّقت عليها الخناق.

بل إنهم قبل ذلك قاتلوا في مناخ دولي كان يصدر في تصرفاته عن مؤاخاة للظاهرة الاستعمارية وعن دفاع مجيد عنها، وكأنها واحدة من أقانيم الحياة.

من هنا تمر المرحلة كلها أمام أعيننا، وكأنها دورة الدم في أنابيب من زجاج ونستطيع بالتالي أن نلتقط آلاف الصور لمدرسة الليبرالية المصرية، مولداً مأزوماً. وشباباً خاطفاً، وشيخوخة مبكرة، ونستطيع أن نرى دالة ذلك في كل الهياكل المجتمعية الهشّة.

لقد كانت تراتبية الكساد الاقتصادي، دالة واضحة على تراتبية الاستغلال والقهر والقسوة، ثم العنف وانفجار شريان الدم.

يهبط الكساد والقهر من أعلى، وتضيق حلقاته كلما ازداد نزولاً على سلالم المجتمع، قبل أن يخنق المارة في الشوارع، ويزهق أرواحهم بيدين قويتين.

وكما يهبط الكساد والقهر من أعلى، يصعد العنف والصدام من أسفل، وتتبدل صور الأحلام الليبرالية الزاهية الى قصاصات ورق ملون، وتبدو الصورة ونقيضها في حالة عناق أبدي، أو قل خناق أبدي.

وسوف يمكننا أن نعرف وأن نبصر، كيف يمكن أن يولد مفهوم تسلطي كامل في التطبيق، من منظومة فكرية تخلع على نفسها أزهى ثياب الديموقراطية والحرية.

وسوف يمكننا أن نعرف وأن نبصر كيف يمكن لتيارات سياسية ترتبط فى دعواها بأوسع قاعدة جماهيرية، أن تغلق على نفسها أبواب خياراتها المفتوحة، وتنتهى إلى دوائر مغلقة، تنقسم على نفسها مرة بعد أخرى لتتشبع الصورة الليبرالية بالتسلط. والمصلحة، والانكفاء على الذات،، ولتنتهى فى التطبيق إلى أحد مشهدين مكررين:

«ليبرالية متوحشة» فى مقاعد السلطة، أو «ليبرالية ملوثة» تحاول القفز فوق تلك المقاعد ذاتها. بينما يبقى الزاد الاجتماعى الجديد داخل خلايا المجتمع ماض فى تعريف نفسه، بالقوة الجبرية.

وكما أنه ليس صحيحاً – كما يقول هيجل – أن نحكم على مرحلة فى التاريخ بما تقوله عن نفسها. فإنه ليس صحيحاً – أيضاً – وبالقدر نفسه أن نحكم عليها خارج سياقها، وظروفها، وخصوصيتها.

لذلك كان منطوق السؤال الذى كابدت منذ البداية للبحث عن إجابة عملية له، يقول:

كيف يمكن بناء قواعد ارتكاز من مذكرات النحاس التى تطول ربع قرن من الزمن المصرى والعربى الحافل والهادر، لخلق صورة مركبة ومكبرة ومكتملة الأبعاد لمسيرة ذلك الزمن، وليس مجرد صورة تجريدية أو تذكارية للأشخاص والأوضاع تقطع التراكم الدرامى التاريخى من سياقه وتفصل النتائج عن مقدماتها، والظواهر عن جذورها وأسبابها؟

وكانت الإجابة العملية كما يلى:

أولاً: لقد استخلصت من المذكرات كل حرف نابض دون أن أتسبب فى جرح جملة فيه، أو أن أفسد نسقًا لغويًا متصلاً، أو أن أقطع غصن مشهد أو موقف.

وباليقين فقد تم ذلك دون لىّ عنق النص الأصلى، ثم دون إضافة إليه، ذلك أنه لم يصدر عن منهج انتقائى يعمد إلى توظيف ما يريده فى خدمة ما يراه، وإنما صدر عن منهج موضوعى، يقصد ابتغاء وجه الحقيقة التاريخية وحدها.

ثانيًا: لقد امتحنت كل مشهد منتقى بجمله وكلماته وحروفه فى ضوء كل ما توافر من وثائق ومذكرات وشهود وكذلك كل ما صدر من كتابات لمؤرخين ومؤلفين مصريين وأجانب.

وباختصار فقد ضاهيت النص الأصلى أو ما مثله، بكل ما صدر عن المرحلة مكتوبًا أو منقولاً، وثبّت فى النهاية مصادر الاتفاق أو الاختلاف وأسباب أي منهما.

وبذلك توافرت للمشهد الواحد أو الموقف الواحد رؤيتان مكتملتان على ما بينهما من تطابق أو تباين أو تناقض، إحداهما لصاحب المذكرات، والثانية لجماع ما أحاط بها من رؤي وآراء.

ثالثًا: لقد عمدت إلى التوقف الطويل أمام ما يمكن أن يطلق عليه «المسكوت عنه» فى المذكرات، (والمقصود به جل الوقائع التاريخية سياسيًا واجتماعيًا وفكريًا المتزامنة مع أحداث المذكرات والتى أوصدت الباب دونها ولم نسمح لها بالدخول) وهو منهج لا أدعي نسبه فقد بات شائع الاستخدام فى بعض مدارس علم الاجتماع الغربية، ولكننى أدعي أنه

كـان الأقـدر على إضـاءة أفق أكمل فى تلك المرحلة الطويلة، لدمج الصـور والمشـاهد فى نسيجها الحي، إنسانيًا وثقافيًا واجتماعيًا وتاريخيًا.

ويتبقى بعد ذلك السؤال: ما الهدف من ذلك كله؟

وليس الهدف هو البحث عن مصالحة فى التاريخ بين ظواهر أو تيارات سياسية أو فكرية تتواجه أسلحتها الثقيلة فوق الأرض الآن.

وليس الهدف هو البحث عن صيغة «توفيقية جديدة» محاكاة لتيار الإبداع والاستنارة والعقلانية الذي ساد بواكير القرن. وليس الهدف هو محاولة استخلاص إجابة عن سؤال كبير معلق هو: أي ميراث نجحد؟ لأنه ثبت باليقين أن ما نجحده كامن حد الاندماج فينا.

إن الهدف كما أراه يتلخص فى إعلاء منهجية المراجعة النقدية في كل جوانب حياتنا الفكرية والسياسية على السواء، فدون هذه المراجعة النقدية سنظل أسرى حالة السلفية الفكرية، أيًا كانت صورها أو ملامحها.

لقد ظللت سجين هذه الأوراق وقتًا طويلاً ولكنني كنت فى سجنها أكثر حرية. فقد فضضت أثواب الأسطورة واحدًا بعد الآخر، وتطلب مني الأمر أن أعيد النظر مرات، حتى لا يرتدّ البصر إليّ خاسئًا وهو حسير، لأنني أرى أن من حق الأجيال الجديدة ألا تستسلم لما يمكن أن يفرضه منطق الأساطير، أيًا كانت، وهجًا أو إشعاعًا، أو جنوحًا عاطفيًا!

وبعد...

فتلك المراجعة النقدية «لتجربة مدرسة الليبرالية المصرية»، هي جزء من مشروع أكبر، أراه ضروريًا ولازمًا لمحاولة الالتحاق – ولا أقول اللحاق ـ بالمستقبل.

أحمد عز الدين

مقدمة ثانية

بقلم: محمد كامل البنا

هذه المذكرات هي تاريخ لفترة من أخطر فترات التاريخ، لا على الصعيد الداخلي المصري فحسب بل على الصعيدين الداخلي والخارجي زهاء ربع قرن من الزمان، جرى فيه من الأحداث والوقائع ما لا يعلم عنه هذا الجيل شيئًا، ولا يكاد يعرف عنه قليلاً أو كثيرًا مما جرى فيه.

هي خلاصة وافية وسرد دقيق لما جرى على الساحات المصرية والعربية والخارجية من أحداث أخذ بعضها بزمام بعض، ومتصلة وقائعها اتصالاً وثيقًا بالتاريخ العالمي في فترة من أدق فتراته، قلما يعرف عنها أبناء هذا الجيل شيئًا بل على الضد لقد كتب الكاتبون وقال من لقبوا أنفسهم بالمؤرخين أو الباحثين أقوالاً اخترعوها من تخيلاتهم، أو نقلوها عن أقوام مضللين مزيفين، يدعون أنهم على علم بالحقائق والأحداث، والحق والواقع منهم براء.

لقد عرفت الزعيم الخالد الذكر مصطفى النحاس في مطلع شبابي منذ أن تولى رياسة الوفد المصري وزعامة مصر خليفة للمغفور له الزعيم العظيم سعد زغلول.

ومنذ ذلك التاريخ لازمته ولم أفارقه لا في سفر ولا في حضر، ولا في شدة ولا في رخاء، ورأي الرجل ببصيرته النفاذة أني أحبه من أعمق الأعماق، وأتفانى في حبه من شغاف القلب، فقربني إليه، حتي أصبحت ملازمًا له في غدوه ورواحه، وسفره وحضره وشدته ورخائه، وحتى عرف خلصاؤه وأخصاؤه، أني منه بمنزلة الولد البار لأبيه الحدب العطوف.

وكان كلما أراد نشر شيء أو تدوين أمر يتعلق به أملى علي ما يريد فأنقله بأمانة، وأحافظ عليه ككنز ثمين.

وازدادت ثقته بشخصي حتى لقد أطلق أقرب الناس إليه، وألصقهم به أني موضع ثقته وموطن سره ومكان بره وعطفه، وحتى لقد كانوا ينقلون عنه قوله إن أربعة أشخاص موضع ثقة النحاس ويذكر اسمي في طليعتهم ... ولقد لقيت بسبب هذه العلاقة عنتًا كبيرًا، وقبض علي وأودعت المعتقلات والسجون أكثر من مرة فكان ينهض مدافعًا عني آمرًا كبار المحامين بأن يترافعوا لصالحي ويحاولوا إطلاق سراحي.

وإن أنسى لا أنسى أنه قبض علي ذات ليلة - وكانت ليلة عيد الفطر - بحجة إني خالفت المطبوعات وطبعت خطبة للزعيم هاجم فيها الإنجليز، وندد بتصرفاتهم ووزعت هذه الخطبة على أبناء الشعب برغم أن الحكومة منعتها، فغضب لهذا التصرف غضبًا شديدًا واتصل بالحاكم العسكري ورئيس الوزراء (حسين سري) وظل طيلة ليله سهران أرقًا حتى أطلق سراحي، ولم يطمئن إلا بعد أن ذهبت إليه وقابلته، ومن المصادفات أنه كان مقررًا أن يسافر إلى بلدته (سمنود) ليزور قبر والديه على عادته، وكنت سأصحبه كما تعودت فألغى

السفر واعتذر عن زيارة بلده لأني معتقل، وهكذا وهكذا أحداث ووقائع تجل عن الحصر والعد إذا حاولت أن أسردها أو أعددها.

ومن أجل ذلك وقع نبأ وفاته عليّ كالصاعقة وسرت في جنازته أهذي كالمجنون وكان ما كان من القبض على عدد كبير من المشيعين الذين ضاقت بهم الطرقات وقد رثته الصحف الأجنبية بمئات الألوف لأن الصحف المصرية منعت من ذكر كلمة عنه إلا أنه مات فقط.

ومنذ أن انتقل إلى الرفيق الأعلى أخذت أفكر وأقدر وأحاول أن أخلد ذكرى هذا الزعيم العظيم بأي وسيلة من الوسائل، فهداني تفكيري بعد ردح طويل من الزمن أن أنشر ما أملاه علي من أسرار سياسية داخلية وخارجية ليعلم أبناء العروبة مع المصريين وأبناء الإسلام مع الشرقيين شيئًا طفيفًا عن أعمال ذلك الرجل الذي قالت الإذاعة البريطانية عنه إنه على الرغم من أنه ظل طيلة حكم ٢٣ يوليو بعيدًا عن الأضواء لا يذكر اسمه ولا يتحدث عنه فإن الألوف المؤلفة خرجت لتشييع جنازته وقدر بعض مندوبي وكالات الأنباء الأجنبية عدد المشيعين بما يقرب من مليون شخص، فقد وصل النعش إلى مسجد الإمام الحسين للصلاة عليه والمشيعون يملؤون شارع الأزهر وشارع قصر النيل حتى لا يرى طيلة هذه المسافة موضع لقدم.

أخذت أفكر كيف أجمع بعض آثار هذا الزعيم العظيم فرجعت إلى ما أملاه عليّ وكنت مبالغًا في الاحتياط أدونه على هوامش الكتب الدينية التي في مكتبتي احتياطًا لما كان يجري من تفتيش لمسكني من آونة لأخرى والاستيلاء على أوراقي ومذكراتي، ومن حسن الحظ أن زوار الليل الذين كانوا يهاجمون منزلي لم يعثروا على ما كان مدونًا على هوامش تلك الكتب.

ظللت أنقل ما أملاه عليّ وأربط أحداثه ببعضها البعض حتى استطعت أن أرتب وقائع سنين طويلة كيوميات فلما كثرت الوقائع اضطررت اضطرارًا إلى أن أذكرها غير مرتبة بحسب وقوعها ولكن بقي أن ألقي دليلاً ولو ضعيفًا أستطيع أن أثبت به أن ما لدي هو إملاء الزعيم بالرغم من أن الوقائع التي ذكرتها لا يعرفها أحد إلا صاحبها ... وكدت أعدل عن إتمام هذا العمل التاريخي الذي أرى أنه أمانة في عنقي لرجل قربني إليه ووثق بي، وائتمنني على أسراره السياسية ... ولكن الله جلت قدرته وتعالت عظمته أتى إليّ بالدليل المادي وأرشدني إلى ما يثبت صدق ما أقول، فقد عثرت في أوراقي على كراسة كلها بخط الزعيم وهي عبارة عن نوتة عليها شعار فندق سان استفانوا الذي كان يقيم فيه أثناء الصيف كل عام وهي مؤرخة عام ١٩٣٢ قرأت هذه الكراسة وقارنت بينها وبين ما كان يمليه عليّ وما رتبته فجاءت مطابقة تمام الانطباق فسجدت لله شكرًا إذ قيد الله لي بالعثور على تلك الكراسة أن استأنفت ما بدأت، وأن أتفرغ بمشيئة الله تعالى لتدوين مذكرات النحاس بأمانة ودقة، كما علمني وكما كان معروفًا عنه من صراحة وصدق.

وبدأت هذا العمل في عام ١٩٧٢ فجمعت ما لدي وفرغته في كراسات ثم أخذت أراجع ما جاء فيها وكنت كلما رأيت حادثة وقعت في بلد من البلاد أو مع شخص أو أشخاص

بادرت بالسفر إلى تلك البلد ومقابلة ذلك الشخص إن كان حيًا أو أحد من أقربائه وأهله إن كان قد انتقل إلى رحمة الله، واستغرق هذا العمل مني أحد عشر عامًا كاملة، إذ انتهيت منه في عام ١٩٨٣ ومن أمثلة ذلك: اني قرأت فيما أملاه على الزعيم أن الجنرال كاترو حاكم لبنان قد اعتقل رئيس الجمهورية بشارة الخوري ورئيس وزرائه عبد الحميد كرامي. وإن الجند قد اعتقلوا كرامي ونقلوه إلى المعتقل بملابس النوم، وأن النحاس قد هدد الجنرال كاترو بأنه إذا لم يطلق سراح رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء فستؤمم مصر مصالح الفرنسيين في مصر، وستصادر جميع أملاكهم - وكان النحاس إذ ذلك رئيسًا للوزارة - وفعلاً خضع الحاكم الفرنسي وأطلق سراح المعتقلين ... ولقد سافرت إلى لبنان وقابلت رشيد كرامي في طرابلس وسألته عن هذه الواقعة فأجاب بما يطابق ما في المذكرات ... ومن ذلك أني قرأت نبذة عن إنشاء دولة باكستان ملخصها أن السيد محمد علي جناح زعيم المسلمين في الهند جاء إلى النحاس يشكو من اضطهاد الهندوكيين للمسلمين وإعمال القتل فيهم وطلب إليه بصفته زعيمًا للبلاد العربية وصديقًا شخصيًا لجواهر لال نهرو حاكم الهند إذ ذاك أن يتدخل وأن النحاس نصح جناح بأن يتفق مع الهند حتى يفوت على المستعمرين الإنجليز الفرصة من جراء تفريق هذه الدولة إلى هندوك ومسلمين، ولكن جناح قال له لا أستطيع أن أتفق مع نهرو لأن الهندوك يقدسون البقرة، ويتبركون بروثها، ونحن نذبحها ونأكلها، فرد عليه النحاس باقتراح عملي هو أن تتجمع البلاد الإسلامية في الهند تحت راية الإسلام وتستقل عن الهند وأشار إليه أن يأخذ الحرف الأول من كل بلد إسلامي وتتجمع من ذلك سبعة أحرف سميت الدولة الجديدة باسمها فكانت باكستان ... ولم أكد أقرأ هذه النبذة حتى سافرت إلى باكستان وقابلت أحفاد محمد علي جناح فأخبروني بما طابق ما تحت يدي من المذكرات ... كذلك قرأت عن الخلاف الذي وقع بين مصر والأردن عند إنشاء الجامعة العربية بشأن معاهدة الضمان الجماعي والخلاف الذي وقع بين المملكة العربية السعودية ومصر بشأن المحمل والاحتفال به وسافرت إلى هاتين المملكتين وتحريت حتى اقتنعت بأن ما لدي يتفق مع الوقائع ... وهكذا ظللت أنتقل من بلد إلى بلد ومن دولة إلى دولة أخرى خلف الحقائق حتى اقتنعت بصحة ما تحت يدي، وكذلك ذهبت إلى لندن واطلعت على وثائق معاهدة ١٩٣٦ بالتفصيل.

ولقد صادفني أثناء سفري إلى تلك البلاد وتحرى الحقائق والدقة في معرفة التفاصيل حادث طريف، ذلك أني قصدت إلى لندن لأطلع على وثائق ٤ فبراير ١٩٤٢ الذي طبل خصوم النحاس وزمروا وكرروا واخترعوا الأقاويل والأحاجي أن فوجئت بأن ما في المتحف البريطاني عن هذه الواقعة لا يساوي إلا نذرًا يسيرًا بالنسبة لما لدي من وقائع، وما تحت يدي من وثائق لأني أنا الشخص الوحيد الذي رافقت النحاس في هذا الحادث من مبدئه إلى نهايته خطوة بخطوة.

ولا أريد أن أطيل في ذكر تفصيلات ما صادفني إبان سعيي وراء الحقائق، بغية أن أرضي ربي وضميري، وأن أكشف مؤمرات المرتزقة والمأجورين ومدعي العلم ببواطن الأمور، والله يعلم أنهم لمخترعون مدعون.

وبعد أن جلت كل هذه الجولات وسافرت إلى مختلف البلاد والدول واسترحت إلى أن ما سأقوم به سيكون خالصًا لوجه الله ومصححًا لكثير من الوقائع التاريخية التي زيفها المغرضون، ونسج خيالها الدجالون، بعد كل هذا صح مني العزم على أن أتفرغ لتدوين هذه المذكرات، إنصافًا لرجل لم يسلم حتى بعد موته، من حقد الحاقدين، وكيد الكائدين ولكي يعرف جيلنا هذا والأجيال القادمة من هو مصطفى النحاس، وهل كان يمالئ الإنجليز كما اتهموه أم كان وطنيًا شريفًا محبًا لبلده، مضحيًا بكل رخيص وغال في سبيل رفعته ومجده.

سيعلم كيف عرض على النحاس أكبر المناصب، وأعظم الرياسات في سبيل التساهل في حق من حقوق الوطن ... وسيعلمون كم حورب في رزقه وأوذي في شخصه، ونسب إليه من الأكاذيب ما لا قبل لأحد باحتماله، ولكنه تقبل كل ذلك في سبيل مصر ورفعتها ورفعة البلاد الإسلامية والعربية جميعًا.

أما بعد،،،،

فهذه مقدمة مختصرة جدًا عما تحتويه هذه المذكرات، وقد تعمدت إهمال وقائع مثيرة وحوادث خطيرة، حتى لا أفوت على القارئ الاستمتاع بالتاريخ الصحيح، والاطلاع على الوقائع الحقيقية من مصادرها دون تحيز ولا ميل لأحد ولقد أغفلت الإشارة إلى ما ذاقه النحاس وأنصاره من اضطهاد وحرب لا هوادة فيها من الملك فؤاد وابنه فاروق ومن الإنجليز وممثليهم في مصر وما فعله من أجل السودان وأهل السودان والتمسك بأن يظل التاج المصري يرفرف على ربوع وادي النيل، بل أغفلت كيف تحمل النحاس في سبيل المحافظة على الدستور والحياة النيابية الويل والثبور وعظائم الأمور من محمد محمود تارة ومن إسماعيل صدقي تارة أخرى ومن الأقليات المصرية وأحزابها ... ولم أشأ أن أدخل في سرد قصص ووقائع في هذه المقدمة حتى أترك للقارئ أن يحكم بنفسه على صاحبها بعد أن يقرأها ويستوعبها، وحسب مصطفى النحاس أن يشهد له خصومه السياسيون، قبل أنصاره بالوطنية والنزاهة وطهارة اليد واللسان ولئن فاته أن حرمت السلطات ذكر اسمه، أو نشر نعيه في الصحف بعد موته، فحسبه أن مصر كلها تحتفظ له بأجمل الذكريات وترى فيه أنه كان زعيمًا جديرًا بالتجلة والإكبار خليقًا بالإعزاز والتكريم، وأن أحدًا لم يتأثر بالأكاذيب التي نسبت إليه، وحيكت حوله وقيلت عنه، إلا طائفة من المرتزقة الذين يأكلون على كل مائدة ويسيرون وراء كل ناعق ويطبلون ويزمرون لكل ذي سلطة وذي جاه، مؤمنين بالحكمة القائلة (طالب القوت ما تعدى.)

وقانا الله شر النفاق والمنافقين وألهمنا الصواب والصدق في كل ما نقول وما نفعل والله من وراء القصد، وهو يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

محمد كامل البنا

١٩٢٧ - ١٩٢٨

المذكـــــرات

(١)

تلقيت برقية بتوقيع حمد الباسل باشا وكيل الوفد ينعي فيها إليّ سعداً ويطلب إليّ الحضور على أول باخرة تقلع إلى مصر لضرورة التشاور والبحث فى الحالة التى نشأت عن وفاة الزعيم العظيم، وقد هزنى هذا النبأ هزًا عنيفًا وبكيت ما شاء الله أن أبكي، وأخذت أفكر فى حالة البلد بعد انتقال زعيمها العظيم إلى جوار الله، خصوصًا وأن ثروت باشا رئيس الوزراء يتفاوض مع مستر (تشمبرلن) وزير خارجية بريطانيا فى المسألة المصرية، ثم أسرعت بمغادرة مصيفي، وعدت إلى العاصمة السويسرية (جنيف) وهناك التقيت بعلي الشمسي باشا وزير المعارف وعضو الوفد، وعدنا معًا إلى القاهرة فى أول باخرة أقلعت من مارسيليا ووصلنا إلى الإسكندرية.

وبعد أن زرنا ثروت باشا فى مصيفه بالإسكندرية وفتح الله بركات باشا معزين في سعد ركبنا القطار إلى القاهرة وقصدنا من فورنا إلى بيت الأمة وعند دخولنا غرفة مكتب الزعيم الفقيد استولى علينا حزن شديد وبكينا طويلاً وبكى معنا جميع الحاضرين ثم كفكفنا دموعنا وصعدنا إلى الطابق العلوي حيث قابلنا السيدة الجليلة «أم المصريين» وكانت آثار الحزن بادية عليها فقدمنا التعزية الخاصة ومكثنا عندها نحو الساعتين ثم انصرفنا والحزن يملأ قلوبنا.

عقد الوفد أول اجتماع له بعد وفاة سعد فى مكتبه... حضره جميع الأعضاء الذين كانوا فى مصر ما عدا فتح الله بركات باشا الذي اعتذر بسبب مرضه وأرسل يؤيد كل قرارات الوفد، وقد أوقفت الجلسة نصف ساعة حدادًا على الزعيم العظيم ثم انتقلنا بكامل هيئتنا إلى الدور العلوي من بيت الأمة حيث قابلنا السيدة الجليلة أم المصريين وأبلغناها عزاءنا وجددنا العهد أمامها أن نسير على مبادىء سعد ولا نحيد عنها قيد أنملة... ثم عدنا إلى الاجتماع لمناقشة الأعمال المعروضة علينا وظللنا نناقش حتى الساعة الحادية عشرة مساء ثم قررنا تأجيل الاجتماع إلى جلسة تالية.

اجتمع الوفد بكامل هيئته وأخذنا نناقش فيما يكون عليه الحال وهل يعين رئيس للوفد أو تؤلف لجنة من عدد من الأعضاء لإدارة الأعمال واستقر الرأي على أن يعين شخص واحد رئيسًا، وعرضت عليّ رئاسة الوفد فاعتذرت عنها مفضلاً أن أظل سكرتيرًا عامًا، حتى يمكنني أن أزاول مهنة المحاماة التى أتعيش منها، وقلت إنكم تعلمون أني لا أملك مالاً ولا عقارًا وأن في عنقي أسرة كبيرة أتولى شئونها، ورياسة الوفد تحتاج إلى تفرغ تام، وإلى حصر كل الجهد في خدمة القضية، وأخذت أتكلم وقد بلغ بي التأثر مبلغًا شديدًا.

وانبرى مرقص حنا باشا وقال: ما هذا الكلام الذي تقوله أنت الرجل الذي نفي إلى سيشل ورافق الزعيم في كل مراحل جهاده تعتذر عن عمل وطني بأنك فقير وتحتاج إلى أن

تعمل لتعيش وتضن على الوطن بتضحية لا تقاس بما يقدمه الشباب من أرواح وما يتعرضون له من سجن وتشريد، لقد رشحناك رئيسًا للوفد بإجماع آرائنا، ولابد أن تنزل على إرادتنا وكل عذر لك أو احتجاج غير مقبول.

ووجمت وبلغ بي الألم مبلغًا كبيرًا، حتى سالت الدموع من عيني، ورضخت لحكم الحاضرين، وصاغوا بيانًا ضمنوه رأيهم بالإجماع، ولكن أرجيء إعلانه أو نشره في الصحف حتى يعرض على حرم الرئيس الجليل أم المصريين، واتفق على أن يظل الاجتماع ممتدًا إلى الغد.

اجتمعت الهيئة الوفدية في النادي السعدي وأيدت ترشيحي بالإجماع وتبادل عدد من الأعضاء إلقاء كلمات التهنئة والتأييد وألقيت عليهم خطابًا مطولاً نشرته الصحف في أبرز مكان لها.

(٢)

ظللت أنتظر أن يعرض عليّ ثروت باشا مشروعه الذي تحدثت الصحف عنه فلم يعرضه، ولما طال الانتظار طلبت إليه أن يرسله إلينا فاعتذر أول الأمر بكثرة مشاغله الداخلية، والمشاكل التي جدت أثناء غيابه في إنجلترا وسكّت على مضض وطال الانتظار دون جدوى.

أرسل إلى ثروت باشا نص مشروع المعاهدة الذي حمله معه من انجلترا وبمجرد أن اطلعت عليه، قررت رفضه لأول وهلة لأني لم أر فيه شيئًا يحقق مطالب البلاد، ولكنني احتفظت برأيي وجمعت الوفد وعرضته عليه، وبعد مناقشته بندًا بندًا قررنا رفضه بإجماع الأراء، ونقلت الجرائد المصرية والأجنبية هذا الخبر بسرعة، فضايق ذلك ثروت باشا وتحدث في المجالس عن ألمه، وقال كان يجب أن يعرض المشروع على الهيئة الوفدية، وألا يتسرع الوفد في نشر هذا الرفض قبل أن يأخذ رأي الهيئة التي تؤيده في البرلمان.

دعوت الهيئة الوفدية إلى الاجتماع وعرضت عليها المشروع، فارتفعت الأصوات عالية برفضه، ولم يشذ واحد عن هذه الرأي

بدأت المساومات في قبول مشروع ثروت-شمبرلن فلقد أرسل إليّ ثروت باشا بعض الأصدقاء ليحدثوني في هذا الخصوص، ويشرحوا لي فوائد المشروع، حدثني أمين بك واصف وهو صديق حميم لثروت باشا، فقلت له إن هذا المشروع ليس فيه أي مزايا تدعو إلى قبوله وأنه لا فرق بينه وبين تصريح ٢٨ فبراير الذي اعترف بإلغاء الحماية من ناحية ونفذها الإنجليز عمليًا من ناحية أخرى بتدخلهم في كل صغيرة وكبيرة من شئون البلد.

ولم يكتف ثروت باشا بهذا بل أرسل إلي رسلاً آخرين غير أمين بك واصف منهم زكي أبو السعود باشا وهو رجل أقدره وأحترمه وأخذ يناقشني في المعاهدة بندًا بندًا ولما اطلع على وجهة نظرنا ورأى أن المعاهدة لا تحقق شيئًا من برنامجنا اقتنع وانضم إلينا في

الرأي وأبلغ ثروت باشا ما قلته له.

ثم أخذ الإنجليز من ناحيتهم يبعثون إلي ببعض أصدقائهم ليحاولوا إقناعي بقبول المشروع تارة بالتلميح بقوة إنجلترا، ومنزلتها بين الدول، وتارة أخرى بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وإننا بلد ضعيفة لا نملك من أمرنا شيئًا، وإن شيئًا خير من لا شيء، وهذا المشروع مقدمة لا بأس بها للاستقلال فلنقبله ونطالب بالباقي، ولكني صممت على موقفي وقلت لمن حدثني في هذا الخصوص إن الأمانة التي تركها سعد، والتي انتخبني إخواني خليفة له من أجلها لا يمكن أن أفرط فيها حتى آخر نفس من الحياة، وقد خلقنا للجهاد، ولن نضع الراية من أيدينا حتى ننال حقنا - كما قال لنا سعد ونحن في المنفى- أو نموت كرامًا في سبيله.

(٣)

بدأت مساومات جديدة، ولكن من ناحية القصر الملكي فقد حدثني نجيب الغرابلي باشا بأن بعض رجال القصر كلموه بشأن تمثيل حزب الاتحاد، ولو بوزير واحد حتى تكون الوزارة شاملة لجميع الأحزاب عند تشكيلها وقد رددت عليه بأني لم أكلف رسميًا بتأليف الوزارة حتى أبحث في التفصيلات وحتى لو خوطبت وقبلت وهذا كله سابق لأوانه فإني لن أقبل بحال من الأحوال أن يمثل حزب مات في طفولته واندثر ووارى التراب من أول نشأته.

كان الحديث رسميًا وغير رسمي عن أن الوزارة ستعرض على الوفد في القريب العاجل، وأنها ستكون إئتلافية من الوفديين والدستوريين كما كانت في عهد ثروت باشا، ولما كثر الحديث وأخذ صبغة شبه رسمية دعوت الوفد للاجتماع.

اجتمع الوفد في مكتب الرئيس سعد ببيت الأمة، وعرض علينا رسميًا تأليف الوزارة برياستي فعرضت وجهة نظري على إخواني، وقلت لهم إني أفضل أن أظل خارج الحكم واكتفي برياسة مجلس النواب وأن يتولى الوزارة واحد منكم فقد سبق أن اعتذرت أكثر من مرة عن عدم الدخول في الوزارة ولي أسوة حسنة بسعد فقد ظل يراقب الحكومة من الخارج ويوجه سياستها منذ أن أرغم على الاستقالة في نوفمبر ١٩٢٤ عقب مقتل السردار.

فقال الزملاء إن سعدًا أرغم على التنحي عن رياسة الوزارة أما أنت فلن يستطيع أحد أن يرغمك وإذا كنت لا تقبل الرياسة فلن يشترك أحد منا في وزارة ونترك الأمر للملك يلعب بالبلد كما يشاء واتفقنا على عرض الأمر على الهيئة الوفدية.

اجتمعت الهيئة الوفدية، وتناقشنا في موضوع تأليف الوزارة برياستي فاجتمعت الآراء على أنه لا يجب أن أتخلى عن هذا الواجب، وأنه لا يوجد شخص آخر يستطيع أن يواجه الموقف في الداخل والخارج غيري، فرضخت للأمر.

تلقيت من الملك فؤاد أمرًا ملكيًا رقم ١٤ لسنة ١٩٢٨ بتكليفي بتأليف الوزارة "نظرًا لما

يعهده فيّ من الوطنية وحسن تصريف الأمور."

اجتمعت بهيئة الوزارة المستقيلة واتفقنا على تشكيل الوزارة، وأرسلت للملك خطابًا بقبولي هذا العبء مختارًا في هذه الظروف الدقيقة التي تجتازها البلاد، واحتفظت مع رياسة الوزارة بوزارة الداخلية واخترت من الدستوريين جعفر والي باشا للحربية، ومحمد محمود باشا للأشغال، كما اخترت من الوفديين واصف بطرس غالي للخارجية ومحمد نجيب الغرابلي باشا للأوقاف وعلي الشمسي باشا للمعارف العمومية، ومحمد صفوت باشا للزراعة، ومكرم عبيد للمواصلات.

وصدر المرسوم الملكي في نفس اليوم بالموافقة.

وكانت أول مشكلة صادفتني وأعرتها اهتمامًا كبيرًا هي تعيين شيخ للأزهر الشريف إذ كان المنصب شاغرًا كما كان منصب مفتي الديار المصرية كذلك شاغرًا فأخذت أفكر فيمن نعينه شيخًا للأزهر يسير به في طريق الإصلاح، والتطور الذي تنتظره البلاد الإسلامية من هذا المعهد العتيد، وهداني التفكير إلى أن أدعو بعض العلماء المعروفين بالاستقامة والنزاهة والعلم لمناقشتهم.

استدعيت المشايخ محمد العدوي أحد علماء الأزهر ومحمد البنا القاضي أحد خريجي مدرسة القضاء الشرعي والقاضي بالمحاكم الشرعية وعبد العزيز الخولي المدرس بالقضاء الشرعي ومحمد أبو زيد من العلماء وتحدثت معهم فيمن يصلح شيخًا للأزهر فرشحوا الشيخ محمد مصطفى المراغي، ماعدا الشيخ البنا الذي رشح الشيخ حسنين مخلوف وقال حين سألته لماذا، أجاب إن الشيخ مخلوف كان وكيلاً للأزهر في عهد الخديو عباس والسلطان حسين وفصل ظلمًا وهو عالم فاضل فقلت إن كثيرًا من الوفديين وعلى رأسهم أم المصريين يرشحونه ولكني لا أنظر في هذا المنصب بالذات إلى الحزبية خصوصًا وأن الملك قد يرفض ترشيحه بحجة أو بأخرى فمن ترشح غيره فأجاب إن لم يكن الشيخ مخلوف فالشيخ المراغي.

اقتنعت برأي الأزهريين الذين حدثوني بشأن ترشيح الشيخ المراغي شيخًا للأزهر، ولكني أردت أن التقي به لأفهم ماذا هو فاعل إذا تولى هذا المنصب، وعلمت أنه صديق لحمدي بك سيف النصر عضو الوفد وأنه يلتقي به في حلوان لأنهما متجاوران فاتصلت بحمدي وأخبرته إني سأزوره وأريد أن أرى الشيخ المراغي واجتمع به دون أن يعلم، وكأن المصادفة هي التى جمعتنا واتفقنا على اليوم التالي.

قصدت إلى حلوان واستقبلني حمدي سيف النصر ومعه الشيخ المراغي وبعض الزوار وبعد قليل دعوت الشيخ المراغي للتحدث معه فأخذ يحدثني بحديث منسق مرتب معه فأدركت في الحال أن حمدي قد أخبره بحضوري، ولكني سألته عن رأيه في تطوير الأزهر وإصلاحه وتماشيه مع الظروف فرأيت منه استجابة واستعدادًا للتماشي مع الزمن والنهوض به نهضة تليق بماضيه فودعته وقد عقدت النية على ترشيحه للمشيخة.

طلبت مقابلة الملك فحدد لي ظهر اليوم وقابلته وعرضت عليه تعيين شيخ الأزهر فقال عندي رجل صالح جداً وعالم كبير فقلت من؟ قال الشيخ الأحمدي الظواهري فأجبته إنه رجل ملتو وجامد ولا يصلح لما نرجوه للأزهر من تقدم فقال: من ترشح إذن؟ قلت الشيخ المراغي قال لا لا إنه رجل يحب الطفرة فأجبت ومهمة رئيس الوزراء الذي يتبعه هذا المنصب أن (يمسك السرع) فلم يوافق، وسألني عمن أرشح للإفتاء فقلت الشيخ عبد المجيد سليم فقال لا مانع عندي فأجبت نرجئ الأمر حتى ننتهي في المنصبين.

كثرت الشكاوى من تصرفات الوزراء الدستوريين وكانت تأتيني شكاوى من القضاة بأن وزير الحقانية ينقلهم إلى أماكن سحيقة لأنهم وفديين برغم كفاءتهم وكذلك الشكاوى من الفلاحين والمزارعين من أن وزير الأشغال يحابي الدستوريين علانية فيغدق عليهم مياه الري ويحرم منها الوفديين. أما شكاوى الموظفين من تصرفات محمد محمود باشا في المالية، وجعفر والي باشا في الحربية فكانت كثيرة ومتشعبة وحاولت بالحسنى أن أنبههم إلى أن هذا غير لائق فكنت ألقي منهم ردوداً غير لائقة، وعنفاً في الحديث لا يصح أن يكون بين الزملاء ولكنني سكت على مضض.

قابلت الملك مرة أخرى وعرضت عليه مسألة تعيين شيخ للأزهر فأصر على تعيين الظواهري وأصررت على تعيين المراغي، ولما اعترض قلت له إن المراغي ليس وفدياً، ولكنني أريد للأزهر الإصلاح ولا تهمني الحزبية في هذا الصدد ولكنه أصر على رأيه.

عرضت على مجلس النواب قانوناً بإباحة الاجتماعات دون قيد ولا شرط ودون إذن من وزارة الداخلية كما هو متبع الآن لأنه لا يليق بوزارة الشعب أن يقيد في عهدها الشعب، ويحرم من أن يجتمع كما يريد ويعبر عن رأيه حسبما يشتهي، ولم يكد يعلن عن تقديم المشروع للبرلمان حتى قامت قيامة دار المندوب السامي، وتدخلت تدخلاً سافراً، وطلب اللورد جورج لويد صراحة أن أسحب هذا القانون من البرلمان فرفضت.

قابلت الملك مرة أخرى وحدثته بشأن تعيين الشيخ المراغي شيخاً للأزهر فرفض للمرة الثالثة فصممت على ألا أفاتحه في هذا الموضوع مرة أخرى، وأن أترك المنصب شاغراً حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

اتصل بي توفيق نسيم باشا وطلب إلي أن أرسل الأمر الملكي بتعيين المراغي شيخاً للأزهر وعبد المجيد سليم مفتياً للديار المصرية فدهشت ما الذي غير رأي الملك ولكن سرعان ما انكشف الغطاء.

بعد تعيين الشيخ المراغي شيخاً للأزهر جاء لزيارتي وأخبرني أنه لما قابل الملك ليشكره قال له لا تشكرني لم آت بك بل اشكر النحاس باشا لأنه هو الذي أصر على تعيينك، ثم علمت بعد هذا أن المندوب السامي هو الذي أرغم الملك على تعيين المراغي شيخاً للأزهر.

أخذت المجالس المختلفة تلغط بالخلاف الدائم بين الوزراء الوفديين من جهة وزملائهم الدستوريين من جهة أخرى، بل تعدت الأحاديث حول أن الوزراء الدستوريين كانوا

يجاهرون بالطعن في الوزارة ورئيسها علانية وأعلنوا انهم سيستقيلون منها ولن يباشروا أعمالهم.

امتنع محمد محمود باشا عن الذهاب إلى الوزارة بحجة أنه مريض وأنه ملازم الفراش واستفسرت عن صحته، وكلمته متمنيًا له الشفاء، والعودة سريعًا إلى العمل فكان جوابه أن مرضه طويل مزمن، وأنه لن يستطيع أن يباشر مهام الوظيفة وأنه سيبعث إليّ استقالته وقرن القول بالعمل وأرسل إلي كتاب استقالته محتجًا بالمرض وضعف الصحة.

تلقيت كتابًا من إبراهيم فهمي كريم بك وزير الأشغال بالاستقالة لأنه هو كذلك مريض بالمصارين ويحتاج علاجه لوقت طويل، واتصلت به متمنيًا له الشفاء وطلبت إليه العدول عن الاستقالة وليأخذ إجازة طويلة يستريح فيها ويعالج ولكنه أصر.

تلقيت استقالة ثالثة من أحمد خشبة باشا وزير الحقانية بحجة المرض أيضًا. جاءت استقالة رابعة من جعفر والي باشا فانكشف المستور وبان الخبيء، وقبلت الاستقالات الأربع وفكرت في أن أملأ الأمكنة الشاغرة بوزراء وفديين وأن أفض هذا الائتلاف وأنتهي منه ومن دسائسه وبعثت إلى الملك بهذا فرفض أن يعين خلفًا للمستقيلين.

على الرغم من احتجاج دار المندوب السامي علانية على قانون الاجتماعات الذي قدم إلى مجلس النواب لكني أصررت على نظره وبقيت أطلب إلى اللجنة التي تبحثه أن تعمل في تقديم تقريرها إلى المجلس لنظره، واجتمعت اللجنة عدة اجتماعات ووضعت تقريرها مدعمًا بالأدلة والأسانيد الدستورية والقانونية، وأيدت هذا القانون وقدمته للمجلس لتحديد جلسة لنظره، فهاجت دار المندوب السامي وماجت وأرغت وأزبدت، وأعلنت أن هذا القانون إذا نظر فسنفعل ونفعل ولم التفت لهذا كله، بل صممت على أن ينظر ولتفعل القوة ما تفعل، كما صممت على أن تملأ الوزارات الشاغرة بمرشحين من رئيس الحكومة، لأن هذا هو لب الدستور ونصه وأن الوزارة لا تزال متمتعة بثقة البرلمان، ويوم يسحب البرلمان منها الثقة ستتقدم بالاستقالة فورًا أما غير هذا فلا.

أخذت الرسل تترى إليّ لأسحب قانون الاجتماعات، ويمكن بعد هذا حل مسألة الوزراء المستقيلين، ولكني رفضت لأني أعلم علم اليقين أن المؤامرة مدبرة، أن دار المندوب السامي والقصر مشتركان فيها وأن استقالة الوزراء الدستوريين الأربعة المؤتلفين مع الوفد منذ عهد سعد ليست حدثًا عارضًا، ولكنها تدبير محكم مبيت، يراد من ورائه ضرب الدستور والبرلمان وأغلبية الأمة ضربة قاضية، ويقصد منه أن يضعفوا قوة الوفد صاحب الأغلبية ظنًا منهم أن انتقال سعد إلى جوار الله قد أضعف الوفد وهيئته، ولكن هيهات هيهات.

أصبحت الإدارة الحكومية مشلولة وتوقف الملك نهائيًا عن توقيع المراسيم التي ترسل إليه، وانتظرنا أن يحدث الأمر الذي تبيته السراي مع الإنجليز.

(٤)

تلقيت من الملك أمرًا مرقومًا برقم ٣٧ لسنة ١٩٢٨ جاء فيه (ولما كان الائتلاف الذي قامت على أساسه الوزارة قد أصيب بصدع شديد فقد رأينا إقالة دولتكم شاكرين لكم ولحضرات زملائكم ما أديتم من عمل في خدمة البلاد)، وفي نفس اليوم صدر أمر ملكي لمحمد محمود باشا الوزير المستقيل بسبب المرض بتأليف الوزارة، فألفها من حزب الأحرار الدستوريين وحده، وأدخل زملاءه المستقيلين وأضاف إليهم عددًا آخر من أعضاء حزبه وأنصاره، وعين علي ماهر وزيرًا للمالية بصفته مستقلاً.

اهتزت البلاد كلها من أقصاها إلى أقصاها لهذا الحادث الأول من نوعه، إذ أنه لم يقع في التقاليد الدستورية، ولا السوابق البرلمانية أن تقال وزارة تتمتع بثقة البرلمان وتحظى بتأييد الأغلبية العظمى من المواطنين، وإذا كان الدستور قد جاء فيه نص على أنه من حق الملك أن يقيل الوزارة، فإن الذين أشاروا على الملك بهذا الأمر الخطير قد ورطوه وأساءوا إليه، ذلك أن المادة الخاصة بهذا لا تستعمل إلا في حالة واحدة هي أن يسحب البرلمان ثقته بالوزارة ثم لا تستقيل، فوضع المشرع هذا النص لكي يمكن الملك أو رئيس الجمهورية من استعماله إذا لم تنفذ الوزارة نص الدستور، أما أن تقال وزارة تحظى بثقة البرلمان بمجلسيه فهذه سابقة دستورية خطيرة لها ما بعدها من عواقب ستسيء من غير شك إلى البلاد أبلغ إساءة وتضربها ضربة في الصميم.

صدر مرسوم ملكي لمحمد محمود باشا بتعيينه رئيسًا للوزارة ووزيرًا للداخلية وكان الخطاب الذي تقدم به إلى الملك كبرنامج لتأليف وزارته يتضمن وقف الحياة النيابية، وتعطيل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد، وأشار في خطابه إلى أنه سيسعى لمفاوضة بريطانيا لحل القضية المصرية، ثم أعلن في أحاديثه للصحف أنه سيحكم البلاد بيد من حديد مستعينًا في ذلك بتأييد صديقه الاستعماري الكبير اللورد جورج لويد وتأييده في مسعاه.

تحقيـق

(١)

بدا بعد اختيار النحاس لموقع رئيس الوفد أن الجميع مفاجأ بذلك، بل إن المفاجأة الأكبر كانت من نصيب النحاس نفسه.

كانت التقارير والصحف الإنجليزية تشير كلها إلى بروز فتح الله بركات وعلي الشمسي وويصا واصف كمرشحين لخلافة سعد، بل كان تقدير (نيفيل هندرسن) القائم بأعمال المندوب السامي البريطاني في تقريره إلى لندن – بتاريخ ٢٣ أغسطس – أن النحاس سيستبعد من الترشيح لأنه "غير متزن عقليًا".

وحسب شهادة فتح الله بركات في مذكراته فإن رأي سعد زغلول نفسه في النحاس يتلخص في أنه "متسرع وصلب الرأي وغير مهذب".

والثابت أن الانتهاء إلى اختيار النحاس تم بعد أيام من تنازع الآراء، حيث برز في البداية احتمال اختيار صفية زغلول كرئيس شرفي، على أن تقوم بإدارة شئون الوفد لجنة تنفيذية من ثلاثة أعضاء هم – أنفسهم أهم المرشحين للخلافة: بركات وويصا والنحاس.

وفي حين كان فتح الله بركات قد استولى على مكتب سعد وحرص على الظهور بمظهر الخليفة المنتظر، فإن ويصا واصف لم يكن يحمل طموحًا يصل به إلى هذا الموقع. وليس مدهشًا إذن قول محمد حسين هيكل – في مذكراته – "إن الناس تولاهم العجب لقرار تعيين النحاس رئيسًا للوفد".

لماذا؟

يجيب: "لأن نشاط فتح الله بركات في ذلك الوقت كان ملحوظًا، وكان يد سعد اليمنى أثناء حياته فضلاً عن أن سعد خاله" ويرى (هيكل) "أن هناك من بيتوا لانتخاب النحاس وقد احتجوا بأن فتح الله بركات لا يعرف اللغات الأجنبية، وتناقل الناس أن فخري عبد النور والأستاذ مكرم عبيد كان لهما ولطائفة من أعضاء الوفد المقربين أكبر الأثر في اختيار النحاس".

في حين تؤكد (فاطمة اليوسف) أن الخلاف على وجود الرئيس كان موجوداً ولكنه كان مستورًا ولم يكن من المصلحة أن يُشاع، وكان أغلب الأعضاء يميلون إلى اختيار النحاس لأنه أقرب إليهم من فتح الله بركات الذي كانوا يخافون من شخصيته القوية الطاغية.

والواقع أن صفية زغلول لعبت الدور الأساسي في اختيار النحاس وتقوية وضعه وجمع التأييد والدعم له، فخلافاتها كانت بالغة التوتر مع فتح الله بركات وكان إخراج بركات من الساحة لابد أن يعني إدخال النحاس إليها. وهناك تأكيدات بأن النحاس نفسه لم يقبل الترشيح إلا بإصرار من صفية زغلول، ومن الثابت أن (النقراشي) لعب دورًا كبيرًا لمساندة

وتأييد اختيار النحاس، حتى وصل به الأمر إلى تنظيم مظاهرات تأييد له، وقد كان أقرب الجميع إلى صفية زغلول، حتى إنها زَوجته قريبة لها في مرحلة تالية، بل وطردت الوفد كله والنحاس في مقدمته من بيت الأمة من أجل (النقراشي) عندما بدأ انسلاخ جديد من الوفد بقيادته في مرحلة لاحقة كما سيأتي ذكره تفصيلاً.

وفي تقدير د. عفاف لطفي السيد أن اختيار خليفة لسعد زغلول – على هذا النحو – "كان اختياراً عقيماً جداً، وأن ذلك من سوء حظ مصر، ومن سوء حظ الوفد" بينما يرى – كامل زهيري – في حوار شخصي – أن ثمة قانوناً عاماً مماثلاً للاختيار في كل ظرف، حيث يتجه مركز الثقل إلى من يبدو أقل وزناً وأضعف سطوة، وبالتالي أقل قابلية لأن ينازع الآخرين مساحات أدوارهم المأمولة أو المنتظرة، وبموجب هذا القانون العام تم اختيار خليفة سعد زغلول، وتم أيضاً اختيار خليفة جمال عبد الناصر.

وإن كان ذلك كله لا ينفي أن اختيار الرجل، كان مؤشراً عميقاً على اتساع دور (الأفندية) أو بروز دور طلائع الطبقة المتوسطة الصاعدة على ساحة الوفد في هذه المرحلة وعلى ساحة المجتمع نفسه.

(٢)

كان رأي الملك فؤاد في (عبد الخالق ثروت) كما أسر به ذات مرة في أذن المندوب السامي البريطاني غريباً جداً... فقد كان نصه يقول:

"إنه يملك جرأة سياسية، ولكنها وليدة جبن طبيعي شديد"!

وقد لا تكون هذه المعادلة الذاتية الغريبة بعيدة عن جوهر مشروع ثروت–تشمبرلن، لتحقيق معاهدة بين مصر وإنجلترا.

لقد كان ثروت باشا هو أول سياسي مصري يقول بنظرية تأثير الحائط النفسي في العلاقات بين الدول، وإن اختراق هذا الحائط كفيل باجتياز جميع أزمات الثقة وهكذا كان يرجع الخلاف بين مصر وإنجلترا بألفاظه إلى "جو من سوء الظن وعدم الثقة" يترتب عليه أن "مطالب الحكومة البريطانية حتى لو كانت في مصلحة مصر، تؤل عندنا بأنها اعتداءات على حقوق مصر " بينما كان تشمبرلن يواجه هذه النظرية بأخرى صحيحة تلخصها كلماته أن "من مصلحة مصر، أن تذكر أن لبريطانيا مصالح!"

وحاولت اقتراحات ثروت ومشروعه أن تخلع عن الاحتلال صورته الشائعة، وتحوله إلى حضور عسكري إنجليزي طوعي أو احتلال طوعي فـ: "ترخص الحكومة المصرية لبريطانيا بأن تبقى قوة عسكرية في الأراضي المصرية ولا يكون لهذه القوة مطلقاً صفة الاحتلال ولا تخل بأي وجه من الوجوه بحقوق السيادة".

أما بقية نقاط الاختلاف الأساسية كمسئولية الدفاع عن مصر، أو مسألة السودان، فقد عمد المشروع إلى تجاهلها كلية، بينما كان المشروع المقدم على الجانب الآخر يشترط ألا

يتجاوز عدد رجال الجيش المصري ١٢,٢٥٠ رجل، وهو ما اعترض عليه ثروت في الحقيقة، وإن كانت المباحثات قد استمرت تحت إلحاحه، حيث كان البريطانيون يرون أن التغيير في قيادة الوفد يتطلب الانتظار لاستكشاف طبيعة اتجاهاته الجديدة.

الغريب أن "الأحرار الدستوريين" الذين صوتوا ضد المشروع عندما عرض على مجلس الوزراء فعلوا ذلك – كما يقول حسين هيكل: "مخافة أن يتهموا بالتهاون في حقوق البلاد"!

(٣)

يقول المندوب السامي البريطاني (لورد لويد) في مذكرة إلى وزير الخارجية البريطاني (تشمبرلن) – في ٦ فبراير ١٩٢٨ – أن الوفد هو الذي أجرى اختباراً لاستعداد الملك فؤاد للقبول بوزارة يرأسها النحاس، وإن فؤاد أبدى موافقة صريحة ولكنه كان يضمر في نفسه تصوراً بأن هذه الوزارة ستمنحه بعد وقت قليل فرصة أكيدة ليزيح أي عائق عن طريقه، سواء كان هذا العائق هو البرلمان أم الدستور، لأنها لن تستطيع الصمود بما ستثيره من فوضى.

بينما يؤكد (محمد حسين هيكل) أن الأحرار الدستوريين "انقسموا تجاه اشتراكهم بثلاث وزراء في وزارة ائتلافية مع النحاس، وإن حافظ عفيفي وإسماعيل صدقي ومحمد عبد الرازق إضافة إلى هيكل، كانوا ضد الائتلاف، لكن محمد محمود كان متحمساً، ويبدو أن اعتراضات (هيكل) كانت في جانب منها منصبة على شخص رئيس الوزراء (النحاس)، الذي يقول عنه أنه: "ميال للتطرف بطبعه وبرغم أنه كان أثناء الحرب (ويقصد العالمية الأولى) قاضياً بطنطا، فإنه لم يكن يخف تشيعه للألمان، فإذا جلس لأصحابه في المحكمة أو القطار أخرج خرائط من محفظته أو من جيبه وجعل يشرح لمن معه سير الوقائع، وكأنه رئيس أركان حرب في الجيش الألماني."

ولقد توالت الأزمات بين الوزارة وبين المندوب السامي وهناك تأكيدات في (الوثائق) بأن الملك فؤاد كان يساهم من وراء ستار في دفع الصدام بينهما إلى الذروة وبسرعة خاطفة.

كانت دار المندوب السامي قد أبلغت (في ٢٣ إبريل) رئيس الوزراء تهديداً في شكل مذكرة بسحب مشروع قانون الاجتماعات من البرلمان بحجة أنه يعرض سلامة الأجانب للخطر:

"... أطلب من دولتكم إعطائي تأكيداً كتابياً قاطعاً بأنه لن يستمر في نظر المشروع المذكور، فإذا لم يصلني التأكيد قبل الساعة السابعة من مساء يوم الإربعاء ٢ مايو، فإن حكومة صاحبة الجلالة البريطانية تعد نفسها حرة في أن تقوم بأي عمل ترى أن الحالة تستدعيه".

وردت الحكومة بأنها: "مدفوعة برغبتها الصادقة في التفاهم والمسالمة قد طلبت بالأمس إلى مجلس الشيوخ أن يؤجل المناقشات في المشروع..."

وحسب معلومات المندوب السامي البريطاني، فإن الملك فؤاد هو الذي أصر على أن يرد النحاس على المذكرة وأنه - حسب رأيه كما كتبه إلى لندن - كان يدفع النحاس عامدًا إلى عداء سافر مع السلطات البريطانية ليقوض الوفد والدستور معًا.

ولا أحد يستطيع أن يفسر - رغم ذلك - لماذا أرسل النحاس بعد انتهاء الأزمة خطاب شكر إلى الحكومة البريطانية عن "موقفها الودي" تجاه الأزمة، رغم غلظة الإنذار البريطاني وخشونته وتعنته وتدخله السافر في الشئون الداخلية للحكومة، وهي رسالة كان لها دويٌ داخل البرلمان والوزارة.

أما تعثر الائتلاف فإنه جرى في رأي (الرافعي) بسبب أن: "ثمة اتفاقًا قد انعقد بين دار المندوب السامي البريطاني وحزب الأحرار الدستوريين لتعطيل الدستور، والحقيقة أن الأحرار الدستوريين، سيلعبون دور الشرطي الذي يوقف البرلمان والدستور بالفعل، ولكن المؤكد أن صاحب الاتفاق كان الملك فؤاد قبل الجميع".

(٤)

يبدو أن (إسماعيل صدقي) قد وقع عليه الاختيار أولاً ليشكل هذه الوزارة ووفق روايته - في مذكراته - فإنه تهيأ لتأليف الوزارة بل و "وضعت أسماء الذين وقع عليهم اختياري ليتعاونوا معي،" وهو ما يؤكده (هيكل) بحديثه عن إلغاء صدقي باشا لتذاكر سفره إلى أوروبا استجابة لرغبة جلالة الملك.

وقد روى (صدقي) ذلك أيضًا لمحمد أحمد فرغلي حسب ما رواه الأخير في مذكراته، فقد كان رأي صدقي المنقول إليه "إن المندوب السامي كان وراء تكليف محمد محمود بالوزارة لكن رغبة الملك كانت تتجه إلى تكليفي أنا".

لكن الحقيقة أن الملك هو الذي حسم تردده بين الشخصين واستقر على اختيار محمد محمود، ربما كنوع من المكافأة له على الدور الذي لعبه في التعجيل بإسقاط وزارة النحاس الائتلافية، وحسب رواية المندوب السامي البريطاني (لويد) فإن فؤاد أخبره أنه سيختار صدقي أو محمد محمود ولكنه لم يعقب على ذلك.

وإذا كان فتح الله بركات قد وصف محمد محمود بأنه "مدبر للدسائس وكاذب، ويفعل الكثير من أجل أن يصبح رئيسًا للوزراء" فإن صديقه (روبن فيرنس) السكرتير الشرقي يصفه في بياناته التي بعث بها إلى الخارجية البريطانية - كما نقلتها د. عفاف السيد بأنه: "شخصية مؤثرة، ذكي، نشيط، مستبد، عاطفي، برم، عابس، غيور، قانط، متجاوب جدًا مع الأحاسيس الشخصية، يتأثر بالصداقة والنفاق، يستمع إلى المشورة، يحب الدسائس، وأعمق من ذلك المؤمرات، لا يعتمد عليه...".

لقد بدأ (الليبراليون) وصولهم إلى سدة الحكم بضرب أهم سندين لليبرالية، حتي في منظورهم: الدستور والبرلمان، ولم يكن ذلك انزلاقًا عفويًا منهم إلى موقف فرض عليهم أو

دفعوا إليه، فقد رتبوا كل شيء واختاروه فحسب نص رواية (هيكل) فإن خطة عمل الوزارة كانت واضحة لرئيسها قبل التشكيل:
"أطلعني محمود باشا عبد الرازق على خطة الوزارة أنها ستعلق الحياة النيابية ثلاث سنوات قابلة للتجديد وهي ترجو أن تقضي خلال هذه السنوات الثلاث على الدجل السياسي" ويضيف (هيكل باشا) بكلمات قوية ناصعة: "ورأيت في هذه الخطة صراحة محمودة".

لقد انضم أحمد لطفي السيد الداعية الليبرالي الأول إلي هذه الوزارة التي ضربت الدستور والحياة النيابية في الصميم، وهو يقدم في كتابه (قصة حياتي) أغرب تفسير لقبوله الانضمام إلى كتيبة سحق الدستور والديموقراطية. يقول أحمد لطفي السيد مدافعاً عن موقفه بالحرف الواحد:
"لما أسند الملك فؤاد الأول إلى محمد محمود باشا أمر تأليف الوزارة في يونيو ١٩٢٨ دعاني وقتئذ إلى الاشتراك معه في الحكم فاعتذرت له مؤثراً العمل كمدير للجامعة بعيداً عن السياسة ومشاكلها فقال لي رحمه الله: هل يرضيك ياصديقي أن تتركني وحدي!؟

فمست هذه العبارة شعوري وقبلت الاشتراك معه في الوزارة....".

١٩٢٩

المذكـــــرات

(١)

قامت صحافة الحكومة والقصر بنشر أكاذيب وشتائم قذرة موجهة لي ولويصا واصف بك ولجعفر فخري وأخذت تنشر المقالات والأكاذيب حول توكيلنا عن الأمير أحمد سيف الدين وأخذت تعيد هذه الترهات ولم تراع حرمة لا للأشخاص ولا للقضاء الذي عرضت عليه هذه القضية.

صدر أمس حكم مجلس التأديب ببراءتي أنا وويصا واصف وجعفر فخري بك من التهم التي وجهت إلينا، وقد كان لهذه البراءة ضجة كبرى من الفرح والسرور. لأن هذه القضية الملفقة قد شغلت الرأي العام زمنًا طويلاً، واهتمت بها الأوساط المصرية والأجنبية على السواء وقد دل القضاء بهذا الحكم على نزاهته وشجاعته.

بعث إليّ مراد محسن باشا يطلب مقابلتي فحددت له اليوم، وقد تحدث معي في أن الملك فاض به من تصرفات محمد محمود، وأنه أصبح لا يطيق رؤيته، وأنه يقول "نـــار النحاس ولا جنة محمد محمود"، وهذه فرصة للتقرب إلى القصر ولا تضيعها، وأجبته بما سبق أن أجبت به بأن الملك إذا كان يريد حقاً إعادة الدستور والحياة النيابية فما عليه إلا أن يفعل فقال مراد باشا إنه لا يستطيع لأن الإنجليز يتدخلون في كل شيء كما تعلم، فرددت عليه بأن عودة الدستور والحياة النيابية مسألة داخلية لا شأن للإنجليز بها، ولا يحق لهم أن يتدخلوا فيها فقال مراد باشا أنت تعلم ظروف الملك والتهديدات التي تحيط بعرشه في كل مناسبة، ولن أكتم عنك أن المندوب السامي يتدخل في كل صغيرة وكبيرة حتى في تعيين صغار الموظفين، وأرجو أن تراعي هذا وتقلل من تشددك بعض الشيء، لأني أعلم أنك أنت وحدك تصر على موقفك، ولو شاورت أعضاء الوفد فيما أطلب لوافقوك حتى تتخلصوا من هذا الكابوس، وتكون بهذا قد خدمت الوفد وخدمت القصر وسيقدر لك الملك هذا العمل، فقلت له إن أعضاء الوفد جميعهم أشد مني تمسكًا وتعصبًا لحقهم واستنكارًا لتصرفات السراي ورجالها ولا تظن أن أحدًا منهم يفرط في حق من الحقوق، أو يخضع للتهديد أو يقبل المغريات.

قال لي الغرابلي باشا إن زكي الإبراشي باشا تحادث معه بشأن التقريب بين الوفد وبين السراي، وإنه يرى أن الوقت قد حان، لأن أمد محمد محمود في الوزارة لن يدوم طويلاً، وإن الإنجليز لن يتفاهموا وأظن الباشا يعلم هذا من قبل، وإنه تحدث مع كثير من المقربين إلى الملك، فوافقوه على أن الظرف مناسب للتفاهم حتى يمكن الخروج من الضيق الذي تعانيه البلاد، وأجبته مرة أخرى بأني لن أقبل تفاهمًا مع السراي، ولا مع غيرها إلا على أساس الاعتراف بحقوق البلاد، وعدم التدخل في شئونها، وعودة دستورها وبرلمانها، وعلى غير هذا الأساس لن أقبل أي تفاهم، فقال إن عيد الملك فؤاد سيكون في ٢٦ مارس ويحسن أن تذهبوا وتقيدوا أسماءكم في سجل التشريفات، فرفضت رفضًا باتًا أن أذهب

إلى القصر، لا مهنئًا ولا معزيًا إلا على أساس رد الدستور والحياة النيابية التى عطلها محمد محمود بغير حق.

(٢)

أخذ النشاط يدب في الدوائر الحكومية للاستعداد لسفر محمد محمود إلى إنجلترا لبدء المحادثات مع هندرسون، وقد تلقيت عدة برقيات من أصدقائنا في لندن بأن الدوائر الإنجليزية ترى أن المحادثات مع الحكومة الحالية ما هي إلا مسائل تمهيدية، حتى إذا ما بحثت المسائل المختلف عليها وضع لها مشروع مبدئي سيعرض بحذافيره على الوفد، لأن الإنجليز يعلمون برغم كل شيء أن الوفد هو ممثل الأمة، وأن الاتفاق مع غيره لا يساوي الحبر الذي يكتب به، وقد اطلعت على عدة مقالات في الصحف الإنجليزية تؤيد هذا الرأي كما أرسل إلى مكرم وحامد محمود ولويس فانوس وقرياقص ميخائيل خطابات مطولة في هذا الخصوص.

نظمت حملة قوية مرتبة في الصحف العربية والأجنبية ضد ما يسمونه المحادثات المصرية الإنجليزية التي تنوي إنجلترا إجراءها مع حكومة الأقلية، وكانت المقالات تنشر تلو المقالات عنيفة قوية ضد هذه الفكرة وتطالب بالرجوع إلى ممثلي الأمة الحقيقيين، وبعودة الدستور والحياة النيابية، كما أرسلت إلى رجالنا في إنجلترا أن ينشطوا ويشددوا من حملتهم ضد هذه الفكرة ولا يتوانوا ولا ينتظروا حتى تبدأ المفاوضات، بل عليهم أن يبدأوا من الآن في نشر المقالات في الصحف وتوزيع النشرات والأحاديث في المجالس، ودعوت مكرم للحضور إلى مصر للتفاهم.

(٣)

حضر مكرم إلى القاهرة وأخبرنا أن الحملة منظمة وإن رجال الحكومة فشلوا في إقناع الإنجليز بأن محمد محمود يمثل الأمة، وإنه يمكن التفاوض معه ولكنهم مع ذلك سيسيرون معه إلى آخر الشوط، حتى يتبينوا جلية الأمر وقد ترك حامد محمود ولويس وقرياقص ليرقبوا الأمور ويوافونا بما يجد.

أعلنت الدوائر الحكومية أن المندوب السامي البريطاني - بناء على رغبة الملك - كلم محمد محمود أن يحسن معاملته، وأظهرت فرحها بأن الملك خضع للوزارة وأصبح يخشى بأسها كما قالت هذه الدوائر في مجالسها إن الملك يريد أن يتقرب إلي الوفد على حساب الوزارة، ولكن الإنجليز له بالمرصاد، وقد عجبت لهذا المنطق العجيب الذي يستعدي المحتل على ولي الأمر، ولكن لا عجب فإن الملك صنيعة الإنجليز، وهم الذين أتوا به ونصبوه، فلابد أن يكون لهم خادمًا ولأوامرهم منفذًا.

سافر محمد محمود ومعه وفد شكله من أنصاره وموظفي الحكومة وأعلن أنه ذاهب للمفاوضات لحل المسألة المصرية، وقد علمت أن القصر من ناحيته بعث لأصدقائه أن

يراقبوا الحالة، ويوافوا الملك بالاتجاهات الإنجليزية، وعلمت من أخبار لندن أن الملك فؤاد اتفق مع السير إدوارد المستشار القضائي بقصر بكنجهام، على أن يوافيه باتجاهات الحكومة البريطانية حتى لا يقع بينه وبينها خلافات وحتى تكون السياسة منسقة بين الطرفين.

سافرنا إلى الإسكندرية لقضاء الصيف كعادتنا وقد كان النشاط السياسي كله قد انتقل إليها بعد انتقال الملك والحكومة، وقد كانت حماسة مستقبلينا في المحطات التي وقف عليها القطار وفي محطة سيدي جابر بالغًا حد الروعة، إن الروح الوفدية مشتعلة وإن الإسكندرية بحق قلعة الوفديين.

كان فندق سان استفانو الذي نزلت فيه محور النشاط السياسي، لأن معظم الوزراء ورجال الأحزاب والسراي كانوا يقضون فيه سهراتهم، وكانت الأحاديث تدور حول المفاوضات والإنجليز، والمعاهدة، وقد أخذ أنصار الحكومة يروجون لها بأنها بدأت المفاوضات بنجاح كبير وإن الهيئة استقبلت من الإنجليز استقبالاً حسنًا.

نقل إلينا بعض المتصلين بالحكومة أن القصر الملكي يضع العراقيل في طريق الوزارة حتى لا تنجح في المفاوضات، وإن بعض رجال السراي يقولون إن هذه فرصة الوفد، فلماذا لا ينتهز النحاس هذه المناسبة ويتقرب إلى القصر؟

تلقيت برقيات وقصاصات صحف إنجليزية تقول إن المحادثات التي بدأت بين محمد محمود وهندرسون كانت لجس النبض، وإنه صارحه بأن مهمته (أي محمد محمود) هي أن يحمل المقترحات إلى مصر ليأخذ رأي الشعب فيها، وسرعان ما انتشر الخبر فتلقفته الصحف، وأطلقت على محمد محمود أنه لا يتعدى أن يكون (ساعي بريد).

(٤)

زارني أمين عثمان ومعه بعض موظفي دار المندوب السامي لا أذكر أسماءهم وقال إن السير برسي لورين يريد أن يدعوك لتناول الغذاء على مائدته فهل تلبي الدعوة؟ أم تخشى أن تستغل الحكومة هذا وتتهمك بأنك تماليء الإنجليز فأجبته إني لا أعمل في الخفاء، وإن أي إنسان يريد أن يحدثني في مطالب الأمة لا أتردد في الحديث معه، ولقد كنت منتويًا أن أمر على دار المندوب السامي لأترك له ولمن استفسروا عني أثناء مرضي بطاقات شكر، وإذا وجه إليّ الدعوة فسألبيها.

مررت على دار المندوب السامي في مصيفه، وتركت عدة بطاقات له ولمن سألوا عن صحتي، وقد استقبلني بعض الموظفين، ورحبوا بي وقدموا لي القهوة والمرطبات، وشكرت لهم حسن استقبالهم.

ذهبت إلى دار المندوب السامي الساعة الواحدة بعد الظهر إجابة لدعوة الغذاء التي وجهها إلي أمس ... فاستقبلني المستر هور والمستر سمارت وثالث لا أذكر اسمه، ولعله السكرتير الخاص للمندوب السامي وبعد هنيهة حضر السير برسي فسلم عليّ، وقال إنه مسرور للتعرف بي، فأجبته إني أشاطره السرور في التعرف، ودخل رابع لا أعرف اسمه وسلم ثم أخذنا نتحادث وقوفًا بكل لطف، وفي مواضيع شتى في الجو والصحة والتدخين والعادة وحكمها إلخ ... ثم دخل خادم ظن السير برسي أنه يدعونا إلى قاعة الطعام فدعاني أتقدمه، ثم تنبه المستر هور إلى أن مجيء الخادم لم يكن لذلك، فبقينا حيث كنا نتجاذب أطراف الحديث عن بلده واشترك فيه جميع الحاضرين، ومما جاء ذكره سألته إذا كانت مصر أعجبته، فقال إنه لم تترك له الفرصة لزيارتها زيارة دقيقة فرجوت له أن يقوم بذلك، ثم جاءت الدعوة إلى المائدة فدعاني للتقدم وألح بذلك، ففعلت وجلست على يمينه، فقلت إن الجو في صالة المائدة لطيف طري، وكان فيها باب آخر مقفل فأشار بفتحه، ودخل منه هواء عليل، ولكن وجدت فيه تيار هواء لتقابل البابين فشعر بذلك، وسألني عما إذا كان هذا لا يوافقني، وقد كان يعلم من حديثي معه أني لا أزال في دور النقاهة، وعما إذا كان يحسن إقفال البابين فشكرته على ذلك ووافقته على فكرته، فأمر بإقفال الباب الأول الذي كان مفتوحًا من قبل على الدهليز وبقي الباب الثاني مفتوحًا... وتناولنا الطعام في أحاديث شهية في مواضيع شتى عن القاهرة، وتكاثر السكان فيها والإسكندرية وأثينا وبلاد العجم وغير ذلك... بعد الانتهاء من الغداء، أخذني إلى الفراندا وحدنا في الهواء الطلق وكان عليلاً وقدم لي كرسيًا وأخذ آخر بجانبي ثم جلسنا، ولم تمض برهة قليلة حتى فاتحني قائلاً إن هذه المقابلة للتعارف وسيتبعها غيرها للكلام في الموضوع، ورجاني ألا تغالي الجرائد في هذه المقابلة فقلت له إني متبوع بالبوليس السري الذي قدم ورائي إلى هنا وسيذاع الخبر حتمًا فقال إني لا أخفي مقابلتنا، ولا أقصد إخفاءها ولكن أقصد عدم المغالاة في مداها... فقلت إن هذا ما أنتهجه من جانبي حتى إني لم أخبر أحدًا بالمقابلة ذاتها، قال إني أريد أن أقفك على مسلكي إلى الآن، وهو أني أخبرت الملك أن يبدأ استشارته وأن يقابل الزعماء وأن يقابلك لأن في المسألة استقالة محمد محمود باشا الذي جئت إلى هنا وهي قائمة، وتتناول المسألة موضوعين أحدهما داخلي والثاني ... وسكت هنيهة ثم قال: داخلي أيضًا، فلم أشأ أن أضع نفسي في موضوع خارج عن مسئوليتي وأفهمت ذلك للملك وليس صحيحًا ما ذكرته الجرائد من أني اشترطت شروطًا ما.

وقد أخبرني الملك، إذا ما كنت أقابل مكرم إذا ما وجهه إلي أو النحاس باشا فقلت إني أقابلهما بكل ارتياح، ولما رأيت أنه لم يقابلك ولم يقابل مكرم إلى الآن فلم أتخطه في طلب مقابلتكما، والمسألة واقفة عند هذا ... قلت إنه ليس من المصلحة للبلدين إطالة عهد التردد، كما قلت في حديثي إن كل تأخير في وضع حد لهذه الحالة يضر بالوصول إلى غاية التفاهم المنشود ... قال ألم أعمل ما علي من واجب، قلت بلى وهو ما تحمد عليه كل الحمد، ولكني لا أدري لهذا التأخير من سر إلا إذا كانت هناك دسائس تفعل فعلها،

والنتيجة هذه الحالة المشكوك فيها، قال لعلي خرجت على عهد كان يجب أن يبقى في نفسي بإباحتى لك بما فعلته، ولكني أخبرتك.

قلت إني أشكرك على هذه الثقة ولن تخرج لغيري، قال هذا ما اعتقده، ولقد أدركت فوراً ولقد بادلتك الرأي في الحال بأن أطلعتك ملاحظتي وهي لك أيضاً، فقد سبق أن قابلني أناس من جانب جلالة الملك ومنهم توفيق باشا نسيم وللآن لم يحصل تقدم في جهة الحل ... قال إني انتهزت فرصة وجودي في عزومة ضباط البحرية لي وطلبت إلى محمد محمود باشا أن يعرفني بتوفيق نسيم باشا وأشرت إليه بأن الملك يقابلك... كذلك أخبرت محمد محمود باشا بأنه لابد أن أتصل بك في الوقت المناسب، فقال إنه يفهم ذلك ولا مانع لديه وأخبرته في عزومة الأمس بأني سأقابلك غداً (أي اليوم) فاستحسن ذلك، ثم سألني ألم أكن عادلاً في ذلك، فقلت إنك عملت كل الواجب وإني أسجل لك هذا مع التقدير وإن هذه الخطة تشجعني على أن يكون تفاهمنا صريحاً في الآتي، وذلك لمصلحة العلاقات بين البلدين، قال إني جئت إلى هنا والموقف معقد من غير سابقة دارسة له، فالدراسة في هذه الظروف صعبة قلت ربما كان ذلك هو الأصلح فإن من يأتي إلى هنا ولم يكن له فكرة مبيتة ويبحث الحال بشخصه يكون أقرب إلى فهم الحقيقة من غيره، وأنا من جانبي لا أتردد في تسهيل هذه المهمة عليك كلما رأيت لزوماً لذلك، فشكر ثم قال إني أنتظر ما يعمله الملك ولذلك نقف عند الحد، وسيكون لنا بعد ذلك كلام في الموضوع وسيكون صريحاً ونيراً لأني أحب أن تبنى علاقتنا على الصراحة سواء أمكننا الوصول إلى تسوية أم لا فسنسير معاً على صراحة ومودة، قلت هذا جل مرغوبي وهذا خلقي الذي ربما يكون قد وصل إلى علمك شيء منه فسر لذلك.

وهنا دخل المستر هور ومن معه علينا وبعد محادثة قلت للسير برسي هل لك عادة أن «تقيل» قال لا، فإن هذا متعب، قلت إني معتاد القيلولة، قال إنها عادة لا ضرر منها كعادة التدخين، وكنا تكلمنا من قبل في عادة التدخين وضرره، وبعد برهة قليلة استأذنت في الانصراف وسلمت عليه وعلى الموجودين وخرجت ورافقني المستر سمارت إلى الباب الخارجي وسألني عما إذا كنت باقياً في الإسكندرية أيضاً قلت ربما أعرف نتيجة التحليل فتمنى أن تكون مطمئنة.

(٥)

قدم محمد محمود باشا استقالته إلى الملك وقد أشار فيها لاغتباطه بنجاح المحادثات التي قام بها مع وزارة الخارجية البريطانية والتي أثمرت مشروع المحالفة بين الأمتين المصرية والبريطانية، فقد حلت بذلك عقدة طال انتظارها وحققت آمال البلاد بما يرضي عزتها ويؤيد استقلالها وحريتها، وذللت الطريق لأن تتبوأ مصر مقعداً كريماً بين الأمم، ثم قال: ولقد أخذت على نفسي عهداً بالدعوة إلي قبول هذا المشروع وحرصت على أن نهيئ لنحقق الأسباب وأن نمهد دونه الصعاب وقمت ولم أزل قائماً بتنفيذ ذلك العهد في صدق

وإخلاص وذلك إني رأيت عقب عودتي من أوروبا أن أضع استقالتي بين يدي جلالتكم كي لا يكون قيام هذه الوزارة عائقًا بأي وجه من الوجوه دون تحقيق ما ترى جلالتم فيه الخير والمصلحة للبلاد، وقد قبل الملك الإستقالة في الحال وأرسل إليه خطابًا بهذا.

تقبلت البلاد استقالة محمد محمود بالسرور والغبطة، وأخذت الطبقات تهنيء بعضها بعضًا بانتهاء عهد الدكتاتورية البغيض، وعودة دستور الأمة والحياة النيابية إليها، وأخذت الوفود تترى علينا مهنئة مغتبطة وقد نشرت الجرائد أن الملك أصدر أمرًا إلى عدلي يكن باشا بتأليف وزارة انتقال تعيد الحقوق إلى أصحابها، وتضع الأمور في نصابها فزادت البلاد غبطة واستبشرت بعهد جديد.

ألف عدلي يكن باشا الوزارة وكان معروفًا أنها وزارة انتقال محايدة تعود بالبلاد إلى حالتها الطبيعية، وقد جاء في جوابه إلى الملك أنه سيحرص على تمكين البلاد من الوصول إلى قرار فيما أتيح لها في قضيتها القومية، وستكون الغاية التي تترسمها وزارته إعادة الحياة الدستورية وإجراء انتخابات لمجلس النواب، خالصة من كل ضغط وتأثير غير مشروع، بحيث تنقل صورة صادقة من إرادة البلاد لكي يتمكن البرلمان بعد ذلك من البت في مصيرها، وأشار إلى حرصه على أن تظل علاقات البلاد الخارجية وعلى الخصوص علاقتها مع الأمة البريطانية، على خير ما يرجى من الصفاء وحسن التفاهم.

وافق اليوم عيد جلوس الملك، وقد قصدت ومعي مكرم والنقراشي وقيدنا أسماءنا في سجل التشريفات مهنئين الملك بعيد جلوسه وتمكينه الأمة من ممارسة حقوقها الدستورية كما توجه كثير من أعضاء الوفد.

زارني رسول من قبل المندوب السامي هو مستر سمارت وحدثني بأن الوزارة المقبلة هي وزارة الوفد قطعًا، وأن الإنجليز ينبهون من الآن أنهم لا يرغبون في أن تضم الوزارة الجديدة أحمد ماهر ولا محمود النقراشي نظرًا للتهم التي وجهت إليهما واشتراكهما في قتل بعض الإنجليز، فعجبت لهذا الأمر وقلت للرسول أولاً أنا لم أكلف بتأليف الوزارة رسميًا إلى الآن وحتى لو كلفت فما شأن الإنجليز بهذا الأمر وهو مسألة داخلية بحتة من حق الملك وحده، واختيار الوزراء من حق رئيس الوزارة، ولما تحدث الرسول عن العهد الجديد الذي تريد بريطانيا أن تبدأه مع مصر حتى تنتهي المسألة قلت له: إن هذه بداية غير طيبة وتدخل غير مشروع، ونبهته إلى أن تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذي صدر من جانبهم، وتحفظت فيه بريطانيا بأربعة تحفظات ليس منها التدخل في شئون البلاد الداخلية وقلت له بلغ المندوب السامي بأني أرفض هذا الطلب رفضًا باتًا، ولو أدى الأمر إلى أن أرفض تأليف الوزارة إذا عرضت علي فالكتاب يقرأ من عنوانه، وودعته وأنا مصر على رأيي.

ظلت مسألة دخول أحمد ماهر والنقراشي الوزارة محل أخذ ورد، فقد اتصل بي المندوب السامي شخصيًا وفاتحني في هذا الأمر فصممت على رأيي، ونبهته مرة أخرى

إلى أن تصريح ٢٨ فبراير لم يحتفظ إلا بأربعة تحفظات ليس منها هذا الطلب وقلت للمندوب في شيء من الحدة، إن هذا التدخل لا يبشر بالخير وليس هذا ما اتفقنا عليه عند المقابلة من أننا سنكون متفاهمين، ولكنه قال إن هذه تعليمات وزارة الخارجية البريطانية، كذلك زارني بعض المتصلين بالقصر الملكي وأخبروني أن الملك يطلب مني التساهل في هذا الأمر حتى لا تعود البلاد إلى عهد كعهد محمد محمود الذي ضج منه الناس حتى الملك نفسه، ولكني صممت على رأيي وليكن ما يكون.

زارني مستر ريد وفارس نمر وثالث لا أذكر اسمه وفاتحوني هم كذلك في مسألة ماهر والنقراشي واستمعت إلى حديثهم وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث دخل علينا واصف غالي ومرقص حنا عضوا الوفد واشتركا في الحديث وطرح مستر ريد فكره قال: "نقسم البلد قسمين" تختار أنت في الوزارة واحد من الاثنين وتترك الثاني، ويقبل الإنجليز هذا الحل فنكون بذلك قد أرضينا الطرفين، ولكني رفضت وإذا بأحمد ماهر يدخل علينا ويشترك في الحديث ويعلن أنه تفويتًا على خصوم الوفد اللعب والدس في هذا الأمر فإنه يرفض هذا الحل ويرشح النقراشي للوزارة ويبقى هو في الخارج حتى لا تتأزم الأمور أكثر من ذلك، وسر الحاضرون جميعًا بهذا الاقتراح وقالوا إنه حل كريم للأزمة بل قد صرح فارس نمر بأن الملك سيفرح كثيرًا لأن الإنجليز قد أنذروه بأنه إذا تقدم النحاس إليه بأعضاء الوزارة وفيهم أحمد ماهر والنقراشي فيجب أن يمتنع عن توقيع المرسوم الملكي، ولعل هذا هو السبب المباشر في أنه لم يعهد إليك بتأليف الوزارة حتى الآن برغم مضي أكثر من عشرة أيام على استقالة عدلي باشا، فرددت عليهم بأن يتركوا لي فرصة حتى أعرض الأمر على هيئة الوفد مجتمعة.

دعوت الوفد للاجتماع فحضر جميع الأعضاء، وعرضت الأمر عليهم فوافقوا جميعًا على أن اختيار النقراشي وزيرًا وتنازل أحمد ماهر عن الوزارة عن رضاء واختيار يعتبر حلاً سليمًا فيه صون للكرامة وحل مرض للأزمة وانتصار للوفد الذي أصر على موقفه برغم كل ما جرى ، فقبلت خضوعًا لرأي الأغلبية، وبلغ الخبر دار المندوب السامي فاتصل بي السفير، وقال لي إن وزارة الخارجية البريطانية عارضت هذا الحل في بدء الأمر ولكني شرحت لهم الموقف وأخيرًا اقتنعوا وأصبح لا مانع لدينا من أن تؤلف الوزارة، ولقد تضايقت من كلمة لا مانع لدينا، وتأثرت كثيرًا إذ أننا لا نزال بعد جهاد عشر سنين منذ ثورة ١٩١٩ إلى الآن نتلقى الأوامر من الإنجليز حتى في أخص المسائل الداخلية، وسخطت على الظروف القاسية التي تمر بنا واتجهت إلى الله مرة أخرى أن يخلصنا من هذا الكابوس الجاثم على أنفاس البلاد.

التحقيـق

(١)

أحالت حكومة محمد محمود باشا النحاس وويصا واصف وجعفر فخري إلى مجلس تأديب المحامين في ديسمبر ١٩٢٨ بدعوى إخلالهم بشرف مهنة المحاماه. حيث اتفقوا مع الأميرة (نجوان) والدة الأمير (سيف الدين) على أتعاب باهظة (بلغت ١٣٠,٠٠٠ جنيه) لرفع الحجر عنه وتسلمه أمواله، التي كان الملك فؤاد هو القيم عليها والمتصرف فيها.

وكان الأمير المحجور عليه مودعًا في أحد مستشفيات الأمراض العقلية بتركيا، وهو شقيق للأميرة (شويكار) التي كانت زوجة الملك فؤاد قبل أن يمكن من العرش.

وكان الأمير (سيف الدين) قد تربص لزوج شقيقته الملك فؤاد والذي كان يسيء معاملتها وينفق جل وقته في منتديات اللهو، وأطلق عليه الرصاص، فأصابته رصاصة في حلقه ظلت في موضعها حتى وفاته.

وقد قيل إن فؤاد بعد صعوده على العرش، أوعز بوضع الأمير في مصحة عقلية بحجة إصابته بالجنون، وعين نفسه قيمًا على أمواه.

وكان النحاس وواصف وقت الاتفاق نائبين لرئيس البرلمان، ولذلك تضمنت الدعوى "أن الاتفاق روعي فيه مالهم من المراكز السياسية ومالهم من نفوذ"، واستندت أسباب الحكم بالبراءة على أن الحكومة قامت بـ"... تزييف بعض عبارات الترجمة" العربية التي نشرت لبعض الوثائق المحررة أصلاً بالتركية وتصيد الشهود في القضية ليشهدوا زورًا لمصلحة الاتهام..

وفي تقدير د. مصطفى الفقي أن هذه القضية تشكل السبب الحقيقي وراء إقالة وزارة النحاس، وإن كان هناك من يرى أنها تحولت إلى فضيحة علنية عن عمد، واستغلت لتغطية هذه الإقالة، ومحاولة إنهاء المستقبل السياسي للنحاس مبكرًا...

وقد عبرت الحكومة الليبرالية عن غضبها على هذا الحكم بإصدار قانون بتعديل لائحة المحاماة، جعلت محاكمة المحامين بموجبه من اختصاص محكمة النقض والإبرام ودون ممثل لنقابتهم.

(٢)

لم يسافر محمد محمود أصلاً من أجل المفاوضات كما تذكر المذكرات، ولكن تلبية لدعوة من جامعة أكسفورد التي تعلم في إحدى كلياتها (بليول) لمنحه درجة الدكتوراه الفخرية في القانون.

وسافر هيكل بصحبته على الباخرة حيث استقلا القطار بعد ذلك من (جنوة) إلى (لندن).

وقد أبلغ (محمد محمود) (هيكل) أثناء حديثهما يومًا أن الخارجية البريطانية أبلغته بأنها تريد محادثته في المسائل المعلقة بين مصر وإنجلترا علها تنتهي إلى اتفاق معه، ولكنه كما أضاف: "يخشي أن تنتهي هذه المحادثات إلى استقالة وزارته".

ورد هيكل بأن هذا العرض لا يمكن رفضه بحال أيًا كانت النتائج التى تترتب عليه...

وهكذا بدأت المفاوضات التي لعب دورًا سريًا فيها (جيرالد دلاني) مراسل رويتر في القاهرة - و(سيسل كامبل) وقد أسهما في إقناع محمد محمود باشا أنه سيحصل من حكومة العمال على نتائج لم يحصل عليها سلفه من حكومة المحافظين. أما عن جوهر الاتفاق نفسه وإن كان (الرافعي) قد عده أقل قيودًا من مشروع (أوستن تشمبرلن) إلا أنه حوى الركنين الذين يهدمان الاستقلال الحقيقي، وهما بقاء القوات البريطانية في مصر، وبقاء السودان منفصلاً عنها.

لقد بدأ بنص المشروع على أنه معاهدة وتمت صياغة نصوصه الأولى على هذا النحو لكنه سرعان ما تحول في صورته الأخيرة إلى مجرد مقترحات حول التسوية وفضلاً عن ذلك فإن البنود كلها قد تم تسريبها عن طريق الخارجية البريطانية إلى مكرم عبيد بالرغم من أن وزير الخارجية البريطاني وعد محمد محمود وعدًا جازمًا بأنها ستبقى بينهما في نطاق السرية...

(٣)

وفق شهادة (فاطمة اليوسف) فإن الوفد أرسل مكرم عبيد إلى لندن ليهاجم المفاوضات ويحبطها ولما عاد استقبل استقبالاً شعبيًا "... وذهب النحاس إلى المحطة على رأس رجال الوفد وكان الاستقبال فعلاً شعبيًا منقطع النظير.. وركب النحاس ومكرم سيارة مكشوفة، وركبت مع د. صلاح الدين والأستاذ حسن النحاس والأستاذ زهير صبري عربة حنطور خلف سيارة النحاس، ولما وصل الموكب إلى ميدان الأوبرا قذف بعض الأفراد متجرًا إنجليزيًا بالحجارة ورأى النحاس الاعتداء ولمح بين الجماهير المحتشدة الشاب الذي قذف الحجارة، وإذا به يأمر فتقف السيارة وينزل من سيارته ليشق طريقه بين الجماهير شاهرًا عصاه في يده حتى يصل إلى الشاب المعتدي وينهال عليه ضربًا، وقد تجمد الناس في أماكنهم...".

(٤)

كان (جورج لويد) المندوب السامي الذي تقرر عزله ممثلاً جيدًا لدبلوماسية "السفن الحربية". ولذلك كان يقول نقلاً عن جرافتي سميث: "عندما أرى الأشجار مزهرة فإنني أعرف أن الوقت قد حان لطلب سفن حربية..." فقد بنى تصويره على أن رياح الخماسين

تعكر مزاج المصريين وتجعلهم أكثر تمردًا وأقل انقيادًا... وقد كان مثله مثل (كرومر) معبرًا بوضوح عن تلك النظرة الاستعمارية الاستعلائية.

وعندما وصل المندوب السامي الجديد (سير برسي لورين) استقبل بترحاب ولكنه كان تعبيرًا عن زاد عام من الكراهية لموقف سلفه.

وفي رأي إسماعيل صدقي فإنه يختلف عن سلفه في أنه "سياسي يمتاز بالمرونة" أما محمد فرغلي الذي عرف الاثنين فقد رأى أن المندوب الأول كان دائم التدخل في الشئون الداخلية أما الثاني فكان على النقيض منه عديم التدخل مما ساعد سلطات الملك فؤاد على الإتساع والبروز.

وعلى عكس ما ردد (لورين) للنحاس في لقائهما الأول فقد كانت تقايره إلى لندن تحبذ تأييد وزارة محمد محمود لأن "ذلك افضل من وصول الوفد إلى الحكم" وهو رأي ربما كان مرده إلى (ماكدونالد) رئيس الوزراء البريطاني الجديد الذي عبر عن آراء مماثلة، في التوقيت نفسه.

غير أن الطبيعة النخبوية لوزار ة محمد محمود وهامشية تأثيرها في الشارع المصري هي التي عززت الرأي القائل بأن "معاهدة تفاوض عليها محمد محمود لا يمكن أن تلقى قبولاً مصريًا عامًا..." ولذلك بعث (هندرسن) وزير الخارجية البريطاني تعليمات واضحة إلى (لورين) بـ "التخلص من (محمد محمود). الذي أحس بمرارة شديدة لأنه رأى أن بريطانيا العظمى قد مارست معه فعل الخيانة الفاضح"!

(٥)

لاستكمال صورة هذه الحكومة التي ضمت غلاة الليبراليين ومثلت طبعتها المصرية النقية في ذلك الوقت يمكن التأكيد على أنها لعبت دورًا هامًا في التداخل بين مفهومي (الحكومة) و (الدولة) في التاريخ المصري المعاصر.

وفي مناسبة "القبض على المواطن عبد العزيز عز العرب وهو يحمل منشورًا يحض على كراهية الحكومة في شارع القصر العيني" اعتبرت الحكومة سلوكه مخلاً بواجب الولاء لها فحكمت عليه بتنزيله إلى الدرجة السادسة (وقد كافأته الحكومة الوفدية بدرجتين وظيفتين متتاليتين) وأصدرت قانونًا – في ١٩٢٩/١/٣ – يقضي بـ:

"منع الموظفين والمستخدمين من أن يحضروا اجتماعات سياسية وأن يبدو علانية آراء أو نزاعات سياسية ويكون الموظف المخالف عرضة للفصل" أي أن يكون ولاء الموظف سياسيًا ملزمًا نحو الحكومة القائمة.

ولم تكتف الوزارة بذلك بل أجازت قانونًا آخر يحظر على طلاب المعاهد العليا الانضمام

إلى الجماعات السياسية والاشتراك في المظاهرات، وثالث يحظر مقاضاة موظفي الحكومة عن سوء استعمال السلطة أو عن الخطأ في تطبيق العدالة ... وآخر يحظر على موظفي الحكومة الإدلاء بأية آراء سياسية. وحسب رواية محمد حسين هيكل نفسه وهو المهندس الإعلامي لهذه الوزارة وحزبها أنه "عندما ذهبت جماعة من الهيئة الوفدية إلى سراي عابدين للاحتجاج على وقف الحياة النيابية اعترض البوليس الطريق ومنعهم وأمرهم بالتوقف تنفيذًا لقانون التجمهر فلم يذعنوا فضربهم وضرب النظارة الذين ذهبوا يمتعون عيونهم بهذا المشهد..."

أي أن الذين ذهبوا يمتعون عيونهم بضرب الشرطة لقيادات الوفد، ضربوا معهم أيضًا.

أما أوضاع الصحافة فكانت أكثر صعوبة فما بين عامي ١٩٢٧ و١٩٢٩ صودر من مجلة (روز اليوسف) ٦٢ عددًا ولم يصدر منها سوى ٤٢ عددًا بل وكانت المصادرة لا تتم إلا بعد طبع جميع النسخ حتى تكون الخسارة باهظة، بل إن الوزارة الليبرالية استحسنت سلاح الرشوة وحاولت استخدامه مع الصحف وبألفاظ فاطمة اليوسف فقد:
"زارني يومًا موظف كبير في الداخلية يعرض علي أموال الحكومة في نظير تخفيض الحملة على محمد محمود وحكمه المطلق. ولكن الموظف الكبير ظل يقبض مبلغًا شهريًا بدعوى أنه يوصله إلينا. وكان رئيس الوزراء يعجب - كما صارح بنفسه فاطمة اليوسف بعد ذلك بسنوات - حين يعرف أن النقود تدفع في حين أن المجلة ماضية في عنفها..."

لكن هذا التداخل الذي اتسع مداه بين مفهومي الحكومة والدولة ثم تطويع الدولة للحكومة وتطويع الموظفين لمن يحكمون لم يكن اختراعًا خالصًا من هؤلاء الأحرار الدستوريين فقد بدأه بإخلاص وإصرار الزعيم سعد زغلول نفسه خاصة على صعيد جهاز البوليس.

(٦)

وفق تقارير بوليس القاهرة لهذا العام فقد حصل (القسم المخصوص) على قائمة بأسماء ستة عشر شخصًا في فلسطين وقبرص واليونان وألمانيا وفرنسا ومصر، تم تبادل الرسائل بينهم وبين (العصبة الشيوعية)، وهو ما يعني أن الرقابة على البريد كانت قائمة على قدم وساق في أوج تلك المرحلة الليبرالية.

وكذلك وفقًا للتقارير فقد راقب (القسم المخصوص) تذمر عمال السكك الحديد، والعنابر ببولاق بسبب ضآلة المكافآت، وبسبب فصل ٢٣ نجارًا، وراقب إضرابات حوذية عربات الركوب وإضراب عمال الحرير بالجمالية.

ولقد كان صدى الأزمة الاقتصادية والإفلاس العام في نيويورك قد ترك ظلالاً كثيفة على الأوضاع الاقتصادية في مصر. حيث انخفضت أسعار القطن من ٢٠ دولارًا عام

١٩٢٨ إلى ١٢ دولارًا في العام التالي.

بل كانت الحكومة نفسها تتجه إلى تخفيض درجات الموظفين والحد من انتشار الوظائف، وإيقاف صرف الإعانات الوقتية التي كانت تمنح للموظفين وأرباب المعاشات...

وتسجل تقارير البوليس خلال العام ارتفاع نسبة جرائم الضرب المفضي إلى الموت والفسق وهتك العرض والتزوير، وذلك على وجه الخصوص، بل بلغت حوادث خطف الأطفال نظير إتاوة ٣٢ حادثة في هذا العام...

وزادت أيضًا كميات المخدرات التي تجلب إلى البلاد ففي حين بلغت عام ١٩٢٧ (١٢٧٢٦ كجم.)، ارتفعت إلى (١٩٣٤٠ كجم) عام ١٩٢٩ وبينما قبض على (٢٩٢٤ شخصًا) في جرائم المخدرات عام ١٩٢٨ قبض على (٣٢٣٧ شخصًا) عام ١٩٢٩،،

بل إن جرائم هتك العرض وحدها ارتفعت ما بين عامي ١٩٢٤ و١٩٢٩ من ٩ جرائم فقط إلى ١١٧ جريمة، وهو ما يكمل صورة الأوضاع الاجتماعية في خلفية المسرح السياسي المصري...

١٩٣٠

(١)

تلقيت من القصر أمرًا ملكيًا رقم ٢ لسنة ١٩٣٠ بتأليف الوزارة "نظرًا لما عهده الملك فيّ من الإخـلاص والولاء وحـسن الروية" وفي نفس اليوم قدمت خطاب تأليف الوزارة للملك وقلت فيه (إنني أتقبل تلك المسئولية الخطيرة معتمدًا على الله تعالى مستندًا إلى ثقة الأمة التي لا تفتأ تسديها للوفد المصري الذي أتشرف برياسته).

ذهبنا جميعًا إلى القصر الملكي حيث قابلنا الملك وأقسمنا اليمين الدستورية أمامه على احترام الدستور وقد هنأنا في تحفظ وكلمات قصار.

زارني السـيـر (برسي لورين) المندوب السـامي البـريطاني وتحـدث مـعي في مـسـألة المفاوضات وعرج الحديث على أعضاء الوفد الذين سيسافرون معي إلى لندن لمفاوضة مستر هندرسون، ومرة أخرى جاء ذكر أحمد ماهر، وطلب إليّ ألا أختاره ضمن أعضاء الوفد فقلت له إن هذا من شأني ولا دخل لكم فيه فأجاب إنك اعترضت عند تأليف الوزارة على أننا لا يحق لنا التدخل في المسائل الداخلية مع أننا نرى أن وجود أمثال ماهر من الذين اشتركوا في الاعتداء على الرعايا الإنجليز مسألة حساسة، وقد تساهلنا فيها وارتضينا بالحل الوسط لكن في المفاوضات لا نقبل أبدًا أن يفاوضنا من قتل رعايانا فأرجو أن تلاحظ هذا حتى لا تحدث أزمة ونحن على أبواب عهد جديد، ولعلك تدرك أننا سنقدم لك أسماء أعضاء الوفد البريطاني الذي سيتفاوض مع مستر هندرسون وزير الخارجية، وأنت بدورك ستقدم لنا أسماء الذين سيرافقونك إلى لندن. وأجبته بأنني سأبحث هذه المسألة مع زملائي الوزراء وأرجو أن تنتهي على خير، وانصرف السفير فأخذت أفكر في هذه المشكلة الجديدة.

انتهيت في مسألة وفد المفاوضات إلى حل وكتمته حتى على الوزراء وأعضاء الوفد، ذلك هو أني سأقدم أعضاء وفد المفاوضات وفيهم اسم أحمد ماهر فإذا اعترضوا عليه وطلبوا حذفه فسأعترض بدوري على أحد أعضاء وفد المفاوضات البريطاني، وأطلب حذفه وبذلك يتساوى الموقفان وتتعادل الكفتان، ولا يظنون أن قوتهم تخيفنا أو تجعلنا نتهيب أي عمل من الأعمال.

اتصل بي السفير وأرسل إلي أسماء وفد المفاوضات البريطاني لأطلع عليه طبقًا للتقاليد وطلب إليّ أن أرسل بدوري أسماء وفد مصر الذي سيرافقني فوعدته بأن يكون ذلك في أقرب فرصة.

أرسلت إلى المندوب السامي أسماء وفد المفاوضات يتضمن بعض الوزراء المتخصصين وكتبت اسم أحمد ماهر، وجاءني كشف من المندوب السامي بأسماء الوفد البريطاني واتصل السير برسي وقال بغضب إني كلمتك في شأن أحمد ماهر ولكنك ذكرته ضمن

الأسماء فأجبته إن هذه رغبة الحكومة وأنا رجل ديمقراطي لا أملي إرادتي وإذا لم يكن يروقكم فاعترضوا عليه كما أن لي الحق في أن أعترض على بعض من جاء ذكرهم ضمن الوفد. فقال حقك قلت اتفقنا، وأخذت أراجع الأسماء الإنجليزية وأخيرًا وقعت على اسم (صمويل هور) فحذفته مقابل حذف اسم أحمد ماهر، وانتهت الأزمة بيننا وبين المندوب السامي، ولكنني صممت على أن يكون أحمد ماهر معنا في لندن على أي شكل من الأشكال.

قابلت الملك لأعرض عليه أسماء الوفد الذي سيصحبني، وقد أظهر الارتياح في كلمات مقتضبة، وقال لي لعلك توفق في حل المسألة وخصوصًا مسألة السودان، فقلت له إن مبدأ الوفد أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر، وأن التاج لابد أن يكون تاج مصر والسودان، وأن جلالتكم ملك لمصر والسودان ونحن متمسكون بهذا النص كما جاء في الدستور فأظهر سروره وتمنى لنا التوفيق.

أصدرت قرارًا بإلحاق أمين عثمان وجورج دوماني ومحمد صلاح الدين ضمن سكرتارية هيئة المفاوضات، كما اخترت عبد الحميد بدوي بك رئيس أقلام قضايا الحكومة مستشارًا قانونيًا مع أحمد ماهر المستشار الاقتصادي.

قابلت الملك مستأذنًا حسب التقاليد المرعية في السفر مع وفد المفاوضات إلى إنجلترا، وقد تحدث معي حديثًا مقتضبًا، وتمنى للوفد النجاح، ولكني لاحظت أن أساريره تنطق بغير ما يقول، واضطرتني الرسميات أن أخرج وأصرح بأن الملك زودنا بالنصائح الغالية والتمنيات الطيبة والنجاح في مهمتنا الخطيرة التي سنسافر من أجلها إلى إنجلترا لحل القضية المصرية.

(٢)

وصلنا إلى لندن وبدأت المفاوضات بقاعة لوكارنو وبعد تبادل الخطب العادية في مثل هذه المناسبة، بدأنا جلسات العمل الجدية، وكان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ قد احتفظ بأربعة تحفظات، هي حراسة قناة السويس، حماية الأقليات، المستشار المالي والمستشار القضائي، قضية السودان وتبعيته لمصر ومسألة مياه النيل، وقد بدأنا نتحدث في هذه المسائل كل على حدة.

اتفقنا تقريبًا على معظم المسائل المعلقة، ولكن مسألة السودان لم نتفق عليها، ذلك أن الوفد البريطاني أصر على أن تظل إنجلترا متولية أمر السودان، ويكفي أن تضمن مصر وصول مياه النيل إليها، ولكني رفضت هذا وأصررت على أن ينص في المعاهدة على أن الملك هو ملك مصر والسودان، وأن التاج المصري هو تاج السودان، وأصر الإنجليز وأصررت، وأرجأنا مسألة السودان إلى أن ننتهي من مسألتي المستشار القضائي وصندوق الدين.

بدأ اليوم الحديث عن الدين المصري للأجانب وكيفية دفعه، ولما تكلم مستر هندرسون

في هذا الموضوع قلت له إنني لست اقتصادياً، ولا ألم بهذه المسألة من جميع نواحيها فهل تسمح بأن أستعين بمستشار الوفد المصري الاقتصادي ليمدني بالمعلومات والوثائق فوافق، فاستدعيت أحمد ماهر وقدمته لهندرسون على أنه متخصص في الاقتصاد، وبدأنا نتحدث في هذه المسألة وبعد برهة قلت لهندرسون بعد أن نظرت في ساعتي أتركك مع المستشار لتكملة البحث وأعود إلى حجرتي الخاصة لأؤدي فريضة الصلاة فوافق، وتركت أحمد ماهر وجهاً لوجه مع هندرسون، وقد قصدت من هذا أن أجعله أمام الأمر الواقع وأن أشرك ماهر فعلاً في المفاوضات رداً على رفضهم اشتراكه رسمياً في الوفد المصري، وقضيت في حجرتي الخاصة وقتاً طويلاً، ثم عدت فوجدت هندرسون يقول لي إنك أوقعتني في شرك فأجبت أي شرك قال أجبرتني على أن أحادث شخصاً غير مرغوب فيه من قبل الحكومة الإنجليزية، واعترضنا على عضويته في وفد المفاوضات فابتسمت وقلت له لا عليك فإني لست اقتصادياً وما كنت أستطيع أن أحل هذه المسألة بغير معونة مستشار اقتصادي.

أثيرت مسألة السودان على بساط البحث مرة أخرى فتمسك الوفد البريطاني برأيه، وتمسكت برأيي وقلت إن التفويض الذي تلقيته من بلادي يقضي علي بألا أفرط في السودان، وهو مسألة حيوية بالنسبة لمصر، فاقترح هندرسون أن تؤجل هذه المسألة حتى أبعث إلى الحكومة المصرية أسأل زملائي رأيهم في هذه المسألة فلعلنا نصل إلى حل، وقبلت هذا الاقتراح، وأوفدت أحد سكرتيري وفد المفاوضات للسفر إلى القاهرة مزوداً بتعليمات سرية مني بأن يعرض على الوزارة هذه المسألة، وقلت له إن رأيت من الوزراء أو أغلبيتهم تساهلاً فانقله إلي شفوياً، وقل لهم إني أرغب أن يرسلوا إلي برقية رسمية يتمسكون فيها بالسودان، ويعلنون أنهم لا يفرطون فيه أبداً حتى أستطيع بها أن أقوي حجتي في المفاوضة ونصل إلى أن التاج المصري تاج مصر والسودان، وشددت على صلاح الدين أن يشرح لهم الموقف ومعارضة الإنجليز العنيفة.

عاد صلاح الدين إلى لندن بعد أن تخلف في روما بعض الوقت وقرأنا في الصحف أنهم أطلقوا عليه الرسول التائه، وقد قص علي أنه عندما قابل الوزراء وأعضاء الوفد رأى منهم ميلاً إلى التساهل في مسألة السودان حتى لا تقطع المفاوضات إلى حد أن بركات باشا قال له قل للنحاس باشا يقبل أي حل حتى نتخلص من جبروت الملك فؤاد، وتدخله السافر في كل شيء، وقال لي كلاماً أكثر من هذا، ولكن صلاح نفذ المهمة بدقة وأمانة وقال لهم لابد أن ترسلوا برقية إلى الباشا تعلنون فيها تمسككم بالسودان وإصرار الأمة على ذلك، وفعلاً وصلتني برقية بهذا الشأن فسررت بها وأطمأننت على أن البلاد وافقت على وجهة نظري.

التقى الوفدان المصريان والإنجليزيان ولما جاء ذكر مسألة السودان قدمت لمستر هندرسون البرقية التي وصلتني برأي الحكومة المصرية، وأعضاء الوفد المصري الذي يمثل الأمة وكيف أنهم متمسكون بمسألة السودان تمسكاً شديداً، فابتسم هندرسون ابتسامة

ماكرة وقال لي هل ما تقوله رأي الجميع أم رأي بعض الأفراد فقلت له طبعًا رأي إجماعي، فأجاب إن المعلومات الرسمية لدي تقول غير هذا إن غالبية الوزارة وأعضاء الوفد يطلبون إليك التساهل في مسألة السودان وقبول الحل الإنجليزي الذي نعرضه وقد حملوا رسولك هذه الرسالة وإن كانوا أرسلوا إليك غير هذا، وكانت مفاجأة عجيبة كيف وصلت إلى هندرسون هذه المعلومات الصحيحة، ولكني كتمت ما في نفسي من ألم وعجب، وقلت له لا هذا رأينا وأنا متمسك به وانتهت المفاوضات بالفشل وقررنا العودة إلى مصر.

اجتمعت بمكرم وبعض أعضاء الوفد وعجبنا كيف وصلت هذه المعلومات إلى هندسون وسألت صلاح الدين فأجابني بأنه لم يقابل أحدًا ولم يفاتح أحدًا في هذا الشأن وإنه حفظ ما قاله له الوزراء وأعضاء الوفد عن ظهر قلب ولم يشأ أن يكتبه حتى لا يقع في يد أي إنسان.

أخذت أنا وزملائي من أعضاء الوفد والوزارة نبحث عمن أرسل البرقية التي سببت قطع المفاوضات إلى هندرسون، وأخيرًا اهتدينا إلى أن الملك فؤاد هو الذي أرسل البرقية المشار إليها إلى صديقه السير إدوارد المستشار القانوني لقصر بكنجهام، وهو بدوره قدمها لمستر هندرسون، ولكن بقي شيء آخر هو من الذي أخبر الملك بهذا السر وهو لم يدون في محضر ولم يتعد مجلس الوزراء، فقال مكرم مادام المصدر هو الملك فؤاد ومادام السر قد نقل إليه شخصيًا فلابد أن يكون من بين الوزراء أو أعضاء الوفد رجل له صلة بالقصر هو الذي قام بهذه المهمة.

واستنتج مكرم أن يكون الغرابلي بحكم المصاهرة التي تربطه بزكي الإبراشي ناظر الخاصة هو الذي نقل هذا الخبر، ولكني كقاض قلت لمكرم ليس لدينا دليل، ولا يليق أن نصدق التهمة لمجرد تخمين ولكنه أصر على رأيه.

حركت قانون الاجتماعات، وأمرت بإعداد صيغته لتقدم إلى مجلس النواب حتى يوافق عليه، وتكون البلاد حرة في عقد اجتماعات عامة أو طائفية دون احتياج إلى تصريح مسبق من وزارة الداخلية وطلبت إلى رئيس المجلس ويصا واصف بك أن ينظر في هذه الدورة.

لم يكد يعلن عن تقديم قانون الاجتماعات للبرلمان حتى قامت قيامة دار المندوب السامي، وبعث إلي باحتجاج رسمي وطلب سحب القانون فرددت عليه في شدة بأن هذه مسألة داخلية ليس لك أن تتدخل فيها لأنها من صميم شؤوننا وحدنا وبدت بوادر الأزمة في الأفق، وظهر بجلاء أن الإنجليز يبيتون أمرًا.

علمت من عدة مصادر أن المندوب السامي غضب غضبًا شديدًا من لهجة الرد الذي أرسلته إليه الخاص بقانون الاجتماعات وأوعز للملك ألا يوقعه إذا صادق مجلس النواب عليه، بل إنه أخذ يتصل ببعض المعارضة ليحول دون الموافقة عليه.

أخذت الأحاديث تتناقل بأن العراقيل توضع في وجه الوزارة، حتى لا تستمر في الحكم وأن القصر يلعب دورًا خطيرًا في هذا الصدد، ولما علم بعض النواب بهذه الأنباء ثاروا

وغضبوا ولم يكتموا سخطهم على التدخل السافر للقصر وقام الأستاذ عباس العقاد فقال بأعلى صوته في جلسة مجلس النواب إننا على استعداد لأن نحطم أكبر رأس في البلاد تقف حائلاً دون مضي البرلمان في عمله، أو تحاول المساس بالدستور سيد القوانين.

أرسلنا عدة مراسيم إلى القصر الملكي بمسائل عادية لإنجاز الأعمال الإدارية وانتظرنا أن يوقعها الملك فلم يفعل، واتصلنا برئيس الديوان فكان التهرب وكانت المماطلة فأدركت أن الطبخة قد تمت وأن دار المندوب السامي والملك قد اتفقا على إحراج الوزارة، والإساءة مرة أخرى إلى الدستور فجمعت إخواني واتفقنا على الاستقالة فرأى بعضهم أن نتريث عدة أيام حتى ينجلي الموقف تماماً.

انجلى الموقف وأخذت صحف المعارضة والصحف الإنجليزية التي تعبر عن رأي المندوب السامي، تعرِّض بالوزارة وتعلن بصراحة أنها غير مرغوب في بقائها، وأن الإدارة الحكومية أصبحت مشلولة تماماً.

استقر رأينا على أن نقدم استقالة الوزارة للملك ما دام الموقف قد أصبح حرجاً إلى هذا الحد وأصبحنا لا تستطيع أن نؤدي واجبنا الوطني على الوجه الأكمل الذي يرضي ضمائرنا، ويتفق مع الثقة التي أولتنا الأمة إياها وأخذنا نعد جواب الاستقالة.

(٣)

قدمت للملك استقالة الوزارة وقد ذكرت له فيها أنه نظراً لعدم تمكننا من تنفيذ برنامجنا الذي قطعنا على أنفسنا العهد بتنفيذه، فإني أقدم استقالة الوزارة التي أتشرف برياستها.

تلقيت من القصر الملكي كتاباً بقبول الاستقالة مع الكلمات المعتادة التي يقولها لكل حكومة، وهي الشكر لي ولزملائي على ما أمكننا أداءه من أعمال أثناء قيامنا بأعباء منصبنا، وانتظرت ما تأتي به الأحداث.

صدر أمر ملكي لإسماعيل صدقي باشا بتأليف الوزارة الجديدة، فلما قرأت الخبر قلت بدأنا جهاداً جديداً أشق وأمر مما مضى، وسنظل ندور في حلقة مفرغة حتى يأذن الله لصبح الحرية أن يطلع، ودعوت الوفد للاجتماع للنظر في هذه الحالة كما دعوت الهيئة الوفدية البرلمانية، ولقد أشار علي بعض الزملاء أن أتريث حتى نرى برنامج الوزارة ولكني قلت لهم إن الكتاب يقرأ من عنوانه وماذا ننتظر من المندوب السامي الذي يدخل أنفه في كل صغيرة وكبيرة أو من ملك صنيعة الإنجليز ينفذ كل الأوامر والتعليمات على العين والرأس خشية أن يهتز كرسيه أو يؤتى بغيره ليشغل مركزه.

بدأت الوزارة أعمالها بأن حلت البرلمان، ثم ثنّت بأن ألغت الدستور وأعلنت أنها ستضع دستوراً جديداً غير دستور عام ١٩٢٣ الذي قال عنه عبد العزيز فهمي باشا إنه ثوب فضفاض، واهتزت البلاد لهذا النبأ الخطير، وعلم الكل أن البلد ستحكم بالحديد والنار حكماً يطغى على اليد الحديدية التي حكم بها محمد محمود، ولم نشأ أن نقف مكتوفي

الأيدي، وعمد صدقي إلى مطاردة الوفديين في كل مكان وأخذ يفصل الموظفين المنتمين إلى الوفد ويعين مكانهم من يطمئن إلى أنهم سينفذون سياسته.

اجتمعت الهيئة الوفدية بكامل هيئتها ولم يتخلف واحد حتى المرضى جاءوا لحضور هذا الاجتماع وكان حماسيًا جدًا ألقيت فيه الخطب النارية، وأعلن الجميع استعدادهم للجهاد حتى آخر لحظة والتضحية بكل ما يملكون، ولم يكن يخفي عليهم أن صدقي سيرتكب من الجرائم ما لا يخطر على بال، وأنهم سيلاقون من ر جال الإدارة الضغط والعنت والإكراه ولكنهم صمموا على الثبات والاحتمال مهما تكن الظروف وقد عرض عليهم قرارات الوفد التي جاء فيها أن حل البرلمان عمل غير قانوني، ولا دستوري وأنه اعتداء صارخ على حقوق البلاد، وأن إلغاء الدستور جريمة يجب محاربتها وأننا لا نعترف بحل البرلمان ونعتبره قائمًا، ونعتبر الدستور لا يزال ساريًا، وقد كان اجتماعًا مهيبًا خرجنا منه أشد تصميمًا على محاربة كل عبث بالدستور أو بالحياة النيابية، وأن الوزارة التي جاء بها الإنجليز لحرب الأمة وزارة معتدية متجنية ولا يمكن بحال من الأحوال أن تستمر في الحكم أو يعترف بها، وأن البرلمان سيجتمع في الموعد المقرر له في الدستور، وهو الأسبوع الثالث من شهر نوفمبر إن شاء الله. لم تكد تنشر قرارات الهيئة الوفدية في الصحف حتى قامت قيامة الحكومة، وأخذت تحارب الصحف التي نشرت هذه القرارات، ونبهت على الصحف المحايدة كالأهرام ألا تنشر قرارات الوفد كما نبهت على بقية الصحف كذلك وإلا تعرضت للتعطيل.

حصرت الوزارة اهتمامها في تغيير الموظفين، وفصلهم ونقلهم، وعمدت إلى القضاة ووكلاء النيابة المعروفين بميولهم الوفدية، فشردتهم إلى أقاصي البلاد، وإلى رجال الإدارة من مديرين ومأمير وموظفين ففصلت عددًا كبيرًا جدًا منهم وشردت الباقين، ثم أخذت تعطل كل صحيفة تؤيد الوفد أو تنتقد الحكومة.

للمرة الثالثة تعطل الوزارة صحيفة يومية أخرى حررها توفيق دياب، وطالب بعودة الدستور، وظلت الوزارة بالمرصاد لكل صحيفة تصدر، حتى بلغ ما عطلته في شهر واحد أكثر من خمس عشرة صحيفة، ولكن هذا كله لم يفت في عضد الوفديين ولا نال من حماستهم أو وطنيتهم. وقد أبوا إلاّ أن يخرجوا الصحيفة وهم يعلمون أنها لن تمكث أكثر من يومين أو على الأكثر أسبوعًا واحدًا.

(٤)

بدأ رجال الإدارة يتفننون في حرب الوفدين، فمن قبض عليهم بتهم ملفقة، أو إتلاف زراعتهم إلى حرق محاصيلهم إلى حبس مياه الري عنهم، إلى مراقبتهم في غداوتهم ورواحهم، إلى غير ذلك من الأساليب. نظرت محكمة الجنايات قضية الأستاذ عباس العقاد وحكمت عليه بالسجن عامًا مع الشغل ورحل إلى سجن قرة ميدان بالقلعة ليقضي العقوبة ولم أعجب لهذا الحكم لأني كنت أخمنه مقدمًا، ولكن آلمني أن العقاد مريض لا يحتمل

السجن، ولكنها تضحية من التضحيات وضريبة حق الوطن على أبنائه.

ذهبت إلى مكتبي في بيت الأمة فرأيت عدداً كبيراً جداً في استقبالي وظلوا يهتفون طويلاً بحياة الوفد والدستور والحياة النيابية وقد تقدم إليّ عدد منهم رأيته لأول مرة، فإذا بهم المفصولون السياسيون الذين حاربهم صدقي في لقمة العيش فزاد هذا من ألمي ولكن شجعتهم بكلمات طيبة وكلفت مكرم أن يحاول إلحاقهم بأعمال في أي ناحية من النواحي لكي يواجهوا مطالب الحياة، وفعلاً بدأ في البحث لهم عن الأعمال التي يمكنهم أداءها.

كان ضريح سعد قد أفرغ من إنشائه، فقررت الحكومة إلغاء قرار نقل رفات سعد إليه ونقلت بدلها جثث مومياوات قدماء المصريين من المتحف، لا حول ولاقوة إلا بالله ألم يكف صدقي عن حرب الأحياء فامتدت يده الأثيمة إلى حرب الأموات.

أخيراً أصدر توفيق دياب صحيفة سماها الجهاد وكتب عليها لسان حال الوفد المصري ووضع لها شوقي الشاعر شعاراً جاء فيه: - قف دون رأيك في الحياة مجاهداً - إن الحياة عقيدة وجهاد.... وقد كتب لها أن تعيش وألا يعطلها صدقي ثاني يوم أو ثالث يوم صدورها.

اجتمعت الهيئة الوفدية برمتها بالنادي السعدي في الموعد المحدد، وهو الساعة العاشرة صباحاً، وركبنا سياراتنا يتقدمنا الأستاذ ويصا واصف رئيس مجلس النواب وقصدنا إلى المجلس، فوجدنا الحرس البرلماني يقف على الأبواب فأمرهم ويصا في شدة أن يخلوا الطريق ففعلوا وتقدم وأمر بعض من كانوا معنا بتحطيم السلاسل التي تحيط بالأبواب، وفتح المجلس ودخلنا قاعة النواب واجتمع الأعضاء برياسة ويصا واصف واتخذنا قرارات باستنكار عمل الحكومة بغير الدستور، وأعلنا احتجاجاً صارخاً على العبث بالدستور وتعطيل الحياة النيابية كما أعلن النواب بالإجماع أنهم لا يقرون هذا العبث ولا ينفذونه وأنهم لا يزالون نواباً عن الأمة، وأعضاء في برلمانها المنتخب انتخاباً حراً.

قامت قيامة الحكومة وجن جنونها، وحاصرت البرلمان من جميع جهاته بقوات كبيرة من رجال الجيش والبوليس، وأصدرت لهم الأوامر بإطلاق الرصاص على النواب إن حاولوا أن يعودوا للاجتماع مرة أخرى، وأن يمنعوهم بكل الوسائل ويقبضوا عليهم بلا هوادة ولا رحمة، ولكن كان السهم قد نفذ وأثبت نواب الأمة أنهم رجال، وسجلوا على القوة الغاشمة عسفها وبطشها وعبثها بالقوانين، وانتصرت كلمة الحق وتناقلت الأسلاك والأنباء هذا الحادث الذي كان حديث العالم كله وهز إنجلترا وممثليها هزة عنيفة.

فوجئت مفاجأة تتعلق هذه المرة بشخصي وهي حربي في رزقي فقد أخبرت أن صدقي باشا أصدر قراراً بتخفيض معاشي من ١٢٥ جنيهاً إلى ٦٧ جنيهاً، وهذا المعاش هو كل ما أحصل عليه وليس عندي سواه فلقد أنفقت كل مدخراتي من المحاماه أيام كنت اشتغل بها في شئوني وشئون عائلتي المكونة من تسعة أشخاص هم شقيقتي الأرمل وأولادها الثمانية، أربعة منهم ذكور وأربع إناث أتولى شئونهم من تعليم وكل مطالب الحياة، وكان

المعاش يكفي بالكاد إذ كان عندي سيدة إيطالية تعهدت الصغار من طفولتهم وتولتهم، وكنت أعطيها المعاش لتنفقه علينا وتكفينا حسبما يكون، فلما جاءني هذا النبأ وجمت وتألمت وقلت سبحان الله ألم يكف هذا الرجل الفاجر أن يحاربنا من الناحية الوطنية فيعمد إلى أحط أنواع الحرب في الرزق ورزق من، رزق أطفال صغار وأرمل مسكينة وأخذت أفكر ماذا أصنع في هذه الكارثة... لم أتأثر من الناحية العامة ولكني تألمت من ناحية الأسرة التي في عنقي ثم أخذت أفكر كيف السبيل إلى حل هذا الإشكال دون أن أظهر ضعفًا أو تأثرًا أمام خصومي حتى لا يشمتوا ولا يظنوا أني ضعفت أو استكنت وقضيت ليلة لم أذق فيها طعم النوم، وفي الصباح الباكر ارتديت ملابسي، ونزلت إلى حديقة المنزل على غير عادتي وأخذت أتمشى ذهابًا وجيئة، ودخل علي سكرتيري الصحفي وأنا في هذه الحال من الاضطراب، فسألني خيرًا قلت إن صدقي خفض المعاش، بحيث لا أستطيع مواجهة المطالب الضرورية، فقال ألا تكلم أعضاء الوفد من الموسرين أمثال حفني باشا الطرزي أو محمد الوكيل باشا أو سيد بهنس أو بولس حنا باشا أو سينوت حنا وهم والحمد لله موسرون ولا أظن أحدًا يتردد في أن يقرضك مبلغًا تحل به هذه الأزمة مؤقتًا حتى تدبر الأمر، فقلت له لا يمكن يابني أن أتحدث مع أي واحد من هؤلاء في مسألة من أخص خصائصي كهذه، وظللت أتمشى في الحديقة والأفكار تتزاحم في ذهني وبعد فترة من الوقت طرأت على ذهني فكرة فابتسمت وقلت يابني ناد سائق السيارة وهيا بنا إلى بنك مصر وسأقابل طلعت حرب باشا وأتحدث معه في أن يقرضني سلفة أغطي مصاريفي حتى أرفع الأمر إلى القضاء، وأنا مطمئن بعون الله إلى أن الحكم سيكون في صالحي، لأن قرار الحكومة قرار جائر لا يستند إلى قانون، ولكن بقي شيء، البنك عادة يطلب ضامنًا ولست أدري من يضمنني فقال سكرتيري إن أى عضو من أعضاء الوفد يضمن وما خلته يرفض فقلت هيا بنا والله يفعل ما يريد، ووصلت إلى بنك مصر فاستقبلني فؤاد سلطان بك وكيل البنك. وقابلني طلعت باشا على الفور وتحدثت معه في الموضوع وفي أني أفكر في حالة موافقتك على السلفة أن آتي لك بشخص من الموسورين ليضمنني طبقًا لقانون البنك. فابتسم طلعت باشا وقال ياباشا هذا كلام لا يصح... إذا كانت مصر كلها ونحن من أبنائها ائتمناك على قضيتنا، أفلا أئتمنك على عدة آلاف من الجنيهات ثم نادى سكرتيره وقال له حول الآن مبلغ خمسة آلاف جنيه إلى حساب الباشا الجاري في البنك ليكون تحت تصرفه فإذا أوشك هذا المبلغ على الانتهاء فحول له مبلغًا أخر حتى تنتهي هذه المحنة بسلام والتفت إليَّ وقال ياباشا البنك ورئيسه ومجلس إدارته في خدمتك وودعنا حتى السلم الخارجي وخرجت مسرورًا شاكرًا الله أنعمه أن وفق ويسر حل هذه الأزمة التي ظن صدقي أنها ستنال مني أو ستلهيني عن الجهاد في سبيل تحقيق آمال البلاد.

انتشر خبر تخفيض المعاش بين الأوساط كلها فجاء أعضاء الهيئة الوفدية وعدد كبير من الأغنياء والموسرين يعرضون علي أموالهم، فاعتذرت شاكرًا وقلت لهم إن المسألة انتهت، وإن طلعت باشا حرب أكرمه الله قد حلها على أحسن وجه وأكمله، وتجاذبنا أطراف الحديث في مروءة طلعت باشا وشهامته وكرم نفسه، وصرحت أمامهم بأن هذا

جميل لن أنساه لطلعت حرب طيلة حياتي، ثم كلفت بعض الأساتذة المحامين برفع الدعوى ضد هذا القرار الجائر.

جاءت الأنباء بأن حرب الوفديين واضطهادهم بلغ أقصى منتهاه فقد عذب عبد العليم سمهان عضو الهيئة الوفدية عن ديرمواس وقبض على أبيه وحرقت زراعته وسممت مواشيه وجردوه من كل شيء، كما فعل مثل هذا بالشيخ حسيب عبادي حمدين بإدفو ونادي راشد بأسوان وعدد كبير من أهالي قنا والأقصر وأسيوط أمثال عبد الستار عمران وحسن الوكيل وإمام أبو العلا وغيرهم، كما جاءت الأنباء بأن محمد الشناوي بك ومحمود عبد الغني بك وأسرة الأتربي بأخطاب وأسرة أبو الفتوح ببلقاس وغيرهم وغيرهم من أبناء دمياط وطنطا والإسكندرية ودمنهور وبنها والمنوفية وجميع أعضاء الوفد ولجان الوفد المنتشرين في بلاد القطر جميعها يلاقون من الحرب القذرة والأساليب المنحطة ما لا يحتمله أحد ولكنهم يقاومون ويحتجون ويخرجون من السجون ليعودوا إليها ومع كل ذلك فهم متمسكون بوفديتهم، حريصون على مبادئهم، لا يلينون ولا يضعفون، ألا بارك الله فيهم وقوى من عزائمهم وهو سبحانه وتعالى المسئول أن يكشف عنا وعنهم هذه الغمة، وأن يعيد للأمة حقها، وينصرها على أعدائها، إنه نعم المولى ونعم النصير.

(٥)

زرنا المنصورة من يومين، فرأينا فيها عجبًا ... لقد وصلنا إليها فإذا بها قلعة محصنة بفرقة كاملة من رجال الجيش المصري فضلاً عن رجال البوليس المنتشرين في كل مكان، وحاولنا بكل الوسائل أن نذهب إلى حيث مكان الاحتفال، وسمحوا لعدد قليل منا وركبنا سيارة مكشوفة وكان معي فيها سينوت حنا بك عضو الوفد المصري، وحاولت قوات الجيش والبوليس أن تمنع الجماهير المتحمسة فلم تستطع، وكانت معركة حامية سقط عدد كبير من الجرحى وقبض على مئات المواطنين، ولم نعلم بهذا الخبر إلا بعد أن وصلنا إلى مكان الاحتفال وألقيت الخطاب وأظهرت الجماهير من الحماسة والوطنية ما يفوق كل وصف، وسارعنا بالعودة حتى لا نكلف المواطنين إرهاقًا فوق ما تكلفوه وعدنا كما جئنا في السيارة المكشوفة ومعي سينوت بك وفي هذه المرة زادت قوات الجيش وبرز رئيس القوة وهو برتبة لواء وأصدر أوامره للجنود والضباط بالهجوم على سيارتنا وتقدم عدد منهم بالسنك والبنادق وهموا بالاعتداء عليّ، وبينما كان أحد الجنود يصوب السنكة المسنونة إلى صدري حماني سينوت وتلقى السنكة في صدره فجرح جرحًا بليغًا وسقط في السيارة مغشيًا عليه، فهاجت الجماهير وماجت وتقدمت تلقي الأحجار والحصى على الجنود وقائدهم حتى انسحبوا بعيدًا وسارعنا إلى الإسعاف، فعملت الإسعافات الأولية وحاولنا إبقاء سينوت حنا فى المستشفى بالمنصورة، ولكنه أفاق وتحامل على نفسه وأصر أن يصل إلى مصر، ولازمه عدد من الأطباء الذين كانوا معنا وظلوا يسعفونه ويعنون به حتى وصلنا محطة القاهرة، وسارعوا فنقلوا سينوت إلى المستشفى حتى أجريت له عملية وضمد الأطباء المختصون جرحه ولم أتركه إلا في ساعة متأخرة من الليل بعد أن اطمأننت

أنا وإخواني أعضاء الوفد وشقيقه بولس بك حنا وكريمته وزوجها إميل ألكسان بك عليه.

أذن الأطباء لسينوت بك حنا بالخروج إلى داره على أن يلازم الفراش عدة أيام ولا يباشر عملاً حتى يلتئم الجرح تمامًا، وقد عاد إلى داره التي ذهبنا إليها أنا وجميع إخوانه وقضينا وقتًا طويلاً نتحدث في هذا الحادث ولطف الله الذي قدر وكانت وطنية سينوت بك وأسرته بالغة الحد إذ أظهر من الشعور والإخلاص والكلمات الوطنية الحارة ما أخجل تواضعي وأثر في نفسي تأثيرًا بليغًا.

التحقيق

(١)

يسجل (توفيق الحكيم) في «يوميات نائب في الأرياف» مشهدا فريدًا لانتقال التليفون، رمز السلطة في ذلك الوقت من بيت العمدة القديم إلى بيت العمدة الجديد، في إثر كل تغيير وزاري، حيث يخرج من بيت الأول تشيعه النسوة وهن متشحات بالسواد، بينما تتلقفه أيدي نسوة العمدة الجديد وأهله بالزغاريد والأفراح والزينات.

وهكذا كانت كل حكومة جديدة تبدأ عملها بمحاولة ملأ مفاصل الجهاز الإداري للدولة بأنصارها، بعد طرد الخصوم منه، وقد استهلت وزارة النحاس عملها بإحالة ثمانية مديرين وعدد كبير من كبار الموظفين إلى المعاش، وكما يقول (الرافعي): فإن: "هذه الحركة أحدثت ضجة استياء وقلق بين الموظفين، وقوبلت بالأسف من غير الموظفين، وكانت حجة الوزراء أن هؤلاء الموظفين قد ناصروا الانقلاب وأيدوه وشاركوا وزارة محمد محمود في اضطهادها للشعب. وتلك لعمري حجة واهية..."

كان التعبير الموحد الذي كتب في كل طلب بالفصل من الوظيفة مرفوع إلى مجلس الوزراء، يقول نصه:
"حيث أن مثل هذا الموظف أصبح لا يؤتمن على وظيفته ومن المصلحة العامة فصله من الخدمة، فالمرجو موافقة المجلس على ذلك... توقيع مصطفى النحاس..."

ولم يتوقف الأمر عند كبار الموظفين بل وصل إلى ما دون شيخ الخفر في كل قرية، بل إن الوفد رفد أربعين عمدة دون حتى أن يمهلهم وقت في الوزارة ليعين بدلاً منهم.

ولقد أرسى ذلك التقليد الذي اتصلت حلقاته نتائج وخيمة على الجهاز الإداري للدولة، فقد كادت الوزارة نفسها أن تصبح أداة فوضى في الحياة العامة، وعلى حد تعبير د. عفاف لطفي السيد فإنه: "حتى في أسوأ أيام الحكومة في عهد الاستبداد الملوكي فقد كانت هناك درجة معينة من الاستمرار الإداري." لم تشهدها تلك الأيام.

ويمكننا أن ننتهي إلى تلك النتيجة بوضوح، وآثارها المستقبلية الوخيمة على جهاز الدولة من خلال مراجعة ملف (عبد القادر مختار أفندي) الضابط بجهاز الشرطة. فقد رقي المذكور في وزارة سعد زغلول من مأمور مركز الدلنجات إلى وكيل لمديرية محافظة الغربية، فلما جاءت وزارة (زيور) أحالته إلى التقاعد وحين جاءت وزارة النحاس المذكورة أعادته إلى الداخلية كمدير لمحافظة الشرقية، وحين يجيء الدور على وزارة صدقي تقوم بإصدار قرار بـ: "فصل حضرة عبد القادر مختار أفندي مدير الشرقية من خدمة الوزارة".

ـحظ أنه في الأسبوع الثاني لتأليف وزارة النحاس، أعلن عمال شركة النور ب إسكندرية الإضراب عن العمل، وكذلك عمال ورش العربات في عنابر السكك الحديد، وعمال المناديل في القاهرة (بعد خفض أجورهم من ١١ مليمًا إلى ٦ مليمات للقطعة) وكذلك

عمال مصنع كاسيمس للدخان حيث زيدت ساعات عملهم من ٨ إلى ١١ساعة يوميًا.

ووفق تقارير بوليس القاهرة لعام ١٩٣٠ فقد أضرب عمال النسيج، وعمال تلوين قماش الموسلين، وشركة سيارات الأتوبيس، وعمال فابريقة الأسمنت بحلوان، ومصنع بركات لصناعة الطوب في بولاق، وكذلك طلاب المدارس وأسرفت الحكومة الوفدية في تقديم الوعود وهو ما كانت تملكه بالفعل، وحين طالبت أربع عشرة نقابة عمالية بسرعة عرض تشريع العمال على هيئة الشيوخ والنواب وسرعة إصداره بالدورة البرلمانية – كما ورد في خطاب العرش – خيبت حكومة الوفد – كما يقول أمين عز الدين – الآمال في إصدار التشريع العمالي، وعجزت عن اتخاذ تدابير حاسمة لمواجهة آثار الأزمة الاقتصادية.

(٢)

قبل الوفد في هذه المفاوضات ما رفضه في جميع مواقفه التفاوضية السابقة أو في خطابه السياسي العام، وهو الترخيص بوجود عسكري بريطاني في منطقة القنال بغض النظر عن حجمه وعن رقعة الأرض التي يهيمن عليها، وإن كان ذلك محل تشدد من الوفد المصري كما تظهره وثائق جلسات التفاوض ذاتها، وقد ظهر النحاس على درجة كبيرة من الصلابة في التمسك بنقاط جوهرية سواء على صعيد المسألة السودانية أو الاحتلال العسكري البريطاني، فقد أصر على أن تتضمن نصوص المعاهدة: إلغاء وظائف المفتش الإنجليزي العام والموظفين التابعين له وسحبهم من الجيش المصري وتسليم بريطانيا بأن الدفاع عن قنال السويس التي هي جزء لا يتجزأ من مصر يقع على عاتق مصر دون سواها، ولهذا فقد تمسك بصياغة مفهوم أقرب إلى الصحة على الصعيدين النظري والتطبيقي لأوضاع السيادة المصرية.

أما بالنسبة لمسألة السودان وهي التي أجهزت على الاتفاقية في مرحلتها النهائية، فقد أصر على فتح الباب لمناقشة الوضع السياسي للسودان كاملاً بعد عام واحد، وهو ما وضعته المصادر الإنجليزية وقتها بأنه كان يشكل تغيرًا مفاجئًا في خطاب الوفد أثناء المفاوضات.

(٣)

هناك من يرى أن النحاس قدم استقالته مترقبًا هبة شعبية قوية تعيد تثبيته في موقعه، بإجبار الملك على عدم قبول الاستقالة، ولعل شيئًا من ذلك يمكن أن تشي به إجراءات تقديم الاستقالة في البرلمان والتحريض الذي عقب به أحمد ماهر على كلمة النحاس مخاطبًا النواب بأن "تسمع الأمة صوتكم"، وهو المناخ الذي أضرم النار في كلمات العقاد معقبًا على تحريض (ماهر) بحديثه عن "سحق أكبر رأس في البلاد".

ولهذا فإن (بركات) اتهم (النحاس) بإقامة ديكتاتورية، مؤكدًا أن أحدًا في الوزارة لم يكن يجرؤ على معارضة النحاس أو مجادلته، ومن المؤكد أن (بركات) بوضعه الاجتماعي

لم يكن من أنصار تأجيج الصراع، حتى إنه في مرحلة تالية وعندما فتح (صدقي) مدفعيته الثقيلة على جميع الفرقاء السياسيين وفي مقدمتهم الوفد، اقترح (النقراشي) كشكل من أشكال العصيان أن يمتنع أعضاء الوفد عن تسديد الضرائب للحكومة، فكان رأي بركات أن البنوك بالتالي ستوقف القروض وتحجز على الرهونات. وبذلك سيحل خراب مالي بكل ملاك الأراضي.

والحقيقة أن الديون العقارية كانت قد وصلت إلى ٣٠ مليون جنيه، وجملة الأراضي المملوكة للبنك العقاري تساوي ٣ ملايين و ٣٤٠ ألف فدان، أي أن كل الأراضي الزراعية المصرية والملكيات التي تزيد عن خمسة أفدنة كانت مغطاه تماماً بالديون، ومرهونة بالكامل.

وحين رد النقراشي على بركات قائلاً: "وماذا لو أن مائة من ملاك الأراضي الأثرياء قد عـــانوا"... استطرد بركات قائلاً: "وما الذي يضيرك لأنك لن تكون الشخص الذي سيعاني". كانت المواجهة بحدتها وعنفوانها تحتاج إلى زاد جديد.

ولذلك بدت مقدمات فرز اجتماعي حاد، لا في الوفد وحده، ولكن على المسرح السياسي كله، لأن المواجهة أوشكت أن تصطبغ بالدم.

وحين قرر الوفد أن يخرج النحاس على رأس أعضاء مجلس النواب المنحل في مظاهرة كبيرة تقتحم أبواب البرلمان، وعلم صدقي بذلك، أطلق إشاعة قوية بأن البوليس سيقاومها بضرب النار، وأن النية مبيتة على قتل النحاس شخصياً، وكانت النتيجة أن الوفد عدل عن هذا القرار، واكتفى بإرسال عريضة إلى الملك.

وتعلق (فاطمة اليوسف) قائلة:

"لقد كان الناس يترقبون ما سيحدث في ذلك اليوم، وقد توترت أعصابهم إلى أقصى حد، فلما تمخض الموقف عن عريضة، كانت خيبة الأمل بالغة!"

(٤)

دخل الصراع السياسي في دائرة تهشيم العظام أو التحطيم الكامل.

فقد كان على (صدقي) أن يثبت أنه قادر على إنجاز المهمة التي انتدب لها، وهي تحطيم أية مقاومة سواء أكانت ممثلة في الجماعات الحزبية المنظمة أم في جماعات الضغط غير المنظمة، مع احتدام الصراع الاجتماعي، وتصاعد نذره في شكل هبات تلقائية وعنف منظم.

وفي ٢٥ أغسطس قبض على (حسين محمد طه) خريج كلية (جوردن) والموظف بهندسة السكك الحديدية وهو يرتدي زي خدم مركبات القطار في العربة المخصصة لرئيس الوزراء، وتبين أنه اندس بين الخدم لكي يقتله ببلطة مرهفة أخفاها تحت قفطانه الأبيض (وقد توفي ١٩٣٢/١/١٤ بعد أن ظل - كما قالت التقارير - مضرباً عن الطعام!)

والواقع أن مقدمات العنف كانت تطرق معه الأبواب بشدة، لقد صدر بعد ذلك أمر ملكي

بإلغاء دستور ١٩٢٣ وحل مجلس الشيوخ والنواب وإعلان دستور جديد، وصدر قانون جديد للانتخاب ألغى الانتخاب المباشر، ومنح حق الترشيح للبرلمان عن كل من يزاول أحد المهن الحرة في بلد غير القاهرة.

لقد تحول الدستور بموجب هذه التغييرات إلى منحة من الملك (غير قابل للتعديل لمدة ١٠ سنوات - قيد حق مجلس النواب في الثقة أو عدم الثقة بالوزارة - جعل الصحف عرضة للتعطيل بقرار من محكمة الاستئناف - أعطى الملك حق إبطال أي قانون يقره البرلمان.)

كان صدقي يعرف مهمته جيدًا حتى قبل أن يبدأ في مباشرتها يقول محمد علي علوبة: "عندما كلف إسماعيل صدقي بتأليف وزارته عرض عليّ أن أكون معه، وتقابلنا ثلاث مرات آخرها في منزله بحضور المرشحين معه وزكي الإبراشي ناظر الخاصة الملكية وشوقي باشا السكرتير الخاص للملك، وألحوا عليّ في دخول الوزارة فسألت إسماعيل صدقي عن رأيه في الدستور القائم الذي اشتركت في وضعه، فكانت إجابته مبهمة إذ قال لي: "إننا نبحث معًا في أمر الدستور، ونقرر ما نراه لمصلحة البلاد". وتفهمت من ذلك وجود رغبة في تغيير الدستور، فاعتذرت نهائيًا...!"

• وهو ما يؤكده (هيكل) نتيجة لقائه بصدقي قبل إعلان الوزارة، يقول محمد حسين هيكل: "قابلت صدقي باشا يومًا... فأخبرني أن صاحب العرش سيكون أوسع سلطانًا مما يجيزه الدستور القائم...."

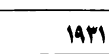
بل إن صدقي باشا نفسه يقول في مذكراته إنه: "لما نقل إلى زكي الإبراشي باشا رغبة الملك، رجوته أن يبلغ جلالته، أنه إذا تم ذلك فستكون سياستي أن أمحو الماضي بما له وما عليه. وقد وافق على هذه السياسة..."

(٥)

بلغ عدد الجرحى في هذه المواجهة ١٤٧ جريحًا إضافة إلى أربعة قتلى من الأهالي وثلاثة من قوات الجيش والشرطة، ولم يكن قائد القوة برتبة لواء، وإنما كان برتبة أميرالاي (أي عميد) وقد رقي بعد هذه المواجهة استثنائيًا إلى رتبة اللواء، في حين تمت معاقبة ضابط آخر اسمه محمد أمين أبى استعمال القوة مع الأهالي في الزقازيق إلى الاستيداع، كما عوقب - أيضًا - البكباشي أبو المجد الناظر مساعد حكمدار الدقهلية، وقد قدم شكوى بعد ذلك بسنوات ينطق نصها الذي مازال محفوظًا بدار المحفوظات بطبيعة المرحلة فسادًا وإفسادًا...

يقول نص شكوى البكباشي أبو المجد:
"...في شهر نوفمبر ١٩٣٠ قصد حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا زيارة بعض الأصدقاء بمديرية الدقهلية.

فأمرني بعض الرؤساء أن أذهب إلى جهة معينة كان يقصد زيارتها ومعي قوة لأحول دون وصوله إلى ذلك المكان، وأوامر أخرى شفوية، لا تتفق مع القانون، فرجوت أولي الشأن في معافاتي من هذه المأمورية فصمموا على التنفيذ واعتبروا طلبي ترددًا في إطاعة الأوامر إلى وزارة الداخلية، فأوقفتني عن العمل وكان تحقيقًا، انتهى بقطع خمسة عشر يومًا من راتبي ونقلي وتأخير تثبيتي. وقد جرت الانتخابات لمجلس النواب أثناء وجودي والتثبيت بغير حساب لكل من ساهم فيها، وأخيرًا وبعد سنتين كاملتين وأكثر صدر قرار تثبيتي في رتبة الصاغ اعتبارًا من ١٥ سبتمبر ١٩٣٠ مع أنني منحت هذه الرتبة في يونيو ١٩٢٩، وأضاعوا علي سنة وأربعة أشهر قضيتها في هذه الرتبة مؤديًا أعمال مأمور مركز البداري وقويسنا، ووضعوني في كشف الأقدمية في آخر من ترقوا معي في هذا الدور...!"


١٩٣١

(١)

أخذت الأنباء تأتي بما تفعله الحكومة ورجال الإدارة بالمواطنين، فكنت أتلقى أخبار اضطهاد أهالي أسيوط وقنا والأقصر وأسوان والمنيا ولا أكاد أفرغ منها حتى تأتي أنباء طنطا وشبين الكوم وبورسعيد ودمياط والمنصورة وبنها والمطرية والمنزلة والإسكندرية والسويس ورشيد، ولم يبق بلد أو قرية فيها لجنة للوفد عامة أو فرعية إلا أرسلت البرقيات تصف ما تلاقيه، وما تلاقيه الأسر الكريمة من جرائم تشيب لها الرؤوس.

ووردت الأخبار أن ر جال الإدارة أخذوا يبتكرون أساليب جديدة، منها أنهم يقبضون عليهم ويودعونهم السجن ويحلقون شواربهم وشعورهم ويصفونهم بأنهم حريم، وأنهم يضربونهم ضربًا مبرحًا بالهراوات والعصي ولم يبالوا بمراكز الأسر ولا بمكانتهم بين مواطنيهم، حتى إن المواطنين اضطروا للدفاع عن أنفسهم بأنفسهم وكانت المعارك متبادلة بين البوليس وبينهم وفي كل يوم يسقط ضحايا من الطرفين.

بعد عدة اتصالات بين الوفد والأحرار الدستوريين انتهى إلى ائتلاف بينهما على محاربة الحكومة التي عبثت بحقوق البلاد، وطغت وبغت حتى ضج منها الجميع، وقد اتفقنا على أن نقوم برحلات إلى عواصم المديريات تلبية لدعوة المواطنين الذين وصلت إلينا منهم عشرات وعشرات من الدعوات.

بعد الائتلاف بين الوفد والدستوريين قررنا تلبية دعوة بعض المواطنين وأعلنا أننا سنزور الوجه القبلي واستأجرنا لذلك قطارًا خاصًا من السكة الحديد فسمحت لنا وفي اليوم المحدد ركبنا القطار أنا ومحمد محمود باشا وأعضاء الوفد وأعضاء حزب الأحرار الدستوريين وعدد كبير من الوفديين واتجه القطار في طريقه المرسوم له، ولم تكد تمضي فترة وجيزة حتى وجدنا أنفسنا في صحراء المقطم بين الصحراء والسماء، ولما سألنا قيل لنا إن الحكومة أمرت بتحويل اتجاه القطار من خط الصعيد إلى هذا المكان، فكانت مهزلة من مهازل صدقي أثارت غضب الأمة كلها واستنكرتها وتحدثت عنها الصحافة المحلية. والأجنبية ونقلت وكالات الأنباء هذا الخبر ونشرته الصحف البريطانية والفرنسية حتى إذا غربت الشمس وأقبل الظلام أمر سائق القطار بأن يعود بنا إلى محطة مصر وعدنا إلى بيوتنا مرهقين ساخرين من عبث الحكومة وأساليبها الصبيانية وجرائمها التي لا يرتكبها إلا اللصوص وقطاع الطرق.

دعتنا لجنة الوفد ببني سويف للزيارة فصممت على تلبيتها، واتخذنا لذلك الحيطة فلم نستأجر قطارًا خاصًا بل ركبنا القطار العادي حتى لا يتحول إلى الصحراء، ووصلنا إلى محطة بني سويف فإذا بها قلعة حربية ممتلئة بالجنود والضباط، شاهري الأسلحة والبنادق وحاولوا منعنا بالقوة من الخروج لملاقاة المواطنين الذين كانوا يملأون الشوارع والطرقات. وتقدمت إلى باب المحطة ومعي محمد محمود باشا، وحاولنا الخروج فتعرض

لنا البوليس ومنعنا بالقوة، ولما صمم محمد محمود باشا أن يخرج بالقوة خطف ضابط الطربوش من على رأسه، وأحاط بي عدد كبير من الجنود ودفعوني بالقوة إلى داخل، المحطة، وحاصرونا فيها فصممنا على ألا نبرح مكاننا مهما مر من الوقت حتى نلتقي بالمواطنين، وظللنا. ولما جاء وقت القيلولة ونحن محاصرون استرحنا على كراسي المحطة حتى زال الحر، ثم عمدنا مرة أخرى إلى الخروج لملاقاة الجماهير التي ظلت واقفة تحت وهج الشمس ونجحنا هذه المرة بأن استطعنا اختراق كردون البوليس ومعنا عدد قليل من مرافقينا. واشتدت حماسة الجمهور عند ذلك.

وكانت مظاهرة رائعة انتصرت فيها الجماهير على قوات الحكومة، حتى قال محمد محمود باشا خسرنا طربوشًا وكسبنا معركة، ولما رأينا الاعتداءات قد اشتدت على المواطنين وسقط منهم عدد كبير تحت سنابك الخيل وهراوات الجنود، سارعنا بالعودة إلى المحطة ولكن بعد أن لقنا الحكومة وأعوانها درسًا، في أن الوطنية لا تقهر، وأعلمنا صدقي أن قوته وبطشه لن يفلحا مع شعب مصر إذن أبدًا.

(٢)

زارني الغرابلي باشا وتحدث معي في الحالة الحاضرة، وأخذ يسرد عليَّ وقائع التعذيب التي يلقاها المواطنون في كل بلدة وكل قرية، فقلت له إني على علم بهذا أولاً بأول وأتلقى كل يوم وتتلقى سكرتارية الوفد مئات البرقيات تحمل هذه الأخبار السيئة المؤلمة ولكن لا حيلة لنا إلا الصبر والمقاومة والاحتمال حتى يأذن الله بالفرج. فأجاب بعد سكتة طويلة "يادولة الباشا لقد اجتمعت بالإبراشي باشا وبعض رجال السراي كما التقيت ببعض رجال الجالية البريطانية من المتصلين بدار المندوب السامي وتحدثنا طويلاً في الحالة السيئة التي تعانيها البلاد، وفهمت من الجميع أن دار المندوب السامي والقصر الملكي لا مانع لديهما من العمل على تغيير الحالة، وكلفاني بأن أنقل إليك هذا الخبر قلت هذا حسن وما الذي يمنعهما من أن يفعلا ذلك إذا كانا صادقين، قال إن الملك يخشى من انفراد الوفد بالحكم لأن هذا في رأيه يجلب له متاعب كثيرة وهو يعرض أن يقبل الوفد تأليف وزارة قومية من جميع الأحزاب برئاستك فإذا وافقت فهو مستعد لأن يعيد الدستور والحياة النيابية وتعود البلاد إلى طبيعتها ويسود الهدوء ويتمتع الشعب بعهد من الاستقرار والاطمئنان. فأجبته ألست عانيت معنا تجربة الائتلاف والوزارة القومية، وهل نسيت ما فعله محمد محمود في وزارتي الأولى وما تأخرت بسببه قضية البلاد، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ولن أقبل بحال من الأحوال أن أرأس وزارة ائتلافية ألاقي منها ما لاقيته من قبل، قال ادع الوفد إلى الاجتماع واعرض هذا العرض فإني أعلم أن عددًا كبيرًا من زملائنا يرون في هذا الحل تغير الأحوال، وخروج الأمة من المصائب التي تنزل بها كل يوم، قلت من الزملاء الذين يؤيدونك قال حمد باشا، والجزار بك والشريعي بك وواصف باشا والشمسي باشا وفخري عبد النور بك وفتح الله باشا ونحن ثمانية أعضاء كلنا مللنا وتعبنا من الحرب المنحطة التي يحاربنا بها صدقي، وتساعده السراي، وتؤيده دار المندوب

السامي، والوفديون أنفسهم يضجون من هذه الحالة التي لا نعرف لها نهاية، فلو تساهلت وقبلت لخرجنا من هذا المأزق. فأمسكت أعصابي وقلت له إذن قد تكلمتم في هذا الأمر واتفقتم عليه من غير علمي وجئت بعد أن انتهيتم منه تخبرنا بما قررتم. قال إننا نظرنا إلى ما تقاسيه البلد وما يتعرض له المواطنون جميعًا من ظلم وانتقام في الأبدان والرزق، وكل ما يملكون وأشفقنا على الأمة من هذا الذي يرتكب معها. فقلت له بلغ إخوانك إذا كانوا قد أجمعوا على هذا الأمر فإني أرفضه جملة وتفصيلاً، ولو اتفق الوفد كله على هذا فلن أوافق.

قضيت الأيام العشرة الماضية في مقابلات وزيارات لأعضاء الوفد الذين يؤيدون الوزارة القومية إذ قد تبين لي أن هذه المسألة أخذت طابعًا جديًا وأصبحت حديث المجالس القومية والصحف، وأخذ بعض رجال السراي والمندوب السامي يقولون إن النحاس مستبد، ويريد أن يفرض رأيه على الأغلبية ولقد زرت حمد باشا وتحدثت معه طويلاً فكان حديثه لا يخرج عما قاله لي الغرابلي وزرت علوي الجزار بك ومراد الشريعي بك وفخري عبد النور بك والشمسي باشا وبركات وكانت زيارة كل واحد تستغرق يومًا بأكمله في الصباح، والمساء وإذا بآرائهم جميعها متفقة على أن البلد تعب وأن الناس في الأرياف ضجوا من الشكوى، وأن قوة الوزارة ووراءها الإنجليز لا يمكن أن تقاوم وأن السراي تدعونا إلى حل المشكل، والملك يرحب بالوزارة القومية فلماذا لا ننتهز هذه الفرصة الذهبية على حد قولهم، ونقبل هذا الحل حتى تتخلص البلاد من المصائب التي تنزل على رؤوس أبنائها كل يوم، حاولت بكل الوسائل أن أقنع الزملاء بأن هذا حل أعرج وأن الملك والإنجليز يريدان من ورائه إضعاف قوة الوفد، وتفرق كلمته، وعبثًا حاولت إقناعهم فردًا فردًا على حدة فقررت دعوة الوفد وعرض الأمر عليه، وصممت على أنه إذا قرر الوفد بأكمله تأييد فكرة الوزارة القومية فإني سأستقيل من الرياسة حتى لا أخون الأمانة التى ائتمنتني عليها الأمة، ولا أسيء إلى روح سعد في عليائه، ولكني كتمت هذا في نفسي وانتظرت ما تأتي به الأحداث.

مررت على الأستاذ العقاد لتهنئته بالخروج من السجن والاستفسار عن صحته، ووجدته متعبًا، مرهقًا، فأرسلت إليه بعض الزملاء الأطباء لعيادته ووصف الدواء اللازم له.

جاءني الأستاذ حسن صبري وبعد أن تحدثنا عن جرائم الوزارة وبطشها وإمعانها في التنكيل دون رقيب ولا حسيب ولا وازع من ضمير ... قال لي حسن صبري فجأة، أما آن لهذا الإجرام أن يوضع له حد فقلت له إننا نجاهد وسنظل نجاهد حتى يأذن الله بالفرج، فقال والله ياباشا عندي مسألة أعرضها لعلك لو وافقت عليها يكون فرج من هذه الأزمة الطاحنة التي أضرت بجميع طبقات الأمة ولم ينج منها إلا أنصار الوزارة والمطبلون لها، قلت له وما هي ... قال إن جلالة الملك متأثر جدًا من الوفد ومنك على وجه الخصوص لأنك زرت العقاد في داره مهنئًا بالخروج من السجن، مع أنه أهان الملك وعرّض به، وحكم القضاء بإدانته، فقلت له ياحسن بك أنت محام وتعرف مبلغ التلفيقات، ولعلك لم تنس بعد ما فعلته السراي معي أنا وويصا واصف بك وجعفر بك، وقد كنت أحد المحامين المترافعين

فيها،. والعقاد لم يقل شيئًا يمس الملك إلا إذا كان الملك يعلن صراحة أنه ليس ملكًا دستوريًا ولا يحب الدستور الذي وقعه باسمه وكان السبب في أن رفعه من لقب عظمة السلطان إلى جلالة الملك، فقال ياباشا أنت سيد العارفين وسأصارحك بما جئت من أجله اليوم، قلت هات ما عندك، قال إن الملك صرح لبعض خاصته بل بصراحة كلفني أن أقابلك وأعرض عليك أنه مستعد لأن يعيد دستور ٢٣ ويشكل وزارة محايدة تجري انتخابات حرة، وطبيعي سيكون الوفد صاحب الأغلبية فتشكل الوزارة وتعود الحياة إلى مجاريها وتنتهي مهزلة الانتخابات التي يعد لها صدقي باشا والبرلمان والذي ينوي أن يفتتحه باسم دستوره الجديد. كل هذا مقابل مطلب واحد يريده الملك منك، قلت ما هو قال أن تفصل عباس العقاد من الهيئة الوفدية ومن الصحف الوفدية لأنه أهان الملك من غير داع وتطاول عليه بلا سبب، فأجبته كاظمًا غيظي لأنه صديق وقلت ياحسن بك أنت زميل ولك علي حق ولولا هذا لغضبت منك إذ تحمل إلي مثل هذا الخبر، بلغ الملك أن مصطفى النحاس لا يقبل بحال من الأحوال أن يفرط في فراش من فراشي بيت الأمة أو النادي السعدي، فضلاً عن الكاتب الأستاذ عباس العقاد الذي سجن وعذب وحوكم ولم يجن ذنبًا أكثر من أنه قال إننا مستعدون لأن نحطم أكبر رأس تحاول أن تعبث بالدستور أو تعطل الحياة النيابية، وما أظن الملك الدستوري يحمل هذا القول على نفسه إلا إذا كان يكره البرلمان، وأنت تقول إنه مستعد أن يعيد الدستور فكيف ذلك، على أنني أحب أن أضع لك النقط على الحروف فأقول لك بكل صراحة لن أفرط في العقاد ولا في أقل من العقاد لأن هذه سابقة خطيرة لها نتائجها وآثارها على الوفد، وعلى الأخلاق وعلى الكرامة الوطنية وجاءت مهزلة الانتخابات الصدقية على أساس الدستور المزيف الذي وضعه فكانت انتخابات مطبوخة طبخًا مكشوفًا إذ كانت نتيجتها في جميع الدوائر ٦٧,٣٪ ماعدا دائرة بورسعيد التي لم يرض محافظها الشجاع الكفء حسن رفعت أن يتدخل فيها بحال من الأحوال فجاءت نتيجتها ٣ في المائة.

وبينما كانت الحكومة تستعد لافتتاح برلمانها المزيف وتسخر كل قواتها ليوم الافتتاح اجتمعت الهيئة الوفدية البرلمانية واتفقنا على أن نجتمع في مكان ما ونصدر قرارات دستورية ندمغ بها الحكومة ونسجل عليها جرائمها ومنكراتها وأساليبها الوحشية البربرية، وفاجأنا الحكومة بالاجتماع في دار تجاور محافظة مصر في ميدان باب الخلق هي دار مراد الشريعي بك عضو الوفد المصري فقد تسللنا إليها أفراد أفرادًا ووصلت أنا ومكرم والنقراشي إلى هناك فوجدنا النواب قد سبقونا ووجدنا الأستاذ ويصا واصف بك رئيس المجلس قد جلس على منصة أعدت له وحوله هيئة مكتب المجلس المنتخب وعرضت علينا قرارات ناقشناها وأبدينا فيها آراء وأتفقت كلمتنا الاجماعية على أن نستنكر أولاً أساليب الحكومة وتصرفاتها المشينة، وثانيًا رفض الدستور المزيف الذي أصدرته الانتخابات التي ترتبت عليه وثالثًا الاستمساك بدستور عام ١٩٢٣ وهو الدستور الصحيح الذي أقرته الأمة وانتخبت ممثليها تحت ظله وقررنا رفع هذه القرارات إلى السفارات الأجنبية ودار المندوب السامي لإبلاغ حكومات العالم أن مصر لا تقر نظام الحكم الذي تحكم به وألا ترضى بالاحتلال ولا بالأداة الطيعة التي يستعملها الإنجليز في قمع الشعب

المصري والبطش بأبنائه.

قامت جميع الهيئات بإضراب شامل ومظاهرات عارمة شملت جميع أنحاء البلاد، وكانت أكبر مظاهرة هزت الحكومة وأرقتها مظاهرة عمال العنابر وعمال الترسانة الذين ابتكروا أسلوبًا جديدًا من إظهار سخطهم على الحكومة وأعوانها ذلك أنهم قرروا الإضراب والاعتصام في أماكنهم وصمموا على ألا يبرحوا مكانهم ولا ورشهم وأن يظلوا مقيمين فيها ليلاً ونهارًا إلى أن يأذن الله فيهم بأمره وأحضروا مطالبهم لمدة تكفي لعشرة أيام وتركوا بيوتهم وأسرهم وظلوا في أماكنهم وكانت مفاجأة لم يتوقعها صدقي ولا خطرت له ولم يعد لها عدته فأسقط في يده وأخيرًا اهتدى إلى أن يحاصر مباني العنابر والترسانة بقوات هائلة من بلوك الخفر وجنود الجيش وأصدر أوامره باعتقال كل من يحاول الاقتراب من المبنى أو الدخول إليه أو الخروج منه ولكن هذا لم يجد ولم ينفع بشيء فابتكر طريقة إجرامية أخرى هي قطع مياه الشرب والغسيل عن العنابر والترسانة كلها وترك المعتصمين ليموتوا عطشًا واحتمل العمال هذا عدة أيام ولكنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا فخرجوا متظاهرين ساخطين محتجين فقبض عليهم وأودعوا السجون ولكن بعد أن كشفوا أساليب الوزارة وفضحوها.

نظم عدد كبير من عقيلات المصريين مظاهرة احتجاج خرجت من بيت حرم أبو أصبع من الجيزة وضمت عددًا كبيرًا من أكرم الأسر وكبار السيدات البارزات في المجتمع منهن شريفة هانم رياض وحرم إسماعيل سرهنك باشا وحرم اسماعيل حب الرمان بك ولجنة السيدات الوفديات وعدد من الصحفيات البارزات على رأسهن منيرة ثابت وإستر ويصا وبلسم عبد الملك وعقيلات أعضاء الوفد. والهيئة الوفدية، وسارت هذه المظاهرة من الجيزة تخترق شوارعها وهي تهتف يحيا الوفد، ورئيسه ودستور الأمة والحياة النيابية وتستنكر الحكومة وأساليبها وتعلن سخطها على الجرائم التي ارتكبها رجال الإدارة والتي ارتكبوها في الانتخابات المزورة وخرج مدير الجيزة وحكمدارها وقوة كبرى من البوليس تحاول أن تمنع المظاهرات ولكنهم لم يستطيعوا وأسقط في يد مدير الجيزة وأخذ يضرب أخماسًا في أسداسًا وشعر بأن الزمام قد أفلت من يده وأن المظاهرة لو خرجت من اختصاصه ووصلت إلى القصر الملكي أو وزارة الداخلية فستكون العاقبة وخيمة فاتصل بمدير الأمن العام وهو ابن شقيقة صدقي وأستأذنه في أن يضرب المتظاهرات بالرصاص حتى يتفرقن ولكن أحمد كامل مدير الأمن قال له انتظر حتى آخذ رأي الباشا ودخل على صدقي وأخبره الخبر فاضطرب وهاج هياجًا شديدًا وثار فى وجه ابن أخته وقال له أتريد أن تأتي أنت ومدير الجيزة لنا بمصيبة جديدة ألم يكف ما نحن فيه من مشاكل وأزمات حتى تأتي مظاهرة السيدات فوق البيعة قل لمدير الجيزة يحاول بأي طربق غير طريق إطلاق الرصاص فض هذه المظاهرة ... وخرج أحمد كامل وعاد بعد قليل وهو يقول إن المدير أعيته جميع الحيل ولم يستطع أن يقاوم غضب السيدات فسكت صدقي كأنه يحاول أن يجد حلاً لهذه المشكلة وأخيرًا قال قل للمدير الغبي بدلاً من أن نطلق الرصاص حاصرهن في حديقة

الأورمان حتى إذا ما اجتمعن سلط عليهن خراطيم المياه حتى تتبلل ثيابهم ويحاولن أن يشغلن بإصلاح ملابسهن وعندئذ تكون القوات قد سدت جميع المنافذ ولا تسمح بالخروج إلا لواحدة واحدة واحدة، وبين الواحدة والأخرى عشر دقائق على الأقل ونفذ المدير الهمام أوامر سيده وظلت السيدات محاصرات في حديقة الأورمان طيلة اليوم. ولم تخرج آخر واحدة منهن إلا عند غروب الشمس لكن هذه المظاهرة كان لها وقع قوي على صدقي وعلى سادته ومؤيديه.

عاد الحديث مرة أخرى عن الوزارة القومية ومحاولة الخروج من الأزمة التي تعانيها البلاد وتكلم في هذا الخصوص مستر ريد مدير كلية فيكتوريا، وبعض أصدقائه الإنجليز كما تحدث إلي بعض رجال السراي، ولكني قلت لهم إن رأيي في هذه المسألة معروف وأن الحكومة الإئتلافية لا يمكن أن تأتي للبلاد بخير، ولا تستطيع أن تدير دفة الأمور وقد سبق أن جربنا مرة ومرتين من أيام الزعيم الخالد سعد زغلول باشا، وقد فشل الإئتلاف ولست مستعداً لأن أجرب مرة أخرى، وقد قلت لمستر ريد إن أصدقائك الإنجليز مستريحون لهذه الحالة فقد ركنت قضية الاستقلال على الرف واشتغلت البلاد بعودة دستورها الملغي، وحياتها النيابية طال الزمن أو قصر، وقد قال لي مستر ريد إن بعض رجال دار المندوب السامي يعرفون الحالة على حقيقتها وأن السير برسي لورين نفسه يعلم جيداً أن الوفد هو ممثل الأمة الحقيقي وهذه كلها محاولات لا فائدة من ورائها ولكنه ينفذ سياسة مرسومة له وتأتيه من وزارة الخارجية البريطانية، ولقد أبدى لهم رأيه أكثر من مرة في هذا ولكنهم يشترطون أن تكون الوزارة التي تخلف صدقي باشا وزارة ائتلافية وأن سياستهم، مع الأسف معروفة في جميع البلاد التي يحتلونها، وهي فرق تسد. ووعدني مستر ريد أن يبلغ حديثنا للمسؤلين في دار المندوب السامي ويعود إلي إذا احتاج الأمر إلى العودة.

كان حديث رجال المال والاقتصاد يدور حول فضيحة ارتكبها صدقي باشا؛ فقد أوعز إلى كبار تجار القطن والمزارعين من أمثال يحي باشا وفرغلي باشا والبدراوي عاشور وعدد كبير من التجار والمضاربين في البورصة إلى أن يسارعوا ببيع أقطانهم ثم أصدر قراراً بتخفيض سعر قنطار القطن أكثر من خمسة جنيهات دفعة واحدة فأصاب الاقتصاد الوطني في الصميم، وجعل لانكشير التي تعتمد على القطن المصري تهلل فرحاً لهذا القرار وأرسل إليه عدد من كبار تجارها برقيات شكر ووصفوه بأنه اقتصادي مصر الأول ولم أعجب لهذا الخبر فإن جرائم صدقي وحكومته منذ تولى الأمر أكثر من أن تحصى أو يحيط بها وصف.

ظهرت الحركة القضائية فإذا بها تنكيل وتشريد لجميع القضاة الوفديين أو الذين لهم ميول وفدية أو أصدروا أحكاماً ضد رغبات الحكومة وكان علي ماهر وزير الحقانية نشطاً في إصدار القرارات لانتدابات مصحوبة بالتهديدات والوعود والإغراءات.

(٤)

أصدر الملك قرارًا بتجريد النبيل عباس حليم من لقبه فأعلن النبيل بدوره انضمامه إلى صفوف الوطنيين، وتزعم حركة العمال الذين يكافحون ضد الحكومة والعهد كله وكان يعقد الاجتماعات في قصره وفي مكاتب العمال ويخطب فيهم وينشر البيانات والاحتجاجات ضدهم.

أعلن عن قرب انتخابات نقابات المحامين وفتح باب الترشيح للنقابتين الأهلية والشرعية وقد علمت أن الحكومة والسراي يعدون العدة لترشيح الغرابلي نقيبًا للمحامين وأنهم سيبذلون في سبيل نجاحه كل الوسائل الممكنة وقد رشح المحامون من جانبهم مكرم عبيد نقيبًا للأهلية ومحرم فهيم نقيبًا للشرعية وانتظرنا ماذا ستسفر عنه هذه المعركة.

مر عيد جلوس الملك اليوم فلم يكن له من مظهر إلا الإجازة الرسمية للحكومة ودفتر التشريفات في قصر رأس التين، أما المواطنون الوطنيون فلم يحس به أحد ولم يهتم به إنسان وبالطبع لم يذهب أحد من الوفديين للتهنئة أو ليقيد اسمه في دفتر التشريفات فنحن مقاطعون للقصر ومن يمت إليه بصلة مقاطعة تامة.

زارني صبري أبو علم وأخبرني بأنه التقى مصادفة بالغرابلي في محكمة مصر وجرى بينهما حديث طويل أظهر فيه الغرابلي ألمه الشديد من أننا نتهمه بأنه كان جاسوسًا على الوفد وأنه هو الذي نقل إلى الملك فؤاد الحديث الذي سبب قطع المفاوضات عام ١٩٣٠ وقال لصبري قد اختلف مع النحاس باشا في السراي وقد أفصل من الوفد وأرشح نفسي نقيبًا للمحامين كل هذا جائز أما أن أتجرد من أخلاقي وأن أنزل إلى مستوى الجاسوسية وأن أخون الأمانة وأنا بين أعضاء الوفد المصري فهذا لم يقع أبدًا وأخرج مصحفًا من جيبه وأقسم له أنه لم ينقل للإبراشي باشا صهره ولا لغيره من رجال القصر الملكي أو غيره أي كلمة مما دار في اجتماع مجلس الوزراء الذي اجتمع للنظر في اتفاقية ١٩٣٠ وأنه كان شديد الحماسة للرأي القائل بالتمسك بالسودان وعدم التفريط فيه وأنه أعلن اغتباطه في المجالس الخاصة والعامة عند قطع المفاوضات من أجل السودان ... وقد عجبت لهذا الخبر فإن الإجماع يكاد أن يكون منعقدًا في الأوساط الوفدية منذ عام ١٩٣٠ وإلى الآن على أن الغرابلي هو الذي نقل إلى الملك نبأ التساهل في مسألة السودان وأنه (أي الملك) أبرق بذلك إلى السير ادوارد مستشار قصر بكنجهام، وكان ذلك سببًا في فشل مفاوضات النحاس وهندرسون عام ١٩٣٠، وقلت لصبري إذا كان الغرابلي قد أقسم وغضب وهو ليس في صفوفنا الآن، وأنه ينزه نفسه عن أن يعمل مثل هذا العمل فمن الذي نقل الخبر إلى الملك إذن؟ إن هنا حلقة مفقودة يجب أن نعرفها وأن نعلم من في صفوفنا يتجسس علينا وينقل أخبارنا للملك وإذا كان من الوفديين من يفعل هذا للقصر فلابد أن يكون شخصًا أو أشخاصًا يعملون هنا لحساب دار المندوب السامي وشغلتني هذه المسألة كثيرًا وصممت على أن أثيرها في أول فرصة.

زارني كثير من محامي الأقاليم وحدثوني أن الحكومة تدفع لبعض المحامين اشتراكاتهم في النقابة وتقدم إليهم تذاكر السفر إلى القاهرة وتعطيهم مبلغًا كبيرًا من النقود وتتخذ كل الأساليب لنجاح مرشح السلطة كما كانوا يسمونه فشجعتهم، قلت لهم لا يفت هذا في عضدكم فأنتم حماة القانون.

زارني مستر ريد مودعًا بمناسبة انتقالي إلى القاهرة وأخبرني أنه التقى ببعض رجال المندوب السامي لأن السير برسي مسافر في الإجازة وتكلم فيما سبق أن تحدثنا فيه إليهم وأنهم وعدوه بأن يرسلوا تقارير إلى الحكومة البريطانية قبل عودة المندوب وسيشرحون فيها حالة البلاد ومكانة الوفد، وقوته وأنهم سيكونون صادقين محايدين دون تحيز لناحية من النواحي فقلت له أفلحوا إن صدقوا ونحن لا نريد منهم إلا أن يبلغوا رؤسائهم والمسئولين عن السياسة في بلادهم حالة مصر وما تقاسيه وما هي مصممة عليه ومتمسكة به.

كان أمس موعد انتخابات النقابتين الأهلية والشريعية وجلست في مكتبي أنتظر النتيجة فلم تظهر حتى المساء وعدت إلى منزلي انتظر الأخبار وفي الساعة العاشرة مساء جاءت الأنباء بأن مكرم نجح نجاحًا ساحقًا وأن محرم فهيم فاز بأغلبية كبيرة جدًا برغم ما ارتكب في هذه المعركة من اعتداءات وضرب وتدخل من البوليس واقتحامه تلك الساحات المحرمة عليه والخاصة بأبنائها وقد جاءني أحد المحامين مصابًا في يده فاقدًا صوته، لأنهم اجتمعوا عليه يحاولون أن يخطفوا الدفتر المحتوي على أسماء الناخبين ليمزقوه حين رأوا الزمام أفلت من أيديهم، ولكنه استمات وظل متمسكًا بالدفتر حتى جاء من أنقذه من أيدي المعتدين، وتمت الانتخابات في هذا الجو المشحون بالضغط والاعتداء وفرزت الأصوات وكانت النتيجة الطيبة التي سررت لها كل السرور وعلقت عليها قائلاً ليت صدقي ومن يؤيدونه كانوا شهود تلك المعركة إذن لعرفوا مكانهم من الأمة، ومنزلتهم من المواطنين.

التحقيق

(١)

تمت المحاولات الأولى لبناء جسور تعاون بين الوفد والأحرار الدستوريين من وراء ظهر النحاس، ويبدو أن التوجه للإئتلاف بين الحزبين لم يكن ببعيد عن نصائح المندوب السامي البريطاني الذي كلما واجهته شكوى من تصرفات (صدقي) لم يجد بديلاً عن أن يطرح على «الشاكين» مبدأ تسوية الخلافات الداخلية بين المعارضين للحكومة القائمة. وفيما بعد تأكد أيضًا أن فكرة الوزارة القومية التي ستؤذن بتصدع كبير في الوفد، تنتمي إلى البريطانيين. لقد انفجر النحاس غاضبًا عندما علم أن عطا عفيفي قد اتصل بمحمد محمود وناقش سبل التعاون التام، وعندما ظهر أن فكرة التعاون تحظى بتأييد عدد كبير من القيادات الوفدية، اختار (النقراشي) ليواصل مهمة مندوب الاتصال، لكن أغلبية المجتمعين استبعدوه واختاروا فتح الله والغرابلي، وحسب رواية فتح الله بركات فقد ضرب النحاس مائدة الاجتماع بيده وصاح:
"أنا قررت ويستحيل غير ذلك".

ولكن ويصا واصف فاجأه بالقول: "إننا لن نقبل منك كل يوم تحكمًا كهذا،" وغادر النحاس الاجتماع وهو في شدة الغضب، واقترح عطا عفيفي أن تعلن لجنة الوفد عزلها للنحاس على أساس "عدم أهليته"... ثم سوّى الأمر وحل مكرم محل الغرابلي.

وشكلت لجنة الاتصال على جانب الأحرار الدستوريين من محمد حسين هيكل ومحمد علي علوبة وقررت اللجنة أن يسافر زعماء الحزبين إلى طنطا بالقطار حيث ارتأت أن "دعوة الشعب إلى المقاومة لن تستمر بدون أن يتقدمه الزعماء"، ويروي (هيكل) واقعة جر القطار على النحو التالي:
"..... واتجه القطار الذي جر عرباتنا إلى صحراء العباسية، ثم يمم ناحية الصف بمركز الجيزة، ووقف، ولكن محمد محمود والنحاس أصرا على أن نبقى في القطار لا نبرحه حتى نرى ماذا تستطيع الحكومة أن تفعل.

وبقينا نحن بالقطار حتى ولىّ النهار وأقبل الليل فتحرك بنا على مهل، وجعل يسير حينًا، حتى إذا كان نحو الساعة التاسعة عاد بنا عن طريق حلوان إلى محطة المعسكر بين المعادي وطرة، وهناك أمرنا بالنزول طوعًا أو كرهًا فتركنا القطار..."

(٢)

تروي د. عفاف لطفي السيد – كشاهدة عيان هذه المرة – مشهدًا مكتملاً لمقدمات اق التالي في الوفد، بسبب فكرة الوزارة القومية فتقول بالنص:
... كلما كان من المنتظر أن يلقي النحاس خطابًا شعبيًا كانت تصرف مبالغ من المال لمصفقين مأجورين يقاطعون الخطبة باستمرار... يحيا النحاس باشا، وكان اتصال

النحاس بالشعب يبعث فيه شحنة من الإثارة عزاها من هم أكثر الناس علمانية إلى مسحة هستيرية، وفي بعض الأحيان قد تدفع به زعامته الشعبية إذا ما وجد الأصوات المأجورة تقاطع خطابه إلى أن يصيح في الجماهير قائلاً:
"اخرس يا ابن الكلب انت وهوه".

لقد استمدت فكرة الوزارة القومية قوة دفعها الأولى من حديث بين المندوب السامي (لورين) وبين عدلي يكن باشا. حيث قال (لورين) له: إن إنجلترا ستوافق على أن تعقد معاهدة مع مصر بالصياغة التي انتهت إليها مفاوضات ١٩٣٠ إذا نجح عدلي في تشكيل وزارة قومية من جميع الفرقاء السياسيين وفي مقدمتهم الوفد.

وأغلب الظن أن (لورين) الذي أعلن التزامه بحياد داخلي شكلي، كان يناور، وهو يدفع عن نفسه تهمة تمكين الديكتاتورية، بل إن مراسلاته الرسمية إلى حكومته في ذلك الوقت، كانت توضح أنه مستمر بقوة في دعم وتأييد مركز صدقي ووزارته.

وحين نوقشت الفكرة في إطار لجنه الاتصال بين الأحرار الدستوريين والوفد طرحها (هيكل) ووافقه فتح الله بركات عليها تمامًا.
"... ذكر لي فتح الله بركات أنه يوافقني تمامًا على وجهة نظري، ولكنه طلب مني أن أقنع النحاس.

فلما جاء مكرم وبدأت اللجنة تناقش الفكرة بدأ مكرم يهاجمها على أساس أن العرض غير جدي، وواجهته بفكرتي من أن قبول الفكرة هو الذي يكشف عن حقيقة أمرها..."

وحيث فشل هيكل في إقناع مكرم عبيد بالفكرة ذهب متحمسًا إلى عدلي يكن في بيته محاولاً أن يحرضه لكي يتدخل بنفسه لإقناع النحاس بالفكرة، ورد عليه عدلي يكن بالحرف الواحد:
"... أوتظن أني أجد الفرصة للأخذ والرد معه - أي النحاس - حين نلتقي؟! إنه يلبث حين يراني أن يقص علي تعلق الجماهير به أنّى ذهب وحيث سار فالمظاهرات تهتف باسمه، والنسوة يزغردن حين مروره. وهو يقص ذلك في إسهاب وتفصيل لا يبقى معه موضع لمناقشة فكرة أو رأي... فإذا حاول الإنسان مناقشته عاد إلى حديثه عن الجماهير وتعلقها به معتبرًا ذلك الحجة القاطعة على أن رأيه هو الحق الذي لا محيد عنه..."

وحين زاد الانقسام والصدع حول فكرة الوزارة القومية قرر المؤيدون للفكرة بقيادة بركات عقد اجتماع للجنة الوفد لمناقشة الموضوع وكتب بركات في مذكراته ما يفيد أنه استخدم في كتابة مذكراته وطلب الدعوة إلى الاجتماع نفس القلم الذي استخدمه سعد زغلول في كتابة مذكراته وثلاثة خطابات استقالة لثلاث وزارات:

(سعد ٢٤، عدلي ٢٧، ثروت ٢٨)

وأخذت الأصوات فتبين أن هناك إثنى عشر عضوًا لصالح الوزارة الإئتلافية، وستة

أعضاء صوتوا ضدها.

(النحاس - مكرم - النقراشي - ماهر - سينوت حنا - حسني حسين)

وبعد ظهور هذه النتيجة الواضحة - كما يضيف بركات - سحب النحاس كلامه وقال إنه لن يقبل مثل هذا المشروع واندفع خارجًا...

(٣)

قدمت النيابة العقاد للتحقيق في ٢١ أكتوبر ١٩٣٠، ودخل السجن في نفس التوقيت حيث تمت محاكمته في ١٩ ديسمبر وحكم عليه بالسجن لمدة ٩ أشهر قضاها كاملة وأفرج عنه يوم ٨ يوليو ١٩٣١ .

وجاء في حيثيات الحكم أنه: ".... من حيث أن المتهم قد كتب بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩٣٠، ما يأتي: إعتقادي أن هذه الأزمة هي أزمة الرجعية والرجعيين، والمحكمة قد رأت أن كلمة الرجعية وتعيينها على هذا النحو يصرفها مباشرة إلى جلالة الملك."

ولقد قام (علي ماهر) - وزير الحقانية (العدل) في وزارة صدقي - بزيارة (العقاد) في سجنه ولكنه رفض أن يرد تحيته بل استقبله وهو مستلقٍ على سريره وقد مد رجليه في وجهه، حيث اعتقد أنه جاء متشفيًا فيه.

ويعلق (سلامة موسى) على إجراءات اغلاق الصحف السياسية في عهد صدقي بقوله:
".... لقد تم إقفال ثلاثة مصانع مصرية، هذه المصانع هي: البلاغ لصاحبه المصري عبد القادر حمزة، الكواكب لصاحبه المصري أحمد حافظ عوض، واليوم لصاحبه المصري توفيق دياب".
أما عن الأهرام فيضيف:
"... هذا هو الأهرام الجريدة... التي تسير مع كل حزب، وتجري مع كل ريح.... وتضحك منا جميعًا..."

وشكلت هذه الانتخابات سابقة واضحة لتدخل الإدارة عنفًا وقسوة وقسرًا لتزييف الانتخابات النيابية، وقد أسست منطقًا حكوميًا تاليًا بتدخل الإدارات في العملية الانتخابية، وهو ما يصفه الرافعي بقوله:
"أوعزت الحكومة إلى لجان الانتخابات بأن تزور محاضرها بحيث تثبت فيها حضور الناخبين كذبًا وزورًا، وكانت سابقة خطيرة اتبعتها الإدارة في العملية الانتخابية كلما أرادت اصطناع برلمان صوري..."

وقد جرت هذه الانتخابات في مناخ عاصف عنيف ووسط سيول من الدماء وحسب شهادة أحد رجال المندوب السامي البريطاني، فإن البستاني في بيته أخبره بأنه أدلى بصوته عشر مرات تحت أسماء مختلفة، بينما أحرز مرشحو الحكومة نسبة تجاوزت ١٠٠٪ في بعض المحافظات.

(٤)

كان ظهور النبيل عباس حليم قد بدأ في أفق الحركة العمالية منذ عامين تقريبًا، وهو ينتمي إلى فرع من أسرة محمد علي يرى أن الملك فؤاد سليل فرع آخر مغتصب للعرش. وينتمي إلى جماعة الأمراء الذين كان يرأسهم الأمير عمر طوسون ولا يخفون سخطهم على القصر.

وفي ١٧ ديسمبر ١٩٣٠ حدث انقلاب في اتحاد العمال استولى بموجبه عباس حليم على الاتحاد وقاد اجتماعًا ضد فؤاد الأول.

وفي ٥ مارس ١٩٣١ انقضت قوات صدقي على الاتحاد وصادرت أمواله ومتعلقاته، وأغلقت جميع دور النقابات وتم ملاحقة العناصر النقابية النشطة بتسجيل محاضر تشرد لها بأقسام البوليس.

واكتفي عباس حليم بإرسال إنذار إلى رئاسة الوزراء عن طريق محكمة السيدة زينب (في ٣٠ مارس) مطالبًا برد أموال الاتحاد، وإلا تكون الوزارة ملزمة بدفع ٢٥ جنيهًا كتعويض عن كل يوم من الأيام التي تعطل فيها الاتحاد وهو إنذار رفض القاضي قبوله مما اضطره في النهاية إلى نقل مقر اتحاد العمال إلى قصره بجاردن سيتي ورد صدقي باعتقال المترددين عليه، وأعلن النبيل كرد فعل إنشاء «حزب العمال» ولكنه تعرض لهجوم عاصف من الوفد أجبره على حل الحزب وتصفية نشاطه.

(٥)

بالرغم من اشتداد الضائقة الاقتصادية فإن الحكومة - كما يقول (الرافعي) - أمعنت في استعمال القسوة في تحصيل الضرائب، واستخدمت الكرباج في بعض القرى لجبايتها من الفلاحين واضطرتهم إلى بيع ما يملكون من ماشية وزرع وأثاث سدادًا لمطلوباتها منهم، بينما كان كبار الملاك يتفننون في التقرب إلى المندوب السامي البريطاني فقد أقام له - كما يقول د. عاصم الدسوقي في دراسته السباقة - محمد الشريعي حفل تكريم في فندق الكونتننتال، ووفق رواية محمد زكي عبد القادر فإن صالح لملوم (وكانت أسرته تملك عام ١٩١٤ مساحة ٨٠٠ فدان وصلت عام ١٩٥٢ ألى ٢٦٠٣ فدانًا) اتصل به تليفونيًا من مغاغة وسأله وهو مضطرب عما إذا كان (جورج لويد) سيخلع من منصبه فلما أجابه بأنه باق، أظهر ارتياحًا وقال له: ''الله يسترك أهو الراجل سندنا...''

لقد هبط الثمن النقدي لمحصول القطن من ٧٤ مليون عام ١٩٢٨ - ٢٩ إلى ٣٢ مليون عام ١٩٢٩- ٣٠ إلى ٢٢ مليون فقط عام ١٩٣٠ - ٣١ وانعكس ذلك على السلع المستوردة التي تأثرت جدًا بأسعار القطن الذي يمثل ٩٪ من الصادرات المصرية في ذلك الوقت وبسبب الارتباط بين الجنيه المصري والجنيه الإنجليزي والعودة لنظام الاسترليني أصبح ميزان مصر التجاري عرضة إلى الاهتزاز الشديد، فأصبح النقد المصري لا يشتري إلا

ثلثي القيمة التي كان يشتريها من النقد الأمريكي والسويسري، وكذلك زادت تلقائيًا الديون التجارية التي على مصر للخارج، بينما هبط احتياطي الحكومة من النقد إلى ٦٢ مليون جنيه فقط.

وحين كلف رئيس الوزراء (إسماعيل صدقي) وكيل وزارة المالية (أحمد باشا عبد الوهاب) بإعداد تقرير عن أسباب ارتفاع الأسعار بشكل فاحش، وعن علاج ذلك أرجع التقرير الارتفاع إلى "عدم الرقابة على أسعار التجزئة وارتفاع أجور المساكن، بقاء مهايا الموظفين دون تخفيض بالرغم من نزول إيرادات سائر طبقات الأزمة."

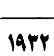
واقترح التقرير علاجًا للأزمة إلى جانب تحديد الأسعار، هو إحداث تخفيض في مرتبات الموظفين لتقليل قدراتهم الشرائية.

وهكذا سجل بوليس القاهرة في تقارير العام تسع حوادث إضراب من عمال الشركات وعديد من حوادث إضراب طلاب المدارس.

وفي يوليو أطلق شابان مجهولان الرصاص على محمد توفيق رفعت باشا رئيس مجلس النواب وتعددت حوادث إلقاء القنابل، فانفجرت واحدة في فناء وزارة الحقانية (العدل) وأخرى في دار محمد علام وكيل مجلس النواب.

وفي قضية القنابل والتي اتهم فيها أبراهيم محمد عبده الشهير بالفلاح وآخرون «جنايات ١٤٤ بولاق في ١٩٣١/٩/٢٢» اتهم ١٧ متهمًا بإحراز قنابل بدون مسوغ - قطع أسلاك ومواسير مصلحة التليفونات - الشروع في تعطيل قطارات السكك الحديد - قطع الطريق بين القاهرة والوجه القبلي - فك مسامير قضبان السكك الحديد، والشروع في قتل محمد توفيق رفعت، وإلقاء قنبلة على منزل محمد علام.

وظهر أن الغرض من تشكيل هذه الجمعية المنظمة وارتكاب هذه الجرائم هو لفت نظر الحكومة إلى أوضاع العمال وإعادة من طرد منهم إلى أعمالهم.


۱۹۳۲

المذكـــــرات

(١)

فصلت كلية الآداب بالجامعة المصرية د. طه حسين عميد الكلية من وظيفته لأنه ضد حكومة صدقي، فكلفت اللجنة التي ألفناها للنظر في أمر الموظفين السياسيين المفصولين أن تبحث لطه حسين عن عمل سريع.

التحق د. طه حسين بجريدة الوادي وهي جريدة كان رقمها الثامن في الصدور، إذ عطل صدقي باشا سبع صحف قبلها ولم يأت عليها دور التعطيل بعد.

زارني د. طه حسين وتحدثنا طويلاً في الحالة الحاضرة وفي المقالات التي ينشرها في جريدة الوادي وقد شكا لي من تنكر أعز أصدقائه إليه ومقاطعته حتى أن الواحد كان يلتقي به فلا يسلم عليه خشية أن يفصل من وظيفته أو يقبض عليه وقد واسيته، وقلت له إن هذه طبيعة كثير من الناس، وأن هذا العهد البغيض قد أتلف الأخلاق وفرق بين الأسر، حتى أوشك أن يفرق بين الولد وأبيه والمرء وزوجه فلا تيأس ولا تحزن فإن الغمة لابد زائلة وليس لنا إلا الصبر والجهاد...

زرت . طه حسين في داره بالزمالك تشجيعًا له وتقديرًا لجهوده ولم أكد أدخل إلى ردهة مسكنه حت رأيت مصحفًا شريفًا مفتوحًا، كأن شخصًا كان يقرأ فيه فسألته عن هذا فقال لي إن إبنه مؤنس هو الذي يحفظ بعض آياته وأن هذه عادته كل يوم قبل الذهاب إلى المدرسة وبعد عودته وأنه علمه هذا لكي يخرج دارسًا دينه وكتابه، ولكي يتعلم النطق العربي الصحيح من أبلغ كتاب سماوي، وأبدع أسلوب في هذا النص... فكتمت عجبي في نفسي وقلت كيف يتفق هذا المظهر مع ما يتهم به طه حسين من زيغ في العقيدة وعدم مبالاة بالدين وكيف صادر علماء الأزهر كتابه «في الشعر الجاهلي» مادام الرجل صحيح العقيدة مؤمنًا بالله وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم.

زرت عظمة السلطانة (ملك) في قصرها الشتوي وقد استقبلني موظفوها خارج القصر وعندما لقيتها رحبت بي هي وصاحبات السمو الأميرات بناتها ترحيبًا عظيمًا، وتحدثت معي عظمتها في الحالة السيئة التي وصلت إليها البلاد على يد صدقي وعصابته وكان مما صرحت لي به أن الملك وحاشيته يعلنون استياءهم مني ومن حاشيتي لأننا نقدرك ونحترمك ونشيد بمواقفك وثباتك ووطنيتك وقد حدثتني الملكة نازلي أكثر من مرة في هذا الشأن وفهمت منها أنها ضد الملك وأنها كثيرًا ما صرحت بأنه يجب الرجوع إلى الأمة وممثليها وأن هذا كان دائمًا مثار خلاف بينها وزوجها الملك فؤاد.

(٢)

أخذت الأوساط التجارية والمالية تتحدث عن فضيحة مالية كبيرة فقد نقل عن يوسف أصلان قطاوي وزير الزراعة في وزارة صدقي أنه أقام مأدبة في داره بالإسكندرية وجاء ذكر كورنيش الإسكندرية الذي انتهى منه المقاول الإيطالي دانتمارو وأن أحد الحاضرين قال إن المقاول قدم لصدقي باشا مبلغًا ضخمًا من المال هدية بمناسبة الفراغ من الكورنيش زاد على ربع مليون جنيه وأن النقاش كان حادًا في تلك الحفلة وقال أحد رجال الأعمال الكبار (فرغلي بك) إن الهدايا لا تكون بهذا المقدار الباهظ وأن المسألة أكثر من هدية وهي بصراحة رشوة سافرة وأن هذا هو السر في أن صدقي باشا رفض عطاء عبد الرازق نصير وهو أكبر المقاولين وفضل عليه صديقه الإيطالي، وقد ظلت هذه المسألة حديث السهرة وانتقلت إلى المجالس المالية والتجارية ثم لم تلبث أن أصبحت حديث الناس جميعًا، ولما علمت تفاصيل هذا الحادث المؤسف لم أزد أن قلت ليس هناك غريب في هذا العهد الممتلىء بالغش والتزوير والرشوة، وليس بجديد على صدقي ما يقال الآن فإن تاريخه القديم والحديث مملوء بالمآسي والمخازي والحوادث المادية والأخلاقية وأن التاريخ يعيد نفسه فإن سعدًا فصل صدقي من عضوية الوفد المصري لفضيحة أخلاقية ارتكبها في باريس وكلفت سعدًا مبلغًا من المال الذي أعد للجهاد، اضطر سعد أن يدفعه حتى يتحاشى فضيحة لو نشرت على الملأ لأصابت الوفد الناشىء للدفاع عن قضية مصر بعد الحرب العالمية الأولى في الصميم، وإذا عدنا إلى التاريخ البعيد إلى ما قبل الحرب العالمية وفي عهد الخديوية أيام حكم الخديوي عباس الثاني لرأينا أن صدقي فصل من الوزارة لجريمة أخلاقية تسببت في حادث انتحار لسيدة من بنات مصر لا تزال قصتها مع صدقي تزكم الأنوف وتؤذي الأسماع إلى الآن.

حكم القضاء في قضية المعاش الخاصة بي ضد الحكومة وقرر صرف المتجمد لي، وحمدت الله على لطفه وقلت إن في مصر قضاة لا يخافون في الله لومة لائم، وانتويت أن أزور طلعت حرب باشا لأشكره ودفع المبالغ التي أمر بإيداعها في حسابي الجاري.

اتصل بي طلعت حرب باشا مهنئًا بالحكم معلنًا سروره، وقد أخبرته بأنني كنت سأزوره لأشكره على ما قدم ولكنه سبقني فقال لا تستعجل فإني لم أفعل إلا أبسط الواجبات الوطنية مع رجل يحارب كل يوم من أجل تمسكه بالمبادىء الوطنية، فكررت له الشكر ووعدته بأن أزوره في بنك مصر.

فضيحة أخرى هي اليوم حديث المجالس لكنها هذه المرة تتعلق بقضية معروضة أمام المحاكم الشرعية هي قضية (وقف شاوه)، فقد رفعت السراي الملكية دعوى تطلب فيها عزل الأمير محمد علي من نظارة وقف شاوه الذي يديره طبقًا لحجة الوقف وطلبت تعيين الملك فؤاد خلفًا له، وقد تدخلت السراي تدخلاً سافرًا مع القضاة وفاحت رائحة الفضيحة في المجالس حتى أن بعض المحامين جاهر في المجالس بأن الحكم أصبح قاب قوسين أو أدنى

وأن البرنس محمد علي سيعزل ويعين الملك مكانه، وقد شاع في الأوساط السياسية والأجنبية أن الأمير محمد علي لجأ إلى الإنجليز لحمايته من هذا الظلم، وأن الإنجليز تدخلوا صراحة في القضية الشرعية وأصدروا الأمر أن يحكم القضاء بالعدل والحق من غير تحيز ولا خضوع لأحد... أليست هذه فضيحة كبرى ومصيبة عظمى أن يصل الحد بمصر المسلمة المجاهدة فيتدخل الإنجليز حتى في شرع الله الحنيف.

يظهر أن الحملة التي أثارتها الصحف البريطانية وبعض الصحف المصرية ضد القصر الملكي لتدخله في القضاء قد أتت بفائدة فقد نقل عن بعض القضاة الذين ينظرون قضية (وقف شاوه) أنهم قالوا إن القضية لم تبحث بعد وأن المحكمة طلبت مذكرات من الطرفين وعندما تصبح القضية صالحة للفصل سنحكم بما نص عليه القانون ولن يكون لأحد علينا سلطان، وكان الأمير محمد علي من جانبه قد نشط وأخذ موظفو دائرته يتصلون ببعض الصحفيين المصريين ويمدونهم بالمعلومات وقد كتبت الأهرام والجهاد كلمات أشارت فيها إلى هذه القضية.

كنت قد فكرت في الزواج بعد أن كبر أولاد شقيقتي وتزوج بعض بناتها فحدثوني عن سيدة من أسرة الشيخ بالإسكندرية رأيتها فأعجبني شكلها مبدئيًا وانتويت أن ألتقي بها لنتحدث في مسألة الزواج وفعلاً كلفت بعض الوسطاء في أن يعد لنا لقاء لإنهاء هذا الموضوع، وبينما استعد لمقابلة السيدة المذكورة جاء إليّ من يخبرني بألا أفعل لأن الحكومة تنصب لي كمينًا وبثت جواسيسها وبوليسها لمراقبتي ومداهمتي وأنا مجتمع بالسيدة المذكورة، فعجبت لهذا الإجرام وهذه التصرفات القذرة وأرجأت هذا الموضوع إلى فرصة أخرى.

زارني الدكتور محمد فاضل رئيس لجنة الوفد بالرمل وزوجته السيدة إجلال وتحدثا معي بخصوص الزواج، وقال لي الدكتور فاضل أن أعدل عن هذا الزواج نهائيًا لأن السيدة المشار إليها تجلس على الشاطيء يحيط بها عدد كبير من السيدات والفتيات وتجاهر بأنها ستتزوج الزعيم، وأنه هو الذي يلح عليها في هذا الزواج، وإن كانت غير راغبة فيه، فضلاً عن أن المعارضة والحكومة تريد أن تستخدمها لمعرفة أسرار الوفد ونقلها إليهم وأن زوجته إجلال قد سمعت عن هذه الحكايات من أقرب المتصلين إليها ومن أفراد أسرة الشيخ نفسها، وعند سماع هذه الأنباء تأكد لي أن تلك الزوجة لا تصلح شريكة حياتي. وحمدت الله الذي أدركني في أول الشوط.

نشرت الصحف الوفدية نصوص خطابات تبودلت بين أفراد من الوزارة الحالية وبين آخرين تحمل فضائح ووقائع ورشوة قدمت لعديد من رجال العهد، وقد أحدث نشر هذه الخطابات ضجةكبيرة في مختلف الأوساط وعدها الشعب فضيحة الفضائح، وكبرى المصائب، وبادرت الحكومة بدورها فكذبت صدور هذه الخطابات واتهمت الصحف بتزويرها واختراعها وأبلغت النيابة العامة للتحقيق.

حققت النيابة مع الصحفيين الذين نشروا نصوص الخطابات المزورة كما قالت الحكومة وقد قدم محررو الصحف أصل الخطابات التي قدمت لهم وذكروا أسماء الذين قدموها إليهم فطبلت الحكومة وزمرت لهذا التزوير الخطير الذي ارتكبه الوفديون لينالوا من شرف الوزارة وسمعتها، وأحالت النيابة المتهمين إلى محكمة جنايات القاهرة لمحاكمتهم على تلك الواقعة المشينة التي ارتكبوها.

تبين من التحقيقات الأولية أن الخطابات مزورة فعلاً، وأنها دست على الوفديين بقصد الإيقاع بهم واتهامهم بأنهم يلفقون الوقائع، ويخترعون الحوادث للإساءة إل الوزراء، وقد اهتم الرأي العام المصري بقضية الخطابات التي أصبحت معروفة بقضية الخطابات المزورة، وقد اتهمت النيابة بعض الشباب الوفدي بأنهم زوروا هذه الخطابات بأمر من رئيس الوفد ورجاله وجاءوا بشاب اسمه زكي خطاب وشهد أمام المحكمة بأنه أخذ هذه الخطابات من كبير وفدي يأمره وقدمها إلى الصحف، ورأت المحكمة بعد إنكار رجال الوفد هذه الواقعة أن تحيل الخطابات إلى خبير في مضاهاة الخطوط، وكان ذلك الخبير خبيرًا حكوميًا اسمه محمد سعود ولكنه خيب أمل الحكومة وأثبت أن شاهد النيابة هو المزور وأن الخطابات دست على الصحف الوفدية دسًا، وأن أحدًا من أعضاء الوفد ولجانه لم يشترك فيها.

(٣)

زارني محمد أسعد بك موفدًا من قبل الملكة نازلي وقال لي إن جلالة الملكة تهدي إليك تحيتها وتقديرها وقد كلفتني برسالة شفوية هي أن الملك بدأ يضيق بصدقي وبتصرفات وزرائه وأنها لا تريد أن يعرف بهذه الزيارة أحد وأن الإنجليز هم الآخرون بدأوا يفكرون في تغيير العهد وأن جلالتها تريد منك أن تخفف الحملة على الملك شخصيًا حتى تستطيع أن تفعل شيئًا لصالح الوفد، فإنها من أشد المعجبين بصلابتك وتماسكك ولكنها تلاحظ عليك عسفك في حرب السراي، وإذا كان لابد فابعد عن شخص الملك واحمل ما شئت على الحاشية الأجنبية والمصرية فهي كلها حاشية فاسدة، وقد ضاقت بها وتتمنى أن تزول اليوم قبل الغد، وقد شكرت لأسعد بك هذه الزيارة ووعدته بأن تظل سرًا، وحملته إلى الملكة نازلي تحيتي وشكري ووعدت بأن أخفف الحملة على الملك إذا كان هذا في مصلحة البلد، ولكن الملك هو الذي يدبر كل شيء ويعمل بيده كل شيء والحاشية التي حوله هم (عبد المأمور) كما يقولون، وأن المصيبة تكمن وراء الحكومة الغاشمة التي تحكم البلاد بالنار والحديد، وقد خربت كثيرًا من البيوت وملأت السجون بالألوف من الأبرياء والشرفاء.

تلقيت برقية من المهاتما غاندي ردًا على برقيتي التي أرسلتها إليه بمناسبة مروره من قناة السويس في طريقه إلى لندن وقد شكرني فيها على تحيتي وعلى حفاوة الشعب المصري الذي استقبله عند السويس استقبالاً حارًا، وقد جاء في برقيته إلى الوفد المكافح وخليفة سعد زغلول باشا الذي تعتبره الهند زعيم الشرق كله وزعيم الحركات التحريرية

بأسرها وأن الهند قد تعلم من سعد ومن حركته الكفاح ومقاومة الاستعمار.

وصلتني رسائل من الدكتور حامد محمود وقرياقص ميخائيل وبعض أصدقاء مصر من حزب العمال البريطاني أن إنجلترا لن تقبل أن تفاوض صدقي باشا أو غيره من الأقليات. وأنها مصممة على تأليف وزارة قومية تمثل فيها الأحزاب بحسب مؤيديها، وأن هذا هو الحل الوحيد لتحريك القضية المصرية، وأن في وزارة الخارجية البريطانية موظفين يتنبأون بأن نذر خطر يلوح في الأفق البعيد ويخشون أن يفاجأ العالم مفاجآت لم يعمل لها الحساب، وأن مصر بصفتها الطريق الوحيد للهند هامة جدًا في هذه الأيام خصوصًا وأن مؤتمر المائدة المستديرة الذي حضره غاندي لحل المشكلة الهندية قد فشل ولم يأت بأي نتيجة وأن غاندي عاد إلى بلاده ليستأنف العصيان المدني الذي بدأه وأن أصدقاء مصر ينتظرون موافقة الوفد على الوزارة القومية وهم على استعداد لأن يحملوا الوزارة البريطانية على عودة الدستور والحياة النيابية الصحيحة إعادة الهدوء والاستقرار إلى البلاد بأن يحكمها ممثلوها الحقيقيون، وأن الملك لا يستطيع أن يعارض هذه الرغبة إذا بدت من جانب بريطانيا... وقد رددت على هذه الرسائل بأن كررت لأصدقائي البريطانيين ولإخواننا المصريين أنه ليس للمسألة إلا حل واحد هو الرجوع إلى الدستور وأحكامه وإخراج الوزارة التي جاءوا بها برغم أنف الأمة وفرضوها عليها فرضًا.

سافرت إلى الإسكندرية لقضاء الصيف على عاداتنا كل عام، وقد كان استقبال المواطنين لنا في المحطات التي وقف عليها القطار بنها وطنطا وكفر الزيات ودمنهور دليلاً جديدًا على أن الشعب بخير وأنه لم تؤثر فيه الرسائل التي تتمخض عنها عبقرية صدقي باشا وحكومته، وفي سيدي جابر جاءت لجنة الوفد برمتها ولجان الشباب الوفدي والشعب الإسكندري لاستقبالنا وتخطى حصار البوليس وكانت معركة حامية دامية أصيب فيها عدد من المستقبلين، كما أصيب عدد من رجال البوليس ولم أكد أصل إلى داري حتى هرع المواطنون للسلام علي والترحيب بمقدمي، وقص علي عدد كبير منهم كثيرًا من المخازى والجرائم التي يرتكبها من ينتمون إلى الحزب المسمى حزب الشعب ويزعمون أنهم نواب الأمة، فقد تحدثوا عن سرقات ورشاوي وحوادث أخلاقية تشمئز منها النفوس، كما تحدثوا عن أن موظفي مكتب رئيس الوزراء يتلقون الرشاوي عيانًا بيانًا، وأنهم لا يتورعون ولا يستحون أن يجاهروا بهذا، ولقد تركز الحديث على شخص قالوا عنه إنه يصرح في المجالس بأنه مفوض من قبل صدقي باشا بأن يطالب لأنصار الحكومة ومؤيديها، ومن يدفعون اشتراكات في جريدة الشعب وحزبه أن يأتي.

(٤)

اجتمع الوفد، وقد حضر جميع المتحمسين للوزارة القومية ماعدا الشمسي باشا، وحضر الأعضاء الآخرون وهم أحمد ماهر، محمود فهمي النقراشي، مكرم عبيد، مصطفى بكير بك، وعرضت مسألة الوزارة القومية وتحمس لها حمد باشا والغرابلي وأخذا

يناقشان مناقشة حادة ويستشهدان بالأحداث التي تقع على المواطنين في الأرياف والمدن من مختلف بلاد القطر، ووجهيه البحري والقبلي ويحكيان حكايات سمعاها، وشاهداها وتألما لها وانضم إليهما في النقاش علوي الجزار، ومراد الشريعي وهنا انبرى أحمد ماهر فتحدث رافضًا هذا الاقتراح مؤيدًا رأيي، وتحمس النقراشي واحتد على زملائه الذين يروجون للوزارة القومية، وكاد يقع اصطدام بينهم لولا أن تداركت الأمر وتكلم مكرم في بلاغه وقوة حجة وانتهى إلى أن هذا العرض مرفوض سواء كان المتقدم به دار المندوب السامي، أو القصر الملكي على السواء، وتكلم مصطفى بكير فأعلن أنه مع الرئيس في أي ناحية وأنه لن يخرج عليه مهما تكن المغريات والعروض والنتائج، ولقد زاد من إصراري أني وجدت هؤلاء الزملاء منضمين إلى رأيي مؤمنين بصحة نظريتي وأعلنت أن الوزارة القومية مرفوضة وأن البحث فيها غير مقبول جملة وتفصيلاً وغضب المؤيدون وأعلنوا أنهم مستقيلون من عضوية الوفد المصري من الآن وانبرى لهم النقراشي ثانية وقال لهم كلمات حادة عنيفة، واتهمهم بأنهم وصوليون يسعون وراء الراحة والمناصب، وأنهم ليسوا وطنيين بل انتهازيين، وكانت الكلمات تنسال من فمه، ويحاول مكرم وماهر أن يسكتاه فما استطاعا، وأخيرًا قلت أنا آسف ياإخواني إذ وصلت المسألة إلى هذا الحد، وكنت أود أن يظل الوفد وحدة متماسكة وألا تغرينا التلويحات ولا التهديدات وإني حاولت معكم جميعًا وزرت كل واحد منكم في داره أشرح له الموقف وأبين له الخطر الكامن وراء هذه المؤامرة الإنجليزية ولكنكم أبيتم إلا الإصرار على موقفكم والتمسك بأرائكم ولا يسعني والأسى يملأ جوانحي إلا أن أقبل استقالاتكم، وسأظل أنا وأخواني الذين أيدوني في موقفنا لا نريم ولا نحيد حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، وهنا تهدج صوتي، وكادت تطفر من عيني الدموع أسفًا على العشرة الطويلة التي قضيناها، والتضحيات التي بذلناها ولكني تماسكت وتجلدت وعدت بذهني إلى حمد الباسل الذي كان أحد المنفيين مع سعد إلى جزيرة مالطة أول ثورة ١٩١٩ وإلى مراد الشريعي الذي لم تمض أيام على اجتماعنا في داره كبرلمان منتخب يعارض الحكومة ويستنكر أساليبها.

كنت من وقت إلى آخر أحدث نفسي بأن إخواننا ربما يكونون متضايقين مما يلاقون من تصرفات رجال الإدارة وأساليب الحكومة، ولكنهم يكتمون هذا على مضض مجاملة أو خجلاً من أن يتهموا بالجبن أو الخروج على الوفد ورئيسه، وتحدثت بهذا الخصوص مع النقراشي وماهر ومكرم وخمنت أن تكون السيدة الجليلة أم المصريين قد مالت إلى رأي المطالبين بالوزارة القومية، ولكن النقراشي أكد لي أن أم المصريين مسرورة جدًا من هذا الموقف وأنها قد أعلنت ذلك أكثر من مرة وأظنها فاتحتك فيه فقلت نعم، ولكن ربما تكون مجاملة فأجاب لا إنها تؤيدنا بكل حماسة وأن اللجان الوفدية ولجان الشباب يحضرون باستمرار إلى النادي السعدي كل يوم تقريبًا معلنين سرورهم وارتياحهم إلى ما اتخذناه من قرارات حكيمة، فقلت على بركة الله.

قررنا نحن الباقين على العهد أن نضم إلى الوفد بعض أعضاء ليحلوا محل الذين

استقالوا، واستقر الرأى على أن نختار بقدر الإمكان ممثلين لجميع الطبقات وجميع المحافظات والمديريات.

اجتمع الوفد وقرر ضم أعضاء يمثلون المديريات والمحافظات فاخترنا من القليوبية كمال علما باشا ومن الدقهلية محمد الشناوي بك ومحمود الأتربي باشا، ومن طنطا عبد السلام فهمي جمعة ومن البحيرة محمد الوكيل باشا ومحمد المغازي باشا، ومن الإسكندرية فهمي ويصا بك ومن الصعيد حفني الطرزي باشا وسيد بهنس بك، ومن القاهرة حسين حسيب باشا وأصبحت الهيئة بهذا مكتملة كما عينا مراقبين.

نقل إلي أحد محامي الجيزة أن إدريس الخادم الخاص للملك فؤاد أخبره أن النحاس باشا يتهم نجيب الغرابلي ظلمًا بأنه جاسوسًا للسراي، وأنه نقل إلى الملك أخبار الوزارة الوفدية وعلى الخصوص نبأ المفاوضات التي جرت عام ١٩٣٠ ثم قال إن الذي نقل وينقل أخبار الوفد سواء في الوزارة أو الاجتماعات الخاصة شخص من أقرب المقربين إلى النحاس و من أكثر الناس تشددًا وحماسة ضد السراي والإنجليز... ولما حاول المحامي أن يعرف من إدريس اسم هذا الشخص قال له إن الوقت لم يأت بعد للكشف عن هذا السر الخطير، ولكن كل ما يريده أن يخفف النحاس باشا ومكرم من حملتهما على الغرابلي فإن الخطاب الذي ألقاه النحاس في حفلة لجنة الوفد بالإسكندرية وحمل فيه على الغرابلي حملة عنيفة أثرت على الرجل كثيرًا حتى أنه بكى أمامي وتأثر تأثرًا بليغًا من هذا الاتهام الظالم. ووعد بأن يجس النبض في القصر الملكي، حتي إذا رأى أنه لا مانع من إذاعة هذا السر فسيخبرني به ... وقد عجبت، فإن هذه المسألة تثار للمرة الثانية ويثار فيها الدفاع عن الغرابلي... ولكن ما أثار عجبي ودهشتي هو أن شخصًا من المقربين إلي هو الذي نقل هذا، وقد غضبت وقلت للمحامي إن هذه دسيسة من دسائس السراي التي تعودنا عليها من وقت إلى آخر، وأنه ليس لدينا في الوفد ولا في هيئته الوفدية ولا في لجانه خائن أو جاسوس وأن صدقي باشا نفسه قد صرح في مجلس ضم بعض أنصاره حين زار مدينة بنها بأنه لو كان يؤيده خمسون شخصًا أمثال الوفديين الذين يؤيدون النحاس ويلتفون حوله، ويتحملون في سبيل مبدئهم اضطهاد الحكومة ورجال الإدارة... لو أن عندي خمسين شخصًا كهؤلاء لحكمت مصر بهم عشرين عامًا، ولكنه يعلم وهو الخبير بأنصاره ومؤيديه أنهم أنصار كل حكومة وأعوان كل ذي سلطة، قلت للمحامي بلغ إدريس إني لا أصدق أي شائعة من هذا القبيل، وليوفر عليه جهده وشائعاته.

سافر الملك إلى مصيفه بالإسكندرية مبكرًا وانتقلت معه الوزارة وأصيبت القاهرة بالركود ودبت الحركة في الثغر، وكانت أول شائعة ظهرت أن صدقي باشا قرر زيارة الأقاليم والاجتماع بأنصاره وأن رجال الإدارة يحاولون بكل الطرق أن يحملوا بعض الوفديين على الإستقالة.

كان اليوم ذكرى عيد مولدي الثالث والخمسين فأصر بعض الأقارب والأصدقاء على أن

يقيموا حفلة متواضعة في الدار احتفالاً بهذه المناسبة، وقد حضر الحفل فيمن حضر بعض رجال المال والتجارة في الإسكندرية وتحدثوا عن المضاربات والصفقات التي تجري في البورصة تحت سمع ممثلي الحكومة وبصرهم. وأن الأنصار والأصهار والمؤيدين يأخذون الرشاوي ويعقدون الصفقات مع الأجانب من رجال المال... وهي صفقات مريبة تكفي لهدم العهد من أساسه لو كان في القوم من يحس أو يشعر أو يراعي ضميرًا أو يخشى ربًا أو شعبًا، لقد تحدثوا عن إبراهيم رشيد وشقيقه محمود وعن أحمد كامل ابن شقيقة رئيس الوزراء وغيرهم وغيرهم بأنهم أتخموا من المال والرشاوي وامتلأت جيوبهم وحساباتهم في البنوك بالألوف من الجنيهات من جراء الأعمال المشبوهة التي يقومون بها لصالح أنصارهم، والأموال الطائلة التي تدفع في سبيل ذلك.

التقيت أمس في فندق سان استفانو ببعض الفرنسيين من أعضاء الجمعية الوطنية في فرنسا، وقد دار حديثًا حول السياسة العالمية واستعداد ألمانيا وتأهبها، وقد قال أحدهم إن ضابطًا من ضباط ألمانيا اسمه هتلر يعد الشعب لحرب جديدة يريد أن يسترد بها ما فقدته ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وإن التقارير السرية التي وصلت إلينا تؤكد أن الضابط المشار إليه ينشر بين مواطنيه أنهم هم الجنس الآري أفضل الأجناس وأن كل شعوب العالم أقل منهم منزلة ويجب أن تقوم حرب ثانية تستعيد فيها ألمانيا حقوقها بل وتسود العالم كله لأنها أحق بالسيادة وقد تناقشنا طويلاً في هذه المسألة وأدلى كل برأيه، وكان بعض الحاضرين من المشتغلين بالسياسة العالمية يستبعدون احتمال قيام حرب ثانية، ويرون أن ألمانيا لن تقوم لها قائمة تستطيع معها أن تحارب أو تسود بل إنها لا تستطيع أن تستعيد ما فقدته أو تجعل عملتها المتدهورة ترتفع، ولكني خالفت هذا الرأي وقلت إن العالم يتطور، وليس بمستبعد أن تكون ألمانيا وغيرها من البلاد التي انهزمت في الحرب العالمية الأولى يفكرون في عمل يستعيدون به بعض ما فقدوا ويجب على الأمم القوية كفرنسا وانجلترا وحلفائهما أن يحسبوا لهذه المسائل حسابها، ويأخذوا حذرهم، وقد وافقني بعض نواب الجمعية الوطنية على رأيي وقال أحدهم إن وزارة الدفاع والوزارات المتصلة بها تخطط لمثل هذا الاحتمال من الآن وتستعد له ... وقد ربطت بين هذا الحديث وبين الإلحاح الشديد الذي يبدو من الإنجليز ومن مندوبهم السامي ما بين الحين والحين في أن أقبل تأليف وزارة قومية، وحدست في نفسي أنه ربما يكون لدى الاستخبارات الإنجليزية معلومات أكثر مما قالها النواب الفرنسيون وأنهم يريدون أن يطمئنوا من ناحية مصر لأنهم يرون أن قناة السويس هي طريقهم الوحيد إلى الهند، وإلى كثيرًا من مستعمراتهم... وعجبت كيف يكون تفكير إنجلترا وفرنسا وتخطيطهم للمستقبل وكيف يشغل حكامنا أنفسهم في اضطهاد شعبهم والعصف بمواطنيهم؟ وكيف لا يعتبر رجل كصدقي باشا ولا يتعظ بما يدور حوله، وبما يفكر فيه السياسيون الدارسون ... ولكن أنى لصدقي وهؤلاء. أولئك أقوام أحبوا بلادهم، ووقفوا أنفسهم على خدمة أوطانهم وذاقوا طعم الحرية، ولكنهم معنا ومع مستعمراتهم هم المديرون الذين يرسمون لصدقي وأمثاله السياسة ويأمرونهم بتنفيذها.

(٥)

أخبرني أحمد ماهر أن شقيقه علي ماهر وزير الحقانية بدأ يشكو من صدقي باشا رئيسه ومن بعض أعضاء الوزارة لأنهم يتصلون من غير علمه ببعض موظفي وزارته ويطلبون إليهم مطالب تتعلق ببعض القضايا المنظورة أمام المحاكم وأن طاهر نور بك قال لوزيره إن بعض أصدقاء صدقي باشا من اليهود طلبوا إليه التدخل في قضية مدنية تخص رجلاً مضارباً من المنصورة عرف هذا الرجل بأنه من الذين يقامرون ويضاربون بمبالغ طائلة، وقالوا إن اسمه الدرعي وقد أجبت أحمد ماهر بأن شقيقه إذا كان حقيقة غير راض عن هذه التصرفات فما الذي يجبره على البقاء في الوزارة، وهل الأعمال التي ارتكبها هو شخصيًا كانت من وراء ظهره أو كان هو بطلها، إن هذا العهد كله عهد غش وتزوير أساء إلى مصر وأخرها إلى الوراء سنوات وسنوات.

مر عيد جلوس الملك كأي يوم عادي لم يتغير فيه إلا أن الحكومة ومصالحها عطلت وذهب المحاسيب والأنصار إلى القصر ليقيدوا أسماءهم في سجل التشريفات ... أما الوفد ولجانه أغلبية الأمة فقد قاطعت هذه المظاهر الكاذبة المتكررة التي مجها الناس، وسئم منها المواطنون.

زارني في بيت الأمة وفد من أسرة الوكيل بدمنهور وعلى رأسه عبد الواحد الوكيل بك عضو الهيئة الوفدية وكامل الوكيل بك رئيس محكمة مصر وقصوا علينا أن الحكومة منعت المياه عن مزارعهم حتى تلفت المحاصيل وقبضوا على المزارعين والعمال الذين يعملون في حقولهم عندما صمموا على أن يفتحوا الترع لري أراضيهم، ولم تكتف الإدارة بذلك بل أخذت بعض مواشيهم وذبحتها على رؤوس الأشهاد مما أثار دهشة الناس وسخطهم.

قرأت نعي الشاعر أحمد شوقي وبالرغم من أنه صهر الأحرار الدستوريين وصديق شخصي لصدقي إلا أنني أرسلت مندوبًا عني ليشيع جنازته نظرًا لمنزلته الأدبية وتاريخه في حرب الإنجليز وإشادته بسعد باشا في عديد من قصائده.

منذ أن سلمت إلى السيدة الجليلة أم المصريين مذكرات الزعيم الخالد الذكر سعد باشا وأنا أحاول أن أطلع على بعض ما فيها من أسرار السياسة المصرية في القرن التاسع عشر وهذا القرن ولكن يمنعني من الاسترسال في الاطلاع صعوبة قراءة خط سعد، فهو مكتوب بحروف صغيرة جدًا وطريقة غير الطريقة التي ألفناها، ولكني استطعت بالاستعانة ببعض المتخصصين في قراءة مثل هذه الخطوط أن ألم بأشياء كثيرة من تلك المذكرات الخطيرة التي حوت كثيرًا من الأسرار وعديدًا من المواقف العظيمة المشرفة التي دلت على أن سعدًا كان حقًا رجلاً عظيمًا وأنه خلق للزعامة والقيادة وأنه كان رجلاً صريحًا جدًا لا يتردد في أن يذكر أخطاءه وأخطاء زملائه من أبناء عصره الذين يعدون طليعة المثقفين وقادة المفكرين، لفت نظري بعض الحوادث، التي ملأتني إعجابًا بالرجل العظيم وتقديرًا لرجولته الفذة وشخصيته القوية، استرعى نظري موقفه مع دنلوب مستشار نظارة المعارف

العمومية كما أعجبت بموقفه من زملائه طلبة الأزهر عندما كان هو وشقيقه فتحي يطلبان العلم فيه، وترحمت على روحه طويلاً عندما قرأت صراحته ورأيه في نفسه وزملائه قادة الفكر في أيامهم، كل هذا وغيره من المواقف السياسية الخطيرة والاصطدامات مع أكبر الحكام في سبيل الاعتزاز برأيه ودوره في إنشاء الجامعة المصرية القديمة وحصوله على شهادة الحقوق الفرنسية وغير ذلك من الأحداث التي امتلأت بها مذكراته الخطيرة التي زادتني إيمانًا بأن سعدًا زعيم قلما يجود بمثله الشرق، بل إنه رجل بما تحمله كلمة الرجل من أسمى المعاني، وأجل الصفات.

أقيم الاحتفال بعيد الجهاد مساء أمس وقد زرت في الصباح قبر الزعيم الخالد الذكر سعد زغلول كما زرت السيدة الجليلة أم المصريين في بيت الأمة وقد كان معها لجنة السيدات الوفديات فبادلتهن التهنئة بعيد الجهاد، وفي المساء ألقيت خطابي المعتاد شددت فيه النكير على الحكومة وتصرفاتها وعلى الإنجليز وتأييدهم لها، وخاطبت من فوق المنبر إنجلترا منددًا بها معلنًا لها أن أساطيلها لا تخيفنا، وقواتها لا ترهبنا، وجيش احتلالها لن يثنينا عن مطالبنا وقلت لهم في قوة وشدة تعالوا فانظروا الشعب الذي عذبته إدارتكم أشد العذاب وحاربته بأحط أساليب الحرب، ونكلت بفئاته وجميع طبقاته أشد التنكيل، تعالوا فانظروا الشعب الأبي العظيم أو فاسألوا مندوبكم السامي وجيشكم العرمرم هل ضعفت مصر أمام قوتكم؟ هل استكانت الأمة أمام بطش أدواتكم الطيعة؟ هل تقهقر الشعب أمام سيوفكم وحرابكم؟! لا... إن مصر هي مصر وستظل مصر.

قصدت إلى أداء فريضة الجمعة في مسجد السيد عبد الوهاب الشعراني بحي باب الشعرية ولم أكد أدخل المسجد حتى هب جميع المصلين وقوفًا يكبرون ويحيون شخصي الضعيف، وبينما نحن نستمع إلى الخطيب إذ هرعت فرقة من رجال البوليس على رأسهم مأمور القسم شاهري بنادقهم واغلقوا المسجد على المصلين ومنعوا الدخول إليه والخروج منه، ولم تكد الصلاة تنتهي حتي فتحوا الباب الرئيسي ووقف شرذمة من رجال البوليس المسلحين عليه وأخذوا يقبضون على الخارجين من الصلاة ويفتشونهم، ويسوقونهم إلى اللوريات الواقفة أمام المسجد، ولما هممت بالخروج والذين كانوا معي لم نجد أحذيتنا وتبين أن العساكر قد أخذوها بأمر المأمور فاضطررنا إلى الخروج في الشارع حفاة. وسرنا مسافة طويلة لأنهم قد أبعدوا سياراتنا إلى مسافة طويلة، ثم قبضوا على عدد من الذين كانوا يرافقونني وأعملوا فيهم الضرب بالعصي والهراوات وقبضوا على مصور جريدة الجهاد واختطفوا آلة التصوير منه وزلقوها على الأرض فتهشمت وتحطم زجاجها ... وقد كان تصرفاً إن دل على شيء فهو يدل على الصَغَار والأساليب الحقيرة التي عمد إليها رجال البوليس بناء على الأوامر التي صدرت لهم من رؤسائهم الذين يديرون دفة الحكومة في هذه الأيام الحالكة السواد.

التحقيق

(١)

ما تزال أسباب إبعاد د. طه حسين عن عمادة كلية الآداب وعن الجامعة في ذلك الوقت محل تساؤل، فالأسباب التي أعلنتها وزارة المعارف لإبعاده بدأت باتهامه بالاتصال المباشر بجهات أجنبية بشأن التعيين في الجامعة. وانتهت بتفريقه بين الأساتذة في المعاملة بحسب جنسياتهم، مروراً بتحريض أساتذة كلية الآداب على عدم التدريس بالأزهر.

وإذا كان طه حسين بنفسه قد أرجع السبب إلى أن صدقي باشا عرض عليه رئاسة تحرير جريدة (الشعب) فرفض، كما أنه عارض في منح ألقاب شرف لعدد من المسؤلين تحقيقًا لرغبة وزير المعارف (ومنهم يحي باشا إبراهيم وتوفيق رفعت باشا وعلي ماهر باشا) على أساس أن الجامعة لا تمنح ألقابها بأمر الوزير (حلمي عيسى باشا).

فإن الوثائق البريطانية تقرر أن الإبعاد سببه اعتراض د. طه حسين على بعض ما ورد في خطاب وزير المعارف في حضرة الملك عند زيارته للجامعة لتوزيع الشهادات الجامعية. غير أن القرار كان بمثابة انفجار قنبلة داخل الجامعة، فقد عم الإضراب الجامعة واشتركت الطالبات فيه، حيث خرجن عن عزلتهن، وهتفن بأصواتهن لاستنقاذ استقلال الجامعة من الأهواء.

وتحركت مظاهرات الطلاب إلى القصر الملكي وقطع البوليس عليها الطريق - كما يقول د. عاصم محروس - لكنهم أرسلوا بشكواهم مع وفد منهم إلى كبير الأمناء بالقصر، لإيصالها إلى الملك.

ورغم أن وزارة المعارف أعلنت أنها ستغلق أي كلية يستمر طلابها في الإضراب، إلا أن الطلاب لم يذعنوا. ويروي (فتحي رضوان) أنه كان من زعماء هذا الإضراب، مؤكدًا أن جميع الكليات أضربت إضرابًا شاملاً، وأنهم حاولوا اقتحام مكتب العميد واحتلاله بالقوة.

وسارعت الحكومة بالتحرك داخل البرلمان عن طريق النائب (عبد الحميد سعيد)، حيث وجهت إلى طه حسين اتهامات بنشر الكفر والإلحاد داخل الجامعة لأنه يبيح جلوس الشابات بجانب الشباب، وأنه يعادي الإسلام ويبدي أراء مخالفة لنصوص القرآن الكريم وبوجه خاص ما كتبه في الشعر الجاهلي، كما أن كتابه "حديث الأربعاء يزين للشباب طريق الفجور."

ولم تكن هذه هي المرة الأولي التي تثار فيها قضية إسلام طه حسين داخل البرلمان، فقد سبق ذلك في أزمة عام ١٩٢٦ بسبب كتابه في الشعر الجاهلي، لكن موقف الوفد تباين بين التاريخين، ففي حين أخذ النحاس موقفًا مؤيدًا له هذه المرة فإن (سعد زغلول) صاغ موقفًا مناهضًا له في المرة الأولى - حتى أنه هو الذي أصر على تحريك الدعوى القضائية ضده، بل إنه وقف خطيبًا في مواجهة إحدى المظاهرات ضد طه حسين قائلاً:

"... إن مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر في هذه الأمة المتمسكة بدينها ... هبوا أن رجلاً مجنونًا يهذي في الطريق، فهل يضير العقلاء شيء من ذلك...؟!"

وفي الحقيقة فإن أزمة د. طه حسين الثانية ورفده من الجامعة، قد شاركت جميع الأحزاب - وفي مقدمتهم الوفد - في تحويلها إلى وقود، حاولت أن تشعل به النار في حكومة صدقي.

(٢)

يشير محمد كامل البنا - سكرتير النحاس - إلى علاقة خاصة بين زوجة القطاوي «اليهودية الحسناء» وبين صدقي باشا، بل هو يفسر اختياره له كوزير للزراعة وحضوره في دائرة المقربين منه بذلك.

غير أن حضور يوسف أصلان قطاوي في دوائر السياسة والاقتصاد في مصر كان قويًا ونافذًا من قبل ذلك بسنوات طوال، وهو حضور استمر - أيضًا - بعد صدقي، فقد كانت أبواب القصر الملكي مفتوحة أمامه دائمًا سواء في عهد فؤاد أو فاروق من بعده.

لقد شغل يوسف أصلان قطاوي منصب رئيس الطائفة اليهودية في مصر خلفًا لوالده الذي مثل اليهود في الجمعية التشريعية، كما كان عضوًا في لجنة الثلاثين التي وضعت مبادئ الدستور سنة١٩٢٢، ثم وزيرًا للمالية في وزارة (زيوار) الأولي، وللمواصلات في الثانية.

وقد استقال من منصبه - كما يقول د. . يونان لبيب رزق - لأنه ترك بطاقة تهنئة لسعد زغلول بمناسبة العيد، وإن كانت د. سعيدة محمد حسني تري أن علاقته بسعد زغلول هي مرآة لعلاقة اليهود بحزب الوفد حيث رافق يوسف قطاوي وليون كاسترو سعد في مفاوضاته بلندن، وعندما عاد الوفد قام (كاسترو) بحملة صحفية في صحيفته اليومية بالفرنسية (الحرية) تأييدًا له.

وكانت ليوسف علاقات وثيقة مع عدد من قيادات الحركة الصهيونية في مقدمتهم إسحاق بن زيفي وموسى شترتوك وناحوم سوكولوف وقد أقاموا جميعًا لديه في القاهرة والإسكندرية، بل إنه عندما جاء إلى القاهرة اللورد (دوفرين) مندوبًا لبريطانيا ١٨٨٢ اختير منزل عائلة (قطاوي) ليقيم فيه مدة بقائه في مصر.

وقد اشترك (قطاوي) مع (طلعت حرب) في كتابة «تقرير الصناعة والتجارة الألمانية في مصر» علم ١٩١٦، وذهب معه إلى ألمانيا حيث أجرى تعارفًا بين طلعت حرب ومجموعة «فرنكفورت» المصرفية حيث الموقع الرئيسي لعائلة (روتشيلد).

كما أنه هو الذي أدخل (جوزيف شيكوريل)- الرأسمالي اليهودي الكبير - في مجلس إدارة «بنك مصر» في العام التالي لتأسيسه. ومن خلال وقوف اليهود في وجه طلعت حرب

حينما أراد أن ينشأ «البنك المصري الفلسطيني»، وهددوا بسحب أموالهم المودعة في البنك إذا أصر على تنفيذ هذا المشروع فتراجع مضطرًا عنه.

(٣)

كان كل شيء علي المسرح السياسي يبدو كما كان جزءًا من مسرحية عبثية غريبة، فقد كان هناك مشهدًا واحدًا يتحرك فوق المسرح، مملاً ومكررًا، ومع هذا فقد كان كل طرف مصرًا على أنه وحده الذي يراه ويترجمه إلى مفرادات وتصور صحيح.

وكان كل طرف بالتالي ماض في بناء مواقفه في الخفاء على قاعدة من هذا التصور، وفي المرحلة النهائية فقد كادت الصدامات بين الأطراف السياسية المختلفة، أن تكون صدامات بين فهم وآخر، لا بين مفهوم وآخر.

كان المندوب السامي ما يزال مستمرًا في تأييد وزارة صدقي عمليًا في رسائله السرية إلى لندن، فقد كان يرى في حركة المشاهد فوق المسرح ما ينبيء بأن صدقي يزداد قوة، وأن جميع خصومه، وفي مقدمتهم الوفد، يزدادون ضعفًا وانقسامًا وبالتالي فإن صدقي باشا «قوي لدرجة تمكنه من عقد معاهدة والمضي في تنفيذها» بينما تنبيء حركة المشاهد بعكس ذلك تمامًا، فلم بكن في سلوك صدقي أو عمله ما يمكن أن يثقل موازينه أو يضعف موازين خصومه، فقد كان خصومه هم كل القوى السياسية وكل الشعب تقريبًا.

لقد صدرت الميزانية الجديدة متضمنة تخفيضًا كبيرًا في أجور العمال بجميع مصالح الدولة وبنسبة تتراوح بين ١٢-١٥٪.

واتجهت بعض المصالح الأخرى إلى خفض أيام العمل، وتم تنفيذ كادر جديد بالنسبة للموظفين ترتب عليه تخفيض فئات المرتبات في جميع الدرجات وخفض فئات العلاوات وإلغاء دورتها السنوية، ومنع التعيين في الوظائف الخالية. وكان انقضاض الحكومة بوحشية على أجور الموظفين والعمال بمثابة تشجيع لانقضاض أكثر وحشية قام به أصحاب الأعمال في شتي المجالات.

لم يكن لدى صدقي ما يقدمه إلا مزيدًا من العنف والإكراه واستخدام الإدارة ضد الناس. فقد "اعتاد رجال البوليس والجيش - كما يقول الرافعي - التنكيل بكل معارض للحكومة دون مراعاة للعدل والقانون - كما تعقبت الحكومة خصومها السياسيين في أرزاقهم وموارد عيشهم بمختلف الوسائل غير المشروعة لكي تضطرهم إلى الذل والاستكانة، ولم تتورع في هذا الصدد عن إقفال المحالج والمصانع لأسباب ملفقة للتنكيل بأصحابها ... وطغت سلطة الإدارة علي سلطة النيابة..."

ومع ذلك كله فإن (لورين) لم ير في حركة المشاهد إلا أن صدقي يزداد قوة بينما كان يتآكل سياسيًا بل وصحيًا...

أما الأحرار الدستوريين فلم يروا في حركة المشاهد إلا الإنجليز يتحينون الفرصة لإنهاء حكم صدقي رغم أنف القصر الملكي، فلم يكن بمقدورهم أن يتخيلوا أن الإنجليز يمكن أن يعانوا من ازدواجية إلى هذا الحد، بين تمسكهم بنظام ليبرالي في بلادهم وحرصهم على نظام ديكتاتوري مستبد في بلد آخر، ولذلك صدق محمد محمود (سيسل كامبل) عندما أخبره وهو يتناول العشاء معه، أن صدقي في حالة شجار مع الملك وأن وزارته أصبحت آيلة للسقوط، ولذلك فإن عليه ألا يصدر بيانًا مشتركًا مع (النحاس) ضد الإنجليز. ولم يكن هدف (كامبل) إلا أن يمنع إصدار البيان كمقدمة لهز الائتلاف المعارض ذاته، وكان له ما أراد.

ولقد سقط الوفد - أيضًا - في خداع نظرًا لما يجري فوق المسرح فقد بنى تصوره على أن بريطانيا العظمى بنظامها الليبرالي، سوف تجبر في النهاية على أن تمد يدها لمثل الأغلبية، ولن تتحمل ديموقراطيتها طويلاً مساندة نظام ديكتاتوري، ولكن بريطانيا في الواقع كانت متمسكة بهذا النظام وبمساعدته في البقاء على قيد الحياة، ولولاها لكتبت شهادة وفاته مبكرًا جدًا.

ربما يستثني من كل عمليات خداع النظر (صدقي) نفسه فقد كان بمقدوره أن يدرك وأن يتعرف في ضوء إدراكه أن الإنجليز يحتاجون إلى نوع من «الاستقرار الإداري» لا إلى «الاستقرار السياسي» أو «الاجتماعي» لا لأنهم ليسوا «ليبراليين حقيقيين» بل لأنهم تعبير حقيقي عن هذه الطبعة من المنظومة الفكرية الغربية.

(٤)

حتى ذلك الوقت كانت السيدة صفية زغلول تقدم تأييدًا للنحاس على طول الخط، وكان ذلك أحد أسباب ردع خصوم النحاس في الهيئة الوفدية ومحاولتهم تجنب الصدام، لأنه كان من الواضح أن ذلك سيقود إلى انشقاق جديد يترتب عليه تصدع كبير في الوفد.

لكن هؤلاء الخصوم لم يبتلعوا أصواتهم القوية بالرغم من ذلك، وبدا أنهم يتحينون الفرصة للإعلان عن حضورهم وعن الفكرة التي تحلقوا حولها، وهي القبول بالوزارة الإئتلافية، ولم يكن ذلك ببعيد عن تقدير النحاس ولذلك عندما تصادم مكرم عبيد والغرابلي - وهما يشتركان في الدفاع عن نجيب اسكندر الوفدي المتهم في قضية القنابل - وسارع الغرابلي بتقديم استقالته - تعبيرًا عما رأى فيه من إهانة لحقت به، وقد قبلها النحاس ولم يرجع في قبوله حتى بعد أن رجع صاحبها نفسه عنها. وعند ذلك اعترض سبعة من كبار أعضاء الوفد هم: فتح اله بركات، حمد الباسل، مراد التشريعي، علوي الجزار، فخري عبد النور، عطا عفيفي، راغب اسكندر سلامة وضمنوا اعتراضهم في بيان، وانقطعوا مؤقتًا عن حضور جلسات الوفد، فأصدر النحاس بيانًا (في ٢٠ نوفمبر) اعتبر مسلك الأعضاء السبعة خروجًا على الوفد، وترك لفتح الله بركات أن يحدد موقفه بعد شفائه (وكان مريضًا بمرض خطير توفي بعده) ولكنه أصدر وهو في المستشفى بيانًا متضامنًا

مع الأعضاء السبعة، وأصدر علي الشمسي بيانًا بتأييد موقفهم. فإذا بالنحاس – كما يقول (الرافعي) – يصدر بيانًا باعتباره أيضًا منفصلاً عن الوفد ولهذا يسجل حسين هيكل أن النحاس "عندما رأى أن الجدل قد طال في الوفد وأن علاقته بخصوم فكرته قد ساءت، قرر المبادأة بالهجوم ففصل سبعة من أعضاء الوفد".

وقد أطلق على هذا الانشقاق اسم «السبعة ونصف» لأن أحد المنشقين – وهو علي الشمسي – كان قصير القامة.

وفي ٢ ديسمبر ضم الوفد أحد عشر عضوًا جديدًا إلى الهيئة بدلاً عن المستقيلين والمقالين كان من بينهم ٨ أعضاء ينتسبون إلى كبار الملاك والأثرياء أي بنسبة ٦٦,٢٪ منهم.

(٥)

وفق تقارير بوليس القاهرة لهذا العام فقد سجلت عدة إضرابات عمالية وطلابية، فقد أضرب عمال مصلحة التنظيم بسبب تخفيض مرتباتهم، وأضرب عمال الحرير للسبب نفسه، كما أضرب سائقو سيارات الأجرة احتجاجًا على فرض ضرائب جديدة على السيارات، وأضرب عمال جباسات البلاح بمنطقة القناة عندما حاولت الشركة التخلص من اتفاقية العمل المبرمة معهم، وحاول تجار «المناديل الاسطامبولي» وأصحاب الورش المنتجة لها الانقضاض على شروط العمل السائدة بحجة الكساد، وواجه العمال ذلك – كما يقول أمين عز الدين – بإعلان الإضراب في مناطق الخرنفش، الغورية، الجمالية واقتحم البوليس هذه الأماكن وألقى القبض عليهم.

أما إضرابات طلاب الجامعة فقد تمت احتجاجًا على نقل د. طه حسين من الجامعة وفيما يتعلق بأحداث العنف فقد عثر على قنبلة مشتعلة في دار صدقي باشا لكن مفعولها أبطل قبل انفجارها وانفجرت أخرى في شارع (لاظوغلي) قرب دار المندوب السامي. وعثر على ثالثة على سور مدرسة الهندسة، ووضعت قنبلة على شريط السكك الحديد بين محطتي صدفا وطما بقصد تفجير قطار صدقي المتوجه إلى جرجا، ولكنها انفجرت قبل وصوله، وأتلفت القضبان.

ووفق مذكرات عبد المنعم عبد الرؤوف فإن هذه القنابل قد بثت بواسطة جمعية (اليد الخفية) التي انضم إليها وكان مايزال طالبًا بالمدرسة الثانوية ومولها مصطفى التوني عمدة (الكيرم) مركز أبو قرقاص محافظة المنيا، وقادها شقيقان للعمدة أحدهما محام والآخر قاض وهما محمد شوكت التوني ومحمود شوكت التوني. ورغم رصد الحكومة مبلغ ثلاثة آلاف جنيه لمن يدلي بمعلومات عن الجمعية فإنها لم تنجح في إماطة اللثام عنها.

لقد قدمت إلى القاهرة هذا العام بعثة مكتب العمل الدولي (١٦ فبراير ١٩٣٢) وقدمت تقريرًا عن حالة العمال والوضع الاقتصادي في البلاد عرف بإسم تقرير «بتلر» – نسبة

إلى رئيسها هارولد بتلر – وقد قال التقرير أن نسبة البطالة كبيرة في البلاد وأن يوم عمل النساء المشتغلات في المحالج تصل بين ٤١ – ١٦ ساعة وأن الراحة الأسبوعية منعدمة وأن أجور العاملين بالغة الانخفاض وتدفع لهم في الغالب عن طريق وسطاء. وحددها التقرير بـ: خمسة قروش أسبوعيًا للطفل بينما يصل أجر العامل بمحالج القطن إلى ٢-٣ قرش يوميًا.

وعندما اتجهت النية إلى إصدار قانون لتشغيل الأحداث والنساء حدد المشرع الحد الأدنى المسموح به لتشغيل الأطفال بـ ٩ سنوات، وجعل ساعات العمل المسموع بها ٩ ساعات يوميًا، بينما خفض إجازات الوضع للنساء إلى أسبوعين فقط!!

ولقد تعرض صدقي باشا رئيس الوزراء إلى محاولة اغتيال أخرى "حيث في ١٦ مايو شرع محمد الغلال الشهير بسلطان وعمره ٣٢ سنة وصناعته طاه ومقيم بباب البحر بدرب سعادة عطفة الطوشي بقتل صاحب الدولة إسماعيل صدقي عمدًا ومع سبق الإصرار والترصد فتسلح بآلة قاتلة وهي مسدس صالح للاستعمال ورصاصات صالحة للانطلاق"، وجرى بين المحكمة وبين المتهم ذلك الحوار الغريب:

المحكمة: أنت يامحمد لما سألك حضرة قاضى الإحالة عن التهمة قلت إنك ستفصح عن هذا الشريك أمام محكمة الجنايات.

المتهم: أنا مصر على ما قلت، والشريك ده هو مخّي اللي حرقه البوليس السياسي.

المحكمة: مخك هوه اللي قال لك تقتل صدقي باشا؟

المتهم: مخي شريكي.

المحكمة: مادام مخك حرضك فمعنى هذا أنك كنت بتفكر في قتل صدقي باشا.

المتهم: أفكر في المصايب اللي جابها لي صدقي باشا، ومخي قال لي كدة وأنا قلت حرام!

١٩٣٣

المذكـــــرات

(١)

تلقيت مزيدًا من البرقيات موجهة إلي من بعض أعضاء الهيئة الوفدية ولجانها بأن رجال الإدارة يتفننون في ابتكار أساليب الاضطهاد والتعذيب ضد الوفديين وأن التاريخ يعيد حوادث (أخطاب) في كل مكان. وقد أرسل الشيخ حسيب عبادي حمدين عضو الهيئة الوفدية عن إدفو بأن مأمور البندر ورجال الإدارة قد حاصروا بيته ومنعوا أهله من الخروج حتى أن السيدات اللاتي كن فيه قد حبسوهن ومنعوهن من التزاور مع جيرانهن، وأن زراعته قد أتلفت، ومحاصيله قد بددت وأنهم قبضوا على أفراد أسرته وحققوا معهم بتهمة إهانة الحكومة ورئيسها وقد اعتدوا عليه بالضرب مما اضطره إلى الدفاع عن نفسه فلطم ضابط البوليس الذي استعمل معه العنف وقد قامت قيامة الحكومة وأبلغت النيابة بأن ممثلها قد أهين وحقق مع الشيخ حسيب ولكن النيابة أطلقت سراحه بكفالة ولم يعجب هذا رجال الإدارة فصدر أمر وزير الحقانية بنقل وكيل النيابة في الحال مما دل دلالة واضحة على التدخل السافر في كل شيء حتى في الهيئة القضائية.

عدت من بيت الأمة ظهر أمس وبعد تناول الغداء صعدت إلى الطابق العلوي لأقيل كعادتي ولم أكد استريح بعض الوقت حتى طرق كامل البنا باب حجرتي فقمت منزعجًا وسألت ماذا جرى قال إن سمو الأمير محمد علي توفيق حضر وهو يريد مقابلتك حالاً لأمر خطير، فقلت له قدموا له القهوة وأخبروه أني سأرتدي ملابسي وأنزل إلى سموه بعد ثلث ساعة وفعلاً توضأت وصليت العصر ثم قرأت بعض آيات من القرآن الكريم كعادتي عقب كل صلاة ثم ارتديت ملابسي، فأخبرت أن الأمير انتظر المدة المحددة وخرج وعلى وجهه آثار الغضب لتأخيري فطلبت إلى سائق السيارة أن يذهب بي إلى قصر الأمير ووصلت إليه فاستقبلني سكرتيره الخاص أحمد مختار بك وناظر أطيانه محمد نيازي بك وبعد قليل دعيت لمقابلة الأمير فلما دخلت عليه وجدته لايزال غضبانًا متأثرًا لأني تأخرت عليه فقلت له لا تؤاخذني فإن سبب تأخيري أني كنت أؤدي فريضة العصر قبل أن أنزل إلى سموك فبرقت أساريره وقال مادام التأخير كان بسبب الصلاة فقد زال غضبي ولا بأس عليك وبعد أن تناولنا القهوة قال ياباشا إني أحمل إليك بشرى سارة وخبرًا هامًا جدًا سيطيح بصدقي وسيعيد الحياة النيابية الصحيحة إلى البلد، ويحكمها وكلاؤها الحقيقون فقلت حسنًا ياسمو الأمير وما هو هذا الخبر الجميل؟ قال إني عدت من إنجلترا كما تعلم منذ أيام وقد اتصلت هناك بالمسئولين، وتحدثت معهم في الحالة التي وصلت إليها البلاد وشرحت لهم صورة غضب الشعب المصري وغليانه وضيقه بالحكم الشاذ الذي يحكم به، وقد وافقوني على أنه قد آن الأوان لتغيير الحالة وحملوني إليك رسالة هي أنهم لا مانع لديهم من عودة الدستور الصحيح إلى البلد وإلغاء دستور صدقي وبرلمانه وترك الأغلبية تحكم طبقًا للدستور لكنهم يريدون تعديل مادة واحدة من دستور ٢٣ هي الخاصة بولاية العهد لأن المعلومات التي لديهم أن الملك في حالة صحية غير مرضية وأن تقارير أطبائهم

ومخابراتهم تفيد بأنه لن يعيش طويلاً وأن ابنه طفل صغير لا يصلح للملك ولا لإدارة دفة البلاد، والمادة الخاصة بولاية العهد تنص على أنه سيكون هو المالك بعد أبيه وهم يريدون تعديلها بالنص الآتي: تكون ولاية العهد للأرشد من أبناء محمد علي بدل النص الموجود الآن في دستور ٢٣ وهو تكون ولاية العهد للأرشد من أبناء إسماعيل وبذلك أكون أنا - إذا مات فؤاد قبلي - ملكًا على البلاد ونحن متفاهمون، وليس بيننا خلاف وسيترك للوفد الحرية الكاملة في أن يباشر الحكم طبقًا للدستور دون مس به أو عبث... فماذا ترى في هذه البشرى السارة؟ وأؤكد لك ياباشا أني ما وصلت مع الإنجليز إلى هذا إلا بعد مجهود عنيف ومحادثات طويلة ومناقشات عنيفة حتي استطعت إقناعهم بهذا الحل الموفق السعيد... فسكت قليلاً ثم قلت ياسمو الأمير أنا أشكر لسموك مسعاك الحميد، وجهودك المضنية ولكن يؤسفني أن أقول لك إني لا أوافق على هذا العرض ذلك أن الدستور قد نص في صلبه على أن تعديله لا يكون إلا بواسطة البرلمان ممثلاً في مجلس الشيوخ والنواب وأن كل تعديل غير هذا مرفوض من أساسه، فإذا كان الإنجليز جادين حقًا فيما يعرضونه فلينفذوا الدستور كما هو دون تغيير أو تعديل حتى إذا ما جاءت الحياة النيابية الحقة ومارس نواب الأمة الحقيقيون سلطاتهم التشريعية يعرض عليهم الدستور فإن قبلوا تعديله فبها ونعمت وإلا ظل كم هو .... أما أن أقبل أنا والوفد أو غيرنا تعديل أي مادة في الدستور من غير هذا الطريق فهذه سابقة خطيرة وأمر غير مقبول ولا يمكن أن أوافق عليه بحال من الأحوال، ورأيت الغضب بدا في وجه الأمير وقال في حدة ياباشا أيرضيك أن يظل الوفد ووراءه البلاد كلها تعذب وتذوق الويل من صدقي، ومن فؤاد من أجل تعديل مادة لا تقدم ولا تؤخر وتعود لكم السلطة والحكم وتتنفس البلاد الصعداء، قلت هذا هو نص الدستور ولا أحيد عنه مهما تكن الظروف، ومهما تكن التضحيات.... قال ياباشا اذكر ما ذقتموه جميعًا وما ستذوقونه على يد صدقي وفؤاد وحاشيته لو بقيتم على هذا الحال، وما ستناله البلاد والوفد من خير وهدوء ولو وافقتم على هذا العرض فأجبته هذا هو رأيي الأخير، وهذا تصميمي الأكيد ولن أحيد عنه أبدًا.... وطال النقاش حتى قضينا في أخذ ورد أكثر من ساعة وهو يعيد ويرجو وأنا أرفض وأصمم، وأخيرًا استأذنت منه وقام يودعني وعلامات الغضب والحنق باديان على وجهه وودعته وأنا مستريح لما أبديت من رأي وأظهرت من تصميم .... وكان الأمير قد قال لي وهو يودعني أنكم ألفتم الاضطهاد، وحكم البطش وسنرى ياباشا النتائج التي ستترتب على بقاء فاروق وليًا للعهد (وبكرة أفكرك) ولكنني ابتسمت في وجهه وقلت ياأفندينا هذا قدر الله وقد تعودنا على الجهاد وفوضنا أمرنا لله والله بصير بالعباد.

قصدت أمس إلى أداء صلاة الجمعة في مسجد مولانا الحسين رضي الله عنه - وأنا دائمًا أتبرك بالحسين وبزيارته وبالصلاة فيه منذ سلمني إليه المرحوم والدي وأنا طفل صغير وقد دخلت المسجد في الدقائق الأخيرة وكان غاصًا بالمئات من المصلين الذين كبّروا وهللوا عند مدخلي وأفسحوا مكانًا لي في الصف الأول خلف الإمام وبعد انتهاء الصلاة أخذ المصلون يعيدون التكبير والتهليل ولكني اتجهت إلى القبلة وأشرت إليهم فسكتوا

جميعًا وخيم على المسجد الوقار والروحانية ورفعت يدي واتجهت إلي الله سبحانه وتعالي في خشوع وخضوع وأخذت أتلو آيات من القرآن الكريم ثم علا صوتي بدعوات خالصات خارجات من القلب بكل إخلاص وإيمان واتجهت إلى رب الكون القهار الجبار أن يقصم ظهر الجبارين، وأن يخلص البلاد من ظلم الظالمين، وعسف الطغاة السفاكين وأن يرحم عباده الضعفاء من أولئك الظلمة الأقوياء الذين يظنون أنهم آلهة متحكمون، وسادة أشداء، وغيرهم عبيد أرقاء. وظللت أدعو بصوت منتحب متأثر والمصلون جميعًا يؤمنون على دعواتي بأصوات مجلجلة، وزفرات حارة، ثم ختمت دعائي بقولي اللهم من كاد للأمة فكده، ومن ظلم الشعب فخذه، ومن أرادنا بسوء فانتقم ياذا العزة والجبروت، ياحي ياقيوم يامن تمهل ولا تهمل وتقضي ولا يقضى عليك وطلبت إلى الحاضرين في ختام كلمتي تلاوة فاتحة الكتاب أن يخلصنا الله المنتقم الجبار العادل القهار من صدقي وعهده المملوء بالمظالم الفياض بالجرائم، وكانت الأصوات تجلل والدعوات ترتفع والزفرات تصعد إلى السماء... وخرجت وسط مظاهرة قوية عنيفة تلاشت فيها كل قوى البوليس ورجاله ولم يستطيعوا أن يفعلوا مع تلك المئات المتراصة شيئًا، وأحسست وأنا في طريقي إلى داري براحة عميقة داخلية، وهدوء ملأ حنايا قلبي وسرى في جميع أجزاء جسدي.

زارني الشريف عباس حليم، وقال لي إن عمه البرنس محمد علي يقول إن النحاس باشا تسرع في رفض ما عرضته خاصًا بتغيير الحالة وطلب الإنجليز تعديل مادة من الدستور، وأنه لو تريث حتى يعرض الأمر على هيئة الوفد فربما وافق على اقتراحي كي نتخلص من الكابوس الذي ترزح تحته وأنه يرجو أن أعيد النظر في هذا الأمر فلعله يعدل عن رأيه، وقد أجبته بأن رأيي الذي أبديته هو الذي أصر عليه، وأنه إذا كان الأمير يتصور أن الوفد سيختلف معي فهو واهم لأنني لا أتكلم إلا وأنا واثق من رأي زملائي... ولما ألح علي الشريف عباس وعدته أن أدعو الوفد للاجتماع وأعرض عليه المسألة وأوافيه بالرد، وعند انصراف الشريف وقع في ذهني أنه ربما يكون الأمير قد اتصل ببعض أعضاء الوفد من غير علمي وعرف منهم أنهم يؤيدونه وفكرت في دعوة الوفد للاجتماع.

اجتمعت بمكرم وماهر والنقراشي، وتحدثت معهم في العرض الذي عرضه علي الأمير محمد علي وأخبرتهم بما يدور في ذهني من أن الأمير ربما يكون اتصل ببعض الزملاء دون علمي، وأبدوا له موافقة ومن أجل ذلك بعث إلي بالشريف عباس حليم ليعرض علي أن أجمع الوفد فقالوا حتى ولو صح هذا الظن فإننا عند موقفنا، ولا يمكن أن نختلف في أمر كهذا بعد أن جربناه، وتأكدنا من فشله واتفقنا على أن يدعي الوفد للاجتماع في أيام قريبة.

اجتمع الوفد في المساء وعرضت عليه المسألة التي حدثني فيها الأمير محمد علي بتفاصيلها وقلت إني محتفظ برأيي حتى لا يتأثر أحد منكم به، ولكم مطلق الحرية في أن تقرروا ما تشاءوا فتحمسوا جميعًا لرفض ما عرضه الأمير، بل لقد قال بعض الزملاء إذا كنا رفضنا عرض الملك فؤاد إخراج عباس العقاد مقابل عودة الدستور وتغيير الحالة فهل

نقبل الآن تعديل الدستور من غير الطريق المرسوم له لحاجة شخصية في نفس الأمير محمد علي؟ ومن أدرانا ربما كان هذا الأمير أسوأ من عمه ومن ابن عمه، حتى ولو كان أحسن منهما فلا يمكن بحال من الأحوال أن نقبل المساس بالدستور سيد القوانين.

فسرني هذا الاجتماع وقلت لهم اطمأن قلبي قد كنت حدست أن أحدًا منكم تردد أو ضعف لو استطال الأمد. أما وأننا كلنا على قلب رجل واحد فلست أخشى على القضية المصرية ولا على دستور الأمة مهما طال الزمن، ومهما تفنن الطغاة في أساليب الإجرام، وإنني دائمًا أقول في كل فرصة إن الدستور سيد ومنبع التشريعات، وإذا تساهلنا في المساس به مرة فستكون سابقة خطيرة وسينتهزها أعداء الأمة فرصة يعبثون كما يشاءون.

اتصلت بالشريف عباس حليم ولخصت له القرار وكلفته إبلاغه لعمه حتى يكف عن إثارة هذا الموضوع مرة أخرى.

علمت أن صدقي لازم داره من أيام، ولم يصل إلى مكتبه وقالت الصحف الموالية له إنه يشكو من إرهاق بسيط لا يلبث أن يزول، ولكن العالمين ببواطن الأمور كما يسمون أنفسهم يقولون إنه مريض وأن الأطباء أشاروا عليه بملازمة الفراش.

وصل الطبيب الإنجليزي الذي استدعي لعلاج صدقي وانضم إلى الأطباء المصريين وأعلن بصفة رسمية أن رئيس الوزراء أصيب بداء الفالج ولابد من منعه من مباشرة أي عمل لأنه لا يستطيع الحركة ولا مبارحة الفراش. على أثر إعلان إصابة صدقي بداء الفالج أصيبت الإدارة الحكومية كذلك بشلل كلي فقد عطلت الأعمال وكاد نشاط الحكومة كلها يقف ودولاب العمل يتعطل، وأصبح حديث المجالس وكتبت الصحف في صراحة أن الله يمهل وأنه آن للجبابرة أن يخضعوا لقوة الله، وللطغاة أن يعتبروا بما يرون وما يشهدون، قلت بيني وبين نفسي اللهم لا شماتة ولا تشفي، ولولا أن صدقي سام البلاد الخسف وخرب عديدًا من البيوت وشرد كثيرًا من العائلات وحبس وعذب، لولا هذا كله لأسفت على مرضه، بل لاستفسرت عن صحته.... ولكنها عدالة السماء حين يستبطئها الناس تأتي على غير موعد وبغير مقدمات.

(٢)

بدأ الحديث يدور بصراحة عن وجوب تغيير الوزارة وانقسم الناس إلى فريقين: فريق يرى أن هذه فرصة يجب الرجوع فيها إلى الأمة بعد التجربة الفاشلة التي دامت أكثر من ثلاث سنوات وفريق يري أنه لابد من المضي إلى نهاية الشوط، وتغلب الفريق الثاني، إذ كانت دار المندوب السامي الحاكمة الحقيقية لمصر تؤيد هذا الرأي وكان الملك كعادته ينتظر الأوامر والتوجيهات التي تأتي إليه من لندن لينفذها طائعًا صاغرًا، وأخذت فلول العهد وأبوابه يعلنون أن حزب الشعب باق، وأن صدقي باشا إذا كان قد لزم الفراش وأرغم على ملازمة الفراش فإن أنصاره وأعوانه وحزبه سيمضون في الطريق وسينفذون السياسة التي رسمها، وسيظل الدستور الذي وضعه والبرلمان الذي زيفه على حاله، وأخذوا

يرشحون خليفة (لرب الكفاءات) ليستأنف نشاطه ويتم ما بدأ وعادوا إلى الوفد مرة أخرى وجاءت الرسل إلي تساومني، وتطلب إلي أن أقبل الاشتراك في وزارة قومية تكون أغلبيتها وفدية فرفضت بكل شدة هذا العرض وأكدت أني لن أقبله أبداً وأنه ما كان يجب بعد هذه التجربة الفاشلة أن يعاد حديث الوزارة القومية مرة أخرى، ولقد جاءني فارس نمر ويعقوب صروف موفدين من قبل دار المندوب السامي وحدثاني طويلاً في هذا الخصوص وقالا إن الإنجليز لا يرون حلاً للأزمة إلا عن طريق ائتلاف الأحزاب في وزارة قومية فرفضت وخرجا من عندي وبعد قليل اتصل بي مستر ريد، وطلب تحديد المقابلة لأمر هام.

قابلت المستر ريد فعرض علي رسالة من دار المندوب السامي أن إنجلترا ترى أن الأمور لا يمكن أن تبقى على هذا الحال بعد أن أصيبت الإدارة الحكومة بشلل تام، ووقف دولاب العمل وأنهم يريدون التفاهم مع الوفد ويلحون في أن أقبل وزارة تضم جميع الأحزاب حتى يمكن للبلاد أن تستقر وهم على استعداد لأن يعيدوا الدستور كما هو ويتركوا الحياة النيابية تجري مجراها الطبيعي.

فقلت له إني لا أزال عند رأيي في رفض الائتلاف مع أحزاب الأقليات خصوصًا بعد أن دمغت عهودهم جميعًا بالغش والتزوير والعسف واضطهاد المواطنين، وما أظن الإنجليز نسوا ما فعله رجلهم محمد محمود بتأييد من المندوب السامي جورج لويد، وما فعله صدقي مما نحن فيه الآن من عبث بالدستور وبكل الحقوق وارتكاب الجرائم التي يندى لها وجه الإنسانية وتتقزز منها النفوس الكريمة، ولقد قلت وكررت ولا أزال أقول وأكرر إن تجربة الائتلاف قد فشلت ولا يمكن أن تنجح مادام هناك مزايدات على الحكم وتهافت على السلطة ومادام الإنجليز كلما أرادوا أن يحاربوا الأغلبية أوعزوا للملك أن يأتي بالأقلية، وهكذا تدور الأمور في حلقة مفرغة نعود من حيث بدأنا، ولو كانت الحكومة الإنجليزية جادة حقًا في الرجوع إلى الحق لكفت عن التدخل في أخص شئوننا الداخلية، ولتركت المسائل تجري في مجراها الطبيعي وقد كررت هذا القول وأعدته لكل من قابلني أو فاتحني في هذه المسائل ... وقال مستر ريد إنه علم من مصادر بريطانية أخرى غير موظفي دار المندوب السامي أن عدداً كبيرًا من الإنجليز في لندن ومعظمهم من حزب العمال البريطاني يعارضون سياسة حكومتهم، وينادون بالرجوع إلى الوفد صاحب الأغلبية وأنه ستظهر نتائج هامة خلال الأيام القليلة المقبلة، وأن مرض صدقي باشا الذي سيطول ربما يعجل بحل المسألة ويجعل الأمور تعود إلى نصابها.

قابلت عمران عبد الكريم فى الموعد الذى حددته له فأخبرنى بأن الإنجليز نفضوا أيديهم من صدقى وعهده وحزبه ودستوره، ولكن الملك رجاهم أن يعطوه مهلة حتى يرى حلاً للخروج من الأزمة، وأنه اتفق مع الإنجليز على أن يتركوه يسير فى التجربة الحالية شوطاً آخر حتى يجد طريقاً، وقد وافقوه على أن تكون فرصة مؤقتة لأن الأمور تسير من سيء الى أسوأ، وأن الملك رغب فى أن يعين نسيم باشا رئيساً للوزارة ليحل الأزمة، ولكن الإنجليز اعترضوا على تعيين نسيم الآن وأن فؤاد يعد العدة لكى يكلف عبد الفتاح يحي

باشا بتأليف الوزارة على مبادئ صدقى وحزبه وإن كانوا يرون أن هذه تجربة مقضي عليها بالفشل من أولها، ولكنهم يسكتون عليها حتى يروا ماذا يصنع الملك ثم يتدخلون فى الوقت المناسب، وقال لى عمران فيما قال إن المعلومات التى وصلت إليه من إنجلترا أن وزارة الخارجية البريطانية ستغير المندوب السامى سير برسى لورين وهذا إيذان بأن الاتجاه استقر على تغيير الحالة كلها، «من أجل هذا يريد ألا تعرف هذه المقابلة حتى لا يغضب أصدقاؤه فى دار المندوب السامي»، على الخصوص السير برسى لورين لأنه صديق شخصي له، وقال ياباشا إذا ظللت متمسكاً بعدم تأليف وزارة قومية فإن إنجلترا ستوافقك وهم ينتظرون حتى تنتهي إنتخابات مجلس العموم ولمن ستكون الأغلبية الحاكمة وحينئذ يقطعون برأى حاكم في هذه المسألة، وقد شكرت عمران على هذه المعلومات وعلقت عليها بأن الله يقدم ما فيه الخير.

(٣)

يظهر أن الملك فؤاد فشل في أن يعهد إلى توفيق نسيم باشا بتأليف وزارة إذ قد صدر مرسوم ملكي يكلف عبد الفتاح يحي باشا بتشكيل وزارة جديدة على غرار وزارة صدقي باشا، وقد ألفها من زملائه ولم يغير فيها إلا تغييراً طفيفًا، وبدا من أول وهلة أنها وزارة هزيلة ضعيفة يرأسها رجل محدود التفكير ضيق الأفق، وانتظرنا ماذا ستأتي به الأيام المقبلة.

وسارت الأمور سيرًا أعوج، وخيم على الادارة الحكومية الفتور ولم تنجز الوزارة الجديدة أمرًا، ولا حلت مشكلة حتى الروتين الحكومي كاد يكون معطلاً تمامًا، وبدأ أنصار الحكومة ينفضون عنها، وأعضاء الشعب يتسللون منه، وجاءني مكرم يقول إن كثيرًا من الأعضاء المستقلين من حزب صدقي يريد أن ينضم إلى الوفد وكما حدثني أحمد ماهر بهذا الخصوص فرفضت رفضًا باتًا أن أقبل أمثال هؤلاء الذين يأكلون على كل مائدة، وينتهزون كل فرصة.

انتقلت الحكومة إلى مصيف الأسكندرية وانتقل النشاط إلى هناك، وكان كازينو سان ستيفانو كالعادة يمتلئ كل ليلة برواد يمثلون مختلف الإتجاهات محلية وأجنبية وحكومية ومعارضة وأشيع في تلك الأوساط أن الحكومة البريطانية قررت نقل مندوبها السامي سير برسي لورين من القاهرة وتعيين آخر مكانه ولكن هذه الشائعة لم تتحقق، بل كان ما عرف أن المندوب السامي سافر إلى إنجلترا بالإجازة كعادته وأناب مستر هيوجونس أحد كبار موظفي الدار.

تجددت شائعات مصدرها المقربون إلى الملك بأنه بدأ يشكو من المرض وأنه استقدم الدكتور سليمان عزمي، وسامي صابونجي ليكونا مع طبيبه الخاص شاهين باشا إلى جواره، وأن حالته لا تدعو إلى الاطمئنان وأن خبر المرض متكتم ويحرص رجال السراى على ألا يذاع حتى يتدبروا الأمر.

بدأ عبد الفتاح يحيي باشا يشكو من سوء معاملة الإنجليز له وأنهم يقابلونه بوجه ويتصرفون معه بوجه آخر وقد قال أمين عثمان إن يحيي باشا كثيرًا ما يستدعيه ويشكو له من هذا ويوسطه ليعرف له هل هو مغضوب عليه منهم أم مرضي عنه. وكان أمين كلما فاتحني في هذا الموضوع تشمئز نفسي من أننا وصلنا إلى حد أن نستجدي فيه رضا دار المندوب السامي في سبيل البقاء في الحكم أو التربع على كرسي الوزارة، أما كرامة الرجال، ومصلحة البلاد، وشرف الوطنية فهذه كلها أشياء لا وزن لها ولا تذكر إلا في الخطب والبيانات.

إستدعى القصر الملكي بعض الأطباء الإنجليز لفحص الملك مع الأطباء المصريين وقد علم أن الطبيب الإنجليزي الذي حضر وافق الأطباء المصريين على طريقة العلاج التي يتبعونها وأسر إليهم أن حالة الملك خطيرة وأن المرض قد تطور إلى أسوأ، وأن الإنجليز أخذوا يفكرون في الأوصياء الذين يكونون على ولي العهد (فاروق) القاصر إذا مات الملك، وقد عجبت لهذه السياسة البعيدة المدى التي تخطط للأمر قبل وقوعه، لأن المعلومات التي يقولها الأطباء المصريون إن مرض الملك ليس خطيرًا إلى الحد الذي يقولون عنه، وأنه لا يزال يباشر أعماله ويمضي المراسيم ويناقش فيها ولا يزال يستقبل الوزراء ورجال الحاشية وأنه يخرج من وقت إلى آخر للنزهة في قصر المنتزة.

قابلت بعض رجال المال والتجارة الذين يشتغلون بتجارة القطن فأخبروني بأن تسعيرة القطن التي أصدرها صدقي باشا قبل إستقالته ومرضه أضرت باقتصاد البلد ضررًا بليغًا ولم يستفد منه إلا أصدقاء ومحاسيب صدقي من اليهود والأجانب. وأن المصريين الذين تعاملوا بشرف أصيبوا بخسائر فادحة، وقد طمأنتهم بأنه إذا حدث وتغيرت الحالة وزالت بقايا هذا العهد البغيض فإن الحكومات المقبلة ستنظر إن شاء الله في أمثال هذه الأشياء كلها، وستعيد الأمور إلى نصابها، وأعدكم بأن الوفد سيبدي رأيه صريحًا واضحًا في هذه الأزمة وأننا بصدد التحضير لمؤتمر عام سنبحث فيه جميع المسائل التي تهم البلاد سياسيًا واقتصادًا وتجاريًا وقضائيًا وماليًا وعلميًا، وأن المسائل متوقفة على الخروج من الورطة التى ورطنا فيها صدقي وإني أعتقد أن عبد الفتاح يحيي باشا لن يبقى في الوزارة لأن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، والبلاد تتردى في هوة لا يعلم إلا الله مداها، وقد لاحظت أن بين الزائرين علي أمين يحيي إبن شقيق عبد الفتاح يحيي وبعض أصهاره وأن فيهم محمد فرغلي تاجر القطن المعروف بالأسكندرية وهو معروف بصلته الوثيقة بالسراى وبالحكومة.

تلقيت رسالة خطية رقيقة من الشيخ مبارك حاكم سيشيل يهنئني فيها بالعيد ويبشرني بقرب زوال الأزمة التي تلاقيها البلاد، ويشير إلى بعض الذكريات التي كانت لنا أثناء منفانا في سيشيل مع الزعيم الخالد الذكر سعد زغلول باشا وقد رددت عليه برسالة شكرت له فيها مشاعره وبادلته التهنئة وتمنيت له أن يتمتع بالصحة حتى يرى جزيرته محررة من نير الإستعباد وتبعية الإنجليز.

عدنا إلى القاهرة بين مظاهر رائعة من توديع الأسكندرية والمحطات التي مر عليها القطار وبين استقبال رائع من أبناء القاهرة الذين عودونا على الحب وألفنا منهم الإخلاص والتأييد. ولم تكن قسوة البوليس ولا رجال الإدارة كما كانت في عهد صدقي بل اكتفت بالمحافظة على النظام وترك المواطنين يعبرون عن مشاعرهم، ولذلك كان الاستقبال بالغًا حد الروعة قويًا حماسيًا تزاحمت فيه الجماهير بالمناكب، حتى لقد اجتزنا رصيف المحطة في أكثر من عشر دقائق، ولم أستطع الوصول إلى السيارة المكشوفة التي أقلتني إلى بيت الأمة إلا بصعوبة شديدة، وكانت الجماهير على ناحيتي الطريق وعلى أسطح المنازل التي مر بها الموكب شديدة الحماسة قوية الهتاف، وقد امتاز هذا الموكب بحسن التنظيم الذى رتبته لجنة الإستقبال إذ أحاط بسيارتنا عدد كبير من راكبي الدرجات يليهم مستقلو السيارات من كبار المستقبلين ثم الجماهير الغفيرة من الوطنيين، ووصلنا إلى بيت الأمة في أكثر من ساعة وهناك حييت المستقبلين بكلمة شكر على مشاعرهم المتدفقة ووطنيتهم الصادقة وحبهم الشديد.

دعوت الوفد للاجتماع بكامل هيئته بعد استئناف العمل عقب إجازة الصيف وقد عرضت عليه العروض التي بعث بها الإنجليز عن طريق بعض الوسطاء كمستر ريد وفارس نمر وغيرهما وردي عليهما، فأقر الحاضرون بالإجماع هذه الخطة، واتفقنا على الاستمرار عليها، وقد دار نقاش حول مرض الملك وماذا يجب على الوفد عمله في هذا الخصوص واتفقنا على أنه عند إعلانه رسميًا نذهب ونقيد أسماءنا في سجل التشريفات، وانتقل بنا الحديث إلى مسألة الوزارة القومية وقال بعض الزملاء إنه علم عن طريق صديق إنجليزي لم يذكر اسمه أن إنجلترا تريد أن يشترك وزير أو وزيران من غير الوفديين ولو صوريًا حتى لا يكون لأحزاب الأقلية أي حجة في عودة الحياة النيابية إلى الأمة وحتى إذا حان وقت المفاوضات كان الاتفاق مجمعًا عليه فأجبته بما سبق أن أعدته وكررته مرات ومرات بأن هذا حل أعرج ولا فائدة من ورائه.

زارني وفد من علماء الأزهر المفصولين ومعهم بعض العلماء المدرسين في المعاهد الأزهرية وشرحوا لي ما يجري في الأزهر من عبث وإفساد، وما يفعله الشيخ الظواهري الشيخ الحالي من تصرفات بعيدة كل البعد عن الدين، ولا تليق بمعهد عتيد كالأزهر، وأن السراي جعلت شيخه وعلماءه كالخاتم في أصبعها تحركه كيفما تشاء وأن هذه التصرفات المقوتة غيرت نفوس الأزهريين وهم ينتهزون أول فرصة وينوون القيام بمظاهرة صاخبة تخرج من الأزهر إلى القصر ويقدمون عريضة للملك بمطالبهم وأولها عزل الشيخ الظواهري وإعادة الشيخ المراغي إلى المشيخة لأنه هو الشخصية الوحيدة التي يمكنها أن تضبط الأزهر وتوجهه الوجهة الصحيحة خصوصًا في هذه الأيام، وقد أخبرتهم بأن الغلطة غلطة الشيخ المراغي لأني أرسلت إليه في عام ١٩٢٩ حين استقال محمد محمود وبعث يشكو لي من تحدي السراي له وتعطيل كل طلباته وأنه مصمم على الاستقالة لأنه قد ضاق ذرعًا بما يلقاه من تحد فطلبت إليه أن يبقى في منصبه، ولا يستقيل فيعطي للقصر

الفرصة للإتيان بالشيخ الذي يريده، ولكنه تسرع وقدم استقالته، وكانت النتيجة كما نرى الآن ونصحت لهم أن يهدأوا الآن ويحاولوا تهدئة ثائرة الطلبة حتى ينجلي الموقف السياسي، وعندئذ سيكون لنا موقف يرضي الأزهريين.

تلقيت برقية من أحد أبنائنا الذين يدرسون في واشنطون عاصمة أمريكا يقول فيها إن وفدًا من مجلس الشيوخ الأمريكيين ومعه بعض المحامين المعروفين وبينهم محام ناشئ هو حفيد مستر فولك صديق سعد وصديق مصر من زمن بعيد وهم يريدون أن يلتقوا بخليفة زغلول باشا ويتحدثوا معه في شأن القضية المصرية، وأنهم سيصلون في النصف الثاني من شهر ديسمبر الحالي ويرجون أن أقابلهم وأتحدث إليهم، وأشرح لهم وجهة نظر الوفد ومطالبه من إنجلترا.

استقبلت الوفد الأمريكي بمكتبي ببيت الأمة وكان عدده خمسة أشخاص فيهم حفيد مستر فولك ولما تقدم إلي شددت على يديه وحييته تحية كريمة وذكرت له بعض أعمال جده الطيبة لخدمة قضية مصر والدفاع عن المظلومين، ثم أخذ الأعضاء يتناقشون معي في القضية المصرية والتطورات التي مرت بها والأزمات التي تجتازها، وقد شرحت لهم المراحل التي مرت بنا منذ قيامنا بثورة ١٩١٩ وما صادفنا من عقبات وما حظينا به من عطف بعض الأمريكيين على مطالبنا وأننا لن ننسى أبدًا دفاع مستر فولك الحار عن قضيتنا، وما قاله في مجلس الشيوخ، ونشره من تصريحات التأييد لنا في الصحف الأمريكية، وقد أعربوا عن سعادتهم بزيارة مصر وغبطتهم بلقائنا، ولما علمت أنهم ينوون السفر لمشاهدة الآثار في الأقصر دعوتهم لمرافقتنا حيث أننا أنتوينا السفر إلى الأقصر وأسوان لقضاء فترة راحة هناك وسرتهم كثيرًا هذه الدعوة حيث سيتاح لهم أن يروا حقيقة الشعب المصري ومبلغ تمسكه بمبادئه وحرصه على استقلاله.

زرت السلطانة ملك في قصرها القريب من الفندق، وقد أصرت على استقبالي شخصيًا وأخذت تحدثني طويلاً عن مرض الملك وأنه ميئوس من شفائه، فقلت لها إن الأطباء والمتصلين به يقولون إنه قد شفي تمامًا، وأصبح يباشر أعماله كالمعتاد، فقالت إن مرضه من الأمراض التي تعاود صاحبها من وقت لآخر، وأنها علمت أن الرصاصة المستقرة في حلقه منذ أن أطلقها عليه الأمير سيف الدين تتحرك عليه كلما بذل مجهودًا بسيطًا، وأن الأطباء نصحوا له بألا يباشر أعمالاً طويلة أو يشغل فكره بأمور صعبة الحل فإن هذا يجعل المرض يعاوده سريعًا، وأن الإنجليز يعرفون هذه الحقيقة ويخططون من الآن للمستقبل، ويفكرون ماذا يصنعون لو فاجأه الموت ... ثم تشعب بنا الحديث إلى ذكر الأمير كمال الدين حسين ولدها الأكبر وكيف أنه كان الوارث الطبيعي لعرش أبيه السلطان حسين كامل، وتنازل عن حقه طواعية واختيارًا، وقد صرحت لي بأنها هي التي أشارت على ولدها بألا يقبل عرش مصر، وأن يعيش حياة هادئة، ويكفي أن أباه السلطان حسين لم يذق طعم الراحة مدة توليه العرش وكان كل يوم يصطدم بالإنجليز ويختلف معهم إلى حد أنه هدد عدة مرات بالتنازل عن العرش ولكنهم كانوا يصالحونه ويهدئون ثائرته، وأنه عندما توفي

تنفس الإنجليز الصعداء، وحاولوا جهدهم أن يقنعوا الأمير كمال الدين حسين بتولي العرش وكاد يخضع لإلحاحهم لولا أن حذرته، وشرحت له ما لقي أبوه منهم وما سيلقاه منهم، وقد أظهرت لها الاستغراب لأن المشاع أن الأمير كمال الدين ترك العرش مرغمًا لأن الإنجليز طلبوا إليه أن يترك السيدة الأجنبية التي قالوا إنها صديقته، وأنه في سبيل الزواج بها فأجابت أن الأمر ضد ذلك. إن المندوب السامي حمل إلى الأمير كمال رغبة إنجلترا في أن يتولى العرش بصرف النظر عن أي شيء بل لقد صارحه بأنه لا مانع لدى إنجلترا من أن يتزوج صديقته أو لا يتزوجها، ولما رأوا منه إصرارًا بحثوا عن عمه فؤاد في حانات الليل ومواخير القاهرة حتى أتوا به، ووضعوه على العرش فكان عارًا على العائلة بما ارتكبه من حماقات وما قام به من خضوع للمحتلين لا يليق برجل له كرامة أو عنده شهامة... وأدركت من مجرى الحديث أن السلطانة حانقة علي الملك وأن ما يشاع من أنها تحبه وتحترمه باعتباره أخًا لزوجها ليس بصحيح.

استقبلت عددًا من الشخصيات المقيمة في فندق (كتراكت) ومنها شخصيات وطنية وفدية وغير وفدية ومنها شخصيات أجنبية، وقد دارت الأحاديث بيننا حول الموقف السياسي الراهن، وأن حكومة عبد الفتاح يحي باشا حكومة هزيلة أشبه ما تكون بمريض لا يرجى شفاؤه مهما طال علاجه أو حاول الأطباء نجاته، وقال كثير من المصريين الذين التقيت بهم كعبود باشا، وطلعت حرب باشا وفؤاد سلطان بك وعبد المقصود بك، قالوا جميعًا إن هذا العهد انتهى إلى غير رجعة وأن الملك أصبح لا يستطيع فرض إرادته كما كان. لأن صحته في تأخر، وأن الإنجليز يبحثون عن حل للأزمة، ولكنك - والخطاب لشخصي- لا توافقهم على ما يريدون وقال عبود باشا، وهو من أقرب المصريين صلة بالإنجليز ومتزوج منهم إن المسئولين البريطانيين في مصر ولندن يرون أن حل المسألة في يدك وأنك لو تساهلت بعض الشيء، وقبلت وزيرين أو ثلاثة على الأكثر معك من غير الوفديين لانحلت المشكلة ولعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي، وقد قلت لعبود هذه حكاية كثر فيه اللغط وتكرر الحديث أكثر من مرة ومرة، وهم يعرفون رأيي فيها، وما قلت وما صرحت بهدا الرأي تعنتًا ولا ركوبًا بالرأس ولكن كونته عن تجربة بل تجارب سابقة ووجدت أنني لو قبلته فلن يكون إلا حلقة مفر غة نعود من حيث بدأنا، ونبدأ من حيث عدنا، ولن ينفع ذلك القضية المصرية في شيء، ولن يتقدم بها خطوة، وقد سبق وكررت وأكرر مرة أخرى إن الإنجليز ليسوا أغبياء ولا جهالاً ولكنهم استعماريون متعنتون فإذا تخلوا عن عقليتهم الاستعمارية، وأفكارهم البالية ونظروا نظرة حقيقية إلى الشعوب المكافحة الناهضة يسلمون لها بحقوقها فلا أراحوا ولا استراحوا، وإذا كنت ياعبود باشا صديقًا لهم ومقربًا فانقل لهم هذه الحقائق لأننا نترجم عن شعور المواطنين، الثورة ضدهم وضد احتلالهم.

التحقيق

(١)

قواعد جديدة للسلوك السياسي، أرستها تلك الفترة العاصفة من حكم صدقي باشا سواء على مستوى الذين يحكمون أو الذين يعارضون.

لقد هبط العنف المنظم بقوته من أعلى مستخدمًا كل أساليب الإدارة لخنق المعارضين بل ومستخدمًا – أيضًا – كل أساليب الغواية لكسب الأنصار وتهميش الخصوم.

"لقد ألِف الموظفون الإداريون – كما يقول الرافعي – التزوير وفساد الضمير واعتادوا التلفيق في الأوراق الرسمية.

كما اعتاد رجال البوليس والجيش التنكيل بكل معارض للحكومة دون مراعاة للعدل والقانون، بل أبيح لهم القتل وسفك الدماء، كما طغت سلطة الإدارة على سلطة النيابة."

بل إن البطش تخطى – كما يقول حسين هيكل – "العنف إلى التعذيب في أقبح صور التعذيب. ولقد كشف القضاء عن ذلك في قضية قدمت له وأصدر فيها شيخ القضاة يومئذ عبد العزيز باشا فهمي حكمًا بحيثيات وصم فيها العهد كله أقبح وصمة. فقد بلغ من تعذيب الإدارة للناس في مديرية أسيوط أن كانوا يدخلون العصي في أدبارهم وكانوا يعاملون الرجال معاملة النساء.."

لقد بدأت مرحلة جديدة في استخدام الإدارة وأدواتها إكراهًا وتسلطًا من أجل إطالة عمر الحكومة وفرض سياستها، ومن المؤكد أن هذا القدر من التسلط والإكراه السياسي والاجتماعي قد ترسب جانب منه في خلايا كل الأحزاب والقوى السياسية بشكل أو بآخر ، وأنها أفرزته سلوكًا عندما تهيأت لها الفرصة لذلك، سواء وهي في صفوف المعارضة أو في مقاعد الحكم.

وربما كرد فعل طبيعي لضمور دور الأحزاب السياسية في هذه الفترة تحت ضربات العنف والإكراه، إضافة إلى مناخ الأزمة الاقتصادية المستحكمة، تبلورت في ساحة المجتمع أنماط جديدة لجماعات الضغط السياسية، سعت الأحزاب وهي تحاول أن تستعيد عافيتها وحضورها مرة أخرى أن تضيف هذا الرصيد إليها وتبارت في ذلك وبدأ بالتالي سلوك جديد استهدف تأميم جماعات الضغط لصالح كل حزب، وسوف يتعمق هذا السلوك على مسار الأعوام التالية تلقائيًا بل غريزيًا وعلى نحو كبير.

حاول الوفد أن يؤمم الحركة الطلابية وأن يضيفها وقودًا إلى حركته وحاول في مرحلة تالية وبقوة أن يؤمم الحركة العمالية كلها وهو سلوك سوف يؤدي إلى شرخ عميق لم يقدر له أن يلتئم بعد ذلك في بنيان هذه الحركة لسنوات طوال .... بالرغم من أن إجراءات القمع وشمولية ومناخ الأزمة الاقتصادية قد دمجت أكثر فصائل المجتمع تلقائيًا في صفوف

المعارضة.

لقد فطنت الأحزاب - أيضًا - إلى أن جماعات الضغط غير المنظمة في الشارع ينبغي أن تتحول إلى جماعات ضغط منظمة، يمكن استخدامها في إعلان الاحتجاج ضد الإدارة أو الصدام معها، ولم يكن ذلك الفهم ببعيد عن إنشاء الوفد لفرق القمصان الزرقاء، وأحمد حسين لفرق القمصان الخضراء.

كانت دروس المرحلة كبيرة وواضحة للجميع، فطاقة العنف التي أطلقت خلال سنوات الحكم الاستبدادي لم تنفذ - ككل طاقة - ساعد على ذلك أن المناخ الفكري نفسه قد أصبح مناخ أزمة وتوتر، فالقضية الوطنية بعد أربعة عشر عامًا على ثورة ١٩١٩ ما تزال مقيدة في وعائها القديم، والدستور وما يترتب عليه في ذمة التاريخ والأزمة الاقتصادية تلف أذرعها كالأخطبوط حول عنق القاعدة الاجتماعية العريضة والليبرالية في التجربة وقد انتهت إلى إرهاب وتنكيل.

لقد كان المسار الاقتصادي العام بين أعوام ١٩١٩ - ١٩٣٣ ينبيء بأن الأغنياء يزدادون غنى وأن الفقراء يزدادون فقرًا، فقد انخفض عدد صغار الملاك بين أعوام ١٩١٩ و ١٩٣٣ بمقدار (١١٪) [٩٧٪ من مالكي الأراضي أصبحوا يمتلكون ٣٠,٤٪ من الأراضي بمعدل ملكية ٠,٨ فدان فقط!] بينما زاد عدد الذين يملكون ٥٠ فدان فأكثر خلال نفس المدة بمقدار ٩٪ من مجموع الملاك.

ولم يكن حال العمال أفضل، فقد سجل قسم الضبط في البوليس نشاطًا غير عادي للعمال في هذا العام، حيث أضرب عمال طرق النحاس في جميع الورش (بسبب تخفيض أجر العامل إلى ٣-٥ قروش يوميًا) كذلك عمال الحديد، وعمال شركة السيارات المصرية، وعمال الترام، والفوسفات في القصير، ومطبعة شندلر وغيرها وكانت جميع الإضرابات تتعلق بالأجور.

لقد تحول نهار الحلم بالخلاص إلى ليل قانط ومحبط، ولذلك سرعان ما انشقت الأرض عن طلائع قوى سياسية واجتماعية جديدة، تبدأ مرحلة بحث عميق عن ذاتها الوطنية لعلها تجد مخرجًا من الأزمة.

وتعددت الأصوات الفكرية، فارتفع بعضها يعبر عن ميل وهوى للفاشية الجديدة، وأخرى تضغط للعودة إلى الأصولية والموروث، وثالثة ترفع شعار الخروج من نافذة الوفد.

ولأول مرة يبدو أن محاولة بلورة توفيقية فكرية تبوء بالفشل، وأن الازدواجية الفكرية على النقيض من ذلك هي التي تتقدم وتتعمق لتتأصل بمرور الوقت.

(٢)

فجأة تخلى الجميع عن صدقي باشا بل وتعمدوا – دون استثناء – الإساءة إليه ولم يكن الجميع في الحقيقة ناكرًا للجميل وإنما كان يؤلف بين سلوكهم فهم واحد، هو أن الطريق إلى الإبقاء على «الصدقية» هو إعدام صدقي نفسه أدبيًا وسياسيًا.

لقد ذهب حسين هيكل إلى لقاء (جرافتي سميث) مساعد السكرتير الشرقي لأن زعماء الحزب – كما يقول – أرادوا أن يتفقوا على الاتجاهات الإنجليزية في سياستهم الجديدة وفوجئ بـ (سميث) يقول له:

"من السهل دائمًا تغيير سياسة القصر في أربع وعشرين ساعة، لكني اعتقد أن ما وصم سياسة الوزارة من حيث النزاهة يجب أن يقدم في التفكير على كل اعتبار سواه..."

ولم يخرج سلوك الملك فؤاد عن ذلك، لنترك لصدقي يروى جذور علاقته بفؤاد وهو بعد أمير، يقول صدقي:

"... كان مقيمًا بمحطة جليمو نوبولو برمل الإسكندرية وفي ذلك الحين وكنت أقطن أنا منزلي بمحطة قريبة وكنا نتقابل على الدوام للحديث في مختلف الشئون، وذات يوم وقد انتهيت من الغداء دق جرس التليفون وإذ المتكلم الأمير وإذا به يقول: أود أن أراك.

فقلت: في أي وقت تريدون؟

قال: الآن أريدك لمسألة هامة.

فخرجت مسرعًا إليه فاستقبلني بمكتبه... وقال لي يااسماعيل باشا أنا طُلبت اليوم في القاهرة وأردت أن تكون أول من أنبأه هذا النبأ، قلت لعله خير ياأفندينا.

قال: ...يراد عرض العرش عليَّ، فما رأيك؟.."

لكن عمق هذه العلاقة وما فعله صدقي لصاحبها لم يشفع له ولم يدفع عنه الإساءة بعد استقالته من الوزارة، بل إن فؤاد قبل أن يدفع رشوة لإيصال الإساءة إلى صدقي كما يروي محمد أحمد فرغلي في مذكراته:

"... كانت الشائعات تتردد بعد خروج إسماعيل صدقي باشا من الوزارة بأنه استفاد من بناء الكورنيش ببناء فيلا خاصة. ولما لم يتمكن أحد من إثبات ذلك ألصقت التهمة بصديقه مدير عام البلدية أحمد صديق باشا، وعندما حاول الرجل أن يدافع عن نفسه أمام قومسيون الإسكندرية رفض المحافظ حسن صبري باشا الدعوة لعقد القومسيون. وشعرت ساعتها أن منع صديق باشا من الدفاع عن نفسه يعد ظلمًا فادحًا.

ولما كنت عضوًا في القومسيون فقد قدمت استجوابًا إلى صديق باشا في محاولة مني لإعطائه فرصة يدافع فيها عن نفسه.

اتصل بي محافظ الإسكندرية واستدعاني إلى مكتبه وقال لي إن الاستجواب الذي قدمته ضد رغبة الملك والحكومة الجديدة ولكنني أصررت على موقفي.

فقال لي ضاحكًا: إن الملك فؤاد سينعم خلال أيام بألقاب البكوية والبشوية وإنني من المرشحين لنيل لقب بك، فقلت له إنني مصر على موقفي.

وفي اليوم المحدد لانعقاد القومسيون صدر قرار رئيس الوزراء يحي باشا بحله لكي يحول دون تقديم الاستجواب."

ويضيف فرغلي:

"وكان ذلك واضحًا أن الملك يقصد الإساءة إلى صدقي باشا وأصدقائه.."

هل هو صحيح ما قاله اللورد كيللرن - المندوب السامي البريطاني القادم - عن صدقي لفرغلي نفسه أيضًا في حفل عشاء بعد ذلك بسنوات، كان رأي كيللرن في صدقي أنه "أكفأ من التقيت بهم من المصريين لكنه أسوأهم خلقًا..."

بل إن د. عبد الرحيم مصطفى نفسه - وهو شيخ جيل كامل من المؤرخين - قد اعترف في ندوة علمية قبل سنوات وسط دهشة الحضور بأنه "معجب جدًا بصدقي باشا..."

كان الهدف - إذن - إعدام صدقي أدبيًا وسياسيًا لإبقاء الصدقية والتمكين لها في مصر.

(٣)

تولى عبد الفتاح يحيى - الذي تدور أعم صفاته تداولاً في: طيبة القلب، الصراحة، الحساسية، الإيمان المطلق بقدرة الإنجيلز - بأمر الملك فؤاد، وعين القصر أعضاء وزارته وهو مايزال في أوروبا، وتولى الأمر برمته زكي الإبراشي ناظر الخاصة الملكية.

كان الإبراشي يقوم باستكمال دوره الذي تألف معه في الشهور الأخيرة من حكم صدقي، خاصة عندما اعتكف مستشفيًا من مرضه وهو ما يصفه صدقي نفسه بقوله:

"حملت أعباء السياسة والإدارة غير مشفق على صحتي حتى مرضت واعتكفت في مينا هاوس، وهنا برز المرحوم زكي الإبراشي وأخذ يبث نفوذه، ويتدخل في شئون الحكم والسياسة.."

لقد أخذ الإبراشي يتدخل مستخدمًا قبضة الملك بشكل مباشر، بعد أن قرر أن يقود بنفسه قاطرة الحكم، على اعتبار أن صدقي مهد الطريق وثبت القضبان بعيدًا عن الدستور والبرلمان.

بل يبدو أن فؤاد الذي سعى إلى ذلك أراد أن يضيف رصيدًا جديدًا له، وأن يكون الجيش في حسابات هذا الرصيد.

ولما كان الجيش بالغ الهزال والضعف، فقد سعى جاهدًا إلى تحسين أوضاعه ليسند

حكمه بقوة عسكرية يمكنها أن تردع الخصوم. لقد كان الجيش المصري يتآكل - بالفعل - بانتظام ومن عام إلى عام، سواء على مستوى القوى البشرية أو الأسلحة والمعدات [فبين أعوام ١٩٣٠ و١٩٣٣ نقص أفراده من ١٢٣٧٧ فرد إلى ١٢٢٠٦ وكان حجمه العامل أقل من ثلث فرقة عسكرية واحدة...]

كان جيشًا بدون أسلحة قتال تقريبًا، فلم يكن في حوزته طائرات، أو مدافع ميدان، أو مدافع دفاع جوي، أو دبابات، أو سيارات مسلحة، أو حتى مدافع رشاشة قصيرة أو قنابل يدوية، كان كل ما يملكه فوق التسليح الفردي ٤ بطاريات (هاوتزر) تتكون من أربعة مدافع وصفها أحد النواب في البرلمان بأنها "يجب أن تبقى في المتحف البريطاني" ووصفها غيره، بأنها "مدافع خشبية لتدريب الجنود..."

بل كان عدد المتخلفين عن التجنيد في هذا العام (١٩٣٣) - وفق نظام القرعة - يساوي ٨٢ ألف متخلف، بينما قبلت المدرسة الحربية ١٨ طالبًا فقط قد يتخرجون بعد نجاحهم ضباطًا.

وتتيح «ذكريات» (صليب سامي) الذي عين وزيرًا للحربية النظر بعمق أكبر إلى نوايا فؤاد.

"... كان الملك فؤاد يرغب في زيادة قوات الجيش والسعي في التملص من قيود الاتفاقية وقد قال لي الملك مرة إن هذه هي مهمتي الأولى وأنه هو الذي اختارني لوزارة الحربية..."

وقد بدأ الوزير مهمته-كما يقول-بأن دعى المندوب السامي إلى رحلة نيلية استهدفت تليين دفاعاته، ثم أعطى (سبنكس باشا) - المفتش الإنجليزي العام للجيش - جوادين كان يطمع في شرائهما بثمن بخس...

ولم يكن غريبًا في ضوء ذلك كله أن تصدر هذه الوزارة مرسومًا ملكيًا تقضي مادته الأولى بأنه "قبل أن يتولى الوزراء عملهم يقسمون بين يدينا يمين الولاء للملك والوطن.." لقد كان ثمة نص في الدستور على ذلك، لكنه لم يتحول من قبل ذلك إلى مرسوم، إضافة إلى أن المرسوم الجديد، قدم الملك، وأخر الوطن!

١٩٣٤

(١)

بدأ عبد الفتاح يحي يشكو من تصرفات القصر معه وأن الموظفين المحيطين بالملك يحولون بينه وبين المقابلة كلما طلبها، بل إن المراسيم التي يبعث بها إلى القصر وهي مراسيم عادية يتباطأ القصر في إعادتها ويركنها على الرف أيامًا طويلة، وهو يعلل هذا بأن الملك يريد منه أن يستقيل، ويصرح بأنه لا مانع لديه من الإستقالة لولا أنه عرض على أصدقائه الإنجليز الأمر فنصحوا له بالتريث حتى ينجلي الموقف، وقد بعث إليّ بابن أخيه علي أمين يحي يقول إنه منذ تولي الوزارة لم يسيء إلي أي وفدي ولم يضطهد أو ينقل أي أحد ينتمي إلى النحاس باشا، وقد أجبته أني أعرف ظروفه وليس في نفسي شيء شخصي من ناحيته أو ناحية غيره، ولكن الخلاف هو على السياسة التي يتبعها أو يساق إليها، أما غير هذا فلا أحمل في نفسي له شيئًا.

قررنا أن نعقد المؤتمر الوطني الذي فكرنا فيه منذ مدة في نوفمبر المقبل وشكلنا اللجان المختصة التي تعد البحوث والبيانات على ألا تترك ناحية من النواحي السياسية أو الاقتصادية أو الدينية أو الاجتماعية إلا أعد لها بحث من المتخصصين، حتى يكون مؤتمرًا مثمرًا ونافعًا، وقد أعلن عن موعد المؤتمر ومكانه والبحوث التي ستلقى فيه في جميع الصحف العربية والأفرنجية، كما أعلن أني سألقي الخطاب الافتتاحي الذي يتضمن برنامج الوفد السياسي والاجتماعي ورأيه في الموقف الراهن.

تغدى أمين عثمان وعائلته مع مكرم وأخبرني مكرم أنه علم من أمين أنه تقابل مساء الثلاثاء مع (هيو جونسون) بناء على طلب الأخير فسأله الأخير عن المؤتمر الوطني المنوي عقده وممن يتكون وماذا يصنع؟ فأخبره أنه لا يعلم عنه إلا ما نشر في الصحف، فقال له سبق أن زرت المندوب السامي قال نعم يجب أن تقابله قال لا مانع قال سأحدد لك ميعادًا معه، ثم أخبره أن الميعاد تحدد في اليوم التالي أي الأربعاء أي أمس.... فذهب في الميعاد إلى المندوب السامي فلامه على أنه لم يعد إليه بعد المقابلة السابقة فرد عليه بأنه لم يدع إلى المقابلة، فقال له ألم يكن عندك شيء هام تخبرني به كما كان متفقًا بيننا، فرد عليه أن الأمر لم يكن كذلك بل إن المندوب السامي إذا كان هناك جديد فهو الذي يستدعيه، هذا هو الذي فهمه في المقابلة السابقة فإن كان أخطأ الفهم فيعتذر عنه، فقال المندوب إن الذي يذكره أن من كان عنده جديد ذو شأن يخبر به الآخر والمؤتمر شيء جديد هام فممن يتكون؟ أيكون وفديًا فقط أم يضم آخرين؟ قال الأحسن أن يكون وفديًا صرفًا لأن الوفديين يمثلون الأمة ويهمه أن يكون خاصًا بهم إلا إذا تغير الرأي بعد سفري لإنجلترا فيخبره بواسطة (سمارت) إن كان عاد إلى مصر أو (هيو جونسون) ليكون محل تقدير أصدقائه (يقصد أمين) قال وهل أخبرهم بذلك من عندي أو بناء على طلبكم، قال أخبرك ذلك في حينه ... قال أمين إنه علم أن الملك أرسل لأصدقائه أن يتصلوا بالإنجليز فاهتم المندوب السامي لهذا النبأ وسر له كثيرًا، وقال لأمين هذا خبر هام جدًا وكيف لم تخبرني به في

وقته فكرر له أنه لم يكن ليعيره أهمية وأنه لم يدع للمقابلة، قال المندوب إنه لابد أن محمد محمود أذاع ما فوهت به إليه فبلغ الملك فأرسل للوفد رسالته التي ذكرتها وقال: إني أرسلت لوزارة الخارجية إضافيًا بأنه مع تصميمه على تقريره وهو الاتفاق مع الوفد، فإذا كانت وزارة الخارجية لا تريد العدول عن الدستور الحالي فيكون الحل تعيين وزارة قومية من محمد محمود وأصحابه وصدقي لنضع حدًا "لتصرفات الملك الفردية" ولكني أكدت رأيي الأول وهو الاتفاق مع الوفد، قال ومحمد محمود وصحبه قابلون الحكم على الدستور الحاضر ولعلمي أنه ثرثار نوهت له تنويهًا واسعًا (أي صريحًا) بذلك ثم وقف للانصراف فلم يتمكن أمين من إبداء ملاحظته على ذلك، وقال لأمين الذي كان دائمًا على اتصال (بهيو جونسن) وإن لم يعد (سمارت) فقال له أمين عند الانصراف حظًا سعيدًا فرد عليه: إني في حاجة إليه.

رأى مكرم أن يعود أمين لمقابلة المندوب السامي ليخبره بأن المؤتمر خاص بالوفديين وهذا تصحيح لروايته وأنه ينتهز الفرصة إن سنحت بإبداء ملاحظاته على التقرير الإضافي وأن يخبره بأن مكرم سمع من لويس فانوس أنه قال للمندوب السامي أثناء مقابلته له (إنه يمكن تأخير المعاهدة ثلاث سنين أو أكثر حتى يستقر الحال) وأن مكرم لامه على ذلك لأن مهمة الوفد إبرام المعاهدة، وأن هذا الرأي لا يعبر عن رأي الوفديين، وأن يخبر المندوب السامي أنه علم بذلك من مكرم أثناء الحديث على الغداء، من غير أن يشعر مكرم بالغرض وسأله مكرم عن رأيه إذا دعي للسفر إلى لندن فقال إنه لا يستطيع ذلك فقال له إذا دعي للسفر وجب أن يسافر.

(٢)

تأكدنا صباح اليوم من كريم ثابت أن الملك لم يقابل المندوب السامي وأن السبب اشتداد المرض عليه وأن المستشار الذي سيخلف رونالد كامبل (أحد موظفي دار المندوب السامي) هو أحد موظفي الخارجية.

حضر الدكتور فريد رفاعي من مصر وأخبره أن صاحبه (يقصد صديقًا من الأحرار الدستوريين) أخبره أن نشاط محمد محمود وصحبه أزعج الـ (....) وأنه يظهر أن عوامل كثيرة تشتغل له حتى أنه يخشى أن التيار يتحول إلى ناحيته بعد أن كان تقرير المندوب السامي لحكومته من قبل في صف الوفد وأنه يطلب أن نتصل بالإنجليز وأن الـ (....) لن يقابل المندوب السامي لغضبه من اتصال المندوب السامي بمحمد باشا محمود خشية أن يجعله وزيرًا للانتقال. وقال فريد إن سيد باشا خشبه (أحد أعضاء حزب الأحرار الدستورين البارزين) أنه هو ومحمود باشا عبد الرازق (عضو حزب الأحرار) غاضبان من محمد محمود باشا لخوف انزلاقه في تجربة جديدة، وأن الأولى أن يكون تأليفه للوزارة بموافقة النحاس باشا، وأن ينفذ الشروط التي يشترطها النحاس باشا، ويكون للنحاس باشا في وزارة محمد محمود باشا وزيران أو ثلاثة لمراقبة التنفيذ، وأن ذلك أولى من التطاحن الذي تدفع إليه البلاد قريبًا فأظهر له سخف هذا الرأي.

أخبرني مكرم أن (ليفي) حضر إليه وأخبره بأنه علم من أحمد عبد الوهاب بأن الوفديين لا يرغبون في مقابلة المندوب السامي فكيف ذلك، وأنه هو تحادث مع المندوب السامي مدة طويلة وكان مدار حديثه أن يقنع المندوب بضرورة الاتفاق مع الوفد فعلم منه أن الوفديين يبتعدون عنه وأنه دعا النحاس باشا للشاي ومع ذلك فلم يتصل به بعد، وأنه كذلك كلم أحمد عبد الوهاب ليتكلم مع أحمد ماهر في ضرورة الاتصال بالمندوب السامي فكان هذا الرد الذي سمعه بالتليفون من أحمد عبد الوهاب فرد عليه مكرم بأنه لم يصدر من أحدنا أنه يرفض مقابلة المندوب السامي وأنه يشك في أن أحمد عبد الوهاب أدلى إليه بذلك فقال ربما أكون قد أخطأت الفهم لأن المحادثة كانت بالتليفون وأنا في فلسطين... والآن إذا كنتم توافقون على المقابلة فإني أحددها الآن بالتليفون لأني كنت متصلاً بقلم المخابرات الإنجليزي وأعطيته تقارير قدمت للمندوب السامي، وعلمت من مصريين وإنجليز من أعلى الإنجليز أنك يامكرم أنت السبب في رفض المعاهدة لأنك قبطي، فدفع له مكرم هذه الفرية وقال له لو كنت أعلم أن كلامك مع أحمد عبد الوهاب الذي أبلغه أحمد ماهر كان للظروف التي ذكرتها لكان لي شأن آخر، والآن على أي حال الوقت ليس مناسبًا لأن المندوب السامي مسافر ظهر اليوم ولا تصح المقابلة السياسية قبل السفر مباشرة، فشدد في أنه يحددها اليوم فرفض مكرم وقال إن طلب ذلك يؤول تأويلاً سيئًا بأننا كنا نساوم فلما لم نصل إلى اليوم ارتجعنا.

أخبر أمين عثمان مكرم أنه طلب المقابلة شفاهة لإتمام الحديث مع المندوب السامي فجاءه رسول صباح أمس من قبل المندوب السامي فقال له إن المندوب السامي يأسف لعدم إمكانه تحديد وقت لمقابلته اليوم لأن كل وقته إلى حين السفر مأخوذ وأنه أرسله ليدلي إليه بما عنده وربما لا يستحسن الكتابة، فقال له إنه لا يخشى الكتابة، لأن ما يعمله إنما هو في مصلحة القضية المشتركة وأنه لا شيء يستدعي السرية لأنه لم يتلق شيئًا من أحد ليكون سريًا وإنما على إثر حديثه مع المندوب السامي كان مدعوًا مع عائلته في حفلة شاي عائلي مع مكرم، وكان مكرم يتحدث عن المؤتمر الوطني المنوي عقده بأنه ناجح نجاحًا كبيرًا بحسب البيانات الواردة إليه، فانتهزت الفرصة وسألته من غير أن يشعر بشيء عن الذين سيتكون منهم المؤتمر فقال من الوفديين فقط قلت ولكني قرأت أنه سيحضره محامون فقال نعم محامون وفديون ولكنهم ليسوا أعضاء في لجان الوفد ولن يكون في المؤتمر غير وفديين، وبما أني كنت أظن قبل ذلك أنه سيكون فيه غير وفديين فرأيت أن أصحح ذلك للمندوب السامي ربما يكون في ذلك فائدة لديه.

ومن حديث مكرم أيضًا على الشاي أنه قال لو كان الوفديون يتبعون النظام الحزبي في إنجلترا، لكان ذلك خيرًا لنا، أنظر إلى (لويس فانوس) فإنه قابل المندوب السامي من غير استئذان من رئيسه وأدلى إليه فيما أدلى بأنه يرى أن لا داعي للمعاهدة الآن بل نترك سنتين أو ثلاثًا ريثما يستقر الحال، وهذا غير رأي الوفد الذي يجد للمفاوضة والمعاهدة ويتمنى توقيعها اليوم قبل غد..

وأخيرًا قال لي المندوب السامي أن أكون على اتصال مستمر بـ (هيوجونسن) نظرًا لأني سـأخذ أجازة قصيرة نحو ثلاثة أسابيع ربما أسافر مع قرينتي فيها بحرًا إلى مرسيليا ونعود فإذا رأى المندوب السامي ضرورة استدعائي إلي لندرا فلا مانع عندي.

هذه الأمور الثلاثة هي ما أردت أن يقف عليها المندوب السامي فبلغها إليه، وها أنا أكتبها إليه أيضًا، وكتبت له مذكرة بهذه الأمور الثلاثة ودفع بها إلى الرسول ليوصلها إلى المندوب السامي.

نظرًا للإعلان الرسمي بمرض الملك ذهبت اليوم ومعي مكرم إلى سراي رأس التين وقيدنا إسمينا في سجل التشريفات وقابلنا أحد التشريفاتية وسألناه عن صحة جلالة الملك وحضر إلينا أحمد بك حسنين الأمين الأول ومحمد بك حسين الأمين الثاني وبعد السلام سألناهما عن صحة جلالة الملك فقال أحمد بك حسنين إن الذين قابلوه قالوا إنه أحسن فتمنينا لجلالته الشفاء العاجل ورجوناهما إن يبلغا جلالته هذه التمنيات.

أعلن في التلغرافات العمومية نبأ تعيين المستر موريس بيترسون مدير الشئون المصرية في وزارة الخارجية البريطانية مندوبًا ساميًا بالنيابة مدة غياب السير مايلز لامبسون لإجازة، فكان ذلك مدعاة لكثير من الظنون.

(٢)

قابل أمين عثمان مكرم وأخبره أن عبد الفتاح باشا يحيي استدعاه وسأله عما يعلمه عن ندب بيترسون فأجاب بأنه لا يعلم شيئًا فقال له ألم تقابل المندوب السامي قال قابلته مرارًا كما أقابل غيره من الإنجليز ... قال ألم يخبرك شيئًا عن ندب بيترسون قال لا... فأظهر اضطرابه وقال إن هذا غريب لأن المندوب السامي لم يخبره بهذا الندب قبل سفره، ولم يخبر الملك بل على العكس من ذلك أخبره بكتاب منه بأن نيكسن سينوب عنه مدة غيابه، فماذا يعني بهذا التصرف هل يريد مني أن أستقيل؟! قال أما عن الملك فإنه لم يقابله بسبب المرض، وأما عن الوزارة فر بما أنه لم يكن يعلم بهذا الندب فتنفس الصعداء وقال: ليته يكون كذلك لأن هذا الرجل غريب في معاملته فبينما يقابلني أحسن مقابلة إذا هو في نفس اليوم يرسل لي مذكرة

قال أمين إن الإنجليز يفرقون بين حسن المعاملة وبين العمل ولكن لا أظن أنهم ينقلون المندوب السامي بهذه السرعة لأن ذلك ليس في طباع وزارة الخارجية.

قال له ابحث عند أصدقائك الإنجليز عن السر في ندب بيترسون وأخبرني في ثلاثة أيام، قال إن علمت شيئًا ولم يبلغ لي بصفة سرية فأخبرك.

قال عبد الفتاح باشا لأمين لست أدري ما غرض الوفديين وماذا يريدون من زيارة السراي أيريدون التقرب من الملك، قال لابد، قال حبذا ولكن ما هو مداهم، قال لا أعلم عن ذلك شيئًا وأني أقابل مكرم وهو رجل سياسي ودولتك رجل سياسي فإن أردت مقابلته

فإني أخبره بذلك لأني لا تطفل لي على السياسة فسكت.

قابل يعقوب صروف مكرم وقال له ألا تريدون إنقاذ البلد، قال وما طريقة ذلك، قال بدل أن يتدخل الإنجليز في تعيين أوصياء للعرش لأن الملك مريض فالأولى أن تأتي وزارة من النحاس باشا في حياة الملك وهي التي يحصل تعيين الأوصياء في وجودها، وأنا أعلم أن الإنجليز يقبلون تعيين وزارة من النحاس باشا الآن وأعلم ذلك من مصدرين أحدهما مصري وهو حسن بك صبري والآخر إنجليزي لا أستطيع الآن أن أبوح به، لكن في بضعة أيام سيعرض عليكم ذلك فعلاً، وربما أمكنني بعد ثلاثة أيام أن أبوح لكم به، ولكن ليكون الحل مقبولاً فلابد أن يأخذ النحاس من بعض المستقلين كحسن صبري وكواصف غالي وبهي الدين بركات.

قال مكرم أيريدون وزارة قومية قال لا، ولكن لا تكون الوزارة وفدية متطرفة بل يكون فيها بعض المستقلين أمثال من ذكرت قال مكرم: إننا لا نقبل الوزارة القومية بحال، أما واصف غالي فرأيي الخاص أنه لا مانع من قبوله ولكن هذا من شأن الرئيس، وأما حسن صبري فمحال أخذه لأنه أقسم اليمين على الدستور الحاضر، قال إنه ميال للوفد وفي عزومة الصبرية (عزبة حسن صبري بك) تكلم مع المندوب السامي معظم الوقت في النحاس باشا لمصلحة الوفد، وأن قبوله الوزارة كان لمنع الضرر، قال مكرم أي ضرر منعه لاشيء، ولكن يجوز أن تكون ميوله الآن طيبة، إنما ليس هذا وقت أخذه في وزارة وفدية، وأما بهي الدين فمحال أخذه لأنه مع المنشقين (الذين خرجوا على الوفد) وأغضب أم المصريين، قال ومن تجدون من الوزراء الوفديين غيرك والنقراشي أما ماهر فأظن أن الإنجليز يعارضون فيه، قال مكرم عندنا شبان كثيرون ويصلحون أمثال حمدي بك سيف النصر قال نعم هذا يصلح وقال عن الشمسي إنه لا يصلح ولو أنه صاحبه، قال إن هذه الوزارة ميتة، وسيعرض الأمر عليكم قريبًا فإن قبلتم يتم الأمر، وإلا فيسيرون سيرتهم من التدخل.

سافر مكرم لمصر مع الأستاذ سليمان غنام لحضور التحقيق معه بخصوص نقده للنائب العام وقابل ماهر والنقراشي وأخبرهما ما لدينا من المعلومات، ومن رأيهما النظر في تعديل السياسة المرسومة لنا من جهة الوزارة بأن نقبل فيها بعض المستقلين كعزيز عزت باشا (أحد أصهار الملك وقد كان سفيرًا لمصر في لندن) فأخبرهما رأيي القاطع في هذا الموضوع.

حضر أمين لمكرم وأخبره أنه قابل أمس هيو جونسون وسأله عما إذا كان البروتوكول يقضي بترك بطاقة للمندوب السامي بالنيابة، فأخبره أن هذا غير واجب لأنه لم يكن مندوبًا ساميًا ... فقال إنه يخشى أن يكون سببًا في سوء تفاهم، كما قد يكون حصل مع لامبسون فقال إنه لا ضرورة، ولكن إذا كان هناك سابق معرفة فيحسن ترك بطاقة بصفة صداقة شخصية.

واليوم صباحاً استدعي (أمين عثمان) في دار المندوب السامي وقابل بيترسون نحو عشر دقائق فسأله عما إذا كان أخبرنا بسفره للندن ربما حصل هناك فأجاب سلبًا، فقال له إنه من الضروري أن يقابل النحاس أو مكرم، بطلب من جانبهما لأن البروتوكول يقضي بأن المندوب السامي لا يطلب إلا الوزراء الذين هم في الحكم، أما من كانوا في المعارضة فلا يدعوهم لمقابلته، بل يقابلهم بناء على طلبهم، وطلب منه أن يسعى لدينا بإتمام هذه المقابلة، فقال له أخشى أن يكون الأمر عسيرًا لأن الطلب لا يكون إلا للملك، وأخبره بما دار بينه وبين هيو جونسن أمس، وأنه يخشى أن يكون قد حصل سوء تفاهم، لأن لامبسون سافر بغير مقابلتنا مع أنه كان منتظرًا أن يدعونا لمقابلته، فربت على كتفه وقال له "اجتهد أن تستعمل الحكمة والسياسة في التكلم معنا حتى لا تكون عقبات في سبيل المقابلة وأن عندك بعض أيام تفكر في ذلك لأني الآن مشغول بمقابلة الوزراء واحدًا واحدًا، والسفر لاستقبال الدوق جلوستر نجل ملك الإنجليز عند وصوله إلى بورسعيد"، وبعد ذلك يمكن المقابلة، وكرر عليه استعمال الحكمة في التحدث معنا عند انصرافه.

تحدث معي مكرم في الطريقة فرأينا أن أمين يعود إليه فيخبره بأنه قبل أن يحدثنا في الموضوع وخشية عدم النجاح يعرض عليه إحدى الطريقتين إن وافق على إحداهما فسيسعى لدينا باتخاذها، الأولى أن يخبرنا أن المندوب السامي بالنيابة أخبره بأنه يرغب في مقابلتنا وبناء على ذلك يطلب تحديد موعد للمقابلة، والثانية أن أترك إليه بطاقة فيرد عليها بدعوتي لتناول الشاي أو لمقابلته، فإن لم يوافق على إحدى الطريقتين يسأله عما يراه في عرض الطريقة علينا بما يكون متفقًا مع الحكومة أو يخبره بأنه سيفكر ثانية في الأمر قبل التحدث معنا.

حضر أمين لمكرم وتحادث معه في الطريقة التي تكلمنا فيها، وافق أمين على الطريقة الأولى وسيفكر في الشخص الذي يتكلم معه بخصوصها إن كان بيترسون أو جرانتي سميث (أحد موظفي دار المندوب السامي) أو جونسون ثم يخبر مكرم بما يستقر عليه رأيه قبل تنفيذه.

زار هيو جونسون مكرم زيارة اجتماعية لم يدر فيها حديث خاص إنما ورد فيها قول هيو جونسون عن توفيق نسيم أن بيترسون قال عنه إنه انحطت قواه لدرجة أن يتبعه وكيله دائمًا ليسنده ثم قال هيو جونسون إنه من الأسف أن الرجال الذين كان يعتمد عليهم في مثل هذه الظروف كعدلي يكن وتوفيق نسيم قد انتهى أمرهم فمن ذا الذي يمكن أن يحل محلهم وأعقبها بقوله لم يبق غير الوفد والنحاس ويظهر أنه يتريض كثيرًا وأمّن مكرم على ذلك وقال إنه لا يستطيع أن يجاريني في العوم وقال هيو جونسون إن السراي أخبرتهم بأن صحة جلالة الملك تحسنت وأنه يستطيع أن يقابله قريبًا، فأخبره مكرم بما سمعناه عن خطورة حالته وعن غيبوبته وأننا علمنا بذلك عن طريق محمد شعراوي فقال إن ذلك أصدق وقال إن الملك معرض للشلل في كل وقت.

أخبر أمين مكرم أن هيو جونسون أخبره أنه يصح أن تكون الطريقة الحكيمة إحدى

اثنتين إما أن تخبر صاحبيك أن المندوب السامي بالنيابة يرحب بزيارتهما، وإما أنه سمع أن المندوب السامي يميل لأن يقابل زعماء المعارضة وأنه سيتكلم مع جرافتي سميث في ذلك ثم يخبره، فأخبره مكرم أنه يفضل الطريقة الأولى ووافقه على ذلك.

تركت بطاقة للمندوب السامي بالنيابة، وكذلك مكرم، وتناولنا الغداء في المكس وزرنا الدخيلة وكان الاستقبال والعودة رائعين

قابل أمين مكرم وأخبره أنه قابل هيو جونسون ثم قابل صباح اليوم جرافتي سميث واتفقوا جميعًا معي على أن تكون طريقة المقابلة كما يأتي: يخبرنا أمين أنه فهم أن المندوب السامي بالنيابة يرحب بزيارة النحاس باشا أو مكرم فنقول من جانبنا إننا نرحب بهذه المقابلة أيضًا، ونرجوه في أن يتفق معه على تحديد المقابلة، ثم قال أن جرافتي سميث أخبره بأنه يحسن أن يقابل أولاً مستر بيترسون ويعرض عليه ذلك لأنه صاحب الشأن وإنما يحسن أيضًا أن يتأكد من أصحابه بقبولهم لهذه الطريقة، وأن المقابلة ستكون باكرًا أو بعد باكر، واتفق مكرم مع أمين على أن يقول لبيترسون إنه تكلم مع مكرم بهذا المعنى فوافق مكرم، وقد وافقته على ذلك.

زارني يسى إندراوس بك وأخبرني أن قنصل إيطاليا وهو صديق قديم له دعاه لمقابلته ولما التقينا قال إنه يريد مني بصفتي حميمًا لإيطاليا ومشمولاً بحمايتها وفي الوقت ذاته صلتي طيبة بالبطريرك أن أكلم البطريرك في أن يخاطب إمبراطور الحبشة بما له عليه من سلطة روحية أن يتساهل مع إيطاليا في الطلبات التي تطلبها منه وهي كلها مطالب اقتصادية، وقد طال الأمد عليها، ولم نصل إلى حل لها، فقلت له إذا كان بينكما خلاف فاعرضوه على عصبة الأمم فقد أنشئت لحل مثل تلك المشاكل، فقال إن عصبة الأمم لا تستطيع أن تحل مشكلة أو تصلح متخاصمين وأنا أعتقد أن وساطة بطريرككم عند إمبراطور الحبشة أفيد بكثير من اللجوء إلى عصبة الأمم فأجبته إن نيافة البطريرك لا يتدخل في السياسة ولا في الاقتصاد، وأن صلته بإمبراطور الحبشة لا تتعدى أن تكون صلة دينية بحتة ومع ذلك سأنتهز أول فرصة وأفاتح سيدنا في ذلك... وعقب على هذا بأنه يستشيرني هل يكلم البطريرك في هذه المسألة أو يسكت فقلت له أنت أعرف بميول نيافته مني، فإن كنت ترى أنه يستجيب لك فافعل وإن رأيت أي حرج لك فامتنع... ثم قال إني لمحت من كلام القنصل روح التهديد، والتلويح باستعمال القوة، وقد سمعت من الذين حضروا من إيطاليا قريبًا أن الجيش يستعد استعدادًا كبيرًا وأن موسوليني يحمسه ويعده لعمل حربي.

أخبرني مكرم أن أحد رجال السراي أسرَّ إليه أن يطلب مقابلة الملك مقابلة سرية لا يعلن عنها لأنه يرغب في ذلك فأجبته أنها فرصة لترى عن كثب ما يشاع عن صحته ولتستشف من حديثه معك اتجاهاته ونياته نحو قضية البلاد واتفقنا على أن يطلب المقابلة وعند إتمامها يوافيني بما تم بها.

قابل مكرم الملك مقابلة سرية وقد أخبرني بأنه أي الملك قال له لما يتشبث النحاس باشا ويركب رأسه ويرفض الوزارة القومية، أليست خيراً من أن يفرض الإنجليز علينا محمد محمود مرة أخرى فنقاسي من عنجهيته وغروره ما نقاسي؟! قل للنحاس باشا إن محمد محمود كان يستعين عليّ بجورج لويد في كل صغيرة وكبيرة وما زارني المندوب السامي مرة إلا وهو يحمل طلباً من محمد محمود المصري مشفوعاً بتهديد ووعيد إن لم أوافق عليه، حتى أنني صرحت وأصرح لك أن نار الوفد خير من جنة غيره من الأحزاب سواء كان محمد محمود أو صدقي، وأنا لا أخفي عليك أن صحتي ليست على ما يرام وأود أن أطمئن على حالة البلد الداخلية وأراها مستقرة، ومهما يكن بيننا وبين الوفد من خلاف فلا شك أنه هو صاحب الأغلبية المطلقة ولكن تضطرني أن أتمسك بالوزارة القومية حتى أضمن عدم تدخل الإنجليز بشكوى من محمد وأمثاله، ثم سكت برهة تنفس فيها بصعوبة وقال لقيت من حكم محمد محمود الأمرين ولو لم يكن النحاس باشا صلباً وعنيفاً لما طالت الأزمة ولوضعت الأمور في نصابها من زمن بعيد... فسألت مكرم وبماذا أجبت على هذا قال قلت له ياجلالة الملك إن النحاس باشا ليس صلباً، ولكنك تذكر جلالتك ما صنع حزب الأحرار الدستوريين معنا في أول وزارة ألفناها مما جعل النحاس والوفد معه يرفض الوزارة القومية أو إئتلاف الأحزاب «في الحكم، لأن الأراء مختلفة والمشارب متباينة وهم كما قلت جلالتك يستعينون بالإنجليز في كل صغيرة وكبيرة ومن أجل هذا تتعطل مصالح البلد، ولا تستطيع الحكومة أن تنجز أمراً، أو تحل مشكلة ومع كل ذلك سأبلغ النحاس باشا نصيحة جلالتكم هذه... ثم التفت وقال لي وبالمناسبة سمعت أنكم تتهمون نجيب الغرابلي بأنه كان ينقل إلّي أنباء اجتماع الوفد والوزارة الوفدية والغرابلي من هذا بريء فلا تتهموا الرجل ظلماً، وقد فكرت في أن أسأله عمن إذن كان ينقل إليك أنباءنا لكني خجلت أن أسأله وسكت، وقد انتهت المقابلة على ذلك . ولما خرجت من حجرة الملك قابلني إسماعيل تيمور بك ، وودعني حتى الباب الخلفي من السراي وقد سمعت منه أن النقراشي قابل الملك عدة مرات لم تعلن عنها، وعجبت إذ أنه لم يخبرنا بشأن هذه المقابلات السرية.

تلقيت رسالة خطية من السيد علي الميرغني زعيم طائفة الختمية بالسودان يعبر فيها عن مشاعره نحو شخصي، ونحو الوفد، ويؤكد أن علاقة السودان بمصر ليست قاصرة على مياه النيل فقط وإنما هي أعمق من ذلك لأن الرابطة التي تربطنا هي رابطة اللغة والجوار، والتضحيات الجسيمة التي قدمتها مصر جنباً إلى جنب مع السودان عندما كان (غردون) حاكماً مستبداً وإني لا يجب أن ألقي بالاً إلى ما يذيعه المهديون أنصار الإنجليز وصنائعهم وليكن معلوماً أننا قطر واحد وبلد واحد لا يستطيع الاستعمار أن يفصلنا أو يفرق بيننا، وقد سرتني هذه الرسالة كثيراً لأني أعلم مركز الميرغني في السودان وقيمة تعلقه به وقد رددت على الرسالة بخطاب شكر أكدت له فيه على المعاني التي ذكرها وأكدت له أن شعورنا نحو القطر الشقيق هو نفس شعور أهله بل إننا نعتبر السودان شريان مصر وأنه لا حياة لنا بدونه لا من ناحية النيل فقط ولكن من جميع النواحي، وأنه إذا كان الإنجليز قد انتهزوا فرصة اغتيال السير لي ستاك حاكم السودان، وطردوا الجيش

المصري منذ عام١٩٢٤ فعلى الرغم من مضي هذا الزمن الطويل فإننا لا نستطيع أن نستغنى عن السودان، ولا يستطيع السودان أن يستغنى عن مصر، ولقد صدق شوقي حينما عبر عن هذه العلاقة بقوله إن السودان بالنسبة لمصر وريد الحياة وشريانها.

تلقيت من جواهر لال نهرو زميل المهاتما غندي زعيم الهند في الجهاد رسالة خطية يحييني فيها، ويتحدث عن ذكريات أيام المنفى في (سيشيل) التي قضيناها معًا ويؤكد أن الهند تسير على خطى نهضة مصر وتقتبس من أساليب جهادها وكفاحها ضد الاستعمار ما يهديها إلى الطريق المستقيم للثبات وأن غاندي لا يترك فرصة إلا تحدث فيها عن زغلول باشا وخليفته وعن ثورة مصر وأثرها في جميع بلاد الشرق المغلوبة على أمرها، وأنه يشاركه في الإعجاب بنهضة المصري ونجاحها في حركة مقاطعة البضائع الأجنبية وخاصة الإنجليزية منها، وذكر أن حركة المقاومة في الهند والدعوة إلى ارتداء الملابس الوطنية قد نجحت نجاحًا كبيرًا وهزت الاستعمار هزة عنيفة، وقد رددت عليه برسالة عبرت فيها عن عميق مشاعري وتأثري من رسالته وحملته تحية خاصة وتقديرًا كبيرًا للمهاتما غاندي الزعيم الشرقي الصميم والذي لم تغيره تعاليم اتجلترا التي درس فيها، وتعلم في معاهدها عن أن يكون هنديًا شرقيًا يقود شعبه إلى العصيان المدني وهو لا يملك من السلاح إلا مغزلاً يغزل عليه الثوب الذي يلبسه وعنزة يشرب من لبنها حتى لا يحتاج إلى شيء من المحتلين المغتصبين.

تناولنا طعام العشاء أنا ومكرم عند مستر ريد، وقد دار الحديث مرة أخرى عن الوزارة القومية وقال إن قبولها قد يعجل بحل المسألة التي طال الوقت عليها، ولو أنك ياباشا تساهلت وقبلت الوزارة القومية فسيعود الدستور وسترجع البلاد إلى حياتها الطبيعية، وأن هذه الفرصة مواتية لأن الإنجليز بدأوا يفكرون جديًا في تغيير الحالة خصوصًا بعد ما تجمعت لديهم معلومات بأن المقدمات تنبيء بأن الحرب قريبة الوقوع، وهم يريدون أن يؤمنوا ظهرهم من ناحية الشرق، ويعلمون أن مصر هي المفتاح وهي الأمان لهذا، فأجبته برأيي الذي لا أحيد عنه وهو أني لن أقبل أن أتعاون مع قوم قد نكثوا بالعهد وطعنونا من الخلف، وقد سبق أن قلت لك هذا بجلاء ووضوح ولم يجد في الأمر شيء حتى أعدل عن رأيي.

زارني جرجس أنطون بك وأخبرني أنه كان بالأمس مع البطريرك وأنهما تحادثا في الحالة الحاضرة، فأخبره البطريرك أن الإمبراطور هيلاسلاسي قد شكا إلى عصبة الأمم من تصرفات إيطاليا وتحرشها بالحبشة أكثر من مرة وبعث بمندوبه إلى جنيف، وقدم شكوى رسمية بهذا الخصوص، ولكن اعتداءات إيطاليا المتكررة وتحرشات جنودها تزداد يومًا بعد يوم، وأنه يخشى أن يهجم الإيطاليون على الحبشة ويحاولون احتلالها، ولذلك فهو يسأل بماذا يشير على إمبراطور الحبشة فأجبته بأن تقول له أن يعد جيشه ويكون على أهبة الاستعداد لأي تحرش وأن يحاول أن يرد على الهجوم بهجوم أو على الأقل يصمد له، فإن الإيطاليين الغاشمين قوم استعماريون جشعون ولا يعرفون للحرب أدابًا ،

ولا للقانون الدولي حرمة، وأن زعيمهم موسوليني يطمع في أن يتغلغل في أنحاء البلاد المجاورة له ويستولى عليها حتى يستطيع أن يخرج من الأزمة الاقتصادية المتفاقمة التي تتردى فيها إيطاليا الآن.

(٤)

حضر أمين إلى المنزل وأخبرني أنه استدعى أمس الأربعاء لمقابلة بيترسون فقابله وأخبره بما استقر عليه رأيه في موضوع المقابلة، فقال له إنه عنده علم بأننا مستعدون لطلب المقابلة وأنه يعلم ذلك من أناس متصلين بالوفد، فقال له إنه يشك كثيرًا في ذلك ومع ذلك فمادام لديه طريقًا آخر يوصله إلي غرضه فليتابعه، فقال له إنه يعلم أن الوفد يستفيد من هذه المقابلة لأن خزينته خاوية، والمقابلة تشجع أنصاره على الدفع، وإنه يعلم أيضًا أن كثيرين من الوفديين مستعدون لترك الوفد لأنهم أصيبوا كثيرًا، والمقابلة توقفهم عن الخروج على الوفد، وثالثًا إن المقابلة تقوي باقي أنصاره، فرد عليه بأن ذلك قد يكون ولكن لا يغير رأيه في تقديره نظرًا لصلاته بالنحاس باشا، وما يعهده فيه من أنه لا يعني بمن يخرج عليه فإذا كان عنده من يخبره بأن يحضر إليه القمر وكان يصدقه فليتابعه حتى يرى إن كان حقيقة يستطيع إحضار القمر إليه أم لا، أما هو - أي أمين - فإنه لا يصدق ذلك، فقال له أهذا كل جهدك أن تأتيني برأي بينما غيرك ممن لهم اتصال بالوفد يأتيني بأيسر منه، فغضب أمين وقال إني لست موظفًا في دار المندوب السامي ولكن أعمل ما أستطيع خدمة لبلدي وللإنجليز الذين أشعر نحوهم بميل كبير، ولكن لكل شيء حدًا ولا يمكن أن يتجاوز الحد إلى النيل من كرامتي ثم قال أمين إنه سيقابل هيو جونسن غدًا، فأقررته على كل ما قاله، وشكرته على احتفاظه بكرامته كمصري وكرامتنا وألا تكون خطته غير ذلك.

أخبرني مكرم والنقراشي بهذا الحديث واتفقنا على الاحتفاظ بالكرامة للنهاية، واستبعدنا من حسابنا فكرة مقابلة مكرم لبيترسون على الطريقة التي ذكرت قبلاً.

كنا مدعوين مع المحامين الأهليين لتناول العشاء مع مكرم في الكازينو، وكان المندوب السامي في الكازينو أيضًا، ولكننا لم نعرفه شخصيًا، ولم نتبين من هو بين من تناولوا العشاء في الكازينو ثم غادر قاعة الطعام قبلنا فأشار لي مكرم عليه وقال لابد أن يكون هذا، ولما غادرنا قاعة الطعام وذهبنا للجلوس في محل الألعاب والرقص لم نتجه إليه بنظرنا وكان الجانب المواجه (لوج) عبد الفتاح يحيي وابنته مع صليب سامي وقرينته، وبعد انتهاء الألعاب خرجنا ولم نلتفت إليه ولمكانه أيضًا، وسلمت على مدام فهمي ويصا (هي السيدة إستر فانوس شقيقة لويس فانوس وحرم فهمي ويصا بك عضو الوفد المصري) وغيرها ممن كانوا جالسين في مواجهته، ولما وصلنا إلى (الهول) أخبرني مكرم أن عزمي أخبره أنه كان يتوقع التعارف في هذه الليلة، ولذلك يقترح أن ننتظر في الهول حتى يخرج بيترسون، فربما يرانا فيقدم للسلام علينا، وإن هذا افتراض من عزمي، فرفضت رفضًا باتًا وغادرت الكازينو.

قابل مكرم زوجة (فهمي ويصا) فأخبرته بأن توفيق طنوس طلب إليها أن تجمع في شاي عندها بين جرافتي سميث ومكرم، فحذرها مكرم من أن يكون في الأمر لعبة، وطلب منها أن تتصل بجرافتي سميث وتخبره برسالة توفيق طنوس فإن كان موافقًا عليها فلا مانع عندنا، وأن تخبره أنها تريد أن تتحقق من أن هذه رغبته خوف حصول سوء تفاهم كما حصل من قبل في حديث أخيها لويس فانوس.

أثناء ذهاب مكرم مع ضيوفه بعد العشاء إلى مكان الألعاب (بكازينو سان استفانو الذي كان ينزل فيه) فإذا ببيترسون وجرافتي سميث وهوبنكس وقرينته (وهوبكنس أحد كبار موظفي دار المندوب السامي عند ذاك في مصر) وقد حضروا بعد العشاء عند عبد الفتاح يحيي، وإذا بجرافتي سميث يلتفت لمكرم فتحصل التحية فيقف جرافتي سميث فيصافحه مكرم فيقف الجميع فيعرفهم بمكرم، وتحادث مكرم مع بيترسون برهة وهم وقوف، ثم استأذن مكرم وذهب إلى ضيوفه، وقد سمع بعض الحاضرين مدام هوبنكس بعد انصراف مكرم تسأل أين النحاس باشا، فرد عليها بيترسون (وبعضهم يقول جرافتي سميث) أنه مريض.

أرسلت خطابًا للنقراشي بمرضي وأخبرته ألا يذيعه حتى لا يزعج الناس، وكانت هذه خطتي منذ الاعتكاف حتى أن الصحف استمرت تكتب الزيارات لي في المنزل بأنها مقابلات.

حضر محمود غزالي إليّ مساءً وأراد مقابلتي فلم يتمكن لتهيج الزوار في ذلك الوقت فوعد بأنه سيعود غدًا.

عاد محمود غزالي وأخبرني بأن جرافتي سميث كلفه أن يستعلم مني عما إذا كنت أقبل وعدًا بتعديل الدستور وأن تعد بذلك وزارة محايدة كوزارة من توفيق نسيم، فأجابه هو بأنه يعلم عني أني لا أقبل كلامًا في غير دستور ١٩٢٣، فوافقته على ذلك وأن هذا هو رأيي القاطع، وكذلك أخبره جرافتي أنهم يودون مقابلتي وأنهم عملوا ما في استطاعتهم لذلك وأخبرهم بخيبة أملهم في التعارف يوم السبت أمس، فقلت له إني لا أأبى المقابلة وقد قدمت من جانبي خطوة ترك البطاقة لبيترسون على غير سبق معرفة به فالخطوة التالية يجب أن تكون من جانبه.

(٥)

حضر صباحًا إلى المنزل جرافتي سميث وأرسل لي في الطابق العلوي كارتين أحدهما باسمه والثاني باسم بيترسون للاستفسار عن صحتي وقابله الأستاذ توفيق دياب (صاحب جريدة الجهاد لسان حال الوفد) وكان معي النقراشي، فنزل ليشكره باسمي.

أخبرني مكرم أن أمين عثمان أخبره نقلاً عن ريد (مدير مدارس فيكتوريا الإنجليزية بالإسكندرية) أنه قابل في لندرا لامبسون وقابل هنا بيترسون، وأن لامبسون أخبره أنه قابل سيمون وزير الخارجية وأدلى إليه برأيه وهو الاتفاق مع الوفد، وأن أي اتفاق آخر

مقضي عليه بالفشل، ولا يقوم إلا لينهار فلم يبد معارضة، وقال له إن المسألة ستحل بموت الملك ولا ضرورة للتعجل بإلزامه بشيء الآن، وكذلك أخبره أن لامبسون وافق على ندب بيترسون لمصر حتى لا يكون معارضاً لسياسة لامبسون في وزارة الخارجية بعد عودته وأن محمد علي لابد أن يكون عضو العائلة الوصي على فاروق، وأنه أخبر الملك بذلك قبل سفره من مصر سواء كان إسمه وارد في قائمة الأوصياء أو غير وارد بها، وأن بيترسون قدم إلي مصر لهذا الطارئ وأنه قد يحتاج الحال لسفر أمين عثمان إلى لندرا لتوصيل مستندات من الوفد.

ذهب مكرم للشاي عند مدام فهمي ويصا (إستر ويصا) وحضر جرافتي سميث ولم يحضر توفيق طنوس (مندوب المقطم) بل اعتذر ودار الكلام بين جرافتي وسميث ومكرم بحضور إستر، وطال من الساعة ٤,٣٠ إلى نحو الساعة ٨,٣٠ وقال له مكرم إني تأثرت لزيارته وترك بطاقة لي من بيترسون للسؤال عن صحتي، وإني بعد شفائي سأرد لكم الزيارة للشكر، فقال جرافتي إن هذه تكون فرصة للتعارف ورجا مكرم أن يكون عندهم علم بهذه الزيارة قبل حصولها بيوم ليكون هناك بيترسون وبذلك ينتهي إشكال المقابلة ثم قال إنه يريد أن يعرف رأيه الشخصي في أنه في حالة وفاة الملك تخرج قوات جيش الاحتلال في القطر حرصاً على الأمن العام خشية حصول إضطرابات، وأن هذه الإضطرابات قد تحصل من جانب بعض المتطرفين كأحمد حسين أو حزب الاتحاد، فنفى له مكرم حصول الإضطراب، وسأله عما يكون وراء خروج القوات فقال قد يكون تصريح أن ذلك لمصلحة الأمة، وليس معنى هذا مجئ الوفد لأن وزارة الخارجية البريطانية لا تريد مجئ الوفد الآن، فقال له مكرم وما الضرورة لهذا إذا كان في الإمكان تلافي كل شيء من الآن أثناء حياة الملك بأن تأتي وزارة محايدة تطمئن إليها البلاد، فقال ولكن إذا كان يحصل أن تخرج القوات فعلاً فماذا رأيك، وإن أردت التريث يوماً حتى نتشاور في ذلك مع الباشا فلا مانع فقال مكرم له: لست في حاجة للمشاورة فإن هذا العمل لا يوافق عليه مصري ويثير في وجه إنجلترا جميع المصريين على اختلاف أحزابهم وألوانهم ويكون المخرج بعد ذلك صعباً، لأن هذا اعتداء صارخ على استقلال البلاد، ولا مبرر له من تحفظات أو غيرها ولا ضرورة له، فقال جرافتي سميث أنا من رأيك ولكن هذا رأي وزارة الخارجية.

حضر مكرم مساء إليّ وكان النقراشي موجوداً وقص علينا ما حصل فرأينا أن الأمر مبيت لإحداث حدث كبير، وتساءلنا عن السر في أن يفضي جرافتي سميث بهذه الخطة الخطيرة إلى مكرم ورأينا أنه قد يكون ذلك لتهديدنا وقد يكون للفت في عضدنا لكننا لسنا ممن يهتم بالتهديد ولا بالوعيد فيما يخص حقوق البلاد، ورأينا أن يسافر النقراشي صباحاً إلي مصر(من الإسكندرية) ويخبر ماهر وأن يفكر فيما يجب أن نعمله بإزاء هذا الاعتداء على حقوق الأمة.

مما ورد في كلام جرافتي سميث مع مكرم سؤاله ألا يكون من الأنسب أن تحصل المعاهدة مع جميع الأحزاب، فقال نعم، نعم ولا، أما نعم فلأن جميع الأحزاب الأخرى

وافقت على اتفاقية هندرسون/محمد محمود (التي سبق أن قدمها عام ١٩٣٠) بما فيهم الاتحاديون والشعبيون والحزب الوطني والأحرار الدستوريين، فمن باب أولى يكونون (أي موافقون) على إتفاقية النحاس/هندرسون، وأما لا فلأن المعاهدة التي يفرض فيها وجود غير الوفد ينظر إليها بعين الريبة من الأمة، ولا تكون إذن معاهدة النحاس الذي تثق به الأمة، بل تعتبر أن يكون فيه مكرهًا، وليس ذلك من مصلحة المعاهدة، ولو كانت تشمل على مزايا أكثر مما قبله النحاس، والمعاهدة طبعًا فيها تساهل من جانبنا وقبلنا به لنستريح في الداخل ونكون أحرارًا في حريتنا ودستورنا، فإذا كنا سنفقد هذه المزايا فلا فائدة من المعاهدة، فقال جرافتي سميث إن هذا وجيه ولكن الحكومة الحاضرة (حكومة المحافظين) غير مستعدة لما قبل به هندرسون.

حضر ماهر والنقراشي صباحًا لزيارتي وحضر مكرم وأخبرنا أن أمين عثمان ذهب أمس إلى جرافتي سميث وبعد أن أبلغه ثناء مكرم عليه هو أيضًا في حديثه معه أخبره أن ما أثاره جرافتي سميث من جهة تدخل القوة الإنجليزية عند وفاة الملك شيء جديد إذ يعتبر اعتداء على حقوق مصر من غير مبرر، قال له أخطر من ذلك والمطلوب أن تعود إليهم وتطلب من النحاس أن يعطي تعهدًا بالكتابة بأنه يقبل ما تفرضه إنجلترا في شأن الوصاية ليسافر به أمين إلى إنجلترا لأن ذلك قد يبعد ما يلحق بهم من الأذى وهو اعتقال النحاس ومكرم وماهر والنقراشي، فقال له أمين إنه لا يميل إلي سماع هذا الكلام بدون حضور المستر ريد فاستدعاه جرافتي سميث وحضر، وقال ريد: الأولى أن تذكر له كل ما عندك حتى يكون على بينة من الأمر، فقال أن كوين بويد (مدير الأمن العام الأوروبي في وزارة الداخلية) قدم تقريرًا إلى لندرا بأنه في حالة وفاة الملك تخرج القوات البريطانية في القطر ويعمل تصريح بالوصاية ويعتقل النحاس ومكرم وماهر والنقراشي، فإما تقابل الحالة بالهدوء فيها وإلا فنقمع ونعلن الحماية على مصر وقد يكون ذلك في مصلحة المعتقلين لأنهم يخلون من المسئولية ويعودون بعد تهدئة الحالة، وأنه في سبيل المحاولة لتلافي ذلك يعطي النحاس باشا تعهدًا على نفسه بأنه يقبل ما تفرضه إنجلترا بخصوص الوصاية، ثم يأخذ أمين هذا التعهد ويسافر به إلى إنجلترا ويطلع عليه السير مايلز لامبسون فقد يستخدمه لإقناع وزارة الخارجية، وإما أن ينجح وإما ألا ينجح، وفي هذه الحالة يعود أمين ويرده إلى النحاس باشا، فقال ريد لماذا كل هذا في بلد هادئ، قال هذا عمل وزارة الخارجية فانصرف أمين على أن يفكر وبقى ريد، وعاد أمين إلى ريد في الصباح فقال له إنه لما كان في لندرا لم يكن شيء من ذلك ولابد أن يكون هذا حصل بعد مغادرته لندرا، ثم قال إن لامبسون ضد ذلك وإذا مات الملك قبل عودته لمصر فتعمل وزارة الخارجية ما تريده على مسئوليتها، إن لم يمت قبل حضوره فهو متمسك بخطته وهي الاتفاق مع الوفد، وقال ريد لأمين: الأولى أن تنفض يدك من المسألة وأن تخبر جرافتي سميث بذلك لأنك تجرح كرامة إخوانك إن أوصلت إليهم ذلك، وقال إنه من المدهش أن جميع الزعماء الباقين أعطوا تعهدًا على انفسهم عدا إسماعيل صدقي باشا ومن المضحك أن نرى إسماعيل صدقي بعد ذلك منفيًا مع مصطفى النحاس.

ذهب أمين لجرافتي سميث وقال له: إن حصل في غيابه عن مصر ما توعدوا به فماذا يكون شأنه وكيف يعود بالتعهد وكيف يوصله للنحاس، قال له تبقى في إنجلترا، قال له وزوجتي قال تلحق بك، قال ووظيفتي، قال: المال يدبرّ لك، قال إلى هذا وكفى لأني لا أقبل مالاً من إنجلترا بأي حال ... قال أمين أليس عندكم حل آخر، قال ريد نفكر.

أخبر أمين النقراشي بذلك فقال له إن الذي يهمنا هو أولاً المحافظة على حقوق العرش وعدم التدخل فيه، ولا يظهر التدخل وألا يكون الإجراء المنوي لتثبيت النظام الحاضر.

عاد أمين لجرافتي سميث وخبره بذلك وأن هذا رأي النقراشي فقال له والباقين فقال إن ماهر سافر وأما الباشا (النحاس) فإنه لم يقابله ... قال إن هذا هو مالهم فما هو المقابل لنا. فما هي اقتراحاتهم العملية هل ينقصون شيئًا من ذلك... إن الوزارة القومية تحل المشكل ولكني أعلم أنهم لا يقبلونها، أخبرني النقراشي بذلك فقلت له أن يخبر أمين أن المقابل هو التفاهم فإن أرادوه فإن الباشا سيذهب إليهم غدًا الساعة ١١,٣٠ للشكر على زيارتهم له والسؤال عنه في مرضه وقد منّ الله عليه بالشفاء، وإن أرادوا تفاهمًا فليتحدثوا مع الباشا، وانصرف النقراشي لإبلاغ ذلك لأمين.

الشائعات كثيرة عن مقابلة توفيق نسيم فمنها أنه يعين قيمًا على الملك من الآن ومنها أن يكون وصيًا مع محمد علي ومحمود فخري، ومنها أن يكون رئيسًا للوزراة المقبلة.

من كلام جرافتي سميث مع أمين أن نتصل بتوفيق نسيم لأنه رجل المستقبل.

قابلني أمين عثمان وأخبرني أن المندوب السامي سيصل عن طريق بورسعيد بعد أيام وأنه علم أن وزارة الخارجية البريطانية وافقت نهائيًا على خطته واستبعدت فكرة القبض على أعضاء الوفد ورئيسه في حالة وفاة الملك، وفوضت السير مايلز لامبسون تفويضًا مطلقًا في أن يتخذ من الإجراءات ما يناسب الموقف حسبما يراه بعد وصوله إلى مصر.

أخبرني يعقوب صروف نقلاً عن مستر سمارت أن الجناح الذي يؤيد الوفد في دار المندوب السامي قد انتصر وأن كوين بويد ومور ورسل مستاءون من أن تقريرهم لم يؤخذ به ويقولون إنهم يعرفون الحالة الداخلية في مصر عن موظفي الدار ولكن المندوب السامي سير مايلز لامبسون لا يأخذ برأيهم ويعمل مستقلاً عنهم.

زارني حسن بك صبري وأخبرني بأن المندوب السامي متأثر لأن جميع الزعماء زاروه وتركوا له بطاقات بمناسبة عودته أما أنت فلم تفعل ولا أحد أعضاء الوفد المعروفين، وهو يقول إنني أحاول أن أحل الموقف بالتفاهم مع الوفد وعودة الحالة إلى ما كانت عليه من قبل، فقلت له أفضل أن يفعل ما يشاء مادام لم يؤخذ رأيي رسميًا، فقال إن مسألة الوصاية على العرش تشغله كثيرًا، وإنه يريد أن يعرف رأيك شخصيًا فيه، فقلت له عودة دستور الأمة أو على الأقل التصريح بأنه لا مانع من عودته أولاً ثم مسألة الأوصياء، ثانيًا ذلك أنه حتى لو أن الملك كان قد أوصى بأسماء مخصوصة فإن مجلس النواب الذي تسفر عنه انتخابات حرة على أساس دستور ١٩٢٣ يملك أن يعين من يشاء من الأوصياء.

نقلت الأنباء أن إيطاليا هجمت على الحبشة وأن معارك عنيفة تدور بين الجيشين.

(٦)

جاء أمين وقال إن مستر ريد أخبره أن المندوب السامي اتفق مع الملك على أن يتولى توفيق نسيم باشا رياسة وزارة محايدة تعيد الدستور مع بعض التعديلات الطفيفة فقلت له لا أقبل أي تعديل في الدستور إلا عن طريق البرلمان حين ينعقد ولابد أن يعود بحذافيره ويلغي دستور عام ١٩٣٠ إلغاءً تامًا وجميع الآثار التي ترتبت عليه، فقال سأبلغ ريد هذا.

جاءني أكثر من زائر يتكلم معي في مسألة الأوصياء على العرش، وقد أشيع أن الملك كتب في وصيته أسماء محمود فخري باشا وتوفيق نسيم باشا وشريف صبري باشا (شقيق الملكة نازلي ووكيل وزارة الخارجية) وقالوا إن الإنجليز يرشحون الأمير محمد علي رئيسًا للمجلس فقلت لهم إني لا أعارض فيه ولكن لنرجئ الأمر حتى يأتي ميعاده وإن الملك لايزال في وعيه كما نقل إلينا المتصلون بالسراي وإن المرض لم يشتد عليه إلى الحد الذي يجعله لا يباشر عملاً، فأجابوا بأن الإنجليز يهمهم هذا الأمر جدًا وأنهم يريدون مني كلمة في هذا الخصوص فأجبتهم بأنني لم أطلع على التفصيلات حتى أقطع فيها برأي وعما قريب إن شاء الله سأجيبكم في الو قت المناسب.

عين علي ماهر باشا رئيسًا للديوان الملكي ولقد قلت لمكرم والنقراشي إني أعرف علي ماهر منذ كنا زميلين في المدارس الثانوية والحقوق وإنني أعرف ألاعيبه ودسائسه فلنهادنه ولنكن منه على حذر ولنرقب الأحداث عن كثب.

تكلمت مع نسيم باشا توفيق في ضرورة إعادة الموظفين المفصولين إلى وظائفهم ومساواتهم بزملائهم الذين كانوا معهم في الدرجة والراتب، فوعدني بأن هذا من ضمن برنامج الوزارة، وأنه طلب من الوزراء كل في وزارته بحث حالة المفصولين تمهيدًا لإعادتهم.

زارني توفيق نسيم باشا ردًا على زيارته للتهنئة وقد أنصب حديثنا على وجوب الإسراع بعودة الموظفين المفصولين كل إلى مكانه، وقد أخبرني أنه أصدر قرارًا بتعيين حسن بك رفعت وكيلاً لوزارة الداخلية نظرًا لثقته به ولأنه موظف كفء، وقد وافقته على هذا لأن موقف حسن رفعت في بورسعيد كان موقفًا مشرفًا، وقد كلمني (نسيم باشا) في أن انتظره بعض الوقت لأن الإنجليز في لندرا وفي دار المندوب السامي فيهم من يعارض عودة الدستور، وحتى الذين يوافقون يرون حذف النص الخاص بالسودان منه وأنا أفاوضهم في هدوء وصبر، فكررت له إني لا أقبل أي تعديل في الدستور ولا في مادة واحدة منه، وإلا كنت وفرت على الوفد وهيئته بل على طبقات الأمة كلها ما قدموه من تضحيات وما قاسوه في سبيل التمسك بعودة الدستور، كاملاً غير منقوص.

زارني النقراشي وأخبرني أنه قابل هيو جونسن وهذا (هيو) أخبره أن ينقل إليّ أن حالة الملك خطيرة وأنه يجب أن أتحدث مع رئيس الوزارة في مسألة الوصاية على العرش

لأن المندوب السامي لما زار الملك آخر مرة لم يستطع أن يتحدث معه نظرًا لسوء حالته، وأن الإنجليز يهمهم في الدرجة الأولى أن يعرفوا أسماء الأوصياء حتى يرسموا سياستهم، فقلت له إن نسيم باشا لما زارني في الأسبوع الماضي قال لي إن الملك أودع أسماء من اختارهم للوصاية على فاروق في مكتبه وإنه (أي نسيم) سينتهز أول فرصة تكون حالة الملك فيها هادئة ويحادثه في هذا الخصوص، وقد فهمت ضمنًا أن نسيم ضمن الأسماء الذين اختارهم فؤاد.

قابلت محمود غزالي فأخبرني أن كوين بويد وبعض أصدقائه من الإنجليز المحليين يعارضون معارضة عنيفة في عودة الدستور، ويقولون إن عودته معناها الرجوع لحكم الوفد وإقامة المظاهرات مما لا يمكن معه ضبط الأمن ولا المحافظة على الأرواح، وهم مسئولون عن ذلك بحكم وظائفهم، فقلت له بغضب بلغ أصدقائك أن حكم الوفد ليس حكم فوضى كما يظنون وإنهم هم الذين يعبثون بمرافق البلاد ويضللون حكومتهم بإرسال معلومات خاطئة لأن لهم مصالح خاصة في ذلك، ولست أدري أتثق وزارة الخارجية البريطانية بمندوبها السامي الذي اختارته لتهدئة الحالة وحل المسائل المعلقة أو تعتمد على جماعة من الموظفين كل همهم أن يتمتعوا بالمراكز والنفوذ وقد أنشأوا بطبيعتهم استعماريين لا يريدون حرية لبلد ولا استقلالاً لشعب.

دعاني أمين عثمان ومكرم لتناول الشاي في منزله وقد التقيت بالمندوب السامي السير مايلز لامبسون وانتحينا ناحية ودار بيننا حديث طويل عن الحالة وعن نذر الحرب وعن وجوب إنهاء المشاكل الداخلية عندنا، والعمل جديًا على أن تكون علاقة مصر بإنجلترا علاقة صداقة ومودة، وقد أدركت من حديث السير مايلز لامبسون أنه رجل صريح وواضح ويفهم الحقائق ومدرك للموقف إدراكًا تامًا، وقد جرنا الحديث إلى الأوصياء فقال لي إنه يميل إلى أن يكون الأمير محمد علي رئيسًا لمجلس الوصاية بحكم صلته بالملك وبأنه موضع ثقة الإنجليز، وأن هذه المسألة تهم وزارة الخارجية كثيرًا، فأجبته بأني لا أعارض في الأمير محمد علي، ولكن لابد أن يأتي هذا من ناحية الملك أولاً فإن لم يفعل أو لم يستطع نظرًا لمرضه فإن البرلمان الذي يأتي بعد إعادة الدستور كفيل بأن يعين من يشاء من الأوصياء، وعندما يكون بيننا تفاهم فلا توجد عقبات في هذه المسألة، ثم عرج على النص الخاص بالسودان في الدستور، فقلت له إن السودان جزء لا يتجزأ من مصر وهما بلد واحد وأنني قطعت المفاوضات في عام ١٩٣٠ من أجل السودان فقال ألا يكفيكم أن تطمئنوا على ضمان مياه النيل وألا تمس شئون ريكم ولا صرفكم بشيء، فقلت له ليس هذا هو المطلوب إنما المطلوب أن يكون التاج المصري يشمل السودان إلى أن تبدأ المفاوضات الرسمية فنضع النقط على الحروف في هذه المسألة، فقال إن مهمتي أن أضع حدًا للخلاف بين البلدين الذي طال أمده، وأن الظروف تمر بسرعة وشبح الحرب يخيم، وإيطاليا تجتاح الحبشة وتستولي على مرافقها، وإن المعلومات التي لدينا أن معاهدة تحالف ودفاع سرية أبرمت بين هتلر وموسوليني ضد إنجلترا، وأن التقارير التي لدينا من معظم الجهات تدل

على أن كثيرًا من المستعمرات البريطانية ليست هادئة تمامًا وخاصة الهند فإن حركة العصيان المدني التي يتزعمها غاندي تقلق وزارة الخارجية كثيرًا وأننا لو انتهينا معكم هنا إلى حل مشكلتكم لكان ذلك داعيًا لاطمئناننا، فقلت له إننا لا نرفض المفاوضة معكم على أساس استقلال مصر استقلالا تامًا. وحل المسائل المعلقة بيننا وأكثر ما يهمنا في الدرجة الأولى أن تكفوا عن التدخل في شئوننا الداخلية حتى نستطيع أن نسير أمورنا طبقًا لمصالحنا ومصالح مواطنينا ... وطال الحديث وختمه بقوله إنه سيقابل الملك في أول فرصة وسيتحدث مع نسيم باشا بوجوب الاتفاق مع الوفد لأن في هذا مصلحة للبلدين، وأنه قبل أن يصل إلى مصر وكان يعرف أن الوفد ورئيسه محل ثقة الشعب وأن الأقليات لا تمثل إلا عددًا ضيئلاً من المواطنين، فشكرت له صراحته وقلت له لعل وجودك بيننا يكون فاتحة عهد جديد لعلاقات طيبة بين البلدين.

زارني مكرم وأمين وقد قال أمين إن المندوب السامي مسرور من صراحتك ووضوحك وإنك تعالج الأمور بصدق، ويقول إن مثل هذا الرجل لا يتعب في المعاملة معه، وإنه عند كلمته، وقد صرح بأنه لما قابل الملك آخر مرة علم منه أنه يعارض في تعيين الأمير محمد علي في مجلس الوصاية ويفضل أن يكون محمود فخري وعزيز عزت ضمن الأوصياء وأن المندوب السامي قد نقل إليه رغبة إنجلترا في هذا وتوجيهاتها وأن الملك صمت فلم يجب، وقد كان الإرهاق باديًا عليه.

التحقيق

(١)

عندما تتأمل شخصية لامبسون - أو اللورد كيللرن بعد ذلك - من خلال مذكراته تنفتح لك ملامح غاية في الخصوصية عن الرجل.

ربما يكون أولها أنه رجل الانطباع الأول وهو - غالبًا - الانطباع الأخير.

لقد أحب الرجل مصر للوهلة الأولى - كما يقول بحق (وليم ستاديم) - أحبها لدرجة العبادة، حتى أنه أحب الأسرة المالكة منذ النظرة الأولى، فقد كتب غزلاً في الملك فؤاد، وفي قصره، وفي ابنه أيضًا، عقب أول إطلالة.
"...كان القصر غاية في الجمال والفخامة، لقد قابلني الملك على الفور، ولاقى قبولاً في نفسي، فهو قصير القامة مكتنز ذو شارب كثيف، وكان انطباعي عنه أنه شخص يمكنني وصفه بأنه صديق..." ثم كتب عن لقائه الأول بفاروق وكان في الرابعة عشر قائلاً: "وجدته شابًا جادًا، يذهلني أنه كبير جدًا بالنسبة لسنه لكنه بسيط جدًا، يتمتع بحس فكه، بمنتهى الصراحة لقد تأثرت به، يمكن القول إنه ولد طيب وأمين..."

لقد صاغ لامبسون علاقة خاصة مع النحاس، وقد تفهم كل منهما الآخر بشكل حميم، ويبدو - أيضًا - أن جانبًا من سعي لامبسون إلى ذلك، كان مرده إلى انطباعه الخاص عن النحاس، عند رؤيته لأول مرة، فقد رأي فيه - حتى قبل أن يتصافحا - كرامة موفورة تشي بصلابة وقوة:
"..... كان النحاس - ولا ريب - شخصية متميزة، جاء يسير بخطوات وئيدة يملؤه الزهو والخيلاء، مرتديًا زيه الرسمي، وكان بارز الصدر بصورة تعطي الانطباع عنه وكأنه يتحدى العالم بأسره...."

شيئ من هذا حدث - أيضًا - مع أمين عثمان، فقد أحبه منذ الوهلة الأولى وأبدى إعجابًا بزوجته الإنجليزية (كاترين جريجوري) حتى قيل - حسب رواية حسين هيكل، -أنها "طريفة الحديث، وأن لامبسون يجد في نكتتها القومية، متعة"

كان لامبسون - أيضًا - مفعمًا بحب الحياة، لقد جاء إلى القاهرة وهو في الرابعة والخمسين، بعد أن ترك زوجته الأولى (راشيل) في مقابر (هابي فالي) في هونج كونج، فقد توفيت قبل مجيئه بثلاثة أعوام، ولكنه - كما يقول وليم ستاديم - كان يتعلم الطيران ويتعلم العربية ويرقص الفالس في شبرد أو سميراميس حتى الثالثة صباحًا ثم يستيقظ في الخامسة ليصيد البط في الفيوم.

وبعد شهور قليلة جاءت إلى القاهرة، في صحبة (رديب بال) - إبنة أخت لامبسون - فتاة في السابعة عشر، وصف جمالها الإيطالي بأنها كانت تبدو (كدمية صينية) مملوءة

بالمرح والنشاط حيث أقامت في استراحته النيلية.

ولم تعد (جاكي) بعد ذلك إلى القاهرة إلا في مايو بصحبته عندما حلت عطلة الصيف، حيث ذهبا إلى لندن فيما سمي بغرام مايو، ثم تزوجا قبل أن يرحل العام، ليصبح جمالها وحضورها حديث كل الموائد في القاهرة بعد ذلك. أو كما تصفها سيدة أخرى من مصر (فاطمة اليوسف) بأنها: "بارعة الجمال، لعلها من أجمل سيدات السلك السياسي اللاتي عرفتهن مصر ورغم ذلك فقد كانت مكروهة بين جميع سيدات الجالية البريطانية، وكان الإنجليز يتقولون عليها نظرًا لتاثيرها على زوجها".

وهناك من يؤكد أن لامبسون وكذلك زوجته كانا بخيلين بشكل واضح، ولا يتورعان عن الدخول في صفقات تجارية صغيرة بغية الكسب، بل كان لامبسون إذا ذهب لرياضة الصيد لا يخجل حين يعود أن يبيع البط الذي اصطاده بالثمن.

تقول (فاطمة اليوسف) إنها تتعامل مع نفس عاملة (المانكيير) التي تتعامل معها زوجة لامبسون، وأنها أخبرتها بأنها تعطيها في الزيارة ٢٠ قرشًا وحين أشارت العاملة إلى قلة هذا الأجر قالت لها زوجة المندوب السامي البريطاني: "إننا فقراء وزوجي متقدم في السن وعندي ابن صغير يجب أن أدخر لتربيته..."

لقد وصل لامبسون السويس يوم ٧ يناير، ثم استقل القطار من بورسعيد إلى محطة القاهرة فوصلها في الحادية عشر يوم الإثنين ٨ يناير وكانت رحلته - كما وصفها - (متعة) لكن أزمة صغيرة قد حدثت مع رئيس الوزراء عبد الفتاح يحيي الذي كان في استقباله بالمحطة وصفها بأنها "ذات طابع هزلي،" ورغم أنها في الظاهر قد تبدو مثيرة للسخرية إلا أنها قد تكون على جانب كبير من الأهمية، ذلك أن رئيس الوزراء والذي يشغل منصب وزير الداخلية أيضًا، كان قد حضر إلى محطة القطار انتظارًا لوصول المندوب السامي البريطاني ..."وكان الحضور إلزاميًا كما هو متبع، إلا أنه يدعي الآن إنه حضر بصفته رئيسًا للوزراء، وأن حضوره بهذه الصفة كان بمثابة زيارة قصيرة.... وكان رأي كين بويد وبوث أن أرفض الذهاب لزيارة رئيس الوزراء، وكان ذلك قراري أيضًا، وطلبت من سميث أن يبلغه...".

وكانت تلك هي مقدمة عمل لامبسون في القاهرة، لقد تدخل الملك فؤاد بنفسه في الموضوع - فدعى المندوب السامي لزيارته في القصر وبعدها سافر إلى لندن وتأجلت زيارته لمكتب رئيس الوزراء، وعند عودته ذهب رئيس الوزراء لزيارته بصفته وزير الداخلية، ثم رد لامبسون الزيارة مرتين: "قضيت صباح اليوم في زيارات متبادلة مع رئيس الوزراء، بصفته المزدوجة، فزارني في الساعة ١٠,٣٠ صباحًا وقمت من جانبي بزيارة قصيرة له ١١,٣٠ صباحًا بصفته رئيسًا للوزراء، ثم قمت بزيارته تارة أخرى ١٢,٣٠ بصفته وزيرًا للداخلية وأدركت منذ اللحظة أنه يعبر تمامًا عن رغبات الملك...."

لقد أحس لامبسون بتعقد الموقف في مصر، منذ اليوم الأول لوصوله، حتى أنه قضى ليلته الأولى ساهدًا من تزايد الهواجس كما يقول.

وقد غادر مصر بعد عشرة أيام فقط من وصوله، متوجهًا إلى لندن لإجراء مشاورات مع الخارجية هناك، فقد كان أول تقرير أرسله إلى لندن، أكد فيه أن الوضع يتطلب تغييرًا في سياسة الحياد التي كان يتبعها سير برسي لورين، لأن ذلك هو السبيل لإيقاف مغالاة القصر في السيطرة على الحكم.

وخلال هذه الأيام العشر التي قضاها في القاهرة، فقد ضم جدول مقابلاته الأسماء التالية تحديدًا:

الأمير محمد علي، حرم سعد زغلول، نشأت باشا، حاييم ناحوم (الحاخام الأكبر لطائفة اليهود في مصر) وأمين عثمان...!!

(٢)

يطفو اسم أ.ج.ليفي – A.G. Lievi – وهو يهودي مصري إلى جانب كثير من الظواهر السياسية والاقتصادية في مصر خلال هذه السنوات.

وعلى الرغم من أنه صاحب علاقة ذات عمق خاص مع دار المندوب السامي البريطاني، ومع جهاز المخابرات الإنجليزي في مصر، وأحد مصادر المعلومات الهامة، ومفاوض أحيانًا باسم السفارة الإنجليزية، إلا أن دوره – ربما لارتباطه بجهاز المخابرات الإنجليزي – ظل مغلفًا بظلال كثيفة.

وقد شغل (ليفي) منصب مدير مصلحة الإحصاء في مصر، وبذلك توفرت تحت يده جميع الأرقام ذات الطبيعة الاقتصادية والاجتماعية الحيوية.

إضافة إلى أنه شغل منصب سكرتير عام إتحاد الصناعات المصرية (وكان يرأسه هنري نوس بك) وكان هذا الاتحاد أحد وسائل سيطرة اليهود على الصناعة المصرية مع أن كبار الرأسماليين اليهود لم ينضموا إليه تهربًا من الرقابة، بالرغم من احتكار الرأسمالية اليهودية في مصر، للصناعة وخاصة الصناعات الأساسية:
"الدوائية – الكيماوية – المنسوجات – مواد البناء... إلخ"

كما أسس (ليفي) الشركة المصرية للإضاءة بأشعة النيون وترأس مجلس إدارتها، وكان عملها تشغيل وبيع وتأجير يافطات وإعلانات وزخارف مضيئة بواسطة الغازات ذات الألوان المختلفة التي تلفت النظر.

وكان أحد أعضاء مختلف اللجان التي كلفت بإعداد قانون موحد للعمل في مصر، وله مؤلف بالفرنسية عن تشريعات العمال في مصر صدر عام ١٩٤١، واستشهد بفقرات منه

مارسيل كولومب في كتابه (تطور مصر). ثمة إشارات في مراجع أخرى إلى أنه ترأس - أيضًا جمعية التشريع والاقتصاد المصرية ويروي محمد علي علوبة: "أن الشيخ نجيب قام بإلقاء محاضرة بناء على طلب من حزب الاتحاد وموافقة السراي، وقد شاع أن السراي وعدته لقاء ذلك بمشيخة الأزهر - لتأكيد نظام الوقف، وأنهم اختاروا جمعية التشريع والاقتصاد حيث اكتظت المحاضرة بالأزهريين وأعضاء حزب الملك". ويضيف علوبة أنه: "لما أراد عبد العزيز فهمي باشا أن يرد على المحاضر، هتف الأزهريون (اسكت فليسقط الإلحاد)، فلم يتكلم ثم أحاطوا به ليعتدوا عليه... ولما كان سكرتير الجمعية هو د. ليفي لا ينتمي إلى الإسلام خشيت أن يسيء الظن بكل علماء الأزهر فهونت عليه وقلت له إن في علماء المسلمين كثيرين من ذوي العلم والاتزان."

ولعل ذلك يلقي مزيدًا من الضوء على دور د. ليفي الذي اختارت السراي الجمعية التي يشغل موقع رئيسها لإلقاء محاضرة الشيخ نجيب.

في بداية الأربعينيات أسس ليفي شركة إعلانات وأصبح مديرًا لها، وهي الشركة التي كانت - كما يؤكد محمد كامل البنا - تقوم بعملية تمويل جميع الصحف العربية والأفرنجية التي تصدر في مصر، وبالتالي كان لها تأثيرًا مباشرًا على تطور الصحافة في مصر.

(٣)

كانت حياة أمين عثمان السياسية - حسب تعبير أحد أصدقائه - محاولة للتوفيق بين عاطفتين، حبه لوطنه، وانبهاره بالمدنية الإنجليزية، وهي توفيقية ذاتية أجهزت عليها رصاصات (جماعات الشباب) في أوج حلقات العنف وحمامات الدم في ٥ يناير ١٩٤٦.

لقد كان صعود نجمه في أفق السياسة خاطفًا، فقد حصل على لقب الباشوية - بتزكية من النحاس - عام ١٩٣٧، ولم يكن قد تعدى الثامنة والثلاثين من عمره، ثم حصل على لقب (سير) ومنحت زوجته لقب (ليدي) وحمل بعد ذلك لقب فارس الإمبراطورية البريطانية)، وهو لقب كان قاصرًا في الغالب على الإنجليز.

نشأ في أسرة ميسورة الحال فقد كان والده يعمل سكرتيرًا عامًا لبلدية الإسكندرية وظل أمين عثمان يعدو طوال حياته، وكأنه كان يهرب من صوت داخلي يطارده في يقظته ومنامه، وقليلون أولئك الذين يعرفون أنه أشرف على الموت غرقًا وهو في السادسة عشرة وحين حاول شقيقه الأكبر أن ينقذه ابتلعته الأمواج بدلاً عنه وقد ظل هذا المشهد يستعيد نفسه في منامه ويوقظه فزعًا صارخًا في جوف الليل.

لم يكن ذكاؤه محل تشكك من أحد، وكذلك ثقافته الإنجليزية حد إيثاره الحديث بلغتها، ولكن وطنيته هي التي تعرضت لأكثر من امتحان، من بينها ذلك الامتحان الدامي من جماعة الشباب أو الجماعة الوطنية التي كانت تضم بين صفوفها سعد كامل (الكاتب الصحفي) محمد إبراهيم كامل (وزير خارجية مصر بعد ذلك) وعبد العزيز خميس (

الكاتب الصحفي) ومحمد أنور السادات أو الحاج محمد الذي انضم إلى الجماعة وهو هارب من المعتقل.

وحين سئل حسين توفيق – زعيم هذه الجماعة – في التحقيقات بعد القبض عليه:

– هل تعتقد أن أمين عثمان كان يتعاون مع الإنجليز؟ أجاب قائلاً:

– أيوه، طبيعي كان يعاونهم لأنه إنجليزي خالص. وفي حين يؤكد النحاس في شهادته أنه "يعهد في أمين عثمان تقديم الصالح الوطني على الإنجليز". يلقبه المندوب السامي البريطاني بأنه "المفاوض لحساب السفارة البريطانية" وقت الأزمات، وفي تقدير رسمي لكيللرن وفق تقرير له أنه "لا توجد شخصية مثل أمين عثمان تستطيع أن تلعب دور الوسيط بين الوفد وبيننا من أجل تطوير التفاهم المتبادل والتسويات المتبادلة" بل إنه وصف قتله بأنه "يقترب من أن يكون كارثة سياسية بالنسبة للمستقبل"، وفي تقريره عن جنازة أمين عثمان التي حضرها النحاس وبقية قيادات الوفد كتب: "استخدمت كمظاهرة وفدية، كما أنها مؤيدة لبريطانيا، خاصة وأن فؤاد سراج الدين قد أعطى تعليمات مسبقة ألا تهتف العناصر الوفدية بكلمة ضد البريطانيين."

وعند تشكيل حكومة الوفد عام ١٩٤٢ نصح كيللرن أمين عثمان بألا يتولى منصبًا وزاريًا، وأن يقبل موقع سكرتير عام الوزارة حيث أنه أكثر نفوذًا، وأكبر فائدة من وجهة النظر البريطانية.

أما (علي ماهر) فقد نسبت إليه – في شهادته – أنه "أتى مسألة لم تكن مشرفة، وهو انحيازه للإنجليز عندما أفهمهم أن المفاوض المصري – أي النحاس– يحاول التقليل من مطالب الإنجليز وأسدى لهم نصيحة في الواقع ضد المصلحة المصرية بأن يطلبوا ٢٠٠٪ مما يريدون حتى إذا ساوم النحاس وخفض وصلوا إلى ١٠٠٪ مما يطلبون."

شيء من هذا عبر عنه حسين سري – في شهادته أيضًا – فقد "كانت دهشتي عندما علمت أن أمين عثمان هو المدافع عن الوجهة البريطانية من جهة النصوص، ولم أهضم ذلك كمصري." بينما يرى أحمد فرغلي صديقه وزميله في مدرسة فيكتوريا بالإسكندرية أيام الدارسة أنه "بدأ تفكيره السياسي متعاطفًا مع الوفد لكنه لم ينتم إليه، وأنه عمل – مبكرًا – موظفًا في مكتب مكرم عبيد، وأنه ظل محل ثقة النحاس، بل إن كل رؤساء الوزارات كانوا يطرقون بابه عند محاولة التقرب من السفير الإنجليزي."

لقد بدأ ظهور أمين عثمان على المسرح السياسي وفق السواد الأعظم من الدراسات السياسية السابقة مع مفاوضات عام ١٩٣٦ تحديدًا وعندما ضمه النحاس إلى سكرتاريته ولكن ظهوره في مذكرات النحاس أبعد أثرًا من ذلك، فقد بدأ عام ١٩٣٣ وقبل حضور كيللرن إلى القاهرة، ولكن دوره تعمق بشدة هذا العام (٣٤)، وسوف يواصل صعوده وتعمقه في الأعوام القادمة، حيث سيكون متاحًا الحصول على صور عديدة وجديدة له.

(٤)

يبدو أن هذا الحيز يبرز إلى حد كبير جانبًا من نمط التفاوض البريطاني مع القوى السياسية المصرية، خصوصًا مع الوفد.

لقد كان الهدف الواضح للبريطانيين والمتفاوضين باسمهم دون استثناء هو إطالة أمد المفاوضات، كسبًا للوقت، حتى تترسخ أقدام الوزارة الجديدة على جانب ويتحسن موقف المعارضة منها وتتجلى في الوقت نفسه آفاق الصراع الدولي ونذره الواضح التي تؤذن بصدام دولي مسلح.

ولذلك لجأ البريطانيون إلى استخدام عامل إغراق الطريق أي المفاوضات بالشكليات (كيف يتم اللقاء مع المندوب السامي أو مع ممثله، من يترك بطاقته لمن، وماذا يكون رد فعل الآخر المطلوب؟ ماذا يقول كل طرف للإعلام إذا تحقق اللقاء بالفعل... إلخ.. إلخ.)

ثم لجأ الجانب البريطاني فوق ذلك إلى حشد أكبر عدد من الأطراف حول هامش اللقاء أو طاولة المفاوضات المقررة (فأمين يتحدث وريد ينقل وفارس يؤكد وزوجة المندوب السامي تصرح وزوجة فهمي ويصا تنقل.. إلخ... إلخ.)

وكانت مهمة هذا الحشد مزيد من إغراق الطرف الآخر بالتفاصيل على جانب، وإعطاء إيحاء بجدية الحدث على الجانب الآخر.

ثم لجأ الجانب البريطاني – ثالثًا – إلى لعبة قديمة توطدت بعد ذلك وهي إعطاء إيحاء كاذب بأن المعسكر الإنجليزي المفاوض ينقسم إلي أشرار وأخيار، وأن على الوفد – أو المفاوضين المصريين عمومًا – أن ينتظر كي يفرغ الأخيار من مواجهة الأشرار، والإطاحة بمخططاتهم الشريرة، وأن على الطرف الآخر أن يقدر بعمق الأخيار وجهادهم وأن يعطيهم الفرصة كاملة من أجل تحقيق النجاح الذي يقترب دومًا، ثم يبتعد فجأة، ثم يعود ليطل قبل أن يكون مطلوبًا مباركة الأخيار والاطمئنان إليهم والدعاء لهم!

(٥)

الأمير محمد علي توفيق هو شقيق الخديوي عباس حلمي (ابن الخديوي محمد توفيق) وقد عزلت السلطات الإنجليزية الخديوي عباس بعد سفره إلى الآستانة في صيف ١٩١٤ ومنعته من العودة إلى مصر عند قيام الحرب العالمية الأولى بحجة انحيازه لتركيا وألمانيا ضد الحلفاء.

ولقد وقع الخديوي عباس حلمي (بعد مفاوضات قام بها إسماعيل صدقي عام ١٩٣١ مع سكرتيره عبد الله البشري) على وثيقة تنازل عن حقه في العرش صاغها عبد الحميد بدوي ونص فيها على: "أقر لحضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ابن إسماعيل ملك مصر الشرعي، فإنني أعلن بهذا تنازلي عن كل دعوى على عرش مصر." وذلك في إطار اتفاق

بأن تدفع له الحكومة المصرية "ثلاثين ألف جنيه سنويًا لا تنسحب على الماضي ولا يصرف منها شيء لأحد من ورثته..."

ولكن الأمير محمد علي ظل رغم ذلك هو العدو الأول لعمه الملك فؤاد، فقد ظل يرى أنه اغتصب منه العرش وضمّن الدستور مادة تحدد الملك فيه وفي أبنائه على الدوام.

وقد سعى الأمير مجاهدًا لتغيير هذه المادة وتصحيح مسار وراثة العرش من وجهة نظره.

والأمير محمد علي هو صاحب القصر المنيف على جزيرة الروضة بالنيل – وقد تحول إلى مزار سياحي – وهو يضم كنوز تنتسب إلى الإمبراطورية العثمانية، فقد كان كما يصف -- وليم ستاديم – "مربي خيول عالمي، وجامع تحف فنية، محدودبًا إلى حد ما، ذا لحية بيضاء، متأنق، يرتدي الطربوش بزاوية معينة..."

وذلك ليس ببعيد عن وصف – إدوارد فورد – الذي أحضره لامبسون عام ١٩٣٦ ليعلم فاروق بقوله: "يرتدي الطربوش على جانب من رأسه ولحيته الفضية العريضة وشاربه الأبيض يعطي الإيحاء بالأصل التركي..."

ولكن الأمير – فيما يبدو – كان شخصية مليئة بالمتناقضات فرغم سعيه إلى صياغة علاقة خاصة ودائمة مع (النحاس) ومديحه المرسل في الوفد وزعيمه، إلا أنه كان يكن – كبقية أفراد أسرته – احتقارًا شديدًا للمصريين، وهو احتقار مبالغ فيه حد أنه يبدو وكأنه ينم عن عقدة.

ووفق تقرير عن لقاء بين الأمير محمد علي وأنتوني إيدن شخصيًا عند زيارته لمصر – في ١٤ فبراير ١٩٤٠ – كما دونه لامبسون فإن الأمير قدم النصيحة لـ (إيدن) قائلاً:
"أولاً وقبل كل شيء فإن المصريين بصفة عامة، يتعين معاملتهم بصرامة وإذا تم التعامل معهم بأسلوب لين فإن الزمام سيفلت...".

وهي كلمات لا يستبعد أنها ظلت ترن في أعماق أنتوني إيدن وتصوغ رؤيته على مشارف حرب السويس عام ١٩٥٦ .

غير أن الأمير الذي كان مرتميًا بالكامل في أحضان السفارة الإنجليزية، ومقتربًا من الوفد، كانت له علاقة خاصة مع الإخوان المسلمين. ووفق تقرير السفارة الإنجليزية في القاهرة [١٩٤٥/٢/٢٦] عن مقابلة بين السفير وبين الأمير محمد علي، فإن الأخير أخبره بـأن: "حسن البنا زاره وقال له إنه يشعر بالضيق من أن يكون قد أصبح مصدرًا لشك وعداء البريطانيين"، واعترف الشيخ بأن هذا الشك لا يقوم على مبرر وأن إزالته تحظى بكل اهتمام، وأن الأمير قد وعده بأن ينقل كلامه إلى السفير البريطاني ثم اقترح الأمير أن يقابل (سمارت) – السكرتير الشرقي للسفارة – الشيخ البنا، وقد علق السفير على ذلك

قـائلاً: "لقد وجدت شكوكًا من جانبنا خوفًا من تغذية الإخوان لاتجاهات معادية للأجانب ومن تورطهم بطريقة فولاذية في السياسة الداخلية، غير أنني علي استعداد للتفكير فيما قيل..."

وقد أجرى (الإخوان) في اليوم التالي مباشرة لهذه المقابلة اتصالاً مع (سمارت) بواسطة (أحمد جلال) أنكر (سمارت) خلاله حدوث أي عمل عدائي من جانب السفارة تجاه الإخوان خاصة على صعيد الانتخابات التي كانوا قد فشلوا في إيصال مرشح واحد فيها إلى البرلمان بما في ذلك الشيخ البنا نفسه وفي دائرة الإسماعيلية.

وقد تضامن الإخوان بعذ ذلك - تمامًا - مع الدعوة التي رفعها الأمير محمد علي لإجراء تتويج ديني للأمير فاروق عند صعوده إلى العرش، على أساس أن يقوم شيخ الأزهر - وكان المراغي مؤيدًا لذلك أيضًا - بتقليده سيف جده (محمد علي) في حفل ديني يقام بالقلعة، كما أيدته - أيضًا - حركة مصر الفتاة، ولكن الوفد أصر على استبعاد الفكرة، وقد كتب (فتحي رضوان) يتهم وليم باشا - أي مكرم عبيد - بأنه وراء هذا الموقف وأن الوفد "يمنع حفلاً دينياً ويجيز حفلاً راقصًا بمناسبة التتويج".

غير أن الملفت للنظر أن الأمير محمد علي كان هو (الأستاذ الأعظم للمحفل الماسوني الأكبر في مصر) فقد أجريت انتخابات داخل المحفل بمقره بشارع نوبار (في ٢٨ ديسمبر ١٩٢٢) وسط هرج ومرج وصراعات فاز خلالها الأمير محمد علي بمنصب الأستاذ الأعظم وهو أمر شق الحفل الماسوني في ذلك الوقت، خصوصًا وقد تقدم صفوف المشايعين للأمير والممهدين للانشقاق عدد من كبار اليهود في ذلك الوقت (صامويل ليفي - شنطوب ليفي - إيلي حتويل - ماركو كوهين - موريس دانا - إيزاك كروب - شالومة لزرع).

فقد قدم رئيس المحفل السابق (إدريس راغب) هؤلاء إلى المحاكم وأخطر - كما يقول د. علي شلش - المحافل الأجنبية بذلك، ويبدو - أيضًا - أن الانشقاق كان منظمًا من قبل القصر الملكي لأنه - كما يقول حنا أبو راشد: "أسَّر الوشاة في أذن الملك فؤاد أن البرنس محمد علي ولي العهد سيتولى الأستاذية العظمى ويسنده الأخ عبد المجيد يونس السكربير الأعظم حتى إذا تمكن استولى على عرش مصر بحراب الإنجليز فطلب الملك من إدريس راغب أن يرشح نفسه يناصره محمد رفعت بك... وبين صفوف الثأرين صعد محمد علي على عرش الأستاذية..."

الأغرب - كما تضيف دراسة د. علي شلش - أنه لما شغل منصب الأستاذية العظمى بوفاة محمد رفاعة عرض المنصب على أحمد ماهر باشا فقبله وانتخب أستاذًا أعظم وظل
ـل هذا المنصب حتى عام ١٩٤٥، وفي عام ١٩٥٠ تولى فؤاد سراج الدين (باشا)
الأستاذية العظمى للمحفل الماسوني، واستمر استاذًا أعظم حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

يمكن أن يضاف إلى ذلك كله تعميقًا للصلات والروابط ماثبتته د. سعيدة محمد حسني عن وجود وثيقة عبارة عن تلغراف عثر عليه ضمن أوراق المحفل الماسوني في مصر، وهو بتاريخ ٨ مارس ١٩٣٤، وكان مرسلاً من يافا بفلسطين إلى كبير أمناء القصر الملكي، وكان نصه:

"نرجو أن ترفع إلى العتبات الملوكية اشتراك جميع أعضاء المحفل الوطني الفلسطيني مع محفل الشرق الأكبر المصري في تقديم التهاني لشفاء حضرة صاحب الجلالة..."

لقد كانت أصابع الحركة الصهيونية طويلة في ذلك الوقت المبكر!

(٦)

كان قرار الملك فؤاد أن تستمر (الصدقيّة) بدون صدقي شخصيًا، ولكن فيما يبدو فإن الرهان قد خسر.

لقد أورد عبد الفتاح يحيي في كتابه إلى الملك (٢٧ سبتمبر ١٩٣٣) أنه: "كان لي شرف الاشتراك في وضع أسس النظام الحاضر، والسهر على تنفيذه حتى استقر نهائيًا..." ولقد كان صادقًا في نصف تعبيره، لأنه ظل نائبًا لصدقي حتى استقال، أما أن النظام قد استقر نهائيًا فهذا مالم يكن صادقًا في التعبير عنه لأن نقيضه هو الذي ثبت بعد وقت قصير.

لقد نوه عبد الفتاح يحيي - أيضًا - في كتابه إلى الملك أن أكثر ما يشغل وزارته هو معالجة الأزمة الاقتصادية، وقد حاول أن يقدم بعض المسكنات، فأصدر البرلمان قانونًا بتخفيض إيجار الأطيان الزراعية بمقدار ثلاثة أعشار قيمتها كما رصد مبلغ مليوني جنيه لتسديد بعض المستحقات على المزارعين من رسوم وضرائب متأخرة، ولكن (الأسبيرين) لم يعالج المرض العضال الذي كان ممسكًا بعظم الاقتصاد أو بهيكله.

وهكذا انفجرت مظاهرات العمال مع بقاء الوزارة متمسكة بأسس توجهها الاقتصادي، بل والأمني.

لقد أعلن عمال شركة سجاير الدفراوي الإضراب عن العمل للمطالبة بزيادة الأجور «نظرًا لغلاء المعيشة»، وأضرب عمال عنابر السكر في الحوامدية، وأعلنت الشركة إغلاق المصنع حتى لا يتفاقم الوضع وأضرب عمال مصنع صابون صوصة بالجمالية مطالبين بتخفيض ساعات العمل، وهاجم البوليس العمال وألقى القبض على ثمانية منهم، ويتجدد الصراع في منطقة القنال بين شركة جباسات البلاح وعمالها حيث خفضت الشركة الأجور ويقع صدام عنيف - كما يسجل أمين عز الدين - بين العمال والبوليس أصيب فيه سبعة عمال بالرصاص.

كانت جهود الحكومة منصبة على حل واحد لتمرد العمال، وهو فض الاعتصامات بقوة

البوليس، وهنا أصدر الأمير عباس حليم بيانًا مطالبًا الحكومة بأن تعلن عن سياستها العمالية (بعد أن ظل قابعًا في قصره من ١٥ مارس ١٩٣١ إلى أول مارس ١٩٣٤).

كانت القيادات العمالية تتردد على قصر الأمير في جاردن سيتي واتسعت مخاوف البوليس، وقررت الحكومة أن تضع حدًا لنشاط عباس حليم، فأصدر (كين بويد) مدير الإدارة الأوروبية بوزارة الداخلية أوامره بمنع العمال من دخول السرايا بالقوة وضرب حولها الحصار (١٠ يونيو).

يضيف أمين عز الدين أنه لما علم النقابيون الموالون لعباس حليم بذلك قرروا تنظيم مظاهرة في اليوم التالي لاقتحام الحصار ودخول السرايا، وتحركت المظاهرة بالفعل من ميدان الخازندار واتجهت نحو السرايا واشتبك البوليس معها في معركة ضارية اسفرت عن إصابة ٧ عمال بإصابات مختلفة توفي أحدهم وهو إبراهيم محمد أحمد سكرتير نقابة الحلاقين الذي شيعت جنازته في مظاهرة سياسية عارمة، وتقرر بعد ذلك اعتقال عباس حليم وهو ما يعتقد أنه تم بإيعاز من الملك، وتم الإفراج عنه بعد تدخل لامبسون بضغوط من الأمير محمد علي.

كانت وزارة يحيي تتخبط في سيرها، وكانت جرأة الجميع عليها واضحة ويسجل (الرافعي) أن الإنجليز: "أخذوا يستهينون بها وبكرامتها"، وزاد استعلاؤهم على البلاد في عهدها، حتى أن (بيترسون) القائم بأعمال المندوب السامي تدخل لدى يحيي باشا على أساس أن مرض الملك "يستدعي تعيين قائم مقام له يتولى سلطته، وزاد في التدخل فطلب الاطلاع على وثيقة الوصايا على العرش وأسماء الأوصياء في حالة وفاة الملك."

لكنه، يبدو أن ذلك لم يكن السبب الحقيقي في إقالة الوزارة. إن محمد أحمد فرغلي يورد سببًا آخر يتعلق بأزمة وَصَمَتْ نزاهة وزير الأشغال في الوزارة (عبد العظيم راشد) الذي عهد ببعض المقاولات إلى أحمد عبود مخالفًا بعض القوانين، ويقول (فرغلي) إن المندوب السامي شعر بأن تأييده لوزارة متهمة في نزاهتها أمر لا يليق، فبدأ أول تدخل له لدى الملك فؤاد، الذي ضغط بدوره على رئيس وزرائه فلم يجد بدًا من تقديم استقالته.

لكن (الرافعي) يرى أن الاستقالة قدمت تحت ضغط هوان شامل فقد، "هان شأن الوزارة، وهان شأن الملك ولم ير عبد الفتاح باشا بدًا من تقديم استقالته."

ولكنه قدمها مبررة بأنه "أبُلغتُ برغبات للحكومة البريطانية لا يسعني قبولها دون التفريط في حقوق البلاد"، مشيرًا بذلك فيما يبدو إلى قائمة الأوصياء على العرش بعد أن اشتدت العلة بالملك.

ولم تكن مبرراته المعلنة أو الرسمية صحيحة لأن (بيترسون) الذي خشى أن يكون المظروف المختوم بالشمع الأحمر والذي يضم أسماء ثلاثة أشخاص هم مجلس الوصاية، لا يضم سوى رجال الملك، وخاصة زكي الإبراشي فاتصل - وفقًا للوثائق البريطانية

رئيس الوزراء، وطالبه بإبعاد (الإبراشي)، ومع أن يحيي باشا تردد أسبوعًا كاملاً في لتدخل لحذف اسم الإبراشي، إلا أنه أتم المطلوب منه في نهاية الأسبوع وأبلغ (بيترسون) بنجاحه.

وهذا ما يجعل السبب الذي أورده (الرافعي) أيضًا، لإقالة الوزارة غير قابل للصمود. لقد اختار (لامبسون) نسيم باشا الذي يمثل خط تفاعل ولقاء مع الوفد، وعبورًا هادئًا لمرحلة جديدة، خاصة في ظل تصاعد التناقضات داخليًا، وفي أجواء حرب تطل بين إيطاليا والحبشة.

لقد وصف (لامبسون) رئيس الوزراء الجديد في تقاريره إلى لندن بأنه "مرن جدًا ومتعاون"، ولم يخرج وصف (النحاس) له عن ذلك!

١٩٣٥

المذكـــــرات

(١)

قال لي مكرم إنه كان أول أمس في حفلة ساهرة بمناسبة رأس السنة وإنه التقى بكثير من الإنجليز وأن مستر سمارت أخبره أن الموظفين المحليين (البريطانيين) بعثوا بتقرير جديد إلى مستر سيمون وزير الخارجية يعارضون فيه بشدة عودة الدستور، وينذرون بالخطر إذا عاد بل إن بعضهم هدد بالاستقالة من منصبه، وأن السير (مايلز لامبسون) غضب من هذا التصرف غضبًا شديدًا واتصل بوزير الخارجية شخصيًا، ولكن لم نعرف النتيجة، فقلت له يختلفون أو يتفقون إن موقفنا واضح وصريح وأن مطلبنا الأول هو عودة الدستور كاملاً غير منقوص.

تلقيت تقريرًا من الدكتور حامد محمود من لندن يقول فيه إن وزارة الخارجية البريطانية تؤيد المندوب السامي سير مايلز لامبسون لكن بعض موظفي وزارة المستعمرات المغالين ينتصرون لرأي كوين بويد وزملائه، وكلهم مجمعون على أن مرض الملك يعطل اتخاذهم إجراء سريعًا خصوصًا وأن الأحداث تمر بسرعة وأخطار الحرب تزداد يومًا بعد يوم، وقال التقرير أيضًا إن الصحف البريطانية منها ما هو مؤيد للوفد ومنها ما هو ضده ، وأن موظفًا كبيرًا في قصر بكنجهام يدافع عن الملك دفاعًا قويًا ويصرح بأنه هو الضمان الكبير لهم في مثل هذه الظروف.

قابلني النقراشي وشكا إلي شكوى مرة من أن وزير المعارف الحالي رفض أن يعيد الأستاذ أمين لطفي للعمل مع وزير معارف صدقي باشا والذي فصله لأنه سلم على النقراشي عام ١٩٣٠ ووقف يتحدث معه في طريق كورنيش الإسكندرية وقد قلت له إنني متفق مع نسيم باشا على أن يعيد كل وزير الموظفين المفصولين سياسيًا إلى وظائفهم التي كانوا فيها قبل الفصل، على أن تحتسب مدة الفصل في المعاش وفي الترقية والعلاوات، وسأتكلم معه بخصوص أمين بك لطفي وبقية الموظفين الذين لم يعودوا إلى الآن.

قابلت نسيم باشا، وتحدثت معه في شأن مشيخة الأزهر، وأمين لطفي، وبقية الموظفين الذين لم يعادوا إلى وظائفهم فقال لي بخصوص مشيخة الأزهر إن الملك متمسك تمسكًا شديدًا بالشيخ الظواهري، وأنا أعالج المسألة في رفق لأن صحته لا تحتمل طول النقاش واترك لي الفرصة وإن شاء الله ستنتهي هذه المسألة على خير، أما بخصوص أمين لطفي فقد اتصل في الحال بوزير المعارف وسأله فقال له إني عرضت على الأستاذ أمين لطفي أن يعود سكرتيرًا عامًا للوزارة كما كان من قبل ولكنه رفض وطلب أن يعين وكيلاً للوزارة، وليس عندي منصب وكيل وزارة خال وأني ألححت عليه أن يعود، ثم ينظر في أمره عند خلو وظيفة وكيل وزارة، ولكنه أصر على رأيه وقد أعدت زميله غانم محمد إلى وظيفته التي كان يشغلها عند فصله وهو مدير المستخدمين ولم يعترض كما أعدت جميع المفصولين السياسيين إلي أعمالهم التي كانوا فيها، واقتنعت بهذا التفسير.

طلبت النقراشي فحضر ورويت له الرواية التي سمعتها أثناء اتصال نسيم باشا بوزير المعارف فظهر غضبه وقال إن هذه مؤامرة تدبر ضد أمين لطفي لأنه صديقي وزميلي ووزير المعارف لا يحبه ولا يريد أن يعيده فقلت له إن حجته قوية، ولا يعقل أن يفصل وكيل وزارة ليعيدأمين لطفي مكانه وأنت تعلم تقديري وحبي لأمين ولكن وزير المعارف ليس مخطئًا، فلم يقتنع وأصر على غضبه وخرج وأثار الاستياء على وجهه.

جاءني بعض الأزهريين الذين سبق أن قابلوني بخصوص شيخ الأزهر فأفهمتهم الموقف على حقيقته وقلت لهم إن نسيم باشا جاد في علاج هذه المسألة. ولكنه طلب مهلة حتى يصل إلى حل مرض فيها، فقالوا إن العلماء والطلبة في ثورة عارمة وأنهم صابرون على مضض، وتصرفات الظواهري كل يوم تزيد من سخطهمم ورجوني أن أعيد الكرة على نسيم باشا كي يعمل على حل هذه المسألة فوعدتهم بذلك.

انفردت جريدة الجهاد دون سائر الجرائد بنشر انتصارات الحبشة على إيطاليا وأتت بإحصائيات القتلى والأسرى بأعداد هائلة، وسألت عن هذا فقيل لي حديث طريف دبره بعض الصحفيين ليروجوا الجريدة ومن العجيب أن الجريدة أصبحت توزع ألوفًا مؤلفة وكان القراء يتلهفون عليها حسبما أخبرني توفيق دياب.

قابلت ماهر والنقراشي في بيت الأمة وقد شكا النقراشي من أن الوزارة متباطئة في عودة الدستور وأن المعلومات التي لديه من السراي تفيد أن الملك تعتريه حالات غيبوبة ثم يفيق وأنه قد أرسل أحمد حسنين الأمين الأول إلى لندرا ليكون إلى جوار الأمير فاروق مع الفريق عزيز المصري الذي يرافقه منذ سفره، وأن موظفي السراي يقولون إن الملك يتحدث كثيرًا عن صهره محمود فخري باشا وأنه يود أن يكون إلى جانبه لأسباب كثيرة.

أعاد النقراشي مسألة أمين لطفي ثانية وشفع الكلام بنقد مر لوزير لوزير المعارف يعتقد فيه أن وقوفه حجر عثرة في طريق صديقه تحد له هو شخصيًا وأنه (وزير المعارف) قال في مجالس أصدقائه وأقربائه من الأحرار الدستوريين أولاد خشبة ومحفوظ إنه لن يعين أمين لطفي وكيلاً لوزارة المعارف بحال من الأحوال ويجب أن نشتد (الخطاب للنحاس) على نسيم باشا حتى يأمر وزيره بحل هذه المسألة وإلا كانت هذه الوزارة غير صديقة للوفد فأجبته بأني تكلمت في هذه المسألة بما فيه الكفاية وإذا كان وزير المعارف لا يحلها فنحن إن شاء الله عندما يعود الدستور ونجري الانتخابات سنتولى الحكم وعندئذ نحل المسائل الباقية، والمشاكل التي لم تستطع الوزارة المحايدة أن تحلها، أما أن أتهم نسيم باشا بأنه عدو للوفد أو غير صديق له بمجرد عجز وزير من وزرائه عن إعادة موظف لوظيفة أكبر من وظيفته وخصوصًا إذا كان قد عرض عليه العودة إلى عمله الأصلي فرفض فأظن أن هذا يكون تصرفًا غير لائق حقًا، فاحتد النقراشي ونطق بألفاظ غير لائقة في حق نسيم باشا ووزرائه. كلمت نسيم في تعيين مصطفى شوقي في إحدى الوظائف فطلب مني إرسال أوراقه فأرسلتها إليه وهي عبارة عن شهادة البكالوريا وشهادة بأنه قضى في كلية التجارة سنتين وتركت له أن يتصرف.

جاءني مكرم وقال إن الملك يريد أن يراه في مقابلة خاصة لا تنشر في الصحف، وقد حدد له يوم الإثنين ١٢ فبراير فأذنت له أن يحاول بلباقة تفهم نياته من ناحية الدستور إن أمكن، ومن ناحيتنا بالذات، وأن يشرح له أننا لا نبتغي إلا خدمة بلادنا ولا مطمع لنا في شيء مما يشيعه الخصوم علينا كما أشاعوا عن المغفور له سعد باشا من قبل.

قال لي فهمي ويصا (عضو لجنة الوفد المركزية بالإسكندرية) إن زوجته استر قابلت حرم المندوب السامي في حفل عشاء عند سميكة باشا (وزير مواصلات سابق) وقد أكدت لها أن السير مايلز لامبسون جاد في إعادة الدستور والحياة النيابية، وأنه انتصر على المحامين الإنجليز الموظفين في مصر، وهي (أي زوجة المندوب) تقول لها إن خصوم الوفد يعرضون أنفسهم على المندوب السامي ويعلنون له استعدادهم لتنفيذ أي شيء وتعديل الدستور كما يريد الإنجليز ولكنه لا يسمع لقولهم، ولا يريد أن يتفاهم معهم لأن تحرياته أثبتت له أن البلاد ملتفة حول الوفد وأن النحاس باشا رجل عند كلمته ويستطيع أن ينفذ ما يقول.

حضر مكرم بعد مقابلة الملك مباشرة وقال: إنها دامت أكثر من نصف ساعة وأن الملك أخبره أنه اقتنع بأن الوفد أحسن الأحزاب وأخلصها في خدمة البلاد، وأن الدسائس التي كانت تصل له من الحاشية وخصوم الوفد مبالغ فيها، وقد فهم مكرم من الملك أنه هو الذي تسبب في فشل مفاوضات هندرسون النحاس ١٩٣٠ عقب أن نقل إليه النقراشي ما جرى في مجلس الوزراء خاصاً بالمفاوضات وأن الغرابلي لم يقابل الملك منذ أن كان وزيراً في وزارة الوفد ولم يتصل به، وعلق مكرم على هذا بأن النقراشي هو الذي كان ينقل إلى السراي أسرار اجتماعات الوفد والوزارة الوفدية ولكنني استبعدت هذا وقلت لعل النقراشي كان حسن النية في هذا ولكنني أسفت إذ اتهمنا الغرابلي بأنه هو الذي أفضى إلى صهره زكي الإبراشي (ناظر الخاصة الملكية) بأسرار الوفد، لكن مكرم علق بغضب وقال إن تصرفات النقراشي الأخيرة واتهامه لنسيم باشا ووزرائه في كل مكان ونقده المستمر لتصرفاتنا تجعله يميل إلى تصديق الملك وأنه (أي النقراشي) كان يشتغل لحساب السراي ليتقرب إلى الملك بدليل أنه لم يخبرني بأي مقابلة خاصة قابلها للملك من وراء الكواليس ولكني لم أصدق حملة مكرم على النقراشي فهو وطني متطرف وعدو للإنجليز وللسراي معاً.

بعد أداء فريضة الجمعة مررت على توفيق نسيم باشا في منزله، وقابلته وتحدثنا في عدة مسائل منها مسألة شيخ الأزهر، أكد لي أنه جاد فيها، وأن الملك لا يزال متمسكاً بالشيخ الظواهري وكلما جاء ذكر المراغي غضب وقال إنه ليس مخلصاً للعرش ولكني أؤكد له دائماً أنه غير ذلك، وما هي إلا فترة قصيرة من الزمن حتى تنتهي هذه المسألة، ثم جاء الدستور، وما فعل فيه فقال إنه أمر بإعداد الوثائق اللازمة لذلك وعندما تنتهي سيعرض الأمر على الملك حتى يوقعه إن شاء الله.

... ذكر لي نسيم باشا عرضاً أنه أمر بتعيين مصطفى ابن شقيقتي موظفاً بالداخلية

كاتبًا بالدرجة الثامنة براتب قدره ثمانية جنيهات فشكرته.

زارني ريد وأمين في المساء وأخبراني أن بعض الإنجليز يعارضون في عودة الدستور وأنه يجب أن يبت في مسألة الأوصياء على العرش قبل هذا لأن حالة الملك الصحية تزداد سوءا ولكني أكدت وكررت أن الدستور أهم ألف مرة من الأوصياء لأنه هو الذي يحسم هذا الأمر وإذا لم يكن قائمًا فكل تصرف باطل سواء كان عن الأوصياء أو عن غيرهم، وقال ريد إن نسيم باشا رجل مستقيم ولكن بعض رجال السراي لا يستريحون إليه، وقد نقل بعضهم إلى المندوب السامي أنه (أي نسيم) يتحيز للملك وينفذ أوامره دون الرجوع إلى المندوب السامي وأن الإنجليز بدأوا ينتقدون هذه التصرفات فقلت لهم إنهم لن يجدوا رجلاً موثوقًا به من السراي ومن الأمة كنسيم باشا وخير لهم ألا يضعوا العراقيل في طريقه حتى تجتاز البلاد هذه الأزمة وتمر بسلام، وقال أمين إنهم لن يقدموا الآن على أي تغيير من شأنه أن يقف في طريق الدستور والحياة النيابية لأن حرب الحبشة تنذر بمقدمات للحرب العالمية وهم يريدون الاتفاق مع الوفد حتى يطمئنوا إلى جانب مصر، ولكن أشتم من أحاديث بعض موظفي الدار أن مشكلة السودان تشكل عقبة في عودة الدستور وما عدا هذا فلا شيء يقف في الطريق فقلت لأمين إذا كانوا يتحدثون هذه الأيام في هذا الشأن فهم يلفون ويدورون في حلقة مفرغة لأني أكدت وأصررت على عودة الدستور بحذافيره دون نقص أو تغيير أو تحوير وأنا في طريقي لن أحيد عنه.

اتصل نسيم باشا وطلب مقابلة عاجلة فقابلته فتحدث معي بأن الإنجليز يعارضون بشدة في أن يكون لقب الملك ملك مصر والسودان، وأن جلالته يأمرني بالتساهل، ولست أعلم ما رأيكم، فأجبته بأني أريد عودة الدستور كما هو بلا قيد ولا شرط ولا زيادة ولا نقصان وهذه هي كلمتي الأخيرة.

قال لي نسيم باشا إن حالة الملك الصحية لا تمكنه من المعارضة كما كان يفعل من قبل وأنه أصبح عصبياً أكثر مما يجب.

بعث إلي الدكتور حامد محمود يقول إن السير إدوارد صديق الملك فؤاد الشخصي يسعى لدى الحكومة البريطانية في أن توافق على استدعاء طبيب ألماني لعلاج الملك، ولكن الوزارة تشير بإرسال طبيب إنجليزي ينضم إلى الأطباء المصريين المعالجين، وقد عجبت لهذا التصرف من جانب الإنجليز، حتى العلاج الطبي يتدخلون فيه، ولا يمكن لرجل يحمل لقب صاحب الجلالة أن يختار الطبيب الذي يحتاج إليه، ولكن هذا هو الاستعمار وهذه هي أساليبه، فهل يريدون أن نترامى على أعتاب الإنجليز؟!

تؤكد النشرات الطبية التي يذيعها الأطباء المشرفون على علاج الملك أن حالته الصحية لم تتقدم وإن كانت لم تسوء، ولكن المحيطين بالقصر يؤكدون أنه أصبح في حالة شديدة وأنه لو هدأت الحنجرة لاستراح وأصبح قادرًا على مباشرة الأعمال الخفيفة.

زارني بعد الصلاة ماهر والنقراشي وعبد الحميد البنان وخليل أبو رحاب (عضو الهيئة

الوفدية) وحملوا جميعًا حملة قاسية على نسيم باشا لأنه بطيء في تصرفاته ويريد أن يبيعنا للسراي وللإنجليز، ولكنني أكدت لهم أن هذا غير صحيح وأن الرجل مخلص ولكن أمامه الكثير من العقبات ويحسن أن نصبر عليه ونتحمله حتى نجتاز الأزمة ويعود إلينا الدستور والبرلمان، ويكفي أننا الآن مطمئنون من جهة الأمن وحرية التصرف وعدم تعرض رجال الإدارة للوفديين وهذه مقدمات أحس أنها طيبة ولها نتائجها الحسنة، وقد صبرنا واحتملنا خمس سنين طوالاً فلننتظر وقد فات الكثير ولم يبق إلا القليل.

حضر مكرم وانضم إلى المجلس وكان رأيه من رأيي ولكن النقراشي احتد واتهمه بأنه يحابي الوزارة ويحاول أن يلتمس لها الأعذار، فهدأت الموقف وطلبت ألا تذاع هذه الأشياء في الخارج حتى لا تتبلبل الأفكار.

أعلنت جريدة روز اليوسف الأسبوعية أنها ستصدر يومية على مبادئ الوفد المصري وقد عينت لها - كما بلغني - طائفة من المحررين مشكوك في وفديتهم وفي أنهم يؤيدون الجناح المتطرف في الوفد.

إذن أخذ الناس يتحدثون في الخارج عن أن في الوفد جناحين معتدلاً ومتطرفًا ولقد ساءني هذا كثيرًا لأني أعلم أن الوفد منذ أن انتخبني رئيسًا له على قلب رجل واحد، وعلى مبدأ واحد ولا نعرف فيه معتدلاً ولا متطرفًا وأن رسالته ومهمته هي هي لم تتغير، السعي إلى استقلال البلاد استقلالاً تامًا والتخلص من الاحتلال والسير بالبلاد لمحاذاة ركب الحضارة.

زارني مستر سمارت يحمل رسالة إلي من المندوب السامي السير مايلز لامبسون بأنه لايزال يلقي معارضة عنيفة من بعض كبار رجال الخارجية البريطانية في عودة دستور ١٩٢٣ كما هو وأنه مصمم على أن يمضي في الطريق إلى النهاية ولكنه يرجو أن نتقابل حتى نتحدث في بعض المسائل الفرعية وقد حددت له موعدًا.

(٢)

بدأت صحيفتا الجهاد وروز اليوسف تثيران بعض الاتهامات وأخذ العقاد يشتم صراحة في توفيق دياب ويتهمه بأقبح الأوصاف وأخذ توفيق دياب بدوره يلعن العقاد ويصفه بالجنون والغرور والغطرسة والوصولية، وقال لي مكرم إن توفيق دياب رجلنا وهو مخلص يؤمن جانبه أما العقاد فهو شخص متقلب لا تطمئن إليه، ولكني قلت له لا يليق أن نسيء إلى رجل لايزال إلى الآن معنا ومنتسبًا إلينا ولم يعلن أنه خرج على مبادئنا، ويوم يتغير أو يتذبذب يكون لنا معه موقف آخر.

أشيع بين المتصلين بالقصر أن العلاج الجديد الذي وصفه الطبيب الإنجليزي لم تظهر له آثار وأن حالة الملك تسوء ويرى الأطباء المصريون أنه لا مندوحة من استدعاء الدكتور برجمان من ألمانيا لأنه متخصص في مثل الحالة التي تعتري الملك، وأن السراي أوفدت رسولاً إلى لندرا ليقنع المسئولين بالموافقة على استدعاء الطبيب الألماني

قال لي مكرم إن اللجنة التي شكلها نسيم باشا لتعويض الصحفيين قد انتهت من تقريرها ولما قدمته إلى رئيس الوزراء خفض المبالغ التي اقترحها إلى أكثر من الثلث وأن عددًا كبيرًا من الصحفيين الوفديين قد شكا إليه من هذا التصرف ووعدهم بأن يبلغني واقترح أن أعيد الكرة على نسيم باشا ولكني رفضت أن أكلمه في هذا الخصوص مرة أخرى.

عرفت أن الحكومة البريطانية وافقت أخيرًا على استدعاء الدكتور برجمان للاشتراك في علاج الملك وأنه سيحضر قريبًا.

زارني ريد ومعه أمين وفهمي وويصا، وقال ريد إن بعض موظفي دار المندوب السامي قد شهدوا الاستقبال في محطة سيدي جابر وتأكدوا أن المواطنين ملتفون حول الوفد، وأنهم كتبوا تقارير بذلك إلى المندوب شفعوها بصور فوتوغرافية التقطوها للسيارة التي تقلني، وهي تسير يحيط بها المواطنون، وقال أمين لقد نجحت الرحلة نجاحًا كبيرًا، وأظهر الشعب من الشعور والحب والتمسك بالوفد ما لا يستطيع أحد أن يحدده، وأني سألت المندوب السامي عند مقابلته أمس عن رأيه فقال إنه مغتبط جدًا، وقد أبرق إلى وزارة الخارجية بهذا الخصوص وطلب التعجيل في حل المسألة وعودة الدستور حتى لا يفلت من يده الزمام.

زارني حسن صبري بك ويعقوب صروف وأخبراني أن الإنجليز انتهزوا فرصة تحسن صحة الملك بعض الشيء وطلبوا إليه ألا يقف حجر عثرة في عودة الدستور وأنه قد كلف توفيق نسيم باشا بأن يهيىء الجو لهذا، وأن السير مايلز لامبسون قابل الملك وتحدث معه في عدة مسائل وأفهمه أن الموقف الدولي الخطير يحتاج إلى توحيد الجهود، وأنه بصدد السعي في تأليف وزارة قومية من الزعماء المصريين جميعًا لعقد معاهدة مع إنجلترا حتى يشمل الهدوء البلاد.

اتصل بي توفيق نسيم باشا وأخبرني أن جلالة الملك وقع أمرًا ملكيًا بتعيين الشيخ المراغي شيخًا للأزهر وأن هذا يعتبر بادرة طيبة تبعث على الأمل في حل جميع المشاكل الداخلية، وأن مسألة عودة الدستور لن تستغرق إلا وقتًا قصيرًا ثم تنتهي إن شاء الله وكل شيء على ما يرام، وقد شكرت نسيم باشا وهنأته على مسعاه الحميد، وتمنيت له النجاح في إتمام مهمته على الوجه المطلوب.

زارني الدكتور طه حسين مودعًا بمناسبة سفره إلى أوروبا لقضاء إجازة الصيف وقد قال لي إنه كان مع الشيخ مصطفى عبد الرازق وبعض أساتذة الجامعة وأعضاء حزب الأحرار الدستوريين وتحدثوا في شأن اهتمامي بإعادة المراغي للأزهر، وقد قال بعض الحاضرين إن النحاس باشا تحمس لإعادة المراغي ظنًا منه أنه من أنصاره أو أصدقائه ولكن الأمر يختلف عن هذا تمامًا وذلك لأن المراغي صديق حميم للدستوريين ومن أشد المتحمسين لهم فضلاً عن علاقته الوثيقة بالإنجليز نظرًا لعشرته الطويلة لهم أيام كان قاضي قضاة السودان، وقد أجبت طه بأني لم أنظر إلى شيء من هذا ولكني رأيت

الأزهريين وهم فئة يعتد بها في الأمة ونظرت لمكانة الأزهر بين البلاد الإسلامية فألححت على الحكومة من هذه الناحية موقنًا بأن العصر الذي نعيش فيه عصر تطور وتقدم ويجب أن يأخذ الأزهر بنصيبه في هذا المضمار وأن المراغي ربما يكون أصلح الشيوخ للنهوض بالأزهر وتطويره، وقلت لطه بلغ أصدقائك الدستوريين أن النحاس لا ينظر إلى الدين من ناحية الحزبية ولكنه ينظر إليه من ناحية أنه دين الله المنزل من السماء.

تناولت العشاء في الكازينو (سان استفانو) مع مكرم وعايدة زوجة مكرم وبعد انتهاء العشاء قدم إلي مكرم بعض وزراء نسيم باشا ولم أكن قد قابلتهم قبل هذا وأكدوا لي جميعًا أنهم يسيرون في أعمالهم الحكومية سيرًا محايدًا وقال لي وزير المعارف إنه ترأس لجنه تعويضات الصحفيين وقد عاتبه على المبالغ الضيئلة التي قررتها اللجنة كتعويضات للصحفيين الذين لحقهم الضر من صدقي فقال لي باسمًا إني تعبت كثيرًا في إقناع نس باشا بالموافقة لأنه كان من رأيه ألا يدفع لهم شيئًا أبدًا ولقد كلمته في أنه لابد من أن يك للحكومة بعض الأقلام تدافع عن تصرفاتها لقاء مكافأة لمحرريها كالمتبع في جميع بل العالم فرفض رفضًا باتًا، وقال إن أموال الأمة تصرف في المرافق العامة، وإذا لم تد أعمال الوزارة تكفي للدعاية لها فلا فائدة من أموال تدفع لأقلام مأجورة تنتهي مهمته بانتهاء ما تقبض فابتسمت لأن نسيم باشا لم يجرب الحزبية ومساوئها والمعارضـ واختلاقها الأكاذيب على خصومها.

قابلني ريد وأمين وأخبراني أن السير مايلز لامبسون استطاع أن يقنع المسئولين في وزارة الخارجية البريطانية بأنه لا داعي للتصرف الذي كانوا ينوونه من اعتقال النحاس وزملائه (إذا مات الملك) وفرض الحل الذي يريدونه على البلاد بالقوة، وأنه أخذ على عاتقه أن الأمور ستسير هادئة في طريقها العادي وأن الملك بعد أن تحسنت صحته بعض الشيء اقتنع بوجهة النظر البريطانية وأصبحت معارضته في عودة الدستور والحياة النيابية فاترة وعما قريب سينتهي كل شيء، وقد قلت لريد إننا أعددنا أنفسنا لكل شيء وليست هذه أول مرة نعتقل فيها.

سافر مكرم إلى القاهرة ومعه عايدة لمهمة عائلية ولما عاد حدثني أنه استدعي لمقابلة الملك مقابلة خاصة، وأنه استقبله وآثار الإعياء بادية عليه.

وقال له بلغ النحاس باشا أني عرفت متأخرًا أنه رجل (كوركت) وعند كلمته ولو كنت عرفت هذا عنه من قبل ما وقفت حجر عثرة في طريق عودة الوفد، مما قاله الملك لمكرم أن النقراشي ليس فوق الشبهات فخذوا حذركم منه وقد قلت لمكرم إن هذا الرجل (يعني الملك) يريد أن يوقع الفرقة بين أعضاء الوفد، وإن النقراشي مجاهد قديم وصلب وعنيد فما له يحذرنا منه الآن؟ فأجاب مكرم إن فائق يكن بك (أحد رجال التشريفات) أخبره أن النقراشي كان كثيرًا ما يقابل الملك قبل مرضه مقابلات خاصة ويقدم له تقارير عما يجري من أحداث، ولكنه قبل مرضه الأخير تغير عليه وأصبح لا يريد مقابلته ولا ندري لماذا، فعجبت من هذه الأخبار التي تصلني لأول مرة، فإني وإن كنت أعرف أن مكرم والنقراشي

بينهما تنافر وتنافس فلا أظن أن المسألة تصل إلى حد أن مكرم يختلق على زميله في الجهاد وأن المسألة لابد فيها شيء لكن تركتها للظروف.

اتصلت بنسيم باشا وقابلنا مقابلة طويلة دار فيها الحديث حول عودة الدستور فأكد لي أنه جاد في مسعاه وأن في السراي دسائس تحاك ضده، وفي دار المندوب السامي تيارات ضده وأنه يعالج هذه وتلك بالتؤدة والحكمة متذرعًا بالصبر والإيمان، وأنه بإذن الله واصل إلى ما يريد.

كانت انطباعاتي عن نسيم بعد أن تركته أنه رجل صادق وجاد فيما يقول ولكن القلق الذي يساورنا والخوف الذي يعترينا من الأحداث المفاجئة هو الذي يقلقني، ولكني حدثت إخواني بما دار بيننا واتفقنا على أنه لا مندوحة لنا من الصبر والانتظار حتى نرى ماذا يكون

تلقيت رسالة من الدكتور طه حسين يقول إنه وصل إلى فرنسا مع كثير من رجال الفكر والأدب وحضر بعض المآدب الخاصة وأن حديث الناس يدور حول احتمال قيام الحرب، وأن فرنسا تستعد من هذه الناحية وقد وضعت ميزانيتها على هذا الأساس.

كما تلقيت تقريرًا مفصلاً من بعض أبنائنا الذين يدرسون في ألمانيا بأن هتلر جند كل الشباب القادرين على حمل السلاح ومرنهم وأصبحت الطوابير تمر في كل مكان في برلين العاصمة وفي المدن الألمانية وأن من يزور ألمانيا الآن يتأكد أنها تستعد لعمل خطير.

جاءت الأنباء من جنيف أن عصبة الأمم قد اخفقت تمامًا في حل النزاع القائم بين الحبشة وإيطاليا وأنها لم تستطع أن تفعل شيئًا بإزاء الاحتلال الفاشي وأن الطليان ثبتوا أقدامهم ورفضوا كل الحلول التي اقترحتها العصبة وأن الإجماع انعقد على أن هذه العصبة أصبحت كأن لم تكن.

زارني الدكتور أنس عابدين (طبيب الأنف والأذن والحنجرة) وقال إن الحنجرة ملتهبة بعض الشيء ويحسن ألا تتعرض للتيارات الهوائية وخصوصًا في المساء ولا مانع من الخروج بالنهار مع المحافظة والتقليل من الكلام، ولكني مبالغة في الاحتياط قررت إطالة مدة الاعتكاف في المنزل حتى يزول الالتهاب نهائياً.

استأنفت نشاطي بعد أن زالت الوعكة تمامًا، وقد جاءني مكرم متألمًا وعليه آثار الغضب الشديد لأن عباس العقاد كتب مقالات في روز اليوسف اليومية فيها تعريض بالوفد وبه خاصة وأخذ يكيل السباب لتوفيق دياب ولصحيفته المأجورة واستأذن في أن يرد على العقاد فوافقته، ولكني اقترحت ألا يكون الرد في (الجهاد) حتى لا يؤول تأويلاً سيئًا، ويحسن أن ينشره في كوكب الشرق ولكن مكرم اعترض بأنها ليست منتشرة فقلت له خاطب توفيق دياب بأن ينقل ما تكتبه في (الجهاد).

ظهرت كوكب الشرق وفيها مقال بقلم (مكرم عبيد) عنوانه آخرة العقاد - حقيقة الكاتب وما كتب - والحق أنه كان مقالاً بليغًا فند فيه كل اتهامات العقاد والتعريض الذي كتبه

ووضع النقط على الحروف وقد نقلته الجهاد كما اقترحت، وعرف الناس أن العقاد انحرف وذاع في الأوساط الوفدية أن النقراشي وماهر وراء هذه الحملة على مكرم وأخذ خصوم الوفد يشيعون في كل مكان أن الوفد انقسم على نفسه، وأن جناح ماهر والنقراشي يغلب على جناح مكرم، لولا أن النحاس يؤيد مكرم وينتصر لتوفيق دياب على العقاد.

(٣)

اشتدت المعركة بين جريدتي روز اليوسف والجهاد وأصبحت حديث المجالس، وأخذ العقاد يكتب صراحة طعنًا مكشوفًا في الوفد وخاصة مكرم، وكان كل عدد من روزا اليوسف يحمل بين طياته أخبارًا مختلفة، وأنباء ملفقة، وقد زارني عدد كبير من أعضاء الهيئة الوفدية ولجان الشباب الوفدي يستنكرون هذه التصرفات، ويطلبون أن تعلن سكرتارية الوفد أن جريدة روز اليوسف لا تعبر عن رأي الوفد ولا تنتسب إليه وأن ما يكتب فيها إنما يمثل رأي كاتبيه دون سواهم، ولكني فضلت أن أؤجل مثل هذا القرار فلعل المشرفين على تحريرها يرجعون عن غيهم ويثوبون إلى رشدهم.

التقيت بالسير مايلز لامبسون المندوب السامي في إحدى الحفلات وقد تحدث إليّ في أن المرض بدأ يعاود الملك مرة أخرى، وأنه يريد أن يعجل بتأليف جبهة وطنية من جميع الأحزاب لتتولى المفاوضات مع انجلترا حسب طلب وزارة الخارجية البريطانية وأن الملك بدأ يحدثه عن الوزارة القومية مرة أخرى كما حدثه بعض الإنجليز المحليين في هذا الخصوص فقلت له إني لا أستطيع أن أتحدث في أي شيء قبل عودة الدستور، وأما الوزارة القومية فالملك والإنجليز يعرفون رأيي ولم يجد جديد حتى أعدل عنه، وأما تأليف جبهة قومية للأحزاب تتولى المفاوضات فهذا أمر سابق لأوانه.

قدم لي مكرم وزير المعارف أحمد نجيب الهلالي وقد شكا لي أن النقراشي يطعن فيه في مجالسه ويصفه بأنه قاتل وسفاح وأنه يسير في وزارة المعارف سيرًا شخصيًا ويحارب الوفديين والوطنيين، وقال إنه منذ تولي وزارتي المعارف والتجارة أعاد جميع الموظفين المفصولين السياسيين إلى وظائفهم ورتب لهم أعمالاً لائقة بهم، وأنه لم يأت بقريب له له ولا بصهر في الوزارة حتى يقال أنه يتصرف تصرفات شخصية وقد طيبت خاطره، وقلت له سأتكلم مع النقراشي في هذا الخصوص ولا تحمل في نفسك شيئًا فإني وإخواني نثق في نسيم باشا والوزراء زملائه ونؤيد أعمالهم الوطنية وقد سألته عما تم في مسألة عودة الدستور فأجاب إن رئيس الوزراء يقاوم في ناحيتين، دار المندوب السامي والقصر الملكي، وأنه كعادته يعالج المسائل بصبر يحسد عليه وهو يأمل أن يوفقه الله إلى أداء مهمته.

عجبت من أن في القصر من يدس لنسيم وحاولت أن أعرف فقيل لي إن علي ماهر وراء الحملة على رئيس الوزارة وأنه يطمع أن يحل محل نسيم باشا، أما بعض موظفي دار المندوب السامي فإنهم متأثرون بكوين بويد ورسل وبعض الموظفين الإنجليز.

ـهبت ومعي مكرم إلى القصر الملكي وقيدنا إسمينا في سجل التشريفات مستفسرين عن صحة جلالة الملك وقد قابلنا سعيد ذو الفقار باشا كبير الأمناء وسألناه عن صحة الملك فأجاب إنه بخير وأنهم في انتظار وصول الطبيب الألماني لأنه هو الذي يعرف سير المرض فحملناه تمنياتنا بالشفاء لجلالته وانصرفنا.

على الرغم من اشتداد المرض على الملك كما فهمت من المتصلين بالسراي فإنهم أعلنوا أن اليوم عيد جلوس جلالته على العرش وقد أعد دفتراً لقيد المهنئين، وسمعنا من المقربين إلي الملك أن حالات كثيرة من الإغماء تعتريه وأن المندوب السامي يتصل يومياً بالقصر ويكثر من مقابلات المسؤلين وأن مسألة الوصاية على العرش أثيرت من جديد.

اجتمعت بماهر والنقراشي تحدثنا عن الاستعداد للاحتفال بذكرى عيد الجهاد لأن الإنجليز يعلقون على هذا أهمية كبيرة، وقد اطلعتهما على تقرير أرسله إليّ قرياقص ميخائيل من لندن وفيه أن وزير خارجية بريطانيا الجديد يصرح بأنه لا داعي لإصدار الدستور الآن حتي تتبين حالة الملك الصحية ويطمئن الإنجليز على الأوصياء، وأن هناك فكرة تعيين قيم على الملك ليصرف الأمور إذا طالت حالة المرض وقد تكلم ماهر في حماسة وقال إن نسيم باشا يفكر بعقلية متخلفة وإنه يعالج الأمور كما لو كان يتسلى مع أن الظروف خطيرة ولا تحتمل التسويف، وقال النقراشي إنه علم من بعض المتصلين بالقصر أن الملك يخشى من إعادة الدستور، أن يكون وراءه عودة الوفد إلى الحكم مستقبلاً وتبدأ المنغصات والمضايقات، وقد حضر مكرم ونحن نتحدث فأكد أن المعلومات التي لديه من ناحية القصر تنفي هذه المزاعم وأن المتصلين اتصالاً وثيقًا بالملك يؤكدون أنه صرح لنسيم باشا أكثر من مرة بأنه لا يمانع في إمضاء وثيقة عودة الدستور، كما أكد مكرم أن الوزارة غير مطمئنة من ناحية الإنجليز، ولا من ناحية القصر.

قابلت حسن صبري بك فأكد لي ما قاله ريد، وزاد عليه أن الإنجليز يريدون تعديل الدستور قبل إصداره، وأن علي ماهر يلعب دوراً كبيراً من وراء الستار، ويصرح بأنه لو كان رئيساً للوزارة لحل المشاكل بأسرع ما يمكن، وقد قلت له إن نسيم باشا على رغم من تأنيه والسير البطيء فإنه مأمون الجانب وصادق النية وليس من طبيعته تدبير المقالب ولا اللف والدوران، وأني أعرف علي ماهر منذ كنا زملاء في الدراسة وفي القضاء وأعرف فيه التسرع والطفرة وعدم الدقة في الأعمال، ومع ذلك فأنا لا يهمني زيد أو عمرو، إنما المهم هو حقوق الأمة ودستورها وحياتها النيابية فلتأت على أي كان.

نشرت الصحف المحلية نقلاً عن وكالات الأنباء الخارجية أن مستر هور صرح رسمياً بأنه ضد عودة الدستور، وأنه يرى المصلحة في إرجائه الآن ثم عرّض بالمصريين وكفاءتهم في إدارة شئونهم واستحقاقهم للحرية والاستقلال.

استقبلت اليوم على التوالي فارس نمر، وأمين، وريد ثم حسن صبري وقد أخبروني جميعًا أن المندوب السامي صرح لهم بأنه مع استيائه من موقف وزارة الخارجية البريطانية 'لا أنه لم ييأس وأمله كبير في أن يتغلب على العواقب، وأن تقارير قدمت من الموظفين

البريطانيين المحليين بأن مظاهرات تدبر وأعمال تخريب ينوي المتظاهرون القيام بها، وهو يرجو أن أتدخل لمنع هذه الأشياء حتى لا تكون عقبة في طريق الحل الذي يريده، وقد أكدت لهم إني لست مسئولاً من الآن عما يحدث بل على الضد إني اتفق مع جماهير الشعب على الغضب والثورة ضد التصريح الاستعماري الغاشم الذي صرح به مستر هور دون تفكير في العواقب، ولا تقدير للآثار التي تترتب عليه، وإني مع تقديري للمجهودات التي يبذلها سير مايلز لامبسون، فإني لا أستطيع صد الجماهير، وهو يعلم أن الشعوب إذا غضبت فلا يمكن لأية قوة أن تمنعها أو تصدها، وما عليه إلا أن يعالج الموقف علاجًا حاسمًا قبل أن يتفاقم ويفلت الزمام.

كان الاحتفال بذكرى عيد الجهاد احتفالاً خطيرًا مهيبًا قويًا، ولقد ألقيت خطابي المعتاد وبعد أن ذكرت أحداث العالم التي مرت منذ الاحتفال بالسنة الماضية ثم عرجت على تصريح هور، فهاجمته هجومًا عنيفًا. وقلت إن كان الاستعماري (هور) يريد من تصريحه هذا تهديدنا فنحن لا نأبه بتهديده فلقد جاهدنا قرابة خمس سنين ضد الدستور المزيف وأنا على استعداد لأن نجاهد عشرات السنين حتى يعود إلينا دستورنا، ثم أخذتني الحمية فضربت المنضدة بيدي بقوة وقلت ولئن فنينا في سبيل هذا فعن موقفي لا أريم ولتفعل القوة بنا ما تشاء أفرادًا وجماعات، وختمت خطابي بالدعوة إلى الجهاد والعمل حتى يتحقق لنا الأمل. وضج السرادق بالهتافات المدوية والحماسة المتدفقة وظلوا يصفقون ويهتفون عدة دقائق، ثم وقف مكرم وألقى كلمة ثم توجه بالخطاب إلى السيدات اللاتي يجلسن في السرادق وإلى الحاضرين فقال: أيها المصري اغضب لكرامتك وثر للاعتداء على حقك وتمثل بقول الفارس العربي لنا الصدر دون العالمين أو القبر وأنت أيتها الأم اغضبي ثم اغضبي وإن لم تغضبي فليس من حقك أن تنجبي، واهتز السرادق وأصبح شعلة من الغضب والثورة وخرجوا في مظاهرة عارمة انضم فيها الألوف من الحاضرين وأخذوا يهتفون في غضب وحماسة بسقوط تصريح هور وسقوط انجلترا زعيمة الاستعمار، ولقد وصل المتظاهرون إلى شارع قصر العيني في أشد حالات الغضب والثورة، وبينما هم في مظاهرتهم وهتافاتهم إذ تعرض لهم البوليس المصري بأمر من الحكمدار الإنجليزي فأعمل فيهم عصيه وهراواته، ولما لم يجد ذلك نفعًا ورأى قوة المتظاهرين فوق قوته استعان بعدد كبير من جنود الاحتلال من قصر النيل وأخذوا يطلقون الرصاص على المتظاهرين محاولين فض المظاهرة ولكن هيهات وتسلح المتظاهرون بالحجارة يدافعون بها عن أنفسهم، ولكن الرصاص كان أقوى فسقط من شبابنا طلبة أبرياء من كلية الطب ومدرسة العلوم وجرح عدد كبير وحتى الفتيات أصبن برصاص الإنجليز.

كان اليوم الثاني لانعقاد المؤتمر ووقف توفيق دياب (صاحب جريدة الجهاد) يلقي كلمة الصحافة ورأي المختصين في إصلاحها وقال جملة لم تعجب أحمد ماهر فاعترضه وهو يتكلم، فأظهر توفيق غضبه من هذه المقاطعة فعد ماهر هذا العمل إهانة له فرفع عصاه على توفيق وضربه وهنا حصل هياج واضطراب ساد صفوف المؤتمر ولكننا استطعنا مع لجنة

تنظيم المؤتمر أن نعيد الهدوء.

يظهر أنه رغم حرصي على ألا يعلم الناس أن ثمة خلافًا بين مكرم وماهر والنقراشي فإن المجالس أخذت تتحدث عنه، وتخوض في تفاصيله، ويرجعون ذلك إلى أنه خلاف قديم وأنه لولا وجود رواسب هذا الخلاف ما اعتدى ماهر علي توفيق دياب، وأني مع استنكاري لما وقع وعدم موافقتي عليه بحال لم أشأ أن تتسع الهوة ويقع المحظور.

اجتمع الوفد وعرضت عليه أمر الحملة التي تشنها جريدة روز اليوسف والتي يتزعمها العقاد فرأى جميع الأعضاء، ماعدا ماهر والنقراشي، أن يصدر الوفد بيانًا بأن هذه الصحيفة لا تمثله ولا تنطق بلسانه وليس مسئولاً عما ينشر فيها وبارح ماهر والنقراشي الاجتماع وآثار الغضب ظاهرة على وجهيهما.

زارني نسيم باشا فجأة وعلى غير موعد وقال لي مبروك ياباشا، لقد سلم الإنجليز بمطلبك واضطروا إلى الموافقة على عودة الدستور بحذافيره دون تغيير أو تعديل وقد أعددت المراسيم الخاصة بذلك ووقعها الملك اليوم والحمد لله، فشددت على يد نسيم باشا وشكرته شكرًا حارًا على هذا الجهد العظيم الذي بذله وزملاؤه حتى وصلوا إلى هذه النتيجة السارة.

رددت الزيارة لنسيم باشا في داره مكررًا له شكري على توفيقه في إصدار الدستور وعلى وقوفه في صف الأمة حتى انتصرت إرادتها.

استقبلت المندوب السامي مساء في داري وقد رأيت علامات السرور بادية على وجهه بأن سياسته نجحت وتجنبت البلاد مأساة كان الموظفون المحليون يريدونها من اعتقال ونفي وإنزال الجيش البريطاني إلى الشوارع. ثم استطرد الحديث إلى أن انجلترا ترغب في عقد معاهدة صداقة وتحالف مع مصر، لأن الحالة العالمية خطيرة، ويجب أن نحاول إنهاء النزاع بين بلدينا. فرحبت بهذا وقلت لعلك تعلم أن هذه رغبتي من زمن طويل وأن مهمة الوفد الأصلية هي استخلاص حقوق البلاد واستقلالها، وأني على أتم استعداد لعقد معاهدة بيننا على أن تسلم بريطانيا بحقوقنا واستقلالنا ولا تتدخل في شئوننا، فقال لكني أريد - بناء على تعليمات وزارة الخارجية - أن تكون مصر بأحزابها ممثلة كلها في جبهة واحدة توقع على المعاهدة حتى نضمن عدم معارضة أحد لها، وأجبته أني لا أمانع من تأليف جبهة من جميع الأحزاب تشترك في التوقيع على المعاهدة أما الحكم فلا أقبل إلا أن تجرى انتخابات جديدة على أساس الدستور وتدخل المعركة جميع الأحزاب، ومن ينال الأغلبية يتولى الحكم طبقًا لنصوص الدستور، فقال إن الظروف العالمية لا تسمح الآن بمثل هذا الإجراء. فقلت له هذا رأيي الأخير، وانصرف على أن يفكر في الأمر.

التحقيق

(١)

كانت الصورة بالغة القتامة في نوفمبر ١٩٣٥ عندما تقدم الزاد الاجتماعي الجديد ممثلاً في الطلاب، لإعادة صياغة المعادلة السياسية الداخلية بشكل فريد.

وليس ثمة مبالغة فيما أطلقه د. ضياء الدين الريس ووصف به أحداث الطلاب ونتائجها بأنها (ثورة ١٩٣٥).

كانت جوانب الصورة القاتمة تنطق بأنه كل شيء فوق سطحها وأعماقها يكاد أن يكون منقسمًا على نفسه: ملك مريض بداء عضال، لكنه لم يفقد إيمانه الراسخ بأن القدر انتخبه لأداء مهام جليلة لم يفرغ منها بعد، وأن دوره مازال متصلاً، صالحًا لأن يملأ فراغ كل شيء، البرلمان الخاوي، والمعارضة المستكينة التي يستخف بها، والإنجليز الذين تزيدهم تطورات الحالة الدولية انكفاءًا على أنفسهم، بما يسمح لقبضتهم أن تزداد تمددًا وتحكمًا.

وكان الانقسام واضحًا بين حاجة ذلك كله إلى قوة وعافية وإرادة، ووجود بقايا خائرة لكل منها.

وكان الإنجليز - أيضًا - ودارهم في القاهرة - في حيرة وترصد وانقسام، فالصراع في الحبشة بأجوائه وانعكاساته والتي بدت وكأنها نذر حرب عالمية، تجعل أيديهم مشدودة إلى الجانب الآخر من إفريقيا، وأيديهم تقوم بالفعل بنقل وحدات أسطولهم من قاعدته البحرية في مالطا إلى الإسكندرية، بينما تترصد أذانهم النبض الداخلي في مصر، خصوصًا مع ملك يحتضر ويخشى من تداعيات موته.

ومعارضة تبدو هادئة، دون يقين بأن هدوءها قابل للاستمرار، لأنها تترقب عودة الدستور دون كلل أو استسلام، ومجتمع تزيده الأزمة الاقتصادية إنهاكًا فوق إنهاك، وتفرض على حركات الاحتجاج فيه أن تصطبغ - كما حدث مع الهبات العمالية خلال هذا العام تحديدًا - بطابع واضح من العنف.

بل، ولتأكيد معنى شمولية الانقسام، كان الوفد يقترب من لحظة انقسام جديد، تكاد أن تشرخ بنيانه، فبينما كان النحاس ومكرم يؤيدان وزارة نسيم، ويراهنان على أنها قادرة علي ولادة الدستور والبرلمان، دون ضغط أو عنف قد يسبب الإجهاض، كان أحمد ماهر والنقراشي يتلمسان في الموقف الدولي الضاغط على أعصاب بريطانيا، ما يمكن أن يعزز أي ضغط شعبي على تحقيق الأمل المنشود.

غم مقدمات الانقسام الواضحة في بنيان الوفد على هذا النحو، كان الوفد يبادر بإحداث شرخ عميق في حركة الطبقة العاملة - خلال محاولته لتأميم هذه الحركة لصالحه (وسوف نتوقف عند ذلك تفصيلاً...).

وعلى النقيض مما قاله وأكده النحاس في جميع مفردات مذكراته هذا العام من أن لامبسون كان مع إعادة الدستور وأن جناحًا في السفارة كان ضد ذلك، وأن المندوب البريطاني الطيب، كان يواجه مؤامرة بقية الإنجليز الأشرار ويحبطها، فإن لامبسون لم يكن لا مع عودة الدستور ولا مع عودة الوفد.

وإذا كان رفض عودة الدستور هو مقياس الحكم على الطيب والشرير، فقد كان لامبسون - دون شك - هو البطل، الشرير، ذلك أن رأيه الذي ضمنه تقاريره إلى لندن - أول أكتوبر - يقول إن نسيم "مرن للغاية ولديه الرغبة في التعاون"، وعندما اقترح نسيم في مقابلة مع السكرتير الشرقي أن يستقيل نظرًا لأن الوفد يطالب بعودة الدستور، وصف لامبسون سلوك الوفد بأنه: "أحط أنواع الابتزاز" والغريب أن نسيم باشا وافقه على ذلك، وأن لمبسون حفزه على الصمود ووعده بالعون والمساندة.

وعندما انهار نسيم بعد ثورة الطلاب وخشى من اتساعها وأخبر لمبسون أنه لا يستطيع البقاء في الحكم دون عودة الدستور، ووصفه لمبسون - في تقاريره - بـ "بالضعف والتذبذب"، لأنه لم يكن لا مع إعادة الدستور، ولا مع البحث عن صيغة لتسوية سياسية تبيح معاهدة في ذلك التوقيت، فإنه كما كتب: "... أي دستور يحتوي على مجلس منتخب انتخابًا عامًا سيترتب عليه بالضرورة عودة الوفد، إلا إذا تمت الانتخابات مرة أخرى، بطريقة صدقي..."

ولأنه - أيضًا - كانت هناك فكرة تحت الدراسة لوضع دستور جديد يكون وسطًا بين الدستورين (١٩٢٣ - ودستور صدقي ١٩٣٠) وكان ذلك ما أكده (هور) بتصريحه (في ٩ نوفمبر) وما أخبر به أمين عثمان ومحمد أحمد فرغلي قبل ذلك بشهور.

لقد بدأت الثورة من الجامعة (صباح الأربعاء ١٣ نوفمبر) فقد تجمع الطلاب بأعلامهم ثم زحفوا في مظاهرة كبيرة اتجه معظمها إلى كوبري الجلاء، ولما أرادوا اجتياز كوبري الاسماعيلية (التحرير) متجهين إلى الميدان، تعرض لهم البوليس، وأطلق عليهم الجنود الإنجليز النار (حيث كانوا يعسكرون مكان مبنى الجامعة العربية)، وتفرعوا بعد ذلك، بعضهم في اتجاه عابدين إلى القصر الملكي، وبعضهم في اتجاه دار المندوب السامي البريطاني، وأمام قصر عابدين - كما تقول حيثيات حكم محكمة عابدين - حدث مايلي:

".... اعترضتهم قوة من بلوك الخفر بقيادة اليوزباش عباس علي أفندي الذي حاول منعهم وتفريقهم فلم يتيسر له ذلك... إلى أن لجأ عباس أفندي إلى إطلاق ثلاث أعيرة نارية بقصد الإرهاب بأمر رئيسه مفتش البوليس، المستر نوبل ... وانقلب الأمر إلى مضاربة بين الفريقين استعمل فيها البوليس العصي الغليظة، كما استعمل بعضهم الأعيرة النارية ... وامتدت المضاربة في بعض الحالات إلى شارع حسن الأكبر..."

ولم يتوقف خروج الطلاب من جميع المدارس في جميع أنحاء مصر، ولم يتوقف الصدام أيضًا، وحسب ملاحظة د. ضياء الدين الريس فإن خروجهم تم صباحًا، وقبل أن

يلقي النحاس خطابه خلال احتفال الوفد في المساء، أي أن الخطبة لم تكن هي التي دفعت الطلاب إلى الثورة.

وفي صباح اليوم التالي تكررت المظاهرات في الجامعة، وعند خروج الطلاب ثم اجتيازهم كوبري عباس، فوجدوا في انتظارهم قوة من الكونستبلات الإنجليز، فقد كان (كين بويد) قد أعطى تعليمات بمعالجة المظاهرات بإطلاق الرصاص.

(كان قد قابل رئيس الوزراء ونقل إليه طلبات انجليزية ملزمة تنص على: استخدام النائب العام للشدة المطلقة مع المقبوض عليهم من الطلاب - تعليق اتحادات الطلبة ونوادي التجارة والزراعة والهندسة - تهديد الطلاب بالفصل إذا استمروا في التظاهر - فرض حظر نشر شامل على أخبار المظاهرات.)

وعند كوبري عباس استشهد طالبان، لم تتوقف المظاهرات واستمر سقوط الشهداء، وقررت الطوائف المختلفة إعلان الإضراب العام (٢١ نوفمبر) ونشرت الصحف احتجاجات من جميع فئات الشعب (أساتذة الجامعات - الأطباء - المستشارون والقضاة.. إلخ) ثم أعلنت كل الأحزاب نفسها جبهة متحدة بعد أن دعت اللجنة التنفيذية للطلبة جميع الأحزاب والهيئات إلى توحيد قواها في مواجهة الإنجليز ونبذ خلافاتها الحزبية - وصاغ ممثلوها إعلانًا قدموه للملك، طالبوا فيه بالعودة إلى الدستور، وإلى تسوية مع بريطانيا وفق محادثات النحاس-هندرسن عام ١٩٣٠ .

ولم يكن ثمة بديل أمام الإنجليز سوى التسليم بعودة الدستور، تحت ضغط القوة الشعبية العارمة، وكما يصف حسين هيكل جانبًا من الصورة بقوله:
"اكتظت المستشفيات بالجرحى، وازداد الصياح شدة فحطم المتظاهرون مركبات الترام والأتوبيس، ومصابيح الإنارة في الشوارع، وبذلك تعطلت وسائل النقل والإنارة وباتت القاهرة في أحياء كثيرة في ظلام دامس..."

وهكذا تحت جنح الظلام أبلغ لامبسون رئيس الوزراء تليفونيًا أن الحكومة البريطانية "لا تعارض في أن يعيد نسيم باشا دستور ١٩٢٣ بلا قيد أو شرط، وأنه في هذه الحالة لا داعي لإقالة الحكومة..."

(٢)

بدأت الأزمة مع العقاد للهجوم على وزارة توفيق نسيم الذي كان الوفد قد صاغ موقفًا مهادنًا لها، على اعتبار أنها وزارة انتقالية.

كان رأي العقاد أن الوزارة غير صادقة في أداء تلك المهمة الانتقالية بأنها مجرد امتداد بأسلوب آخر لوزارة صدقي باشا، وهو ما ثبت بالفعل على نحو عملي بعد ذلك.

وفق رواية طاهر الطناحي تلميذ العقاد وصديقه، فإن المشهد التالي هو الذي حدث في لقاء بين النحاس والعقاد، عندما أخذ العقاد يهاجم وزارة نسيم:

"استدعى النحاس باشا الأستاذ العقاد لمقابلته بالإسكندرية، فسافر الأستاذ العقاد إلى الإسكندرية وأنا في صحبته وجلست معه في القطار وأنا صامت طوال الوقت، فلما وصل الإسكندرية توجه مباشرة لمقابلة النحاس باشا وحدثت بينهما مناقشة حادة:

قال النحاس: لماذا تحمل على الوزارة يأستاذ عقاد...؟

العقاد: لأنها انحرفت عن الطريق السوي وهي تماطل في إعادة الدستور، وتعمل لصالح السراي والإنجليز، ووزير معارفها نجيب الهلالي يضطهد الوطنيين.

النحاس: ولكن الوفد يؤيد هذه الوزارة وعند توليته الحكم يصلح كل شيء.

العقاد: أنا لا أستطيع أن أغض الطرف عن أعمال الوزارة، وأن أقف موقف الإغضاء عن مساوئها، وهي تنكشف يومًا بعد يوم.

النحاس: أنا زعيم الأمة فما عساك أن تصنع ياعباس ياعقاد...

العقاد: أنت زعيم الأمة لأن هؤلاء انتخبوك (مشيرًا إليّ بصفة أشخاص من أعضاء الوفد) ولكنني كاتب الشرق بالحق الإلهي.

النحاس: إن وزارة توفيق نسيم باقية مادام الوفد يؤيدها ويضع ثقته فيها.

العقاد: لن تنتهي برية هذا القلم إلا وقد انتهى أجل هذه الوزارة (وأخرج قلمًا من جيبه)."

ويضيف الطناحي: "وانصرف العقاد والحاضرون يتشبثون به حتى يزيلوا ما بينه وبين النحاس، ولكن العقاد أصر على الانصراف وكانت أول كلمة سمعتها منه بعد هذه المقابلة (لسنا مع الوفد اليوم)."

ويروي مكرم عبيد المقابلة على نحو آخر ... يقول:
".... ولما اشتدت حملة العقاد البذيئة على وزير المعارف أحمد نجيب الهلالي لفت دولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس نظر العقاد إلى ما كتب قائلاً: إنه يحب الانتقاد، ولكنه يكره التحامل" فما كان من عباس العقاد إلا أن أجاب متعاظمًا أنه كاتب الشرق، فرد عليه الرئيس متواضعًا "وأنا يسرني أن أكون رئيسًا على كاتب الشرق.."

ويفسر مكرم عبيد الأزمة كلها تفسيرًا شخصيًا على أساس أن سبب هجوم العقاد على توفيق نسيم وأحمد نجيب الهلالي هو نقل وزير المعارف لصديقين له إلى الصعيد وهما: طاهر الطناحي وعبد الرحمن صدقي.

وقد اشترط عودتهما إلى مصر لإيقاف الحملة، وفي أكتوبر من نفس العام - بعد قرار الوفد بفصل روزا اليوسف. كتب العقاد مهاجمًا الوفد والنحاس بشكل مباشر:
".... وسيرى القراء غدًا ما هي تلك الخرافة التي يسمونها صلابة مصطفى النحاس قبل وزارة توفيق نسيم فسيعلمون أنه ما وقف موقف الصلابة إلا عن اضطرار لا فضل فيه، وما اتسع له باب الاستسلام مرة إلا وذهب فيه إلى أبعد مراميه..."

واستمرت حملته واشتعلت بمرور الوقت، حتى أنه كتب عام ١٩٤٤ يقول:
" إن النحاس يتكلم منذ ثلاثين سنة ولا يقول كلمة واحدة يهتز لها الشعور ويتناقلها السامعون، كل خطبة من التفاهة بحيث تخلو من الشعور كما تخلو من التفكير ومن حسن التعبير، فهي كمحضر الجرد، أو سجل التركات أو حجج البيوت، تفيض بالأرقام والتواريخ والعناوين ولا تحتوي شيئًا غير ذلك يستعيده الذهن، أو يتملاه الخاطر، أو يتحرك له الضمير...."

أما مكرم عبيد الذي رد على العقاد في جريدة كوكب الشرق «بمقال عن حقيقة الكاتب وما كتب» فقد سلقه بنقد حاد وصل إلى اتهام العقاد بالكفر والإلحاد...!

(٣)

حدث الصدام بين الوفد وفاطمة اليوسف بسبب إصرارها على مواصلة الهجوم على وزارة نسيم، والغريب أن دار المندوب السامي كانت تتوجس شرًا من أن يغذي هذا الهجوم رفض الأحزاب للوزارة، وأن يقوي من الجناح الرافض لها داخل حزب الوفد، والذي تزعمه ماهر والنقراشي، حد أن دار المندوب السامي أرسلت تاجرًا وصحفيًا إلى فاطمة اليوسف ليحاولان رشوتها حتى توقف الحملة... "بدأ التاجر يعاتبني على الحملات التي تشنها روز اليوسف على الوزارة، ويؤكد لي أنه لا يوجد مبرر لأن أنفرد بهذه الحملات دون سائر الصحف، ثم قال لي ببساطة إن دار المندوب السامي البريطاني تعرض أن تدفع لي خمسة آلاف جنيه دفعة أولى ثم ألفي جنيه شهريًا لمدة طويلة إذا أوقفت الحملة نهائيًا على الوزارة..."

تكمل فاطمة اليوسف الرواية ولكن من خلال لقاء مباشر مع النحاس شخصيًا:
"... استدعاني مصطفى النحاس لمقابلته وذهبت إليه في بيت الأمة وكان يجلس على مكتب سعد زغلول وقد وضع في عروة جاكتته وردة حمراء يانعة - وكان قد تزوج حديثًا - فلم يكد يرّاني حتى لوح بالمجلة في يده وصاح في وجهي:

- إيه القرف اللي انتو كاتبينه ده؟

ودهشت لهذه المفاجأة، فوقفت ذاهلة للحظة ثم قلت:

* فيه إيه ياباشا؟

فصاح:

- انتي بتعارضي وزارة توفيق نسيم ليه؟

* وزارة توفيق نسيم جابها الإنجليز والسراي وهي التى تؤجل عودة الدستور.

فقاطعني قائلاً:

- لا ياستي أنا محبش تناقشيني في السياسة، إنتي عايزه محمد محمود وصدقي يرجعوا... إحنا تعبنا...!

(وخرجت قبل أن يتم حديثه وكلمة إحنا تعبنا التي أسمعها منه لأول مرة، ترن في أذني)."

وفي طريق عودة النحاس من الإسكندرية، تجمعت الجماهير كالعادة لتحيته وفي طنطا وقف في نافذة القطار ليخطب في الجماهير ورأى أحد المستقبلين يحمل المجلة فصاح فيه:
"إرم هذا الغلاف القذر..." فكانت تلك أول إشارة إلى فصل روزا، لأنها كما قال بيان الوفد بعد ذلك:
"اجترأت على نشر مقالات تتضمن الطعن على الوفد ومكانته من الأمة."

لقد فسر مكرم عبيد موقف فاطمة اليوسف وإصرارها على مهاجمة وزارة نسيم، بأنه استجابة لرأي أحمد ماهر والنقراشي.

وإن كانت السيدة تتهم الإثنين بأنهما أخفيا تأييدهما لها كغيرهم من الوفديين بعد أن كانا يجاهران به، وقد فضلوا جميعًا السكوت والانتظار حتى نهاية المعركة.

ولذلك يرى د. مصطفى الفقي "أن عبيد كان وراء طرد عباس العقاد من الوفد، وأنه كرر نفس الأسلوب مع فاطمة اليوسف، منتهزًا فرصة هجومها على حكومة نسيم...."

وأعلن الوفد الحرب على فاطمة اليوسف. ... "فلم تكن تمضي أيام إلا ويرسل الوفد مظاهرة من جماهيره يهتفون ضد الجريدة ويقذفونها بالأحجار تحت سمع الحكومة وبصرها، بل وتشجيعها .. وكثيرًا ما تعرضت حياتنا للخطر حتى اضطررنا إلى استئجار عدد من الرجال الصعايدة الأشداء يتولون الدفاع عن إدارة الجريدة..."

(٤)

ثمة إشارة مسبقة إلى اندفاع الوفد لمحاولة تأميم الحركة العمالية ولقد كان لهذه المحاولة أفدح الآثار – بالفعل – ليس فقط على فقدان الحركة العمالية الاحتجاجية لوحدة تنظيماتها النقابية، وإنما بالتالي على إضعاف موقفها، سواء على صعيد مشاركتها وانصهارها في الحركة الوطنية – مثلما تبدّي عجزها عن المشاركة في ثورة الشباب في نوفمبر ١٩٣٥ – أو على صعيد تحركها لمواجهة آثار الأزمة الاقتصادية عليها، ومحاولة الحكومة تحميلها بأغلب آثار ونتائج هذه الأزمة.

لقد تمت الإشارة أيضًا، إلى أن عباس حليم قد برهن للوفد على أنه واقف في معسكره، سواء في مواجهة الملك أو في مواجهة وزارة عبد الفتاح يحيي، وقد قيل بعد ذلك أن فكرة تشكيل «مجلس أعلى للعمال» برئاسته يتكون من ثمانية مندوبين عن حزب الوفد وثمانية عمال عن الاتحاد العام لنقابات عمال مصر، هي فكرة وفدية، لكن الوفد سرعان ما خطط لتأميم المجلس كله وتحويله إلى تنظيم وفدي خالص، فأخذت عناصره في عزل ممثلي العمال الموالين لعباس حليم بكل الطرق الممكنة مما دفع عباس حليم إلى أن يصدر بيانًا جاء فيه: ".... أدهشني في الأيام الأخيرة نشاط غير مألوف من أفراد معروف عنهم أنهم

يمتون بصلة إلى الوفد المصري، وقد تمادى هذا النشاط حتى أصبح اعتداءًا على حركة العمال البذيئة .... وأن هذا مالم أكن أحسبه ولا أتصوره ممن يدعون الوطنية والرغبة الصادقة في خدمة البلاد التي تتكون أغلبيتها من العمال....“

ورد الوفد ببيان مضاد على لسان أحمد ماهر يدعي أن الوفد هو الذي عين عباس حليم، وله أن يستقيل ليعين غيره، وأن دولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس رأى من مدة في تصريحات حليم وتصرفاته مالم يتفق والمهمة الموكلة إليه، وقد اتضح وجود تيارات خفية تعمل في حظيرة الاتحاد على إفساد الجو وسط العمال، ومحاولة دفعهم في إتجاه سياسي ضار...“وكان ذلك بمثابة بلاغ جديد إلى سلطات الأمن الإنجليزية بالتدخل من أجل تنقية الجو وسط العمال من هذا الاتجاه السياسي الضار، وأعقب ذلك قرار وفدي بعزل عباس حليم وتعيين حمدي سيف النصر بدلاً عنه، حيث انفجرت الحرب بين الطرفين، حتى وصلت إلى اعتداءات ومعارك دامية في الشوارع، وعلى أبواب النقابات وداخلها وانهارت وحدة الحركة النقابية العمالية، وأصبح الشرخ انقساماً لم يقدر له أن يلتئم“!

١٩٣٦

المذكـــــرات

(١)

زارني يعقوب صروف ومعه مستر سمارت سكرتير دار المندوب السامي وأعاد الحديث في مسألة الأوصياء على العرش وقال سمارت أن إنجلترا يهمها كثيرًا أن تعرف أسماء الأوصياء و يهمها على الخصوص أن يكون الأمير محمد علي من بينهم وأن المندوب السامي تحدث مع الملك أخيرًا وأنه (أي الملك) وافقه على كل ما يريد، وأن السير مايلز لامبسون يحب أن يعرف رأيي في هذا الموضوع فكررت له ما سبق أن قلته للمندوب السامي شخصيًا ولغيره من أن هذه المسألة من اختصاص البرلمان وأني لا أنا ولا الوفد ولا الهيئة نملك أن نبدي فيها رأيًا وإلا خالفنا نص الدستور الذي سعينا لعودته، ثم قلت لسمارت أنتم تشغلون أنفسكم بمسألة كهذه أكثر من اللازم وأن الوصية أيا كانت وكان ما فيها من أسماء عرضة للتغيير والتبديل طبقًا لرغبة الأمة فلا تتعجلوا الحوادث ولننتظر حتى نرى ماذا يكون.

تأكد لي أن النقراشي هو الذي نقل إلى الملك فؤاد ما دار في مجلس الوزارة الوفدية ١٩٣٠ خاصًا بمفاوضات النحاس-هندرسون وإن النحاس وحده هو الذي يتمسك بالسودان دون زملائه (وسبق أن جاء في هذه المذكرات تفصيل هذه المسألة واتهام محمد نجيب الغرابلي باشا بها) ولقد نقل إلي الذين كانوا في زيارة للنقراشي أمس أنه لما جاء ذكر هذه المسألة اعترف بأنه هو الذي أبلغ الملك فؤاد وأنه علق على هذا بقوله وماذا في هذا أليس من حق ملك البلاد أن يعرف ما يجري في مجلس وزرائه.

ولقد أسفت كل الأسف لا لأننا ظلمنا الغرابلي باشا فقط ولكن لأن النقراشي ينحدر إلى هذا المستوى وهو الذي نعتبره في الوفد من أشد المتطرفين ضد السراي وضد الإنجليز، ولكني كتمت هذا الأمر في نفسي ولم أبح به لأحد حتى لا تتسع الهوة ويظهر انشقاق في صفوفنا ونحن مقدمون على أحداث خطيرة تستلزم رأب الصدع وجمع الكلمة.

قصدت بيت الأمة وصعدت إلى الطابق العلوي لمقابلة أم المصريين كطلبها وبعد السلام والتهنئة بعودة الدستور قالت لي أنتم كلكم أولاد سعد ولا أحب أن يكون بينكم خلاف ولا أن يشكو أحد من أحد ومن أجل خاطري لا تغضب النقراشي فأجبتها متعجبًا ليس بيني وبين النقراشي شيء، وهم كلهم عندي سواء، وأنا الذي كان من حقه أن يشكو النقراشي لعصمتك ولكني أتغاضى عن حدته كثيرًا كما يتغاضى مكرم عن الإصطدامات التي تقع بينه وبين النقراشي، وهل يرضيك ما فعله ماهر بتوفيق دياب واعتداؤه عليه أثناء إلقا كلمته في المؤتمر الوفدي وانتصار النقراشي له فأجابت أنا لا أعرف هذا الموضو فشرحت لها الحكاية من أولها إلى آخرها وسألت مرة أخرى هل يرضيك هذا؟ قالت لا وأ سأكلم محمود (تعني النقراشي) في هذا.

قصصت على مكرم وبعض أعضاء الوفد ما دار بيني وبين أم المصريين فاندهشوا وقالوا إن النقراشي ينتهز فرصة أنه اقترن بقريبة لأم المصريين ويريد أن يستغل هذه العلاقة ليستعدي هذه السيدة الكبيرة على زملائه، إن هذا تصرف لا يليق، فقلت لهم يجب أن نتكتم هذه المسألة حتى لا تتسع وتحدث فجوة في الوفد نحن في غنى عنها خصوصاً في هذه الأيام.

بدأ الأطباء المعالجون للملك ومعهم الطبيب الألماني يذيعون نشرة طبية عن حالة الملك يومياً فمرة نقرأ أن حالته تحسنت وأخري أنه لم يطرأ عليها جديد، وثالثة أنه يعالج علاجاً مضاعفاً حتى لا تتدهور حالته، وأصبحت صحته حديث المجالس وقد قال بعض الأطباء الخبيرين بمثل مرض الملك إنه لا يحتمل أن يشفى، وقد يطول المرض كثيراً ولكن الشفاء بعيد المنال.

تجدد الحديث عن قرب استقالة نسيم باشا، وتولي علي ماهر رياسة الوزارة، وقد قال كريم ثابت إن الإنجليز لا يمانعون في تولي علي ماهر بعد أن اتصل بهم، وأكد لهم أنه على أتم الاستعداد للتفاهم مع الوفد على تأليف الجبهة الوطنية، وتحديد الانتخاب وموعد اجتماع مجلس النواب وسواء بقى الملك أو توفي فإن هذا لن يؤثر في برنامجه، ولن يغير من خطته، ونقل إلي بعض المتصلين بالإنجليز أنهم ضاقوا بموقف نسيم الحاسم من عودة الدستور، وتصميمه على عدم التغيير وأنهم اضطروا تحت ضغط الظروف الدولية المضطربة أن يوافقوا على طلبات الحكومة، ولكنهم الآن بدأوا يضعون العراقيل في طريقها، ويطلبون طلبات غير معقولة بغية التخلص من نسيم والإتيان بوزارة يستطيعون أن يتفاهموا معها، وأن علي ماهر على اتصال دائم بهم، وعلى استعداد تام لتنفيذ خطتهم بالسرعة التي يريدونها، ورأي نسيم أنه أدى مهمته، وأنقذ عرش فؤاد الذي يحبه ويخلص له. وأنه يفكر جدياً في الاستقالة من منصبه.

اتصلت بنسيم باشا وحدثته عن الشائعات التي تدور حول استقالته فصرح بأنه ضاق من ألاعيب الإنجليز ودسائس موظفي القصر وأن صحة الملك لا تسمح له بأن يحسم الموقف حسماً تاماً كما كان يفعل من قبل، وأنه يشعر بأنه أدى مهمته على الوجه المرضي، وأن على ماهر يسعي جاهداً لكي يتولى الوزارة فلنترك له الميدان يصول فيه ويجول فلعله يوفق فيما لم نوفق فيه، فرجوته ألا يتسرع في تقديم استقالته حتى يتبلور الموقف وحتى نرى ماذا يكون.

قابلت عدداً من أعضاء الهيئة الوفدية وقد تحدثوا معي عن الشائعات التي تملأ الجو بأن النقراشي يدعو بعض الهيئة الوفدية وزملائهم يتحدثون علانية في مجالسهم ويطعنون في مكرم، ويتهمون النحاس باشا بأنه متحيز لجبهة مكرم، وأنه يشيد بمواقف نسيم باشا في كل مجالسه ومقابلاته مع أن نسيم لم يصنع شيئاً، وهو رجل ضعيف وآلة مسخرة في يد الملك، وقد شرحت لهم الموقف والعقبات التي صادفتها الوزارة حتى إصدار الستور

والدسائس التي حيكت حولها، وقلت لهم هذا موقف نسيم باشا من قضية الدستور فهل يعد تقصيراً وضعفاً أو أنه كما قال عنه المغفور له سعد باشا يستحق تقدير الوطن أما ما يتعلق بطعن بعض أعضاء الهيئة الوفدية في مكرم فليس بالأمر الجديد، ولكنه منذ مدة وقد كنت أكتمه على إخواني حتى لا تحدث ثغرة في الوفد وأما التعريض بي، وبأنني أقف في صف مكرم فإني كقاضي لابد أن أنصر المعتدى عليه، وهم يطلقون ألسنتهم في مكرم بالباطل ولست أقبل هذا مطلقاً، ولكني مع كل ذلك أداري الأمور وأعالجها بالحسنى حتى لا تتسع فتضر بمصلحة البلاد، وقضيتها الكبرى خصوصاً ونحن مقدمون على عهد جديد، وكل ما أريده منكم الا تنشروا شيئاً عن الخلاف بل على الضد تحاولون نفيه وتذيعون أن الوفد كتلة واحدة وأن ما بين مكرم والنقراشي ما هو إلا تنافس على خدمة البلاد والإخلاص لقضيتها.

صدرت نشرة طبية عن صحة الملك تفيد بأنه في طريق التحسن، وأنه قضى ليلة هادئة وأنجز الأعمال التي عرضت عليه ووقع بعض المراسيم الهامة.

أذاع بعض المتصلين بالقصر أن الفريق عزيز المصري باشا الذي يرافق ولي العهد في لندرا قد بعث بتقرير إلى الملك بأن (فاروق) يعصى أوامره ولا ينفذ تعليماته، ويتبع أحمد حسنين لأنه يصحبه إلى أمكنة اللهو ومسارح التمثيل وأن عزيز المصري غير موافق على هذه التصرفات وقد كتم أمر هذا التقرير على الملك خشية أن يؤثر علمه به على حالته الصحية وأن الملكة نازلي بعثت إلى عزيز المصري تطلب إليه ألا يشتد على ولدها وأن يكون رفيقاً به، وأن هذا أغضب عزيز كثيراً وهدد بالعودة إلى مصر وترك فاروق لأحمد حسنين يعلمه الطراوة والرخاوة ويبعد به عن التربية العسكرية التي أرادها أبوه له.

تعمدت أن أمر على منزل النقراشي وأصحبه معي إلي بيت الأمة والنادي السعدي حتى أشعر الجميع بأنه لا خلاف في صفوف الوفد وأنهم جميعاً لدى سواء كما مررنا على أحمد ماهر وصحبناه معنا ورآنا المجتمعون في بيت الأمة وقابلنا السيدة أم المصريين فأظهرت سرورها وقالت للنقراشي يامحمود يابني إن دولة الباشا يقدرك ويحبك وإن مكرم إبني كما أنك ابني وكلكم أبنائي وأريد أن ترضوا روح سعد بوحدتكم والتفافكم حول مبادئه وخليفته وقد شكرتها على هذه النصيحة الغالية وقلت لها إن ما بين مكرم والنقراشي لا يتعدى أن يكون خلافاً بين شقيقين متحابين اختلفا في الرأي لكن أباهما سعد وأمهما أم المصريين وإن شاء الله لن تسمعي إلا كل خير.

اتصل بي الأمير محمد علي، وقال لي بلغني ياباشا إنك تعارض في تعييني رئيساً لمجلس الأوصياء على فاروق في حالة وفاة الملك فأجبته إن هذا غير صحيح وأنني لم أعارض في سموك ولا في غيرك لأني إلى الآن لم أعلم ماذا كتب الملك في وصيته وكل ما قلته إن البرلمان هو الذي يبت في هذا الأمر عندما يعرض عليه، فقال أنت البرلمان، وهل يستطيع النواب أن يخالفوك فقلت له ياسمو الأمير إن النواب أحرار في إبداء رأيهم وأنا

لست دكتاتوراً حتى أستأثر بالأمر وحدي فإن معي زملاء أعضاء الوفد وزملاء أعضاء في الهيئة الوفدية، ولابد أن يضم مجلس النواب القادم أعضاء ليسوا من الوفد ولا من الهيئة الوفدية بل هم من الأحزاب الأخرى وأن هذه مسألة كما قلت لسموكم من اختصاص البرلمان وحده وأحب أن أطمئنكم أننا لن نعارض في اختياركم إذا رشحت أو كان الملك دون اسمك بين الأوصياء ومع ذلك لنترك هذه المسألة حتى يحين وقتها والله يلهمنا الصواب.

لوحظ نشاط غير مألوف في دار المندوب السامي، وقد قيل إن سبب هذا هو انحطاط صحة الملك وأن السير مايلز لامبسون يريد أن يتأكد من أن الخطة التي رسمها ستنفذ بحذافيرها وأن علي ماهر قد تفاهم معه على الخطوط الرئيسية لسياسته بل وأطلعه على البرنامج الذي سيسير عليه في حالة توليه رياسة الوزارة

طلب عبد الرحمن عزام بك مقابلتي لأمر هام فوافقت على أن استقبله أمس فأخبرني أنه موفد من قبل علي ماهر باشا وأنه يريد مقابلتي مقابلة خاصة لا يعلن عنها في الصحف ولا يعلم أحد لأنه قد فرغ من وضع سياسته المستقبلية، ويريد أن يعرضها علي فأجبته بأنه لا مانع عندي من استقباله ولكن لماذا يتكتم الخبر؟ قال هو حريص على ألا يظهر على المسرح السياسي إلا بعد أن يتم عمله كله.

زارني علي ماهر في المساء وقد قال لي إن بعض ر جال المندوب السامي يعارضون في إجراء انتخابات لمجلس النواب الجديد خشية أن تقع اضطرابات، ولكنه أقنعهم بأنه لن تكون المعركة الانتخابية حادة لأنه سيتصل بجميع الأحزاب وسيتفق معهم على توزيع الدوائر وهو يسأل هل أوافق على هذا الرأي وأن أترك للأحزاب الأخرى دوائر لمرشحيها فأجبته بأن لا مانع من توزيع الدوائر كل حزب بحسب عدده ومنزلته، ثم تحدث معي في تأليف الجبهة الوطنية التي ستتولى المفاوضات مع الجانب الإنجليزي فوافقت على أن تكون الأحزاب ممثلة فيها حتى حزب "لا مفاوضة إلا بعد الجلاء" (الحزب الوطني) وأظن أنه مفهوم أن أغلبية الجبهة الكبرى ستكون للوفد فقال هذا شيء لا نقاش فيه، ثم تحدث عن تقصير أمد الانتخابات، وأنه لا داعي في هذه الظروف لانتظار الشهرين اللذين نص عليهما الدستور لأن الظروف التي تجتازها البلاد ويجتازها العالم خطيرة فأجبته إن الدستور نص على هذه الظروف ونص على أنه من الممكن أن يقصر أمد الانتخابات واتفقنا على ذلك.

اتصلت بتوفيق نسيم باشا حتى لا يظن أنني أعمل من وراء ظهره فقال لي إنه لا يشك في صراحتي وصدقي، وأنه مطمئن إلى ما أفعله، وقد أخبرته أنه في حالة استقالة و زارته فإني سأعرض على الوفد ترشيح بعض الوزراء للبرلمان، وتعيين بعضهم في مجلس الشيوخ تقديراً لجهودهم وما بذلوه، فشكر لي هذه اللفتة وقال هذا تقدير كبير منك لي ولوزارتي ثم قال إنه ينتظر أن يمر عيد ٢٨ فبراير وأن يكون الملك في حالة تمكنه من مقابلته حتى يرفع إليه استقالته.

تتوالى النشرات الطبية عن صحة الملك فمرة تصدر نشرة بأن حالته كما هي لم يطرأ عليها تحسن ومرة أخرى تقول إنه قضى ليلة هادئة ونشرة ثالثة تؤكد أنه في طريق التحسن، ولقد صدرت أمس نشرة تقول إنه تناول طعاماً عادياً وقابل بعض الزوار وكان فيهم المندوب السامي وقد تحدثا طويلاً في الحالة الحاضرة

اتصل بي من لندن قرياقص ميخائيل وأكد أن وزارة الخارجية راغبة في عقد معاهدة سريعة مع مصر لأن التقارير السرية التي تصلها تؤكد أن الحرب آتية لاريب فيها، وأنهم يخشون أن يموت الملك قبل أن تستقر الأمور في مصر وتجد عقبات تمنع الاتفاق بين الدولتين فقلت إن البوادر تدل على أن المندوب السامي والسراي يعملون على حل هذه المسألة وقد تظهر آثارها قريباً جداً، والمطلوب منك ومن إخوانك المصريين ألا تكفوا عن الكتابة في الصحف الإنجليزية والتحدث في المجالس شارحين قضية مصر مؤكدين للانجليز أن الاتفاق والصداقة مع مصر أجدى عليهم من الخلاف معها خصوصاً في هذه الظروف الخطيرة التي يجتازها العالم كله.

أصدر الأطباء المعالجون للملك نشرة بأن صحته تحسنت قليلاً وتمكنه من مباشرة بعض الأعمال وقد اتصل بي نسيم باشا وقال إنه سينتهز هذه الفرصة ويقابل الملك ويرفع إليه استقالته في الأيام القليلة المقبلة.

زارني مراد محسن باشا وكيل الخاصة الملكية وأخبرني بأن الملك تحدث مع بعض زواره المقربين وقال لهم إن النحاس برهن على أنه رجل جد وصادق وليس له مطامع في أي شيء كما كانوا ينقلون إليّ وليتني كنت أدركت هذا في أوانه حتى كان يمكن أن نتفاهم ونقدم للبلد خدمة جليلة، وأن صحته لو كانت تساعده على أن يقابلك لطلبك وقال لك هذا صراحة، فشكرته وقلت إن كان قد فات الأوان من ناحية فؤاد فعسى ألا يفوت من ناحية من يخلفه، وأن يبصره من يلتفون حوله بهذا ورب ضارة نافعة.

اتصل بي المندوب السامي وألح في سرعة تأليف جبهة للمفاوضات المصرية الإنجليزية قبل أن تتفاقم الأحداث فأجبته إن هذا الأمر ليس في يدي، ولكنه في يد الملك فقال إن الوزارة استقالت وسيصدر مرسوم ملكي بتكليف علي ماهر بتأليف الوزارة فأرجو أن تتعاون معه حتى تنتهي المسألة بسرعة فوعدته بعرض الأمر على زملائي وتقرير ما نرى فيه المصلحة العامة.

أعلنت استقالة الوزارة النسيمية رسمياً، وتكليف علي ماهر باشا بتأليف الوزارة، وقد ضمنت الوزارةالجديدة برنامجها بأنها ستؤلف جبهة من جميع الأحزاب لتتولى مفاوضة بريطانيا في المسائل المعلقة حتى يمكنها عقد معاهدة صداقة وتحالف بين البلدين، وأنها إلى جانب ذلك ستجري انتخابات حرة تسفر عن مجلس نواب منتخب انتخاباً صحيحاً حتى تعود للبلاد طمأنينتها وهدوءها واستقرارها.

بدأت وزارة علي ماهر أعمالها وأعلنت أنها ستجري انتخابات خلال فترة قليلة من الزمن وقد تركت له بطاقة هنأته فيها هو وزملاءه الذين اختارهم لمعاونته، كما مررت على دار نسيم باشا وتركت له بطاقة زيارة.

زارني في المساء علي ماهر وتناقش معي في وجوب اختصار مدة الترشيح لمجلس النواب والاتفاق على ترك دوائر للأحزاب الأخرى، وأنه أعد العدة لكي يكون يوم الانتخابات قبل الموعد المحدد له في الدستور نظرًا للظروف الخطيرة التي يجتازها العالم وطلب إلي أن أنتهي من الاتفاق مع الأحزاب على عدد الدوائر التي ستترك لهم فوعدته بأن يجتمع الوفد في أقرب فرصة لإقرار هذا.

دعوت الوفد للاجتماع بعد أن اتصلت بمحمد محمود باشا وصدقي باشا وحلمي عيسى باشا واتفقنا على عدد الدوائر التي ستترك لهم وأمكنتها، وأقر الوفد هذا التقسيم وأعلنته الصحف.

أعلنت الوزارة أنها قصرت أمد الانتخابات وأن الدوائر رتبت ترتيبًا روعي فيه التقسيم الجغرافي وأن المعركة ستكون هادئة لأن الأحزاب عرفت دوائرها، وأن الانتخابات ستكون حرة تمامًا ولن يتدخل رجال الإدارة لصالح أي مرشح، وأن وزير الداخلية أصدر أمره للمديرين والمحافظين بأن يلزموا الحياد التام حتى تجيء النتيجة معبرة عن رأي الأمة أصدق تعبير.

لم يكد يبدأ اجتماع الوفد للنظر في ترشيحات مجلس النواب حتى فاجأنا النقراشي بمعركة عنيفة حين عرضت ترشيح أحمد نجيب الهلالي لدائرة المطرية دقهلية، وقال في ثورة: لا يمكن إن يرشح الهلالي أبدًا لأنه قاتل، سألته من قتل؟ فقال لقد قتل أمين لطفي، فأجبت إن أمين لطفي مات ميتة طبيعية ولم يطعن أو يصب برصاصة فقال في حدة لقد قتله إذ رفض أن يعينه وكيلاً لوزارة المعارف فاعتل الرجل غمًا ومات، فأجبت بأننا اتفقنا على ترشيح أعضاء وزارة نسيم باشا والهلالي واحد منهم، ولا يليق أن نسحب كلمتنا واحتدم النقاش بين الأعضاء وكان النقراشي يستفز مكرم بالذات ويتهمه بأنه وراء ترشيح الهلالي ماعدا النقراشي وامتنع أحمد ماهر عن إبداء الرأي، وخرج النقراشي إثر هذا القرار ساخطًا غاضبًا وصعد إلى الطابق العلوي حيث قابل أم المصريين وشكا لها، وبعد انتهاء الاجتماع طلبتني أم المصريين فصعدت إليها ومعي مكرم وقالت مظهرة الألم إن النقراشي يشكو من أنكم احتددتم عليه في المناقشة ووجهتم إليه ألفاظًا غير لائقة وأنا لا أحب لأبناء سعد هذا وسبق أن قلت لك ياباشا إنكم جميعًا أبنائي، فأجبتها وأنا أكظم غيظي ضربني وبكى وسبقني واشتكى، إن النقراشي هو الذي احتد على مكرم ووجه إليه كلمات غير لائقة ولما رأيت الأمر طال عرضت على الأعضاء أن يبدوا الرأي فوافقوا جميعًا ما عداه على ترشيح الهلالي نائبًا وامتنع أحمد ماهر عن إبداء الرأي وانتهت المسألة عند هذا الحد، وإني كثيرًا ما أرى من النقراشي تصرفات غير لائقة وأتجاوز عنها محافظة على

وحدة الصف، ولا يصح لرجل في مثل سن النقراشي وثقافته وماضيه أن يشكو إليك ويضايقك كل يوم بهذه الصغائر، وقال مكرم يادولة الهانم إن النقراشي عرّض بي أكثر من مرة وتحداني وأغرى بي العقاد وصحيفة روز اليوسف ليحملوا علي حملات مكذوبة مغرضة وأنا أسكت على هذا كله وأراعي دائمًا أننا أبناؤك وأبناء سعد، ويظهر أن النقراشي يستغل عطفك عليه في السنين الأخيرة نظرًا لصلة النسب التي تربط بينكما ويدخل المسائل العامة في المسائل الخاصة وهذا لا يليق ولا أظنك وأنت أمنا جميعًا وشريكة سعد في الجهاد وتعرفين أكثر من غيرك منزلتنا من سعد تقبلين أن توجه لي كل يوم إهانات واتهامات، وأن يحاول النقراشي إحداث ثغرة في الوفد لم يستطع الإنجليز بأسطولهم ولا القصر الملكي بماله وسلطانه أن يحدثها، ونحن لم ننل ما نلناه من ثقة المواطنين والتفاف الشعب حول مبادئ سعد إلا بوحدتنا واجتماعنا، فقالت أم المصريين موجهة الخطاب إليّ ياباشا حاول أن ترضي النقراشي فأنت تعلم أنه عزيز علي وكلهم أبنائي فقلت لها إني أحاول بقدر المستطاع وإن شاء الله لن يحصل إلا كل خير.

صدرت النشرة الطبية عن حالة الملك الصحية تنبيء بأنها تسوء وأنه مضطرب وقد حركت هذه النشرة دار المندوب السامي من جديد تحاول أن تعرف الأوصياء المرشحون على ولي العهد في حالة موت الملك، وقد اتصل علي ماهر باشا والسير مايلز لامبسون في هذا الخصوص فأبديت لهما ما سبق أن قلت وزدت عليه أنه إذا أمكن فتح الوصية قبل وفاة الملك ومعرفة أسماء من يريدهم أو استطاع ماهر باشا أن يتحدث معه (أي الملك) في هذا الخصوص سهلت المهمة وأمكننا أن نبت في هذا الأمر، أما الشائعات التي تردد من آن لآخر فهي كلها مختلفة، فمرة نسمع أن الأوصياء كانوا عبد الرحيم صبري باشا والد الملكة نازلي ومحمود فخري زوج الأميرة فوقية بنت الملك وتوفيق نسيم باشا، إن الملكة ومن حول الملك في القصر يعارضون في اسم نسيم باشا، وكذلك في محمود فخري وهكذا، ثم عقبت على هذا بأن قلت للمندوب السامي إن البرلمان قد أوشك على الانعقاد وإن هذه المسألة ستكون من أولى المسائل التي ينظرها فلا داعي للعجلة خصوصًا وأن الملك لا يزال على قيد الحياة لم يمت بعد.

قال علي ماهر إن الملكة لا تريد أن يكون أخوها حسين باشا ولا محمود فخري في مجلس الوصاية وإن هذه رغبتها، وقد كلفتني أن أنقل إليك هذا الخبر فوعدته بأنه عندما تحين الساعة الحاسمة سنراعي كل هذه الرغبات بقدر المستطاع في حدود ما نص عليه الدستور وما لمجلس النواب من حق.

بدأ أول اجتماع للجنة الوطنية في منزلي وقد حضر الأعضاء جميعًا وبعد أن رحبت بهم وضعنا الخطوط الرئيسية للمفاوضات وأعددنا جدولاً للمسائل التي تعرض، على أن نبدأ بالمسائل المتفق عليها حتى لا تصطدم المفاوضات لأول مرة.

عند انتهاء الاجتماع خرجت أودع الأعضاء إلى باب الدار وقد شاهدني بعض الزائرين

وأنا أودع صدقي باشا حتى ركب سيارته فابتسموا وتقدم إليّ واحد منهم وقال أليس من سخرية القدر أن تودع إلى باب الدار رجلاً دبر قتلك أكثر من مرة وأساء إليك وإلى أغلبية الأمة أكبر إساءة بل ومنع سعد من أن يدفن في القبر الذي أعد له وفضل عليه مومياوات قدماء المصريين فابتسمت وقلت له يرحم الله سعدًا لقد قال: إن الوطن غفور رحيم وأنا أقول من أجل مصلحة البلاد تهون كل التضحيات وتنسى جميع الإساءات.

(٢)

اجتمع الوفدان المصري والإنجليزي وبدأنا المفاوضات بكلمات من رئيس الوفدين المصري والبريطاني وقد نظمنا في الجلسة الأولى كيفية العمل وشكلنا لجانًا لكل موضوع لجنة على أن تجتمع اجتماعات فرعية وتقدم لنا تقاريرها إلى الهيئة العامة للنظر فيها.

عند اجتماع وفدي المفاوضات قررنا أن مصر وبريطانيا العظمى اتفقتا على عقد معاهدة صداقة وتحالف بين الطرفين على أن تسحب إنجلترا جيوشها من القاهرة والاسكندرية والإسماعيلية وتخلي جميع المعسكرات التي يعسكر فيها جنود بريطانيون ثم بدأنا نتحدث في المسائل الأربع التي احتفظت بها إنجلترا في تصريح ٢٨ فبراير فاتفقنا أولاً على أن تنتهي خدمات الموظفين البريطانيين من جميع المصالح المصرية وأن يحل محلهم موظفون مصريون وأما المستشار القضائي فتنتهي مهمته حين تلغى الامتيازات الأجنبية وكذلك مهمة المستشار المالي، فقد تمسك الجانب البريطاني ببقائه حارسًا لصندوق الدين ولكن وفد مصر اعترض على هذا لأن مالية مصر متينة ولم تتوقف في وقت من الأوقات عن تسديد أي قسط من الأقساط المستحقة، وقد قلت إنه بمجرد إعلان استقلال البلاد سنعمل بكل سرعة على تسديد هذا الدين بحيث لا تكون هناك حاجة لوجود الصندوق ووافق الجانب البريطاني بعد مناقشات طويلة استغرقت الجلسة كلها على الاقتراح المصري.

جاءتني أخبار من بعض موظفي القصر أن الملك اشتدت به العلة وأنه عندما يفيق يكلم نفسه بكلمات مؤداها أنه لا يريد أن يموت وأنه أسس العرش لكي يبقى فيه لا ليتركه وقد قال المحيطون به إن هذيانه أكثر من جده وأن النوبات التي تعتريه تستغرق من الزمن أكثر من الوقت الذي يفيق فيه وأن آلامه كلها متركزة في حنجرته في مكان الرصاصة التي أطلقها عليه الأمير سيف الدين شقيق زوجته السابقة شويكار عندما طلقها ولا يزال أميرًا.

زارني محمود أسعد بك تشريفاتي الملكة نازلي وحمل إلي تحيتها واحترامها وأنها ترجو أن يحذف اسم شقيقها حسن صبري باشا الذي ذكره الملك في الأوصياء على العرش ويوضع مكانه اسم شقيقها الأصغر شريف باشا لأنه يحب فاروق وهو متفاهم معها وأنها لا تريد اسم فخري باشا زوج فوقية، فكلفت أسعد بك بأن يشكر جلالتها على تحيتها وأن رغبتها ستكون موضع تقدير عند النظر في الأوصياء وأن المرجع الأعلى هو البرلمان وسيكون كل شيء على مايرام إن شاء الله، وقد سألت أسعد بك عن صحة الملك

فأجاب بأن حالته سيئة للغاية وأن الطبيب الألماني برجمان أمر بإزالة أسنانه كلها واضطروا إلى نزعها دون تخدير مما جعل الملك يصرخ بأعلى صوته ويطلب النجدة ممن حوله، ولقد تأثرنا جميعًا من تلك الحالة القاسية والعذاب الشديد الذي يقاسيه في أخريات حياته، وحتى أنه ليهذي ببعض الكلمات يفهم منها أن طفلاً كفاروق ما كان يجب أن يكون ولي العهد، وكم تمنى أن لو كانت فوقية رجلاً يخلفه في هذا الملك الذي احتمل في سبيل الاحتفاظ به أشد أنواع الألم وقاسى من الإنجليز أفظع المقاساه. بعد انصراف محمود سعد بك قلت سبحانك اللهم تباركت وتعاليت وحكمت فعدلت هذه نهاية الطاغين، ولو كان كل إنسان يفكر في مصيره، وفي نهايته المحتومة لما كان مآله كمآل فؤاد الذي طالما استبد وطغى وسام مصر الخسف وتصرف فيها كأنها مزرعة من مزارع أبيه، سارت المفاوضات سيرًا حسنًا في الجلسات التي عقدناها وعندما وصلنا إلي الحامية العسكرية التي تريد إنجلترا أن تبقيها في قنال السويس حتى يقوى جيش مصر على الدفاع عن البلاد، أثارت هذه المسألة زوبعة قوية، ودار حولها نقاش عنيف ولقد تمسك الجانب البريطاني بأن يكون عدد الحامية التي تعسكر لحراسة القنال عشرين ألف جندي فرفضت هذا رفضًا باتًا وقلت إذن نخرج الاحتلال من مصر والاسكندرية ليتجمع في قنال السويس؟! وبعد مناقشات حادة وأخذ ورد عنيفين اتفقنا أن يكون عدد القوة عشرة آلاف فقط، وانتقلنا إلى المكان الذي تعسكر فيه فرأى الجانب البريطاني أن يكون في غرب السويس فرفضت لأن الغرب جزء لا يتجزأ من مصر وإذن لا يكون الاحتلال قد انتهى بل بقيت له ذيول، وبعد طول نقاش لم يتفق على هذا الموضوع وتركت قاعة الاجتماع بعد منتصف الليل، وأنا أنتوي إذا تمسك الجانب البريطاني بهذا الموضوع أن أقطع المفاوضات.

لاحظ سكرتيري الذي يرافقني آثار الإعياء بادية علي وأن وجهي متجهم فسألني فقلت له ربما قطعت المفاوضات غدًا، فاضطرب وقال أبعد كل هذه الأشواط التي قطعتموها والمسائل التي اتفقتم عليها تقطع المفاوضات وتعود إلى حلقة مفرغة، فقلت له سأفكر في الأمر واقترح بعض الحلول فإذا وافقوا عليها فبها وإلا فلا مندوحة من حسم الأمر.

كان اليوم موعد عطلة المفاوضين ورأيت الفرصة السانحة لأن أقلب الأمر على جميع جوانبه وكونت في نفسي فكرة عرضتها على وفد المفاوضات المصري الذي اجتمع صباح اليوم في داري وقلت لهم إن لم يقبل الجانب البريطاني هذا الحل يجب أن نقطع المفاوضات وأن نكون يدًا واحدة أمام المفوض البريطاني وألا نظهر بمظهر الاختلاف، وتكلم محمد محمود باشا وقال يحسن أن نتساهل فقلت له إذن نقبل الاحتلال، لأن وجود قوة إنجليزية في بورسعيد وهي قطعة من قلب مصر معناه الاحتلال ولا يمكن أن أقبل بحال من الأحوال هذا الأمر، وانضم بقية أعضاء الوفد إلى رأيي وإن كان صدقي باشا قد تباطأ بعض الوقت في الموافقة وافترقنا على هذا.

لما اجتمعت هيئة المفاوضات في المساء عرضت على بساط البحث مسألة القوة البريطانية وأين تتمركز وأعاد الجانب البريطاني ما سبق أن أبداه في الجلسة السابقة

بوجوب تمركزها في بورسعيد وأعدت التمسك برأيي فقال المندوب السامي إذا كانت القوة في بور فؤاد بعيداً عن مصر ووقع اعتداء على مصر فكيف نستطيع أن نصل إلى القاهرة للدفاع عنها والقناة فاصلة وليس من اليسير إعداد معديات تكفي لنقل الجنود سريعاً، وإذا استطعنا أن نجد حلاً لهذه المشكلة فكيف السبيل إلى وصول القوات إلى القاهرة والطرق غير ممهدة وفى حالة الحرب الاعتداء على مصر وهي الطريق إلى الهند ولن تتيسر سرعة الدفاع خصوصاً وأننا سنستقدم إمدادات كثيرة من الجيش البريطاني للدفاع، فأجبت هناك حلول عديدة ولو خلصت النيات وصحت العزائم على التفاهم لأمكن لمصر المستقلة أن تنشيء طرقاً زراعية مرصوفة ممهدة ليعبرها جيش الحلفاء إلى حيث يريد للحرب ولقد كنت وزيراً للمواصلات في وزارة سعد زغلول باشا، ودرست جميع هذه الأشياء، ويمكن أن نتفق على إنشاء عدة طرق توصل من بورسعيد إلى القاهرة ومن السويس إلي القاهرة ومن جميع المنافذ التي على البحرين الأبيض والأحمر إلي القاهرة، وبعد مناقشة مستعصية في هذا الموضوع انحلت هذه المشكلة وتخطت المفاوضات الأزمة التي اختلقها الجانب البريطاني وحمدت الله على أن وفقني إلى هذا الحل.

في اليومين الماضيين أثار الجانب البريطاني مسألة إنشاء الثكنات التي يتجمع فيها الجيش البريطاني حتى لا يكون له أثره في مصر المستقلة، وقد وافقنا على إنشائها شريطة أن تدفع الحكومة البريطانية تكاليفها وأثار هذا الطلب خلافات واعتراضات متعددة، ولم ننته فيه إلى حل وأرجيء للاجتماعات المقبلة وقد تمسكت بأن إنشاءها يكون إلى أمد وأن تدفع بريطانيا تكاليفها على أن تعود إلى مصر بعد إخلائها وأن يكون وجود الجنود موقوتاً وينص على مدة البقاء في البلاد، وكانت حجة الإنجليز في أرجاء البت في هذا الموضوع أنهم سيسألون وزارة خارجيتهم رأيها فقلت عندما يأتيكم الرد نعود لمناقشتها ولكن ليكن معلوماً أن الرأي الذي أبديته هو آخر ما عندنا ولن نتزحزح عنه.

كذلك أثيرت مدة المعاهدة وطريقة الدفاع وتسليح الجيش المصري وتدريبه، وكانت هذه المسائل كذلك موضع خلاف وأخذ ورد شديدين مما اضطرنا إلى أرجاء الاجتماع حتى يعد كل جانب مذكرة بوجهة نظرة في هذه الأشياء كلها.

(٣)

اجتمعت بهئية المفاوضات بمنزلي وعرضت عليهم وجهة نظري في المسائل التي اختلفنا عليها في آخر جلسة مع الفريق البريطاني، ومن العجيب أني كنت أسمع من بعض أعضاء الجبهة التساهل في الخلافات التي تنشب بيننا حتى لا تتعثر المفاوضات أو تنقطع مما أكد لي صدق نظرية الزعيم سعد زغلول حينما تمسك في عام ١٩٢١ برياسة وفد المفاوضات المصرية، وقال كلمته المشهورة لما رأى الأفكار تتجه إلى تعيين عدلي يكن باشا رئيساً للمفاوضات (جورج الخامس يفاوض جورج الخامس) ذلك لأن رئيس الوفد هو الذي يملك أن يقطع المفاوضات إذا رأى مساساً بحقوق البلاد، وهو الذي يملك أن يشرح

وجهة النظر المصرية وكذلك فعل سعد في مفاوضات اللورد ملنر عام ١٩٢٠ حين رأى المشروع يؤكد الحماية على مصر فبعث يستشير الهيئات المصرية وانتهى إلى تحفظات تخرج بالمشروع عن كونه حماية، ولما عرض على اللورد ملنر رئيس وفد المفاوضات البريطانية لم يقبله فقطع سعد المفاوضات وعاد إلى مصر محتفظًا بكرامته وكرامة الوطن.

ذكرت هذا كله حين رأيت تهافت محمد محمود باشا واسماعيل صدقي باشا على قبول وجهة النظر الإنجليزية في مدة المعاهدة التي طلبوا أن تكون أربعين عامًا وفي بناء الثكنات التي يعسكر فيها الجيش البريطاني الذي سيبقى في مصر، فقد عرضت أن تكون مدة المعاهدة عشر سنين وتراجع الجانب البريطاني فاقترح أن تكون أربعين سنة فرفضت وبعد أخذ ورد وجذب وشد انتهينا إلى أن تكون المدة عشرين سنة تنتهي في عام ١٩٥٦ .

ولما عرضت مسألة بناء الثكنات اقترح الجانب البريطاني أن تدفع مصر نفقات بنائها ونفقات جيشهم طيلة إقامته في مصر ولكني قبلت الشق الأول لأن الثكنات ستؤول إلينا ورفضت رفضًا باتًا أن تدفع مصر أي مبلغ لنفقات الجيش البريطاني فرد رئيس الوفد بأن بقاء الجيش للدفاع عن مصر حتى يقوى جيشها وخوف أن تقع حرب فيهجم الأعداء عليها ولا تستطيع الدفاع عن نفسها فأجبت بأن مصر ما دامت تحت حكم أجنبي فلا يهمها إن كان الحاكم إنجليزيًا أو غير إنجليزي وإنما أنتم الذين يهمكم أن تظل مصر متفاهمة معكم لأنها طريقكم إلى مستعمراتكم، فمصلحتكم في بقاء الحامية الإنجليزية أكثر من مصلحتنا فاقترح الجانب البريطاني أن نقسم نفقات الحامية قسمين تدفع بريطانيا قسمًا وتدفع مصر القسم الثاني فرفضت هذا أيضًا وتمسكت بوجهة نظري وأخيرًا سلم الجانب البريطاني بها، أما مسألة تسليح الجيش المصري فلم يقع منا اعتراض عليها مادام بيننا وبين الإنجليز محالفة على أنني قلت لهم إذا انتهت مدة المحالفة ولم تتجدد بيننا، فمصر حرة في أن تسلح جيشها من أي جهة أرادت، واتفقنا على هذه المسائل بعد جلسات عاصفة

(٤)

كانت النشرة التي أعلنها الأطباء المعالجون للملك تحمل بين سطورها قرب النهاية، وأن الأمل في حياته ضئيل جدًا لأنه بدأ دور الاحتضار، وامتنع الأطباء بعدها عن إصدار نشرات لأن الحالة ساءت إلى حد كبير.

لما اجتمعت بهيئة المفاوضات في منزلي أثيرت مسألة الأوصياء على العرش وقال بعض الأعضاء يجب أن يكون للجبهة رأي فيها فرددت أنه سبق لي أن قلت إن هذه المسألة من شأن البرلمان ومجلس النواب يمثل جميع الأحزاب والاتجاهات والمرسوم الذي صدر بتأليف الهيئة نص على أن مهمة الجبهة المفاوضات لحل المسائل المعلقة بيننا وبين بريطانيا لا غير وعندئذ تنتهي مهمتنا غير أن حافظ رمضان بك رئيس الحزب الوطني قال إنه لا يجب أن نترك الوزارة والقصر والمندوب السامي يتصرفوا في هذه المسألة وحدهم، فقلت له

إطمئن فإن الرأي الأعلى للبرلمان وإذا عرض علينا شيء ضد المصلحة العامة فمن حقنا أن نرفضه ولا نقبله بحال من الأحوال.

اجتمعنا في قصر الزعفران بالوفد البريطاني ولم نكد نبدأ المناقشة حتى جاءنا خبر بأن الملك يعاني سكرات الموت وأن حالته متأخرة، وأن هناك ألاعيب تجري لتغيير وصية الملك فيما يختص بالأوصياء وأن أيدٍ ممن لهم مصلحة يحاولون وضع أسماء مكان أسماء فلم اهتم بهذا لأننا لن نوافق إلا على ما نقتنع به وما يقتنع به البرلمان ممثل الأمة.

نشط الموظفون البريطانيون في وزارة الداخلية نشاطاً ملحوظًا وأعادوا ما سبق أن عرضوه على وزارة الخارجية من اضطراب الأمن والخوف على الجاليات الأجنبية وخصوصاً الإنجليزية عند وفاة الملك ولكن السير مايلز لامبسون اتصل بي وأكد أنه لن يقع شيء مما يريده هؤلاء الموظفون وأن الأمن وصيانته والمحافظة على أرواح الأجانت مسؤلية الحكومة وأن ما سبق أن اقترح من إنزال جنود بريطانيين في شوارع العاصمة لمساعدة الجيش والبوليس المصري قد استبعد نهائياً.

اجتمعت هيئة المفاوضات ولكننا لم نتعرض لمناقشة شيء من المسائل المتعلقة بالمعاهدة لأن حالة الملك وانتظار موته بين لحظة وأخرى قد خيمت على الاجتماع، ورأينا أن نؤجل الاجتماعات إلى ما بعد أن تنتهي هذه المسألة التي كانت الأنباء تأتي سريعًا بأن الملك في حالة غيبوبة دائمة لا يفيق منها.

أعلن رسمياً انتقال الملك إلى جوار الله وأشفعت وزارة علي ماهر هذا الإعلان بالمناداة بفاروق ملكًا على البلاد طبقًا لنصوص الدستور، وبعثت الوزارة في طلب فاروق على وجه السرعة وعلى أساس أنه سيبحر إلى مصر على أول باخرة تقوم من الموانئ الإنجليزية.

(٥)

وصل فاروق إلى مصر وقد استقبله علي ماهر، وصحبه في سيارة مكشوفة إلى زيارة قبر والده في مدافن الرفاعي فحيته جماهير الشعب تحية تحمل العزاء والأمل في ألا يكون عهده كعهد أبيه اضطهاداً وارهاقًا للأمة الأبية الكريمة.

اجتمعنا في المساء برئيس الوزارة وفتحت وصية الملك فؤاد ورأينا أن الأسماء التي وردت بها بعضها انتقل إلى رحمة الله كعبد الرحيم صبري باشا والد الملكة نازلي والبعض الآخر ليس محل اتفاق كتوفيق نسيم باشا ومحمود فخري باشا، واقترحت اسماء بدلاً منها وأخيراً اتفق الرأي على أن يؤلف مجلس الوصاية من الأمير محمد علي رئيساً وشريف صبري باشا خال فاروق وعزيز عزت باشا وزير الخارجية السابق وصهر العائلة المالكة عضوين على أن تعرض هذه الأسماء على البرلمان فإن أقرها فبها وإلا فيختاروا ما يشاؤن.

دعي البرلمان الذي تم انتخاب أعضائه إلى الاجتماع وعرضت عليه أسماء الأوصياء فوافق عليها بالإجماع وتسلم الأمير محمد علي والعضوان الأمر.

رأى الوفد أنه لابد من تعيين موظف كبير في القصر الملكي من الوفديين ليكون همزة الوصل بين مجلس الوصاية وبينه حتى لا تتعطل الأعمال ولكن علي ماهر طلب إرجاء هذا الأمر حتى تتولى وزارة الأغلبية الحكم وبعد ذلك نتفق مع الأمير على ما نشاء.

استؤنفت المفاوضات واجتمع الوفدان المصري والبريطاني بقصر الزعفران وقد اختلي بي المندوب السامي وأظهر ارتياحه لأن البرلمان وافق على اختيار الأمير محمد علي رئيساً لمجلس الوصاية وأن إنجلترا ليس لديها أي اعتراض على المجلس بحالته الراهنة وأن العضوين الآخرين معتدلان، ولن يكون خلاف بينهم على المسائل التي تهم بريطانيا.

بدأ علي ماهر عمله بعد عودة فاروق بأن استصدر فتوى من علماء الأزهر وبعض علماء القانون بأن سن الرشد ثمانية عشر عامًا هجريًا ومعنى هذا أن الملك يتولى سلطته الدستورية بعد أربعة عشر شهرًا تقريبًا.

خاطبني الأمير محمد علي في الفتوى التي استصدرها علي ماهر بشأن بلوغ الملك سلطته الدستورية، وقال لي إن هذا أمر خطير، وإن فاروق طفل لم ينضج، ولم يتعلم ومن رأيي أن يرفع سن الرشد إلى الحادية والعشرين ميلادية وذلك لمصلحة البلاد، ولكني أجبته بأن هذا أمر نفذ ولا أريد أن أصدم هذا الشاب في مستهل حياته حتي لا تحدث بيننا خلافات من الآن. والواقع إني لم أر فارقًا بين أن يكون محمد علي رئيسًا لمجلس الوصاية أو يكون فاروق ملكًا فإن رأيي أن أفراد تلك الأسرة ما عدا أقلية لا يؤمنون بمصر ولا يهتمون بوطنيتها فهم ليسوا منها ولا ينتمون إليها، ولم أر أن أثير خلافًا لا مصلحة للبلد من ورائه، خصوصًا وأنا أعتقد أن الأمير محمد علي يسعى من وراء هذا الطلب إلى مصلحته هو وحده دون النظر إلى أي اعتبار آخر.

زارني حسن صبري بك وريد وأمين ويعقوب صروف على التوالي، ونقل إلى كل واحد منهم أن علي ماهر يعد نفسه ليلعب دورًا خطيرًا بعد انتهاء مهمته واستقالة وزارته، أما هذا الدور فهم لا يعرفون عنه تفاصيل ولكن الشائعات التي يرددها أنصار علي ماهر تؤكد هذا.

جاء مكرم وحضر جانبًا من هذه الأحاديث وقد أكد هو بدوره أنه سمع أن علي ماهر فعل ما فعل مع فاروق ترضية لأمه الملكة نازلي وأنه من هذه الناحية سيخلق لنفسه مهمة رسمية أو غير رسمية تمكنه من الاستيلاء على الملك الشاب وطيه تحت جناحه، وقد رددت على هذا بأننا لا نسبق الأحداث، ومن الأفضل ألا نهجم ولا نتعجل وننتظر حتى تتولى وزارة الأغلبية الأمر وتعقد المعاهدة بين انجلترا وبذلك نكون قد انتهينا من التدخل البريطاني في كل صغيرة وكبيرة ونتفرغ لتوحيد دستورنا وتأصيل الحياة النيابية والسير

بالبلاد قدمًا حتى لا نفاجأ بأشياء ليست في الحسبان.

تحدث الفريق عزيز المصري إلى بعض خاصته من رجال الجيش وقال لهم إنه تعب كثيرًا مع فاروق أثناء إقامته معه في لندن وأن أحمد حسنين وجه هذا الولد الناشيء وجهات لا تليق بملك يتولى شئون مملكة إسلامية كمصر وأنه طالما اختلف مع حسنين من أجل هذا ولكن اندفاع الشباب والتهور غلبا علي الولد وأنه لم يتعلم شيئًا ولم يستفد من إقامته في لندن أي تجارب حتى أن ما أوصاني به والده من تعليمه التعليم العسكري وتوجيهه الوجهة الصحيحة لم أتمكن منه، وأنني طالما شكوت من هذا وكتبت إلى موظفي السراي المقربين إلى الملك فؤاد ولكن لم يصلني أي رد على ملاحظاتي ولا على ما طلبته من إرشادات، وإني أخشى ما أخشاه أن يستولى على هذا الولد بطانة سوء من أمثال حسنين وعلي ماهر وبعض الإيطاليين الموظفين بالقصر فيملؤه بالغرور ويصوروا له أنه الحاكم المطلق، وأنه صاحب الأمر والنهي، وأنه يجب أن يسير بالبلاد على نسق أبيه وهنا ستكون الطامة الكبرى على أني لم أنجح معه أثناء صحبتي له في إنجلترا إلا في شيء واحد هو أني شرحت له أن إنجلترا معتدية على مصر وأن الإنجليز طالما أساءوا إلى أبيه ولكن أباه بحكم تجاربه وسنه كان يعالج الأمور بشيء من الحكمة ليس موجودًا في ولده.

على الرغم من أن علي ماهر يعلم أن مهمته مؤقتة ومقتصرة على إجراء الانتخابات فإنه انتهز توليه الوزارة وأصدر قوانين كثيرة في مختلف المسائل وأحدث إنقلابًا في الإدارة الحكومية شأن إنسان يرسم لنفسه، ويوطد لبقائه، وقد تحدثت في هذا مع بعض المقربين إليه كما تحدثت في أن لا داعي لكثرة القوانين والمشروعات، ولكنه قال إن كل ما عمله هو في مصلحة البلد، وإنه يريد أن يسير في ركب التقدم، وأنا لم أنقده في الأشياء الضرورية الصالحة كإنشاء وزارة للشؤن الاجتماعية أو ما شاكلها ولكني لاحظت عليه أنه يصدر القوانين واللوائح بسرعة غير مدروسة ولا مستوفية، ولقد تذكرت ما روى عن الأستاذ الإمام محمد عبده عندما سأله ماهر باشا والد علي عن ابنه فقال له إن ابنه ذكي ولكنه ذكاء براق وفوق هذا فهو يحب الطفرة وكثيرًا ما تضر صاحبها أكثر مما تنفعه.

قطعنا شوطًا كبيرًا في المفاوضات واستطعنا أن نتغلب على كثير من العقبات وكلما جاءت الأنباء بأن شبح الحرب يخيم على العالم أسرعنا في حل المسائل، وكانت سكرتارية الهيئة تعمل ليل نهار في الترجمة وإعداد الوثائق والملحقات أولاً بأول، وقد اتفقنا على ألا نسافر إلى لندن إلا للتوقيع النهائي فقط لتصير المعاهدة نافذة المفعول من اليوم التالي لتوقيعها، وكان الوفدان المصري والإنجليزي مسرورين لنجاحهما في هذه المهمة الشاقة ولم يدخر أحد منهم جهدًا في إنجاز ما كلف به من بحوث أو مذكرات.

دعوت الجبهة الوطنية للاجتماع كي نتشاور في مسألة السودان التي تحطمت على صخرتها جميع المعاهدات والمشروعات السابقة وكان من رأي بعض الأعضاء ومنهم وفديون أنه يجب التساهل في هذه المسألة ويكفي أن نضمن مياه النيل ولا داعي لإثارة

حقوق مصر والسودان خصوصاً وأن في السودان هيئتين واحدة وهي المهدية تسبح بحمد الأنجليز وتعتبرهم أصحاب الفضل عليهم ولا يستطيعون أن يعيشوا بغيرهم، والأخرى وهي طائفة الختمية التي يرأسها السيد علي الميرغني وهي إن كانت تكره الإنجليز إلا أنها هيئة يغلب عليها الطابع الديني وليس لها تأثير يذكر في السياسة، ولكنني رددت على القائلين بهذا أن السودان ألزم لمصر من الإسكندرية وأنهما بلد واحد وأن جثث ضحايانا تنادينا بألا ننساها، ويجب أن يكون السودان تحت التاج المصري حتى تسمح له ظروفه بأن يقف على قدميه ويحكم نفسه، ولا أريد أن نظهر أمام المفاوضين البريطانيين بمظهر المختلفين بل يجب أن تكون كلمتنا واحدة، وهي التمسك بحقوق مصر في السودان والتشدد في ذلك حتى نحصل على أكبر قدر ممكن وإلا فيم كان قطعنا للمفاوضات أكثر من مرة بسبب هذه المسألة، ولو كان الأمر كما تريدون لقبلنا مشروع ملنر ١٩٢٠ أو مشروع هندرسون ١٩٣٠ وكفى الله المؤمنين القتال، واستطعت بعد نقاش طويل أن آخذ رأي الأغلبية في صفي.

اجتمعنا في قصر الزعفران وأثيرت مسألة السودان، وقد قال السفير البريطاني إننا أخرناها حتى نتتهي من المسائل التي لا تشكل خلافاً في الرأي، وهذه المسألة هي إحدى المسائل الشائكة، ثم عرض رأي إنجلترا بالتفصيل وملخصه أنها لا تستطيع أن تترك السودان لمصر أبداً وأن رغبة أغلبية السكان يطلبون بقاء الإنجليز لحمايتهم وترقيتهم ويكفي مصر أن تأخذ كفايتها من مياه النيل، ولكني رددت عليه بما سبق أن أبديته في المفاوضات السابقة وما ذكرته في الجلسة التي عقدتها مع الجبهة الوطنية وقلت له إن حقوق مصر في السودان لا تقتصر على مياه النيل وحدها بل هناك مصالح مشتركة فهي ومصر قطر واحد ودينهما واحد ولغتهما واحدة وحدودهما واحدة ولا يمكن لواحد منهما أن يستغني عن أخيه، وطال الأخذ والرد، وتشدد الجانب البريطاني وتشددت وتأجلت الجلسة قبل أن نصل إلى حل حاسم.

دعوت أعضاء الجبهة إلى اجتماع خاص لنتفق على رأي بشأن مشكلة السودان وبعد أن استعرضت جميع الاحتمالات انتهى الرأي إلى أننا لا نقبل أقل من أن نشترك في إدارة السودان اشتراكًا فعليًا بحيث يكون فيه مناصفة بين مصر وإنجلترا على قدم المساواة وأن يظل الأمر كذلك طيلة الأمد الذي ضربناه للمعاهدة على أن يعاد النظر في الأمر بعد عشرين عامًا أي عام ١٩٥٦ على ضوء ما يجد من ظروف.

اجتمعت هيئة المفاوضات المصرية والبريطانية ولما أثيرت مسألة السودان وتمسك الجانب البريطاني برأيه في أن يستقل بإدارته رفضت هذا العرض وقدمت الاقتراح الذي اتفقت عليه هيئة المفاوضات المصرية، وبعد نقاش أخذ معظم الوقت واستمر إلى ساعة متأخرة من الليل وافق الوفد البريطاني على اقتراحنا مع تعديلات طفيفة لا تضر بالجوهر واجتزنا هذه العقبة الأخرى.

أصبح من المؤكد أن علي ماهر باشا سيقدم استقالة وزارته بعد أن انتهى من أداء مهمته وأن الوفد صاحب الأغلبية هو الذي سيؤلف الوزارة المقبلة ودعوت الوفد إلى الاجتماع للتشاور في الأمر ووضع السياسة التي سنسير عليها.

بدأت جلسة الوفد هادئة، وقد بحثنا أول مسألة فيها، وهي أننا عند تأليف الوزارة سيكون أول عمل لنا نقل رفات المغفور له الزعيم سعد زغلول إلى ضريحه الذي أنشأناه له أمام بيت الأمة والذي نقل إليه صدقي باشا أيام حكمه رفات قدماء المصريين وقد اقترح عثمان محرم أن نبدأ قبل نقل الرفات في سد جميع العيون الموجودة في الضريح بالأسمنت المسلح ولا يبقى بعد دفن سعد إلا لحد واحد تدفن فيه أم المصريين بعد عمر طويل حتى إذا ما جد في الأمر شيء لا نترك فرصة لمثل صدقي أن يعبث بالضريح مرة أخرى وقد صادف هذا الاقتراح إجماعًا وشكرًا لعثمان محرم على هذه الفكرة الموفقة.

وصل إليّ كتاب تأليف الوزارة فدعوت الوفد في الحال للاجتماع لترشيح الوزراء ووضع برنامج الوزارة، اجتمع الوفد، وبدأنا نبحث أسماء الوزارة وكان أول اتفاق أن يبقى أحمد ماهر خارج الوزارة ليتولى رياسة مجلس النواب وأن أتولى أنا وزارة الخارجية إلى جانب الرئاسة والداخلية ويتولى مكرم وزارة المالية والنقراشي وزارة المواصلات ثم عرضنا إدخال عناصر لم تعرف بالوفدية ولكنها قدمت للبلاد خدمات جليلة فاقترحنا اسم محمود غالب المستشار بمحكمة استئناف مصر لوزارة الحقانية فلم يلق هذا الترشيح اعتراضًا، ثم عرضت اسم أحمد نجيب الهلالي وزير المعارف في عهد وزارة توفيق نسيم باشا وزيرًا للمعارف، وهنا ثار النقراشي واحتدم وعارض هذا الترشيح بعنف وهدد بالاستقالة من الوفد، وعدم دخول الوزارة إذا عين الهلالي وزيرًا، وكرر ما سبق أن قاله إن الهلالي قتل أمين لطفي (وكان أمين لطفي قد انتقل إلى رحمة الله) وكان النقراشي سيتحرش بمكرم تحرشًا ظاهرًا ويتهمه بأنه وراء هذا الترشيح تحديًا له، واحتدم النقاش وعلت الأصوات وزاد الصخب وخرج النقراشي من الجلسة التي كانت في مكتب سعد ثائرًا وصعد إلى الطابق العلوي وشكا لأم المصريين، وطلبتني أم المصريين فأوقفت الجلسة وصعدت إليها أنا ومكرم وماهر والنقراشي، وتكرر النقاش الحاد أمامها مرة وأخرى وأعاد النقراشي اتهام مكرم، ولما رأيت الأمر قد زاد عن الحد رأيت أم المصريين تلح في أن نجتاز هذه الأزمة، قلت لها أنا أشد منك حرصًا على اجتيازها وتمسكًا بوحدة الصف وإبقاء أبناء سعد من الرعيل الأول إخوانًا متصافين، ولكن النقراشي لا يترك لنا فرصة للنقاش بل كلما أثيرت مسألة لا يريدها يحتد ويهدد بالاستقالة، وهو يعلم تمام العلم أن منزلته عندي كبيرة وأن لا فرق بينه وبين مكرم، وأني إذا كنت رفيقًا بمكرم، ونحن مع المغفور له سعد باشا في المنفى بجزيرة شيسيل فإن النقراشي لا ينسى ولا أحد من المصريين ينسى أنني وقفت أمام محكمة الجنايات في قضية الاغتيالات السياسية قلت للمستشارين الذين كانوا يحاكمون ماهر والنقراشي مع بعض الشباب الوفدي بتهمة قتل واغتيال بعض الإنجليز، وقفت والتأثر بالغ بي مبلغه ورفعت صوتي عاليًا بعد أن فندت أدلة

النيابة ورددت عليها نقطة نقطة، صحت إذا كنتم تريدون بعد هذا إدانة ماهر والنقراشي والحكم عليهما فخذوني قبلهما وقدموا رقبتي للمقصلة قبل أن تعدموهما، واهتزت القاعة وانقلب الوضع ولقد قال زعيمنا ورئيسنا خالد الذكر سعد في تصريح له عندما صدر الحكم بالبراءة إن فرحتي بمرافعة النحاس تعدل فرحتي ببراءة ماهر والنقراشي فهل يتصور أحد بعد هذه العشرة الطويلة كلها وبعد تلك الزمالة التي قضينا فيها زهرة شبابنا أن أفرط في النقراشي أو أسيء إليه عن قصد أو غير قصد وتأثرت أم المصريين وهدأت العاصفة واتفقنا على أن نستبعد ترشيح الهلالي وزيرًا، ولما عاد الوفد للاجتماع اقترحت عليهم ترشيح علي زكي العرابي باشا رئيس محكمة الاستئناف وزيرًا للمعارف وانتهى الأمر عند هذا الحد.

اليوم موعد نقل رفات الزعيم سعد زغلول إلي ضريحه. ونظم احتفال ضم الهيئات والطبقات وخصص لكل طائفة مكان وتقدمت الموكب كوكبة من الجنود ثم نعش الزعيم وسرنا خلفه ومعنا كبير أمناء القصر الملكي نائبًا عن مجلس الوصاية وعدد كبير من عظماء مصر وممثلي الأحزاب والهيئات والهيئة الوفدية ولجان الوفد والأهالي وقد تحرك الموكب من الإمام الشافعي مخترقًا الشوارع الهامة بالعاصمة حتى وصل إلي الضريح ثم أطلقت المدافع تحية وتوديعًا، وورى سعد ضريحه الجديد بين مظاهر الإجلال من الشعب الوفي لزعيمه العظيم وقد تقبلت فيه العزاء من كل الطبقات، وبعد انتهاء المراسم قصدت ومعي إخواني الوزراء وأعضاء الوفد إلي حيث كانت السيدة الجليلة أم المصريين تجلس في حجرة ملحقة بالضريح فقدمنا لها التعازي وأعلنا لها أن هذا يوم من أخلد أيام التاريخ لأننا استطعنا أن نقدم لزعيم البلاد ومفجر ثورتها دليل على وفائنا لذكراه وتكريمًا لشخصه الذي مازالت روحه بيننا تهدينا ونسترشد بها في كل خطواتنا.

والحق أن هذا اليوم من أسعد أيام حياتي لأنني نقلت رفات سعد إلي ضريحه بعد أن حرمه منه خصومه والحاقدون عليه الذين عادوه حيًا وحاربوا ذكراه ميتًا.

إجتمعت هيئة المفاوضات بقصر أنطونياديس بالأسكندرية بعد انتقال الوزارة إلي المصيف وقد عرضت علينا الوثائق التي أعدتها اللجان المشكلة كل في تخصصه كما عرضت علينا المشروع النهائي للمعاهدة للتوقيع عليه بالأحرف الأولى من وفدي المفاوضات توطئة لإعداده قبل سفرنا إلي لندن للتوقيع الأخير وقد احتاج الأمر إلي عقد جلسات أخرى لمراجعة هذه الوثائق والمشروع.

كلفت يوسف الجندي (الوكيل البرلماني للداخلية) بأن يعد مشروعًا بملء الوظائف الخالية في وزارة الداخلية وأن يهتم بتنظيم بعض الإدارات اهتمامًا خاصًا كإدارة الشياخات وإدارة الإنتخابات وإدارة المطبوعات وإعادة الأمور فيها إلي ما كانت عليه قبل أن تعبث بها حكومات الأقليات التي غيرت وبدلت، وأوصيته بأن يدبر وظيفة متواضعة لأحد أفراد السكرتاريا الذي رافقني طيلة مدة المفاوضات ورفض علي ماهر باشا تعيينه بحجة

كثرة الموظفين الزائدين على الحاجة.

انتهت جميع الوثائق والمعدات لإمضاء المعاهدة واتفقنا على الاجتماع الأخير للتوقيع ولتحديد ميعاد السفر إلى لندن، وقد أصدرت الأمر إلى جميع الذين اشتركوا في العمل معنا أن يكونوا جميعًا على أهبة الاستعداد للسفر إلى إنجلترا لحضور الحفلة الرسمية للتوقيع.

نقل إليّ بعض أعضاء لجنة الوفد المركزية أن النقراشي وبعض أصدقائه يتحدثون في المجالس بالطعن في مكرم ويتهمونني بأني أحابيه، وأشجع الأقباط وأن مكرم ملأ وزارة المالية بعدد كبير من أصدقائه وأصهاره ووزع عددًا آخر على الوزرات بما له من نفوذ في الوفد، وأن كل مسألة تعرض عليه بصفته رئيسًا للجنة المالية ويعلم أن صاحبها يمت بصلة إلى أحمد ماهر أو النقراشي يتعمد تعطيلها وإرجاءها، وأن الشكوى من هذه التصرفات ملأت الأسماع، وقد رددت عليهم بأن هذه كلها شائعات مختلقة اخترعها خصوم الوفد ليفرقوا بين أعضائه وهم كلهم أبناء سعد ولا يمكن أن يختلفوا على أشياء تافهة كهذه الأشياء.

كانت حفلة التوقيع على المعاهدة والوثائق الملحقة بها حفلة جميلة على بساطتها فقد قصدنا ألا نبالغ في المظاهر بل اقتصرنا على التوقيع من الوفدين وأقمنا بعد ذلك حفلة شاي في القصر (قصر أنطونيادس) دعونا إليها عددًا محدودًا وتبادلنا أنا والمندوب السامي بصفتنا رئيسي الوفدين المصري والإنجليزي كلمات مناسبة، وتقبلنا التهاني من الحاضرين وتحدثنا أحاديث مختصرة مع الصحف ووكالات الأنباء.

تلقت سكرتارية الوفد وسكرتارية مجلس الوزراء كما تلقيت شخصيًا برقيات تهنئة بتوقيع المعاهدة من مختلف الهيئات والطبقات ومن عدد من إخواننا في البلاد العربية والإسلامية وكانت برقية جواهر لال نهرو من الهند وبرقية السيد محمد علي وشقيقه شوكت علي من مسلمي أهالي كشمير والسيد عبد المحسن الكاظمي وميرزا رفيع مشكي من أهالي إيران تحمل تحيات وتهنئات صادقة وكذلك تلقيت من الجاليات المصرية في إنجلترا وألمانيا وفرنسا والنمسا وغير ذلك كثيرًا وقد أثرت هذه البرقيات في نفسي وأمرت بالرد عليها كلها وشكر مرسليها مع التمنيات الصادقة لهم وللبلاد المغلوبة على أمرها بأن تنال استقلالها وتستقر أمورها وتتمتع بحريتها.

انعقد مجلس الوزراء صباح اليوم وكنت أتوقع أن تكون جلسة عادية تمر فيها المسائل المعروضة بسلام لولا أن النقراشي آثار زوبعة عنيفة من أجل موظف صغير عرضت مذكرة بتعيينه ضمن المسائل التي ينظرها المجلس، ومن الأسف أن ذلك الموظف لم يكن ليعين في منصب خطير أو في درجة كبيرة، ولا كان مشكوكًا في وطنيته أو تاريخه بل كانت المذكرة المعروضة تؤكد أنه قضى بالسجن أكثر من ثماني سنين، وأنه يحمل فوق ذلك مؤهلاً عاليًا وله كثير من الامتيازات ذكرتها المذكرة ولكن النقراشي برغم هذا كله ثار وغضب وضرب

المنضدة بيديه وهددنا بالاستقالة إذا وافق المجلس على تعيين الموظف المذكور، كانت مفاجأة هي آخر ما كنت أتوقعه من النقراشي، ذلك لأن الشخص المقترح تعيينه كان أحد الذين رفض هو وشقيق له لايزال بالسجن في ليمان طره أن يشهدا على ماهر والنقراشي ويتقاضيا عشرة آلاف جنيه كانت السلطات العسكرية الإنجليزية قد رصدتها للشهود الذين يشهدون ضد ماهر والنقراشي في قضية الاغتيالات، ولذلك لم أملك نفسي حين ثار النقراشي وهدد بالاستقالة أن قلت له في غضب وحدة: ما هذا الذي تقول فقدنا الوفاء والنخوة لماذا تعارض في الموظف الصغير، هل شهد عليك أو على أحد من إخوانك حتى حكم عليكم، هل أخذ من السلطات العسكرية مكافآت لكي يوقع بك، ومع هذا كلما يعرض أمر لا يروقك تهدد بالاستقالة، والتفت إلى الوزراء قائلاً من منكم يوافق على المذكرة المعروضة ومن منكم يعارضها فتصدى وزير الحقانية محمود غالب بك وقال بصفتي قاضياً لا أعرف الشخص الذي تتحدثون بشأنه ولكن أقرأ المعلومات المدونة عنه، أقترح أن يعين في درجة أعلى من الدرجة المقترحة وإني اعتقد أن زملائي يوافقون على هذا الرأي فقالوا جميعاً موافقون فالتفت إلي سكرتير المجلس وقلت اكتب في المحضر وافق الوزراء على المذكرة ما عدا وزير المواصلات ولقد أسفت كل الأسف على أن أخلاق بعض المجاهدين القدماء انحدرت إلى هذا الدرك، وما كنت لأعير مثل المسألة التفاتاً لولا أنها شغلت المجلس في هذه الظروف المزدحمة بالعمل أكثر مما يجب.

اجتمعنا أمس بقاعة لوكارنو ووقعنا التوقيع النهائي على المعاهدة وملحقاتها من الوفدين المصري والبريطاني وأقيم حفل قصير تبادلنا فيه الكلمات المناسبة التي تضمنت أن البلدين تبدأن علاقات جديدة مبنية على تبادل الثقة بينهما وأن هذه المعاهدة فاتحة عهد جديد واستقرار وهدوء وتفاهم وانتهى التوقيع بين مظاهر الرضى والارتياح.

أعددت كلمة بمناسبة توقيع المعاهدة أذعتها على الشعب المصري بعد التوقيع زففت إليه بشرى توقيع معاهدة صداقة وتحالف بيننا وبين بريطانيا العظمى على قدم المساواة وأكدت للمواطنين أن كفاحنا الطويل في سبيل استقلالنا وحريتنا وحكم أنفسنا بأنفسنا قد توج بهذا الحدث العظيم الذي وطد العلاقات بين الشعبين، وأكد التفاهم بين الأمتين بعد طول خصام، ومرير جهاد، وأعلنت أن هذا اليوم سيكون عيداً لمصر تحتفل فيه بهذه المناسبة كل عام.

اجتمعت برئيس الوزارة البريطانية ووزير خارجيته طويلاً في شأن الامتيازات الأجنبية واتفقنا على الخطوط الرئيسية للمؤتمر الذي سينعقد في هذا الخصوص في بلد محايد على أن يحدد موعد الانعقاد بعد العودة إلى مصر وإعداد الوثائق والمستندات اللازمة وإخطار البلاد التي ستشترك في المؤتمر لإيفاد ممثليها، وحددنا أوائل العام المقبل ١٩٣٧ موعداً تقريبياً لهذا الانعقاد. قررت العودة إلى مصر عن طريق فرنسا لإجراء محادثات مع المسئولين في الحكومة خاصة بإلغاء الامتيازات.

علمت أن رئيس وزراء اليونان موجود بإنجلترا فاتصلت به واجتمعنا وتحدثنا في شأن مؤتمر الامتيازات وقد قال إن في مصر أكبر جالية أجنبية من اليونان، وأنه برغم هذا لا يخشى على مواطنيه من إلغاء المحاكم القنصلية والمحاكم المختلطة لأنه مطمئن إلى الروابط التي تربط اليونان بمصر هي وثيقة وعلاقات قديمة وبينهما مصالح مشتركة وأن كثيرًا من أبناء اليونان يعملون في مصر ويستثمرون أموالهم وهي أقل الجاليات لجوءًا إلى القضاء المختلط لما بينهم وبين إخوانهم المصريين من ثقة وحسن تفاهم.

التقيت بوزير خارجية فرنسا وكبار موظفي الوزارة وجرى بيننا بحث طويل حول مؤتمر الامتيازات ورأي فرنسا في إلغاء امتيازات رعاياها المقيمين في مصر ووجدت ترحيبًا كبيرًا واستعدادًا طيبًا لنجاح المؤتمر مما جعلني استبشر خيرًا بأننا سنصل بإذن الله إلى إلغاء الامتيازات الأجنبية وما يتبعها من محاكم مختلطة ومحاكم قنصلية وما شاكل ذلك وتوحيد القضاء ويصبح كله مصريًا ويتساوى أمامه الوطنيون والأجانب على السواء.

تلقيت رسالة من أبناء الجالية المصرية في برلين عن طريق سفير مصر في ألمانيا حسن نشأت باشا يلح فيها أصحابها على تلبية دعوة لحفلة تكريم تقام لي بمناسبة مروري على ألمانيا، وقد قبلتها وقررت الإقامة في ألمانيا بضعة أيام للراحة والاستجمام.

(٦)

وصلت إلى برلين ورأيت عددًا كبيرًا من أبناء المصريين والجاليات العربية في استقبالي على المحطة وعلى رأسهم سفير مصر في ألمانيا وموظفو السفارة وعلى الرغم من أن الزيارة لم تكن رسمية إلا أنني فوجئت بمندوب من الحكومة الألمانية يرحب بي باسم حكومته وباسم الفوهرر، فحملته تحيتي وشكري إلى الحكومة وإلى الزعيم هتلر على هذه العناية.

وفي الطريق حدثني السفير المصري أن هتلر لما علم أني سأقيم في برلين بعضًا من الوقت رغب في أن يلتقي بي وقال السفير إذا لم يكن لديك مانع رتبت لك اللقاء وحددت الموعد المناسب فأجبته بأن نؤجل الحديث في هذا الموضوع إلى الغد حتى نستريح من عناء السفر ونرى كيف تكون الظروف.

عاود السفير المصري عند زيارته إلى الحديث عن مقابلة هتلر فوجدت بعد تفكير أن لامانع من مقابلته خصوصًا وأن الصحافة العالمية مجمعة على أنه يستعد للحرب، ويعد شعبه إعدادًا عسكريًا هائلاً، وكلفت السفير أن يحدد الموعد ويخطرني به على ألا يتعارض مع حفل التكريم الذي قررته الجالية المصرية.

تجولت في شوارع برلين التي لم أكن زرتها من قبل وتفرجت على بعض المصانع فيها فوجدتها بلادًا صناعية هائلة، ثم سرت بصحبة السفير في بعض الشوارع المكتظة بالمتاجر وكونت فكرة عن البلد فوجدتها بلدًا جميلة جدًا.

كان اليوم الموعد المحدد للالتقاء بهتلر وقد استقبلني مرحبًا واقفًا وقفة عسكرية وشد على يدي بقوة وبعد أن جلسنا وبدأ الحديث بأن سألني عن مؤتمر الامتيازات وأنه اطلع على مناقشته فأعجب بصراحتي، وشجاعتي فشكرته على ذلك ثم عرج على الحالة الدولية وأخذ يشرح لي ما لاقته ألمانيا من الحلفاء والظلم الذي حاق بها بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وأفاض في ذلك وكانت كلماته حماسية كأنه يخطب في حفل، ورأيت عينيه تبرقان بريق الغضب كلما جاء ذكر إنجلترا أو فرنسا، وكلما هممت بالانصراف استبقاني حتى طال الحديث أكثر من نصف ساعة وخرج فودعني حتى الباب الخارجي.

ولقد خرجت من هذا اللقاء بانطباع من أن هذا الشاب الغاضب الثائر لابد أن يجر العالم كله إلى حرب عالمية، ولن تهدأ له ثائرة - حسب ما استنتجت من حديثه - إلا بأن يخوض حربًا طاحنة فإما انتصر وبلغ القمة وأعاد إلى ألمانيا مجدها وعزها الذي طالما تغنت به وافتخرت وإما أن يسوقها إلى هاوية لن تخرج منها إلا مهيضة الجناح مفككة الأوصال.

كان استقبال الشعب لنا عند وصولنا إلى ميناء الإسكندرية استقبالاً فاق كل وصف وجاوز كل حد، وقد غصت ميناء الاسكندرية بألوف مؤلفة من جميع الطبقات يتقدمهم مندوب مجلس الوصاية كبير الأمناء والوزراء وأعضاء الوفد والهيئة الوفدية والموظفون والأعيان والجماهير الغفيرة وقد أطلقت مدفعية خفر السواحل عدة مدافع تحية لقدومنا.

خطب مكرم خطابًا ضافيًا في جامعة فؤاد الأول حلل فيه بنود المعاهدة تحليلاً منطقيًا رائعًا، وتعرض لكل مادة من موادها، وكل فقرة من فقراتها، وختم خطابه كما ابتداه بعبارات بليغة أخذت بألباب السامعين واستحوذت على إعجابهم وتصفيقهم وهتافاتهم المدوية للمعاهدة ولزعيم الأمة وبطل استقلالها، وكان اجتماعًا موفقًا جدًا ظل حديث الناس مدة طويلة.

(٧)

عرضت المعاهدة على مجلس النواب وتقدمت فشرحت بنودها والظروف التي أحاطت بتوقيعها والوثائق الملحقة بها، شرحت كل ذلك ارتجالاً شرح المحامي لقضية درسها وعرف مراميها وأحاط بدقائق أسرارها، وبعد أن انتهيت من تقديم المعاهدة للنواب وإيداع نصوصها وملحقاتها سكرتارية المجلس تركت للمتحدثين أن يدلوا بأرائهم.

تكلم محمد محمود باشا فأيدها وقال إنها أقصى ما استطعنا أن نصل إليه، كما تكلم غيره من أعضاء الجبهة فأيدوها وقام ممثلوا الحزب الوطني من النواب فانتقدوها واعترضوا على بعض موادها وتحمس عبد العزيز الصوفاني عضو الحزب الوطني في كلمته، كما أيده فكري أباظة.

وبعد نقاش وحوار وافق المجلس بأغلبية ساحقة على المعاهدة كما وقعناها ولم يشذ إلا

عدة أعضاء من الحزب الوطني.

قرر مجلس الوزراء رفع كشف إلى مجلس الوصاية بالإنعام برتب ونياشين على كبار موظفي الدولة ومن أدوا خدمات وطنية للبلد وكلف كل وزير في وزارته أن يعد كشفًا بالأسماء التي يطلب لها الإنعامات.

كلفت يوسف الجندي (وكيل الداخلية البرلماني) بإعداد كشف بالإنعام على كبار موظفي الوزارة والصحفيين بهذه المناسبة.

جاءت معظم كشوف الوزارات بالأسماء المطلوب لها الإنعام بالرتب والنياشين بمناسبة المعاهدة.

وقدم لي يوسف الجندي كشفًا بأسماء كبار موظفي وزارة الداخلية والمصالح التابعة لها ولما اطلعت على أسماء الصحفيين وجدتهم جميعًا من غير المصريين، ولفت هذا نظري فأعدت الكشف إلى وكيل الوزارة وقلت له أليس في مصر صحفيون مصريون حتى يكون جميع من في الكشف من إخواننا السوريين واللبنانيين والأجانب المتوطنين.

تجمعت لدي جميع الكشوف المطلوب الإنعام عليها بالرتب بما فيهم كشف الصحافة بعد التعديل وإدخال أسماء مصرية عليه ولما تكلمت مع الأمير محمد علي رئيس مجلس الوصاية فيه اعترض اعتراضًا عنيفًا على أسماء الصحفيين ورفض رفضًا باتًا أن ينعم عليهم وقال إنهم شرذمة لا يستحقون تكريمًا ولا إنعامًا، ولكني رددت عليه بأن الوزارة قد بحثت هذا بحثًا دقيقًا وأن الصحفيين هم طائفة من أبناء الأمة يقومون بخدمات جليلة لها ويجب أن ينالوا نصيبهم من التكريم بمناسبة إبرام المعاهدة ولكنه أصر على الرفض وأبى أن ينعم بأي رتبة على أي صحفي مصري.

كانت أول أزمة تقع بيني وبينه فأحببت ألا تحتدم وبعد نقاش طويل اقتنع وانتهت الأزمة بسلام.

كان محمود أبو الفتح قد زارني عقب عودتي من إمضاء المعاهدة وقال لي إنه اتفق مع زميلين له هما محمد التابعي وكريم ثابت على إصدار صحيفة يومية تكون لسان حال الوفد المصري بدل الجهاد الذي أهمله صاحبه توفيق دياب حتى أعرض عنه القراء وقد وافقته على ذلك.

وقد صدرت منها عدة أعداد اطلعت عليها فوجدتها منظمة منسقة وممتلئة بالأخبار والمقالات والحوادث مما جعلني أوافق على أن تكون لسان حال الوفد المصري.

أخذنا في إعداد العدة وجمع الوثائق والمستندات لحضور مؤتمر الامتيازات الذي اتفقنا على أن يجتمع في أوائل ١٩٣٧ بمدينة مونتريه بسويسرا.

اتصلت بأعضاء الجبهة الذين اشتركوا في توقيع المعاهدة فتنصلوا واحدًا في إثر واحد واعتذروا جميعًا بأعذار واهية وأشاعوا في مجلسهم أن هذا مؤتمر مقضي عليه بالفشل فإن الدول التي لها امتيازات في مصر لن تسلم بالتنازل عن امتيازاتها ولن توافق على إلغاء المحاكم المختلطة والمحاكم القنصلية وإحلال الوطنية محلها.

نمى إليّ أن علي ماهر يدرس القانون الدولي للملك وأن الشيخ المراغي شيخ الأزهر يعلمه الدين وهما يلتقيان به من يوم إلى آخر دون علم الوزارة ومن غير إذنها.

وقد كلفت وكيل وزارة القصر (عبد الفتاح الطويل) ببحث هذه المسألة مع مجلس الوصاية وكيف يسمح بتخطي الوزارة في مسألة خطيرة كهذه.

أخبرني عبد الفتاح الطويل أن مسألة تدريس علي ماهر والمراغي للملك شخصية بحتة وأنه هو الذي طلب منهما أن يتثقف ويتعلم حتى إذا ما بلغ سن الرشد وتولى الأمر كان على اطلاع وثقافة يؤهلانه لحمل العبء وأن المسألة لم تتعد هذا وليس من ورائها أي غرض سياسي، ولكنني أفهمت عبد الفتاح وشرحت للوزارة أن هذه لعبة من علي ماهر وأن الملك شاب صغير ولا ينبغي أن نناصبه العداء من الآن حتى لا يتخذها خصومنا ذريعة لبث الفرقة بيننا وبينه، ومادام لم يتول الحكم وليس له دخل في شئون الدولة فلنتركه يتعلم كما يريد.

قبلت هذا الرأي على كره لأني أعلم الناس بخبث علي ماهر ودهائه.

خاطبني الأمير محمد علي أثناء مقابلتنا بشأن رفع سن الرشد للملك إلى الحادية والعشرين ميلادية لأنه لم ينضج، ولا يمكنه بعد الأشهر القليلة الباقية على توليه السلطة أن يباشر العمل أو يتحمل المسئولية، ولكني رفضت هذا الرأي وقلت للأمير لا ينبغي أن نصدم شابًا في مستهل شبابه وقد عاد من الخارج لم يلوث ولم يتأثر بالمؤثرات التي كان والده متأثرًا بها والأجدر أن نترك الأمر على ماهو عليه.

احتد الأمير وقال إنه ابن فؤاد الذي حاربكم حربًا لا هوادة فيها وأن المثل يقول هل تلد الحية إلا الحية، غير أني اعتقادًا مني بأن الأمير محمد علي يسعى إلى إطالة أمد رياسته لمجلس الوصاية، وثقة بأنه إذا كان فاروق ابن فؤاد الطاغية فإن محمد علي ابن توفيق الذي جلب لنا الاحتلال الإنجليزي الذي نقاسي نتائجه حتى الآن، ولو كان من يرأس مجلس الوصاية رجلاً يوثق به أو ليس متهافتًا على الإنجليز ومرتميًا تحت أقدامهم لكان من الممكن أن أفكر في حل لهذه المسألة ولكني تركتها للأقدار تفعل ما تشاء.

بدأت أحزاب الأقلية توعز إلى صحفها بتوجيه النقد إلى الوزارة، وبدأ بعض تجار البورصة يدعون أن الوفد لو ألغى الامتيازات فسيعامل الأجانب معاملة قاسية وسيحرمون من مزايا كثيرة.

فطلبت مندوبي الصحف وألقيت إليهم بتصريح رسمي كذبت فيه كل الشائعات التي تحاك حول إلغاء الامتيازات وطمأنت الجاليات الأجنبية من جديد على مصالحهم وعلى أن الحكومة سترعاها كما ترعى مصالحها ونعطيهم كل حقوقهم ولن يمسهم سوء بحال من الأحوال.

نقل لي المتصلون بالمراغي شيخ الأزهر أنه استطاع أن يكسب ثقة فاروق وأنه طواه تحت ذراعه كما يقول حتى يمكنه أن يتسلط عليه متى تولى الملك وحتى لا يتزعزع مركزه ويظل شيخًا للأزهر، وقد حدثني صديقه حمدي سيف النصر بك (عضو الوفد المصري) أنه يسمع من المراغي من وقت لآخر نقدًا للوزارة وتعريضًا خفيًا بشخصي، وأنه غضب لذلك وقرر أن يقلل من استقباله في داره بحلوان، ولكني نصحت له أن يظل على صلة به حتى نعلم مجرى الأحداث وما ينتوي هؤلاء القوم أن يفعلوه مع الذين أحسنوا إليهم.

اتصلت بعدة ممثلين للبلاد التي لرعاياها امتيازات في مصر واجتمعت بأكثر ممثليها وتناقشنا طويلاً في وجوب تأييدهم لنا في مؤتمر إلغاء الامتيازات وقد أعطيتهم الضمانات الكافية على أن رعاياهم سيكونون في أمن وطمأنينة وأن القضاء المصري الذي طبقت سمعته بلاد أوروبا وعرف بنزاهته وكفاءته سيكون محل ثقتهم جميعًا، وقد استجاب عدد كبير من الذين التقيت بهم ووافقوني على رأيي وطلب بعضهم إعطاءه فرصة للاتصال بحكومته.

التحقيـق

(١)

سعى الملك حثيثًا من أجل تشكيل وزارة ائتلافية، ولكن الوفد أصر على رفض الفكرة من أساسها، ولذلك عندما قدمت وزارة (نسيم) استقالتها (٢٢ يناير) لم يكن ثمة بديل عن أن يقوم علي ماهر بتشكيل وزارة انتقالية (في ٣٠ يناير) وبعدها مباشرة صدر المرسوم الملكي بتعيين وفد المفاوضين برئاسة النحاس (٣١ فبراير) ورغم أن المذكرات لا تؤكد على الطابع الانتقالي لهذه الوزارة تحت تأثير الضغوط الداخلية لثورة الشباب، فإن شهادة محمد علي علوبة، توضح الأسباب الحقيقية لتشكيل هذه الوزارة وتؤكد طابعها الانتقالي في الوقت نفسه.

يقول علوبة:

"خاطبني السيد علي ماهر بالتليفون في منزلي وكان رئيسًا للديوان الملكي وأخبرني أن الملك عهد إليه بتأليف الوزارة وطلب إليَّ أكون فيها.... قابلته في مكتبه وكان غاصًا بالمرشحين وسألته على انفراد عن سبب ترشيحي فكان جوابه أن الملك تشدد في قبولي الوزارة وأن تكون وزارة المعارف وأبان لي أن وزارة توفيق نسيم سقطت لثورة بين طلاب الجامعة، حدث منها بعض التخريب فوق المظاهرات والاضطرابات ولا سبيل لتهدئة الحال إلا أن تكون وزيرًا للمعارف حتى تخمد الفتنة.

أجبته إنني أقبل وزارة المعارف رغم ما هي عليه من ارتباك بشرط أن يكون عملنا إعادة دستور ١٩٢٣ وأن نستقيل بعد إعادته وحسبنا مدة الانتخابات وإعادة البرلمان وفق الدستور القديم فكانت مائة يوم، قلت إني على هذا الحساب، أقبل..."

(٢)

في منتصف هذا العام، وعندما كانت نصوص المعاهدة يتم تدبيجها في وزارة الخارجية البريطانية، أبلغ (أنتوني إيدن) مندوب إنجلترا السامي في القاهرة (لامبسون) بأنه يرى أن الحل الجذري الوحيد لمشكلة مصر هو ضمها للإمبراطورية البريطانية:

One fundamental solution was the inclusion of Egypt in the British Empire

وهو ما وافقه (لامبسون) عليه، مؤكدًا أنه خطر في باله هذا عندما لامست قدماه أرض مصر للمرة الأولى، غير أنه في ظل الظروف السائدة – وقتها – فإن إمكانية وضع هذا الحل موضع التنفيذ غير قائمة.

ولعل هذا يفيد بأن إنجلترا التي بدأت المفاوضات العسكرية – تحديدًا مع مصر مبكرًا، كانت تريد صياغة حل غير دائم لمشكلة تراها دائمة، أو حلاً مؤقتًا لمشكلة مزمنة. فقد كانت

المحاولة كلها ضربًا من محاولات التأقلم مع ضغوط دولية تؤذن بانفجار واسع مسلح، ومع ضغوط داخلية تأخذ شكل هبات وطنية متتالية لا يوقفها القمع ولا يحتويها التنكيل.

في شهر يناير (١/٢٦) يكتب لامبسون إلى إيدن قائلاً: "إن المهم هو حفظ الأمن والنظام"، ويخاطب في اليوم نفسه علي ماهر مهددًا - مثلما أخبر إيدن: "إذا فشلت مصر في إيجاد حكومة يمكن التفاوض معها في أمان فإن الخطأ لن يكون خطأنا..." قبلها كان قد أبلغ الملك فؤاد في مذكرة شفوية، أن: "الإخفاق في عقد اتفاق قد يترتب عليه نتائج جدية، وأن بريطانيا العظمى تحتفظ في هذه الحالة بحق إعادة النظر في سياستها تجاه مصر..."

وحين تبدأ المفاوضات العسكرية بعد أن اشترط الجانب البريطاني الانتهاء من صياغة نصوصها أولاً، يقفز المفاوضون البريطانيون فوق ما تم الاتفاق عليه مع النحاس في مفاوضات ١٩٣٠، متعللين بأن الموقف الدولي برمته قد تغير. كانت مفاوضات ١٩٣٠ قد انتهت إلى انسحاب القوات البريطانية وتمركزها في نقطة واحدة بجوار الاسماعيلية (من المعسكر إلى محطة المحسمة) وضغط البريطانيون للحصول على نقطة تمركز ثانية، وهي منطقة (جنيفة) على الجانب الجنوبي الغربي للبحيرات المرة، وكان لهم ما أرادوا ثم أضيف إلى نقاط التمركز مناطق يسمح فيها للقوات البريطانية بالانتشار التدريبي، وكانت حدود الخريطة المفتوحة لذلك، تمتد من القنطرة شمالاً إلى خط سكك حديد القاهرة السويس جنوبًا، كي يصل إلى حدود مدينة القاهرة ومديرية الجيزة، أما شرقًا فإنه يشمل جميع المناطق المتاخمة لقناة السويس حتى الحدود الدولية أي شبه جزيرة سيناء كلها.

وأضيف إلى ذلك بقاء وحدات عسكرية بريطانية في منطقة الاسكندرية وضواحيها لمدة ثماني سنوات وكذلك بقاء فصائل من الجنود البريطانيين في مينائي السويس وبورسعيد، وكان الاتفاق قد تم في عام ١٩٣٠ على أن يكون إجمالي حجم القوات البريطانية المسموح لها بالوجود في مناطق تمركزها بمصر، لا يتجاوز ٨ آلاف جندي، وتم الاتفاق على أن يزاد الحجم إلى ١٠,٠٠٠ جندي إضافة إلى ٤٠٠ طيار وحوالي ٤٠,٠٠٠ مستخدم مدني.

ثم أضيف إلى الاتفاق قيام مصر وعلى نفقتها ببناء الثكنات والمنشآت الصالحة، وفقًا لأحدث النظم لإقامة الأعداد السابقة من القوات البرية والبحرية والجوية، وألا يتحمل الجانب البريطاني في ذلك سوى ٢٥٪ من التكلفة بحجة أن الثكنات - بما فيها بناء مساكن للمتزوجين من الضباط والجنود - ستقوم في أراضي مصرية، بل واتفق على ألا يتم انسحاب القوات البريطانية إلى مناطق تمركزها الجديدة إلا بعد أن يقوم الجانب المصري بالانتهاء من بناء هذه المنشآت والثكنات.

وقد أضيف نص جديد تقوم الحكومة المصرية بموجبه بإنشاء طرق ذات مواصفات خاصة، وهي محور القاهرة-الإسكندرية الصحراوي (الذي سمي طريق المعاهدة)، محور القاهرة-السويس الصحراوي، محور القاهرة-الاسماعيلية ثم بورسعيد.

أما أخطر النصوص العسكرية في هذه المعاهدة فهو ما يتعلق بالتزام مصر بتقديم مساعدات للقوات البريطانية في كل موانيها ومطاراتها وطرق مواصلاتها (إضافة إلى اتخاذ كل الإجراءات الإدارية والتشريعية اللازمة بما في ذلك إعلان الأحكام العرفية وفرض رقابة على الأنباء والصحف) وذلك في حالات: «الحرب» و«خطر الحرب» ثم حالة ثالثة جديدة تمامًا - هي قيام «حالة دولية مفاجئة» وهي مسألة تقديرية تعود إلى الجانب البريطاني وحده وبموجبها يتاح للجيش البريطاني استخدام كل الأراضي المصرية، وكل الأجواء المصرية، وزيادة حجم القوات البريطانية، دون سقف عددي أو زمني وحسب نص المعاهدة: (.. لإنجلترا أن تزيد قواتها إلى ما تشاء في هذه الحالات)، لقد نصت المعاهدة بعد ذلك على سحب الموظفين البريطانيين من الجيش المصري وإلغاء وظائف المفتش العام والموظفين التابعين له مع ترك تحديد مدة الانتفاع بمشورة البعثة العسكرية البرطانية لمصر. ولما كان أمد المعاهدة عشرين عامًا، فقد أصر البريطانيون على إضافة بند ينص على "... ألا يختلف طراز أسلحة الجيش المصري عن الطراز الذي يستعمله الجيش الإنجليزي..." وكان ذلك يعني التحكم في نمو الجيش المصري لعدم وصوله درجة تمكنه من الدفاع عن قناة السويس بعد مرور هذه السنوات العشرين.

بل إن الدبلوماسية البريطانية كانت تفكر في ذلك الوقت، في ضرورة توفير صوت واحد إضافي لصالح إنجلترا في عصبة الأمم بعد عشرين عامًا لكي لا يتم انسحاب القوات العسكرية البريطانية من قناة السويس إذا قرر المصريون اللجوء إلى المنظمة الدولية لتنفيذ بنود المعاهدة عام ١٩٥٦!!

(٣)

ليس صحيحًا ما تورده المذكرات بشأن طلب محمد محمود التساهل مع الوفد البريطاني، بخصوص إضافة نقطة تمركز جديدة للقوات البريطانية في بورسعيد أو غيرها من البنود التي تم تعديلها عن مفاوضات ١٩٣٠ .

فالحقيقة أن محمد محمود كان من أكثر الأصوات في وفد المفاوضات اعتراضا على أغلب هذه البنود، فقد اعترض على النص الذي يلقي على الحكومة المصرية أعباء إنشاء طرق لتسهيل تحركات القوات البريطانية في حالة الطوارئ.

كما أنه أبدى اعتراضًا واضحًا في الجلسات على الحالة الجديدة التي تم إضافتها إلى الحالتين اللتين تستوجبان تقديم مصر لمساعدات وتسهيلات للقوات البريطانية في كل أراضيها وموانيها وأجوائها، وهي الوضع الذي أطلق عليه «قيام حالة دولية مفاجئة» إضافة إلى الحالتين السابقتين وهما: «حالة الحرب» و «حالة خطر الحرب» وقد هدد بالانسحاب من المفاوضات بسبب ذلك، وقد ذهب محمد محمود منفعلاً ليناقش مخاوفه وتحفظاته بل حماسته لقطع المفاوضات والانسحاب منها مع كل من عبد العزيز فهمي، ومحمود عبد الرازق، ومحمد حسين هيكل الذي يروي ما حدث:

"... رأي محمد محمود باشا في نظرية خطر الحرب الداهم والمفاجأة الدولية التي يخشى خطرها، ما لا يطمئن ضميره إليه، فجاء من الإسكندرية حيث كانت المفاوضات تجري في قصر أنطونيادس والتقى في القاهرة بمنزل عبد الرازق باشا بعبد العزيز فهمي ومحمود عبد الرازق باشا وبي، وشرح لنا الموقف ورأيه فيه وقد أيدناه فعلاً وجعل عبد العزيز باشا فهمي يشرح لنا ما تنطوي عليه عبارة الخطر من احتمالات لا حصر لها.

على أن محمد محمود باشا أخبرنا أن المفاوضين الآخرين لا يتحمسون حماسته لقطع المفاوضات، بل يحاولون حمله على ألا ينسحب من هيئة المفاوضات.

عند ذلك أشار عليه عبد العزيز باشا فهمي - وأيدنا كلنا مشورته، بأن يتمسك في مسألة الامتيازات بإلغائها الإلغاء التام، وبضرورة النص على ذلك في صلب المعاهدة... فإن حصل على هذه الترضية كان كسبًا لمصر يعوضها عن التسليم بالمعاونة في حالة المفاجأة الدولية وتكون حجة له في عدم انسحابه فإذا ما رفضت إنجلترا هذا النص على إلغاء الامتيازات مع أنها كانت تؤيده من قبل تأييدًا حارًا، فلرئيس الأحرار الدستوريين أن ينسحب من هيئة المفاوضات وله كل العذر عن تصرفه."

قد قبلت بريطانيا النص الذي طالب به محمد محمود، بعد أن قبل الوفد ما تحفظ في قبوله الأحرار الدستوريين!

(٤)

يكتب (لامبسون) في مذكراته، عن الملك فؤاد، بعد أن عاد لتوه يوم (٣٠ أبريل) من جنازته والتي سار خلف موكبها في الطرقات من قصر عابدين حتى مسجد الرفاعي بالقلعة، قائلاً: "... لقد كان في التحليل الأخير بمثابة حد فاصل بيننا وبين الأحزاب المصرية..." وهي صياغة بالغة الدقة لدور الملك فؤاد خلال سنوات حكمه لكن (لامبسون) وفي المقام نفسه، يقيم هذا الدور تقييمًا عكسيًا، تحت تأثير سحائب الحزن التي غشيت وجهه فيقول:

"... لا ريب أن الملك فؤاد فشل في أن يشعر العالم بقوة الشعب وخطورته..."

فإذا كان فؤاد قد نجح في أن يكون حدًا فاصلاً بين المستعمر والشعب فإنه نجح وبنفس المنطق الاستعماري بل والمنطوق أيضًا في "ألا يشعر العالم بقوة الشعب المصري وخطورته..." إلا إذا كان لامبسون يتحدث في الفقرة الأولى كمندوب الإمبراطورية البريطانية السامي في مصر، وفي الفقرة الثانية، كوطني مصري، أو على الأقل كليبرالي بريطاني صالح،

ذلك هو مقياس نجاح فؤاد بالفعل، وهو أنه استطاع أن يحتوي قوة الشعب المصري وخطورته خلال سنوات عاصفة تربو على تسعة عشر عامًا (من ١٩١٧ حتى ١٩٣٦). وكان

مصدر مشروعية سلطته أو عرشه بلاغ بريطاني بعد وفاة السلطان حسين كامل (٩ أكتوبر ١٩١٧)، يقـــول: "... إن حكومة صاحبة الجلالة تعرض على عظمتكم تبوء هذا العرش السـامي..." وقد رد في خطاب العرش معترفًا بـ أنه "... قد تولينا بالاتفاق مع الدولة الحامية عرش السلطنة المصرية..." وكان ذلك بمثابة ميثاق وعهد فقد وهب بريطانيا العظمى في أعقاب ذلك من أموال الشعب المصري ثلاثة ونصف مليون جنيه، "اعترافًا - كما صدر القرار السلطاني - بجميل بريطانيا العظمى التي حمت البلاد من خطر الغارات..."

ولذلك فبقدر ما كان متخاذلاً أمام المحتلين، كان مستأسدًا أمام الوطنيين، ولم يكن ثمة مفارقة في أن الرجل الذي قبل أن يعمل سلطانًا تحت حماية أجنبية قاتل دومًا وببسالة شديدة لكي لا يكون ملكًا تحت حماية الدستور!

في لقاء بينه وبين جورج لويد (٢٦ ابريل ١٩٢٧) قال للمندوب السامي بالحرف الواحد مثلما سجل في تقريره إلى لندن:

".... إن المصريين قد أصابهم السأم من البرلمان، إنه أشبه بغنم تمأميء، تتبع حاديها كيفما اتفق دون أن تبصر.

القادة فاسدون، والتابعون جهلة... والمعارضة ضعيفة، والدستور المصري مهزلة خادعة... إن الأمر كله عبث..."

فإذا كان التاج البريطاني وحده هو مصدر مشروعية ملكه، فإن تاجه وحده - كما أراد - ينبغي أن يكون مصدر مشروعية الحياة في مملكته، لا دستور، ولا برلمان، ولا قانون.

إنه سادس أنجال الخديوي إسماعيل (فقد رزق والده بثمانية من البنين وثمانية من البنات أيضًا) ألحق في الحادية عشرة من عمره بمعهد (توديكوم) في جنيف، ثم بالمدرسة الإعدادية الملكية في (تورينو)، ثم بالمدرسة الحربية وانتظم في سلك الجيش الإيطالي ضابطًا بالفيلق الثالث عشر من مدفعية الميدان بروما.

في عام ١٨٩٠ عينته الحكومة التركية ملحقًا حربيًا لسفارتها في فينا، ثم استدعاه ابن عمه (عباس حلمي) إلى مصر، (١٨٩٢) وعينه كبيرًا لياورنه برتبة لواء في الجيش المصري، حيث أحب امرأة تدعى (سوارز) وحاول أن يتزوجها، ولكن محاولته اصطدمت بكونها متزوجة بالفعل، وبكونها يهودية أيضًا ولكن صداقتهما استمرت، رغم أنه تزوج في العام التالي (١٨٩٣) من ابنة عمه (شويكار) التي كانت في التاسعة عشر وارثة لثروة طائلة أسالت لعابه، فقد أنفق سنوات عمره السابقة فقيرًا، رغم أنه كان نهمًا للطعام، وعاشقًا للقمار، وقد انحدرت هاتان الصفتان إلى ابنه من بعده.

وصفته واحدة من مربيات القصر - بعد أن أصبح ملكًا - بأنه ".... كان رجلاً سمينًا

يشبه النسر...." وقد كان بالفعل قصيرًا، بدينًا قوي البنية، له شارب ملفوف إلى أعلى، وكان يختار ملابسه مقلمة بقلم رفيع، وجيوب مربعة، حتى تمنح قامته مزيدًا من الإحساس بالطول. وكان مصابًا بداء النظافة القهري، ويروي (ستاديم) أنه كان يرش الكولونيا وهو ينتقل من مكان إلى آخر من زجاجة من الذهب الخالص يحملها معه دائمًا.

لكنه رغم ذلك، يعد من أكثر أمراء الأسرة العلوية ثقافة وذكاءًا، وإذا كان ابنه فاروق قد ورث هذا الذكاء، فإن الثقافة لسوء الحظ لا تورث.

يصفه الذين عملوا إلي جواره، بأنه كان فائض النشاط، يحب العمل جدًا، وبالقدر نفسه يحب المتعة والراحة، أما بقية صفاته فقد توزعت بين: الحزم، وحدة الذهن والالتواء والاستعلاء والريبة والقسوة الشديدة والولع بالنكات الجارحة للغير، والجاذبية والاستهتار وكان فوق ذلك عاشقًا لنفسه، فقد تولدت لديه قناعة بأن الأقدار التي جعلته ملكًا – خروجًا على خط العرش – قد ادخرته مبعوثًا لعنايتها في مهام أخرى.

سعى مبكرًا ليكون ملكًا أو إمبراطورًا على طرابلس الغرب، ثم سعى بعد ذلك بعامين ليكون ملكًا أو أميرًا على ألبانيا (١٩١٣) ثم بعد أربع سنوات ودون سعى أو طلب دان له ملك مصر.

في الخمسين وبعد اختياره سلطانًا أخذ يبحث عن زوجة تلد له وليًا للعهد ووجدها في شابة صغيرة في التاسعة عشر قدمتها له ليدي جراهام – زوجة السكرتير الأول للمقر البريطاني – كانت ذات عيون داكنة، رغم أنها ابنة حفيد الكولونيل سيف الشهير باسم سليمان باشا الفرنساوي ورغم أن (نازلي عبد الرحيم صبري) رفضته في البداية إلا أنه استطاع أن يقنعها بعد لقائهما بالزواج.

بعد عام واحد (١٩٢٠) انجبت له فاروق، ثم أربع أميرات بعد ذلك.

جمع ثروة طائلة، فسر البعض نهمه المستمر لها، بطفولة جافة فقيرة، ورغم أن (ستاديم) قد قدر ثروته قبل رحيله بـ ٧٥ ألف فدان من أجود الأراضي الزراعية، ومائة مليون دولار ومائتي سيارة، وخمسة قصور واستراحات من البحر المتوسط حتى السودان، وقطار خاص ولكن الحقيقة أن الأراضي الزراعية التي كانت في حوزته وصلت عام ١٩٣٦ عند رحيله إلى (٢٨,٠٠٠ فدان) رغم أن ملكيته المحدودة وفق الوثائق الرسمية – نقلاً عن د. عاصم الدسوقي – بلغت عام ١٩١٧ عندما تولى السلطة فقط (٨٠٠ فدان).

ومن الصعب تقدير بقية أرقام الثروة، نظرًا لأن الجانب الأكبر منها قد تم تهريبه خارج وادي النيل.

تلك شهادة (لامبسون) المندوب السامي البريطاني من واقع مذكراته في التوقيت ذاته:

"... قابلت (روبرت رولو) وكان من سنوات قائمًا على شئون ومصالح الملك فؤاد، وقد

أبلغني أن الملك فؤاد لديه ثروة طائلة وأنه - أي رولو - قام في أحد المرات بتحويل ٤٠٠ ألف جنيه استرليني إلى إيطاليا لصالح الملك وأنه ليس لديه أدنى شك في أن ثمة مبالغ مالية أخرى تم تحويلها إلى الخارج... بيد أنني على يقين من صحة ما قاله (رولو) عن أنه كان من المقربين للملك فؤاد قبل تولية العرش، وامتدت صداقتهما منذ ذلك الوقت، ولقد تخلى (رولو) عن الشئون المالية للملك منذ تولي الإبراشي منصبه في القصر الملكي، وقد أضاف (رولو) أن الملك فؤاد لابد وأن يكون قد جمع ثروات أخرى من قيامه ببيع بعض الأراضي الزراعية في السنوات الأخيرة..."

لم يتوقف فؤاد عن محاولة تقويض الدستور وهدم أركان البرلمان، كلما سنحت له الفرصة بذلك، بل لقد حاول وهو على فراش مرضه الأخير أن يعدل في موازين الجيش ليضيفه إلى رصيده، في معركة داخلية، كان يحتسبها أو يحتشد لها بالفعل، وكأنه كان حريصًا على أن ينفذ نقيض ما ذكره في بداية حكمه للسير (ريجنالد وينجت) من رغبته في قيام جبهة وطنية وملكية دستورية) أما علاقته بالإنجليز فحسب الرافعي: "... لم تبد منه مغاضبة أو معارضة للاحتلال البريطاني في أي موقف من المواقف ولا بذل أي تأييد أو مناصرة للحركة الوطنية.."

ومن المؤكد أن فؤاد كان يزدري المصريين، وفي مقدمتهم قادتهم، ولذلك ثمة إجماع على أن الشعب المصري لم يحبه مطلقًا، بل لم يمنحه أبدًا، جانبًا من مشاعر الاحترام التي كان دائمًا ما يمنحها عن رضا لقادته، حتى لو اختلف معهم.

ولذلك كان وصف «نيويورك تايمز» لحالة مصر في اليوم التالي لوفاته دقيقًا.

لقد كتبت بالنص:

"... بالرغم من حقيقة أن مصر اليوم في حداد رسمي لوفاة الملك فؤاد إلا أن البلد في مناخ طبيعي يدهش من يراه، الجميع ذاهبون إلى أعمالهم كالمعتاد، وباستثناء مشهد الأعلام وهي منكسة وصورة الملك فؤاد وعليها شريط أسود، فليس ثمة شيء يدل على وفاة حاكم البلاد بالأمس..."

مات الملك....

وكان رجع الصدى داخل القصر الملكي وحده:

عاش الملك...

(٥)

كان وقع موت فؤاد على وزرائه عنيفًا، رغم أنه كان متوقعًا، وحين أبلغ (لامبسون) في الواحدة ظهرًا بموت فؤاد، بعد وفاته بعشر دقائق بالضبط، وتوجه إلى قصر عابدين ثم إلى مكتب رئيس الوزراء وجـد المكان مكتظًا: ".. فكل الوزراء هرعـوا إلى هناك كـالدجـاج المذعور..."

وفي الجنازة نفسها وبعد وصول النعش إلى ساحة مسجد الرفاعي، ورفعه من فوق عربة المدفع حضر الأمير (محمد علي) وجلس إلى جانب (لامبسون)، ووسط هذا الجو الملبد بالأسى تكلم معه: "راح يلح علي بشأن مطالبته بالوصاية على العرش، ورغم أنني تحفظت في الحديث معه، إلا أنني لم أتركه إلا بعد أن أبلغته بأنني أفكر في الأسماء التي يتعين ترشيحها لمجلس الوصاية."

كان تفكير (لامبسون) يدور أبعد من مجرد أسماء الأوصياء على العرش، فقد كان يدرك بعـمق أن الملك: "كان في التحليل الأخير بمثابة حد فاصل بيننا وبين الأحزاب المصرية باختلاف نزعاتها..." ولذلك "... فإنني على ثقة من أن سياستنا هنا سوف يقابلها المزيد من المصاعب، وباختصار فإن المشكلة الرئيسية التي تواجهنا الآن: هي كيف نحكم قبضتنا على الملك الشاب؟"

وبدأ الملك الشاب يظهر تمردًا فور وصوله، فقد وصلت من داخل القصر الملكي إلى (لامبسون) معلومات تفيد بأن "... الصبي قد أصابه الغرور بشكل واضح وراح ينال من شأن أفراد العائلة المالكة البريطانية واحد تلو الآخر، فالملك إدوارد لا يعرف شيئًا يمكن قوله ودوق كنت لا يعدو أن يكون سوى فتاة، أما دوق جلوستر فهو لا يساوي شيئًا ... إلخ" أما الملكة نازلي فقد "... أصبحت أكثر تسلطًا تحدوها الرغبة في إبعاد كل العناصر التي ارتبطت بشخص الملك فؤاد عن الخدمة في القصر، بل وراحت تعيد إلى القصر كل العناصر السيئة التي سبق طردها في الماضي..."

يذهب (لامبسون) للقاء (الصبي) ويعيد على مسامعه القول بأن والده (الملك فؤاد) كان يتخذ لنفسه عبارة الصبر شعارًا ويحذره من تملق الإيطاليين وتزلفهم إليه ثم يضطر للذهاب إليه مرة ثانية بعد أن وصلته شكوى من الأستاذ (فورد) الذي اختاره مدرسًا له..) "فمنذ أن وصل مستر فورد لم يقابله الملك سوى مرة واحدة ولمدة خمس دقائق.."

ويضيف (لامبسون): "إن هذا بدوره يعطي انطباعًا سيئًا عن الملك: فضلاً على ذلك فإن الشكوى لم تكن من جانب فورد وحده وإنما كان هناك آخرون... وقد طلبت من جلالته أن يهتم بأمور عمله...".

لقد كتب (لامبسون) إلى (إيدن) يخبره أنه قال للأوصياء على العرش الذين اختارهم بنفسه – بعد توقيع المعاهدة أنه: "لا يمكن أن تكون هناك أية حكومة مصرية تهمل في

الاستماع إلى مشورتنا، ثم تأمل في البقاء طويلاً في الحكم...".

كان الملك فؤاد قد ترك وصية بأسماء من اختارهم كأوصياء، وتبين عند فتحها عقب وفاته، أنها مؤرخة في ٢١ يونيو ١٩٢٢، وأنها ضمت أسماء: محمد توفيق نسيم، عدلي يكن، محمد فخري، وقد انتقى (لامبسون) الأسماء البديلة التي يريدها، وبذلك قرر البرلمان – ذو الأغلبية الوفدية – تأليف مجلس الوصاية من: الأمير محمد علي، عبد العزيز عزت وشريف صبري ولم يكن ذلك مثار اعتراض من أحد، حتى (الصبي) نفسه، فقد أخبر (لامبسون) بعد التعديل بنفسه أن اختيارهم كان موفقًا فأحدهم هو ابن عمه (الأمير محمد علي)، والثاني يعرفه جيدًا وهو زوج لإحدى الأميرات (عزيز عزت)، أما الأخير (شريف صبري) فهو خاله!

(٦)

غريب أمر زيارة النحاس ومكرم عبيد لألمانيا ولقائهما بهتلر في أكتوبر ١٩٣٦ .

غريب أمر التوقيت، وأمر الزيارة نفسها، وغايتها ثمة ما يشبه الإجماع في كل المراجع العربية على أن لقاء النحاس وهتلر قد تم في عام ١٩٣٧، بعد حضوره مؤتمر مونترو الخاص ببحث الامتيازات الأجنبية في مصر، وقد يكون هذا الخطأ قد انحدر أساسًا (في أعقاب الثورة المصرية) للرافعي.

كتابان فقط بالعربية قد أوردا التاريخ الصحيح، ربما لأن كلاهما اعتمد على الوثائق البريطانية وهما: رسالة د. مصطفى الفقي عن «الأقباط في السياسة المصرية» ورسالة د. هدى عبد الناصر عن «الرؤية البريطانية للحركة الوطنية المصرية» وإن كان د. مصطفى الفقي يعود ويربط الزيارة بمؤتمر مونترو الذي تم بعدها بعام كامل.

الثابت من الوثائق البريطانية بالفعل أن الزعيم النازي قد استقبل النحاس ومكرم يوم ١٦ أكتوبر ١٩٣٦ غير أن أسباب الزيارة الحقيقية لم تكن واضحة لأحد.

لقد أعلن أن سبب زيارة رئيس الوزراء المصري ووزير ماليته لألمانيا هو رغبتيهما في استشارة طبيب ألماني حيث لعب الوزير المفوض المصري في برلين دورًا في إقناع البريطانيين بذلك، فأسر في أذن (أريك فيس) من السفارة البريطانية هناك بأن صحة مكرم عبيد متدهورة للغاية، حتى أن الطبيب الذي استشاره أكد أن عبيد يمكن أن يموت في أي لحظة.

ويبدو أن المبالغة في سوء حالة عبيد – والذي عاش بعد ذلك ربع قرن كامل – استهدف أسباغ أهمية ومصداقية على التفسير الطبي للزيارة.

لقد التقى النحاس أيضًا – خلال هذه الزيارة لألمانيا، بالخديوي عباس حلمي (شقيق الأمير محمد علي) الذي كان يحاول العودة إلى مصر بعد موت فؤاد لاسترداد العرش أو

تغيير مساره بعيدًا عن أبناء فؤاد وكانت معلومات البريطانيين أن النحاس قدم تشجيعًا لفكرة الخديوي والعودة إلى مصر، رغم أنه أخبر البريطانيين بنقيض ذلك وقد تلقى (لامبسون) تأكيدات من لندن بتحذير النحاس من أن عودة الخديوي عباس لن تكون موضع رضا الحكومة البريطانية، وحيث فاتح (لامبسون) النحاس بأن لقاءه مع الخديوي في (كارلسيار) وأخبره أن المقابلة لم تستهدف سوى تقديم استشارة للخديوي حول مصالحه في مصر، لكن أمين عثمان قدم للسفارة البريطانية في القاهرة تفسيرًا آخر يراه الفقي الأقرب إلى الحقيقة وهو أن الهدف من الزيارة كان يتعلق بموقف ألمانيا من الوفد الإنجليزي وقد زاد من تأكيد ذلك وصول معلومات إلى بريطانيا بأن النحاس ومكرم أظهرا خلال الزيارة اهتمامًا كبيرًا بتنظيمات الشباب النازية وبتاريخ وتنظيم كتائب العاصفة.

وقد واجه (كيلي) - مثلما كتب إلى لندن بتاريخ ١٦/١٠/٣٦ - مكرم عبيد بذلك وقال له مكرم أنه والنحاس "قابلا الفهرر هتلر ود. جوبلز وأنه من الخطأ القول أن القمصان الزرقاء يتم تشجيعها من أجل هدف غير دستوري، وأنه مسموح للأعضاء بأن يلعبوا في السياسة لحسابهم...".

وكان (لامبسون) قد حذر (مكرم) قبل ذلك من أن نمو منظمة القمصان الزرقاء سيكون بمثابة خلق (فرانكشتين) لا يمكن السيطرة عليه بعد فترة.

لقد كتب (إيدن) إلى (لامبسون) في الشهر الثاني يقول إنه: "يجب الضغط على النحاس لكي تتخذ إجراءات للسيطرة على تلك الحركة والحد من أنشطتها..." "... إن تنظيمًا مثل القمصان الزرقاء له مخاطر واضحة على النظام العام والأمن.."

وقد كتب (لامبسون) إلى (إيدن) في ١١/١٠ أن "النحاس فكر في الوضع ومخاطره الكامنة جيدًا.. وما يختلف معه هو الأسلوب لمعالجة المشكلة، فإذا قام الوفد بعد أن وصل إلى السلطة بنبذ القمصان الزرقاء، فالنتيجة الوحيدة ستكون اتهامه بعدم الوفاء للقاعدة وتحويل القمصان الزرقاء إلى منظمة من الساخطين... " "... والأفضل أن يحقق سيطرة منظمة على الحركة وأن يحولها إلى قنوات غير ضارة ومشروعة وأن يتخذ خطوات للتأكد من أن كل العناصر المشبوهة يتم التخلص منها بصرامة.... وسوف يكون حمل السلاح من أي صنف أو نوع ممنوع منعًا باتًا..."

ولكن (إيدن) أرسل إلى (لامبسون) يقول له أنه غير مقتنع برد النحاس، وأنه ينبغي الحديث إليه مرة ثانية لكي يجعل هذه الأنشطة غير ضارة بشكل فعلي..

لقد كان المطلوب في الداخل - أيضًا - استسلامًا غير مشروط...!

(٧)

لم تكن مصر بعد معاهدة ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ هي مصر قبل معاهدة أغسطس ١٩٣٦، شيء ما تغير جوهريًا، ربما يتعلق بطبيعة نظرة عموم الناس إلى المصير الوطني ذاته.

لقد ابتلع المصريون في سكينة، أحجارًا كبيرة في انتظار أن يشرق فجر الخلاص من الاستعمار الإنجليزي، وحين قيل لهم إن ساعة الخلاص قد أذنت لم يروا شروقًا ولا صباحًا ولا انسحابًا.

رأوا لافتات كبيرة تتحدث عن الحرية، وحناجر ملتهبة تهتف للخلاص، ومفاوضون عادوا من رحلتهم ونصبوا أقواس النصر لأنفسهم، ليعبروا تحتها ويلتقطوا الصور التذكارية ثم أوسمة وألقاب وزعت كأنها مغانم حرب وضعت أوزارها، دون أن تطلق فيها الطلقة الأولى.

لقد قيل لهم على امتداد عشرات السنين أن عليهم أن ينتظروا حتى يحرر جهاد الزعماء السياسيين وطنهم من المحتل الغاصب، وأن كل شيء يمكن أن يهون في سبيل ذلك وقد هان كل شيء عليهم، ثم بعد طول انتظار فوجئوا بانتصار له طعم الهزيمة.

إذا كان هذا هو المجد الوطني فقد تقزم، وإذا كانت مشكلات الفقر والبطالة وتوزيع الثروة وعائد العمل القومي كلها قد تأجلت لعشرات السنين، فقد آن لهم أن يتقدموا الصفوف لأنه لم يعد هناك مجد وطني يطل من شرفة الأمل، فقد أغلقت النوافذ والأبواب، لم يجلس أحد ليفكر في ذلك كله ولكن خلايا العقل الوطني الجمعي، التقطت نتائجه في هدوء، وأفرزتها سلوكًا عامًا بعيدًا عن الهدوء أو السكينة.

وإذا كان الوفد قد ضم في هذا الوقت بالذات عددًا من كبار الملاك: (فؤاد سراج الدين - محمد سليمان الوكيل - بشرى حنا - محمد الحنفي الطرزي - أحمد مصطفى عمرو - فهمي ويصا - محمد صبري أبو علم - كمال علما - محمد محمود خليل - سيد بهنس إلخ...) فقد كون فريق من الشباب جمعية جديدة وكان اسمها (الجمعية الأهلية للباحثين عن عمل)، وكان شعارها المعلن هو: (نريد عملاً)، وفي مقدمة أهدافها البعد عن الأشتغال بالشئون السياسية وعدم تشجيع المرأة على العمل وإعادتها إلى البيت.

أما (الإخوان المسلمون)، الذين استفادوا من انعكاسات فترة قمع اسماعيل صدقي على بقية القوى السياسية، في تقوية صفوفهم، فقد أصبحت الفترة التالية على توقيع المعاهدة من أكثر فترات تنظيمهم حيوية حيث تدفقت أعداد كبيرة من الشباب إلى صفوفهم لعلها كانت تنشد السلوى والخلاص الروحي.

ولم يكن (الإخوان المسلمون) استثناء في ذلك، فقد كانت مؤشرات الهبوط في شعبية الوفد واضحة وجلية بل كانت جاذبيته الوطنية قد تآكلت وأنطفأت في عيون كثيرين، ذهبوا تلقائيًا ينشدون الخلاص في أوعية سياسية أخرى.

لقد كان التقارب الحادث بين الوفد والإنجليز بعد توقيع المعاهدة كما يقول د. علي الدين هلال مشيرًا إلى نتيجة أخرى - محسوبًا بالسلب على رصيده الجماهيري - فالتأييد الشعبي له لم يكن من سمات نضاله الأساسي ضد الوجود الاحتلالي فحسب بل ومن أمضى أسلحته ضد خصومه السياسيين. وكان من الطبيعي أن يتلقى القصر هذا السلاح ليظر بمظهر الوطني المدافع عن حقوق البلاد...؛

وفي مواجهة ذلك، تصرف الوفد بعصبية زائدة أحيانًا، وبتخبط واضح في أحيان أخرى.

كانت أهم علامات هذه العصبية الزائدة أسلوب الإعلان عن المعاهدة، وأسلوب التعامل مع السياسيين الوطنيين الذين سمحوا لأنفسهم بانتقادها.

على الجانب الأول وفي سياق الدفاع عن المعاهدة التي أسماها النحاس «معاهدة الشرف والاستقلال»، فقد قدم الوفد تفسيرًا جديدًا للاحتلال الأجنبي راح بموجبه يقول أنه لا يعني وجود قوات عسكرية أجنبية ولكنه يعني استخدام هذه القوات - فحسب - في الشئون الداخلية.

ثم كانت الترجمة العربية التي قدمت للنص الإنجليزي للمعاهدة قد حرصت على إسقاط بعض البنود مثل الحصانات والامتيازات التي تتمتع بها القوات البريطانية، والتي مع إلغاء اختصاصات الإدارة الأوروبية للأمن، أصبح من حقها التدخل لحماية الرعايا الأجانب، عندما تفشل الحكومة المصرية في تحقيق ذلك.

كما اختفت تفاصيل شروط إنشاء الطرق والكباري والمنشآت وقدمت على أنها جزء من برنامج حكومة الوفد في التعمير أما النصوص الخاصة بالسودان، فلم تجد مدافعًا عنها حتى أن (الرافعي) وصفها بأنها "تجعل السودان مستعمرة بريطانية تحرسها جنود مصرية، تحت إمرة الحاكم البريطاني...".

يقول عبد المغني السيد:

"... عقب الاستماع إلى خطاب مكرم في قاعة الاحتفالات بالجامعة نظمت قصيدة مع ازدياد تبرمي".

لا حررتنا ولا حققت أمالا	قد عدت بالقيد لا حطمت أغلالا
أحضرت هرا مريضا لا حراك به	وجئت تزعم أنك صدت رئبالا

ويضيف: " لقد نال إبرام معاهدة ٣٦ من مكانة الوفد في صفوف المثقفين ولم يلبث الوفد أن خسر الكثير من قواعده في الجامعة والمدارس، ليس بسبب المعاهدة فحسب بل بسبب أخطاء الحكم أيضًا، والكشف عن بعض حالات المحسوبية والفساد..."

وكان طبيعيًا أن يتصرف الوفد - أيضًا - بعصبية شديدة مع معارضي المعاهدة تلك شهادة (محمد على علوبة)، أنقلها بنصها لأهميتها:

".. لما كنت عضوًا بمجلس الشيوخ، ودرست مشروع المعاهدة ورأيت أنه جدير بالرفض، وحرصت على كتابة بحث مستفيض في هذه المعاهدة قبل أن تعرض على البرلمان، ألقيه في مدينة الإسكندرية، وأرتأى أصدقائي أن يستأجروا دارًا للسينما هناك معتمداً على نصوص الدستور في حرية إبداء الرأي وخاصة لمن هو عضو في البرلمان.

لكن الواقع كان على غير هذا، فإن حكومة مصطفى النحاس أمرت محافظ الإسكندرية بمنعي من إلقاء المحاضرة وإغلاق محل السينما، وتهديد صاحبه بسحب رخصه إن هو سمح بإلقائي محاضرتي. ورفض الرجل - وكان يونانيًا - بحجة أنه وقع عقد تأجير للحفلة. وإزاء هذا أرسلت الحكومة قوة من رجال البوليس وقفت أمام دار السينما وأغلقتها. ولما ذهبت في الموعد المحدد لإلقاء المحاضرة، رأيت الجنود وجمعًا من أصدقائي وما لبثنا أن رأينا مظاهرة من أنصار الحكومة يقودها رجل جهوري الصوت، محمول على محفة ينادي بحياة المعاهدة المصرية الإنجليزية وخشيت أن يقع صدام بين فريق أعزل وآخر يعتز بقوة الحكومة فأثرت العدول عن إلقاء المحاضرة والانصراف..."

ولم ييأس (علوبة) فقد:

".. طبعت المحاضرة في كراسة شرعت في توزيعها وأخذ طالب في كلية الحقوق-د. مصطفى الحفناوي بعد ذلك - نسخًا كثيرة، سافر بها الي الأسكندرية، ولكن البوليس قبض عليه في محطة دمنهور وسجنه وصادر نسخ المحاضرة في عهد الحرية الدستورية البرلمانية.."ولكن علوبة حاول محاولاته في مجلس الشيوخ هذه المرة:

".. نوقشت المعاهدة في مجلس الشيوخ وأعطيت لي الكلمة، وكان كلامي هينًا .. وعندما ذكرت أن شبه جزيرة سيناء ستضيع منا بوضع يد الإنجليز عليها وإجراء المناورات العسكرية فيه، في كل وقت." نهض أحد الوفديين محتجًا - وهو محمد المغازي تاجر الأقطان وصاحب المزارع الواسعة - وقال:

".. ماهي سينا؟! مش شوية رمل؟!!" وفي البرلمان عارضها بهي الدين بركات ومن الشيوخ حسن صبري وحافظ رمضان. أما محمد حسين هيكل فكتب يقول:

"إنها صورة محورة من مشروع ملنر، وأنها لا تحقق الإستقلال، بل لا تصل بمصر إلى مركز الدومنيون"وعلى أثر عودة النحاس ارسلت إليه هدى شعراوي ، رسالة مطولة أعلنت فيها اعتراضها على المعاهدة وطالبت بأن .."يتخذ الحكم الديمقراطي مجراه الصحيح، وألا تستمر الهوات أو حب المنفعة الشخصية تلعب دورها كما هو الحال .. وأن يزول نظام المحسوبية.."ورغم أن النحاس لم يرد عليها، فإنها نشرت رسالة أخرى وجهتها إليه، مؤكدة أن مهمة الوفد-في الحياة السياسية، قد انتهت بتوقيعه على المعاهدة.

وحين اتخذت (فاطمة اليوسف) خطًا موازيًا لخط (هدى شعراوي)، "صدر قرار من مجلس الوزراء-برئاسة النحاس بإلغاء رخصة (روزا اليوسف) اليومية-ثم تحول الهجوم إلى المجلة الأسبوعية، فكانت تصدر أسبوعًا وتصادر أسبوعًا، وكانت (القمصان الزرقاء) لا تفتأ تهاجم مقرها بالطوب والحجارة، والبوليس ينتظر أول سيارة تخرج حاملة الأعداد فيقفز عليها ويقلب صفحاتها، باحثًا عن حجة. ثم لا يعدم حجة حتى يصادرها.."

لقد قالت (هدى شعراوي) - كما سبق- أن مهمة الوفد، أي دوره، قد انتهت بالتوقيع على المعاهدة، وقد كان ذلك منسجمًا مع موقفها الرافض للمعاهدة، لكن الغريب حقًا، أن يدرك (أحمد ماهر) هذا المعنى بوضوح وأن يرى في المعاهدة فاصلاً بين تاريخين، فقد أشار على النحاس أن يعتبر توقيع المعاهدة خاتمة عهد، وبداية عهد، وبذلك تندمج الأحزاب السياسية كلها، في حزب واحد، كما حدث عام ١٩١٩، ثم يترك للزمن أن يفعل فعله في تكييف الأمور، وتنظيم الأحزاب تنظيمًا جديدًا في مصر. لقد أدرك أحمد ماهر أنها النهاية، لكن النحاس حسبها إستمرار التاريخ بقوة دفع الوفد الثابتة، لكن التاريخ كان يختار لنفسه مسارات أخرى، كان أكثر مؤشراتها وضوحًا لجوء العمال في النصف الثاني من العام إلى موجة واسعة من الاضرابات، مع حركة احتلال بالقوة للمصانع. ولما كانت الأجهزة التنفيذية والتشريعية والنقابية التي اعتمدت عليها حكومة الوفد، تعاني من قصور واضح، فقد زادت في تعقيد الأزمة.

ومع أن الوفد لم يكن عازفًا عن حل الأزمة، وإنما كان عاجزًا-كما تقول دراسة أمين عز الدين - إلا أن حكومته تركت الفرصة سانحة لأجهزة الأمن القديمة لتواصل مواجهة بعض الاضطرابات بأساليب القهر والعنف، بحيث بدأ العهد حتى في ظل أعلام الانتصار القومي وكأنه لا يختلف كثيرًا عن عهد صدقي.

١٩٣٧

المذكـــــرات

(١)

أبحرنا من الإسكندرية إلى أوروبا لحضور مؤتمر الامتيازات مودعين بدعوات الجماهير وتمنيات المواطنين لنا بالنجاح والتوفيق.

عكفت على إعداد الخطاب الذي سألقيه في حفل الافتتاح الذي سيقام بمناسبة إلغاء الامتيازات وقد ركزت فيه على تاريخ فرض هذه الامتيازات وظروفها وأثنيت على المحاكم المختلطة ومجهودها وعرجت على الظروف التي مرت بنا منذ الحرب العالمية وانتهائها وضمنته فقرات قوية صريحة بضمان مصالح ضيوفنا الأجانب الذين تربطنا بهم روابط متعددة، وطمأنتهم طمأنة كاملة على أمنهم واستقرارهم.

انتهت اللجان من إعداد تقاريرها وعرض علينا بعد الموافقة علي إلغاء الامتيازات فترة الانتقال التي تكفي لتنتهي المحاكم المختلطة من القضايا المنظورة أمامها ولكي تمهد لتولي القضاء الوطني الأمر بعد أن يصفي كل الأعمال الخاصة برعايا الدول صاحبات الامتياز، واقترح أول ما اقترح أن تكون المدة عشرين عامًا، ولكني اعترضت على هذا الاقتراح واستكثرت المدة واقترحت بدلاً منها عشر سنين وأيدني في هذا الاقتراح بعض الأعضاء وعارضه بعضهم وبعد أن طال النقاش اقترح مندوب فرنسا، ووافقه مندوب إنجلترا على أن تكون فترة الانتقال اثنتي عشرة سنة ووافق وفد مصر على هذا وأيده جميع الحاضرين.

اجتمع مجلس النواب وأخذ في نظر وثائق إلغاء الامتيازات التي أودعتها سكرتاريته بمجرد إعدادها وطلبت إليه أن ينظرها على وجه السرعة.

وقد تكلم كثير من الأعضاء مؤيدين، وأخذت المعارضة تمشيًا مع خطتها تنتقد المشروع ويقول بعض أعضائها إن فترة الانتقال طويلة وأن الموظفين الأجانب في المحاكم المختلطة يكافأون بسخاء إلى غير ذلك من الانتقادات التافهة التي لا تمس صميم المشروع. وأجل رئيس المجلس الجلسة لاستكمال بقية المناقشات.

وافق مجلس النواب بأغلبية ساحقة على مشروع إلغاء الامتيازات وهنأ الوزارة والوفد الذي رافقني علي ما بذلوه من مجهود وسجل في مضبطته تقديرًا خاصاً لي بالشكر والعرفان.

(٢)

أعلن أن الملك ووالدته وخطيبته والأميرات سيسافرون إلى رحلة لأوروبا يقضون فيها فترة طويلة ثم يعود للاستعداد لتتويجه.

سافرت مع الملك في القطار الخاص الذي أعد له إلى بورسعيد ومنها يبحر إلى أوروبا

وبعد توديعه في الميناء زارني وفد من أهالي بورسعيد ودعوني إلى حفلة تكريم افتتح بعدها شارع مصطفى النحاس الذي أنشأوه خصيصًا لذكرى توقيع المعاهدة.

بدأت أحزاب المعارضة تعلن عداءها للحكومة بشكل سافر وبدأ ممثلوها في مجلس النواب يوجهون الأسئلة والاستجوابات لأعضاء الوزارة ولم أكن أخشى شيئًا من ذلك فإن أغلبية الوفد في البرلمان ساحقة ونوابه أقوياء والوزارة مطمئنة إلى تصرفاتهم. والذي كنت أخشاه الخلاف داخل الوزارة نفسها فقد كنت أشم رائحة الخلاف القديم الذي بين مكرم والنقراشي فقد بدأ يطل بقرنيه ولكن هذه المرة ليس عن طريق النقراشي بل عن طريق أصدقائه في الوزارة.

قابلت الأمير محمد علي فطلب إلي أن آمر وزير المعارف (علي زكي العرابي باشا) بأن يسرع بالموافقة على تعيين الشيخ عبد الحليم الغسكري العالم الكبير موظفًا في المجمع اللغوي وقال لي إنه كلمه في هذا الموضوع منذ أيام ولكنه ماطل وهذه المسألة تهمني جدًا لأن هذا الرجل فوق علمه الغزير وكفاءته الفائقة قدم لي (أي للأمير) خدمات جليلة يجب أن يكافأ عليها، فقلت له إني لا علم لي بهذا الأمر وسأتصل بالعرابي باشا وأسأله، فقال إنها مسألة هامة جدًا بالنسبة لي.

اتصلت بالعرابي باشا وسألته عن مسألة الموظف الذي كلمه فيها الأمير محمد علي فأجاب بأنه أعد مذكرة تعيينه في الدرجة الخامسة بالمجمع اللغوي وأرسلها إلى اللجنة المالية توطئة لعرضها على مجلس الوزراء وهو في انتظار الموافقة عليها من المالية.

أخبرني مكرم أن اللجنة المالية لم توافق علي المذكرة التي أرسلها العرابي باشا لأن المعلومات التي لديها أن الشخص المطلوب تعيينه موظفًا في الدرجة الخامسة لا يحمل مؤهلات إطلاقًا وكل ما في الأمر أنه اشتغل في جريدة الأهرام نحو ثلاث سنين وأنه تحرى بنفسه عن هذه المسألة فوجدها صحيحة فرأى أن يرجئ النظر في المذكرة حتى يرى مخرجًا.

أعلنت وكالات الأنباء والصحف أن ملك إنجلترا نجا من اعتداء دبر له فرأيت أن أذهب إلى دار المندوب السامي واترك بطاقة تهنئة.

بعثت في طلب سكرتيري (كامل البنا) وبعد الانتهاء من ترك بطاقة الزيارة قصدت إلى المسجد بالجزيرة علي شاطئ النيل لأداء فريضة الجمعة وبينما نحن في الطريق وجهت الحديث إلى السكرتير وقلت له نحن الآن قاصدان بيتًا من بيوت الله لنؤدي فرض الله وأريدك بضميرك ودينك وربك أن تصدقني فيما أسألك فإنها مسألة خطيرة قد يترتب عليها استقالة الوزارة فذعر وقال يارفعة الباشا أنا ما عودتك أن أغشك أو أكذب عليك، فقلت ماذا تعلم عن شخص اسمه الشيخ العسكري فأجابني إنه شخص أعور العين، أفاق، درس في الأزهر ما لا يزيد على العامين ثم هجر الدراسة ولزم البارات والقهاوي يتسكع عليها وسعى بواسطة أحد الأدباء حتى لحق بعمل في الأهرام يرتزق منه، قلت له هل أنت متأكد

من هذه المعلومات، قال كما أنا متأكد من أن الشمس طالعة، فسكت قليلاً وقلت وكيف السبيل إلى التخلص من الأمير محمد علي، فسألني فقصصت عليه القصة فاقترح اقتراحًا وافقت عليه ورأيته يحل المشكلة، قال إذا خاطبك الأمير في هذا الأمر فقل له ياسمو الأمير إن كل شيء معد ولكن هناك عقبة وهي أن الشخص المطلوب تعيينه لا يحمل مؤهلاً فسيقول لك إنه حاصل علي شهادة العالمية من الأزهر، فقل له انتهت المشكلة يأتي بالشهادة ونحن على أتم استعداد لتعيينه وتأكد أنه لن يستطيع أن يأتي بشيء لأنه لم يحصل على شيء.

تحدث معي وزير الأشغال (عثمان محرم باشا) بشأن مشروع تعلية خزان أسوان وقال إن الفنيين في وزارة الأشغال أعدوا مذكرات ضافية بفوائد هذا المشروع على الصرف والري لجميع الأطيان الزراعية فكلفته بأنه عند الانتهاء من إعداده يعرضه على المجلس فقال إن وزير الحقانية ووزير الأوقاف سمعا به فخاطباني بأنهما يعارضان المشروع ويريان فيه ضررًا بالغًا فأفهمتهما بأن المختصين وأنا معهم درسنا الموضوع من جميع نواحيه واقتنعنا فعلاً بفوائده، وقد علمت أن النقراشي باشا يؤيدهما وأخشى إذا أنا عرضته أن يثير زوبعة ويكون سببًا في إحياء الخلاف المستكن بين النفوس، فقلت له إذا كانت مصلحة البلاد في عرض هذا المشروع فلا تؤخره ولا يهمك أي معارضة.

أثار الأمير محمد علي مسألة تعيين الشخص الذي أوصى عليه في المجمع اللغوي فأجبته في كلمات مقتضبة أن المسألة منتهية ولكن ينقص المؤهلات، فقال لمختار (سكرتيره) قل للشيخ العسكري يحضر الشهادة التي يحملها حتى يعين وانتهت المسألة عند هذا الحد.

سافرت إلى سمنود لافتتاح المحكمة الجديدة التي أنشأتها وزارة الحقانية، وكان معي من الوزراء وزير الحقانية والوكيل البرلماني، ووكيل الوزارة الدائم، وكبار موظفي الوزارة وقد استقبلتنا سمنود استقبالاً يليق بابنها البار الذي أحبها ونشأ فيها وترعرع، ولم ينسها في شدة ولا في رخاء.

بدأ محمد التابعي الذي رافق الملك إلى أوروبا يكتب مقالات فيها تعريض خفي بالوفد وإشادة بالملك وحصافته وذكائه المبكر ونظرته الصائبة للأمور.

وبدأ الذين عادوا من أوروبا يهمسون بأن الملكة نازلي تحررت أكثر من اللازم وأنها تحضر حفلات ماجنة وأن محمد حسنين يأخذ فاروق إلى بعض الكباريهات ويصحب الملكة إلى حفلات غير لائقة.

خاطبني الأمير محمد علي بهذا الخصوص وقال هذه فرصة نرفع سن الرشد ونترك الملك يقيم في إنجلترا حتى ينضج، وقبل أن يستفحل الخطب فرفضت مرة أخرى هذا الإجراء للأسباب التي سبق أن أقنعت بها نفسي، وقلت ليس في الشر خيار.

عرض مشروع تعلية خزان أسوان على مجلس الوزراء فأعلن غالب وصفوت (وزيرا

الحقانية والأوقاف) معارضتهما العنيفة له ولما بدأ عثمان محرم يناقشهما ثار النقراشي وأيد الوزيرين تأييدًا مطلقًا وتدخلت في الأمر، وقلت له نحن لسنا فنيين في هذا الموضوع وتقرير المختصين يؤكد فوائده فلماذا المعارضة والتشبث برأي خاطئ، واحتج غالب وصفوت علي كلمتي وعدّها إهانة لهما، واحتد النقراشي، وقال إنك تهين الوزراء ولنا كرامتنا، وكانت مناقشة صاخبة رأيت حسم الموضوع بأن أجلته إلى جلسة أخرى.

زارني حسن صبري بك وقال لي إن علي ماهر يلعب دورًا خطيرًا، وهو يستعد عند بلوغ الملك السن القانونية ويتولى سلطته الدستورية أن يعين رئيسًا للديوان وبذلك يستولي على الملك سياسيًا من هذه الناحية، ويتصل بالملكة نازلي من ناحية أخرى ليحكم قبضته على فاروق، وهذه المعلومات جاءته من شخص متصل اتصالاً وثيقًا بالقصر الملكي، ولما حاولت معرفة اسمه قال إني وعدت ألا أبوح به حتي يظل يوافيني بالأخبار.

جاءني عبد الفتاح الطويل، وقال لي إن رئيس مجلس الوصاية يريد أن يعرف من الآن كيف سيتوج الملك عند بلوغه سن الرشد في بولية المقبل، وقلت له إن الوقت لم يحن بعد لنتكلم في تفاصيل هذا الموضوع فأجاب أن الأمير يستعجل هذه المسألة، ويريد أن يطمئن إلى أن التتويج يجب أن يكون على نمط ما كان في عهد الخديويين، فسألته وماذا كان في عهدهم فقال يجتمع شيخ الأزهر وهيئة كبار العلماء في مسجد محمد علي الكبير بالقلعة، ثم يأخذ شيخ الإسلام سيف رأس الأسرة العلوية ومعه تاج كبير فيسلم السيف إلى فاروق ويلبسه التاج، وبهذا يكون التتويج شرعيًا قانونيًا، فضحكت من تفاهة هذه العقلية، وقلت لعبد الفتاح اقنع هذا الأمير (الهايف) بأن هذا عهد مضى ونحن الآن في عصر دستور وحياة نيابية وتتويج الملك وتوليه سلطته الدستورية نص عليهما الدستور وحدد معالمها، وجعل التولية من شأن النواب وحدهم، قال إنه رجل عنيد ولا أستطيع إقناعه، قلت أرجئ المسألة إلى أن أقابله في فرصة مناسبة ونتكلم في هذا الموضوع.

اتصل بي الأستاذ أحمد نجيب الهلالي باشا (وزير المعارف في وزارة نسيم باشا) وطلب موعدًا لمقابلته فحددت له مساء اليوم، وقد حضر وأخبرني أنه كان مجتمعًا مع أحمد خشبة باشا (وزير الحقانية في وزارة النحاس الإئتلافية الأولى ووزير في وزارة محمد محمود باشا التي خلفتهما) وفهم منه أن حزب الأحرار الدستوريين يسعى لتدبير انقلاب تخرج فيه وزارة الوفد، وأن علي ماهر يحاول بأساليبه الملتوية بأن يشكل الوزارة بعد إخراج الوفد، ولكننا (أي خشبة وحزب الأحرار الدستوريين) سنتغلب عليه وتكون الوزارة من نصيبنا بعد إخراج النحاس، وأن الوفد سيفاجأ باستقالة النقراشي وماهر وتأليف حزب جديد منهما وأن عددًا كبيرًا من الشيوخ والنواب الوفديين المتذمرين من النحاس ومكرم ربما اشتركوا في الوزارة حين نؤلفها.

وقال لي نجيب بعد هذا إنني ياباشا أعاهدك على أن أكون معكم قلبًا وقالبًا على الرغم من صلة القرابة بيني وبين خشبة، وعدد من الدستوريين لأنني لا أنسى جميلكم معي ودفاعكم عني وترشيحكم لي نائبًا في مجلس النواب.

قابلت الأمير محمد علي، وقد تحدث لي في شأن تتويج الملك وقال لي إنه كلف عبد الفتاح الطويل أن يبلغني رأيه فقلت له إن الطويل حدثني، ولكني لم أفهم ماذا تقصد سموكم فأجاب أقصد أن تجتمع هيئة كبار العلماء وعلى رأسها شيخ الأزهر في جامع محمد علي الكبير بالقلعة، وأعاد علي ما سبق أن أخبرني به عبد الفتاح، فقلت له إن هذا الذي تقوله ليس الطريق الدستوري والذي نص عليه الدستور وأن تتويج الملك وإعلان تولية الملك لا يكون إلا عن طريق البرلمان بشيوخه ونوابه إذ يجتمعون في مؤتمر عام في قاعة البرلمان الكبير، وندعو العظماء والكبراء والعلماء والشعراء والقناصل وأرباب الحيثيات ثم يأتي الملك أمام رئيس مجلس الشيوخ ويحلف اليمين الدستورية ويعلن البرلمان موافقته على تتويج الملك. فزمجر وغضب وقام من كرسيه وقال (شيوخ إيه ونواب إيه) وأين سيف رأس عائلة محمد علي الكبير وأين الشيوخ الكبار، فأجبته بهدوء وبضغط شديد على أعصابي ياسمو الأمير هذا هو رأي الدستور، ونحن بلد لنا برلمان، ولنا نظام دستوري فغضب مرة أخري وقال هذا عمل لا ينفع ولا يمكن أن يكون الملك ملكًا إلا إذا أمسك بسيف جده وخرج بين الشيوخ الكبار، فابتسمت سخرية وقلت إن هذا العمل لا يكون تتويجًا ولكن يكون (كرنفالاً) ولن أوافق عليه بحال من الأحوال، وخرجت تاركًا ذلك الرجل المخرف ينطح الحائط برأسه أو يبحث له عن رجل آخر يوافقه على تخريفه وهرائه.

أعلن أن الملك سيعود من رحلته استعدادًا لتوليه سلطته الدستورية، وقد سافرت إلى بورسعيد واستقبلته على الميناء، وصحبته في القطار الخاص الذي أقله إلى محطة القاهرة.

وفي أثناء سير القطار دعتني الملكة نازلي لمقابلتها فذهبت إليها فحدثتني حديثًا طويلاً عن أن فاروق شاب صغير فاعتبره ولدك وعامله برفق وإني أفهمته أن والده عاش وعنده عقدة من الوفد من عهد سعد باشا إلى قرب انتقاله إلى رحمة الله، ولكنه قبل وفاته أدرك أن الوفد ورئيسه الحالي (أقصدك ياباشا) لا يعادون العرش ولا تفكير عندهم في تغيير نظم الدولة، وقلبها إلى جمهورية كما يظن أعداؤهم، وإنني بحكم خبرتي وعشرتي لكثير من أسرهم أعرف هذا، وأن الملك فؤاد صرح بهذا لبعض المقربين إليه، وأن الملك فاروق شاب طري العود ويمكنك بالسياسة والعطف والمعاملة الحسنة أن تضمه إلى صفوفكم.

فقلت لها تأكدي ياجلالة الملكة أني لا أضمر في نفسي أي شيء لجلالة الملك الشاب ولعله قد بلغك أني رفضت الموافقة على رفع سن الرشد إلى إحدى وعشرين سنة ميلادية، قالت أنا ما طلبتك إلا بعد أن سمعت هذه القصة بأكملها من أكثر من واحد، وعرفت موقفك الصلب منها وعرفت من الذي يسعي وكلمك أكثر من مرة في هذه المسألة.

أثيرت مسألة تعلية خزان أسوان مرة أخرى وأثار المعارضون معارضتهم للمشروع ولما رأيت النقاش احتدم مرة أخرى بين عثمان محرم (وزير الأشغال) وبين صفوت وغالب (وزيري الأوقاف والحقانية) وانضم إليهما النقراشي في علانية اقترحت أرجاء الاجتماع إلى جلسة أخري يستدعي فيها المهندسون المختصون الذين تألفت منهم اللجنة المنوطة بالمشروع لمناقشتهم مناقشة مستفيضة ويدلي كل برأيه.

اجتمعت مع زملائي أعضاء الوفد ما عدا النقراشي وماهر وشرحت لهم بالتفصيل المعلومات التي تجمعت لدي من عدة مصادر عن المؤامرة التي يعدها النقراشي وماهر لطعن الوفد وتمزيقه فتحمسوا جميعًا قائلين ليفعل ما يشاء وإذا سولت له نفسه أن يخرج علينا فإن الزعامة لا تتعدد والبلد تثق بك خليفة لسعد والناس من حولك مؤمنون مؤيدون فلا يضيرك أن يخرج واحد أو اثنين أو ثلاثة.

قابلت السيدتين حرم إسماعيل حب الرمان وحرم حسن حمزة وهما من اللجنة العامة للسيدات في القاهرة، وقد سألتاني عن الخلاف بيننا وبين النقراشي وماهر فقلت لهما لا خلاف ولا شئ فقالتا إن أم المصريين أخبرتهما أن النقراشي غضبان من تصرفات النحاس باشا معه، وأنه شكا إليها أكثر من مرة وأبدى رغبته في أن يترك الوفد لأنه أصبح لا يحتمل، وأن أم المصريين طيبت خاطره ونصحته بالتريث، وهي تقول إذا أغضبوا محمود وهو بمنزلة إبني وخرج من الوفد فلن أسمح بالاجتماع في مكتب سعد زغلول وسأغلق الباب على وأعتزل الناس.

إذن فالمسألة إنكشفت والمؤامرة طبخت واستطاع النقراشي بحكم صلة النسب التي بينه وبين حرم سعد زغلول باشا أن يؤثر عليها وأن يجعلها تنساق في تيار ضار.

قررت في نفسي شيئًا لم أطلع عليه أحد وهو إذا صح ما نقل من حديث أم المصريين وفعل النقراشي فعلته واستقال وفشلت المجهودات لإثنائه عن عمله، هناك سأعلن لأم المصريين قبل أن تعلن هي أننا سنترك لها البيت ولن نجتمع في مكتب الزعيم سعد ولن ندخل البيت عليها إذا انحازت إلى جانب صهرها ضد أغلبية الأعضاء.

اجتمع مجلس الوزراء وفوجئت عند الاجتماع بأن وزيري الحقانية والأوقاف أثارا مرة أخرى مسألة تعلية خزان أسوان فطلبت من عثمان محرم استحضار الوثائق وأخذنا في بحثها وقد انبرى أحمد راغب أحد المختصين ومعه عبد العزيز أحمد المهندس وشرعا في شرح فوائد التعلية وما يعود على البلاد وصرفها وريها من الفوائد وقدما الأدلة المقنعة واستمعنا طويلاً إليهما وبعد مضي عدة ساعات وإنتهاء المهندسين من الحديث، عرضت الأمر على المجلس فوافق الوزراء ما عدا الوزيرين وإنضم النقراشي إليهما، ولما هممنا بالخروج قدم غالب بك وبعده صفوت إستقالتهما إلى سكرتير مجلس الوزراء ليرفعهما إلى، فعجبت من أمر هذين الزميلين اللذين كانا معي منذ دقائق ولم يفاتحاني في أمر الإستقالة وطويت الأوراق وانصرفت.

صرح النقراشي لأصدقائه بأنه سيقدم استقالته هو الآخر لأنه لا يمكن أن يستمر في الوزارة بعد ما وقع بينه وبين مكرم من خلاف حاد، وما اتهمني به من أنني انضممت إلى جانب مكرم ضده وأنني متحيز، وقد نقل إلى بعض أعضاء الهيئة الوفدية البرلمانية كلامًا نابيًا في حقي فقلت لهم إني من جانبي متسامح فيما يختص بشخصي على شرط ألا يمس هذا جوهر الوفد، ولا يسئ إلى وحدته، فأجابوا بأنه قال إنه يستقيل من الوزارة فقط،

ولكنه سيحتفظ بعضوية الوفد، فقلت إن الوزارة لا تهم لأنها ليست باقية أما زمالة الجهاد وإخوة الكفاح فهي التي تهمني وما دام أنه لا ينوي الخروج على زملائه القدامى فيمكن أن نعوضه عن الوزارة بما هو أحسن منها.

كنت قد طلبت من الوزارات والمصالح التي يعمل فيها موظفون أجانب أن يعدوا كشوفًا بأسمائهم حتى ننهي خدماتهم، ويحل محلهم مصريون في وظائفهم، وقد جاءتني كشوف عديدة من السكة الحديد والمساحة ووزارات المالية والحقانية والداخلية، وعند اطلاعي على كشوف وزارة الداخلية لفت نظري أن رقابة الأفلام السينمائية والمصنفات يتولاها أجانب رجالاً وسيدات وأن القسم المخصوص بالوزارة من مختلف الجنسيات فعهدت إلى يوسف الجندي الوكيل البرلماني أن يسرع بتمصير هذين المرفقين الهامين وإحلال مصريين محلهم فوعد بأن يفرغ من هذا العمل في ظرف أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر كما تكلمت مع الوزراء الذين تتبعهم هذه المصالح التي تضم أجانب أن يسرعوا هم كذلك في تمصير مصالحهم وركزت خصيصًا على المصالح ذات المساس بالجمهور كالسكة الحديد والتليفونات ومصلحة الأملاك الأميرية وما شابه ذلك.

إتصل بي وكيل وزارة الخارجية (محمد شرارة باشا) وأخبرني أن سفير السعودية يطلب موعداً عاجلاً لأمر هام جدًا فحددت له بعد ساعة، وجاء يحمل إلى رسالة من الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية تتضمن اعتراضًا على تسيير المحمل ومعه كسوة الكعبة إلى مكة المكرمة، وأن تعاليم الإسلام لا تقبل احتفالاً ولا تسمح بالموسيقى والعزف والبدع التي تصاحب الإحتفال بالمحمل، وقال إن جلالة الملك يقول إذا جاءت الكعبة ومعها الموسيقى والعازفون فإنه سيردها من الميناء.

تضايقت من هذه الرسالة وفي الحال طلبت مدير الشئون الدينية بمجلس الوزراء (الأستاذ محمد البنا) وكلفته بإعداد مذكرة سريعة للرد على الملك السعودي بوجهة نظر مصر في هذا الخصوص.

عرض على مدير الشئون الدينية المذكرة التي أعدها للرد على ملك السعودية بخصوص كسوة الكعبة وبعثة مصر إلى الحجاز، وقد اقترح تشكيل لجنة من الطرفين لبحث أوجه الخلاف فوافقت على ذلك، وعهدت إليه بإعداد قرار بأسماء أعضاء اللجنة التي تألفت من عبد الحميد بدوي باشا رئيس أقلام قضايا الحكومة ووكيل وزارة الداخلية ومدير الشئون الدينية.

رد سفير السعودية بأنه اتصل بالملك ووافق على تأليف لجنة السعودية من سفير المملكة ومن عضويين سيبعثهما في الغد على أن تجتمع اللجنتان في أقرب فرصة ممكنة.

وصل مندوبو السعودية وطلبت انعقاد اللجنتين والبت في الموضوع سريعًا حتى يمكن الإنتهاء من ذلك قبل حلول موسم الحج.

إقترح عليّ مدير الشئون حلاً وسطًا وهو أنه إذا تشبثت السعودية بألا تصل فرقة

الموسيقى مع البعثة المصرية فمن الممكن أن نقيم نحن الاحتفال التقليدي بالمحمل بالقاهرة كعادتنا ونعين أميرًا للحج نعهد إليه برئاسةالبعثة التي تسافر إلى السعودية ثم تظل مراسم الإحتفالات التي تعودنا عليها في مصر قائمة إلى الباخرة المقلة للبعثة والمرافقين إلى جدة، وعندئذ تظل فرقة الموسيقى بالباخرة إلى أن ينتهي موسم الحج وتعود إلى مصر ثانية وبهذا نكون قد وفقنا بين عادة ألفناها منذ عهد بعيد وبين رغبة السعودية في ألا تقام احتفالات في مملكتها.

وافقت على هذا الاقتراح بعد أن وضعت الترتيبات اللازمة للاحتفال في مصر، وأمرت بأن يبدأ من حيث تعودنا من القلعة ويمر بالشوارع حسب المتبع حتى يصل إلي مكان الاحتفال بالعباسية فتقام المراسم ويأخذ أمير الحج مقود الجمل من مندوب رئيس مجلس الوصاية وتعزف الموسيقى وتقام مراسم الفرح لسفر المحمل الذي "تعود المواطنون عليها في مصر وفي السويس."

اجتمعت اللجنتان المصرية والسعودية وبعد أن انتهى الاجتماع عرض علي محضر الجلسة متضمنًا جميع المقترحات التي اقترحتها السعودية ومصر وسرّني أن توافق السعودية على ما اقترحته مصر بلا اعتراض مادام لا يمس عقيدتها الوهابية أو نظامها المتبع.

وقد سرني أن انهيت هذه المشكلة التي شغلتني جدًا وكان أخشى ما أخشاه أن تتأزم الأمور فيتأثر بذلك موسم الحج، أو يتأخر حجاج بيت الله الحرام عن أداء هذا الركن من أركان الإسلام.

تلقيت برقية من الملك عبد العزيز آل سعود تضمنت شكره على ما انتهينا إليه في مشكلة المحمل وقال إن حسن النية والاستمساك بالدين الصحيح الذي اتصفت به حكومة مصر ورئيسها كانا من العوامل المؤثرة في تسوية الخلاف الذي نشب بين الدولتين وأنه يذكرنا بالاعتزاز أن مصر صاحبة فضل كبير من قديم الزمان على الحرمين الشريفين إذ أنها تعد كل عام كسوة الكعبة من أحسن الثياب وتبعث في كل عام مبلغًا لا يستهان به من المال.

رددت على العاهل السعودي شكرًا ممتنًا داعيًا له بالتوفيق والسداد منوهًا بأواصر الصداقة والعلاقة الدينية التي (تربط المملكتين).

عاد إلى بعض الذين كلفتهم بالحديث مع النقراشي وأخبروني أنه قال لهم أنه استقال من الوزارة ليتفرغ للعمل السياسي في إطار الوفد وأن عضويته في الوفد باقية وهو متمسك بها، وأن علاقته بالرئيس هي هي لم تتغير وأن مصطفى باشا يميل ناحية مكرم ويؤيده على طول الخط.

فأجبتهم إن هذا غير صحيح فإنني كنت إلى عهد قريب أخرج من منزلي وأمر على النقراشي أولاً وأطلب إليه مرافقتي إلى بيت الأمة وإذا اعتذر مررت على مكرم في طريقي،

ثم لا تنسوا أن مكرم سكرتير الوفد وأنه بحكم عمله دائم الاتصال ويجب أن يفهم النقراشي وجميع الإخوان أن أعضاء الوفد كلهم زملاء ورفاق جهاد خصوصاً ماهر والنقراشي فإن ارتباطنا ليس ابن اليوم ولا ابن الأمس ولكنه ابن سنين كفاح وأيام تضحيات، ولست أنا الذي يفرط في أصحابه وزملائه بسهولة، وذكروا النقراشي إن كان قد نسي بأني عند الخلاف مع أعضاء الوفد أيام وزارة صدقي كنت أمر علي كل واحد منهم أكثر من مرة وأحاول إقناعه بالعدول عن الاستقالة وأن النقراشي كان أول العاتبين علي لأنني أطاول هؤلاء المنشقين الذين يطلبون التعجل بقطف الثمرة، وأن موقفي معه كموقفي مع زملائه السابقين إن لم يكن أكثر وأشد تمسكاً، وإنني أعلن أمامكم كلمة صريحة إنني لن أفرط فيه وسأظل متمسكاً به حتى يخرج هو وتفشل كل الوسائل معه عندئذ سأعرض علي الأمة المسألة بحذافيرها وسأقبل حكمها.

كان الاحتفال بسفر الكسوة وبعثة الحج في غاية الروعة، شعرت وأنا أنوب عن رئيس مجلس الوصاية في رياسة الاحتفال بفرحة شديدة، وقد هزتني الموسيقى واللحن الذي صاحبها حين سمعت (روح وتعالى بالسلامة، وأقرأ الفاتحة والفاتحة أمانة)ورأيت مظاهر أفراح على الوجوه وابتسامات الرضا على الشفاه، وحمدت الله سبحانه وتعالى إذ تم على أيدينا عودة الأمور إلى مجاريها واستئناف إرسال الكسوة إلى الكعبة بعد أن ظلت متوقفة سنين عديدة.

قابلت رئيس مجلس الوصاية، وعرضت عليه الخطوط للاحتفال بتسليم الملك سلطته الدستورية في ٣١ يوليو القادم، وقلت له عندما ننتهي من إعداد البرنامج بالتفصيل سأعرضه على سموكم.

ولقد تقبل الحديث بوجوم وغضب ظهرا على وجهه ومن نبرات كلامه، وأعاد في شيء من الاحتياط الحديث تلميحاً عن أنه يود لو اشترك الأزهر والشيوخ في هذا الاحتفال، فأجبته إنهم يكونون حاضرين ضمن المدعوين من الطبقات المدعوة ولكنه هز رأسه وصمت ولم يتكلم.

جاءتني تقارير من عدة جهات أن علي ماهر استطاع أن يستحوذ على ثقة فاروق وأن أنصاره يؤكدون انه سيختاره رئيساً للديوان الملكي عقب تولي الملك سلطته الدستورية، وأن عبد الوهاب طلعت (وكيل الديوان الملكي) وهو من أقرب المقربين إليه يؤكد أن المستقبل لعلي ماهر وأنه سيكون رئيس الوزارة التي ستخلف وزارة الوفد، وأن الوفد لن يعمر في الحكم طويلاً خصوصاً بعد خروج النقراشي، وخروج ماهر الذي ينتظر أن يلحق به، وأن الحزب الجديد سيكون أحد الدعامات التي سيرتكز عليها الانقلاب الجديد.

قابلني ريد وأمين وأكدا لي المعلومات التي تضمنتها التقارير التي تلقيتها عن علي ماهر ولكنهما رجحا أن الإنجليز – في حالة خروج الوفد من الوزارة – لن يمكنوا علي ماهر من الوصول إلى ما يريد وهم يفضلون عند الضرورة محمد محمود وحزبه عن علي ماهر الذي

لا يأمنون جانبه.

تبين لي أن أيادي كثيرة تلعب في الخفاء وأن الشيخ المراغي (شيخ الأزهر) يقوم بدور كبير للترويج لأصدقائه الدستوريين والتشهير بالوفد صاحب الفضل عليه في الأولى والأخيرة، فلا حول ولا قوة إلا بالله لقد صدق المثل القائل (ازرع بني آدم يقلعك).

عندما فرغنا من توقيع المعاهدة وإلغاء الامتيازات وطلبت إلى وزير المالية أن يقدم مشروعًا بإلغاء السخرة التي كان الاحتلال وأعوانه قد فرضوها على الفلاحين وكانت تدفع إلى خزينة الدولة أقساطًا تحصل مع الأموال الأميرية على الأطيان.

وقد عرض علي وزير المالية مشروعًا مستكملاً من كل نواحيه، وألحق به المورد الذي سيدبر به المبالغ التي سيعفى منها الفلاحون والزراع حتي لا تمس الميزانية وتظل متوازنة، وافقت علي المشروع وأحلته إلى أول جلسة لمجلس الوزراء.

دعاني مستر ريد إلى حفلة شاي في منزله وقد التقيت هناك بالسير مايلز لامبسون وبعض رجال السفارة البريطانية، وقد دار حديث بيني وبين السفير عن احتمالات الحرب، وتوتر الحالة الدولية واستعدادات هتلر في ألمانيا وموسوليني في إيطاليا، لإعلان الحرب على بريطانيا وحلفائها وأن التقارير التي ترد إلى المخابرات البريطانية من العواصم الأوروبية تؤكد أن الحالة غير مستقرة ويجب الاستعداد لها من الآن.

وعرج السفير علي الموقف الداخلي في مصر وعلى الشائعات التي تملأ المحافل بمناسبة قرب تولي الملك سلطته الدستورية، وما يروجه أنصار علي ماهر باشا من أنه رجل الساعة المنتظر.

ومما قاله السير مايلز، ليتك وافقت على رفع سن الرشد إلى الحادية والعشرين فإن الأمير محمد علي في الأقل رجل ممكن التفاهم معه ولا يسهل التأثير عليه، ولكنني رددت عليه بأنه لم يكن في وسعي أن أصدم الملك وهو على أبواب تحمل المسئولية بغية ألا يحدث هذا عقدة بينه وبيننا، وقلت إنه لا يزال طري العود ويمكن توجيهه إلى المصلحة العامة وأن يكون عونًا لنا على تسيير دفة الأمور في هذه الظروف الحرجة التي يجتازها العالم، فقال إن الحاشية التي تحيط به في القصر من الطليان وذوي الميول الألمانية وإني أخشى أن يجروه إلى ناحيتهم فنضطر عند اشتداد الأمور أن نتدخل تدخلاً سافرًا ونوقفه عند حده، ثم سكت وقال كان أبوه الملك فؤاد يخضع بحكم تجاربه للأمر الواقع لأنه كان يستشير رجالاً من الإنجليز المحنكين في قصر بكنجهام وفي دوننج ستريت ولكن لا أظن أن الملك الصغير سيسير على خط والده وهذا ما أخشاه فأجبته لنترك هذه المسائل للظروف وعندما يحين الوقت نرى ماذا يكون.

استقبلت رئيس مجلس الشيوخ ومجلس النواب وقد عرضا علي برنامج الاحتفال بتولي الملك سلطته الدستورية والكلمات التي ستلقي بهذه المناسبة فاقترحت أن يكتفي بكلمة رئيس الشيوخ باعتباره رئيس المؤتمر وأن يقدم الملك بعد ذلك لحلف اليمين التي نص عليها

الدستور ثم يهتف بحياة مصر ثلاثًا وحياة الملك ثلاثًا وينتهي الاحتفال عند هذا الحد.

قصدت إلى القصر الملكي قبل الموعد المحدد لتحرك الموكب الملكي لأكون بصحبة الملك عند توجهه إلي البرلمان وقد ركبت ومررنا في الطريق المرسوم وكانت جموع الشعب تهتف "يحيا الملك مع النحاس" "يحيا الملك مع الوفد."

ورأيت آثار الامتعاض بادية على وجهه من هذه الهتافات، فلما وصلنا إلى البرلمان انتهزت الفرصة وأرسلت للجماهير المحتشدة في الخارج أن تهتف للملك وحده، وحسبها ما أظهرته من شعور نحو الوفد ورئيسه.

قدم رئيس مجلس الشيوخ الملك لحلف اليمين حسب البرنامج المرسوم وأطلقت المدافع وانتهت الحفلة بسلام دون أن يحدث فيها شيء.

وعدنا إلى القصر الملكي وعندما استأذنت في الانصراف أشار الملك أنه يريدني، فوقفت انتظر ماذا يريد، فقال لي: لقد وقعت مرسومًا ملكيًا بتعيين علي ماهر باشا رئيسًا للديوان الملكي ويهمني أن تتعاونا فقلت إن شاء الله.

وخرجت وأنا أحدث نفسي بأن هذا أول الغيث.

وفي المساء أرسلت استقالة الوزارة إلى القصر طبقًا للتقاليد الدستورية.

بعثت في طلب الوزراء للحضور إلى منزلي حتى نستعد جميعًا للذهاب إلى القصر الملكي لحلف اليمين الدستورية أمام الملك وحضر الوزراء الجدد.

صبري أبو علم، محمود بسيوني، عبد الفتاح الطويل ويوسف الجندي، وانتظرنا أن يأتي رسول القصر بمرسوم بتعيين الوزارة ودعوتنا لحلف اليمين، ولكن كانت دهشتنا إذ حضر إلينا كبير الأمناء يحمل اعتراضًا على تعيين يوسف الجندي وزيرًا للمعارف.

اتصلت بالقصر لأسأل عن سبب الاعتراض على تعيين يوسف الجندي فكان الرد أن جلالة الملك سمع أن عليه شبهات ومآخذ لا تؤهله لأن يتولى الوزارة، فقلت وما هي الشبهات قالوا لا ندري إن الملك هو الذي قال هذا.

إذن فهذا أول مقلب ماهري (وياما في الجراب ياحاوي) وحتى لا نصطدم من أول يوم رأى زملائي الوزراء ألا أحدث خلافًا في مستهل حكم الملك وأن أرشح شخصًا آخر واضطررت إلى ترشيح علي زكي العرابي باشا وزيرًا للمعارف – وقد كنت أدخرته لتعيينه رئيسًا لمجلس الشيوخ كما عدلت عن فكرة منصب الوكلاء البرلمانيين نهائيًا وأرسلت اسم العرابي بدل يوسف الجندي، وقصدنا القصر الملكي، وحلفنا اليمين الدستورية أمام الملك ومعه علي ماهر وموظفو القصر.

أرسلت مرسومًا ملكيًا إلى القصر بتعيين يوسف الجندي وكيلاً برلمانيًا للداخلية كما كان فجاء المرسوم في الحال موقعًا من الملك فأدركت أن المسألة لم تكن اعتراضًا على

يوسف بالذات ولكن تأكيدًا لتدخل الملك بواسطة رئيس ديوانه في شئون الحكم وإيذانًا بأنه هو صاحب السلطان الحقيقي يملك ويحكم وليذهب الدستور إلى الجحيم.

بعثت إلى النقراشي أعرض عليه تعيينه عضوًا في مجلس إدارة شركة قناة السويس بدرجة وزير وراتب ضعف الوزير مرتين فرفض بطريقة غير لائقة وتكلم بكلمات ما كان يصح أن تصدر من رجل في حق زملاء له عاشروه طويلاً، واشتركوا معه في الجهاد عمرًا مديدًا، ثم شفع رفضه هذا بأنه مستقيل كذلك من عضوية الوفد وأرسل لي كتابًا يتضمن استقالته.

دعوت الوفد إلى الاجتماع وعرضت عليه الموقف، وطرحت على الأعضاء استقالة النقراشي، وما تضمنه من أسلوب تهجمي وعبارات نابية فوافقوا جميعًا على قبولها ما عدا أحمد ماهر الذي قال إني برغم هذا اعتبر النقراشي عضوًا في الوفد وسأبلغه كل ما يدور في الجلسات.

ونبهته وأنا أكظم غيظي إلى أن هذا غير قانوني، ولا يمكن لرجل قبلت استقالته بناء على طلبه أن تبلغ إليه القرارات، وما يدور في جلسات الوفد من مناقشات، ولكنه احتد وقال هذا رأيي وأنا مصمم عليه وإن لم تقبلوه فاعتبروني مستقيلاً أنا كذلك.

حاولت بكل الوسائل أن أهدئ المناقشات وأن أثني ماهر عن رأيه وعبثًا حاولت وتكهرب الجو واحتد الأعضاء واضطررت على الرغم مني أن أنزل على رأي الأغلبية التي وافقت بشدة على قبول الاستقالتين.

عدت إلى منزلي في ساعة متأخرة لأكتب هذه السطور وأنا في شدة التأثر والألم مما وقع.

عدت إلى بيت الأمة وكان في انتظاري بعض الزملاء من أعضاء الوفد وصعدنا إلى الطابق العلوي للسلام على أم المصريين وتقديم العزاء لها في ذكرى سعد.

ولم نكد نجلس حتى بادرتني بقولها إنني متألمة جدًا لخروج محمود وأحمد من الوفد ولقد فتحت لكم هذا البيت وتركت مكتب سعد تجتمعون فيه عندما كنتم كتلة واحدة ويدا واحدة، أما وقد اختلفتم وانقسمتم فلا يسعني إلا أن أغلق بابي علي وأمنع الاجتماعات فيه.

فأجبتها وأنا أضغط على أعصابي أنت حرة فيما تريدين، ولقد خصصنا بيت الأمة لسكناك بعد سعد لأنك شريكة حياته ولست أقول كما قال عبد اللطيف الصوفاني لسعد حين قال له كيف تخاطبني بلهجة عنيفة في بيتي، ولكني أقول لك إن البيت بيتك ولك أن تدخلي من تشائين، أما عني فلن أدخل هذا البيت بعد الآن ولن يكون للوفد اجتماع فيه.

زارني محمد غزالي (أحد مفتشي الداخلية) وهو كما أعلم وثيق الصلة بالإنجليز وبالدستوريين وأخبرني بأن موظفي الداخلية من الإنجليز الذين يحسون قرب رحيلهم من

مصر بمقتضى المعاهدة مثل كوين بويد، وهولز ورسل وتيل وعدد من الذين يمالئونهم يجتمعون سرًا بمحمد محمود باشا ويؤكدون له أنه هو الرجل المنتظر، وأن سعي علي ماهر لن ينفع إلا في إقصاء الوفد عن الحكم أما أن يصل إلى الوزارة فالمعارضة من جانب دار المندوب السامي قوية ضده، وأن الخطر يأتي من ناحية الإنجليز المحليين وحزب الأحرار الدستوريين، ثم قال إن الملك هو الآن ألعوبة في يد علي ماهر ولكن أحمد حسنين يحارب في الخفاء وصول علي ماهر إلى الوزارة، وأن المراغي يلعب دورًا خطيرًا مع الملك في صالح صديقه محمد محمود باشا.

تتحدث الأوساط المحيطة بالسراي عن المعركة القائمة بين علي ماهر وأحمد حسنين ويقولون إن الملكة نازلي تؤيد أحمد حسنين وتنصح دائمًا ولدها أن ينصاع لآرائه، ثم يتحدثون عن أن الملكة تزور حسنين في داره بالدقي زيارات سرية وأن علي ماهر يراقب تلك الزيارات ويوعز إلى أنصاره في القصر أن يبلغوا الملك أمرها حتى يوقع بينه وبين حسنين.

ويقال كذلك أن الملك فاجأ أمه ذات ليلة في دار حسنين وأنه فاجأهم ودخل حجرة الصالون عليهما فوجد الملكة نازلي جالسة على سجادة صلاة وتمسك بالمصحف وتقرأ فيه وأحمد حسنين جالس بالقرب منها ولم يسع الملك إلا أن ينصرف واجمًا ولم يستطع أن يبدي أي ملاحظة.

ثم تشيع الأوساط العليمة أكثر من ذلك أن نازلي عقدت عقدها على حسنين وأنها تزوجته زواجًا عرفيًا وهذه كلها شائعات لم تتأكد بعد وإن كانت الألسنة تلوكها.

يدور بين الكواليس حديث تتناوله الألسن بأن الأميرة شويكار زوجة الملك فؤاد السابقة والتي طلقت منه قبل أن يتولى الملك أصبحت مقربة إلى الملك وأنه يقضي في قصرها الليالي الطوال وأن موائد الميسر تنصب حتى ساعة متأخرة من الليل، وأن الملكة نازلي متضايقة من هذا التصرف وقد نصحت ابنها بالابتعاد عن الأميرة شويكار، ولكنه لم يصغ إليها، وإن خلافًا بين الأم والإبن نشب من وراء ذلك كما يقولون وأن موظفي القصر منقسمون إلي طائفتين طائفة تؤيد علي ماهر قوامها عبد الوهاب طلعت وأحمد يوسف وعبد الله عفيفي، وطائفة أخرى تأتمر بأمر حسنين وهي تضم محمد حسن وبوللي الإيطالي وحلمي حسين وإلياس اندراوس هؤلاء هم الذين يلتقون بالملك كثيرًا وينقلون إليه أخبار الصالونات وأن كبير الأمناء (سعيد ذو الفقار) الرجل الطاعن في السن ذو التجارب الكبيرة اعتزل هو وإدريس وعبده التركي الذين قضوا سنين في خدمة الملك فؤاد قبل أن ينتقل إلى رحمة الله، وأنهم يسرون إلى أخصائهم بأنهم غير راضين عن الحالة الحاضرة وهم يخشون على الشاب الطائش من الانحراف.

بدأ الخلاف بين الملك والحكومة أو بعبارة أوضح بين موظفي القصر والحكومة، وأخذوا يملأون رأس الملك بأن النحاس يعمل على جعلك صفرًا على الشمال وأن سعدًا من قبله

كـان يريد خلع والدك وأن الوفـد لا ينظر إلى الأسـرة العلوية الكريمة بعين الرضـا، وأن النحـاس يجتـمع بكبـار مـوظفي دار المندوب السـامي ويعـملون ضـدك إلى غـيـر ذلك من الترهات والدسـائس التي تعودناها من أيام بزوغ الحركة الوطنية عام ١٩١٩ ولقد استمعت إلى هذا كله وقـرأت التـقـارير التي تقـدمت من البـوليس السـيـاسـي وإدارة الأمن العـام فسـخـرت منهـا، وقلت مـاذا أصنع في قـوم لا تحلو لهم الحـيـاة ولا يطيب لهم عـيش إلا بالدسائس والوقيعة، وستظهر الأيام ما كان خافيًا، ولكن على حساب هذا الوطن المنكوب.

حـضـر إليّ رئيس الديوان لمقـابلتي وتحـدث معي لا باسـمـه بل باسم الملك بأن جلالتـه سمع أن بعض الوزراء يتصرفون تصرفات ضد مصـالح المواطنين وأنهم يحابون طائفة على حسـاب طائفـة ولما طلبت إليـه أن يفـصـح قـال إن جـلالة الملك بلغـه أن وزير المـاليـة يـغلب العنصر القبطي على العنصر المسلم وأنه ملأ مكتبه والإدارات الأخرى بكثير من الأقباط.

اتصلت بوزير المالية فـحضـر في الحال ولما ناقشه رئيس الديوان أجابه بالأرقام أن في مكتبه أربعة موظفين واثنين يكتبان على الآلة الكاتبة خمسـة منهم مسلمون والقبطي الوحيد هو فريد ميلاد مدير المكتب، وأما باقي المصالح فلم أعين منذ توليت الوزارة في عام ١٩٣٦ إلا عددًا يسيرًا في الوظائف التي كانت خالية أو خلت في عـهدي وأن نظرة إلى الأسمـاء التي عينت يتبين منها أن العنصر القبطي قليل جدًا لا يتجاوز واحدًا على اثني عشر، فأين هو التعصب الذي تدعونه.

واحتد مكرم وقـال ياعلي باشـا انا لست متعصبًا ولا أعرف في الوطن مسلمًا أو قبطيًا فكلهم مصريون وإذا كانت بلغتك أو بلغت جلالة الملك دسيسة من هذا القبيل فإني سـأرسل إليك كشفًا بأسـمـاء الموظفين والوظائف التي يشـغلونهـا حـتى تقضـي على تلك الدسـائس الرخيصة التي قضـى عليها سعد من أول ثورة ١٩١٩ ونحن نسـير على مبادئ زعيمنا ولا نميز بين مسلم ومسيحي إلا بالكفاءة وأداء الواجب.

ثم تحدث علي مـاهـر عن أن بعض الوزارات الأخرى كوزارة الداخلية ووزارة الحـقـانية ووزارة الأوقـاف قد ملئت بعدد كبير من الوفديين وأن جـلالة الملك يقول إن هذه التصرفـات مـجـافـيـة للحكم الصـالح، فـأجـبـتـه بلغ الملك أو اعلم أنت أن الحكومـة هي المسـئـولة عن تصرفاتها أمام البرلمان لا أمام أحد ويوم يسحب البرلمان ثقته بها ستبادر برفع استقالتها، أما وضـع العراقيل أمامها بهذه الصورة المكشوفة فلا نقبله بحال من الأحوال.

خـرج رئيس الديوان وانكشف المخبوء، وأعلنت الحـرب بين القـصـر والحكومـة من جـانب رئيس الديوان وحاشية فاروق.

حضـر أمين وقال لي إن السفير البريطاني قـابل الملك مقابلة طويلة وقال له علمت إنك لا ترغب في بقاء الوزارة الوفدية فرد بالإيجاب فقال له إن بريطانيا لا يهمها أن تبقى فهذا من شـأنكم مـادامت مـصـالحـهـا لا تمس، ولكني علمت أنكم تنوون تكليف علي مـاهـر باشـا بتشكيل الوزارة وهذا ما لا توافق عليه إنجلترا لأن علي ماهـر رجل معروف بميوله الفاشية

ولا يحسن أن يؤلف الوزارة في هذه الظروف الدولية الخطيرة.

وإذا كان لابد من خروج وزارة الأغلبية فلتشكل وزارة من حزب من أحزاب الأقلية أو منها مؤتلفة حتى تكون التقاليد الدستورية ملاحظة.

وقد سمعت (الكلام لأمين) أن حاشية الملك تضايقت من هذه المقابلة ويقولون إن الملك نفسه تألم ولم يستطع المعارضة، وأن علي ماهر نصح له أن يتريث حتى تأتي اللحظة المناسبة وأن السفير (سير مايلز لامبسون) كلفني (أي أمين) أن أبلغك هذ المحادثة مقترنة بأسفه على أن الملك يركب رأسه ويقول إن حكم النحاس ليس حكمًا صالحًا، وليس لدينا من الأسباب ما يجعلنا نضغط عليه أو نفرض وزارة لا يقبلها لأن الوقت لم يحن بعد.

قلت لأمين بلغ السفير شكري واخبره أنني لا يسرني أن يدافع عني أو يفرضني على الملك وأن هذه مسائل داخلية لا يصح لبريطانيا أن تتدخل فيها بنص المعاهدة المبرمة بيننا، وليفعل الملك وبطانته ما يريدون فإنا قد تعودنا على هذا من أبيه وليس بغريب أن يحذو الولد حذو والده.

تلقيت تقارير من إدارة الأمن العام أن السراي تتصل بالمديرين والمحافظين وكبار الموظفين وتصدر إليهم الأوامر مباشرة

وقد اتصلت برئيس الديوان، وافهمته أن هذا تعد صارخ على الدستور، وأن الحكومة هي وحدها التي تملك إصدار الأوامر وهي المسئولة عن سير أداة الحكم.

وقد رد علي بأن هذه التقارير غير صحيحة وإنه لم يصدر أي أوامر لأي مدير أو محافظ وسيحقق في الأمر ليعرف مصدر هذه الشائعات وسيعاقب من عساه يكون قد فعل هذا، وإني أشك كثيرًا في أن رئيس الديوان سيفعل شيئًا لأنها مؤامرة مبيتة لإحراج الوزارة.

اجتمع بي بعض أعضاء الوفد وقد أخبروني أن الملك لم يذكر الوفد بشيء ولم ينتقده في أمر من الأمور لأنه مشغول بعروسه ويقضي معظم وقته معها، وترك الحبل على الغارب لعلي ماهر يتصرف كما يشاء وينسب إليه كل التصرفات التي تقع.

وقد اقترح بعضهم أن أطلب مقابلة الملك وأشرح له الموقف واذكر له الدسائس التي يحيكها المحيطون به، فأجبتهم بأن الملك لا يقابلني وحده وإنما يكون مصحوبًا بعلي ماهر وبعض موظفي السراي وغير معقول أن أطعن في علي ماهر أو أذكر ألاعيبه وهو موجود، حتى لو فعلت فلن يسمع الملك شيئًا منها لأن حاشية السوء ملأته حنقًا على الوفد وصورته له بأنه ينتزع عرشه ويقلب البلاد جمهورية.

وإذا كان أبوه مع تجاربه وسنه ودهائه قد صدق يومًا أن سعدًا يريد أن يقلب البلد إلى جمهورية فكرة سعدًا وأعلن عليه العداء، ولا شك في أن الولد سر أبيه، ولست أجد فائدة من مقابلته وشرح الأمر له.

جاء محمود غزالي للسؤال عن صحتي فاستقبلته فأخبرني أن علي ماهر نجح، ولم ينجح فلم أفهم ما يريد، قال نجح في التأثير على الملك والوقيعة بينك وبينه، ولم ينجح في مسعاه لدى الإنجليز في أن يوافقوا على توليه الوزارة، والمعلومات التي استقيتها من أصدقائي في دار المندوب السامي تفيد أن أسهم محمد محمود مرتفعة أكثر بكثير وما هي إلا أيام قليلة حتى تنجلي الأمور.

اتصل بي أمين وأخبرني أن الوزارة ستقال، وأنه لن يمض يوم أو يومن حتى يصدر كتاب الإقالة وأن محمد محمود يعد العدة لتولي الحكم وهو مشغول الآن باختيار وزرائه ومن جهة أخرى فهم يشترطون عليه أن يضم السعديين والمفاوضات دائرة بين الحزبين على من يشترك والوزارات التي ستترك لهم.

ثم قال إن السفير البريطاني غير متحمس لتغيير الوضع، ولكنني كما قلت من قبل لا يرى ما يدعو لتدخل سافر وضغط على الملك وقد نصحه أكثر من مرة بعدم التغيير ولكنه لم يقبل النصح لأن علي ماهر شديد التأثير، وهم تركوه يتصرف وكلفوا أحمد حسنين بأن يخبرهم بما يدور حول الكواليس.

جاء مكرم وأمين بعد انصراف الأطباء، وقالوا إن علي ماهر كلف عبد الوهاب طلعت أن يعد كتاب إقالة الوزارة ليوقعه الملك ويرسل إلي وأنا في الفراش، وإن موظفي السراي يقولون إن الملك صمم على أن ترسل الإقالة وأنت مريض حتى تكون الصدمة قوية لك.

كان المنزل غاصًا بالمستفسرين عن صحتي، وكان عدد كبير من مندوبي الصحف المحلية والأجنبية ووكالات الأنباء الأجنبية حاضرًا، وكنت معتكفًا في حجرة نومي اتقاء لبرودة الجو فدخل أحد السكرتارية ينبئني بأن محمود شوقي باشا سكرتير جلالة الملك في الصالون ويطلب مقابلتك فأجبته وماذا يريد؟ قال إنه يحمل رسالة من جلالة الملك إلى رفعتك شخصيًا، فقلت له هات الرسالة منه وقدموا له القهوة وأخبره أني لا أستطيع مقابلته نظرًا لمرضي.

خرج السكرتير وعاد يحمل مظروفًا مغلقًا ولما فضضته وجدته مرسومًا ملكيًا بإقالة الوزارة يقول فيه نظرًا لأن الوزارة خالفت الحكم الصالح للبلاد فقد أقلناكم شاكرين لكم ولزملائكم ما قمتم به أثناء توليكم الوزارة.

سرى الخبر في المجتمعين في الدار بسرعة خاطفة فشيعوا سكرتير الملك بالهتافات المدوية بحياة زعيم الأمة وخليفة سعد، وسقوط الخونة المارقين حتى أن الذين كانوا في الخارج شاهدوا محمود شوقي (سكرتير الملك) يهرول بسرعة ويستقل سيارته فرارًا من سخط الجمور وغضبه.

التحقيق

(١)

بلغ عدد الدول التي تتمتع رعاياها بالامتيازات الأجنبية في مصر اثني عشرة دولة:

الولايات المتحدة - بلجيكا - المملكة المتحدة - إيرلندا الشمالية - الدانمارك - أسبانيا - فرنسا - اليونان - النرويج - هولندا - البرتغال - السويد) إضافة إلى رعايا الممتلكات البريطانية فيما وراء البحار (أستراليا - جنوب أفريقيا - الهند - أيرلندا - زيلاند الجديدة.)

وقد تعددت صور هذه الامتيازات بين القضائي الذي يخضعهم لاختصاص قنصلياتهم فيما يتعلق بجرائمهم الجنائية، وفي الدعاوي المدنية التي تقوم بين أجانب متحدي الجنسية، والامتياز التشريعي الذي يحول دون وضع المشرع المصري لأية لوائح أو قوانين تسري على الأجانب، والامتياز الضرائبي الذي يعطي للأجانب حصانة فيما يتعلق بالضرائب وينطبق على الأفراد وعلى الشركات أيضًا التي تدفع ضرائب لبلدها وبموجب قانون هذه البلاد.

إضافة إلى الحرية الشخصية وحرية المسكن والتي تخول للأجنبي حق الإقامة والانتقال داخل البلاد وتسبغ علي مسكنه حرية خاصة، مع التوسع في تعريف المسكن ليشمل كل مكان يستخدم في الصناعة أو التجارة أو غيرها، ولا تعطي الحكومة حتى حق طرده من البلاد، أو عدم التصريح له بالإقامة.

وقد بلغ مدى حرية الأجنبي بموجب هذه الامتيازات، حد أن خديوي مصر حث أحمد لطفي السيد على الحصول على جنسية أجنبية ليشارك بجدية أكثر في مقاومة الاحتلال البريطاني.

لقد حدد مصطفى كامل موعدًا لأحمد السيد مع الخديوي عباس لمشاركته في تأليف حزب وطني تحت رئاسة الخديوي، وذهب أحمد لطفي السيد إلى موعده: "وتحدث معي سموه عن أغراض الحزب الذي يريد تأليفه وطلب مني أن أسافر إلى سويسرا لكي اكتسب الجنسية السويسرية ثم أعود إلى مصر كي أصدر جريدة تقاوم الاحتلال البريطاني "....
والسبب في اختيار سويسرا أو أية دولة أن التجنس بجنسيتها قريبة المنال لا يكلف الراغب إلا إقامة سنة واحدة.

ولقد أقام أحمد لطفي السيد في جنيف عامًا بالفعل ولكنه عاد على عجل دون أن يكتسب الجنسية عندما أبلغه مصطفى كامل (أبو الفدا) أن الخديوي (واسمه الحركي الشيخ): "...مغضب مني لأسباب منها اتصالي بالشيخ محمد عبده في جنيف...".

أما الواقعة الثانية التي تصور مدى ما سببته هذه الامتيازات من فساد وإفساد،

فأوردها من دراسة عبد الوهاب بكر عن (البوليس المصري) نقلاً عن اللواء توماس رسل باشا حكمدار العاصمة.

يقول الحكمدار:

"... أوقفتنا الامتيازات الأجنبية عاجزين تماماً وبلا أجل مسمى في التعامل مع المواخير غير المرخصة التي كان يديرها الأجانب، وقد تحدى منزل معين ذو شهرة كبيرة واتساع هائل، البكباشي كارتير - رئيس المباحث الجنائية - وتحداني لأشهر عديدة، عن طريق التغيير في جنسية البادرونا (مدير المحل) فلم يكن يستطيع أن يدخل منزل الأجنبي دون موافقة وحضور القنصل أو من يمثله.

وعندما كنا نصل إلى المنزل مع القواص القنصلي الفرنسي لطلب السماح لنا بالدخول من البادرونا الفرنسية، فإن الشراعة الصغيرة للباب الأمامي تفتح ويعلن صوت قشري أجش مبحوح أن مدام (إيفون)، قد باعت المحل (لمدام جنتلي) الإيطالية التبعية التي بدون ممثلها القنصلي، لا يستطيع الدخول، وفي الأسبوع التالي نصل مع القنصل الإيطالي، لنقابل بتغيير آخر في جنسية البادرونا، ومع تزايد حدة غضب البكباشي كارتير فقد جمع في ليلة واحدة سبعة قناصل أمام الباب المغلق..."

وفي ظل هذا العجز من جانب جهاز البوليس أمام الامتيازات الأجنبية تزايدت أعداد المومسات الأوروبيات ومارسن تجارتهن بحرية.

فقد كان عدد النساء اللاتي ضبطن يحرضن المارة في الشوارع خلال عام ١٩٣٦، ٣٧٤٠ أما عدد المنازل السرية التي هاجمها البوليس فوصلت إلي ٣٦٣ منزلا.

ومثلما فعلت الامتيازات الأجنبية بالدعارة كذلك فعلت بالمخدرات، فقد كانت هذه التجارة حكرًا على الأجانب تقريبًا، وقد تدفقت في ظل الحماية الدولية أطنان من المخدرات عن طريق الموانىء المصرية بواسطة السفن الأجنبية وابتلع السوق المصري في عام ١٩٢٩ (١٣٦٨٥) كجم. من الكوكايين والهيروين والأفيون والحشيش.

لقد عقد مؤتمر (مونترو) بسويسرا ٤/١٢ للتفاوض في أمر إلغاء أمر الامتيازات، وقد أشارت مصر في خطابها الداعي لعقد المؤتمر إلى أنه لن يكون هناك أي تمييز مجحف لمصالح الأجانب، كما أنه لن يكون فوريًا وسريعًا وانتهى المؤتمر (٨ مايو) إلى اتفاق من خمس عشرة مادة، أهمها قبول إلغاء نظام الامتيازات في مصر، مع مراعاة مبادئ القانون الدولي، على أن تبقى محكمة الاستئناف المختلط والمحاكم المختلطة فترة إنتقالية، تمتد ١٢ عامًا (حتى ١٤ أكتوبر ١٩٤٩).

وقد رأت المعارضة في البرلمان أن طول فترة الانتقال يجعلها "فترة استقرار لا انتقال."

(٢)

طال أمد هذه الرحلة الملكية أكثر من أربعة أشهر من ٢٧ فبراير حتى مشارف مايو. لقد غادر فاروق ميناء بورسعيد على ظهر الباخرة (فيكتوريا أوف إنديا) وبصحبته أمه الملكة نازلي، وأخواته وحاشيته التي تكونت من ٣٧ شخصاً والسيدة زينب ذو الفقار صبري صديقة نازلي ووصيفتها ومعها ابنتها صافيناز ذو الفقار، التي سيقع عليها الاختيار لتتوج ملكة على مصر باسم جديد يبدأ بحرف الفاء، الذي كان الملك فؤاد مولعًا به وهو (فريدة). وبصحبتهم جميعًا سبعة أطنان من الأمتعة ومائتين وخمسين حقيبة كبيرة.

لقد اختلفت أوصاف المرافقين لهذه الرحلة، فقد رأتها فريدة رحلة الحب، كما روت بعد ذلــك "فقد كانت أحلى وأجمل أيام حياتي كلها مع فاروق، وقد أحسست أنني أصبحت أستحوذ علي كل اهتمامه ولحظتها ولد الحب في سان مورتيز".

أما (إدوار فورد) معلم فاروق الذي اختاره لامبسون ليعلمه "... كيف يتصرف كصبي انجليـزي مـؤدب..."فقد قال إنه لم يستمتع بالرحلة ولا بصحبتهم مطلقًا، فكل ما يفعلونه هــو: "تدخين عدد لا يحصى من السجاير ، شرب القهوة، التحدث لبعضهم بعض... لم أفكر أبدًا أنه يمكنني قضاء أي وقت مع هؤلاء اللاغين لعقولهم... أنني لا أجد القيم الجيدة التي يجب أن تفرض بين الحكام، لا أثر للحضارة الأوروبية عقليًا أو روحيًا..."

أما فاروق نفسه فإنه: "ليس لديه أية فكرة عن كيفية التعامل مع شخص في مثل عمره، إنه لم يعرف أي شخص كان نصفه تلميذًا في التاسعة أو العاشرة ونصفه الآخر شابًا في الثالثة والعشرين...."

كان ينام إلى وقت متأخر أحيانًا إلى الرابعة مساءا ثم يذهب ليتسوق، ليشتري الميداليات، الساعات، خاصة ساعات الحائط الكبيرة، أو يذهب للعب بآلات السولت في الفندق بسانت مورتيز .... بعد العشاء يقضي ساعات في البار وهو يقذف أي فتاة يريد الرقص معها بكرات صغيرة يصنعها بنفسه.

ويكتب معلمه فورد: ".... للأسف كان ذوقه غير موفق بالمرة حتي قدمت له كونتيستين سويديتين وكان قد اختار يهودية مجرية ليست ذات جاذبية على الإطلاق لإغاظة بعض النازيين الألمان المتواجدين هناك...".

وبالرغم من أن الذين خططوا للرحلة، قد أعلنوا عنها ووصفوها على أساس أنها رحلة تثقيفية، حتى يبلغ الملك السن القانونية، فإن الجميع كان ماض في الاهتمام بنفسه، أو مداهنة الملك.

"... علي مائدة الطعام جعل الملك، مراد محسن باشا يلتفت بعيدًا عنه، ثم استولى على منديله من جيبه وخبأه .... بينما انفجر الحضور جميعًا في قهقهات عالية..."

ولقد كان مثيرًا للاشمئزاز كما يقول معلم الملك – "منظر صفعه لوصيفتيه من الخلف

أو استسلامهما له بوداعة كي يطلي ألسنتهما بحبر أسود قبل الذهاب إلى حجرة الخدم...".

وعندما واجه المعلم فاروق قبل ذلك محاولاً تصحيح ما رآه معوجًا من سلوكه، لم يستحسن الملك سماع النصيحة. أما أحمد حسنين فرغم تسليمه بسوء سلوكه فقد قال بشكل مباشر لفورد: "... إن جلالته ملك... ولذلك يجب أن يتملق وأن يداهن، يجب أن تصغي لكرامته ولحسه بدلاً من أن تنهره وتوبخه..." وهو ما يفسره فورد بأنه كان "... غير آمن في وظيفته..." هو يعتقد أن الملك سوف يرفض أي شخص يتصرف ويتحدث له كمعلم، لكن أحمد حسنين كان مشغولاً خلال هذه الرحلة بالملكة نازلي أكثر من أي شيء آخر فقد كان يتبعها أينما ذهبت، بينما كانت - كما يصف فورد - "منغمسة في مغامراتها الخاصة، تشتري الشمبانيا وتضرب أرضية البار بكعوبها في الليل المتأخر...".

الغريب أن الملكة نازلي التي دبرت لحضور وصيفتها وابنتها كي تستولي على قلب ابنها فتزوجه منها وتستريح. قالت لمعلمه: "... إن هذه الفلاحة - أي فريدة - تحاول الإمساك بالملك ..." ولكنها كانت راضية عن ذلك بل كانت في غاية الاستعجال لأن يأخذ مداه ...بعد أسابيع كتب المعلم فورد في تقريره إلى لامبسون وكأنه يغمغم بصوت مرتفع: "... كان ينبغي أن أعرف أن مهمتي كانت منتهية من البداية..."

(٣)

كانت جهود الوفد موزعة على اتجاهين أساسيين خلال هذا العام: إرهاب خصومه، ومحاولة استعادة شعبيته.

لقد كان من أسباب احتدام الخلاف بين الوفد والقصر - على سبيل المثال - رفض الملك توقيع مرسوم أعدته وزارة النحاس يقضي بتخفيض نسبة الدرجات المطلوبة لنجاح طلاب الجامعة، لعل ذلك يمتص الغضب، ويستعيد المكانة في الجامعات.

ومع العمال الذين كانت بطالتهم ومعاناتهم الاقتصادية في أوجها، أقام الوفد حفلاً عماليًا كبيرًا في (ملعب الاسكندرية الكبير) - اكتوبر ٣٧ - حضره رئيس الوزراء بنفسه، حيث قدم عرضًا للمكاسب والامتيازات التي تحققت للعمال، ولكن صحف المعارضة وصفته في اليوم التالي بأنه "مجرد طبل أجوف" فقد كان عمال النقل الميكانيكي العاطلون قد قرروا أن يطوفوا أنحاء المدينة، وهم يحملون أعلامًا كتب عليها: "عاونوا عمال الأتوبيس العاطلين".

وكان من أسباب الخلاف بين الوفد والقصر - على سبيل المثال أيضًا - أن الملك رفض التوقيع على مشروع قانون بفتح اعتماد مالي إضافي طلبته الوزارة، لاعتقاده بأنه موجه لتمويل فرق «القمصان الزرقاء» التي كان الوفد قد دأب على استخدامها، وقد اتسع هذا الاستخدام بشكل فريدًا وجسيمًا، يقول (الرافعي): فقد "... أخذت تتسلح بالعصي

والخناجر وتعتدي علي اجتماعات المعارضين، وفضت بعضها بالقوة واعتدت أيضًا على أشخاص المعارضين، وعلى الصحف المعارضة، واستفحل شأنها بضم أشياع الطبقات إليها، فصارت وسيلة لإهدار حرية الرأي والفكر وإفساد أداة الحكم وكان أفرادها يقتحمون الدواوين، ويملون إرادتهم على الرؤساء والموظفين....".

ويضيف محمد حسين هيكل قائلاً "... وإذا فرق القمصان الزرقاء تتحكم في الشوارع والطرقات وإذا الحرية تحت الحاكمين وأعوانهم لا يحميها أحد لأن حماتها هم سفاكوها...".

وعندما انطلقت شائعة بأن محمد محمود سيدعى لتشكيل وزارة جديدة لأن القصر مصمم على إقالة وزارة النحاس، انطلقت فرقة من «القمصان الزرقاء» إلى منزل محمد محمود باشا، وكان وصف ما حدث من داخل المنزل كما يلي:

"... كانت الساعة نحو السابعة حينما سمعنا ضجيج المظاهرة وهتافها للنحاس باشا، فيما بدأ الهتاف يزداد وضوحًا وينبيء باقتراب المظاهرة من المنزل، أمر محمد محمود باشا بإغلاق بوابته إغلاقًا محكمًا...،... وبلغت المظاهرة المنزل وحاولت اقتحامه، وسمعنا أعيرة نارية تدوي ... وكثرت الطلقات النارية كثرة جعلتنا نشعر وكأننا في معركة حربية حامية الوطيس، وظلت الطلقات تدوي زمنًا قبل أن يحضر البوليس ... فلما رأى المتظاهرون البوليس تفرقوا بعد أن كانوا يحاولون تسلق الدار من خلفها، وأبلغ الحادث إلى النيابة، فلم يحضر من رجالها أحد إلا حين انتصف الليل" ... ثم حفظ التحقيق.

وتضاعفت أعراض الأزمة العامة التي يواجهها الوفد، بانهيار جديد في بنيانه، حيث انفصل محمود النقراشي ثم تبعه بعد قليل أحمد ماهر حيث شكلا حزبًا جديدًا (الحزب السعدي) وكان كلاهما من أهم أركان الوفد، خاصة على صعيد العمل السياسي الجماهيري.

لقد كتب لامبسون مبكرًا جدًا إلى إيدن (٤/٢٧) مفسرًا الخلاف الحاد بين أحمد ماهر ومكرم عبيد، حيث كان اتهام مكرم إلى أحمد أنه "مأجور لرئيس الديوان (شقيق علي ماهر) وأنه يحيك الدسائس لإبقائه بالقرب من الملك وإضعاف قوة الوفد."

ومن المؤكد أن هذا الاتهام لم يكن صحيحًا، بل إن فاطمة اليوسف تقول إن فاروق كاد يسند رئاسة الوزارة لأحمد ماهر - نكاية في النحاس ومكرم - ولكن علي ماهر (شقيقه ورئيس الديوان) قال للملك إنه مازال صغيرًا.

لقد ناصر أحمد ماهر بعد ذلك مباشرة النقراشي وغالب باشا في موقفهما من توليد الكهرباء من خزان أسوان، حيث طالب بأن تطرح العملية في مناقصة عالمية في مواجهة تشبث النحاس ووزارته بالاتفاق - بالأمر المباشر - مع شركة بريطانية يمثلها الجنرال (جراي) مقابل سبعة ملايين جنيه ومائة ألف بحجة أن لهذه الشركة سرًا فنيًا لا يمكن

إفشاؤه، بينما كانت هناك شركات أخرى قدمت عروضاً مقابل خمسة ملايين جنيه فقط..

وأجرى النحاس تعديلاً وزارياً (٣ اغسطس) حيث أخرج معارضيه من الوزارة: النقراشي، محمد صفوت، محمود غالب، علي فهمي، بحجة أن سير العمل داخل هيئة الوزارة يقتضي تجانساً وانسجاماً، وهو ما يرى (الرافعي) أنه يشكل "نقطة تحول في سلوك الوفد في الحكم، فقد أخذ بعد ذلك يسلك فيه سبيلاً لا يتفق مع الروح القومية، ولا مع الاستقامة والنزاهة.." "،،، وقد اقترن هذا التحول بإضفاء سمات الزعامة المقدسة على النحاس، والدعوة إلى الخضوع لكل ما يراه ... وأرادوا بهذه الظواهر المفتعلة أن يرهبوا كل من يخالفونه في الحكم المطلق في مساوئه وأوزاره...".

وفي الشهر التالي مباشرة (نوفمبر) أطلقت سيارة عدة أعيرة نارية على النحاس (جناية رقم ١٣٤ مصر الجديدة) حيث أنه: "أثناء اتجاه المجني عليه بسيارته بشارع عباس أطلق عز الدين عبد القادر توفيق أربعة أعيرة نارية أصابت إحداهما السيارة، ولم يصب رفعته..."

وقد أعقب الحادث موجة عارمة من الاعتقالات فقد "قوي الشعور العام بأن الوزارة مشرفة على الزوال وشعرت الوزارة بذلك، فاشتدت حملة الإرهاب" وقدر للوفد أن يسمع لأول مرة هتافات عالية بسقوطه في اجتماع طلابي، كان عدد المعدمين من عمال الزراعة قد وصل إلى مليون وأربعمائة وخمسين ألف عامل، وبينما كان مليونان واثنان وعشرون ألف مواطن يملكون مليون فدان وثمانمائة ألف، كان هناك اثنا عشر ألف شخص فقط، يملكون مليونين ومائتين وخمسة وعشرين ألف من الأفدنة، وفي حين أكد تقرير – نقلته الوثائق البريطانية – عن زيارة لمصنع الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى أن ٩٠٪ من العاملات في المصنع مصابات بمرض السل، فإن متوسط عمر الإنسان المصري – وفق الإحصائيات الطبية الرسمية – في هذا العام تراوحت بني ٣٥,٦ سنة للرجال و٤٢,١ سنة للنساء، ويكفي أن نضيُف أن متوسط دخل الفرد المصري بين أعوام ١٩٣٥ و١٩٣٩ بالنسبة للدخل القومي كان يساوي ٩,٦ جنيهاً في العام(!)

(٤)

لعب القصر لعبتين مختلفتين في مواجهة وزارة الوفد، كانت الأولى هي محاولة استخدام سلاح الدين، أما الثانية فكانت محاولة استخدام الديمقراطية.

بدأت اللعبة الأولى مبكرة منذ بداية العام وقبل أن يتم تتويج الملك رسمياً في منتصفه، وقد اشترك في تخطيطها وتنفيذها علي ماهر والشيخ المراغي، من خلال إضفاء صبغة إسلامية على الملك الجديد، بهدف تشويه صورة النحاس، وإظهار أن الوفد خاضع لسيطرة مكرم عبيد، أي أنه خاضع لنفوذ قبطي.

وهو ما يراه د. مصطفى الفقي في مقدمة عوامل الانشقاق بين النحاس ومكرم في

مرحلة تالية.

وعندما زار الشيخ المراغي السكرتير الشرقي للسفارة البريطانية بعث (كيلي) - القائم بالأعمال -إلى (إيدن) يقول:

"... فيما يتعلق بزيارة الشيخ المراغي للسكرتير الشرقي، يبدو واضحًا أن هناك انقلابًا يتم الإعداد له بصورة جدية، لإسقاط الحكومة، وأن موقفنا يعتبر عاملاً هامًا في ذلك."

بعد ذلك أرسل (كيلي) تقريرًا آخر إلى (إيدن) عن لقائه هو، مع الشيخ المراغي كان نصه يقول:

"... لا يوجد شك في أن المعارضة للنحاس تعتمد على إثارة العداء الكامن المستتر بين المسلمين والأقباط، بصفته أحد الأوراق الرابحة والجزء الأكبر لما وصفته بأنه محادثتي العامة مع الشيخ المراغي، دار في الواقع حول شجب النفوذ القبطي في مصر. وقال إن الحكومة الحالية تعتمد على أقلية دينية لابد من إنهاء حكمها، وأكد أن الأقباط من أقلية عنصرية أيضًا لأن المسلمين من سلالة عربية في الغالب، وعبر عن آماله بأن يتم تسوية المسألة بإرضاء المسلمين..."

وحينما جاء شهر رمضان (في أكتوبر) نظم المراغي مع السراي سلسلة من الدروس الدينية، وأخذت الصحف الموالية للقصر تبرز صورة الملك على أبواب المساجد مع المراغي، وما لبث أن أشيع أن مكرم عبيد منزعج من ذلك، وأنه اتصل بالسفير البريطاني يحضه على منع تلك الدروس، حتى أن مكرم اضطر إلى أن يقدم بلاغًا للنيابة العامة يطلب التحقيق فيه.

ثم أحاطت بالملك هتافات أزهرية جديدة من نوع "خليفة المسلمين" و "أمير المؤمنين"، وجُيِّشَت حيوية الطلاب للتعبير عن ذلك.

كان النحاس يدرك مبكرًا جدًا أن استراتيجية علي ماهر تتلخص في تقوية القصر لكي يحكم بإسمه، ولذلك عندما أصدر فاروق مرسومًا (في ٢٠ أكتوبر) بتعيين علي ماهر رئيسًا للديوان الملكي دون الرجوع إلى الوزارة، وأبلغه إلى النحاس من خلال سعيد ذو الفقار كبير الأمناء. كان رد فعل النحاس - كما وصفته المصادر البريطانية - "هيستيريا" فدعى إلى اجتماع فوري لمجلس الوزراء، وحاول أن يكرر مطلبًا قديمًا (كان جزء من كتاب تشكيل وزارته في ١٠ مايو ٣٦ ورفضه مجلس الوصاية) بتعيين وزير للقصر في الوزارة لمحاولة احتواء نفوذ علي ماهر. وبدلاً من ذلك استطاع القصر أن يحتوي ثورة النحاس، حيث قابله الملك بعد خمسة أيام من القرار ليقنعه بأنه ليس موجهًا ضد وزارته أو ضد الوفد، ويبدو أنه أبدى اقتناعًا، وإن لم يكن تعبيرًا عن قناعة!

لذلك ليس غريبًا أن يكتب لامبسون في مذكراته بعد أسبوعين قائلاً:

"... تراودني المخاوف من أن الملك الشاب قد أخذ في التغيير، إلا أنه وبشكل عام فمن الواضح أنه قد بدأ صراعه مع النحاس، وسوف يكون من الخطورة بمكان أن يذهب بتفكيره إلى أنه أصبح شخصًا لا يقهر، وأن بمقدوره أن يلعب الدور الذي يريده..."

لقد ازدادت حمى المبارزة بين القصر وبين الوفد - كان كل منهما يبدي عزيمة قوية لكي يؤكد في معركة صراع الإرادات، أن إرادته هي الأقوي والأبقى...

غير أن موازين القوي لم تكن في حالة تكافؤ، فقد ذهب الكثير من الشباب والطلاب والفلاحين إلى جبهة القصر، ليس لأن الملك الشاب قد نجح في استمالة شعبه إليه - كما كتب البعض - فأولئك الذين صنعوا موجة عالية من الأمل وركبوها في اتجاه الملك الشاب، لم يفعلوا ذلك بسبب جاذبيته وإنما بسبب فقدان جاذبية الأمل والحلم الذي مثله الوفد في أعقاب توقيع معاهدة ١٩٣٦ .

يقول عبد المغني سعيد في مذكراته - وكان طالبًا - "... لأول مرة بدأت شعبية الوفد تهتز عندما تظاهر ضده طلاب الجامعة واضطرت حكومته إلى محاصرتهم في كلية الزراعة وكان منظر خوذات البوليس وهراواته وهو يحاصر الكلية مثار الدهشة والإثارة للجماهير...".

على جانب آخر كانت بريطانيا وسفيرها تحاول حتى اللحظات الحاسمة مساعدة الوفد على البقاء في الحكم، وكان النحاس ومكرم يحاولان تحريض السفارة على اتخاذ موقف حاسم، في مواجهة الملك نفسه.

لقد كتب لامبسون إلى إيدن (١٩٣٧/١١/٢) يقول إن مصطفى النحاس أكد له أنه في حالة إقالة الملك - من قبل الإنجليز طبعًا - فإن البلاد كلها ستكون خلفه (أي خلف النحاس) وهو ما أكده مكرم عبيد في اليوم التالي (١١/٣) للسفير بضرورة التخلص من فاروق ليحل محله ملك آخر، لأن التاج - حسب ألفاظ مكرم - "يشكل جزءا ضروريًا لا يتجزأ من دستور مصر...".

وقد وصف فاروق له بأنه: "ليس جاهلاً فقط وغير مؤهل ولكنه يخشى أنه يتعمد أن يكون غير دستوري وأنه معاد للإنجليز، بل وحتى معاد للأجانب...".

كان لامبسون في غاية القلق، ومثلما كتب لإيدن: "فإذا ذهب النحاس فإن التنفيذ السلبي للمعاهدة سوف يتأثر" وتدخل أمين عثمان بقوة لصالح الوفد، ولم يكف عن المحاولة حتى أن الصراع - كما يقول محمد أحمد فرغلي - "قد أصبح وكأنه بين علي ماهر باشا وبين أمين عثمان...". لقد استطاع إقناع النحاس باشا بمطلب بريطانيا حل منظمة القمصان الزرقاء، ولذلك كان على ثقة من أن السفير البريطاني سيتدخل لصالحه ... لكن لامبسون يتساءل بصوت مرتفع:

"... إننا دون شك لا نرغب في فقد النحاس، ولكن نحن مستعدون لدفع الثمن المتوقع لمساندته ضد الملك فاروق...؟

إن ذلك يعني الاستعداد لاستخدام القوة، ويمكن حتي عزل الملك فاروق، إن هذه الخطوة الأخيرة قد تكون مريحة من نواح كثيرة، وتنقذنا في المدى الطويل من مشكلة وتخبط لا نهاية لهما ... لأنه إذا بدأ حكمه هكذا فماذا سيصبح فيما بعد عندما تكون له السيطرة الكاملة ... وهل نحن مستعدون حتي لدراسة هذه الخطوة العنيفة... إنني أجد من الصعب المشورة بذلك...".

لكنها كانت مشورة الوفد كما هو واضح من حديث مكرم عبيد إلى لامبسون، الذي عاد إلى الطريق الآخر: محاولة جديدة لممارسة الضغوط على فاروق:

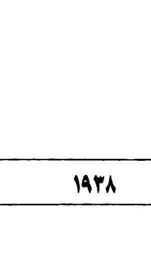
"حذرته غير مرة من التفكير في إقالة رئيس الوزراء الذي لازال يحظي بالأغلبية البرلمانية... إذ أن ذلك سوف يشكل تهديداً للعرش، ويتعين عليه توطيد علاقته مع النحاس بشكل أساسي .... كانت لهجتي معه حاسمة وقوية...."

ولكنها لم تكن مجدية فيما يبدو فقد أحس فاروق أنها مجرد كلمات قوية، لا تختبيء وراءها قوة حقيقية قابلة للاستخدام، ولذلك فبعد عشرة أيام بالضبط، كان لامبسون مفاجأ كغيره بإقالة وزارة النحاس فقد: "... تواترت الأنباء عن قيام الملك بإقالة النحاس واستدعاء محمد محمود لتشكيل الوزارة".

وكان رد فعل (لامبسون) كما يلي:

"جلست مع كيلي لعدة دقائق نستعرض الأسماء التي يمكن أن تضمها الوزارة الجديدة".

أما أمين عثمان، فقد أبلغ صديقه (فرغلي) بأنه "يشعر بالمرارة..."!


١٩٣٨

المذكـــــرات

(١)

نشرت الصحف جواب إقالة الوزارة الوفدية مع خطاب تكليف محمـ ود باشا بتأليف الوزارة والمراسيم التي صدرت بالموافقة على توليه الوزارة وبرنامـ مي الحكم، وقد تضمن حل البرلمان وإجراء انتخابات جديدة خلال شهرين من تاريخ الحل طبقًا للدستور.

بدأت الوزارة عملها بأن استصدرت مرسومًا بتحديد يوم الانتخابات في أول مارس وشفعت هذا بتعديل الدوائر الانتخابية حسب هواها وهوى أنصارها.

كان أول ما قامت به الوزارة بعد تحديد الانتخابات أن أجرت حركة إدارية نقلت جميع المديرين والمحافظين وفصلت عددًا منهم بتهمة أنهم وفديون وركنت عددًا آخر في وظائف لا عمل فيها، وثنت بفصل عدد كبير من كبار الموظفين في مختلف الوزارات والمصالح.

فتحت الوزارة أبواب الترشيح لمجلس النواب وقد اجتمعنا وجاءت إلينا الأنباء بأن الملك شخصيًا مصمم على ألا ينجح بمجلس النواب أحد من الوفديين البارزين وأنه أصدر أوامره شخصيًا إلى رئيس الوزراء بأن النحاس لابد أن يسقط في دائرته الانتخابية وأن يسقط أقطاب الوفد وأعضاؤه وهيئته جميعًا لأنه لا يريد أن يفتتح برلمانًا يكون فيه وفديون.

استعرضنا الموقف من جميع نواحيه، ورأي بعض الزملاء أن نقاطع الانتخابات ونترك لهم مجلس النواب يعملون فيه ما يشاءون ويزورون كما يريدون ولكني لم أوافق على هذا الرأي ذلك أن الدستور لم يتغير وأن الانتخابات تجري طبقًا لنصوصه، ومقاطعتنا الانتخابات تعطي للخصوم فرصة التشهير بنا وبأن الأمة انصرفت عنا، والرأي عندي أن ندخل الانتخابات ونعمل جهدنا على أن نخوض المعركة بكل قوتنا وثقلنا وبعون الله وأنصارنا هم أغلبية الأمة برغم كل شيء.

خاضت جريدة المصري المعركة الانتخابية بعنف وقوة وبدأت تكتب فضائح عن أعمال الحكومة ورئيسها والأوامر التي تصدر للمديرين ورجال الإدارة خاصة بتزوير الانتخابات، وكانت تنشر من حين إلى حين وثائق ونصوص الأوامر مما أغضب رئيس الوزارة وأمر بالقبض على كريم ثابت أحد أصحاب المصري الثلاثة.

وقد علمت أن كريم ثابت لم يكد يقف أمام المحقق حتى ارتجف واصفر لونه وكاد يغمى عليه مما أضطر المحقق إلى تأجيل التحقيق معه، ولما أفاق أنكر كل شيء وتنصل من صلته بالمصري وقرر أنه لا تربطه به رابطة إلا دفع ثلث رأس المال وأنه يؤكد لوكيل النيابة أنه سينسحب لأنه لا يقبل أن يعرض بجلالة الملك ولا بحكومته الرشيدة، وقد أفرج المحقق عنه بكفالة.

جاءني محمود أبو الفتح أحد أصحاب المصري وقال إن التابعي وكريم ثابت شريكيه في الجريدة أبديا رغبتيهما في الانفصال نهائيًا وأنه يعرض أن يحل الوفد محلهما في ملكية الجريدة وإدارة سياستها فقبلت العرض مبدئيًا وشكلت لجنة من مكرم وصبري الهلالي ويوسف الجندي لبحث هذا الموضوع وإنهائه بسرعة.

تحدث خلصاء رئيس الوزارة وبطانته التي تسامره في داره بأن الشيخ المراغي زاره واستحثه على فصل الموظفين الذين طلب جلالة الملك والحزب السعدي فصلهم وأنه يجب أن تطهر الإدارة الحكومية من الوفديين لأنهم مهرجون وليس فيهم كفاءة ولا يحسنون أي عمل.

وأن محمد محمود صرح لبعض أصدقائه بأن الضغط شديد عليه بشأن إخراج الموظفين وهو لا يحب هذا العمل ولا يميل إليه وأن ضميره يوبخه على أن يوقع على قطع عيش موظف قد يكون له أولاد أو أسرة ينفق عليها من راتبه، ولكن الشيخ - شيخ الإسلام - أفتى له بأن ليس في هذا العمل أي غضاضة وأن المصلحة العامة تحتم عليه أن ينفذ فإن الضرورات تبيح المحظورات.

زارني في سمنود في منزل محمد سماحة صهري وفد من آل أبي الفتوح حسن أبو الفتوح بك عضو الشيوخ وشقيقه أحمد أبو الفتوح ومحمد فؤاد سراج الدين نجل سراج الدين شاهين باشا وابن شقيقه سيد باشا بدراوي وقال الأستاذ فؤاد إنه يخشى أن تزور الحكومة الانتخابات في دائرة سمنود بالذات وإن لديهم دائرة اسمها الزعفران ناخبوها كلهم من مزارعيهم وعمالهم ورجالهم، وعرض علي أن أقدم أوراق ترشيح في هذه الدائرة احتياطيًا ولن تقدم هذه الأوراق إلا في آخر يوم في الساعة الخامسة حتى نضمن ألا يزاحمك فيها أحد فراقتني الفكرة عليها وشكرت (فؤاد).

اتصل بي الأستاذ فؤاد وأخبرني بأنه قدم الأوراق في الساعة الخامسة إلا خمس دقائق ودفع التأمين وأن الخزينة قد أوصدت ولم يتقدم مزاحم في الدائرة وقلت على بركة الله، وبعد قليل من المكالمة عاد فاتصل وأخبرني أن فريد أبو شادي مدير الغربية المنتدب أصدر أمرًا بفتح الخزينة وجلب أي إنسان من البلد وتقديم أوراق ترشيح له ودفع التأمين في الحال.

وقد نفذت الإدارة الأمر ونشط رجالها في جميع أرجاء الدائرة حتى عثرورا على رجل عادي اسمه محمد سعيد ودفعوا له التأمين وأعلنوا ترشيحه ضدي.

وقد علق فؤاد على هذا بأنه لا يهمهم في قليل ولا كثير فالدائرة دائرتهم والناخبون كلهم عمالهم وفلاحوهم سكان الدائرة مستأجرو أطيانهم.

اشتدت الحملة الانتخابية وأخذ رجال السراي وأعوان علي ماهر يتدخلون تدخلاً سافرًا ويصدرون الأوامر إلى رجال البوليس، وجندت وزارة الداخلية كلها، والمصالح

التابعة لها للترويج لمرشحي السلطة ومحاربة مرشحي الوفد، وكانوا يجاهرون بأن الملك لا يريد أي وفدي في البرلمان الجديد.

نشرت الصحف أن الملك قصد إلى جامع قيسون في شارع القلعة ثم جلس في الصف الأول وعندما نزل الخطيب من المنبر تنحي وتقدم الملك فصلى بالمسلمين إمامًا، وقد طبلت صحافة الحكومة لهذا الحادث ووصفت فاروق بأنه فاروق الملك التقي الورع الصالح وأنه نصير الإسلام والمسلمين.

خرجت جريدة المصري وفي صفحتها الأولي إطار جميل بخط كبير تحت عنوان (حكمة اليوم) قال صلى الله عليه وسلم (من علامات الساعة إمامة الصبيان) حديث شريف والتوقيع حكيم.

ولقد علمت أن هذا الخبر أزعج السراي وهز علي ماهر هزة عنيفة وأنه انتهز هذه الفرصة وأوعز للملك أن هذا تعريض صريح به وأنه صبي غير مسئول، وغضب الملك وثار وقال يجب أن يقتص من الجريدة والمحررين، ولكن علي ماهر أشار بالتريث حتى تتكون لديهم عدة أدلة تكفي للقبض رئيس التحرير ومحاكمته وإغلاف الجريدة.

(٢)

أعلن رسميًا خطبة الأميرة فوزية شقيقة الملك لولي عهد إيران الأمير (شاهبور) وحدد منتصف الشهر القادم لعقد القران. وقد اتصلت الملكة نازلي بحرمي ودعتها إلى حفل القران وقالت لها إذا كان الملك لا يريد دعوة الباشا فهذه سياسة أما أنا فهذا فرح ابنتي وأنا حرة في أن أدعو من أشاء وأترك من أشاء، ثم حملتها تحية إلى ورجاء ألا أتأثر من تصرفات الملك فهو شاب طائش وتحيط به بطانة سيئة تريد أن تعيش على حسابه، وقد كلفتها أن تشكر جلالة الملكة على كريم عطفها وأن تلبي دعوتها لحضور عقد القرآن.

جاءني العضو الذي تعودت أن اختاره في الانتخابات ممثلاً لي في بلدة كفر الثعبانية وهي من أكبر بلاد الدائرة، وقال لي إن البوليس يطارده، ويبحث عنه لكي يقبض عليه ويحبسه حتى لا يمثلني في اللجنة ونتركهم يفعلون ما يشاءون، وطلب أن يظل معي حتى أصحبه إلى الدائرة فيستطيع أن يجلس مع أعضاء اللجنة الذين يمثلون موكليهم عند أخذ الأصوات، استبقيته وطلبت إليه أن يظل معنا حتي يستقل السيارة ونصل به إلى كفر الثعبانية ليكون مندوبي في لجنة الانتخابات وقضى ليلتين معنا في منزل سراج بك صهري، وكنت أتركه داخل المنزل لأطوف ببعض منازل الناخبين ثم أعود.

كان اليوم موعد إجراء الانتخابات فتركت المواطنين، ولجنة الوفد بسمنود يراقبون العملية وقصدت إلى بلدة كفر الثعبانية حتى أستطيع الوصول قبل إجراء الانتخابات ليتمكن المندوب الذي يمثلني أن يصل في الموعد المحدد.

ركبنا السيارة، أنا في الوسط وعلى يساري إبراهيم فرج وعلى يميني كامل البنا وأمامي مباشرة المندوب، ولما وصلنا إلى مدخل كفر الشعبانية وجدنا شخصاً طويل القامة يلبس الملابس البلدية ويرفع بيده هراوة كبيرة غليظة، وقد وقف في طريق السيارة وحوله عدد من الخفراء رافعين بنادقهم.

أشار إلي السائق فوقف ثم فتح باب السيارة وهوى بهراواته علي رأس المندوب وحتى شجه وتقدم خفيران فحملاه من بين أيدينا عنوة وأدخلاه سيارة كانت تنتظرهم وتركونا وأسرعوا.

كانت مفاجأة فأمرت السائق أن يسرع إلى البلدة حتي نبلغ وكيل النيابة الذي قيل إنه هنا يجري تحقيقًا، أسرع السائق وإذا علي مشارف منازل البلدة عمدتها أحمد غنيم واقفًا وحوله عدد من الجنود والخفراء. وتقدم فسلم علي وقال تفضل رفعتك في الدوار لنقوم بواجب الضيافة فأجبته متشكرًا أنا ما جئت للزيارة ولكني حضرت لأمر على لجنة الانتخابات وسألته عن وكيل النيابة فأجاب أنه في بيتي يحقق في جريمة انتخابية.

قصدت إليه وأخبرته بحادث الاختطاف ووصفت له الشخص الذي باشر العملية واسمه نبيل غنيم وعرفت أنه أحد مشايخ البلد، وجيء به فقال إنه لم يفعل شيئًا، ولم يرتكب جريمة خطف ولا تعرض لسيارتي، وإني أقدم لك (والخطاب لوكيل النيابة) والد الشخص الذي يقولون أنه مخطوف وسيقرر لك مكان ولده، وأتى بفلاح طاعن في السن عليه ملابس بالية وسأله وكيل النيابة هل تعرف مقر ولدك؟ أجاب: أن ابني سافر إلي القاهرة منذ يومين، وهو مقيم فيها الآن ولم يحضر إلى البلد منذ ذلك التاريخ، فسأله وكيل النيابة إن رفعة الباشا ومن معه يقررون أن شيخ البلد نبيه غنيم ضربه منذ قليل وشج رأسه وخطفه من السيارة التي كان يركبها معهم، فأجاب الرجل وهو يرتجف لا ياسيدي ابني في مصر ولم يخطفه أحد ولم يحصل له أي سوء، واضطر وكيل النيابة إلى قفل المحضر على هذا.

وذهبت إلى قاعة الانتخابات فإذا بالجنود الذين يحرسونها يمنعونني من الدخول خوفًا على الأمن أن يختل حسب قولهم فتركت البلد وعدت إلي سمنود، وعند الظهر اتصل بنا بعض الناخبين من بني أبو صير وقالوا إنهم ينتظرون قدومي فأجبت إني قادم إليكم مسافة الطريق.

وفي المساء جاء فريق كبير من أهالي البلد وأخبروني أن زملاءهم محاصرون في مركز البوليس واختطفوا صناديق الانتخابات وأصروا أن تفتح أمامهم وتفرز الأصوات علانية حتى لا تزور النتيجة وقالوا إنهم سيمكثون إلى جانب الصناديق وسيظلون يحرسونها حتى تفرز أمامهم خشية تزويرها وإخراج أوراق الانتخابات منها واستبدالها.

جاءت التليفونات من قنا بأن مكرم عبيد سقط بعد معركة قتل فيها وجرح فريق، وأن عبد السلام فهمي جمعة سقط في دائرته بين عماله وزراعة بعد موقعة طاحنة وأن عبد

الفتاح الطويل سقط في الأسكندرية وأمين الوكيل سقط في دمنهور وأمين الإتربي سقط في أخطاب بلده وعشيرته وعشرات من كبار الوفديين الذين كانوا ينجحون في كل انتخاب بالتزكية سقطوا جميعًا ولم ينجح واحد منهم.

لما وصلت إلى هذه الأخبار بعثت إلى الأهالي الرابضين في المركز يحرسون صناديق الانتخابات أن ينصرفوا ويتركوا البوليس والإدارة يزورون الانتخابات كما يريدون، فإن الدوائر كلها قد زورت وجميع المرشحين قد سقطوا.

عدت إلى القاهرة وظهرت نتائج مئات من الدوائر سقط فيها جميع مرشحي الوفد، وبقيت دائرتا سمنود والزعفران اللتان رشحت فيهما لم تعلن النتيجة فيهما، وظلت الصحف تنتظر حتى ساعة متأخرة من الليل فإذا ببيان وزارة الداخلية يعلن أن النحاس سقط في دائرتي سمنود والزعفران.

نشرت المصري نبأ فضيحة مالية خطيرة ارتكبها وزير المالية أحمد ماهر مؤداها أنه (أي أحمد ماهر) أقرض صديقًا له اسمه إيلي بوليتي مدير البنك التجاري المصري - أقرضه من مال الدولة سلفة مقدارها مليونان من الجنيهات المصرية بلا فوائد إعانة للبنك وبذلك ارتفعت أسهم البنك المشار إليه إلى عشرين قرشًا للسهم الواحد بعد أن هوت إلى الحضيض وأصبح السهم لا يساوي قرشًا واحدًا، وأن هذه الفضيحة هزت الأوساط المالية وأثرت على بورصة الأوراق المالية تأثيرًا سيئًا.

سألت مكرم من أين استقيتم هذا الخبر الخطير فقال إنه علمه من أقرب المقربين إلى أحمد ماهر وهو شخص يلعب معه على موائد الميسر كل ليلة ويعرف كل أسراره ودخائله.

أحدثت فضيحة البنك التجاري ضجة عنيفة في الأوساط المالية والحكومية ونقلت الصحف الأجنبية والصحف المصرية نبأ الفضيحة نقلاً عن «المصري» وتشرت وزارة المالية بلاغًا رسميًا من مكتب الوزير لم ينف فيه التهمة بل اعترف بها ودافع عنها بأن الإعانة لم تدفع للبنك التجاري وحده بل دفعت لغيره من البنوك المصرية.

بدأت المصري تنشر أخبارًا اعتبرتها اللجنة الصحفية الوفدية دعاية مبالغًا فيها للملك وقد استقبلت اللجنة وهي مؤلفة من مكرم ونجيب وصبري ويوسف، وأجمعوا على أن محمود أبو الفتح يلعب على الحبال، ويريد أن يحتفظ بعلاقته بالوفد حتى يضمن لجريدته الرواج وفي الوقت ذاته يكسب ثقة رجال السراي من أمثال علي ماهر وعبد الوهاب طلعت وكريم ثابت زميله السابق الذي أصبح من رجال السراي بسبب لا يمت إلى الشرف والكرامة بشيء أضرب عن ذكره صفحًا.

علقت الجماعة على تصرف أبو الفتح بأنه يسيء إلى سمعة صحافة الوفد التي عرفت بأنها لا تجامل ولا تمالئ ولا تخشى في الحق لومة لائم، واستدعيت محمود أبو الفتح وناقشته أمام اللجنة فقال إن هذا كلام مدسوس علي وأنا لم أتغير ولم أمل إلى ناحية

السراي ولا أنشر إلا البلاغات الرسمية التي تصلني من السراي، وإذا كانت هناك علاقة شخصية بعلي ماهر أو غيره فهذه علاقة لا تؤثر في العمل الوطني بحال من الأحوال.

واحتد النقاش بينه وبين مكرم فقال أبو الفتح إن جواسيسك ياباشا أمثال جودة ورياض شمس هم الذين يسوّءون العلاقات بيننا وأنا ياباشا (الخطاب للنحاس) لا أستطيع أن أعمل في هذا الجو فإذا شئتم تركت لكم الصحيفة لتديروها بمعرفتكم وأنا اعتزل العمل الصحفي أو اخرجوا الدساسين منها حتى استطيع أن أعمل فيها، وهدأت الموقف وقلت لأبي الفتح سنعطيك فرصة ونرى ماذا سيكون مسلك الجريدة والمقالات التي تنشر فيها، وأجلنا هذا الموضوع إلى اجتماع آخر.

بعث إلي السير مايلز لامبسون (المندوب السامي البريطاني) برسالة شفوية مع أمين يبلغني فيها أسفه على ما علمه من أن الانتخابات قد زورت وأن ألاعيب مكشوفة قد ارتكبت في الدائرتين اللتين رشحت فيهما، وقد رددت على الرسالة بالشكر وحملت الانجليز وحدهم تبعة هذه التصرفات الشائنة وقلت لأمين بلغ السفير بصراحة أنه هو وحكومته المسئولون عن هذا كله لأنهم تركوا الملك ورئيس ديوانه والحكومة التي أيدوها يتصرفون حسب أهوائهم بحجة أن هذه مسائل داخلية، ولو أنهم حقًا يتركون مصر تتصرف في أمورها الداخلية لأودت بتلك الأقليات من زمن بعيد، ولكنهم يتدخلون عندما يشعرون بأن مصالحهم ربما تمس من قريب أو من بعيد فإذا اطمأنوا تركوا الحبل على الغارب للملك وبطانته يتصرفون حسبما يريدون.

تلقيت رسالة من جواهر لال نهرو بأنه ينوي الحضور إلى مصر بصحبة ابنته أنديرا غاندي لزيارة الآثار ولقضاء بضعة أيام عندنا، وكتبت إليه الرد أرحب به وطلبت أن يحدد الموعد حتى أرسل من يستقبله.

ارسلت اثنين من السكرتارية لمقابلة جواهر لال نهرو وابنته أنديرا غاندي على إثر وصول برقية منه وحجزت لهما في الفندق وقد عاد السكرتيران وأخبراني بأنهما استقبلا الضيف الصديق وصاحباه إلى أن وصل إلي الفندق وأطمأنا عليه، وقد رأيت أن أرجئ زيارته والتسليم عليه حتى يستريح من عناء السفر.

قصدت إلى الكازينو لزيارة جواهر لال نهرو، وقد سررت كل السرور لرؤيته صحيحًا معافي وقدم إلى ابنته أنديرا غاندي وهي فتاة شابة سمراء اللون تلبس الساري على عادة الهنود، وراقني منها أنها مثقفة ثقافة عالية وملمة بسياسة الانجليز وأساليبهم في حكم الهند إلمامًا واسعًا (علي صغر سنها) وقد قلت لجواهر لال نهرو إنني أتنبأ لهذه الفتاة بمستقبل باهر فابتسم وقال إني أعدها لتكون خليفتي في العمل السياسي للبلاد.

وتناول حديثنا الحالة العالمية فقال جواهر لال إن انجلترا – لو دخلت الحرب – فسوف ترغمنا على أن نقف في صفها ونحارب برجالنا ولا نستطيع ونحن مستضعفون أن نعصى

لها أمرًا، وأن المهاتما غاندي يرى أن تظل حركة العصيان المدني ومقاطعة البضائع الإنجليزية سائرة لا تنقطع قامت الحرب أو لم تقم، وأنه حملني إليك رسالة خاصة بصفتك زعيم الشرق، ومصر هي أم الشرق وثورتها هي الثورة الأم، لهذه الاعتبارات كلها كلفني أن نعد العدة لعمل مشترك ضد الاحتلال على اختلاف الديار وتباين النظم، فأجبته أني أرحب بالعمل المشترك معًا وعلى استعداد لبحث أي اقتراح تتقدمون به، ونعمل علي أن ننسق مجهوداتنا بحيث لا تداهمنا الحرب على غرة، ويأتي الإنجليز ويأخذون كل ما يريدون يدافعون عن أنفسهم، ونحن نظل مستعبدين وتابعين للإمبراطورية، فقال ما رأيك في المقاطعة أجبت إنها تنفع عندكم، ويمكن أن تكون شاملة ولكن عندنا لا يمكن تنفيذها علي وجه الدقة، وذلك لأن لدينا أحزاب أقليات وقصرًا يسكنه ملك وحاشية وجاليات أجنبية كبيرة وهذه كلها لن تنفذ قرار المقاطعة إذا دعونا إليه وأعلنا عنه، ولكنني من ناحيتي أنا وإخوتي أعضاء الهيئة الوفدية نعلن في كل فرصة، وندعو في كل وقت لمقاطعة البضائع الإنجليزية.

وقد قرنا القول فانت لا تجد واحدًا من يلبس قماشًا إنجليزيًا أو حذاء أجنبيًا ولكن هذا لا يؤثر في انجلترا كثيرًا لأن البلد كما قلت فيها خصوم وأجانب وأعداد كثيرة يستجلبون بضائعها ويروجون تجارتها وتجارة البلاد الأجنبية التي لها جاليات عندنا.

وقد ودعته بعد أن حملته تحية وشكرًا خالصًا للمهاتما غاندي على كريم تحيته وعظيم تمنياته لمصر والمصريين.

قابلت عددًا من الصحفيين الذين كانوا يحررون في جريدة الجهاد وشكوا لي من أن توفيق دياب عطل الجريدة، ولم يدفع إليهم أجورهم، وأخذ إيراد الجريدة كلها وأنفقه على مزرعته التي اشتراها في أبو حمص (أحد مراكز البحيرة) وقد دعوب (مكرم والهلالي من أعضاء لجنة الصحافة) وطلبت إليهما أن يكلما توفيق دياب في دفع مستحقات أبنائنا وأن يبحثا لهم عن عمل يلتحقون به حتي لا يظلوا متعطلين.

اتصل كامل البنا تليفونيًا من القاهرة (وكان قد سافر إليها صباحًا لإنجاز بعض الأعمال) وسألته عن الأخبار فقال لا جديد غير أن نبأ أملاه مكرم باشا علي رئيس التحرير نصه (بينما كانت سيارة ملكية يقودها صاحبها بأقصى سرعة على طريق الكورنيش إذ صدمت طفلة أودت بحياتها في الحال ورئي حفظ التحقيق) وعقب على هذا بأن مكرم باشا يريد أن ينشر هذا الخبر ببنط كبير في صفحة الأخبار والحوادث، وقلت له إن هذا خبر تافه لا يستحق أن تنشره ولا داعي لنشره فقال إن المقصود هو الملك شخصيًا وإن محمود أبو الفتح غاضب ويعارض في نشره ويقول إنكم تريدون أن تعطلوا الجريدة بسبب خبر سخيف لا يقدم ولا يؤخر، فقلت له إن أبا الفتح على حق ولا داعي لنشر الخبر.

جاء مكرم في المساء وحدثني بشأن الخبر الذي منعت نشره في المصري - وكان معه رجل تظهر عليه علامات البؤس والفقر - وقال لي إن هذا الرجل هو والد الطفلة التي قتلها

الملك بسيارته أمس وهو يستغيث بنا ويطلب مساعدة فساعدته بما أمكن، وخرج الرجل وطلب مكرم أن ينشر الخبر لأنه سيحدث رجة في السراي ووافقت على نشره بعد أن رأيت والد الطفلة وحالته المؤلمة لعل في نشره ما يهدئ من حالة ذلك الرجل المسكين. واتصلت بالمصري وأمرت بنشر الخبر كما هو.

ظهر المصري في الصباح وفيه الخبر وخرجت صحف المساء ببلاغ رسمي تكذب فيه هذه الواقعة وتقول إنها مختلقة من أساسها وإن دفاتر البوليس ليس فيها شيء عن هذا الخبر على الإطلاق وإن وزارة الخارجية أبلغت النائب العام في حق رئيس التحرير إذ أن هذا الخبر يعد طعنًا في الذات الملكية المصونة.

ردت المصري على البلاغ الرسمي الذي أصدرته إدارة المطبوعات كذبت نبأ موت الطفلة بالسيارة الملكية وكان ردًا مدعمًا بالوقائع والأدلة مما أفحم الحكومة وجعلها تلوذ بالصمت.

لم تسكت الحكومة على رد المصري إلا ساعات معدودات ثم فوجئ رئيس التحرير بطلب من النائب العام للتحقيق معه فذهب إليه فوجه إليه تهمة العيب في الذات الملكية، وقال له إن الخبر الذي تشرته خاصًا بصدم طفلة بسيارة ملكية يعتبر عيبًا في الذات الملكية المصون، وأنا أعلم أن ابن (جميانة النصراني) يعني (مكرم عبيد) هو الذي أملى عليك هذا الخبر، والقانون لا يحملك أية مسؤلية إذا قلت من الذي أعطاك هذا الخبر خصوصًا إذا كان في عدم نشره ما يلحق بك الضرر كموظف في جريدة يشرف عليها من أمرك بنشره، فقرر أن وليم بن القبطية هو الذي أمرك بنشره وأنا أفرج عنك في الحال وبلا كفالة.

أجاب رئيس التحرير لا أنا مسئول عن نشر الخبر، ولست في حل من أخبرك عن مصدره ما دمت أنا المسئول الوحيد عنه فوجه إلي التهمة كما تريد.

فوجه النائب العام التهمة إلى رئيس تحرير المصري وبعث خبرين كانا قد نشرا من زمن بعيد، أحدهما يوم زفاف الأميرة فوزية إلي ولي عهد إيران والثاني يوم صلى الملك إمامًا بالمسلمين صلاة الجمعة في أحد مساجد القاهرة.

وجمع الأخبار الثلاثة ووجه بمقتضاها تهمة العيب في الذات الملكية إلى رئيس تحرير المصري.

جاء كامل البنا وقال لي إن شخصًا اسمه صادق الذهبي موفد إليك من قبل علي ماهر باشا رئيس الديوان الملكي برسالة خاصة يريد أن يقولها لك مباشرة، فسألته هل يعرف ذلك الشخص من قبل فأجاب نعم أنه موظف صغير في وزارة التجارة.

قابلته فأسر إليّ أن رفعة ماهر باشا بعث بي إلى رفعتك لأبلغك أنه يريد أن يقابلك

مقابلة خاصة لا يعلم بها أحد وهو يقترح أن يلقاك عصر الغد على طريق الكورنيش لأنه علم أنك تتمشى كل يوم من سان استفانو إلى سيدي بشر على قدميك وهو سيسير من سيدي بشر في موعد خروجك حتى إذا ما تلاقيتما كانت كأنها مصادفة بحتة فيتحدث إليك، ولو عرف بها أحد من الصحفيين فهو من ناحيته سيمنع نشرها ومن جهة رفعتك تأمر الصحف الوفدية بألا تشير إليها.

كررت السؤال عن هذا الموظف الصغير وما علاقته بعلي ماهر فعلمت أنه متزوج من إحدى سيدات الصالونات تسمى (فالنتين ذهبي) وهي صديقة حميمة لعلي ماهر من هذا الطريق بعث إلي بزوجها الموظف الصغير وعجبت من تلك الألغاز والمعميات.

تمشيت على الكورنيش مشيتي اليومية وفي منتصف الطريق بين محطة السراي وسيدي بشر رقم (١) رأيت علي ماهر يسير في مقابلتي فلما رآني تقدم إلي مسلمًا كأنها مفاجأة وانتحيت وإياه ناحية خلف أحد الأكشاك وبدأ الحديث عن الحالة الدولية وسوئها وتفاقمها، ثم عرج على الموقف الداخلي وأن وزارة محمد محمود باشا مع ائتلافها مع السعديين قد فشلت في سياستها، ويجب أن تحكم البلد وزارة قوية تستطيع أن تواجه الموقف، فأجبته بأنك بصفتك مستشارًا لجلالة الملك تعرف الطريق الصحيح فأجاب إن التيارات كثيرة وهناك في السراي فئة تعمل يتزعمها أحمد حسنين ولو كان الأمر بيدي لأشرت للملك أن يحل الموقف حلاً صحيحًا، ولكني أشير عليه بالرأي ونتفق عليه ثم ينقضه في اليوم التالي.

وأرى أن تقبل رفعتكم وزارة قومية وإذا كنت لا توافق فتأت وزارة محايدة لا ينتمي رئيسها إلى أي حزب ليهدئ الحالة ثم يمهد للأغلبية كي تتولي الحكم.

أدركت ما يرمي إليه وهو أنه يريد أن يحل محل محمد محمود فقلت له إنك تعرف موقفي وهو في غاية الوضوح وزارة دستورية تؤلف على إثر انتخابات حرة تتولى فيها الأغلبية الحكم وغير هذا لا أقبل ولا أوافق وهذا رأيي فاعمل به إن شئت.

استمر الحديث بيننا أكثر من نصف ساعة هو يلف ويدور وأنا عند موقفي وأخيرًا تصافحنا ومضى كل في طريقه.

نشرت مجلة آخر ساعة نبأ المقابلة وكتبت بعض ما دار بيني وبين علي ماهر من حديث فهاج علي ماهر وماج واضطرب من في القصر وأخذوا يتطاحنون ويطعن بعضهم بعضًا، وكان أشد الغاضبين رئيس الوزراء إذ أدرك أن علي ماهر يعمل على إقصائه من رئاسة الوزارة وأعلن هذا لأخصائه وأنصاره وقال إنه سيتقدم بالاستقالة قبل أن يلعب علي ماهر لعبته فيوحي إلى الملك بأن يقيل الوزارة كما فعل مع النحاس.

أقمت مأدبة عشاء تكريمًا للصديق جواهر لال نهرو وكريمته وقد تحدثنا علي المائدة في الحالة الدولية وخطورتها وجاء ذكر سفري للاستشفاء فأشار علي نهرو ألا أبارح مصر

نظرًا لخطورة الحالة وقال إنه قرر التعجيل بالسفر حتي يكون قبل وقوع الحرب.

ولكني قلت له إنه وإن كانت نذر الحرب تلوح في الأفق - إلا أنني لا أعتقد أنها ستعلن في هذا العام لأن التقارير التي تصلنا من مختلف الدول تؤكد أن الاستعداد في معظمها ليس تامًا وإذا كان هتلر قد قوى جيشه وأصبح قادرًا على شن الحرب فإن من يبتغي محالفتهم لم يستعدوا الاستعداد الكامل، وقد قرأت تحقيقًا صحفيًا يكتبه مراسل جريدة ألمانية يؤيد هذا الرأي، ومع ذلك فحتى لو سافرنا وأعلنت الحرب فلن نكون بعيدين عن مصر إلا بمقدار يوم أو يومين يمكن أن نعود بعدها إلى البلاد. ودعت نهرو متمنيًا له ولإبنته ومن معه سفرًا سعيدًا وتوفيقًا سديدًا.

وصلنا إلى مونكتين وفعلاً وجدت حرًا شديدًا جدًا وجوها لا يطاق بالنهار ولكن مصحتها مستعدة استعدادًا طبيًا وأطباءها أكفاء، وقد رحبوا بنا ترحيبًا طيبًا وأقبل من بالفندق يسلمون ويحيون وكانوا من مختلف البئيات وأكثرهم ليسوا إيطاليين بل من بلاد مختلفة.

اتصلت بي وزارة الخارجية الإيطالية وقال المتحدث إن الكونت شيانو وزير الخارجية يريد التحدث إليك وحدثته فطلب أن يزورني، واتفقنا على أن تكون الزيارة بعد أن ينتهي (كورس) الحمامات الذي قرره الأطباء.

حضر الكونت شيانو فاستقبلته مرحبًا وشد على يدي وبالغ في الترحاب بي وقال لي إن السنيور موسوليني حمله تحية طيبة وتمنيات صادقة بإقامة سعيدة واستشفاء ناجح، وأنه سعيد جدًا إذ أن الزعماء المعروفين في الشرق والغرب يقصدون إلى هذا المصح للاستشفاء، ومن أجل هذا وجهت الحكومة إليه عناية خاصة، فشكرت للسنيور موسوليني تحيته وحملت الكونت إليه مثلها.

ثم تطرق الحديث إلى الحالة الدولية وخطورتها وكان مما قاله إنه لا مناص من حرب عالمية تحل المشاكل المتشابكة في مختلف دول العالم، وإن الحرب العالمية الأولي مهدت لحرب ثانية منذ وزع المنتصرون الأسلاب بينهم، وتركوا الشعوب المغلوبة والصغيرة هملاً، وكان لابد لدولة كألمانيا الهتلرية التي هزموها ومزقوا أوصالها أن تنهض لتسترجع حقوقها ومنزلتها بين العالم باعتبارها من أقوي الدول الصناعية، وأخذ يصف لي استعداد بلاده للحرب وإعداد الفاشست (القمصان السوداء) وتدريبهم تدريبًا قويًا، ثم خفض وقال: لا أخفي عليك أننا سندخل الحرب مع هتلر وأننا لابد سنكسبها لأن قواتنا هائلة وانجلترا إلى الآن ليس لديها أي استعداد لصد هجماتنا وكذلك الدول التي تصادقها أو تحالفها، وأن الدوتشي أوفدني إليك لأتحدث معك بصفتك زعيم الأغلبية في مصر ومسموع الكلمة عند الشعب فهل لديك مانع من أننا إذا دخلنا مصر فاتحين منتصرين أن تتحالف معنا وتأمر الشعب أن ينصرنا ضد الانجليز مقابل أن تكون رئيس جمهورية.

وابتسمت وحاولت قدر المستطاع أن أضبط أعصابي وقلت له: ياكونت إنك تتحدث عن أشياء في عالم الغيب فالحرب لم تعلن بعد ولا يعرف أحد ما الدول التي ستحالف بعضها بعضًا وعلي فرض وقوعها فلا يدري أحد لمن تكون الغلبة ولمن تكون الهزيمة، وعلى فرض إن ما قلته سيقع فهل تريدني أن استبدل احتلالا باحتلال، وأزيل استعمارًا لأؤيد بدله استعمارًا.

خرج الكونت شيانو وهو غاضب وقال حين ودعته راجع نفسك فيما عرضت عليك حتى لا تندم وتضيع علي بلادك فرصة ذهبية.

كنت قد تعرفت أثناء إقامتي ببيكر دنيال من أبناء الفاتيكان وأحد مساعدي البابا، ولما علم إني أنتويت السفر التقي بي وعرض علي إذا كنت أحب أن ألقى البابا أن يحدد لي موعدًا قبل مبارحة إيطاليا فرحبت بذلك وتحدد الإثنين المقبل ٧ سبتمبر الحالي.

قابلت قداسة البابا، وقد استقبلني واقفًا في وسط الحجرة ورحب بي ودعاني إلي الجلوس، وبعد تناول المرطبات والقهوة سألني عن إقامتي، وهل استفدت منها صحيًا فأجبت نعم، ثم انتقل الحديث إلى زيارة الكونت شيانو، وقال إنه علم به من مصادر الفاتيكان وسمع أنه تحدث معك في الحرب القادمة وعرج بك على مستقبل بلادك فعجبت من أين له هذا؟ ثم عقب على هذا فقال: لقد سرني إنك لم تتمش معه ولم تقبل ما عرضه عليك فتأكدت أنه يعرف ما دار بيننا فقلت له إني أخبرت الكونت أننا شعب محتل ونعمل لنرفع الاحتلال عنا، أما المستقبل فلا يعلمه إلا الله، وقال راقني أنك كنت صريحًا معه إلي حد أنه خرج من المقابلة غير مسرور، وأحب أن أقول لك إنه هو وصهره السنيور موسوليني سيجران البلاد إلى كارثة لو أن الدوتشيساير هتلر في أفكاره ومطامعه، ثم سكت وقال إن موسوليني رجل ذكي ومفكر وقارئ ومطلع، ولكنه مغرور ومطامعه لا حد لها وهو يتصور أن محالفته لهتلر سترد إلى إيطاليا تاريخها القديم ومستعمراتها التي فقدتها في الحرب العالمية الأولى وهو بهذا واهم.

لقد قابلت الملك فيكتور عمانوئيل، وسألني عن رأيي في الحرب فقلت له إن الحرب دائمًا مدمرة ونتائجها خطيرة وأنا لا أقول لك من واقع تعاليم الكنيسة التي تدعو للسلام والمحبة وحسب لكني أقول لك من الواقع وتجارب الماضي، وضربت له مثلاً بالسويد وسويسرا اللتين لم تدخلا الحرب أبدًا وكيف حالهما الآن وحال بقي بلاد أوروبا التي تورطت في الحرب ورغبت في الاستعمار.

وكان الملك عاقلاً متفهمًا لما قلته، أما موسوليني فهو رجل فيه غرور كبير وله مطامع لا حد لها، وهذا هو ما أخشاه لا علي مستقبل إيطاليا وحدها بل مستقبل العالم كله لو أن حربًا عالمية ثانية قد وقعت وهي لابد واقعة، ولكن لا أظنها تقع هذا العام لأن الطرفين لم يتما استعدادهما.

استمعت إلى هذا الرجل المثقف الذي كان يخاطبني بلغة عربية فصحى وكلما أثرنا موضوعًا وضع النقط على الحروف واشتد إعجابي به.

وعندما استأذنت في الخروج صحبني إلى باب حجرته وقال لي: اثبت على رأيك والمستقبل لله لا لهتلر ولا لموسوليني.

لم أكد استقر في الإسكندرية حتى تلقيب دعوة من النائب العام للتحقيق في بلاغ قدمه وزير المالية (أحمد ماهر) بأني قذفت في حقه إذ أهنته علنًا ونشرت صحيفة سيارة أنه حابي صديقه مدير البنك التجاري وأعطاه من مال الدولة مبلغًا كبيرًا من المال، وهي تهمة تعتبر قذفًا في حق موظف عام هو وزير المالية.

عدت اليوم إلى القاهرة وكان الاستقبال كما عودنا المواطنون رائعًا، وظل الموكب يسير في نظام حتى إذا وصل الركب أمام فندق شبرد هجمت قوات كبيرة من البوليس على المتظاهرين فأعملوا الضرب والتشتيت وتقدم فريق من الجنود مدججين بالسلاح إلى سيارتي وأرادوا الهجوم علي والاعتداء بالهراوات فتلقى كامل البنا الهراوة بيديه ومنعها من الوصول إليّ فهجموا على مكرم الذي كان يجلس إلى جانبي فضربوه في رأسه فشجوه ووقع على الأرض وسال منه الدم، وأرادوا معاودة الاعتداء علي ولكن الجماهير كانت قد تجمعت ثانية فحالوا بينهم وبيني ووقعت بين الفريقين معركة سالت فيها الدماء وأصيب من الجمهور عدد كبير ومن البوليس عدد لا يقل عنه.

وأسرع سائق السيارة إلى المستشفى حيث أجريت الاسعافات الأولية للمصابين وضمدت جروح كامل البنا والشباب الذي أصيبوا، أما مكرم فقد استدعى الأمر إجراء عملية جراحية سريعة فقام الأطباء إبراهيم فهمي المنياوي كبير جراحي المستشفى ومساعدوه بإجرائها وانتهت على مايرام، وظل مكرم تحت البنج حتى ساعة متأخرة من الليل.

وجئ بقوات هائلة لحراسة المستشفى ولكن الجماهير سرعان ما تجمعت واقتحمت الحصار المضروب ودخلت لتطمئن على المصابين.

ذهبت لمكرم في المستشفى فالتقيت بفارس نمر وحسن صبري وكريم ثابت، وقد انتحى بي حسن صبري ناحية وحدثني أن وزارة محمد محمود لن تعمر طويلاً وأن كل الوسائل الودية التي بذلها رجال السفارة البريطانية في الإبقاء عليها لم ترق في نظر رجال السراي أو بالأحرى في نظر علي ماهر الذي يسعى بكل وسيلة لكي يؤلف الوزارة على أنقاض الوزارة الحالية.

وقد كان فارس مع صهره سمارت قبل حضوره إلى المستشفى مباشرة وتحدثا طويلاً في هذا الخصوص.

التابعة لها للترويج لمرشحي السلطة ومحاربة مرشحي الوفد، وكانوا يجاهرون بأن الملك لا يريد أي وفدي في البرلمان الجديد.

نشرت الصحف أن الملك قصد إلى جامع قيسون في شارع القلعة ثم جلس في الصف الأول وعندما نزل الخطيب من المنبر تنحي وتقدم الملك فصلى بالمسلمين إمامًا، وقد طبلت صحافة الحكومة لهذا الحادث ووصفت فاروق بأنه فاروق الملك التقي الورع الصالح وأنه نصير الإسلام والمسلمين.

خرجت جريدة المصري وفي صفحتها الأولي إطار جميل بخط كبير تحت عنوان (حكمة اليوم) قال صلى الله عليه وسلم (من علامات الساعة إمامة الصبيان) حديث شريف والتوقيع حكيم.

ولقد علمت أن هذا الخبر أزعج السراي وهز علي ماهر هزة عنيفة وأنه انتهز هذه الفرصة وأوعز للملك أن هذا تعريض صريح به وأنه صبي غير مسئول، وغضب الملك وثار وقال يجب أن يقتص من الجريدة والمحررين، ولكن علي ماهر أشار بالتريث حتى تتكون لديهم عدة أدلة تكفي للقبض رئيس التحرير ومحاكمته وإغلاف الجريدة.

(٢)

أعلن رسميًا خطبة الأميرة فوزية شقيقة الملك لولي عهد إيران الأمير (شاهبور) وحدد منتصف الشهر القادم لعقد القران. وقد اتصلت الملكة نازلي بحرمي ودعتها إلى حفل القران وقالت لها إذا كان الملك لا يريد دعوة الباشا فهذه سياسة أما أنا فهذا فرح ابنتي وأنا حرة في أن أدعو من أشاء وأترك من أشاء، ثم حملتها تحية إلى ورجاء ألا أتأثر من تصرفات الملك فهو شاب طائش وتحيط به بطانة سيئة تريد أن تعيش على حسابه، وقد كلفتها أن تشكر جلالة الملكة على كريم عطفها وأن تلبي دعوتها لحضور عقد القرآن.

جاءني العضو الذي تعودت أن اختاره في الانتخابات ممثلاً لي في بلدة كفر الشعبانية وهي من أكبر بلاد الدائرة، وقال لي إن البوليس يطارده، ويبحث عنه لكي يقبض عليه ويحبسه حتى لا يمثلني في اللجنة ونتركهم يفعلون ما يشاءون، وطلب أن يظل معي حتى أصحبه إلى الدائرة فيستطيع أن يجلس مع أعضاء اللجنة الذين يمثلون موكليهم عند أخذ الأصوات، استبقيته وطلبت إليه أن يظل معنا حتي يستقل السيارة ونصل به إلى كفر الشعبانية ليكون مندوبي في لجنة الانتخابات وقضى ليلتين معنا في منزل سراج بك صهري، وكنت أتركه داخل المنزل لأطوف ببعض منازل الناخبين ثم أعود.

كان اليوم موعد إجراء الانتخابات فتركت المواطنين، ولجنة الوفد بسمنود يراقبون العملية وقصدت إلى بلدة كفر الشعبانية حتى أستطيع الوصول قبل إجراء الانتخابات ليتمكن المندوب الذي يمثلني أن يصل في الموعد المحدد.

ما بينك وبين الملك قلت ليس بيني وبينه شيء اللهم إلاّ الدسائس والدساسون والله يفعل ما يريد.

جاء أمين في آخر الحديث وانضم إلينا وأخذنا نتكلم في الجو والحالة الدولية وخطر الحرب الذي يدنو رويدًا رويدًا.

قابلني في أحد الحفلات شاب يطلب العلم في ألمانيا اسمه عبد الغفار الساعي جاء في إجازة وأخبرني أنه قابل في إيطاليا أحد أعوان هتلر ويسمى (هيس) وتحدث معه حديثًا طويلاً عن الحرب وقرب وقوعها وأن ألمانيا تستعد الاستعداد الأخير للأخذ بثأرها من الحلفاء، وأنه باعتباره عاش في مصر زمنًا طويلاً وعرف كثيرًا من أحوالها الداخلية يعلم أن أغلبية الشعب يؤيد الوفد ورئيسه ويتمنى أن لو أمكن التفاهم مع زعيم الأغلبية على الخطوط الرئيسية للمستقبل، فإن الحرب ستغير خريطة العالم وستقلب الجغرافيا رأسًا على عقب.

لم أفهم ماذا يريد مني مساعد هتلر، واستفسرت من الطالب عما استنتجته من حديثه مع (هيس)، فأجاب أنه كان يلمح أن لألمانيا أنصارًا كثيرين في مصر وأنهم عقب إعلان الحرب سيكونون عونًا لهم وأن الوفد لو أيد هؤلاء أو اتصل بهم للانضمام إليه وتكوين جبهة ضد الانجليز لأمكن إنهاء احتلال مصر بسهولة.

حمل إلي البريد الخارجي رسائل مختلفة وكانت الرسالة التي الفت نظري إليها رسالة من السيد/محمد علي جناح الزعيم الهندي المسلم يقول في بعض فقراتها إن الخلاف بين الأقلية المسلمة في الهند وبين أغلبية الهندوس بلغ مداه، وأنهم يذبحون أبناء المسلمين في الشوارع كلما ظفروا بهم، وأنه هو وعدد من زملائه المسلمين يحاولون التفاهم مع غاندي أو جواهر لال نهرو على وقف تلك المذابح ولكن بلا جدوى ويطلب إليّ أن أكتب لجواهر لال نهرو بصفته صديقًا قديمًا أن يستعمل نفوذه مع طائفة الهندوس للكف عن المذابح التي يرتكبونها جهارًا نهارًا في جميع شوارع يوميًا وغيرها من البلاد.

وقد تأثرت جدًا لهذا النبأ وما يلقاه إخوان لنا مسلمين من أجل عقيدتهم وما يقاسونه في سبيل القيام بواجباتهم، وعولت أن أكتب لجواهر لال نهرو رسالة أطلب إليه فيها أن يعمل جهده علي وقف المذابح وأن يحاول مهادنة المسلمين لأنه لا ينتفع من وراء هذا الخلاف إلا المستعمرين، كما سأكتب ردًا على محمد علي جناح أوصيه فيه باستعمال الحكمة ومحاولة التفاهم مع غاندي أو جواهر لال أو غيرهما من كبار زعماء الهندوس.

كتبت رسالتين إحداهما إلى جواهر لال ضمنتها تحيتي واحترامي وإشادتي بجهاد المهاتما غاندي وأثنيت على وطنيته وكفاحه هو ومساعده نهرو ثم طلبت إليه أن يحاول ما وسعه الجهد إنهاء الخلاف الناشب بين الهندوس والمسلمين وأن يضم صوته إلي صوتي في أن يطلب من غاندي أن يأمر أنصاره بالكف عن المذابح التي تنقل الصحف أنباءها

والتي تصل إلينا تفاصيلها فتدمي لها قلوبنا وتأسي نفوسنا، وأشرت إلى أن زعيمًا واسع الأفق كغاندي على درجة من الثقافة والحنكة لا يستعصى عليه أن ينهي تلك الخلافات العقيمة التي لا تعود إلا بالوبال على الهند وتعطلها عن المضي في طريقها لطلب حريتها واستقلالها، ولن ينتفع من وراء هذا إلا انجلترا التي تؤمن بحكمة (فرق تسد) وناشدته الأخوة القديمة وعشرة المنفى التي تقاسمنا فيها الآلام وشظف العيش أن يسعى جهده لحل الخلافات.

كما حررت رسالة أخرى إلى محمد علي جناح ردًا على رسالته شكرته فيها وأنبأته أني كتبت لجواهر لال نهرو بخصوص الخلاف القائم بينهم، ورجوته أن يعمل كذلك من جهته على إنهاء المشاكل التي بين المسلمين والهندوس وذكرته بأن الاستعمار لم ينفذ إلا من ثغرة الأقليات وحمايتها والأغلبية وطغيانها، وأننا قاسينا هذا في وطننا فإن انجلترا لم تحتل مصر إلا بحجة حماية الأقليات، ولما قامت ثورة ١٩١٩ كان أول عمل بدأنا به أن أبطلنا حجة خصومنا وقامت الأقليات من أقباط مصر تنادي بإنهاء الاحتلال وتعلن تضامنها مع الأكثرية المسلمة ونصحت له أن يستعمل نفوذه في حل هذه المسائل أو على الأقل تعليقها مؤقتًا إلى أن يتم استقلال الهند وجلاء المحتلين عنها ثم تتفرغون بعد ذلك لمشاكلكم الداخلية.

نشرت الصحف أنه تحدد لرئيس تحرير المصري دور يناير لمثوله أمام محكمة جنايات مصر دائرة عبد الرحمن الطوير لمحاكمته بتهمة العيب في الذات.

اتصلت بمكرم وطلبت إليه أن يحضر ومعه بعض الأساتذة المحامين الذين سيتولون المرافعة في هذه القضية.

حضر مكرم ونجيب الهلالي وصبري أبو علم ويوسف الجندي ومحمود غنام وفهمي جندية وعدة أشخاص من الأساتذة المحامين، وطرحنا مسألة الدفاع على بساط البحث وسرعان ما فوجئت بأن مكرم يعتذر عن الدفاع، فعجبت وسألته لماذا؟ قال لأن هذا من مصلحة المتهم إذ أنني لو حضرت للدفاع عنه لتدخلت السراي وطلبت تشديد العقوبة لأنها سترى أن هذه القضية حزبية، فقلت سواء ترافعت أو لم تترافع فهي قضية حزبية من الدرجة الأولى، وأنت الذي أمليت الأخبار التي يحاكم بسببها (الشافعي البنا) فغضب وقال أنا أمليتها لصالح الوفد لا لمصلحتي الشخصية، وطال اللجاج والنقاش فقلت له أنت ورأيك، واتفقنا على أن يتولى الدفاع صبري أبو علم ويوسف الجندي ومحمود غنام وفهمي جندية.

تألمت من تصرف مكرم ولم أشأ أن أثير أزمة وكتمت الأمر في نفسي.

(٤)

قابلني ميرزا رفيع مشكي بك رئيس الجالية الإيرانية في مصر ودعاني لحضور افتتاح

النادي الماسوني الذي أنشأه ليدعو إلى الحرية والإخاء والمساواة فطلبت إليه أن يذكر لي نبذة عن الماسونية لأنني لا أعرف عنها شيئًا، فأخذ يحدثني بحماسة فائقة عن أنها مبدأ يدعو إلى الإخاء وإلى المساواة لا فرق بين صغير وكبير ولا بين غني وفقير، وسألته عن العقيدة التي يدين بها الماسون فأجاب بأنهم ينحون الدين جانبًا ولا يعلقون أهمية كبرى على المعتقدات فلم ينشرح صدري لهذا الكلام فاعتذرت عن حضور الحفل لكثرة مشاغلي وارتباطي بارتباطات أخري.

زارني بعض الأساتذة المحامين من الإسكندرية وأخبروني أنه سري في الأوساط القضائية أن علي ماهر يعمل على أن يعين أشخاصًا من محاسيبه وأنصاره في الحركة القضائية المقبلة استعدادًا لنظر قضية البنك التجاري وسنموا اسم مصطفى مرعي زميلهم المحامي وقالوا إن الشائعات مستفيضة بأنه سيعين (أفوكاتو عمومي) ليترافع في القضية التي سيعلن عن موعدها قريبًا.

وزاد بعضهم أنه علم أن علي ماهر سيتدخل في تعيين الهيئة التي ستتولى المحاكمة وأنه يوعز للمسئولين في وزارة الحقانية باختيار مستشارين من أقرب أصحابه ليكونوا في هيئة المحكمة.

لم استغرب هذا الخبر ولكن تنبهت إلى أنه يجب الاستعداد من الآن للقضية وترتيب هيئة الدفاع والموضوعات التي سيثيرها المحامون فيها.

التحقيق

(١)

قبيل نهاية هذا العام (١٩٣٨) كان (لامبسون) لا يكف عن وصف (فاروق) في كتاباته - الشخصية والرسمية معًا - بأنه، بدا مدللاً، وفاسدًا وأن (علي ماهر) بدأ يفقد نفوذه عليه، وتلك مشكلة كبرى، وأنه لا يوجد من يمكنه الوقوف في وجه الصبي.

ولقد كان صراخ (لامبسون) على هذا النحو تعبيرًا عفويًا بأن توازن الإرادات في هيكل النظام السياسي المصري يعاني من مظاهر خلل مركب:

طاقة جماهيرية فياضة صنعت بنفسها لنفسها حلمًا وأملاً بملك شاب جديد، وأحزاب سياسية أنهت أدوارها أو كادت، وما تزال ماضية في استخدام أدواتها التقليدية في مواجهة جماهير ملت اللعبة، بعد أن وصلت معها إلى زروتها الدرامية، وحركات سياسية إنقلابية تقدمت لتأكل بقية الزاد الجماهيري وتضيفه رصيد قوة في بنيانها، وبريطانيون تأخذ بألبابهم قبل أبصارهم التغيرات الدولية العاصفة من حولهم، وهم يقفون حائرين في مفترق الطرق.

وهكذا كان دور القصر يتمدد، وكانت إرادته حريصة على أن تكون الأعلى في صراع الإرادات السياسية أو ما تبقى منها.

لقد تم اختيار محمد محمود (باشا) لرئاسة الوزارة باعتباره مؤيدًا من السفارة البريطانية، وخصمًا عنيدًا للوفد، ولكن محمد محمود فهم أن التأييد الإنجليزي له سوف يتيح له فرصة أن يحكم بنفسه، بينما كان القصر يريد من الوزارة أن تكون مجرد ظل مباشر لإرادة الملك، ولهذا سرعان ما توترت العلاقة، ثم وقع الصدام.

وحيث طلب محمد محمود تدخل لامبسون لدعمه، ثم وقف لامبسون حائرًا من أن الشخص نفسه الذي سبق وأن اتهمه بأنه يتدخل في شئون مصر الداخلية بغير وجه حق عندما حاول أن يفرض بقاء وزارة النحاس الأخيرة، هو نفسه الشخص الذي يتهمه بأنه لا يتدخل في الشئون الداخلية لمصر، ليدعم حكومته في مواجهة القصر.

ولم يكن لامبسون رافضًا للتدخل، ولكنه كان يبدو غير قادر على فرض إرادته هذه المرة، فعندما أمعنت هذه الحكومة في تزوير الانتخابات النيابية (٢/٣١) كتب لامبسون إلى هاليفكس - وزير الخارجية - يؤكد أن السلطات البريطانية أعطت أوامر لقادة البوليس بالاحتفاظ بسجلات تؤكد أن التدخل بالتزوير كان نتيجة أوامر صريحة من الحكومة، لقد أطلقت وزارة الوفد السابقة عليها، وزارة «الحكم الصالح» لإعطاء انطباع عام بأن وزارة الوفد السابقة عليها، كانت وزارة «الحكم الفاسد» وذلك على غرار «الرئيس المؤمن» واستخدم القصر والوزارة معًا نفس السبيل.

لقد تم التدخل إداريًا – أولاً – لضمان طرد الوفد من المعادلة السياسية الجديدة فعينت الحكومة أشخاصًا بأعينهم لتأمين ذلك (محمود عزمي – يوسف مرزا بك سكرتيرين عامين لوزارة الداخلية – والأول معروف بولائه للقصر والثاني قد ترك الوزارة لخلاف مع مكرم عبيد – وعبد السلام الشاذلي محافظًا للقاهرة – وكان قد فصل من الوفد عام ١٩٣٠)، ثم تم تقسيم الدوائر الانتخابية وتعديلها وفق أسس حزبية، كما تم عزل العمد والمشايخ والمديرين المعارضين... إلخ.

كان الضرر شديدًا رغم أن مهندس هذه الحملة الانتخابية للحزب الليبرالي بالذات هو د. محمد حسين هيكل والذي كتب يقول:

".... ما أراني بحاجة إلى أن أضرب الأمثال على ما أصاب البلاد من ضرر نتيجة لعدم التفريق بين المبادئ القومية الدائمة والمنافع الحزبية العاجلة...".

وذهب محمد محمود يمارس دعايته الانتخابية بشكل طريف، فقد قطع المسافة إلي الصعيد في باخرة نيلية تقف عند كل بلد فكان – كما يقول هيكل "يستقبل استقبال الفاتحين حيث نزل".

في الوقت الذي يشير فيه تقرير (هاملتون) الذي تابع إجراء الانتخابات في الصعيد أن الحكومة سلمت مرشحيها التذاكر الانتخابية المعتمدة ليملؤها بمعرفتهم من قوائم الانتخابات، والثابت فوق التزوير واستخدام أدوات الإدارة، عسفًا وإكراهًا، أن هذا الجناح الليبرالي توسع في اتهام الجناح الآخر (الوفد) بأنه:

"فريق متعصب من الأقباط" بل وزعت منشورات تصف مكرم عبيد بأنه، «عدو الدين وعدو الملك». وحتى محمد حسين هيكل نفسه فلم يكن بعيدًا عن استخدام نفس أسلحة التدمير الشامل. ففي خطابه الانتخابي بدائرة شبين الكوم استخدم مزاقًا طائفيًا وهو يقول إن إلحاح وزارة الوفد في تعيين فخري أبو النور عضوًا بمجلس الشيوخ كان مرده إلى أسباب لا أعرفها وأنتم تعلمونها.

ولم يكن ذلك كله .... بعيدًا عن أصابع القصر لفتح مزيد من الأبواب أمام خصوم الوفد ولكسب مزيد من الشعبية للملك المؤمن، وإحاطته بهالة دينية خالصة.

لقد تحدثت تقارير السفارة البريطانية عن قلقها من هذه المحاولة واعتبر لامبسون في بعض هذه التقارير بأن "حلم الملك بالخلافة – كأبيه – سياسة خطرة ينبغي مراقبتها" ولم يخف لامبسون ذلك عن الشيخ المراغي عندما قابله بعد أن منحه الملك لقب الباشوية فقد كانت شعارات "أمير المؤمنين" تتطاير كالشرر في الأجواء....

ولذلك كان طبيعيًا عندما تردد قبيل نهاية العام أن محمد محمود ينوي تعطيل الدستور والحياة النيابية، أن يقف الإخوان المسلمون موقف تأييد لذلك ".... لو صح ما قيل عن وقف

الدستور وحل جميع الأحزاب السياسية فهذا ما نادى به الإخوان المسلمون... أما عن الدستور فقد قال بعضهم إنه ثوب فضفاض... ونحن نقول إنه ثوب أجنبي...."

كانت جماعة الإخوان المسلمين قد أعلنت على لسان الشيخ (البنا) - في مايو ٣٨ - بداية العمل السياسي بعد عشر سنوت من بناء هيكل قوي ضم ثلاثمائة شعبة تغطي خرائط مصر.

وكانت الخريطة السياسية قد غدت - بالفعل - جد مختلفة ... لقد تشكل البرلمان الجديد (١٢ إبريل) بأعلى نسبة من كبار الملاك قياساً على جميع الهيئات البرلمانية السابقة فقد وصلت هذه النسبة - كما يقول د. عاصم الدسوقي - إلى ٧٥٪ في لجنة الداخلية، ٦٨,٧٪ في لجنة التجارة والصناعة. ولا عجب في ذلك فقد وصلت نسبة كبار الملاك في وزارة محمد محمود نفسها إلى ٦٦٪ بعد أن كان متوسطها العام ٥٥٪ في الوزارات السابقة.

وضم البرلمان الجديد من بين ٢٦٤ نائبًا، ١٢ نائبًا وفديًا و٤ عن الحزب الوطني، وحيث قدم محمد محمود قائمة بأسماء وزارته الجديدة، طلب منه القصر عشر مرات متتالية، أن يقدم قائمة جديدة ولم تقبل قائمته إلا في المرة الحادية عشر، وكان السبب واضحًا هو تصغير إرادته في مواجهة إرادة القصر.

ولم يكن علي ماهر ببعيد من ذلك كله، فقد كان يعيد رسم أوضاع القوى السياسية المختلفة، بما يتيح للقصر، وبالتالي له من خلاله - نفوذًا أوسع.

وعلى فراش المرض قال محمد محمود لأحمد فرغلي أن علي ماهر مصر على إسقاط الوزارة، وسمع فرغلي الكلام نفسه من أمين عثمان، بينما كان جرافتي سميث السكرتير الشرقي للسفارة البريطانية يكتب في التوقيت نفسه، بعد عشاء مع علي ماهر: "... إنني لم أصادف طموحًا قهريًا أكثر من ذلك..."

ومن المؤكد أن ما ذكره النحاس بخصوص طلب علي ماهر لقاءه على الكورنيش بالشكل الذي صور على أنه عفوي، صحيح ولكن (الوفد) هو الذي نشر خبر اللقاء في كل مكان وألح عليه، ولم تنفرد به (آخر ساعة) كما يقول النحاس.

وأصبح اللقاء موضع حديث في مجلس الوزراء، وذهب رئيس الوزراء إلى رئيس الديوان وفاتحه في الأمر، وقال له علي ماهر معتذرًا: إن اللقاء هو وليد المصادفة البحتة وتم على مقربة من سان استيفانو، حيث مد النحاس يده مصافحًا، فلم يكن بد من أن يرد التحية بمثلها: "... ثم سارا يتحدثان حديثًا لا علاقة له بالسياسة ولا بالوزارة..."

كان الوفد يتآكل بنيانًا ووضعًا وتأثيرًا، ولم يكن ثمة بديل أمامه سوى أن يعاود ملأ حنجرته بجانب من الصوت الحاد القديم، فأصدر بيانًا (في ١١ إبريل) انتقد فيه سلوك

الحكومة أثناء الانتخابات، ثم هاجم الاتفاقية الإنجليزية الإيطالية، لكن الغريب أنه بدأ حملة إعلامية شديدة ضد «الإنفاق العسكري الذي يخدم مصالح الاستعمار البريطاني» لأن هذا الانفاق الذي تنطبق عليه بالفعل هذه الأوصاف، كان مجرد تنفيذ لبعض بنود الاتفاقية التي كان الوفد أكثر الجميع تحمسًا للتوقيع عليها، ثم للدفاع عنها...

(٢)

لقد تم زفاف الملك فاروق على عروسه فريدة في ذلك التوقيت نفسه وقد تغيرت صورة القاهرة خلال أيام الاحتفالات.

ثلاثة أيام مملوءة بهجة واحتفالات شارك فيها المصريون جميعًا، حتى أن اللصوص أعلنوا في الصحف أنهم سيتوقفون عن «النشل» ليكون زحام العاصمة آمنًا.

انسكبت الأضواء المبهرة في شوارع القاهرة، كل الميادين ثم تزيينها بتيجان كبيرة، تتلألأ بالأضواء كالماسات وحتى سطح النيل، تحول إلى قارب كبير ملون.

كان بمقدور فاروق أن يشاهد من شرفة القصر كرنفالات رائعة، تحيط بالقصر كالسوار، بدءًا من أطفال المدارس إلى موسيقى الجيش ووحدات الفرسان إلى رقصات الخيل والجمال.

وفي وسط القاهرة كانت هناك صورة بالحجم الطبيعي للملك محاط بسبعة آلاف مصباح كهربائي، إلى جانب تمثال لإيزيس وأوزوريس وحورس، وهو يصب خمر السعادة للملكين الزوجين في كأس الحياة.

وارتدت (فريدة) رداءا باريسيًا من الدانتيل الفضي على ساتان بذيل يصل طوله إلى ثماني ياردات من الاميه الفضي المتلألأ، وكان شهود عقد القرآن علي ماهر وسعيد ذو الفقار (عم فريدة) قبل أن تطلق المدفعية ١٠١ طلقة للتحية، ثم يهبط الملك وعروسه على السلالم الرخامية للقصر ليقوما بتقطيع كعكة الزفاف التي كانت شديدة الارتفاع وعلى شكل حصن دائري.

وفي حين قدم الملك لعروسه عقدًا ثمينًا من الماس الأبيض النادر من ثلاثة أفرع - وكان أندر معروضات معرض باريس الدولي - قدمت الملكة تاجًا مرصعًا في وسطه زمردة نادرة وفي أعلاه ماسة ثمينة برسم قلب، في حين قدمت الأسرة المالكة صينية وكوبين من الذهب الخالص، زينت جوانبها بالماس ونقش في وسطها التاج وأسم فاروق وقدم التجمع اليهودي في مصر علبة للحليّ تحمل مزمار داود مطبوعًا على لفائف فضية، أما الهدايا الخارجية: فقد بعث ملك إيطاليا بتمثال من البرونز لأمير إيطالي من القرن التاسع، وبعث ملك بريطانيا بزوج من بنادق بردي للصيد ومجموعة من أدوات الجولف، وبعثت تركيا بصندوق مجوهرات مطعم بالماس، فيما قدمت اليونان تمثالاً من البرونز الملون بلون التمثال

الحقيقي المحفوظ في متحف أثينا للنصف الأعلى من بطليموس.

في جلبة الاحتفال والعروسان جالسان في شرفة القصر قال فاروق هامسًا لفريدة - كما دونت في مذكراتها:

"سآخذك بعيدًا عن كل هذه الحشود والعيون".

قلت: إلى أين ... قال: إلى أنشاص حيث كوخ الحب الملكي وأردف فاروق قائلاً هو يضحك: "إنني لم أتزوج هذه الجماهير الشعبية...!"

".... مساء الإثنين ١٤ يناير تركنا العاصمة، حيث وجدت في قلب الخضرة والجمال قصرًا نادرًا فخمًا تحيط به الأشجار والورود حيث قضينا ١٤ يومًا كانت أحلى أيام عمرنا كلها طيلة مدة زواجنا التي استمرت أحد عشر عامًا....".

تضيف الملكة فريدة:

".... لم أكن أدري بعد أن هناك حروبًا ستعلن ضدي... وأن هذا القصر البديع في أنشاص سيتحول إلى وكر لإشباع ملذات فاروق، وأن السيدة ناهد رشاد ستكون صاحبة الحظوة للاستمتاع في هذا المكان حتى أن فاروق كان يحتفظ لها بصورة عارية بالحجم الطبيعي معلقة في إحدى غرف القصر....

... وعندما صادر الضباط الأحرار القصر بعد الثورة أخذت صورة ناهد رشاد رقمًا ووضعت ضمن قوائم العهدة..."

من المؤكد أن جماهير الشعب المصري التي شاركت بفرح حقيقي في حفل زفاف فاروق - ولم تشارك قبلها في جنازة والده - كانت قد صنعت لنفسها أجنحة من الأمل وحلقت في عصر مأمول، مع شاب لم يمسه التلوث بعد، حتى أن زوجة اللواء محمد نجيب - أول رئيس جمهورية بعد الثورة - دخلت في جدل عميق مع زوجها لإصرارها - إنعكاسًا لهذا المناخ العام - على تسمية إبنها البكر فاروق على اسم الملك لتجلب له الحظ، بينما كان يرغب في أن يسميه صلاح الدين الأيوبي، وانتصرت زوجة محمد نجيب وأصبح لأحد الذين سيقدر لهم أن يشاركوه في الإطاحة بحكم فاروق والأسرة العلوية كلها بعد سنوات، ابنًا يحمل اسم الملك.

في التوقيت نفسه تم اللقاء الأول بين فاروق وبين محمد نجيب حيث كان مسؤلاً عن المتحف الحربي في القاهرة، وصدر له الأمر بأن يسافر إلى الإسكندرية ومعه سيارتي نقل تمتلئان بالتحف العسكرية.

وحين وصل إلى الإسكندرية كان الملك يستحم في المنتزه، فطلب منه أن يفرغ حمولة السيارتين، وأن ينتظر الملك في الحديقة.

".... وجاء لنا فاروق بلباس البحر، وصندل وقبعة تحميه من الشمس، وكنت أنا ورجالي نرتدي كامل ملابسنا الرسمية، وأخرجت التحف التي كانت معا لفاروق، ومن ضمن هذه التحف كان هناك مسدسان صغيران أحدهما من النحاس ويرجع إلى عصر الخديوي اسماعيل... والآخر من معدن آخر ومن نفس العصر تقريبًا.

وعندما أخرجتهما بيدي قال لي فاروق: أنت قوي، ماذا تأكل؟ قلت له أكل فول.

وأراد أن يثبت أنه قوي هو الآخر لكنني لاحظت أن جسمه كان مترهلاً رغم أن عمره كان ١٨ سنة وأن جسمي كان متماسكًا رغم أن عمري ضعف عمره."

في حفل استقبال تال في محطة القاهرة - بعد العودة من الإسكندرية - كان السفير البريطاني في مقدمة المستقبلين للملك والملكة الجديدة.

وكتب لامبسون:

إن الملكة ".... كانت تبدو على جانب كبير من الجمال" لكنها "....مرت بنا وهي تسير ببطيء دون أن تبدو منها إشارة لنا... مما اعتبرته منافيًا لقواعد البروتوكول".

واندفع لامبسون على رصيف القطار يبدي ملاحظته للجميع حول سلوك الملكة لكن الأمير محمد علي سبقه بالتعليق قائلاً له:

"لقد تدهور البلاط الملكي بشكل يدعو إلي الذهول"!!

(٣)

كان أداء السفير البريطاني في القاهرة يبدو مشحونًا بارتباك واضح، تجاه تطورات الأوضاع في مصر، لكن كان فيما يبدو جزءا من ارتباك عام، أو مظهر ارتباك عام يتبدى في السلوك البريطاني، تجاه تطورات الأوضاع على الصعيد الدولي.

لقد شكل هذا العام الدرج الأخير الذي صعد فوقه الصدام المسلح في أوروبا في العام التالي، مع انفجار الحرب العالمية الثانية التي ستغطي ثلث الكرة الأرضية بالدم، لكن شرر هذا الصدام كان يملأ مبكرًا أجواء العالم، بل كانت الحروب قائمة على قدم وساق في بعض أركانه.

كان اليابانيون يحاولون اختراق الجبهة الصينية، بينما كانت تواجه الغزو بمقاومة صلبة، حينما شرع اليابانيون في صيف العام نفسه في شن هجوم مسلح لاختبار دفاعات الجبهة السوفيتية - على مقربة من بحيرة هاسان - لكن المحاولة باءت بالفشل، في الوقت الذي كانت أسبانيا تخوض حرب الشوارع والطبقات بالحديد والنار.

في بداية شهر مارس (١١) اجتاحت قوات هتلر النمسا واخترقتها كسكين ساخن في

قطعة من الزبد، ولم يمض يوم واحد حتى كان هتلر قد أعلن ضمها إلى ألمانيا كأقليم شرقي، ولم يصدر أحد في الغرب صوت اعتراض واحد، بما في ذلك الفاتيكان نفسه، بالرغم من أن النمسا مارست دور الجسر بين إيطاليا وألمانيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وكل دول البلقان، وبالرغم من أن تشيكوسلوفاكيا كانت قد غدت ساقطة بالمعنى الإستراتيجي. فقد أصبحت مطوقة من الشمال والجنوب، إضافة إلى انعكاسات ذلك على الوضع الاستراتيجي، مكانة وقوة، لكل من بريطانيا وفرنسا.

وحين تململت فرنسا، سارعت أمريكا بإبلاغها أنها لن تساعدها إذا تورطت في دفاع عن تشيكوسلوفاكيا ضد هجومٍ ألماني محتل "لا بجندي واحد ولا فرنك واحد".

لقد كان الغرب كله، وفي مقدمته إنجلترا وفرنسا وأمريكا يفكر بمنطق دفع هتلر المتفوق عسكريًا واقتصاديًا لتفريغ شحنته المدمرة في الشرق أو في قلب الجليد السوفيتي، وكما يورد (جي ديبورين) فإن (أوتوابيتز) رئيس جواسيس هتلر في فرنسا - والذي كان يمهد الطريق لغزو النازيين للغرب - كتب في يومياته:

"..... إن ألمانيا تعهدت باحترام الوضع القائم على نهر الراين كتعويض عن السماح لها بإطلاق يدها في الشرق..."

لقد كتب (ويلز) وكيل الخارجية الأمريكية بعدها ملخصًا نمط تفكير الغرب في أن:

"..... المصالح المالية والتجارية الكبرى في الديمقراطيات الغربية بما فيها الأمريكية كانت تعتقد أن نشوب الحرب بين الاتحاد السوفيتي وألمانيا الهتلرية سيكون في مصلحتها وكانت هذه المصالح ترى أن روسيا ستهزم وأن هزيمتها ستؤدي إلى القضاء على الشيوعية وإلى إضعاف ألمانيا بشدة بحيث تنقضي سنوات عدة قبل أن تستطيع أن تكون قادرة على توجيه أي تهديد خطير لما تبقى من العالم..."

كانت بريطانيا وفرنسا في ذلك الوقت تستدعيان الاحتياط وتوزعان الأقنعة الواقية من الغازات، وكان بناء الملاجئ ضد الغارات الجوية قائم على قدم وساق، ولم يكن الهدف من ذلك واضحًا (قبيل مؤتمر ميونخ) هل هو إقناع هتلر بأن أوروبا جاهزة لخيار الحرب، أو إقناع شعوب أوروبا أن خيار الحرب مكلف، وأن ترك هتلر ليبتلع تشيكوسلوفاكيا هو البديل الوحيد للسقوط في أتونه..؟

في مؤتمر ميونخ (٢٩ - ٣٠ سبتمبر) والذي حضره موسوليني، تشمبرلن، وديلادييه قال هتلر إن قراره هو أن القوات الألمانية ستدخل تشيكوسلوفاكيا في الأول من أكتون، وليس له مطلب آخر في أوروبا.

وحين تمت صياغة اتفاق ميونخ، كان الحرص واضحًا على تفكيك عري دولة تشيكوسلوفاكيا حتي قبل أن يدخلها هتلر، فقد أعطيت ألمانيا الحق في الجزء الذي تقيم

فيه الأقلية الألمانية، مع إمكان إجراء استفتاء في بعض الأجزاء.

وكان قادة الغرب يتصورون على هذا النحو أنهم يدفعون الخطر النازي إلى قلب الشرق بعيدًا عنهم، ولم يأت شهر مارس (٣٩) حتي كان هتلر قد أكمل احتلاله لتشيكوسلوفاكيا وكان (تشمبرلن) يرفض في مجلس العموم البريطاني أن يعتبر ذلك عملاً من أعمال العدوان.

وبعد شهر واحد آخر سوف تقدم ألمانيا على غزو ألبانيا ثم احتلالها.

فقد أخذت خريطة العالم تتغير بشدة في جو عاصف ووسط حسابات غريبة تبدو شديدة الارتباك.

ولم يكن ما يحدث في مصر بين القصر والحكومة والإنجليز يبعد كثيرًا عن أجواء هذا الارتباك وعن نتائجه المدماة بعد ذلك....

(٤)

يرجع تأسيس أول محفل ماسوني في مصر إلى عام ١٧٩٨ وهو عام دخول الحملة الفرنسية إلى مصر... فقد قرر نابليون وكليبر وعدد من الضباط الكبار تأسيس محفل ماسوني أطلقوا عليه إسم إيزيس (أغسطس ١٧٩٨) ويبدو أن الهدف كان استخدام المحفل سياسيًا، لأن الفرنسيين أدخلوا فيه كثيرًا من عمد البلاد ورجالها، وإن كان ما حاول نابليون أن يزرعه تحت ظلال المدافع، قد ذرته الرياح تمامًا بعد رحيل جنوده.

لكن النشاط الماسوني عاد إلى مصر من نافذة إيطالية بعد ثلاثين عامًا (١٨٣٠)، حيث قام الإيطاليون بتأسيس محفل الإسكندرية، نقلاً عن (جورجي زيدان) فإن عدد المحافل أخذ في الزيادة حتى تم توحيدها (عام ١٨٨٦) في محفل الشرق الأعظم الوطني المصري، وإن كان الخديوي إسماعيل قد لعب دورًا داعمًا لهذا النشاط الماسوني حتى إن نجله (الخديوي توفيق) قد انتظم في هذا النشاط وقد تم انتخابه (عام ٨٨) استاذًا أعظم.

وقد تزعم الأجانب وفي السواد الأعظم اليهود هذا النشاط، حيث كانت كل تعاليم الماسونية تهدف إلى تقديس ما ورد في التوراة بشأن بناء هيكل سليمان، ولذلك تعد القدس عند الماسونيين مسقط رأس الماسونية منذ إقامة معبد الملك سليمان.

ويبدو أن محاولات صهيونية مبكرة جدًا كانت تبذل في شتى الصياغات من أجل تهيئة عامة للتضامن مع اليهود تعاطفًا مع عودتهم إلى أرض الميعاد.

لكن عصر استقرار الماسونية في مصر بدأ مع دخول الاستعمار البريطاني إليها (١٨٨٢) وقد مثل ذلك أيضًا العصر الذهبي لليهود في التاريخ المصري الحديث، ويكفي أن اليهود كأقلية مستوطنة في مصر قد بلغ تعدادها في ذلك العام ٢٠ ألف يهودي فقط،

وصلوا بعد عشرين عامًا إلى ٣٨٦٣٥ وتضاعفوا بعد عشرين عامًا أخر إلى ٦٣٥٥٠ وكما يقول د. شلش فإنهم نجحوا في تحويل الماسونية إلى إدارة الخدمة الصهيونية وأحلام الوطن القومي لليهود في فلسطين، ابتدءا من عام ,١٩٢٢

لقد بلغ عدد المحافل الماسونية في مصر عند بداية القرن ٤١ محفلاً وفي عام ١٩٢٧ وصل عددها إلى ٥٩ محفلاً موزعة حتى مستوى المدن الصغرى (١٦ في القاهرة - ١٣ في الإسكندرية - ٢ في كل من السويس - بورسعيد - الاسماعيلية - المنصورة - كفر الزيات - محفل واحد في كل من: بنها - طنطا - دمنهور)

ثم توسع المحفل الماسوني في مصر بعد عام واحد في إيجاد رعايا وأتباع له من المحافل في الخارج حتى اجتمع له ١٧ محفلاً خارجياً (منها ١٠ محافل في فلسطين - ٥ في لبنان - محفل واحد في كل من دمشق - البصرة) وكان اليهود يترأسون سبع محافل من العشرة في فلسطين.

وقد سعت هذه التجمعات إلى انتقاء عناصر ذات أدوار مؤثرة في الحياة العامة سواء بالمعنى السياسي أو الاقتصادي أو الفكري أو الثقافي.

لقد أعطت - مثلاً سعد زغلول اهتمامًا خاصًا فظهرت صورته عام ٢١ على غلاف المجلة الماسونية وكتبت تحتها: حضرة صاحب المعالي الأخ فائق الاحترام سعد زغلول باشا نائب أستاذ شرف بالمحفل الأكبر الوطني المصري.

ولما مات سعد زغلول طلب إلى المحافل الماسونية أن "تستعمل في مكاتبها أوراق مجللة بالسواد، وأن تلبس الحداد وأن يضع جميع الموظفين ورود سوداء على أوشحتهم ومآزرهم مدة سبعة أسابيع".

ذلك كله، ولم يكن سعد زغلول عضوًا عاملاً في الماسونية وإنما كان منصبه - الذي قبله - منصبًا شرفيًا، فقد استطاعت الماسونية أن تستقطب في العشرينات أسماء مثل: خليل مطران، حفني ناصف، إسماعيل صبري، أحمد زكي أبو شادي، عدلي يكن، عبد الخالق ثروت

وفي الثلاثينيات والأربعينيات تضاف أسماء مثل أحمد ماهر، يوسف وهبي، وفؤاد سراج الدين... بل لقد نجح «حاييم وايزمان» أن يشتري (١٩٢٢) مقابل ألف جنيه، بيانًا من المحفل الماسوني المصري إلى جميع فئات فلسطين وطوائفها كبارًا وصغارًا رجالاً ونساءً بالدعوة إلى "إفساح المجال لليهود في سبيل الوطن المشترك وعظمته".

ولقد زاد بمرور الوقت تورط الماسونية في مصر، في التيار المدعم للصهيونية، فقد ظلت - كما تقول دراسة د. علي شلش - تتدخل في مصير فلسطين خاصة في السنوات ١٩٢٩ - ١٩٣٩ - ١٩٣٩ التي شاهدت ثورات الجهاد الفلسطيني. وكان أبرز مظاهر التدخل

إذاعة المنشورات بغرض التوفيق بين العرب واليهود وإرسال الوفود إلى فلسطين من أجل ذلك.

وبعد عام ١٩٤٨ ازداد النظر إلى الحركة الماسونية على أنها مجرد أداة من أدوات الحركة الصهيونية وبذلك أنطفأ نشاطها غير أنه لم يتم حل الجمعيات والمحافل الماسونية رسميًا إلا في عام ١٩٦٤ .

وهناك من يرى أنها عاودت نشاطها بعد سنوات تحت مسميات جديدة!

١٩٣٩

(١)

حمل إليّ البريد الخارجي بعض الرسائل من عدة بلاد، ولفتت نظري رسالة من السيد أمين الحسيني مفتي فلسطين محررة من برلين عاصمة ألمانيا يحدثني فيها عن قضية فلسطين ويقول إن الإنجليز يشجعون اليهود على الهجرة إلى فلسطين ويبذلون لهم بسخاء وإن أصدقاءه في ألمانيا يؤكدون له أنه لو قامت الحرب وانتصروا فيها فسيعطون فلسطين استقلالها ويطردون اليهود منها وهو لذلك ينضم إليهم ويؤيدهم من أجل مصلحة بلاده، ويطلب إليّ بصفتي زعيم مصر ومصر زعيمة العرب أن أكتب إليه برأيي في هذه المسألة.

طويت الرسالة جانبًا وفكرت في كيفية الإجابة عليها واهتديت إلى أن أستدعي بعض المشتغلين بقضية فلسطين من أبنائها وغيرهم من بعض إخواننا العرب - وإن كنت قليل الثقة فيهم - واستدعيت الدكتور عبد الرحمن شاهبندر، ومحمد علي الطاهر، وأحمد حلمي والشيخ صبري عابدين وكلهم فلسطينيون ما عدا شاهبندر، كما طلبت بعض الإخوان من السوريين واللبنانيين وعقدت شبه اجتماع معهم وحضر معنا مكرم ودوماني وأشيل صقلي ونعمة الله غانم.

طرحت عليهم ما احتواه خطاب المفتي دون أن أشير إلى أنني تلقيته منه فتكلموا جميعًا وتحمسوا لألمانيا وقالوا إنها هي الوحيدة التي تكره اليهود وتريد أن تبيدهم.

ولكن الشاهبندر شذ عن هؤلاء وقال أنا أعتقد أن هذه دعاية (جوبلز) وزير الدعاية الألماني وأنها لا تتعدى أن تكون دعاية حرب تؤلب الناس ضد انجلترا وفي ظني أن ألمانيا لو دخلت الحرب وانتصرت فلن يكون نصيب فلسطين منها أحسن من نصيبها من انجلترا وسيظل اليهود يتغلغلون في الأرض المقدسة أو يهاجرون إليها بالألوف مادام الإنجليز يساعدونهم، وأني لأعلم أن الشيخ الحسيني مقيم في برلين وهو ينشط للدعاية ولكني أخشى أن ينزلق ويعلن انضمامه لألمانيا وتقوم الحرب فتكون الخسارة فادحة.

وتكلم حقي البارودي الشاب السوري فقال إن اليهود والإنجليز من ورائهم لا يخافون إلا القوة فإذا كنا أقوياء تهيبونا وخافوا منا، أما إذا سكتنا عليهم وسلمنا لهم فستظل الهجرة إلى فلسطين مستمرة ونحن نضيع الوقت في الكلام، فإن كنا رجالاً نحب فلسطين ونريد أن نخلصها من الانتداب الإنجليزي وبالتالي استمرار الهجرة فلنتسلح ولنتقو ولننل كل يوم ما نظفر به من الإنجليز واليهود وعندئذ سيخافوننا، أما أن ننضم إلى ألمانيا أو إلى انجلترا أو إلى غيرها فكلهم استعماريون وكلهم يلتهموا خيراتنا ويتحكموا في مصيرنا.

أعجبتني حماسة هذا الشاب وأثنيت عليه، وقلت لهم أنتم تعلمون رأيي في قضية فلسطين منذ أن كنت في الحكم وقد كتبته إلى الإنجليز رسميًا.

وانفض الاجتماع على أن نترقب الأحداث فقد أصبح العالم الآن على فوهة بركان.

كتبت إلى الشيخ أمين الحسيني رسالة نصحت له فيها ألا يتورط وأن يكون معتدلاً في تصرفاته وأن يلاحظ أنه رجل دين له كلمة مسموعة بين مواطنيه فضلاً عن ماضيه وماضي أسرته، وأنه إذا قامت الحرب وظل في ألمانيا فليلزم الحيطة والحذر ولا يأمن جانب الألمان ولا يغتر بدعايتهم بل يحاول أن يكون محايداً قدر الإمكان ولم أشر إلى الاجتماع الذي عقدته مع بعض إخوانه واكتفيت بالنصح العام.

ذلك إني أرى الاستعمار سواء كان إنجليزيًا أو ألمانيًا أو فرنسيًا أو طليانيًا أو من أي ناحية فهو استعمار بغيض شحمته الطمع ولا يمكن أن يقدم لأي بلد ضعيف خيرًا أبدًا وكررت له عطفي على قضية فلسطين وعلى أهلها.

أعلن رئيس تحرير المصري بموعد المحاكمة أمام دائرة عبد الرحمن الطوير - تمامًا كما أشاع أتباع القصر الملكي - وقد تضمن الإعلان ثلاث تهم كلها عيب في الذات الملكية وبنيت أسبابها على مقالات ثلاث نشرت في المصري واحدة بمناسبة زفاف الأميرة فوزية، والثانية عندما صلى الملك إمامًا بالمسلمين في جامع قيسون والثالثة صدم طفلة على كورنيش الأسكندرية.

عرض مكرم عرضًا عجيبًا قال إنه متأكد من أن المحكمة ستحكم بالإدانة، وتهمة العيب في الذات الملكية ليس فيها غرامة ولكن لابد من السجن وتعطيل الصحيفة، وهو إشفاقًا منه على الشافعي رئيس التحرير يقترح أن نستأجر له طائرة ونهربه بها إلى خارج البلاد ويظل بعيدًا عن أعين البوليس والحكومة حتى تسقط العقوبة أو يتغير الوضع أيهما أقرب.

قابل الحاضرون هذه الاقتراح بصمت تام وأخيرًا قال نجيب الهلالي استدعوا رئيس التحرير واعرضوا عليه هذا العرض فإن قبله ناقشناه وإن رفضه كفى الله المؤمنون القتال، فقلت إن هذا الاقتراح مرفوض شكلاً وموضوعًا لأنه لا يليق بنا من جميع نواحيه وحتى لو قبله المتهم فلن أوافق عليه.

وقال مكرم إني أقترحه من باب الشفقة على رئيس التحرير وبعدًا به عن السجن وآلامه، أما وقد رفض فإني لا أرى داعيًا للنقاش فيه، ومع ذلك فإني سأجس نبض صاحب المصلحة وأخبركم برأيه.

بدأت محكمة الجنايات برياسة الطوير بك قضية العيب في الذات الملكية وقد ترافع رئيس النيابة محمد عبد الله فأخذ يكيل الشتائم للوفد ويتهمه بالخروج على صاحب العرش وعدم الإخلاص للسدة الكريمة، ثم بدأ بتصيد الأدلة لإثبات التهم.

بدأت المحاكمة يومها الثاني بمشادة بين النيابة والدفاع ورفعت الجلسة للمساء حتى تهدأ العاصفة، وكان المتهم مطلق السراح فبعثت في طلبه وقدمت له مذكرة قرأها ثم

أمليتها عليه ليلقيها عند انتهاء المحاكمة وقبل النطق بالحكم.

امتدت جلسة المحاكمة إلى اليوم وانتهت النيابة من اتهامها وانتهى صبري وإخوانه من الرد عليها، وكادت المحكمة تنطق بقرار تأجيل الجلسة للنطق بالحكم حيث وقف المتهم يستأذن في الكلام فإذن له فبدأ قوله: أليست الكلمة الأخيرة طبقًا لقانون المرافعات للمتهم، قال الرئيس نعم، قال فاسمح لي أن أتكلم كلمة أخيرة.

استدعاه الرئيس من قفص الاتهام لكي يقف أمام الهيئة حتى تستطيع سماع صوته فقال:

إنكم ياحضرات المستشارين تحكمونني بمقتضى المادة ٣١ من الدستور التي تنص على أن ذات الملك مصونة وأوامره الشفوية والتحريرية لا تعفي الوزراء من المسئولية.. أجاب الرئيس نعم، قال: ذات الملك مصونة عن أن تمس يعني لا يشتم ولا يسب ولا يطعن فيه... فنأت إلى التهم الثلاث التي تحاكموني بها، أولاها إني نشرت في المصري آية قرآنية تقول: (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) وكان هذا النشر صبيحة زفاف الأميرة فوزية على ولي عهد إيران.

أنا سأتماشى مع الاتهام أكثر من هذا أفرض أني نشرت ما يأتي حرفيًا: أقام حضرة صاحب الجلالة عرسًا لشقيقته الأميرة فوزية بمناسبة زفافها على الأمير شاهبور ولي عهد إيران وقد دعا إليها كل الطوائف والهيئات والزعماء والأحزاب ما عدا زعيم الأغلبية مصطفى النحاس، وقال الله تعالى في كتابه العزيز (ومن لم يجعل الله نورًا فماله من نور)... هذه واحدة.

الثانية تتهمني النيابة بأني نشرت في المصري عقب أن صلى الملك بالمسلمين جماعة في يوم جمعة بمسجد قيسون من علامات الساعة إمامة الصبيان على أنه حديث شريف وعد هذا النشر كذلك عيبًا في الذات الملكية... سأتماشى مع الاتهام أكثر من هذا افرض أني نشرت بصراحة: إن جلالة الملك صلى بالمسلمين إمامًا وهو شاب صغير لم يبلغ سن الرشد، وقد قال صلى الله عليه وسلم من علامة الساعة إمامة الصبيان، وهذه ثانية.

نأتي إلى الثالثة: تتهمني النيابة بأني نشرت في المصري خبرًا نصه (وبينما كانت سيارة ملكية يقودها صاحبها بأقصي سرعة علي طريق كورنيش إسكندرية إذ صدمت طفلة أودت بحياتها في الحال ورئي حفظ التحقيق)... افرض أني تشرت باللفظ الصريح: بينما كان جلالة الملك شخصيًا يقود سيارته الملكية بأقصى سرعة علي طريق الكورنيش إذ صدم طفلة أودى بحياتها في الحال ورئي حفظ التحقيق.

افرض هذا كله ياحضرات المستشارين فأين العيب في الذات الملكية، العيب ياسيدي الرئيس ياحضرات المستشارين هو أن اشتم الملك أو أسبه كأن أقول له إنك تسطو على أعراض النساء.

أما أن أقول له إنك لم تدع النحاس أو إن من علامات الساعة إمامة الصبيان أو إنك صدمت طفلة أوديت بحياتها فهذا ليس سبًا ولا عيبًا.

تململ رئيس المحكمة واضطرب وأراد أن يمنع المتهم من الاستمرار في حديثه، ولكن صوت الشافعي كان عاليًا فصفق الحاضرون، وهاجت المحكمة وماجت واضطر الرئيس لرفع الجلسة بعد أن قال النطق بالحكم بعد أسبوع.

حمل إليّ البريد الخارجي رسالة من محمد علي جناح الزعيم المسلم الهندي ردًا على الرسالة التي أرسلتها إليه، وقد تضمنت أنه حاول وعدد كبير من إخوانه المسلمين التفاهم مع زعماء الهندوس ولكن لا جدوى، وأنه تقابل مع جواهر لال نهرو وتحدثا طويلاً بشأن المذابح التي لاتزال ترتكب في رائعة النهار فقال له نهرو إنه كلم المهاتما غاندي في هذا الخصوص واتفقا على أن يأمر المهاتما زعماء الهندوس بالكف عن الأعمال الوحشية التي يرتكبونها، ولكن لم يظهر أثر لهذا الاتفاق كما أخبره نهرو أنه تلقى رسالة من زعيم مصر في هذا الشأن، وقد رد عليها موضحًا له الموقف.

ثم عقب جناح فقال إنه ليس لدينا إلا أحد أمرين إما أن ندافع عن أنفسنا بكل الوسائل، وإما أن نهجر البلاد ونسكن الأدغال ونطلب حماية الإنجليز وهو مالم يقبله المسلمون ولا يفكرون فيه وطلب إليّ أن أكتب إلى غاندي شخصيًا وأشرح له الموقف، وأبين له خطورة ما يفعله الهندوس بالمسلمين.

وصلتني رسالة نهرو التي أشار أليها محمد علي جناح، وقد تضمنت وصفًا دقيقًا لموقف الطائفتين المتنازعتين في الهند والهندوس والمسلمين وشرح شرحًا وافيًا أوجه الخلاف العقائدي بين الجماعتين، ثم قال إنه أطلع المهاتما غاندي على رسالتي وأن تأثر منها كثيرًا وأبدى استعداده لبذل كل ما وسعه لفض الخلاف أو تضييق هوته، ولكن المسألة أخطر مما يتصوره البعيدون عن الساحة الهندية ذلك أن الهندوس لهم معتقدات يدينون بها ويقاتلون في سبيلها، والمسلمون لا يؤمنون بها ولا يوافقون بالطبع عليها، وأن غاندي يدعو الأكثرية دائمًا إلى التسامح والتعايش السلمي مع إخوانهم، ولكن لا يستجيب إلا القليل مع أنه حين يدعو إلى أي أمر غير هذا يلقي إجماعًا، ولكنه لم ييأس وسيظل يعمل على هذا الخلاف بأي طريقة، ويؤكد أن شغله الشاغل هذه المسألة التي يؤمن بأن المستعمر لا يجد ثغرة ينفذ منها سواها ليجعلها ذريعة للتدخل في جميع الأمور.

حكمت محكمة الجنايات على رئيس تحرير المصري بسنة مع الشغل وتعطيل المصري لمدة شهر، وقد تأثرت جدًا لهذا الشاب الذي سيتم عامه العشرين بين القضبان الحديدية.

كتبت ثلاث رسائل واحدة ردًا علي جناح، وأخرى لنهرو وثالثة لغاندي، وقد ضمنت رسالتي لغاندي شكري له على نظرته الثاقبة إلى الأمور، واهتمامه بحل الخلافات بين الهندوس والمسلمين وأن زعيمًا واسع الأفق مثله وعامر القلب بالتسامح والحب لا

يستعصى عليه حلاً لمثل هذه المشاكل، وأنه بالمثابرة وسعة الصدر والنظرة إلى الأمور يمكن الوصول إلى الحل المرضي لجميع الأطراف، وكررت شكري له وتحيتي على ما خصني به في رسالة نهرو في تحية وتقدير

حضر نجيب الهلالي وآثار الغضب بادية علي وجهه وقال إن جريدة (الحوادث) تنشر مقالات تحت عنوان ديك الجن، وأمس نشرت مقالات بعنوان (الأفعى) كان سببًا في خلق مشاكل كثيرة لي لأنهم ظنوا اني كاتب المقال، فسألته ألست أنت الذي تكتب تلك المقالات فأجاب لا، فقلت إذن من؟ قال لا أدري ... ثم سكت هنيهة وقال أريد أن يصدر عن سكرتارية الوفد بيان بأن المقالات المذكورة ليست من قلمي فأجبت: ولم هذا الاهتمام الكبير بشأن بسيط كهذا، قال ليس بسيطًا إن المقال فيه وصف دقيق وتعريض عنيف بالشيخ المراغي شيخ الأزهر ولا تخفي عليك الصلة التي بين المراغي وأسرة خشبة وبخاصة أحمد باشا وزير الحقانية، وقد ذهب الشيخ غاضبًا ثائرًا وشكاني لأحمد باشا ولأسرة محفوظ أصهاري ودخلت المسألة في مشكل عائلي خطير، وقد أكدت لهم أني لم أكتب المقال ولا علم لي به، وقد قرأته كما قرأه كل الناس واضطررت أن أقسم لهم يمينًا ما أقسمت به طول حياتي ولكنهم لا يزالون يشكون.

وأطلعني نجيب علي المقال وعقب بأن الشيخ المراغي ثائر وغاضب غضبًا شديدًا من عدة جمل جاءت في المقال لأنها هزته من الأعماق، وقرأت الجمل فإذا فيها (وديع كالحمل، حقود كالجمل، شوه الله خلقه، وابتلاه بمن شوه خلقه، فالعمامة فوق الرأس مرثية، والياقة فوق الرقبة تنبيء عن عهد المسنية) وابتسمت وقلت وماذا في هذه الدعابة، فقال إنها تشير إلى حادث الاعتداء الذي وقع للشيخ حين كان رئيسًا للمحكمة وحكم في قضية معروفة وهي قضية بنوة هنري سكاسيني.

ورأيت نجيب متألمًا جدًا وغاضبًا فرأى زملاؤه أن لا مانع من إصدار بيان من سكرتارية الوفد كطلبه فوافقت.

(٢)

أخبرني فارس نمر أن السفير البريطاني صرح بأنه لن يتدخل هذه المرة في استقالة الوزارة وعلق على هذا بأنه يظهر أن علي ماهر قد ارتفعت أسهمه هذه الأيام وأن الإنجليز يرون أن يتركوا له الفرصة كتجربة فإذا عبث أو لعب بذيله (كما يقولون) فالمفتاح في أيديهم... وأن السير مايلز لامبسون قال لبعض أخصائه المقربين إنني تكلمت أكثر من مرة في عودة الحياة إلى مجاريها ولكن بلا جدوى وأن ماهر باشا متهافت بشكل يلفت النظر على تولي الوزارة، وسأجرب آخر تجربة

تلقيت من المهاتما غاندي زعيم الهند رسالة طيبة ردًا على رسالتي التي بعثت بها إليه، وقد ضمنها شكره على إهتمامي بقضايا الشعوب المغلوبة على أمرها والعناية الخاصة

بقضية الشقيقة في الجهاد والكفاح، وتحدث عن الخلاف الجذري بين المسلمين والهندوس فأفاد بأنه اختلاف عقائدي وأن عدم تعليم الشعب الهندي وطول حكم الإنجليز فبه زاده جهلاً، وأنه–وإن كان لا يدين بالإسلام – إلا أن اطلاعاته وقراءته عن محمد (صلى الله عليه وسلم) أكدت له أنه رجل عظيم وعبقري كبير وأن أتباعه يجب أن يحترموا وألا يحال بينهم وبين مباشرة معتقداتهم، وانه شخصياً يحاول بكل ما في وسعه أن يترك للمسلمين الحرية ويبعد عنهم اعتداءات الهندوس، ولكن الهندوس أنفسهم منقسمون بعضهم على بعض وهم لا يؤذون المسلمين وحدهم بل يسيئون إلى طائفة المنبوذين ويضطهدونهم، وهذا هو ما دعاه لأن يعلن أنه مع المنبوذين وضد المتعصبين، وقال في ختام رسالته إنه يحاول وسيحاول أن يجعل الخلافات الدينية والطائفية في أضيق الحدود، وهو ينبه المواطنين على أن يتجهوا إلي خصمهم الحقيقي الذي سبب الداء وأصل البلاء .. الإنجليز المستعمرين فهم وحدهم الذين يجب محاربتهم، وترك كل شيء ما عدا مطالبتهم بالجلاء عن الهند حتي تستطيع أن تحيا حرة كريمة كسائر الشعوب الحرة.

تحركت قضية البنك التجاري من جديد فقد أشارت الصحف إلا أنها ستنظر في دور مايو المقبل أمام محكمة جنايات الإسكندرية واستطاع مندوب المصري القضائي أن يعرف الهيئة التي ستنظر قضية الموسم – كما سموها – ولما اطلع المحامون علي أسماء المستشارين الذين سيتولون نظر القضية لم يستريحوا إليهم ذلك أن علي ماهر لعب لعبة خفية جعل الهيئة تؤلف من المستشار عثمان نجيب رئيس المحكمة رئيساً وهو صاحب الدور ولكن أتي بمستشارين من أقرب المقربين إليه وأشد أعداء الوفد وهما المستشار أحمد حسين الذي كان مديرًا لمكتب وزير الحقانية أيام كان علي ماهر وزيرًا لها، وعبد اللطيف غربال بكل شقيق شفيق غربال بك الذي عينه علي ماهر وكيلاً لوزارة المعارف في وزارته الأولى وهو معروف بعدائه الشديد للوفد والوفديين.

نقل إلي عبد المنعم مصطفي خليل عضو الهيئة الوفدية، وهو من أهالي فاقوس، أن الملك ذهب بالكاد للصيد، وتصادف وجود السفير البريطاني هناك، وأن السفير قابل الملك مقابلة فاترة أثارت غضبه وأخذ يشن عليه حملة طائشة وأن الأمر وصل إلي السير مايلز لامبسون فضحك وقال هذا طفل غرير لم يعلمه الزمن بعد.

أخذ أنصار الملك ورجال حاشيته يطعنون في السفير البريطاني ويتحدثون عن الخلاف بينه وبين الملك ويقولون إن الملك يصرح بأنه صاحب العرش، وأن الإنجليز لا شأن لهم به، وأن أحمد حسنين حين بلغه هذا تكلم مع فاروق بأن يخفف من حملته حتى لا يساء إليه، وسارع بدوره إلي السفير البريطاني فاعتذر له وقدم أسفه ووعده بأن هذا لن يتكرر أبداً.

يالسخرية القدر .. أسد علي وفي الحروب نعامة .. ولد طائش يملؤه الغرور يتشدق بأنه صاحب الأمر والنهي في شعب مغلوب على أمره ويتحكم في أقداره ويقرر مصيره. حتى إذا جاء ذكر المستعمر بكلمة طارئة كان الجبن وكان الخوف والهلع وكانت الرسل تعتذر وتأسف.

استقبلت طبيب أسنان حضر من ألمانيا حديثًا وهو إبن المؤرخ المعروف (إلياس بك الأيوبي) وقد أخبرني أنه كان في ميونخ قبل حضوره مباشرة ونزل ضيفًا على ضابط ألماني صديق له، وأن هذا الضابط إستدعى هو جميع زملائه إلى السفر بسرعة إلى برلين لأن هتلر أعلن التعبئة العامة، وسيستعرض الجيش إستعدادًا لإعلان الحرب.

وأطلعني على بعض الصحف التي استحضرها معه، وهي تحتوي علي مقالات حماسية تنادي بشن الحرب سريعًا على تلك البلاد التي أذلت ألمانيا وأخضعتها لها، وأن الفوهور سيحكم العالم كله عن قريب.

شكا مكرم من أن المصري بدأ يكتب مقالات بغير توقيع ويظهر أنها بقلم محمود أبو الفتح فيها تملق للقصر ولعلي ماهر، وهذا يخالف مبدأ الوفد ومبدأ الجريدة التي تنطق بإسمه.

استدعيت (محمود أبو الفتح) وكلمته بخصوص المقالات التي تنشر فأجاب أنها كلمات عادية وليس فيها أي مخالفة لمبدأ الوفد ولا خروج على ما التزمه المصري منذ نشأتها، وعقب على هذا بأن أعاد أن مكرم باشا يتهمه دائمًا ويشك في كل كلمه يكتبها، وهو يريد من وراء ما يكتب أن يكون هناك ولو شبه تفاهم وألا تنقطع الصله نهائيًا بين القصر والوفد، ذلك لأن الحرب وشيكة الوقوع وقد يضطر الملك إلي دعوة الوفد ليتولى المسئولية ولابد أن يكون هناك نوع من التفاهم ولو صوريًا وهذه السياسة أجدى وأنفع من أن نعادي الجميع.

قلت لمحمود إني لا أعرف ما يعبرون عنه (يمسك بالعصا من الوسط) ولكن أعرف إما تفاهم وإما تقاطع، أنا الذبذبة فلا أحبها ولا هي من طبيعتي أبدًا.

ونصحت له أن يقلل من أمثال ما يكتب لمصلحة الوفد ومصلحة البلد، لأن خصومنا سيتهمونني بالملق والمداهنة ونحن لا نتملق ولا نداهن.

زارني فريق من اعضاء الهيئة الوفدية وطلبوا أن أقبل هدية منهم فعجبت لهذا الطلب وسألتهم وما الداعي إلي هذا في الظروف الراهنة وما هي الهدية التي تريدون أن تقدموها، فأجابوا: أننا إشتركنا جميعًا في دفع ثمن المنزل الذي تسكنه وتستأجره من شركة مصر الجديدة وقررنا أن نقدمه لك هدية متواضعة جزاء ما قدمت لمصر من تضحيات.

اعتذرت عن القبول شاكرًا، فتحدث صبري عبد الصمد ومحمود عبد النبي وفهمي ويصا، وحسن سرور وغيرهم وقالوا إنك تخضع لرأى الأغلبية ونحن بالإجماع قررنا هذا، وأخرج صبري عقد التمليك وطلب إلي أن أوقعه فطأطأت رأسي حياءً، وكاد الدمع ينسكب من عيني اعترافًا بجميل إخواني وزملائي، وعبرت لهم عن شكري وعرفاني بصوت منتحب، وقال صبري لقد قررنا أن نقيم حفلاً متواضعًا نعلن فيه عن هديتنا لنعلن للخصوم أننا في هذه الأيام أكثر تمسكًا من أي يوم آخر، وأنه لا يليق أن يظل يسكن بالإيجار وكلنا نسكن في منازل ملك لنا.

(٣)

كان اليوم بدء المحاكمة فقصدت في الساعة التاسعة صباحًا إلي محكمة جنايات الأسكندرية وبدأت النيابة تتلو صحيفة الاتهام التي تتلخص في أني بصفتي مالكًا لصحيفة المصري وموجهًا لسياستها نشرت فيها بإذن مني قذفًا في حق موظف عمومي هو معالي وزير المالية أحمد ماهر باشا بأن أتهمته تهمًا تعتبر قذفًا في حقه وتسئ إلي سمعته وكرامته ووظيفته كمواطن وكوزير إلي آخر ما في صحيفة الاتهام.

قام ممثل الاتهام ليتكلم فبدأ شرح التهمة من وجهة نظره وأنها إساءة بالغة وإهانة لشرف وسمعة معالي أحمد ماهر باشا بصفته وزيرًا للمالية وافتراء عليه وكذب وتضليل وتمويه على الجمهور ثم احتد وقال:

إن جماعة جئ بهم من الشوارع كان من سخرية القدر أنهم حكموا مصر أسوأ حكم وأشاعوا فيها الفوضى والاضطراب ولم يكتفوا بهذا بل تبجحوا وأهانوا الشرفاء والنزهاء.

ولم يكد يصل إلي هذا حتى قاطعه صبري أبو علم وقال: لسنا من الشوارع يامصطفى مرعي وإنما نحن من كرماء مصر وقادتها رضيت أم أبيت، أما الشوارع فأنت تعرف قبل غيرك ودون غيرك من هم أبناء الشوارع يامن عينتك الحكومة أفوكاتو عمومي لتسب وتشتم الشرفاء النزهاء وتحتمي وراء وظيفتك.

وقام مكرم فقال يا مصطفي مرعي: لقد كنت بالأمس أفوكاتو خصوصيًا مثلنا وأصبحت اليوم لحاجة في نفس يعقوب أفوكاتو عموميًا تلبس روب القضاء وتتشح بوشاح الاتهام، وحين كنت أفوكاتو خصوصيًا مثلنا كنت إذا تفوهت بكلمة نابية أو لفظة وقحة كالتي قلتها نبهتك المحكمة ورد عليك الاتهام أما الآن وأنت أفوكاتو عمومي فقد استبحت لنفسك دون حياء ولا خجل أن تنطق بهذه الكلمات التي لا ينطقها إلا السوقة أمثالك فإذا كنت رجلاً حقًا فاخلع الروب الذي تحتمي فيه واطرح الوشاح الذي ترتديه وانزل إلى هذه القاعة وقف بيننا عندئذ ستعلم يا مصطفى مرعي من هم أبناء الشوارع أنحن أم أنت وأمثالك الذين جاءوا لتدنيس قدسية القضاء.

ولم يكد مكرم يصل إلى كلمته حتى ضجت القاعة وسرت همهمة وعلت الأصوات بالهتاف للعدل والحق والكرامة والمحاماه الحرة والزعيم الأكبر.

واضطرت المحكمة إلى رفع الجلسة والدخول إلى غرفة المداولة.

عادت جلسة محكمة جنايات الإسكندرية للانعقاد. وقف نجيب الهلالي وبدأ يترافع وبعد مقدمة قصيرة أسهب في نصوص القوانين التي تجيز سماع الإثبات في مثل هذا الموضوع، وأخذ يتلو مواد القانون الفرنسي، ثم عقَّب بأن ذكر وقائع وقضايا وأشخاصًا

كانت لهم مراكزهم الحكومية ومنهم رؤساء وزارات في فرنسا وبلجيكا كان لهم نفس الموقف ونفس الوضع، واعترض الإتهام كذلك علي حضورهم أمام المحكمة ولكن القضاء استجاب إلي طلب الدفاع وقرر حضورهم لمناقشتهم، وعلل هذا القرار بحيثيات مستفيضة تلاها علي القضاء.

وخلص من هذا إلي أننا لم نطلب بدعًا ولم نخترع جديدًا، وظل يترافع دون انقطاع نحو ثلاث ساعات، رفعت بعدها الجلسة إلى بعد الظهر لتكملة المرافعة.

فتحت الجلسة وبدأ نجيب بالجزء الثالث والختامي من مرافعته فلم يترك واقعة إلا وأتي بتاريخها والحكم الذي صدر فيها والمحكمة التي أصدرته وأسماء المستشارين والقضاة ورؤساء الوزارات الذين جاءوا إلى المحكمة لمناقشتهم بل لقد أتى بنصوص المناقشة والأسئلة التي وجهت والرد عليها واعتراض الاتهام وقرار الحاكم، حتى بدا على رئيس المحكمة من حركاته وهزات رأسه أنه اقتنع كل الاقتناع برأي الدفاع.

دخلت المحكمة للمداولة وظلت أكثر من ساعة ثم خرجت فنطق رئيسها بالقرار الذي تضمن طلب إستحضار معالي أحمد ماهر باشا لسماع شهادته ومناقشة الدفاع اياه وكلفت النيابة اعلانه بالحضور لجلسة يوم الإثنين القادم ٢٠ مايو.

ضجت القاعة بالتصفيق والهتاف بحياة العدالة ونزاهة القضاء.

(٤)

انعقدت الجلسة ونودي على الشاهد أحمد ماهر باشا فحضر وحلفته المحكمة اليمين القانونية وتولى نجيب الهلالي سؤاله بعد أن سألته المحكمة عن إسمه وسنه وصناعته.

سأله نجيب:

س: هل قدمت – بصفتك وزيرًا للمالية – إعانات للبنوك المصرية التي تستدعي ظروفها إعانات؟

ج: نعم.

س: كم قدمت لبنك مصر وهو أكبر البنوك مساهمة في الاقتصاد الوطني؟

ج: نصف مليون جنيه.

س: كم قدمت لغيره من البنوك الأخرى؟

ج: منها ما أخذ ربع مليون، ومنها ما أخذ ثلث مليون ومنها ما أخذ مائتي ألف ومنها مائة ألف.

س: كم قدمت للبنك التجاري؟

ج: قدمت له مليونين من الجنيهات.

س: ولماذا ميزت هذا البنك دون سائر البنوك المصرية؟

ج: لأن حالته المالية كانت تعبانة وكادت أبوابه تقفل فلم أشأ أن يخسر الاقتصاد بنكًا وطنيًا في عهد ازدهار الاقتصاد.

س: ما علاقتك بإيلي بوليتي مدير البنك التجاري؟

ج: علاقة صداقة عادية كجميع المشتغلين بالشئون الاقتصادية.

س: لقد أقسمت اليمين القانونية أن تقول الحق ولا شيء غير الحق فهل لم يكن لعلاقتك الشخصية بإيلي بوليتي دخل في تمييز البنك الذي يديره دون سائر البنوك؟

ج: لا لم يكن هناك إلا المصلحة العامة.

س: أسألك بشرفك هل كان ضميرك مستريحًا ومطمئنًا وأنت تأمر بصرف مليونين من الجنيهات من ميزانية الدولة لصديق شخصي أو بنك كاسدة أسهمه في حين أن بتك مصر وهو البنك الوطني الوحيد يأخذ نصف مليون جنيه فقط؟

ج: تسألني بشرفي، مالك والشرف، أنت آخر من يتحدث عن الشرف والسمعة، هنا احتد نجيب وخرج عن وقاره وقال: اخرس ياقليل الأدب باوقح ياسليط اللسان وهم بالهجوم عليه.

وهاجت القاعة وأخذ عضوا اليمين واليسار يظهران تحيزهما الظاهر للشاهد وقالا لنجيب إنك أهنته وهذا لا يليق، فأجاب ألم يكن هو الذي بدأ بالإهانة واحتد عضو اليمين وقال إن الشاهد في حماية المحكمة وإهانتك له إهانة للمحكمة، وانضم إليه في الرأي عضو الشمال.

وظهر بوضوح التحيز المكشوف للشاهد، وتبينت نية العضوين وكادا يفصحان عن رأيهما.

عند ذلك رأى المحامون أن يطلبوا رد هيئة المحكمة عن نظر القضية بعد أن تبين بجلاء تحيزها لصالح الشاهد ورأيها في القضية.

وقف مكرم ونجيب وصبري وانضم إليهم بضعة محامين وطلبوا رد المحكمة ورفع الجلسة حتى يقدموا طلب رد إلى محكمة الاستئناف العليا ويفصل فيه.

وأعلنت رفع الجلسة.

خرج أحمد ماهر محروسًا بالبوليس حتى لا يتعرض لأذى الجمهور الذي كان متحرشًا به ولقد ظل في المحكمة حتى جاءت فرقة من الجنود على رأسها مأمور القسم وخرج في حمايتها، أما نحن فخرجنا وسط مظاهرة صاخبة تهتف بحياة الوفد ومحامي الوفد رجاله ورئيسه وتنادي بالويل والثبور لأعداء الأمة وخصومها.

كان اليوم موعد نظر الرد فانعقدت المحكمة برياسة محمد زغلول باشا رئيس المحكمة وتقدم المحامون في جلسة سرية وشرحوا الأسباب التي بنوا عليها طلب ردهم وأعادوا ذكر الوقائع المدونة في المحاضر التي نسخها الموظفون الذين اخترناهم.

وظلت الجلسة منعقدة إلي قبيل الظهر ثم رفعت للمداولة.

وبعث الرئيس في طلبي إلى حجرة المداولة وحدى دون المحامين فذهبت إليه واختلى بي وقال لي ياباشا إنك من أقدم رجال الأسرة القضائية وتعلم أنه لم يقدم رد وقبل منذ عرف القضاء في مصر حتى الآن وذلك حرصًا على سمعة القضاء وترفقا به عن استهانة المناقضين ولكني لا أكتمك أن الأسباب التي قدمتها في طلبك أسباب وجيهة مقنعة وهي تكفي لإدانة عضوي اليمين واليسار ولكني أرى ومعي أعضاء الهيئة أن تظل سمعة قضائنا فوق الشبهات وإلا كانت خاسرة كبرى وأظنك توافقني على هذا وأنت رجل القانون.

أجبته: أنا لا أوافقك علي هذا لأني أرى أن يكون في الحكم برد هيئة كهذه درس يستفيد منه القضاة وخصوصًا الذين يخضعون لرأي الحكومة أو يخشون سلطانها غير أني لا أتدخل معك وأنت الأمين على طلبنا.

فقال دعوتك لأشرح لك الموقف وأقرر لك أننا حين نرفض طلب الرد صونًا لسمعة القضاء سنوعز إلى الهيئة كلها أن تعلن تنحيها عن نظر القضية من تلقاء نفسها وكفى الله المؤمنين القتال وسنحيل القضية فيما بعد على هيئة نزيهة لا تستطيع الحكومة ولا رجال السراي أن يؤثروا عليها وأظن أن في هذا العرض ترضية لرفعتك وقد تري في أسباب الحكم ترضية أخرى، وهذا رجاء مني إليك.

اكتفيت بهذا من رئيس المحكمة وشكرته على شعوره وحسن تقديره للأمور وخرجت فعرضت على إخواني المحامين ما دار بيننا فوافقوا عليه ووعدوه ترضية، وقالوا سننتظر الأسباب التي ستذكرها هيئة المحكمة لعلنا نستخرج من بين السطور ما يفهمه القراء ويرضى به الجمهور.

جاء عمال الإسكندرية في وفود محتشدة وأصروا علي أن يصحبوني في أداء فريضة الجمعة واخترت مسجد عبد الرازق القنائي قرب محطة السكة الحديد.

خرجنا في رتل من السيارات وركبت واحدة مكشوفة بحيط بي زعماء الأسكندرية ورؤساء نقابات العمال.

هرع البوليس إلى المسجد بقوات غير مألوفة، وجاء رئيس القوات ونحن نؤدي الفريضة فأبعد السيارة التي كانت تنتظر قرب المسجد وأخلى المكان إلا من قواته.

ولما قضيت الصلاة وخرجت بين مظاهر الحفاوة والحماسة أتي البوليس بسيارة أمام المسجد وطلب أن أستقلها وقال رئيس القوات إن المحافظة لم تسمح إلا لهذه السيارة بالحضور ومنعت باقي السيارات خوف الاضطراب ووقوع حوادث.

ركبت السيارة وركب معي من استطاع الإفلات من البوليس من العمال وأعضاء نقاباتهم وسارت السيارة بين الجماهير المصطفة على طول الطريق.

لم نكد نصل إلى محطة سان استفانو قبل منزلي ببضع دقائق حتى فاحت رائحة بارود استطاع أن يكشفها أحد العمال الذي كان يركب إلى جانب سائق السيارة فطلب من السائق الوقوف فرفض وأصر على المضي ولكن الدخان علا فهجم العمال على السائق وأرغموه على الوقوف وطلبوا إليّ النزول من السيارة وأخذوا في تفتيشها وإذا بما يسمى (الكونتكت) معبأ بالدخان ولما فتحوه وجدوا نحو عشر رصاصات بين الدخان، وأسرعوا بإخراجهم وقبضوا على السائق وأخذوا يوسعونه ضربًا ولكمًا حتى كاد يغمى عليه وهو يقسم لهم أن المحافظة جلبته من مسكنه ليقود السيارة ولا يعرف عنها شيئًا.

استغاث بي السائق وأنا أقف أشهد المنظر العجيب، منعت الجماهير عنه وناديته وسألته فبكى وأكد لي أن رئيس القسم المخصوص في المحافظة هو الذي أمره بأن يقود السيارة ويذهب إلى مسجد سيدي عبد الرازق القنائي وأن يكون تحت أمر رئيس القوة المرابطة هناك ولا يعرف شيئًا عن السيارة ولا من أين جاءت ولا هي ملك من.

معنى هذا أنهم فكروا في أن ينسفوا السيارة ووضعوا الرصاص لكي ينفجر من شدة الحرارة ... أعمال صبيانية صغيرة.

ركبت سيارة أخرى إلى المنزل وأخذنا السائق وسيارته وأبلغنا النائب العام ونيابة الأسكندرية وانتظرنا فلم يحضر المحقق إلا قرابة المغرب، وبدأ التحقيق وأخذ أقوال السائق التي لم تخرج عما سبق أن ذكره ثم سألني فقررت لا أعلم ما رأيته من دخان وما شهدته من رصاصات استخرجت من السيارة، وعندك العمال الذين رافقوا السائق واكتشفوا الحادثة.

وختم المحضر على أن ينتدب خبيرا المفرقعات غدًا (السبت) لأنه لا يوجد اليوم ... يعني حتي تزول آثار الحادث.

وسألته لِم لم تستجوب رجال القسم المخصوص أو الذين أتوا بالسيارة وصمموا على أن أركبها هي بالذات، فقال لا داعي الآن حتي يأتي تقرير الخبير.

حوالي الظهر حضر إلى منزلي رئيس نيابة الأسكندرية ومعه شخص آخر قال إنه خبير

المفرقعات وأخذ يكشف على السيارة ثم قال إني لا أرى أي أثر على أن هناك جريمة دبرت وأن السيارة بكل أجزائها سليمة لم يتلف فيها شيء ولذلك أرجح أن الرصاصات التي وجدت (في الكونتكت) وضعت منذ زمن ونسيها واضعها وليس لها من خطر.

أخذ رئيس النيابة تقرير الخبير واتصل بالنائب العام الذي أمره بحفظ التحقيق لأنه لا توجد جريمة ... حتى لو أن هناك جريمة ماذا كانت النيابة أو رئيسها فاعل؟ لا شيء إلا كما هي عادتهم معنا حفظ التحقيق لعدم معرفة الفاعل أو عدم وجود جريمة لأي سبب من أسباب النيابة ونائبها العام وما أكثر أسبابهم واختراعاتهم.

بعد أن أديت صلاة الجمعة في مسجد أحمد سالم بباكوس قرب سراي الأمير عمر طوسون وجدت من اللائق أن أمر عليه وأترك له بطاقة شكر علي تفضله بالسؤال عني، ولما وصلت السراي جاء السكرتير، وقال لي إن سمو الأمير في الصالون ويسره أن يستقبلك فدخلت وقابلته وكررت له شكري وعرفاني على مداومة سؤاله عني في كل مناسبة.

فأعاد تهنئته لي وقال لولا أن ظروفه الصحية تمنعه من كثرة الحركة لحضر بنفسه لزيارتي ثم دار بيننا حديث عن تصرفات الملك الشاذة وعن سهراته الحمراء في مختلف الملاهي، والمساخر وما يدور حول أمه وشقيقاته الأميرات من شائعات لا تشرف، وقال إننا نحن أبناء محمد علي لنا تقاليدنا الدينية وتمسكنا بشريعة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام، وإني لأفضل أن يزول ذلك الفتى – على صغر سنه – من الوجود عن أن يحيط بسمعته وسمعة أسرة محمد علي هذه الشبهات والشائعات المؤلمة.

ثم تطرق الحديث إلى علي ماهر وتصرفاته فقال الأمير إن هذا شخص يدور حول نفسه ولا يفكر إلا في مصلحته، ويشيع بين أصدقائه وأنصاره أنه وطني وليس عنده مثقال ذرة من الوطنية، وأني أعرف والده ماهر باشا حينما كان يعمل في الجيش المصري ويذكر ابنه الأكبر (عليًا) دائمًا بأنه ذكي ولكن ذكاءه طيار سريع التقلب لا يستقر على حال وقد صدق الوالد في الحكم على ولده.

قلت ياسمو الأمير إني زاملت علي ماهر في الدراسة الثانوية والعليا حتى تخرجنا في علم واحد في مدرسة الحقوق الخديوية إذ ذاك وكان معروفًا بيننا بأنه صاحب مقالب ويتلون بجميع الألوان حتى أن بعض زملائنا (طلعت باشا) وكيل محكمة الاستئناف كان يشبهه بالطائر (أبو قلمون) كل ساعة بلون، فابتسم الأمير وبدأ يهدأ.

أعلن نبأ استقالة وزارة محمد محمود باشا وتكليف علي ماهر بتأليف الوزارة الجديدة، ولاحظ المعلقون أن كتاب قبول الاستقالة كان فاترًا مما دل على أن القصر كان برما بها، وحتى نفس كتاب الاستقالة دل على الهوة التي كانت بين رئيس الوزارة والقصر.

كما لاحظ كثير من المعلقين أن لعبة علي ماهر وسعيه الحثيث لتولي الحكم قد نجحت أخيرًا.

زارني أمين وأخبرني أن أصدقاءه في دار المندوب السامي البريطاني قد تلقوا نبأ تأليف علي ماهر الوزارة بتحفظ شديد ويقولون لو قامت الحرب وعلي ماهر في الوزارة فسيجلب لهم كثيرًا من المتاعب والمشاكل ولكنهم آثروا الانتظار حتى يروا ما يكون.

لاحظت أن بعض الذين كانوا ينتمون إلى الوفد وخرجوا منه قد أصبح بعضهم وزراء كصالح حرب باشا وعبد الرحمن عزام وعدد كبير ممن يصفون أنفسهم بأنهم مستقلون.

حضر ريد وأمين وحدثاني بأن السير مايلز لامبسون يريد أن يلتقي بي لقاء سريًا حتى لا تعرفه الصحف وتذيعه.

انفقنا على أن يحضر إلى الكازينو ويصعد إلى جناح مكرم وأصعد أنا إليه، ولا يشعر بنا أحد، حضر السفير في المساء وحده وبعد قليل وصلت فاستقبلني مرحبًا وقال إنني آسف جدًا على حادث الاعتداء الذي دبر لك وسعيد جدًا إذ نجوت منه.

فابتسمت شاكرًا وقلت ليس هذا أول حادث ولا أظن أن سيكون آخر الحوادث، وما دام هناك من يتحكم في مصير البلاد ويوجه سياستها كما يريد فستتكرر أمثال هذه المؤمرات كثيرًا، فقال لعلك تقصدنا، قلت لا أقصد أحدًا ولكن من رأيي أنه مادامت البلد تحكم حكمًا فرديًا دكتاتوريًا فلا يستغرب أن تقع فيها أمثال هذه الحوادث.

قال لعلك تحملني مسؤلية ما يقع ... أجبت: أنت لا ولكن سياسة انجلترا نعم... قال: أنا أنفذ ما تأمر به وزارة الخارجية، قلت أعرف هذا ولكني يا (سير) أفرق بن العواطف الشخصية والسياسية العامة، وأعلم جيدًا أنك شخصيًا تود أن تستقر الأمور ولكنك لست وحدك الذي ترسم وتخطط.

قال إن الحرب وشيكة الوقوع وإني سأظل أنصح هنا وهناك وأحاول بالحسنى أن يعدل الملك أو بالأحرى مستشاروه عن خططهم، فإذا نجحت فبها وإلا فسأستأذن حكومتي في أن أتدخل عند اللزوم بما يصون مصالح الإمبراطورية.

ابتسمت وقلت وأين مصالح مصر ياسير، إن هذا هو الذي آخذه على دولتك لأنكم تفكرون في ناحية واحدة، ولو انصفتم وأنتم الحكام الحقيقيون - سواء اعترفتم أو لم تعترفوا - لأوقفتم المعتدين الذين تسندونهم عند حدهم، أو خليتم بيننا وبينهم وحينئذ سيكون حساب الشعب لهم عسيرًا، وعقابهم منه عقابًا أليمًا.

قال إنك حانق علينا مع أنني كنت أتصور أنك تقدر موقفنا وتلتمس لنا الأعذار ... إني أحاول قدر المستطاع أن أعود بالبلاد إلى حالتها الطبيعية ولو كان الأمر بيدي وحدي لاستعملت الشدة ولكني كما تعلم مقيد بسياسة حكومتي وبتنفيذ تعليماتها ... وأن أعلم أنك زعيم الأغلبية ما في ذلك غير أن القصر وموظفيه وفاروقًا ومستشاريه يلعبون لعبات لمصالحهم ولا يفكرون في مصالح البلاد، وأحب أن أقول لك إني طلبت أن أراك لأخبرك أن

ما عندي من معلومات عن الحالة الدولية لا يطمئن، وأنا بدوري لست مطمئنًا لتصرفات علي ماهر واتصالاته المريبة بسفراء ألمانيا وإيطاليا وجاليتهما، وأن التقارير تصل إلينا تباعًا عن تحركاته التي تزيدنا حذرًا منه، وأؤكد لك أنه لو قامت الحرب فسأرغم الملك على إخراج علي ماهر مهما تكن الظروف، فهل أنت مستعد لقبول وزارة قومية، قلت لا وأكرر لا ... قال وماذا ترى؟

قلت له وددت من صميم قلبي أن الملك يفهم هذا من تلقاء نفسه بوصفه ملكًا على بلد مستقل بينه وبينكم معاهدة صداقة وتحالف، وأن كل طرف من الطرفين أنتم ومصر يعرف ما له وما عليه، وعندئذ تستقر الأمور وتهدأ الحالة.

لبيت دعوة أحمد حسين بك عضو الهيئة الوفدية عن دائرة بني مزار لحفلة عشاء في داره بسان استفانو وبعد أن انتهينا من تناول العشاء جاء رسول إلى مكرم يدعوه لمقابلة شخص خارج الدار.

غاب مكرم وقتًا طويلاً ثم عاد وبينما نحن في طريق العودة أخبرني أن الذي طلبه صديق بريطاني ذكر اسمه، وقد قال له هذا الصديق إن برقية عاجلة وصلت من وزارة الخارجية البريطانية بأن المخابرات الإنجليزية قد ضبطت شفرة مرسلة من علي ماهر إلى ألمانيا بأنه عند إعلان الحرب ستكون مصر في صفها أو على الأقل محايدة، وأن الأوامر صدرت للسفير بأن يراقب تصرفات علي ماهر وتحركاته وأن يتصرف على ضوء هذا بما فيه المصلحة دون الرجوع إلى لندن.

وعلق مكرم على هذا بأن الخبر متكتم جدًا وأن صديقه شدد عليه بألا يخبر به أحدًا سواي، ورجاه أن يطلب إليّ وقف الحملة على بريطانيا مؤقتًا حتى يتبين الموقف الغامض وتنكشف الأحداث.

قلت لمكرم ما لهذا والحملة على تدخل بريطانيا في شئوننا واستبداد القصر والأقلية ضد إرادة الأمة قال ياباشا وماذا سنخسر لو انتظرنا ما تسفر عنه الأحداث فإن الحالة خطيرة جدًا ولابد أن تنفجر بسرعة، وإذا انفجرت فلابد أن يعرف موقف مصر وعندئذ إذا استمر الإنجليز في تأييد القصر والأقلية فنحن في موقفنا وإذا عادوا إلى الأمة كان ذلك مكسبًا كبيرًا لنا.

جلسنا في المساء في ردهة فندق (الميدتنرني) على شاطئ الكورنيش وأخذت استمع لأحاديث ومناقشات سياسية وأدبية وصحفية.

وفجأة رأينا حركة غير عادية قيل بعدها أن جلالة الملك جاء ليقضي السهرة في كازينو (الرومانس) فأشرت للحاضرين بأن من المستحسن أن ننصرف حتى لا نحرج ولا نحدث حرجًا لغيرنا، ومادام الملك جاء ومعه بعض حاشيته لقضاء السهرة فلابد أن الموائد المعتادة ستعد وأن السهرة ستمتد ولا داعي لأن نبقى لنشهد مثل هذه المظاهرة المؤلمة

فانصرف معظمنا وبقى عدد قليل.

جاء بعض الذين ظلوا في سهرة الأمس ولم ينصرفوا معنا يخبرون بأن الملك علق على انصرافنا بأننا نفر من رؤيته وقهقه قائلاً إذا حضرت الشياطين ذهبت الملائكة ثم ضحك وأخذ يلقي النكات طيلة السهرة في هذا الموضوع ويقول يعني نحن شياطين وهم ملائكة مقربون ها ها ها، وقد أتى بحركات مبتذلة جعلت نزلاء الفندق من الأجانب يبتسمون ويعلقون على هذه التصرفات الشائنة تعليقات لا تشرف مصر ولا تتناسب مع كرامتها.

اتصل بي البير خوري محرر الأهرام السياسي المتجول في أنحاء أوروبا وطلب أن أستقبله لأنه يحمل إليّ رسالة خطيرة من الخارج وانفردت به في حجرة المكتب فقال لي أنه قابل (موسوليني) وأنه حدثه حديثًا طويلاً عن مطامعه في الشرق الأوسط وآماله الواسعة في احتلال أكبر جزء منه، وأنه عقب قيام الحرب - وهي وشيكة الوقوع - لن يمض وقت يسير حتى يقف في شرفة فندق الكونتيننتال بالأوبرا ويعلن ضم مصر إلى المحور وطرد الإنجليز منها وأنه تضايق جدًا من أنه أرسل إليك صهره الكونت شيانو وزير خارجيته عندما كنت في مونتيكتيني العام الماضي.

وحمل إليك رسالة وطلب أن تتفاهم معه وتساعده على إخراج الإنجليز من مصر وإحلال الطليان مقابل أن تكون رئيس جمهورية أو الحاكم المصري أو ما شئت من ألقاب ولكنك رفضت هذا العرض وهو يعيده عليك مرة أخرى ويقول إن الحرب ستكون قريبة جدًا وإن احتلال مصر بالطليان والألمان أصبح قاب قوسين أو أدنى.

وقد دعاني فشهدت استعراضًا ضخمًا لقوات القمصان السود والجيش المسلح وقال انقل إلى زعيم الأغلبية في مصر ما ترى، وصف له قوتنا واستعدادنا وأننا لا محالة سنكسب الحرب وسنحتل الشرق الأوسط كله وما حوله من البلاد في أشهر إن لم يكن في أيام.

ثم قال (خوري) وأنا أنقل إليك ما كلفت به بأمانة وصدق لم أزد فيه ولم أنقص.

عجيب ذلك المغرور المسمى بالدوتشي وصديقه الفهرر هتلر الذي قتله جنون العظمة.

كيف يتصوران أن رجلاً وهب نفسه لطلب وطنه واستقلاله وتخليصه من براثن المستعمرين أن يقبل احلال احتلال مكان احتلال أو يقبل أن يحكمه إيطالي أو ألماني بدل إنجليزي.

وسألت خوري هل ستعود إلى جولتك ثانية فقال إنني أبحر غدًا لأتم بقية تجوالي وموافاة الأهرام بأنباء الحرب والاستعداد لها، فقلت إذا مررت بصاحبك الدوتشي ثانية فقل بتعبيرنا العربي إن خياله ومطمعه كمطامع الشيطان إبليس في دخول الجنة، وأن الله سبحانه وتعالى سيحفظ مصر لأنها كنانته في أرضه مهما كانت الظروف والأحوال.

قصدت إلى المعمورة لشكر عظمة السلطانة ملك على إيفاد مندوب للاستفسار عن صحتي وقد استقبلني سكرتيرها الخاص وقال إن السلطانة تريد أن تراك.

استقبلتني في الصالون وكان معها وحيد يسري صهرها، وقد شكرت لها سؤالها عني في أثناء مرضي، فقالت إننا نعتبرك الرجل الصالح في الوسط الفاسد الذي نعيش فيه والذي يسيء إلى سمعة الأسرة المالكة كثيرًا وإلى سمعة مصر أكثر، ثم صمتت وتكلم وحيد يسري فقال إن عظمة السلطانة تشير بهذا إلى مباذل فاروق وحاشيته وإلى سمعته التي تلوكها الألسن في كل مكان، وهي متألمة جدًا من أن الملك لا يزال في حكم العريس الجديد ولكنه يهجر الملكة فريدة ويخرج لقضاء سهرات متنقلاً بين النوادي والكازينوهات يحيط به جماعة ممن يزينون له عبثه ولهوه.

أجبت ومن المسئول عن هذا؟ قال المسئول علي ماهر وأحمد حسنين وبوللي وحلمي حسين وادوار كرمي وشقيقه ريشار ومعظم هؤلاء كما ترى أجانب لا تهمهم سمعة مصر، ولا كرامة مصر وفاروق ولد طائش يمشي وراءهم فيسيء إلينا وإلى عرش مصر بل وإلى ملوك المسلمين جميعًا.

وقالت السلطانة ملك إني ألومك لأنك تركت هذا الولد الصغير يتولى عرش مصر مع أن الأمير محمد علي نبهك إلى هذا وقد قال لي إنك رفضت أن تطيل سن الرشد.

قلت إن علي ماهر قد استصدر فتوى قانونية وشرعية من العلماء ورجال القانون بأن سن الرشد ثمانية عشر عامًا هجرية ولم أشأ أن أعارض تلك الفتوى وقلت إنه شاب صغير بعيد عن التيارات الحزبية وقد يتأثر لو أبدينا اعتراضًا وظنناه خيرًا من غيره ولكن المحيطين به أتلفوه وزينوا له السير في طريق الغواية، ولو أن ماهر وحسنين أبعدا عنه من الناحية السياسية وأبعد الحاشية من اللبنانيين والإيطاليين فربما يمكن تدارك ما فات.

هزت السلطانة رأسها وقالت إن شاء الله إن شاء الله.

ودعت السلطانة مكررًا شكري لها وصحبني وحيد يسري إلى الخارج وقبل أن استقل السيارة قال ياباشا إن الملك طلياني، وعلي ماهر ألماني، لو قامت الحرب فستكون كارثة على مصر لأن الإنجليز سينتهزون الفرصة ويضربون ضربة قوية قد تودي بالعرش وبالأسرة كلها.

قلت: لا تخف على العرش فإن انجلترا محتفظة بفاروق وبعرشه لتضرب الحركة الوطنية في الصميم فاطمئن من هذه الناحية لأنه مادام ملك مستهتر وأحزاب تتهافت على الحكم وتتسابق على تقديم التنازلات فستظل حجة جيش الاحتلال في مصر قائمة.

زارني أمين وأخبرني أن الإنجليز بدأوا يستعدون جديًا للحرب وأنهم يشرعون في توزيع قواتهم الموجودة في مصر في عدة جهات وأنهم عينوا ضابطًا من ضباطهم اسمه

(ريتشي) ليعسكر في العامرية استعداداً للطوارئ وقال إن التقارير التي ترد إلى دار السفارة من وزارة الخارجية البريطانية تأمرها بالاستعداد واليقظة والحرص الكامل لأن الحالة أصبحت جد خطيرة.

(٥)

دلت التقارير التي تلقيتها من المصادر المختلفة أن الحالة الدولية وصلت إلى القمة من ناحية التأزم وأن الأوامر صدرت إلى الإنجليز في البلاد التي لهم سيطرة عليها وأن يعملوا على أن تكون جميعها مستعدة لخوض الحرب في صفهم أن تكون مستعدة للاشتراك بكل ما تملك لمعونة انجلترا.

وجاء من قال لنا إن الإنجليز الرسميين والمحليين اجتمعوا ووضعوا خطة لاستعمال كل المرافق المصرية وإعدادها لتكون صالحة للاشتراك الجدي في الحرب.

نقلت الأنباء أن الإنجليز بدءوا يبحثون عن رعايا ألمانيا وإيطاليا المقيمين في مصر والموظفين فيها أو الذين يقومون بأعمال ونشاط من أي نوع، بدأوا يراقبون ويبثون عليهم العيون والأرصاد ويتعقبونهم في غدوهم ورواحهم.

كذلك ثبت لديهم - كما يقول أصدقائهم - أن علي ماهر ومعظم وزرائه لهم صلات مريبة بالألمان والطليان المحليين، وأن هذا يبعث في نفوس السفير البريطاني ورجال السفارة كثيراً من القلق والخوف.

وقد نقل إليّ محمود غزالي أن صديقه (هولز) النائب العام لدى المحاكم المختلطة - والذي يوشك أن يترك وظيفته طبقاً لاتفاقية إلغاء الامتيازات الأجنبية - أخبره أن السفير البريطاني سير مايلز استشار وزارة الخارجية البريطانية في التدخل السافر لإخراج وزارة علي ماهر فأشارت عليه بألا يستعمل الشدة لأن الظروف غير ملائمة، ولكن عليه أن يرقب الأحداث ولا يمكن ماهر من الساعات القادمة.

انفجر الموقف وقضى على جميع جهود السلام بالفشل وأعلنت الحرب وتركت الجيوش الألمانية تجتاح ما حولها من البلاد.

(١)

تضمنت رسالة من السفارة البريطانية في القاهرة موجهة إلى (إيدن) – في ١٩٣٧/٨/٣ – أن الصحفي المصري محمود عزمي أخبر أحد أعضاء السفارة أن: "مصر ليست مهتمة اهتمامًا عميقًا بالمسألة الفلسطينية، وأنها ستبقى خارج الوحدة العربية".

ومن المؤكد أن محمود عزمي وهو أحد الذين رفعوا مبكرًا شعار الدعوة إلى الوحدة القومية العربية، لم يكن يقصد نفسه، كما أنه لم يكن يقصد الرأي العام داخل مصر، ولا جهود جمهور المثقفين المصريين في ذلك التوقيت بالذات، وإنما كان يقصد على وجه التحديد مصر الرسمية أو الحكومة المصرية التي كان يشكلها حزب الوفد.

يؤكد ذلك أنه عندما اندلعت ثورة ١٩٣٦ في ربوع فلسطين حرص قائدها (فوزي بك القاوفجي) على أن ينشر عبر صفحات (جريدة المصري) رسالة إلى الشعب المصري وإلى قيادات حزب الوفد، قال فيها: ".... إنه مما يؤذي شعوري أن ألاحظ نفور العرب من موقف الحكومة المصرية الأخير من الثورة الفلسطينية..."

لكن (القاوفجي) يضيف: "... إلا أنني أستطيع أن أوكد لكم أنه لم يكن بسبب جدب شعور مصر ولا تحديًا من الوفد لشعور فلسطين وإنما ظروف المفاوضات الأخيرة بين مصر وانجلترا قد تكون السبب الوحيد فيما صدر..."

لم تكن المسألة القومية مطروحة في المحيط العربي ولا في مصر، على المستوى الرسمي، فقد كانت جميع الحكومات والسلطات العربية مقيدة بأوضاعها الخاصة وقوعًا تحت براثن الاحتلال أو الانتداب والنفوذ الأجنبي.

ولم يصدر – مثلاً – عن سعد زغلول خطابًا في العروبة أو العرب، باستثناء نداء وجهه إلى سوريا في أزمتها عام ١٩٣٥، أما غير ذلك فلم يكن لديه أو لدى غيره من الساسة المصريين رؤى بين وجود علاقة بين الأزمة الذاتية لأوطانهم وصور الكفاح الوطني هنا وهناك.

والأزمة العامة التي تعكسها وحدة المستعمر سطوة وأدوات وأهدافًا.

ولذلك لم يأخذ التفكير الرسمي في مصر منحي سياسيًا عربيًا إلا بعد عقد معاهدة (مونتريه) – ١٩٣٧ – الخاصة بالامتيازات الأجنبية، ساعد على ذلك بالتأكيد التطورات التي كانت تشهدها القضية الفلسطينية، سواء على مستوى اشتعال فلسطين بالثورة أو على مستوى انعكاسات ذلك على عدد من القرارات والمؤتمرات الدولية، مثل المؤتمر البرلماني العربي (مصر – أكتوبر ٣٧) ومؤتمر بلودان (سوريا – سبتمبر ٣٧) أو لجنة بيل الدولية التي قدمت اقتراح تقسيم فلسطين إلى ثلاثة مناطق (يوليو ٣٧) أو عصبة الأمم (سبتمبر ٣٩).

وقد بدأ نتيجة ذلك تحول في طبيعة النظرة الرسمية المصرية إلى القضية من تعاطف مدفوع بالقيم الأخوية والدينية إلى رؤية سياسية من منظور مصري إقليمي أكثر فطنة إلى فلسطين باعتبارها تشكل خط الدفاع الاستراتيجي الأول عن مصر.

والحقيقة أن ذلك كله لم يكن اكتشافًا جديدًا، وإنما مجرد انعاش للذاكرة الاستراتيجية المصرية بعمقها التاريخي، والتي كانت تؤكد أن قاعدة الهجوم أو الخطر تقع دائمًا إلى الشرق من سنياء، أو من محورها الشمالي حتى تخوم الشام وصولاً إلى قلب آسيا، وأن خط الدفاع الطبيعي الأول عن مصر يقع شرق حدودها الشرقية، فقد كان هذا هو الدرس الذي تعلمه وتوارثه كل الفراعنة المصريين ومارسوه بإبداع وكان هذا هو نفس الدرس الذي استوعبه بالكامل محمد علي وجمال عبد الناصر في العصر الحديث.

لقد أعاد جنرالات الجيش البريطاني اكتشاف هذه الحقيقة بعد قرون طويلة، ومن خلال الصواب والخطأ، فقد مارس الجيش الانجليزي في بداية الحرب العالمية الأولى نظرية الدفاع ضد الهجوم العثماني ودول المحور مرتكزًا على أضلاع قناة السويس.

ثم اكتشف الاستراتيجيون البريطانيون أنهم ارتكبوا خطيئة سياسية كبرى محوها بعد ذلك حين اختاروا أن يكون خط الدفاع الأول عن قناة السويس بين رأس خليج العقبة وزاوية رفح.

لكن تأخر تشكيل موقف رسمي مصري مستوعب لحقائق الجغرافيا والتاريخ على المستوى الرسمي، لم يحل دون ظهور مبادرات فردية في هذا السياق، سواء لمثقفين وسياسيين مثل محمود عزمي أو محمود عزام الذي كتب داعيًا إلى الوحدة العربية من منتصف الثلاثينات ذلك أن مصر - كما يقول ساطع الحصري - بحق سواء في عهد محمد علي والمماليك والأيوبيين والفاطميين والعباسيين والأمويين وحتى في العهد الطولوني والإخشيدي، لم تكن منعزلة بل كانت جزءا من دولة عربية كبرى كادت تشمل غالبًا سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز.

لقد ذهب أول وفد شعبي مصري إلي فلسطين عام ١٩٢٩ مع حوادث البراق، فقد انتدبت جمعية الشبان المسلمين أحمد زكي - الملقب بشيخ العروبة - ومحمد علي علوبة للدفاع عن القضية الفلسطينية أمام لجنة البراق الدولية.

لقد ذهب محمد علي علوبة بصحبة هاشم الأتاسي (رئيس جمهورية سوريا بعد ذلك) وشكيب أرسلان والحاج أمين الحسيني (مفتى فلسطين الأكبر) عام ١٩٣٤ إلي المملكة العربية السعودية في مهمة من طراز فريد. أو كما يقول علوبة:

"... ذهبنا نحن الأربعة إلى المملكة العربية السعودية وقد ندبنا أنفسنا كممثلين لبلادنا للسعي لدي المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود في وقف الحرب التي قامت بينه وبين اليمن ومكثنا هناك أيامًا عديدة نسعي في حقن دماء المسلمين.

ومكثنا هناك أيامًا عديدة نسعى في حقن دماء المسلمين.

وكللت مساعينا بالنجاح...".

لقد توالت بعد ثورة فلسطين وظهور مخططات الصهيونية، المؤتمرات الشعبية العربية تأييدًا للقضية. ففي أكتوبر (٣٧) عقد المؤتمر البرلماني العالمي للبلاد العربية والإسلامية الذي شارك فيه إضافة إلى أعضاء هذه البرلمانات: "رؤساء العشائر ووجهاء البلاد المحرومة من التمثيل البرلماني وحتى تكون قرارته معبرة عن رغبات الأمم العربية."

ومع أن صحيفة الوفد رأت في الدعوة إلى المؤتمر "استغلال دعائي للقضية الفلسطينية، وأنه لخدمة سياسة داخلية"، فإن مصطفى النحاس اضطر أن يعتذر بنفسه "لوفود الأقطار الشقيقة" بعد ذلك.

كان لامبسون قد بدأ يرى أن متاعب بريطانيا العظمى مع العالم العربي بشأن فلسطين تضعف من موقفها في البحر المتوسط بشكل محسوس.

ولذلك تبنت بريطانيا عقد مؤتمر المائدة المستديرة في أوائل ١٩٣٩، كما قررت إطلاق سراح أعضاء اللجنة العربية الذين كانت قد نفتهم إلى سيشل على أثر اشتعال الثورة الفلسطينية.

حين حدث لامبسون النحاس على عشاء خاص (٤ يوليو ٣٧) عن القضية الفلسطينية أبلغه النحاس أنه لا يحبذ إطلاقًا الاقتراح الخاص بالتقسيم، وأنه على ثقة من أن العرب لن يوافقوا على ذلك أيضًا وأكثر من ذلك فإنه كرئيس لوزراء مصر لا يمكن أن يتعاطف مع الاتجاه الرامي إلى إقامة دولة على حدود فلسطين.

وكان الحل الجذري والمقبول الذي أبلغه إلى لامبسون - كما يروي الأخير - هو: "إقامة حكومة عربية في فلسطين ترتبط بانجلترا بتحالف وثيق مع ضمان حرية الأديان لكل مواطنيها من اليهود والمسيحيين وغيرهم...".

وتكشف الوثائق البريطانية عن أن النحاس تلقى: "اقتراحًا من سفراء السعودية، العراق، سوريا، اليمن، دون إمارة شرق الأردن وذلك لتكوين جبهة متحدة لمعارضة اقتراح التقسيم"، بيد أنه - أي النحاس - أظهر عدم اقتناعه بجدوى التحالف "ورأى أن معارضته لفكرة التقسيم سوف تكون أكثر قوة إذا ما كان حرًا لا يرتبط بأية قيود" - كما أبلغ لامبسون - "... كحليف لبريطانيا العظمى سوف يكون أكثر قدرة على العمل بمنهج معتدل في مواجهة أي مقترحات يتفق عليها الحكام العرب....".

لكن موقف علي ماهر الذي قفز وهو رئيس للديوان الملكي، كان ينم عن رؤية أكثر عمقًا ونفاذًا إلى طبيعة القضية وما يحيط بها من أطماع ومخططات.

كان علي ماهر قد أصبح داخل المؤتمر هو المتحدث الرسمي بإسم الوفود العربية -

التي اجتمعت في القاهرة أولاً - وعندما جرت مفاوضات غير مباشرة بين العرب واليهود انتهت بالفشل فقد تمسك اليهود بالوطن القومي، وتمسك العرب باستقلال فلسطين ووقف الهجرة.

ووقف علي ماهر يعلق في نهاية الأمر بأن المؤتمر "... ما هو إلا استمرار للجان الخديعة والتمويه حتى يصبح اليهود أشد وأقوى وأكثر عدداً وحتى تضمن انجلترا العرب في الحرب القادمة."

ولم يكن علي ماهر عروبياً، ولكنه كان نافذ الرؤية.

(٢)

كانت انعكاسات تطورات المتغيرات المتلاحقة في أوروبا على مجلس الوزراء المصري واضحة وكانت حيرة المجلس أكثر وضوحاً.

والحقيقة أن البريطانيين في القاهرة كانوا بدورهم يعانون من حيرة وتوتر، فلم تكن لديهم إجابات محددة عن المستقبل وحين سأل محمد حسين هيكل (سمارت) السكرتير الشرقي للسفارة البريطانية تعبيراً عن هذه الحيرة: "ماذا يمكن أن يتمخض الموقف عنه إذا ضم هتلر الممر البولوني الذي يفصل بروسيا الشرقية عن سائر ألمانيا ومحا بذلك نصوصاً أخرى من معاهدة فرساي غير التي محاها من قبل حين سلح ألمانيا، وأخرج فرنسا من منطقة الرور وحين ضم النمسا؟..."

أجابه (سمارت) واثقاً: "وما أظن أن حرباً تنشب بسبب الممر البولوني أو بسبب (دانتزيج) "،ومع ذلك فإن البريطانيين في مصر كانوا يتصرفون عملياً عكس ما قاله (سمارت) على المستوى السياسي وحين بدا أن صحة محمد محمود تعاني بعض المشاكل، حاول (لامبسون) أن ينضم عثمان إلى الوزارة في منصب مستحدث هو مساعد رئيس الوزراء المريض، وقد نقل أمين عثمان ذلك إلى صديقه (أحمد فرغلي) الذي علله بأن سببه مرض رئيس الوزراء فقط لأنه - أي محمد محمود - "من مجموعة قليلة تتمتع برضا وثقة لامبسون."

وعلى المستوى العسكري لم يتوقف البريطانيون عن محاولة إقناع الحكومة المصرية بأن الوضع الدولي يشكل حالة طوارئ - كما تضمنت المادة السابعة من المعاهدة وذلك يتطلب إطلاق يد انجلترا في تقوية قواتها في مصر، وحقها في تحريك هذه القوات في الأراضي المصرية وبصفة خاصة إرسال قوات بحرية إلى قناة السويس وأخرى إلى بورسعيد والسويس فوراً، كذلك أن تضع الحكومة التسهيلات والمساعدات التي تضمنتها المعاهدة موضع التنفيذ بما في ذلك إعلان حالة الطوارئ عند طلب بريطانيا ذلك.

لكن جانباً من مخاوف مجلس الوزراء المصري كان متعلقاً بالتزامات مصر وفق بنود معاهدة ٣٦ وفي مقدمتها إقامة منشآت عسكرية في منطقة القتال.

كان وزير الأشغال الوفدي قد قدر نفقات هذه المنشآت بخمسة ملايين جنيه، أما حسين سري في الوزارة الجديدة فقدرها بما يزيد عن إثني عشر مليون جنيه، وهو مبلغ رأي مجلس الوزراء أن ميزانية الدولة تنوء بحمله، وكانت مناقشات هذه المسألة قد تواصلت في مجلس النواب حتى أن إسماعيل صدقي تزعم اتجاهًا لإلغاء هذا البند على أن تقوم القوات البريطانية بالانسحاب من قلب القاهرة إلى منطقة العباسية بدلاً من منطقة القنال.

وسافر محمد محمود إلى لندن ليتفاوض على بقاء الالتزام المالي المصري عند حدود الملايين الخمسة لكن مجلس الوزراء رغم موافقة الجانب البريطاني لم يشعر بالراحة فقد قدم إليه في الأسابيع الأولى من العام (١٩٣٩) فكرة على لسان رئيسه لم يقل كيف استوحاها، أو قدمت إليه وما إذا كانت مادة في مناقشاته في لندن لتخفيض أعباء مصر في إنشاء المنشآت العسكرية لبريطانيا أم لا؟

عرض رئيس المجلس حلاً عمليًا وهو أن تعلن مصر انضمامها إلى ميثاق (سعد أباد) وهو عبارة عن اتفاقية للدفاع المشترك وقعها كل من تركيا والعراق وإيران وأفغنستان. وهي فكرة لا يمكن أن تكون وليدة مخيلة محمد محمود حيث أنها تعكس مبكرًا جدا (وربما أكثر من أية أفكار الدفاع الإقليمي في الشرق الأوسط وهي فكرة لم تتبلور في الرؤية الاستراتيجية الغربية بشكل محدد إلا في نهاية الأربعينات.

كانت الفكرة والعرض غريبين لأن ألمانيا إذا كانت ستتجه إلى الشرق فلابد وأن يكون البلقان طريقها واعترض أحد أعضاء المجلس بعد طرح المشروع قائلاً:

"إن البلاد الأربعة المشتركة في الميثاق متجاورة مع بعضها البعض فالعدوان على إحداهما يعرض سائرها لامتداد العدوان إليها، أما ونحن لا نجاور أيًا منها فلا مصلحة لنا في الانضمام إلى الميثاق...".

لكن بعض الوزراء اعترض بقوة على ذلك خصوصًا وقد بدا من عرض رئيس المجلس أنه متعاطف مع الفكرة ومؤيد لها. وتعددت التفسيرات التي تؤكد أهمية الانضمام إلى ميثاق (سعد أباد) بدءا من أن الحرب أصبحت ميكانيكية وانتهاء بأن الطيران الحربي قد ألغى مئات الأميال مرورًا بأهمية تكوين جبهة متضامنة عسكريًا في هذا الجزء من العالم وتعلق مصلحة مصر بذلك.

وحين تفجر الخلاف عرض المشروع للتصويت على مجلس الوزراء وكانت النتيجة مدهشة فقد صوت نصف المجلس بالضبط مع المشروع ونصفه الآخر ضد المشروع بينما كان رئيسا الحزبين المشكلين للمجلس (الأحرار الدستوريين والسعديون) يعبران عن ميل للانضمام إلى هذا الحلف الغريب.

وهكذا ومبكرًا جدًا قدر للمحاولة الجنينية الأولى لتشكيل منظمة للدفاع الإقليمي في الشرق الأوسط أن تتعثر على مائدة مجلس الوزراء المصري.

(٣)

كان البنك التجاري واحدًا من ثلاثين بنكًا أجنبيًا قدر لها أن تقوم في مصر وأن تستمر بين عامي ١٩٢٢ و١٩٥٢ ولم يكن من بينها بنك عربي واحد فلم يتم تأسيس أي بنك عربي في مصر إلا عام ١٩٤٤ حيث أسس (البنك العربي) ثم بنك (الأمة العربية) وهو بنك فلسطين (١٩٤٦).

إن المذكرات تتحدث باستفاضة عن الخلافات التي وصلت إلى المحاكم بين الوفد وأحمد ماهر وزير المالية المنشق عنه، بسبب نسب الأموال التي منحت لعدد من هذه البنوك لتخفيف وقع الأزمة الاقتصادية عليها، حيث تتهمه بالمغالاة في منح مليونين من الجنيهات لهذا البنك نظرًا لصلته بصاحبه، في الوقت الذي لم يرد فيه أي ذكر للأزمة التي أحاطت ببنك مصر أو في الحقيقة المؤامرة التي دبرت لطلعت حرب لتصفية دوره أو دور الرأسمالية الوطنية النامية إذا توخينا مزيدًا من الدقة.

إن واحدًا من الذين كانوا في طليعة ثورة ١٩١٩ مثل محمد علي علوبة، يرى أن ثمار هذه الثورة قد أينعت في أمرين: تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ "وما قام به طلعت حرب من إنشاء بنك مصر وفروعه اعتمادًا على يقظة الأمة."

وهذا العام الذي صور على أنه أزمة البنك التجاري كان هو نفسه عام ذبح بنك مصر وتجربته الرائدة أو ذبح الرأسمال الوطني على مذبح رأس المال الأجنبي، رغم أن رقم الودائع لديه كان قد ارتفع من ٢٠١ ألف جنيه عام تأسيسه (١٩٢٠) حيث وصل إلى ٧,٥ ملايين جنيه (١٩٢٩) ثم إلى ١٧,٢ مليون جنيه في العام السابق (١٩٣٨).

لقد ربطت الرأسمالية المصرية الوليدة في أوج اندفاع تيار الثورة الوطنية بين إنشاء بنك مصري خالص وبين الاستقلال الحقيقي خاصة وأن ٩٠٪ من إجمالي رؤوس الأموال التي كانت مستثمرة في شركات كانت من نصيب رأس المال الأجنبي.

أي أن الاقتصاد الوطني كان واقعًا وبشكل كامل تحت سيطرة أجنبية.

وإذا كانت البدايات الجنينية لتكوين الرأسمالية المصرية قد تمت في عهد محمد علي فإن محاولة هذه الرأسمالية للنمو والانطلاق قد ولدت على يد طلعت حرب وتجربته في اتجاه الاستثمار الصناعي الحقيقي.

ولقد كان التلازم واضحًا بين الاندفاعة الوطنية والمناخ الوطني العام الذي أشاعته في المجتمع وبين هذا التطور في اتجاه النمو الرأسمالي المصري بآفاقه الوطنية الواضحة، أو كما قال طلعت حرب بنفسه: "إن استمرار تطفل الأمة على موائد غيرها يعرض كرامتها للتجريح...".

ولذلك كان طبيعيًا أن تحصل هذه الرأسمالية على حماية جمركية لمنتجاتها الصناعية بل إنها أجبرت الحكومات المتعاقبة على الإعلان عن تفضيل المنتج المصري على الأجنبي مع ملاحظة أن بعض البنوك أخذ شكل شركات مساهمة مصرية رغم أنها عبارة عن مؤسسة مالية أجنبية كاملة ينطبق ذلك - مثلاً - على البنك الأهلي المصري الذي كان يضم مجلس إدارة من البريطانيين والأجانب ومحافظا بريطانيا، بل إن جميع موظفيه - حسب دراسة نبيل عبد الحميد أحمد - من الأجانب رغم وضعه أو تصنيفه كشركة مساهمة مصرية.

لقد استدعى وزير المالية (حسين سري) طلعت حرب وأبلغه أن الحكومة مضطرة للتدخل لحل أزمة البنك حرصًا على مصالح المساهمين وأنها ترى الحل في استقالته لأن إدارته سيئة.

ورد طلعت حرب على وزير المالية قائلاً:

"... لقد كنت أعطيك بيدي هذه كخبير في شركة المحلة ستمائة جنيه كل سنة فكيف تكون اليد التي تقبل منها هذا المال يد لا تحسن الإدارة...؟!.

لكن وزير المالية أضاف أنه إذ لم يستقل فستسحب الحكومة ودائعها من البنك وأعطى له مهلة ثلاثة أيام ليبلغه بقراره وقبل مضي هذه الأيام الثلاث كان طلعت حرب قد أبلغ الوزير باستقالته "وترامى إلى الناس - كما يقول حسين هيكل - هذا النبأ ففتحوا عيونهم واسعة من الدهشة" فهو "موضع تقدير الشعب وإكباره وإجلاله أفيعامل رجل خدم بلاده أجل خدمة على هذا النحو المهين؟!".

ولم يكن طلعت حرب منتميًا إلى حزب سياسي فقد بدأ نشاطه العام بالدعوة إلى إنشاء بنك مصري بأموال مصرية ولم يكن على مستوى الرأي العام توجد ثقة في إمكانية أن ينجح مصري في ذلك، ولقد أخبر (طلعت حرب) محمد أحمد فرغلي أنه ذهب إلى الأمير عمر طوسون يطلب تشجيعه ومشورته ولكن الأمير نصحه بأن يعدل عن الفكرة وقال: "هيه البلد ناقصة بنوك."

ورغم أن أحمد فرغلي يفسر الأمر بعد تعيين حافظ عفيفي في موقع طلعت حرب بأنه خامره الشك "في أن علي ماهر كان وراء القرار يدفعه إلى ذلك إبعاد حافظ عفيفي عن منافسته في المجال السياسي" فإن إبعاد حافظ عفيفي إلى البنك كان عرضًا جانبيًا.

يبقى أن أحمد ماهر نفسه الذي تمت مطاردته في المحاكم على هذا النحو - وهو أحد المشهود لهم بنظافة اليد - حاول قبل أيام قليلة من إقالة وزارة محمد محمود أن يقدم مساعدته لطلعت حرب ولما فشل جهده المباشر أرسل إليه محمد حسين هيكل - وكان وزيرًا للدولة - فذهب إليه في منزله: "إجابة لرجاء من أحمد ماهر أحدثه في وسيلة يقترحها لدعم البنك فكبر عليه أن يسمع أن البنك في حاجة إلي دعم وأخبرني أن كل شيء يسير فيه على أقوم طريق!".

(٤)

في شـهـر يوليـو فوجئ (حـسين هيكل) بدعـوة غذاء بنادي اليخت الملكي بالأسكندرية واكتشف على الغذاء دخول السعديين الوزارة وأن المائدة للتعارف بين الوزراء الجدد.

وقد ضم من الحزب السعدي، أحمد ماهر وزيرًا للمالية، ومحمود النقراشي للداخلية ومحمود غالب للمواصلات وسابا حبشي للتجارة والصناعة.

وفسر محمد محمود لحزبه دخول السعديين بأن وجودهم خارج الوزارة سيجعلهم يناوئونها مناوأة لا يستطيع أن يتكهن أحد بنتيجتها وقد تكون هذه النتيجة إضعاف الحزبين لمصلحة الوفد.

أما أسباب اختيار أحمد ماهر للمالية والنقراشي للداخلية وهما أقوى الوزارات في حياة الأحزاب السياسية وأشدها اتصالاً بمصالح الجمهور، فإن محمد محمود فسره لحزبه بأنه "تلبية لرغبة الرجلين."

غير أن شقيقه (حفني محمود) قال إنه هو صاحب الاقتراح بذلك لأن اتصال هاتين الوزارتين بالمصالح المادية للجمهور يسرع بمن لم تتحقق منافعهم المرجوة للانصراف عن تأييد السعديين!

وهكذا كان الائتلاف!

(٥)

عندما أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا (٣٩/٩/٣) مارست انجلترا ما أمكنها من ضغوط على وزارة علي ماهر لكي تعلن بدورها الحرب على ألمانيا لكن مجلس الوزراء المصري في جلسته في اليوم نفسه، بلور اتجاهًا باتخاذ موقف محايد ولذلك سرعان ما قابل (لامبسون) علي ماهر في اليوم التالي مباشرة (٩/٤) وحذره من مغبة استمرار المجلس في اتجاهه وحثه على إعلان مصر دخول الحرب ضد ألمانيا على الفور وأخبره أنه لا وجود لحالة بين الحياد التام والحرب!

ولقد كان المناخ العام في مصر لا يبدي أي تحمس لإعلان مصر دخول الحرب باستثناء أحمد ماهر وحزبه الذي أبدى تحمسًا شديدًا لتأكيد مبدأ التحالف مع بريطانيا (وهو ما أدهش لامبسون ولم يجد له تفسيرًا في برقياته إلى لندن إلا في أن يكون أحمد ماهر طامعًا في موقع رئيس الوزراء) وحزب الوفد في البداية الذي تعاطفًا مع أن تفي مصر بالتزاماتها ثم سرعان ما أبدى تعاطفًا أشد مع فكرة حياد مصر.

كان علي ماهر قد أعلن الأحكام العرفية منذ يوم ١ ديسمبر وقطع العلاقات السياسية مع ألمانيا وقد أخبر لامبسون في محاولة التملص من اتخاذ قرار الحرب أن هناك اختلافاً في مجلس الوزراء حول القرار الذي يحتاج إعلانه إلى إجماع خاصة وأن البعض يرى أن عدد القوات البريطانية في مصر لا يلائم احتمالات هجوم إيطالي من الصحراء الغربية ستتعرض له مصر إذا أعلنت الحرب.

ويبدو أن الأمر كان مخططًا بعناية فقد طلب فاروق أن يزوره لامبسون في اليوم نفسه (١ سبتمبر) وحين حضر السفير للقائه تساءل عما إذا كانت هناك إجراءات اتخذتها لندن بشأن ما طلبته مصر من (بيتمان) بزيادة القوات البريطانية في مصر.

ولكن لامبسون أجابه بأنه لا يعرف نتيجة ذلك بالضبط مضيفًا أنه قبل مغادرته لندن أن هناك تشكيل عسكري بقوة لواء تم تخصيصه لكي ينضم على الفور إذا ما دعت الحاجة ولعل هذا ما جعل لامبسون بين تردد مجلس الوزراء المصري في اتخاذ قرار إعلان الحرب وبين حجم القوات العسكرية البريطانية في مصر. ولذلك سرعان ما كتب إلى لندن مؤكدًا أنه لا يمكن مقاومة الرأي القائل بحياد مصر في حالة الحرب إلا بتقوية الجيش البريطاني في مصر بدرجة كافية.

وحين زادت الضغوط البريطانية طلب علي ماهر دعوة البرلمان للانعقاد لكي يتخذ القرار في شأن إعلان الحرب كما يقضي بذلك الدستور ثم تعللت الحكومة بأن القرار لن يضيف جديداً إلى ما اتخذته من إجراءات رغم أن الحكومة البريطانية كانت قد أرسلت خطابًا رسميًا يطلب من مصر إعلان الحرب ويعدد المزايا التي ستعود عليها بسبب ذلك.

١٩٤٠

المذكـــــــرات

(١)

زارني أمين عثمان وأخبرني أن السفير البريطاني قلق جدًا من الحالة في مصر وأنه لا يريد أن يضغط على الملك بأن يرجع إلى الأغلبية إلا عند الضرورة القصوى فقلت له وما للسفير البريطاني والمسائل الداخلية في مصر؟ وهل انضمت مصر إلى بريطانيا وأصبحت إحدى متسعمراتها حتى يقول مثل هذا الحديث؟ فأجاب أنه يرى أن مصر مهمة جدًا لبريطانيا في الحرب ومن رأي السير مايلز أنه لو ضمن استقرار مصر لكان هذا عاملاً كبيرًا في اطمئنان انجلترا وضمان أنه لو جاء الألمان والطليان وحاولوا احتلالها فستكون الجبهة الداخلية درعًا للانجليز.

فقلت له وماذا يفيد مصر من هذا أن انجلترا تحتلها، أو أن الألمان أو أن الطليان سيحتلونها فنخرج من مصيبة ومن استعمار إلي استعمار ... لا ياأمين بلغ السفير عني إنه لو كان جادًا فيما يقول لما خضع لإرادة الملك، وتركه يتصرف حسب طيشه وهواه معتمدًا على حراب الانجليز وعلى تأييدهم له، وهل أنت متصور أن فاروق ومن قبله فؤاد كان واحدًا منهما يستطيع أن يتصرف إلا بأمر الاستعمار وبإشارة الانجليز.

إن المصيبة كلها تكمن في هذا لأنه لو كان الدستور محترمًا والحياة النيابية مصونة كما هي في البلاد المستقلة الأخرى علي الخصوص كما هي في إنجلترا لما استطاع فاروق ولا غيره أن يعبث بأصحاب الأغلبية الذين يثق بهم الشعب عن تصريف الأمور.

فقال: "إنهم يحترمون نصوص المعاهدة"، فسخرت من هذا القول وأجبت يحترمون نصوص المعاهدة متى كان هذا الاحترام في صالحهم ويعبثون بها متي رأوا غير ذلك، إني اعتقد أنه مادام جيش الاحتلال في مصر فلن تستقر البلاد، ولن يستقيم الأمر سواء كان ذلك في السلم أو في الحرب، وقل لي إن الوفد منذ أن انشأه المغفور له سعد زغلول باشا عام ١٩١٩ تولى الحكم في هذه المدة التي تزيد على عشرين عامًا كم من الوقت؟ إن مدة حكمه كلها سواء كان سعد أو كنت أنا أو كان الائتلاف لم تتم أربع سنوات أو خمسًا على الأكثر من عشرين عامًا والسبب في ذلك يرجع إلى التدخل السافر من الانجليز وشعور الملك بأنه هو وأبوه وجده مدينون للانجليز، ولو أن البلاد مستقلة حقًا لكان الأمر غير ذلك ولعرفت كيف تدير أمورها وتخطو خطوات فسيحة إلى الأمام حتى تتمشى مع البلاد الحرة المستقلة.

فقال أمين ما كنت أتصور أنك ثائر إلى هذا الحد وأنك ساخط على الانجليز كل هذا السخط مع أنهم دائمًا في دار السفارة يتحدثون بأنك صاحب الأغلبية وأنك الرجل الوحيد الذي تستطيع أن تسير الأمور، فابتسمت وأجبت: إنهم يقولون ما لا يفعلون ويظهرون ما لا يبطنون وهم يدورون حول مصالح بلادهم وتوسيع رقعة أملاكهم وأنا لا أثق بوعودهم ولا

أطمئن إليهم، وإذا كنت فاوضتهم بالأمس مرة أو مرتين فإني أعرف لفهم ودورانهم ولكني مضطر أن أجلس معهم على مائدة واحدة متى رأيت في هذا مصلحة للبلاد وأحب أن يعرف السفير ورجال الحكومة الانجليزية أن مصر الحرة المستقلة أنفع لهم من مصر المحتلة المغلوبة علي أمرها.

تلقيت رسائل وبرقيات من مختلف البلاد، وشتى اللجان الوفدية بأن رجال الإدارة يحاربونهم في السلع التموينية، ويخصون بها محاسيبهم وأقاربهم، وأنهم يقاسون تعباً كبيراً في الحصول على الأشياء الضرورية، فكتبت إليهم أطلب منهم الصبر ومداومة الكفاح والاحتمال نظراً للظروف التي تعانيها البلاد الآن.

وبينما أتلقى الشكاوى العديدة من المواطنين العاديين تتناقل الأحاديث بأن رجال السراي والذين يعملون في المزارع الملكية في أنشاص والمطاعنة وغيرها من الأملاك الملكية الواسعة يعيشون في بحبوحة، وتتكدس لديهم السلع التي لا يجدها المواطنون، وأنهم يتاجرون بها ويبيعونها بأثمان خيالية حتى أن المئات منهم أثروا ثراء فاحشاً على حساب السلع التموينية، وقد نقلوا أن مهندساً يتقاضى من وظيفته ثلاثين جنيهًا ظهرت عليه علامات الثراء الفاحش فجأة، وأنه يبحث عن قطعة أرض للبناء ليقيم عليها عمارة من المال الحرام الذي اكتسبه على حساب المحرومين من أبناء الشعب البائسين.

حدثتني زوجتي بأن شقيقها أحمد الوكيل يريد أن يتزوج وقد اختار ابنة صبحي الشوربجي التاجر المعروف لتكون عروساً له فسألت أحمد هل كان اختيارك لأن العروس راقتك أم لأن أباها تاجر ثري، فقال لأنها فتاة جميلة مثقفة وقد أعجبت بها، قلت إذا كان ذلك فعلى بركة الله ويحسن ألا تبالغوا في حفلة العرس نظراً للظروف الحاضرة.

نقل إليّ إحد الأساتذة المحامين (علي الحلواني) أن الأوساط الراقية على حد تسميتها تتحدث عن فضيحة أخلاقية كبرى بطلها الملك فاروق وعن أخرى بطلها عبود باشا.

أما فضيحة فاروق فهي أنه ذهب لزيارة دار ابن أحد أقطاب الحزب السعدي واختلى بامرأته خلوة مريبة ولما جاء الزوج وكان ضابطًا من ضباط الجيش المصري، واقتحم داره أطلق فاروق عليه الرصاص فأرداه قتيلاً ولم يستطع والد الضابط ولا أهله أن يبدو اعتراضاً أو يشيعوا الخبر.

غلى الدم في عروقي عندما سمعت هذا النبأ المؤلم ولم أزد أن قلت لا حول ولا قوة إلا بالله.

أما الفضيحة الثانية فقد قال إنها تتعلق بعبود باشا وسيدة لبنانية متزوجة من أحد كبار تجار الإسكندرية وساداتها وذلك أن الزوج تأكد له أن زوجته لها صلة غرامية برجل الاقتصاد المعروف وأن هذه العلاقة تعدت مصر والشام إلى فرنسا، وأن الزوج وكّل الأستاذ نجيب الهلالي باشا في رفع دعوى الزنى ضد عبود والزوجة وأن القضية ستعرض قريباً أمام محكمة جنح الإسكندرية.

قلت لمحدثي إذا كان ملك البلاد يقتل الأزواج ويعبث بالحرمات فهل يستغرب علي عبود باشا أو غيره أن يفعلوا ويرتكبوا ما يرتكبون.

إن الانحلال الخلقي قد سري في أوساط العائلات الراقية كما تقول ولا نملك إلا أن ندعو الله أن يبعد عنا هذه الشرور والآثام.

لما قابلني نجيب سألته عن قضية عبود وعن تفصيلاتها فقال: إن رجلاً اسمه قرداحي من أعيان حي رشدي باشا وكبار تجار الإسكندرية متزوج من سيدة لبنانية جميلة جداً وأن عبود باشا تعرف عليها في إحدى السهرات فأخذه جمالها وفتنتها فتقرب إليها ورأت فيه صيداً ثميناً - رغم غنى زوجها - فشجعته واتصلت به وقطعا شوطًا كبيرًا في الحب والغرام واقتراف الآثام. جاءني قرداحي يستشيرني في أن أرفع دعوى زنى ضد زوجته وعشيقها عبود باشا، وأنت تعلم أن قضية الزنى لها شروط فسألته عن التفصيلات فقدم إلي خطابات غرامية متبادلة بين زوجته وعبود تارة من إنجلترا وتارة من فرنسا، وأشار بأنهما تقابلا في باريس وقضيا وقتًا طويلاً هناك ونزلا في فندق واحد في حجرتين متجاورتين وأنه علم من أوثق مصادره أن عبود اشترى للزوجة هدايا بمئات الالوف من الفرنكات من أكبر محلات الأزياء الباريسية ومحلات العطور والهدايا العالمية، وقد طلبت إليه أن يوافيني بجميع ما لديه من مستندات حتى أستطيع أن أكيف الدعوى وأرى مقدار الأمل في كسبها.

وقد أتاني يومًا بوثائق مثيرة منها خطابات بخط الزوجة وخطابات بخط عبود يبثها فيها أشد لوعات الغرام والحب، ويشكو من ألم الفراق والبعد، ويذكر تفاصيل عن ليالي اللقاء والسهرات التي تمتد حتى الصباح لا يذوقان فيها النوم، ثم قدم لي فيما قدم فواتير من أكبر محلات الأزياء في باريس اشترتها مدام (فيكي) وهذا اسمها المدلل أما اسمها الحقيقي فهو فيكتوريا وأرسلت الفواتير إلى عبود باشا بالفندق ودفعها هو، كما قدم إلي صورًا لهما معًا في حالة لا تكون إلا مع زوج وزوجته، وقد رأيت في هذا ما يمكن منه جمع أدلة تثبت جريمة الزنى مع سبق الإصرار فرفعت الدعوى وستنظر عند استئناف العمل القضائي في سبتمبر المقبل.

قلت هذه قضية خطيرة جدًا ولو ثبتت ستهوى بعبود وسمعته إلى الحضيض وإني سأكون آسف جدًا إذا أدين عبود لأنه كما تعلم ركن اقتصادي كبير، ولكن لا بأس فلو دمغه القضاء فليذهب هو وكفاءته الاقتصادية إلى الجحيم.

قال نجيب من عجب أن القاضي الذي سينظر القضية شاب من تلامذتي في كلية الحقوق وقد كنت فخورًا به بذكائه وأني لأخشى عليه من إغراء عبود وبذله وسخائه في مثل هذا الموقف.

سألته ومن سيترافع عن الزوجة وعن عبود، أجاب الأستاذ مرقص فهمي، قلت له احذر ألاعيبه فهو مزور ومضلل كبير، قال لا تخف أنا أعرفه وأعرف أساليبه.

ثم سكت نجيب قليلاً وقال أنا أفكر في أن أضم أحد الأساتذة الشرعيين ليعد بحثًا فقهيًا تشريعيًا عن رأي أئمة الإسلام ورؤساء الكنائس وحاخامات اليهود في جريمة الزنى، فاستحسنت منه هذه الفكرة وطلبت أن يخبرني بما يتم في هذه القضية التي تعتبر خطيرة من ناحية موضوعها والمتهمين فيها.

شكا إليّ رئيس تحرير المصري أن الرقابة تضايقه مضايقة شديدة وأن كل خبر ينشره يشطبه الرقيب ويصمم على أن تخرج الصحيفة ممتلئة، وليس فيها مكان خال بشرط أن يوافق على ما ينشر فيها ومن هنا كانت مهمة المحررين صعبة جدًا، لأنهم لا يجدون مواد يملأون بها الفراغ.

فقلت له حاول قدر المستطاع أن تخرج الصحيفة وإذا لم تجد من المواد السياسية ما تملؤها به فاعمد إلى ذكر قصص أدبية أو فوائد طبية أو ما شاكل ذلك، فوافق وقال سأجرب.

صدرت صحيفة المصري وفي أظهر مكان فيها كتب مقال بين إطار عنوانه فوائد النوم، فقرأته وضحكت كثيرًا من الحيلة التي لجأ إليها رئيس التحرير لملء الصحيفة وإخراجها في موعدها.

زارني مكرم، وسألته عن حاله في الغارات فأجاب أنه متضايق لأن مكتب المحاماة الذي انتقل إليه ليس فيه وسائل راحة ولكنه خير ألف مرة من الغارات وصفارات الإنذار، وقال كيف تحتمل صفارات الإنذار وتنزل إلى المخبأ في هذا البرد الشديد؟ فقلت له: أن الله هو المعين ولولا أن الظروف دقيقة لفكرنا في الهجرة من القاهرة، ولكن الغارات لا تزال قليلة بالنسبة لما يجري في الإسكندرية أو غيرها من المدن الساحلية.

ثم عرج في الحديث على محمد التابعي وقال إنه يعجب من عدم ثقتك فيه مع أنه نشأ وفديًا ولا يزال علي مبدئه، فقلت له إنه مذبذب ويلعب بالنار، ويكتب بوجهين، وأنت تعلم أني لا أحب هذا النوع من الناس فإما معنا وإما علينا أما أن يخرج صحيفته (آخر ساعة) وفدية ليروجها لدى القراء مستغلاً اسم الوفد، ثم ينشر فيها أخبارًا يطعن فيها الوفد في الخفاء، فهذا ما لا أقبله.

فقال إنه زاره وطلب إليه أن أتوسط لتقابله ليعتذر لك إن كان قد فرط منه شيء أو بدأ يخالف مبدأه، فأجبته إني لن استقبله، فلما ألح قلت له لنرجئ هذه المسألة لفرصة أخرى لأني غير مستريح لاستقباله ولا لكتاباته التي يكتبها كل أسبوع.

اتصل بي رئيس تحرير المصري تليفونيًا، وقال لي إن الرقيب جاءه بأوامر جديدة هي أنه ممنوع كتابة مقالات أدبية أو صحية أو اجتماعية في صحيفة سياسية، وأنه لابد أن تكون كلها سياسية، وقد دارت بينهما مناقشة حادة أصر فيها الرقيب على رأيه، وأصر رئيس التحرير على رأيه وقال من أين أتى بالمواد السياسية لأملأ بها اثنتي عشرة صفحة مادامت المقالات التي نكتبها تمنع والتعليقات التي نعلقها تحذف، فكلفته بأن يتصل بالمدير

العام للرقابة ويتفاهم معه عسى أن يجد لهذه المسألة مخرجًا.

زارني حمدي سيف النصر بك وقال لي إن الشيخ المراغي كان في زيارته، وأنه علم منه أن الأزهر هائج وثائر ضد الانجليز وأنه ينوي القيام بمظاهرة لتأييد المحور فكلفته بأن ينصح الشيخ ألا يعمل هذا العبث لأن هذا ليس في مصلحة البلد ولا في مصلحة الأزهر الذي ينظر إليه العالم الإسلامي على أنه كتيبة العلم ومنارة المسلمين وقلت له أما كفى الشيخ المراغي أنه أصبح بوقًا للملك يسير وراءه في كل مكان، ويصعد إلى المنابر بعد خطبة الجمعة ليسبح بحمد فاروق، ويقدسه حتى أصبحت سمعة شيخ الإسلام وعميد العلماء لا تسر أحدًا، ولقد كان معلومًا أن المراغي صنيعة من صنائع الانجليز، وأنهم هم الذين أرغموا الملك فؤاد على تعيينه شيخًا للأزهر عام ١٩٢٨ بعد أن طلبت من الملك أكثر من مرة تعيينه، ورفض ثم جاء المندوب السامي جورج لويد فوافق في الحال على تعيينه فما الذي غير الشيخ؟ لعله رأي أن يسير في ركاب فاروق حتى يضمن بقاءه في المنصب أو رأى من الانجليز تغيرًا عليه ... سبحان مغير الأحوال.

دار همس في الأوساط التي يسمونها الراقية بأن الملكة فريدة بدأت تتذمر وتشكو من سوء معاملة الملك لها، وأنه لا يدخل عليها كل ليلة إلا قبيل الفجر بعد أن يكون أشبع رغبته في العبث والمجون والجري وراء النساء، ولعب الميسر، وأنها شكت لأبويها فطلبا إليها التذرع بالصبر حتى يتجنبوا فضيحة ليست مناسبة في هذه الظروف.

كنت قد شكلت لجنة من أعضاء الوفد لتولى أمور الصحافة الوفدية والإشراف عليها، وكانت هذه اللجنة قد رأت في العام الماضي أن تغلق جريدة الوفد التي تصدر مساء لأنها تكلف الوفد خسائر باهظة ووافقت على هذا الاقتراح وأوقفنا الجريدة واكتفينا بجريدة المصري الصباحية وما تنشره الجرائد المستقلة الأخرى خصوصًا وأن الرقابة تضايق الصحافة الوفدية مضايقة شديدة ولكن أعضاء اللجنة حضروا إليّ وطلبوا أن نعيد إصدار جريدة الوفد ولو تحت اسم آخر خصوصًا وأن مشكلة رياسة التحرير في عهد الرقابة ليست عويصة، فعارضت هذه الفكرة في مبدأ الأمر لكنهم اقترحوا أن يعهدوا إلى أحد أعضاء الهيئة الوفدية في إصدارها على حسابه الخاص وأن نوافق على أن تكون لسان حال الوفد.

فقبلت هذا الاقتراح، وقال صبري أبو علم إن حامد طلبة صقر أحد أعضاء الهيئة رجل موسر وقد عرض علينا أن يتولى الانفاق على الصحيفة بشرط أن يحررها صحفيون وفديون فوافقت على أن يرسلوا إليّ حامد طلبة لأتفاهم معه على الخطوط الرئيسية وأترك للجنة التفصيلات.

حضر حامد طلبة صقر، وتحدثت معه طويلاً عن مدى استعداده لإصدار الجريدة الوفدية فرأيته أعد العدة ورصد مبلغًا كبيرًا من المال يكفي للصرف عليها وعلى طبعها وتحريرها وأنه عاين دارًا في المنيرة تصلح أن تكون إدارة لها واتفق مبدئيًا مع مالكها

وينتظر موافقتي على ذلك، فوافقته وقلت على بركة الله واحذر أن يعمل معك بعض الصحفيين المناوئين أو المذبذبين.

وطلبت إليه أن يتولى إبراهيم فرج (بصفته محاميًا وله خبرة في الشئون الصحفية) كتابة عقود المحررين وأن تكون الأولوية لمحرري صحيفة الجهاد التي أغلقت ولجريدة الوفد المصري التي أوقفت فوافق على هذه الاقتراحات كلها.

كانت أول عقبة ظهرت في إصدار الصحيفة الجديدة هي أن شائعة سرت في الأوساط الصحفية أن مكرم يفرض محررًا مخصوصًا ليكون مدير تحرير الجريدة وأن الصحفيين الوفديين يعارضون هذا الأمر وقد جاء إليّ رياض شمس وعباس حافظ يشكوان من هذا التصرف، فأخبرتهما بأني سأتحدث في هذا الموضوع مع مكرم.

حضر مكرم، وتكلمت معه بخصوص الشكوى التي شكاها الصحفيون فقال إن الشخص الذي يقصدونه هو قاسم جودة وهو صحفي كفء، ومخلص جدًا لنا وليس في تعيينه مديرًا للتحرير ما يضير إخواننا الوفديين، فقلت له حاول أن تزيل سوء التفاهم الذي بينهم حتى تخرج الصحيفة من غير مشاكل.

جاءني إبراهيم فرج، وقال إن كامل البنا يرفض أن يعمل في الصحيفة الجديدة لأنه سمع أن مدير التحرير يقول إنه مفروض عليه فرضًا، فاستدعيت البنا وسألته فقال إن بعض المحررين جاءوا إليه وأخبروه أن قاسم جودة يقول إنه مرغم على قبوله تنفيذًا لإرادة رفعة الرئيس، وإنه لن يقبل أن يعمل في جو كهذا الجو الذي بدأ القيل والقال، فقلت لإبراهيم فرج: ألم أكن على حق حين عارضت إصدار صحيفة مسائية فقال سأتولى هذا الأمر وأعرض عليك النتيجة.

اتصل بي محمود أبو الفتح صاحب المصري، وطلب مقابلتي في أمر خاص فحددت له اليوم ولما حضر قال لي: إن رئيس تحرير المصري أخبره أن مكرم باشا عاتبه بقوة على أنه أظهر بيان يوسف الجندي الذي ألقاه في مجلس الشيوخ بمناسبة استجواب قدم لرئيس الوزارء عن شئون التموين.

فدهشت وقلت لمحمود لعل رئيس التحرير بالغ أو أخطأ في فهم كلام مكرم فقال لا إني كلمت مكرم باشا في هذا الخصوص فقال إنه لا يريد أن تبرز بيانات الأستاذ يوسف الجندي أكثر من اللازم حتى لا نتهم بأننا نستغل الظروف ونحمل على الوزارة، فقلت له هذا كلام تافه لأن مكرم يعلم اليقين أن لا منفذ لنا إلا ما يقال في البرلمان وأن المعارضة الوفدية والمستقلين من النواب والشيوخ جاهدوا جهادًا طويلاً حتى استطاعوا أن يحصلوا من رئيس الوزراء على أن ما يقال في مجلسي البرلمان لا يتعرض له الرقيب ولا يحذف منه شيئًا وهذه فرصتنا الوحيدة ليسمع صوتنا الرأي العام، ومع ذلك سأكلم مكرم في هذا الموضوع.

حضر إليّ مكرم صباح اليوم وفاتحته في مسألة يوسف الجندي فقال: إنني أخشى أن

تؤول العناوين الكبيرة التي ينشرها المصري والمقدمات التي يقدم بها البيانات إلى أننا نتحدى الحكومة فتعدل عن موافقتها وتفرض الرقابة على ما يقال في مجلس البرلمان.

فقلت له لا، لا أظن أن شيئًا من هذا سيحصل، وأن الحكومة لو فعلت هذا لأغضبت كثيرًا من المستقلين من انصارها، ولا يمكن أن يكون ما ينشره المصري خاصًا ببيانات يوسف الجندي أو عبد الحميد عبد الحق أو محمود غنام (عضوي مجلس النواب الوفديين) يحمل الوزارة على أن تفعل شيئًا مما تتصوره، فسكت مكرم ولكن رأيت على وجهه علامات الضيق مما جعلني أعجب من هذا، ودار في خاطري أنه قد يكون يغار من أن يوسف الجندي يذكر اسمه كثيرًا في الصحف أكثر منه، ولكن مكرم ليس محتاجًا إلى دعاية فهو معروف بأنه سكرتير الوفد، وأنه من أكبر المعاونين لي، وأكثر الأعضاء قربًا مني، فما هذا الصغار إذن؟

شعرت بوعكة وبرد شديد فاستدعيت الدكتورين سليمان عزمي ونجيب مقار فنصحا لي بأن ألازم الفراش بضعة أيام وأن أتجنب استقبال الوافدين لأن الحنجرة متعبة بعض الشيء وقد دعوت الدكتور أحمد حندوسة المختص بالحنجرة فوصف لي الدواء ووافق زميلاه على أن أستريح بضعة أيام.

قابلت مكرم في حجرة النوم، وقد قال لي إن محمد التابعي جاء معه وأنه قيد اسمه في سجل الزائرين مستفسرًا عن صحتي لما علم أني متوعك، وأنه يطلب أن استقبله عندما يسمح الأطباء لي باستقبال الزائرين فوعدته بالنظر في ذلك.

عادني الدكتور حندوسة، وقال لي إن الحالة تحسنت وأستطيع أن أتمشى في المنزل وأن استقبل الأخصاء من الزائرين وفي ظرف يومين أو ثلاثة أستأنف أعمالي العادية.

اطلعت على الصحف فرأيت في آخر ساعة خبرًا غريبًا مؤداه أن النحاس باشا لا يرضى بطبيب واحد، ويستدعي عديدًا من الأطباء كل يوم لأنه لا يثق في واحد، فعجبت لهذا الخبر السخيف واتصلت بمكرم، وقلت له هذا صاحبك التابعي الذي تطلب إليّ أن استقبله انظر ماذا نشر في صحيفته بخصوص مرضي فقال سأكلمه في ذلك.

اتصل بي الصحفي مصطفى أمين وقال لي يارفعة الباشا إنني أنا الذي كتبت الخبر الخاص برفعتك وأن كامل البنا هو الذي قاله لي في بار اللواء، وكان ذلك أمام علي أمين شقيقي فقلت له سأحقق الأمر وانتهت المكالمة.

طلبت كامل البنا في جريدة صوت الأمة، وقلت له إن مصطفى أمين اتصل بي وقال كذا وكذا وأنا لا أثق بهذا المخلوق ولا بمن على شاكلته، ولكني أحببت أن أقول لك الخبر فقط فأجاب: يارفعة الباشا من المصادفة أنني لم ألتق بمصطفي أمين إلا في بار اللواء، وكان بحضور قاسم جودة ومحمود التومي وفكري أباظة وها هو محمود التومي يجلس إلى جانبي ويسمع الحديث وسيكلم رفعتك وأخذ التومي السماعة وقال لي: إن كامل البنا لم يقل لمصطفى أمين إلا أن رفعة الباشا يتردد عليه أكثر من طبيب ولم يزد على هذا فأكدت له

إني لم أشك في كذب مصطفى وشقيقه وما كنت في حاجة إلى تأكيد وأشكر لك حديثك.

رأينا أن نترك العاصمة فترة من الوقت للراحة والاستجمام وخاصة أننا لم نسافر إلى الأقصر وأسوان هذا العام فقررنا أن نذهب إلى كفر عشمة بلد خال السيدة حرمي نظرًا لأنها قريبة من العاصمة وليس فيها أهداف عسكرية.

وصلنا إلى الكفر فاستقبلتنا أسرة شعير أخوال حرمي على رأسهم حسن شعير بك كبير الأسرة وباقي الأفراد كما كان في استقبالنا أهالي البلدة جميعًا وقد هتفوا طويلاً وأظهروا سرورهم وبهجتهم بقدومي وتنافسوا في دق الطبول والمزامير والأغاني والأناشيد، وشاركهم العديد من سكان القرى المجاورة، والحق لقد كان استقبالاً رائعًا تأثرت له كثيرًا وشكرت المستقبلين جزيلاً.

مرت الأيام الثلاثة علي قدومنا في استقبال المهنئين والمسلمين من مختلف البلاد.

بدأ المواطنون يشعرون بثقل الحرب ووطأتها إذ أن مواد التموين قد نقصت والأسعار قد ارتفعت ومعظم السلع قد اختفت وبدأ التجار الجشعون يستغلون هذه الظروف ليثروا على حساب أقوات الشعب المسكين والحكومة القائمة لا تحرك ساكنًا ولا تسير إلا وفق رغبة جيش الاحتلال، والملك المستهتر الذي لا يحس آلام المواطنين ولا يشاركهم ما هم فيه من شظف العيش.

قال ريد إن السفير البريطاني ضاق ذرعًا بتصرفات علي ماهر وحكومته وأنه نصح للملك بأن يغير الحكومة وأن الملك وعده بذلك، وعقب على هذا بأن السير مايلز قال إن لم يسارع الملك بتدارك الأمر وتغيير الوزارة بوزارة تكون موضع ثقتنا فسأضطر إلى التدخل السافر لحماية مصلحة الإمبراطورية وقال أمين إني تحدثت مع بعض موظفي الدار وقلت لهم إن من مصلحة بريطانيا وحلفائها - إذا كانت تريد أن تكسب مصر - أن تعود الحياة النيابية وتتولى الحكومة وزارة من الأغلبية ولكنهم قالوا إن الملك عنيد وهم سيبدأون معه بتغيير وزارة علي ماهر ثم ينتظرون ماذا يكون.

(٢)

زارني حسن صبري بك وأخبرني بأن وزارة علي ماهر لن تبقى في الحكم إلا أيامًا معدودات وأن الانجليز ضغطوا على فاروق بأن يغيرها وأعطوه مهلة فإذا لم يفعل استعملوا معه القوة.

قلت له يعني يفرضون وزارة ويتدخلون في أخص شئون البلاد الداخلية، ويعبثون بنصوص المعاهدة التي وقعوها ويقولون إنهم سيحترمون توقيعهم.

أجاب أن الحالة شاذة والحرب ضدهم عنيفة وهم يريدون أن يضمنوا الجبهة الداخلية في مصر وليس لعلي ماهر أمان في نظرهم.

ثم قال إنك ياباشا ترفض وتصر على رفض الوزارة القومية وهم يودون أن لو قبلت وتنتهي المشكلة قلت لن أقبل ولن أخضع لرأيهم ولا لرأي غيرهم، إنما مصلحة بلدي أولاً وقبل كل شيء، إنهم يعملون على إنقاذ بلادهم ويتفانون في خدمتها ويرون أن تصرفاتهم هي في مصلحتها، وأنا أرى أن تصلبي في تنفيذ الدستور وعودة الحياة النيابية هو لخدمة بلدي ولرفعة وطني ولذلك أصر عليه وأتمسك به ولن أحيد عنه قيد أنملة.

قال إن مكرم باشا قال لي إن أخوف ما يخافه أن تنتهي الحرب والوفد خارج الحكم فتضيع عليه الفرصة ومن الصعب أن تعود ... قلت له ليقل مكرم ما يشاء فله رأيه أما أنا فمصمم على رأيي ومن لم يوافق عليه فالحكم بيننا هو الوفد وأعضاء هيئته ورجاله ولكنني لا أعتقد أن مكرم يشذ على الأغلبية أو يخالف رأيها.

قال فإذا فشل السفير البريطاني في أن يعيد الأمور إلى مجراها الآن فهل لديك مانع في أن يؤلف الوزارة رجل مستقل محايد مأمون الجانب من الانجليز ليحاول حل الموقف.

أجبته أنا لا يهمني أن يؤلف الوزارة زيد أو عبيد فإن الوزارة والحكم لم يكونا في يوم من الأيام هدف الوفد الرئيسي ولكن الدستور والحياة النيابية الصحيحة والرجوع إلى الأمة واستقلال البلاد استقلالاً صحيحًا .... هذه الأشياء هي الهدف وهي المقصود من الجهاد والكفاح.

فهمت من هذا الحوار أن حسن صبري ربما يكون المرشح ليخلف علي ماهر وأن الانجليز قد يضغطون على فاروق ليعهد إليه بتأليف الوزارة، ولكني لم أصارحه بهذا بل تركت المسائل للظروف.

قابلني مكرم في النادي السعدي فحدثته بما دار بيني وبين حسن صبري، ولمته على ما قاله بشأن الوفد، والحكم فقال إنه لم يفهم مقصدي وأنا لا يمكن أن أخرج عليك بحال من الأحوال. ثم قال إن حسن صبري هو المرشح المقبل للوزارة، وقد علمت أن الملك يعارض فيه معارضة شديدة ويريد أن يأتي بأحد أصهاره أو محسوبية إذا أرغم على إخراج علي ماهر، لكن الانجليز متشددون ومصرون على أن يكون حسن صبري هو رئيس الوزارة المقبل ولو أدى ذلك إلى فرضه بالقوة على فاروق.

تتبع البوليس السياسي المطربة السورية عشيقة قائد القوات البريطانية (ريتشي) وأراد أن يقبض عليها لكن الأوامر صدرت له أن يدعها مطلقة السراح حتى نهاية المدي وأن يحصي حركاتها وسهراتها ويراقبها مراقبة دقيقة لأن لديها أسرارًا كثيرة ويخشى أن تكون قد إنتهزت فرصة لقائها بالقائد الإنجليزي في مخدعه واستولت على بعض الوثائق الهامة وأرسلتها إلى الأعداء، وبذلك تنكشف خطط الدفاع التي وضعها القادة البريطانيون.

وفد من أهالي شبين الكوم عاصمة المديرية على رأسه علوي الجزار بك (وقد كان عضو الوفد ولكنه خرج مع الذين خرجوا في عام ١٩٣٢ غير أنه ظل على ولائه للوفد ورئيسه نظرًا لصلة النسب التي تربطه بي ذلك لأن خليل الجزار ابن أخيه متزوج من شقيقة حرمي).

وقد رددت عليهم شاكرًا لهم تجشمهم مشقة السفر والحضور لتهنئتي بالإقامة بينهم
وحييت فيهم وطنيتهم المتدفقة وشعورهم الفياض، وتحدثت عن الحرب وأضرارها وآثارها،
وما تحدثه في الأمم من خراب ودمار وأشرت إلى أننا برغم ما بيننا وبين الانجليز من
معاهدة صداقة وتحالف أعلن باسم الوفد أن هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل، وأننا
نقف فيها على الحياد ولا نناصر فريقًا على فريق وأننا نعمل جهدنا للمحافظة على بلادنا
من أخطار الحرب وويلاتها، ونرجو الله أن يوفقنا لتتجنب البلاد مآسي الحرب ومصائبها،
وكررت شكري للحاضرين وحملتهم تحية طيبة لمواطنيهم الذين لم يستطيعوا أن يشاركوهم
الحضور إلينا.

قضينا بضعة أيام في هدوء وراحة وطمأنينة وكان مكرم وصبري ويوسف الجندي وبقية
أعضاء الوفد يتصلون بي من وقت لآخر ينقلون إليّ أنباء القاهرة وما يدور في المجالس،
كما كان حمدي سيف النصر يحدثنا كل يوم عن أخبار النادي السعدي وزواره وعن
الوفود التي تأتي للاستفسار عني، وقد قال لي إن كثيرًا من الوفود تستأذن في أن تسافر
إلي كفر عشمه لزيارتك وتحيتك، فطلبت أن يرجئ ذلك بضعة أيام حتى نستجم، ونستريح
وعند ذلك سأتصل به وأخبره متى أستطيع أن أقابل الوفود، وإن كنت بادىء ذي بدء لا
أحب أن أحملهم مشقة السفر ولا عناء الطريق، فقال: إنهم يلحون ويصرون ومصممون
على أن يحضروا في أقرب فرصة ممكنة فوعدتهم بأن أحدد لهم موعدًا قريبًا إن شاء الله.

زارني وفد كبير من أهالي طنطا ومدن الغربية على رأسه عبد السلام فهمي جمعة باشا
عضو الوفد، وبقية أعضاء لجنة الوفد المركزية بعاصمة الغربية، وقد قضينا وقتًا طويلاً في
الحديث عن الحرب وعن حالة التموين وشكا معظمهم من أن مواد التموين الضرورية
أصبحت وقفًا على أنصار الحكومة، ورجال السراي وأن أعدادًا كبيرة من الأهالي لا
يستطيعون أن ينالوا نصيبهم من الخبز الأسود إلا بصعوبة شديدة وأن حالة التموين على
أسوأ ما يكون.

وقال عبد السلام جمعة إن كثيرًا من المزارعين والفلاحين من أهالي البلاد يقضون أكثر
الليالي بلا طعام مما جعل الناس يضجون بالشكوى ولا من مجيب.

وقد رددت عليهم بأني طلبت منهم أن يتحملوا لأن هذه هى نتائج الحرب فإذا أضفنا
إلى ذلك أن الحكومة الحالية بعيدة عن الشعب لا تحس إحساسه ولا تشعر بشعوره، ولا
يهمها إلا أن تظل في كراسي الحكم علمنا سبب تفاقم الأزمة وقسوتها على المواطنين،
ولابد لنا من الاحتمال والصبر حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولا.

وقد قال عبد السلام: إنه كان في القاهرة أول أمس وأن الحالة فيها أسوأ من حالة
الأرياف بكثير وأن التقاتل على الخبز والوقوف صفوفًا أمام المخابز وصراخ الناس وإعلان
تذمرهم شيء لا يطاق، وعقب على هذا بأن عددًا من أنصار الحكومة ومحاسيبها ورجال

القصر الملكي يتاجرون جهارًا نهارًا في السوق السوداء، ويختزنون السلع بين بصر الحكومة وسمعها ولا يستطيع أحد أن يتعرض لهم وأن الحالة تسير من سئ إلى أسوأ ويكاد الناس يأكل بعضهم بعضاً.

حضر أمين لزيارتي ومعه بعض الأصدقاء، وقد حدثني بأن السير مايلز لامبسون قلق جدًا ومضطرب من الحالة، وأن الملك سادر في غيه وراكب رأسه ولا يبالي بشئ، وهو يقضي السهرات الحمراء كل ليلة عند الغانيات اللائي تجلبهن له الأميرة شويكار وأن الملكة نازلي والملكة فريدة يضجان بالشكوى من هذه الأمور في هذه الظروف، وهو لا يبالي بشئ وأن السفير يقول لو أن النحاس باشا يقبل وزارة قومية ألا يكون أحسن مما نحن فيه، وقلت له ياأمين قل للسفير إنني عند رأيي لا أحيد عنه وإني أحمله مسئولية هذا كله لأنه هو الذي يشجع فاروق على العبث بالدستور، واللعب بالنار، ولو أنه كان جادًا فيما يقول فإما أن يكف يده بتاتًا، ويترك الشعب يتصرف مع حكامه، وإما أن يعلن صراحة أن البلاد محكومة بأمره فيتحكم فيها كما يشاء، وما أنا بلعبة في يده ولا في يد دولته حتى يحاول من وقت لآخر أن يعرض على الوزارة القومية كلما ضاقت به السبل، ولست ممن يتلقى الأوامر منه أو من غيره مهما كانت النتائج.

فقال إن السفير يصرح بأن الحالة الداخلية لن تهدأ إلا إذا حكم الوفد، ولكنه لا يجب أن يضغط على الملك لأن الوقت لم يحن بعد، فقلت له ومتى حان الوقت في نظره فلن يجد من يستمع إليه أو يخضع لرأيه بعد أن تكون الحالة قد تفاقمت والموقف قد تدهور وأصبحت البلاد في حالة من الفوضى لا ينفع معها إصلاح، وإذا كان السفير يظن أنه بكلماته التي تقول إنه يصرح بها يظن أنه يستميلني لصف الإنجليز فهو خاطئ فأنا أحب وطني قبل كل شئ، ولا أفرط قيد أنملة في حق من حقوقه مهما تكن الظروف والأحوال.

فقال أمين ياباشا إن السفير يعرف فيك هذه الصراحة، وهو يرى أن مصلحة مصر وانجلترا أن تكون أنت على رأس الأمر فقلت له وأي مصلحة لمصر في هذا؟ إنه يبغي أن يكسب الحرب ويضمن جبهة مصر الداخلية، ومتى إنتهت الحرب لصالحه وصالح حلفائه فلن تنال مصر شيئًا من هذا، وقد جربتهم أكثر من مرة وعرفت مراوغتهم ولفهم ودورانهم، ولا تحاول أن تقنعني بحسن نياتهم فهم لم يكونوا حسني النية في يوم من الأيام وسلني أنا فأني مجرب أكثر منك ومن غيرك وهذا رأيي الذي لا أنفك عنه أبداً.

فقال إن الموقف دقيق، وقد أخذ الألمان والطليان يفكرون في غزو مصر، وتريد إنجلترا أن تؤمن ظهرها بحيث لا تطعن من الخلف وهم لا يثقون في جميع الزعماء، ويعتقدون أنهم لا يستطيعون ضمان الأمن وأن الوفد بما له من الزعامة الشعبية هو وحده الذي يمكنه أن يحكم في هذه الظروف، فأجبت وأي مصلحة لمصر في أن تكسب إنجلترا الحرب هل ستجلو جيوشها عن مصر بمجرد انتهاء الحرب؟ أو هل سيخرجون بألف حيلة وحيلة يحتجون بها ويتحكمون؟!

تمضي الأيام هنا متشابهة فلا جديد فيها ولا نستطيع أن نعرف من الأنباء إلا ما تنشره الصحف والصحف مراقبة لا يمكن أن نطمئن إلى أخبارها من ناحية الحرب، أما من ناحية الحالة الداخلية فالإجماع على أنها تسير من سيئ إلى أسوأ ومن خراب إلى دمار، وأن الشعب يقاسي من حرب لا ناقة له فيها ولا جمل أشد أنواع الأسى والألم.

دق جرس التليفون وقال المتكلم إنه رسول من القصر الملكي، ويريد أن يكلمني شخصياً فأخذت السماعة وسألت من؟ قال أنا عبد الوهاب طلعت وكيل الديوان الملكي وهو يطلب أن أحدد موعداً لاستقباله لأمر هام جداً، ورسالة يحملها من جلالة الملك فحددت له غداً وقلت له أنا في انتظارك.

حضر عبد الوهاب طلعت باشا وكيل الديوان الملكي واستقبلته مرحباً وبعد أن تناول القهوة والسؤال عن الأحوال الصحية، والحديث عن الحرب وعن تغلغل الألمان واتجاههم إلي احتلال مصر قال: إنه موفد من قبل جلالة الملك يحمل إليّ رسالة بأن أقبل تأليف وزارة قومية تشترك فيها جميع الأحزاب حتى تستطيع أن تخرج بالبلد من الأزمة التي يجتازها العالم فقلت له:

ياعبد الوهاب باشا قبل أن أجيبك على طلبك أفضل أن تحضر ورقاً وأن تدون أسئلتك وأجوبتي عليها وأن تأخذ منها صورة تحملها إلى جلالة الملك وتبقى عندي صورة أخرى، وأحضرنا الورق وسألته فقال: إن جلالة الملك أوفدني إلى رفعتك لأطلب إليك أن تقبل تأليف وزارة قومية تمثل فيها جميع الأحزاب لمواجهة الظروف الراهنة.

فقلت له: أولاً شكراً لجلالة الملك على إيفادك لي، وعلى تكليفه إياي بتأليف وزارة قومية يشترك فيها جميع الأحزاب، ولكني أرجو أن تبلغ جلالته اعتذاري عن قبول تأليف هذا العرض للأسباب الآتية:

أ - أنني جربت الائتلاف من قبل في عهد المغفور له الملك فؤاد ففشل، وقد انتهز الوزراء الذين كانوا مشتركين في الوزارة من الأحرار الدستوريين، وهم محمد محمود باشا وأحمد خشبة باشا وإبراهيم كريم باشا وجعفر والي باشا، واستقالوا واحداً في إثر أخيه كل واحد منهم بحجة واهية وبعذر تافه جداً مما عطل أداة الحكم، وجعل الملك يقيل الوزارة لأول مرة في تاريخ الحياة الدستورية بحجة تصدع الائتلاف وتبين أن اللعبة كانت مبيتة وأن محمد محمود باشا كان متفقاً مع المندوب السامي على أن يؤلف وزارة أقلية من حزبه بعد التخلص من وزارة الائتلاف.

ب - إن التجربة أثبتت أن الانسجام ضروري، والتفاهم لابد أن يكون قائماً بين الوزراء إذ أن أعمال وزارتهم مرتبط بعضها ببعض، ويوم يشذ واحد منهم أو يختلف تضطرب الأمور وتتعطل المصالح ويقف دولاب العمل.

جـ - إن حالة البلاد الآن في هذه الظروف الدقيقة لا تحتمل خلافات داخلية ولا اصطداماً في الآراء بل يجب أن تكون الحكومة التي تتولى الأمر متجانسة تمام التجانس

حتى تستطيع أن تسير أمور الدولة وتحل المشاكل التي تعترضها.

د - إني لا أقبل تأليف وزارة غير دستورية فكيف أحكم ببرلمان ليس لي فيه إلا أقلية ضئيلة اثنا عشر في مجلس النواب وشيخ واحد في مجلس الشيوخ، فضلاً عن أن الانتخابات التي أسفرت عن المجلس الحالي يعرف كل إنسان حتى رجل الشارع أنها كانت انتخابات مزورة وأن الإدارة والحكومة التي أدارتها لعبت دورًا خطيرًا في تزييف إرادة الأمة والعبث بالدستور.

هـ - إذا كان العرض الذي تعرضونه جديًا وليس المقصود به الخروج من أزمة أو ورطة فأمامكم الحل السليم وهو أن يحل مجلس النواب الحالي وتجري انتخابات حرة على يد وزارة محايدة وما تسفر عنه الانتخابات من نتائج يخضع لها الجميع وأنا أول من يؤيد صاحب الأغلبية في البرلمان.

عبد الوهاب طلعت: لكن يارفعة الباشا الظروف الحالية لا تسمح بإجراء انتخابات فإن رفعتك تعلم أن الحرب على أشدها ولا تتحمل البلاد معركة انتخابية في هذه الأيام.

ج: لا ياباشا أنا على استعداد لأن أتفق مع الأحزاب على توزيع الدوائر وأترك لكل حزب الدوائر المتفق عليها ولا يرشح الوفد فيها أحدًا حتى يضمن النجاح بالتزكية وعندئذ فلا معركة ولا حوادث مما تتبادر إلى ذهنك، وقد سبق لعلي ماهر باشا أن أجرى الانتخابات هادئة لم يجر فيها أحداث ولا وقعت اصطدامات، وأحب أن أقول لك إذا خلصت النيات وصفت القلوب فكل شيئ ميسر ولكل مشكلة حل.

عبد الوهاب طلعت: إن جلالة الملك يرى أن أفضل حل للخروج من الأزمة هو الوزارة القومية وأن تكون ر فعتك رئيسها واختر ما تشاء من أعضاء الأحزاب الذين تستطيع أن تتفاهم معهم لأن الوقت لا يسمح بإجراء انتخابات ولا بإدارة المعركة.

ج: هذا رأيي النهائي لا وزارة قومية ولا حتى وزارة وفدية بحتة إلا إذا كانت وليدة انتخابات حرة ومجلس برلمان منتخب بغير تزييف ولا إكراه.

وأخذ عبد الوهاب طلعت يلح عليّ، ويلف ويدور حول الوزارة القومية ويلوح بخطورة الحالة وأن هذه هي رغبة الانجليز، مع رغبة جلالة الملك، ولكنني أصررت على رأيي وقلت له لا أحيد عن هذا الرأي، وليكن مفهومًا أنه ليس هذا رأيي وحدي ولكنه رأي الوفد بجميع أعضائه والهيئة الوفدية كلها.

وأحب أن أوجه نظركم إلى أن الحالة الخطيرة التي تتحدث عنها، ونعرفها كلنا لا تتحمل الخلاف ولا سعة فيها لمسائل شخصية لابد أن يثيرها الوزراء الذين لا تربط بعضهم ببعض رابطة، وأكرر لك أني على أتم الاستعداد لقبول رأي الأمة الذي تعبر عنه انتخابات حرة على يد وزارة محايدة أيًا كان سواء ضدي أم لمصلحتي.

واستأذنت عبد الوهاب طلعت بعد أن وقعت على صورة المحضر الذي حمله معه ووقع

هو كذلك على النسخة التي احتفظت بها لدي.

اتصل بي أمين وقال إن مستر ريد يريد أن يحضر لزيارتي فقد مضت مدة لم يرني وطلبت إليه ألا يتجشم مصاعب الطريق، فأجاب أنه يرى أن زيارتي واجب عليه كان يجب أن يؤديه من زمن طويل لولا أن ظروفه وإقامته في ريف بعيد عن الإسكندرية من جراء الغارات مما أخره طيلة هذه المدة لولا ذلك لحضر من زمن بعيد، ولما أصر حددت له غداً ٣ يونيو في الصباح.

حضر مستر ريد ومعه أمين وفوجئت بأن معهما فارس نمر باشا ذلك الرجل الطاعن في السن الضعيف الحركة فتأثرت جداً ورحبت بهم وعاتبت فارس باشا لماذا حضر وهو متعب، فأجاب بأن واجب الاطمئنان والشوق دعاه إلى أن يصحب مستر ريد، وأمين وانتهزها فرصة مواتية.

وبدأ الحديث في الشئون العامة ولكن فارس باشا نقله إلى الموقف الحاضر، والأزمة التي تشيد في البلاد يوماً بعد يوم ثم عقب على هذا بأن قال ياباشا أنت قضيت معظم حياتك تضحي من أجل مصر، ومصلحة مصر فلماذا لا تقدم تضحية جديدة في هذه الظروف الحرجة وتتحمل المسئولية حتى تنقذ البلد من المصائب التي تحيط به من كل جانب.

فقلت يافارس باشا إن كان ما تقوله من تلقاء نفسك أو موعزاً إليك به أو مكلفاً بتبليغه فسيان عندي ولكن أحب أن أقول لك لو كنت أعلم أن في تحمل المسئولية في هذه الظروف وتولي رياسة الوزارة القومية كما يشتم من كلامك، لو كنت أعلم في هذا مصلحة البلد لما ترددت في قبوله مهما تحملت في سبيله ولكني أعلم علم اليقين أن الوزارة القومية التي يلوحون بها كلما ضاقت أمامهم السبل ستعود بالأمة إلى الوراء لأنها ستقضي الوقت في الخلافات الشخصية ومهاترات ومناقشات بيزنطية لا فائدة منها، وأسأل مجرباً ولا تسأل طبيباً كما يقول المثل العامي، وقد جربت وقاسيت ولست مستعداً خاصة في هذه الظروف أن أحمل البلد ما لا تطيق وحسبها ما هي فيه من مآس ومصائب.

وتكلم ريد وقال أنا ما كنت أحب أن أعلق على هذا الحديث ولكني أنا معك ياباشا في هذه المرة لأن التيارات الخفية التي تجري في البلد لا تساعد على إجراء أي إصلاح ولا تشجع على التضحية.

وعقب أمين فقال: إن السفير البريطاني يود لو تتفق الأحزاب على برنامج محدد يلتزمون به ويتعهدون بتنفيذه ويتعهدون بأن يكونوا جميعاً يداً واحدة لكف نشاط الملك وعبثه في هذه الأيام، فقلت ياأمين طالما كررت وأعدت وصرحت بأن المصائب كلها تكمن في نصائح دار السفارة التي تلف وتدور حول مصلحة بلادها وحدها، ولا يهمها بعد ذلك أي شيء وأظن أني قلت قبل هذا إن المسألة لا تحتمل إلا أحد أمرين إما أن تكف انجلترا يدها عن التدخل في شئون البلد جدياً، أو تعلن صراحة أنها هي التي تحكم مصر، وعندئذ

يكون للمواطنين رأي آخر.

أما أن تحاول دار السفارة وموظفوها من وقت إلى آخر دفن رؤوسهم في الرمال وإظهار ما لا يبطنون فهذا ما لا يمكن قبوله، وقد علمتموني صريحًا لا ألف ولا أدور ولا أنافق ولا أداجي، وقد صارحت عبد الوهاب طلعت وكيل الديوان في محضر رسمي سلمته صورة منه ليبلغها إلى من كلفوه بعرض الوزارة القومية علي الوفد ولا أزال عند رأيي وإني أقولها علنًا حتى لو كان الألمان على أبواب الإسكندرية أو مداخل القاهرة فإني لن أتنازل عن رأيي وسأعرف كيف أكلمهم بإسم الشعب الذي وكلني ووثق بي لا بإسم حكومة يأتي بها الاحتلال أو ملك لا يملك من أمره إلا المظاهر والعبث والمجون.

وبدا الغضب على وجهي فقال ريد: لك حق ياباشا وقال فارس نمر ما كنت أظن أن هذا الحديث سيثير شجونك ويهيج أعصابك، فقلت لا شجون ولا أعصاب ولكنها حقائق لا تحتمل الجدل ولا يختلف فيها اثنان.

وأنهينا حديث السياسة ومآسيها، وأخذنا نتكلم في حالة البلد الداخلية وما تلقاه من شظف العيش ثم استأذنوا في الانصراف فودعتهم شاكرًا لهم زيارتهم وتحيتهم.

اتصل بي في الأيام الماضية على التوالي سيد بهنس بك ومحمود لطيف بك وحسن يس وطلبوا مني أن أحدد موعدًا لاستقبال وفدين كبيرين من الفيوم وبني سويف، فقلت لهم إن المسافة شاسعة والطريق بعيد ولا داعي لتكلفهم هذه المشقة، فأجابوا إنهم مصممون، وأن معظم المواطنين لم يتعودوا على أن تطول مدة ابتعادهم عن لقائي وهم مصممون على أن يحضروا.

لم يكد يقرب وقت الضحى حتى سمعت ضجة قوية وهتافًا عاليًا فنظرت فإذا بأكثر من مائة سيارة ممتلئة بالركاب تهتف بحياة الوفد ورئيسه وتعلن عن فرحتها وشوقها للقائي واستقبلتهم في ردهة المنزل التي ضاقت بهم على سعتها، ونظرت فإذا أعيان الفيوم وشيوخهم ونوابهم ولجنة الوفد والشباب الوفدي فيها وكذلك الحال من أبناء بني سويف.

وتقدم سيد بك بهنس هو وشيخ العرب عبد المولى اللحامي عضو الهيئة الوفدية فقدما لي أعضاء لجنة الوفد فسلمت عليّ واحدًا واحدًا وكذلك فعلت مع أعضاء لجنة الشباب الوفدي ورئيسها ورفعت يدي محييًا بقية وفد الفيوم الذي زاد عدده على المائة شخص.

ثم تقدم محمود لطيف وحسن يس وعبد اللطيف زعزوع أعضاء الهيئة الوفدية وعرفوني ببقية أعضاء لجنة الوفد والشباب الوفدي ببني سويف وسلمت عليهم كذلك واحدًا واحدًا وأومأت بالتحية إلى الباقين لأنهم كانوا عددًا كبيرًا.

وما أن تم التعارف والسلام حتى وقف حسن يس فألقى قصيدة شعرية كعادته كلها إخلاص ووفاء للمبدأ الوفدي ولرئيسه وأعضائه، وتكلم رئيس الشباب الوفدي عن أبناء الفيوم ثم تكلم رئيس الشباب الوفدي كذلك عن أبناء بني سويف.

والحق أنه كان مظهرًاوطنيًا رائعًا وحماسة فاقت الوصف والتقدير، وقد سررت من لقائهم كثيرًا وتكلمت فيهم كلمة تضمنت الشكر الصادق على حبهم الصادق والتقدير الرائع على إخلاصهم الرائع والإشادة بوطنيتهم وحبهم وتمسكهم بوفدهم وزعيمهم. ثم عرجت على الحالة الراهنة فحدثتهم عن الحرب وويلاتها، وعن الحكومة وتصرفاتها، وإهمالها أمر الوطن في هذه الظروف الدقيقة.

وضاعف من إعجابي بهم ما بذلوا من جهد وما قاسوا من صعاب، وما قطعوا من مسافة لكي يصلوا إليّ ويلتقوا بي، ولقد بلغ من تأثري بما شاهدته أن قلت لهم لو كنت أعلم أنكم ستكونون بهذه الكثرة وستتكلفون هذه المشقة لحضرت إليكم بنفسي حتى أوفر عليكم تعبكم وجهدكم، فتعالت هتافاتهم، وقالوا إننا نعتبر هذا وعدًا بزيارة لنا سنمسك به ونطالب بتنفيذه، فابتسمت وقلت في أول فرصة ممكنة إن شاء الله.

ثم دنا مني سيد بهنس بك وقال إنه يريدني في حديث خاص فاستأذنت الحاضرين وجلسنا في حجرة الاستقبال وحدنا فقال إنه في شم النسيم منذ أيام حضر الملك إلى بحيرة قارون ومعه بعض الغانيات من الأجانب وبولي الإيطالي ومحمد حسن من حاشيته، وقد كان استهتار الملك ومن معه من النساء ظاهرًا عيانًا بلا حياء ولا تستر وفجأة أعلن أن الملك سيغادر البحيرة بعد أن كانوا قد أعدوا له جناحًا خاصًا في الفندق ليقضي فيه الليل وعرف السبب بعد ذلك وهو أن السير مايلز لامبسون السفير البريطاني كان في طريقه إلى الفندق.

وقضى السفير ليلته في فندق البحيرة وفي صباح اليوم التالي زارني أحد رجال السفارة – وكنت أعرفه من قبل – وقال إن السفير يريد أن يراك ولولا خشية القيل والقال لزارك في منزلك، وذهبت إليه في الفندق ورحبت به كضيف في بلدنا، ثم بدأ الحديث بأن قال: أنا أعلم صلتك بالنحاس باشا وأنك عضو من أعضاء الوفد المرموقين لديه المحببين إليه، وأنا أرجو أن تبلغ الباشا في أول لقاء وليكن قريبًا أني أرجوه وألح عليه أن يقبل تأليف وزارة قومية تمثل فيها الأحزاب تمثيلاً نسبيًا ولتكن الأغلبية للوفد وليختر هو من يستريح إليه من رجال الأقليات لأن هذا من مصلحة البلدين، انجلترا ومصر فهو من ناحيتنا يؤمن الجبهة الداخلية خصوصًا وأن المعلومات والتقارير التي تصل إلينا تؤكد أن هتلر يعد جيشه لاجتياح الصحراء ودخول مصر عن طريقها، ومن ناحية مصلحة مصر فإن وجود النحاس باشا على رأس الحكومة يضمن للناس الطمأنينة ويهيء لهم وسائل العيش وييسر لهم مسائل التموين والأمن والرخاء.

وأخذ يتحدث طويلاً في هذا المعنى، فقلت له أن لا أعرف رأي النحاس باشا الآن في الموقف ولكن ما أجزم به هو أنه يرفض ويؤيده الوفد كله الوزارة القومية رفضًا باتًا لأنه جربها فلم يخلف للبلاد إلا الفوضى والاضطراب ووقوف دولاب العمل.

فقال إني بعثت إليه بأكثر من رسالة أن يقبل الوزارة القومية فرفض ولكن الموقف يزداد

سوءا والأزمة تتفاقم، ولعله يقبل هذه المرة نظرًا للظروف الحرجة التي يجتازها العالم كله وتجتازها مصر معه.

فأجبت إنني على موعد لزيارة النحاس باشا قريبًا على رأس وفد من بلادي لتحيته والتسليم عليه وسأبلغه رسالتك كما هي، فقال وليكن صوتك معنا في هذا الرأي فإنه سيخفف كثيرًا من تصرفات الملك وطيشه الذي تعرفونه جميعًا، والذي لابد أنكم شهدتموه أو سمعتم به أمس في بلدكم هذا، فقلت إن مباذل الملك لا حد لها ولا جديد فيها وهي تتكرر كل يوم وفي كل مكان، فأومأ برأسه ولم يعقب.

وانتهى سيد بهنس من حديثه، فقلت له لو أتيح لك أن تلقى السفير أو أحد رجال السفارة المسئولين فاخبرهم – أولاً – أني لا أقبل ولا أعبأ بإلحاحهم لأني لا أتلقى الأوامر منهم – وثانيًا – لأن تولي الوزارة سواء أكانت قومية أم حزبية أم مستقلة ليس من شأن الانجليز وأن نصوص المعاهدة المبرمة بيننا لا تسمح لهم بالتدخل في شئوننا الداخلية وتولي الوزارة وعدم توليها من صميم شئوننا وحدنا.

قال إن السفير يقول إن المعاهدة تنص على أن تعاون مصر انجلترا بصفتها حليفة لها إذا قامت حرب بينها وبين غيرها ونحن لا نطلب أكثر من أن يعيننا بمقتضى نص المعاهدة في قبول الحكم لنضمن سلامة الجبهة للبلاد.

قلت له وهل نفذ الانجليز نصوص المعاهدة؟! إن المعاهدة نصت على أن يخرج جيش الاحتلال من مصر مدنها وعواصمها وقراها، وأن تبقى قوة لا تتجاوز عشرة آلاف جندي شرقي قناة السويس على أن تبني لهم ثكنات في الصحراء بعيدًا عن العمار وعن أعين المواطنين حتى لا يؤذيهم منظر الجيش الأجنبي ولا يحسوا بأنهم محتلون، فهل بنيت الثكنات، وهل قوة الجيش البريطاني الموجودة في مصر الآن عشرة آلاف فقط؟! لقد انتهز الانجليز الفرصة بإقالة وزارة الوفد أواخر ١٩٣٧، وكنا قد شرعنا في بناء الثكنات في الصحراء بعيدًا عن العمار بعشرات الكيلومترات انتهزوا فرصة إقالة الوزارة وتولي وزارة صديقهم محمد محمود الحكم فأوقفوا بناء الثكنات وتركوا جيشهم يسرح ويمرح في العواصم الكبري ورأيناه يعود إلى مصر والإسكندرية والإسماعيلية والسويس بعد أن كان قد اختفى من هذه البلاد جميعًا عقب إبرام المعاهدة، فما بالهم الآن يتحدثون عن المعاهدة.

إن المعاهدة بعد أن نقضوها من ناحيتهم أصبحت غير ذات موضوع وأؤكد لك أني لو كان لي من الأمر شيء ورأيت نقضهم إياها على هذه الصورة لأعلنت إلغاءها وعدم التمسك بها، ثم بلغ صديقك السفير بأن مباذل فاروق واستهتاره مرده إلى تأييدهم إياه، ومساندتهم له وحرصهم على أن يظل على عرش مصر مادام مواليًا لهم، ولا يهمهم بعد ذلك عبثه وجنونه وفحشه وفجره.

فقال: جرى الحديث مع السير مايلز لامبسون إلى أنك لم تقبل مشورة الأمير محمد علي وتوافق على رفع سن الرشد لفاروق إلى الحادية والعشرين ميلادية وأن ذلك لو تم

لكان من الممكن أن ينضج عقله ويفهم الظروف المحيطة به ويعمل للأشياء حسابها.

فابتمست ساخرًا وقلت له: وهل الأمير محمد علي خير من ابن عمه فاروق انهم جميعًا من طينة واحدة ولو كان الأمير محمد علي وطنيًا أو يحب مصلحة مصر، أو يفكر لكان من الجائز إني كنت أقبل رفع سن الرشد ولكن كلهم من طينة واحدة ومن أصل واحد فهم سلالة قوم جلبوا الاحتلال لمصر وأثقلوها بالدين حتى أن الانجليز تمسكوا عند توقيع المعاهدة بأن يظل صندوق الدين قائمًا حتى تسدد مصر ديونها.

بلغه أني وجميع المصريين يذكرون هذه المآسي، ولا ينسونها، وأن ماضي انجلترا معنا لا يدعو إلى الثقة بها وإذا كان السفير يلح الآن في قبول الوزارة القومية فليس ذلك حبًا في مصلحة مصر، ولا رغبة في خدمة الوفد، ولكنه يرمي من وراء ذلك كله إلى خدمة بلاده في أسوأ ظروف تعانيها وأصعب حرب. قال أتسمح بأن أذهب لمقابلته أو اعتذر، قلت له يحسن أن تقابله لتعرف ماذا يريد. قال سأذهب ثم اتصل بك عقب المقابلة لأحيطك علمًا بما دار بيننا.

فوجئت بعدد كبير من لجنة السيدات الوفديات يحضرن لزيارتي ولما استقبلتهن كانت تتقدمهن حرم اسماعيل حب الرمان بك رئيسة اللجنة وسكينة الكفراوي السكرتيرة وأنيسة الرشيدي حرم حمدي الرشيدي وغيرهن وغيرهن وعاتبتهن علي الحضور من غير موعد سابق فقالت الرئيسة إننا ننوي هذه الزيارة منذ حضورك إلى هنا ثم اجتمعنا واتفق رأينا على أننا لو طلبنا موعدًا فستطلب إلينا ألا نتكلف مشقة السفر كما طلبت من عدة لجان وفدية فصحت عزيمتنا على أن نفاجئ رفعتك لأننا نعلم أن حضورنا لن يضايقك كثيرًا.

فابتمست وقلت ولا قليلاً، ولكنني أشفق عليكن من اجتياز الطرق وهي غير معدة وأنا أعرف شعوركن وميولكن، ولا يمكن أن يتطرق إلي شك على الإطلاق في وطنيتكن أو مبادئكن الوفدية، وعلى أيه حال مرحبًا بكن حللتن أهلاً ونزلتن سهلاً وشكرًا جزيلاً وثناء جميلاً على هذه الزيارة السارة، وخطبت سكينة الكفراوي فألقت كلمة حماسية استهلتها بالتحية وشرحت الغرض من الزيارة، ثم عرجت على الحالة الحاضرة وما تقاسيه البلاد من شظف العيش، وما يشعر به المواطنون من ضيق وجوع وأنحت باللائمة على الحكومة التي لا تعبأ مطالب المواطنين، ولا تهتم بحاجاتهم، ولم تظهر أي عمل يذكر حتى أن دولاب الحكومة قد وقف، والعمل أصيب بالشلل.

وكانت موفقة في كلمتها حماسية في إلقائها ووصفت غضب المواطنين مما يقاسوه، وقد رددت عليها مكررًا الشكر متفقًا معها على أن الحالة غير مستقرة وأن الحكومة يكاد لا يحس أحد بوجودها اللهم إلا عند مطاردة المواطنين، والقبض على من يعتقد الانجليز أنهم ليسوا في صفوص الحلفاء، ثم قلت إني أحس أن هذا لن يدوم طويلاً مهما كانت القوة، وكان البطش والإرهاب، وأن هذه الحالة الشاذة يجب أن تزول، وأن تحكم البلاد في الأقل القليل بحكومة تعرف كيف تدبر لقمة العيش لأبناء الوطن وكيف تحضر الأشياء الضرورية

لهم وكيف تدافع عن مصالحهم الخارجية يوم أن يشتد العبث بها أكثر مما نحن فيه الآن.

وصافحت الوفد واحدة واحدة وطلبن أن يقابلن حرمي فالتقت بهن وتركتهن يتحدثن في مختلف الشئون.

(٣)

استقالت وزارة علي ماهر وأرغم الملك على أن يعهد لحسن صبري بتأليف الوزارة فألفها، وأخذ يستعد لافتتاح البرلمان في الشهر القادم وإلقاء خطاب العرش بالنيابة عن الملك.

وقد آلف وزارته من أصدقائه المستقلين المعروفين بميولهم البريطانية، ولاحظ المعلقون السياسيون أن الملك لم ينعم على حسن صبري برتبة الرياسة طبقًا للتقاليد المرعية في مثل هذه الأحوال، بل وجه إليه خطاب تكليف بإسمه مجردًا عن لقب الرياسة، وقد أثار هذا التصرف تعليق كثير من الساسة ورجال الصحافة.

وقال بعضهم لعل الملك ينتظر أن ينعم على كبير وزرائه بالرتبة يوم افتتاح البرلمان حتى تكون مفاجأة سارة

دعوت الوفد للاجتماع لبحث الحالة الراهنة على ضوء تشكيل الوزارة الجديدة، ولكي نعد العدة للاحتفال بذكرى عيد الجهاد الوطني في ١٣ نوفمبر القادم.

(٤)

اتصل بي حسن صبري رئيس الوزارة الجديدة، وطلب مقابلتي مقابلة سرية لا يعلم بها أحد على أن تكون بعيدًا عن داري وعن الأمكنة التي تعودت أن أذهب إليها.

حددت له مساء اليوم في منزل محمد عبد الصمد وهو صديق للطرفين، وكلمت عبد الصمد أن يخلي داره من الخدم وحتى من زوجته.

وفي المساء حضر حسن صبري في سيارته الخاصة والتقينا وحدنا فبدأ في الحديث عن أن الملك كلفه بالوزارة برغم أنفه لأنه يعرف صداقته للانجليز وميوله الوفدية، وأنه قصد من هذه المقابلة أن أمنحه فرصة يحاول فيها مخلصًا أن يضع الأمور في نصابها وأن يمهد لإجراء انتخابات حرة في جو نظيف وعند ظهور هذه النتيجة سيستقيل ويترك الفرصة للأغلبية أن تحكم وهو واثق بأن الحالة حالة حرب ولا يمكن معها إجراء انتخابات لأن المعارك ستكون طاحنة والموقف لا يحتمل وإنه سيحتج بما سبق أن أجراه علي ماهر في عام ١٩٣٦ من تقصير الأمد ومحاولة الاتفاق على توزيع الدوائر توزيعًا وديًا بحيث لا تكون معركة كالتي يخشي منها على الأمن أو لا تناسب حالة الحرب.

وقال إنه لم يقبل الحكم إلا على هذا الأساس وعلى أساس أن يجنب البلاد ويلات الحرب

أجبته: إذا كانت هذه نيتك حقًا، وهذا برنامجك فلماذا لم تصرح به في جواب تأليف الوزارة قال لأن الملك لا يمكن أن يقبله، ولكني سأحتال عليه وسأحتج بالحالة الدولية وإذا احتاج الأمر سأستعين بالسفير البريطاني الذي أعتقد أنه لن يتأخر عن بذل النصح للملك لأن هذا في مصلحة بريطانيا.

وألح ألا أخبر أحدًا حتى أقرب المقربين إلي بهذه المقابلة لأن الملك لو علم بها هو أو أحد مستشاريه فسينقلب كل شيء رأسًا على عقب.

وعدته أن يظل أمر هذه المقابلة سرًا بيننا وأني سأمنحه الفرصة على ألا تطول وسأطلب إلى الصحف الوفدية ألا تهاجم الوزارة انتظارًا لما تأتي به من أعمال.

يظهر آن نبأ مقابلة حسن صبري معي علم بها علي ماهر وكان إبراهيم عبد الوهاب أحد محاسيب علي ماهر أسر إلى صديق له بأن الباشا (يقصد علي ماهر) صرح في أحد مجالسه بأن حسن صبري يلعب علي الحبل ويريد أن يكون صديقًا للجميع ولمح بأنه اتصل بالنحاس باشا وطلب تأييده وأن المقابلة كانت سرية جدًا لكن مصادره القوية أخبرته بها بعد وقوعها.

ولم أدهش لهذا الخبر فإن من المحتمل أن تكون مخابرات السراي الخاصة تتتبع خطوات رئيس الوزارة دون أن يعلم بها، وللسراي في هذا المضمار باع طويل لا من هذه الأيام بل من أيام حكم فؤاد منذ كان حسن نشأت يتصل بالمديرين ورجال الإدارة مباشرة ويصدر لهم الأوامر بإسم الملك، وكان تمسك سعد بإبعاد نشأت عن القصر في عام ١٩٢٤ أيام وزارة الشعب سببه المباشر هو هذه التصرفات، ولا عجب أن يعيد التاريخ نفسه فرجال القصر لم يتغيروا وهم كما هم منذ كان فؤاد ملكًا.

أخبرني الحسيني زعلوك بأن خبر مقابلة حسن صبري نقل إلى علي ماهر عن طريق أحد جواسيسه وهو ضابط بوليس اسمه (عثمان خليل) اختاره رئيسًا لحرس رئيس الوزارة طيلة توليه الرياسة، وقد طلب إعادته إلى وظيفته في البوليس بمجرد استقالة علي ماهر وتعيين حسن صبري رئيسًا للوزارة.

قالت مصادر القصر الملكي إن الملك حين علم بنبأ اجتماعي بحسن صبري ثار وغضب وأرغى وأزيد وهدد وتوعد، وقال إن حسن صبري يتآمر مع النحاس عليّ وأنا لن أخضع لهذا أبدًا حتى ولو أدى إلي كذا وكذا، والواقع أن هذا كلام فارغ وأن جلالته أجبن من أن يقف في وجه أي عاصفة، وليطمئن هو وأنصاره فإننا لا نسعى إلى أحد ولا نستجدي أحدًا وأن الذين يقولون أن بأيديهم مقاليد الأمور ومفاتيح الأشياء هم الذين يسعون إلينا ويطلبون العون منا ونحن في موقفنا لا نتغير ولا نتبدل.

نقل إليّ نجيب الهلالي أنه علم من صديق له من كبار موظفي القصر سماه لي عبد

اللطيف ... أن في السراي تيارين متناقضين، تياراً يؤيد علي ماهر وعلى رأسه عبد الوهاب طلعت وآخر يؤيد حسنين ويؤيده عدد كبير من موظفي السراي، وأن سبب الخلاف الحاد بين (القطبين الكبيرين) مع الأسف نسائي لأنهما يتنافسان على التقرب إلى الملكة نازلي وهي تميل إلى ناحية حسنين أكثر وتقول عن علي ماهر إنه ثعلب لا يؤمن جانبه، وأكد صديق نجيب له أن الملكة تود لو أن ابنها تعقل وترك معاداة الوفد وخصومة رئيسه بالذات لأنها تعلم أن النحاس رجل صريح ولا ينزل إلى الأساليب اللولبية التي يلجأ إليها علي ماهر وبطانته.

لا يزال المقربون من القصر يؤكدون أن الملك لن ينعم على حسن صبري برتبة الرياسة وأن أصدقاء صبري من البريطانيين ينعتون هذا التصرف بأنه تصرف أحمق لكنهم لا يريدون أن يجعلوا من هذه المسألة الشكلية أزمة بينهم وبين الملك ويحاولون معالجة الأمر بالحسنى ويتوقعون أن حسن صبري حين يذهب إلى القصر ليكون في صحبة الملك يوم افتتاح البرلمان سيفاجئه بالرتبة وقت استقباله.

أخذ البوليس الانجليزي في البحث عن رعايا الألمان والطليان في مصر والقبض عليهم وترحيلهم إلى معسكر فايد ليأمن خطرهم، وقد قبض على جميع الموظفين الأجانب في المحاكم المختلطة والموظفين الأجانب من الطليان والألمان والذين يشتبه في أنهم يتصلون بهم ورحلوا جميعًا إلى معسكر فايد الانجليزي.

زارني حفني باشا الطرزي وحدثني أنه اجتمع ببعض رجال السراي وحاشية الملك وقد صرحوا له في مجالسه الخاصة بأنه مادام على عرش مصر فلن يتولى النحاس رياسة الحكومة أبداً، ولما سألته عن المصدر الذي قال له هذا أجاب أنه إلياس أندراوس وحلمي حسين وكلاهما من حاشية الملك وجلسائه فابتسمت وقلت له إن فاروق يتحدى القدر - ويقدرون فتضحك الأقدار - ومن أداره أنني أرغب في الحكم أو أطلب إليه، إذا أثير هذا الحديث مرة أخرى فبلغ حاشية هذا الغلام الصغير أنني لا أطلب الحكم ولا مصلحة لي فيه ولولا أنه الطريق إلى مفاوضة الإنجليز لاستخلاص حقوق الوطن ما فكرت فيه ولا قبلته فيما مضى.

شعرت بألم في الأمعاء وكنا في رمضان فاتصلت بالشيخ محمد البنا أسأله هل الحقنة الشراجية تفطر فأجابني بنعم فقلت له إني أشعر بألم شديد قال إن الدين يبيح لك الفطر مادمت مريضاً على أن تعيد إذا شفيت فعملت بنصيحته وطلبت الطبيب فأعطاني الدواء وقال إنه مغص طارئ وسرعان ما يزول.

(٥)

تتحدث المجالس السياسية بأن علي ماهر هو وفريق من الأصدقاء، وأنصاره يعقدون اجتماعًا للدعاية للمحور، ويحبذون حضور هتلر وموسوليني لاحتلال مصر بدلاً من الأنجليز، وقد قلت للصديق الذي حدثني أما كان يجدر بعلي ماهر لو كان وطنيًا حقًا ألا

يؤيد احتلال ليحل محل إحتلال بل يعلن أنه ضد إنجلترا لأنها تحكم مصر، ويطلب أن يكون أبناء البلاد هم الذين يتولون أمرها، فضحك صاحبي وقال: ياباشا إن علي ماهر زميلك منذ الدراسة وأنت تعرف أنه رجل انتهازي وأن تفكيره السريع يخيل إليه أن هتلر ومحوره سينتصرون على الحلفاء فهو يريد أن يرسم لمستقبله.

تجددت الشائعات بأن مغنية أصلها من دروز سوريا متوطنة مصر لها صلة غير مشروعة بقائد القوات البريطانية في مصر وأنها كانت تبيت عنده، واستطاعت أن تحصل على أسرار خطيرة بلغتها للألمان، وأن المخابرات البريطانية تتبعت هذه المغنية وترقبها بدقة وحذر.

يظهر أن المخابرات البريطانية قد وضعت يدها على وثائق خطيرة كان تحت يد المغنية صديقة ريتشي قائد القوات البريطانية كان لها خطوراتها وقد تناقلت الأنباء أن الحكومة البريطانية نقلت قائدها من مصر وعينت بدله قائداً آخر.

طلب توفيق اليازجي الصحفي المتجول والمحرر في الأهرام أن يزورني فحددت له اليوم وقد نقل إليّ أنه علم من أكثر من مصدر أن هتلر وموسوليني كانا في أول الحرب مختلفين على البدء باحتلال مصر، وكان من رأي موسوليني أن مصر إذا وقعت في أيدي المحور فقد كسبت الحرب ولكن هتلر أصر على أن يغزو أوروبا ويحتل باريس وما حولها، وبعد أن طابت له تلك البلاد أخذ يفكر جيداً في أن ينفذ اقتراح موسوليني في التوجه إلى مصر، وأنه عين قائداً لقوات المحور اسمه روميل ليغزو مصر عن طريق الصحراء لأنه من أكفأ قواده وأعلمهم بالصحراء وطرقها.

نقلت إلينا الصحف أن الجنرال ديجول وهو أحد القادة الفرنسيين المجاهدين أعلن أنه سيظل يجاهد الاحتلال ويقض مضاجعه حتى يجلو عن فرنسا ويتركها حرة مستقلة كما كانت منذ قيام الثورة الفرنسية.

وقد اشتد إعجابي بهذا القائد الشجاع الذي لم يرهب قوة هتلر، ولم تخفه جحافل الألمان كذلك قرأت في الصحف الأجنبية أن جيش الاحتلال الألماني أراد أن يستجلب رضا المواطنين فنقل جثمان النسر الصغير ابن القائد نابليون بونابرت إلى باريس ووضع تابوته في قبر أبيه وسمح للناس أن يشاهدوه ولكنهم لم يتأثروا بهذا الحادث ولم يعلقوا عليه أي أهمية، فما قيمة نقل جثمان إلى جانب احتلال دولة بأسرها؟!

كانت الخطب التي يخطبها تشرشل رئيس الوزارة الانجليزية يقوي بها عزيمة شعبه ويحثهم على الصبر والاحتمال والمقاومة، كانت تلك الخطب تعتبر قطعاً رائعة من البلاغة ولقد كنت شديد الاعجاب بأسلوبها ومعانيها، ولقد زارني بعض الصحفيين اليوم فسألتهم من الذي يترجم خطب تشرشل في المصري - ذلك لأن ترجمة الأهرام تكاد تكون ترجمة حرفية لا روح فيها ولا أساليب أدبية - فقالوا إنه عباس حافظ المحرر بجريدة المصري هو الذي يتولى ترجمتها وأنها حازت اعجاب القراء على اختلافهم وهي موضع حديث

المجالس فحملتهم تحية اعجاب إلى عباس حافظ، ولما اتصل بي رئيس تحرير المصري في المساء كررت تحيتي وإعجابي للترجمة التي تنشر في المصري ووددت لو أن في مصر رؤساء وزارات يصارحون الشعب بالحق والواقع كما يفعل رئيس الوزارة الانجليزية، ولكن أين نحن منهم؟ هم في بلد حر يحكم حكمًا ديمقراطيًا بكل معاني الديقراطية، ونحن في بلد يحكم حكمًا ديكتاتوريًا بكل ما تحمل هذه الكلمة من بغض إلى النفوس.

(٦)

حضر حفني باشا الطرزي ومعه ولداه عبد الرحمن ورفيق وبعد أن تبادلنا الأحاديث العادية عن الصحة والحالة، قال إن رفيق يريد أن يحدثك حديثًا خاصًا، فاجتمعت به في الصالون وحدنا فقال لي إن فاروق تحرش به وبعث أحد قواديه ليطلب إليّ إحدى قريباتي التي كانت تجلس معي في مقهي (مونتريه) بصحراء مصر الجديدة أن تنتقل إلى مائدته.

طلبت إليه أن يقص عليّ القصة بتفاصيلها فقال: كنت أجلس مع السيدة على مائدة في مقهى مونتريه وقمت إلى دورة المياه ولما عدت وجدت أحد الأجانب يجلس ويحادث السيدة فعجبت وسألته من انت ولماذا تجلس هنا؟ فأجاب بصفاقة عجيبة وقال أنا (بوللي) السكرتير الخاص لجلالة الملك وقد كلفني أن أدعو السيدة للجلوس على مائدة جلالته، فقلت له قم بسرعة ولولا أننا في مكان عام لأوجعتك لكمًا وضربًا.

قال لماذا؟ أليس من حق الملك أن يعرف من يريد، قلت قم مسرعًا وإلا ألقيت بك خارج المقهى فقام وبعد قليل جاء فاروق شخصيًا وأخذ يحوم حول المائدة التي نجلس عليها ثم قال بعنجهية وغطرسة اسمع ياانت، فلم التفت إليه فكررها، وجاء محمد حسن أحد أعوانه وقال ياسعادة البك إن جلالته ينادي عليك، قلت وماذا يريد مني؟ قال يريد أن يكلمك، قلت فليأت وليتكلم مباشرة.

وإذا بجلالته يأتي مبتسمًا ويقول يارفيق بك لماذا أدعوك إلى مائدتي فترفض دعوتي؟ فأجبت لم يدعني أحد قال ألم ادع السيدة الجالسة معك فكأنني دعوتك، وقلت وماذا تقصد من هذه الدعوة؟ قال للتعارف، قلت إني أعرفك أما السيدة فلا شأن لك بها، فأتى بحركة طائشة أدركت أنه يخرج مسدسه فوضعت يدي على مسدسي واستعددت له وإذا بأحد من كان حوله يمنعه ويسر إليه بكلمات انصرف على إثرها وهو يتمتم سأعرف كيف أربيك وأعلمك معاملة الملوك فنظرت إليه باحتقار، ولم أرد عليه وأخذت السيدة وانصرفت من المقهى.

ولو أن المسألة وقفت عند هذا الحد لأمكن تلافي الأمر، ولكنه أصر على مطاردتي وقد علمت أنه حرض بعض أعوانه على اغتيالي، وقد أتيت أستأذن رفعتك في أن اقتله قبل أن يقتلني وأغتاله قبل أن يغتالني.

والحقيقة اني صعقت لهذا النبأ فما كان يدور بخلدي يومًا من الأيام أن يصل الطيش

والجنون بهذا الملك الخليع أن يرتكب جريمة في مكان عام أو يفعل ما فعله في مقهى ممتلئ بالناس.

سكت طويلاً ثم قلت لرفيق أنا لا أمنعك من الدفاع عن نفسك وإحاطتها بكل ما تضمن به المحافظة على حياتك، ولكن ما لا أريده هو ألا تبدأ بالاعتداء فينتهز خصوم الوفد هذه الفرصة ويقلبون الدفاع عن النفس والشرف جريمة سياسية ويأخذون في استغلالها خاصة في الظروف التي تمر بنا الآن، ولو استطعت ألا تظهر في المجتمعات العامة التي يغشاها هذا الفتى الطائش فافعل.

وناديت حفني باشا وولده عبد الرحمن وتحدثنا في هذا الموضوع طويلاً وقال عبد الرحمن في حماسة إذا كان عند فاروق حاشية أو أعوان فعندنا أكثر منه ولا يستطيع بملكه ولا بسطوته أن يقف في وجوهنا إننا صعايدة نعرف كيف نأخذ بالثأر وكيف ننتقم من خصومنا.

فقلت له: من أجل شيخوخة أبيك هذا الرجل الفاضل، ومن أجل الظروف الحرجة التي تمر بها البلاد تريثوا في الأمر وعالجوه في رفق وهوادة وحكمة.

وودعت حفني باشا وولديه وأنا أكرر لهما النصح بضبط أعصابهم قدر المستطاع.

تلقيت برقية مطولة من الشيخ مبارك حاكم جزيرة سيشيل يسأل فيها عن ولده علي لأن أخباره انقطعت عنه، وهو قلق عليه، وقد أرسلت إليه ردًا طمأنته على صحة ولده وأننا معنيون به ومحافظون عليه ومواِلون السؤال عنه وهو بخير وكل ما في الأمر أن الرسائل تتأخر نظرًا لظروف الحرب،

اتصل بي حفني باشا الطرزي من القاهرة وقال يظهر أن الرواية لم تتم فصولها، فإن أحمد حسنين باشا كلمني تليفونيًا، وطلب إليَّ أن أقابله في مكتبه في الديوان الملكي، ولست أدري لماذا يريدني؟ فقلت له إن كان يريد محادثتك في شأن من الشئون السياسية فأنت تعرف رأي الوفد في الحالة، وإن كان يريد أن يفاتحك في أمر رفيق فتحفظ معه في الحديث.

خاطبني الطرزي باشا تليفونيًا، وقص عليَّ ما دار بينه وبين رئيس الديوان من حديث طويل دار حول تصرفات ولده رفيق والملك ثم فوجئ بأن دعي لمقابلة الملك شخصيًا وحاول أن يعتذر لأنه غير مستعد، ولكن حسنين باشا قال له إن جلالته يريد أن يراك الآن، واضطر اضطرارًا إلى الدخول إلى الملك فرحب به وابتسم في وجهه وقال له: أنا زعلان منك لأنك لا تزور القصر حتى في المناسبات الرسمية وأشد غضبًا حين عرف أن ابنك (ونطق اسمه خطأ متعمداً عدم تذكره) يجلس مع عدد من خصوم السراي المعروفين بالعداء لها وللملك شخصيًا أمثال وحيد يسري ومحمد أسعد، وأخر اسمه حمادة لا يذكر اسمه كله، وأنهم يتناولون سيرة الملك بما لا يليق ولا يصح، وأنه يستطيع أن يقضي عليهم في لحظة واحدة ولكنه فضل أن يحدثني بشأن ابني ليبتعد عنهم حتى يكون له معهم شأن أخر.

وعرج على هذا بقوله إنك رجل من كبار الأعيان، ولك مصالح عند الحكومة وعند السراي وليس من العقل ولا من الحكمة أن تترك مصالحك تضيع (وكان في صوته بعض التهديد)، فلم أجد ما أرد به عليه إلا أن قلت له في هدوء ياجلالة الملك إني لا أعرف شيئًا عن علاقة ولدي بهؤلاء الذين ذكرتهم ولكني سأبحث الأمر، واتصرف فيه بما يحقق رغبة جلالتك، فابتسم وقال هذا عشمي فيك ياحفني باشا ولقد تحقق ظني، وخرجت من القصر وأنا أعجب من هذا التصرف ولا أدري ماذا أفعل.

فأجبته أرجئ هذه المسألة حتى أحضر إلى القاهرة إن شاء الله قريبًا وسنطرح الموضوع على بساط البحث ونستمع فيه إلى رأي زملائنا أعضاءالوفد حتى نخرج بنتيجة إيجابية وحل قاطع لهذه المساخر التي أصبح لا يمكن الصبر عليها.

واستقبلت عددًا كبيرًا من كبار الأسر ومختلف الطبقات وظللنا في حديث وسمر إلى أن انتصف الليل، وكان ضمن الأحاديث التي سمعتها حديث إثنين من كبار أهالي زاوية بمب وكفر المصيلحة بأن الشكوى من سوء الحالة ليست قاصرة على الوفديين وحدهم، ولكنها عامة من جميع الأهالي ذلك لأن رجال الأمن والمشرفين على التموين قد أهملوا واجباتهم فكثرت حوادث السرقة والنهب وانشغل رجال الإدارة بمصالحهم ومصالح أسرهم.

وقد أرسلنا أكثر من شكوى إلى وزير الداخلية ورئيس الوزراء فلم نجد صدى لشكوانا ولا أثرًا لتظلمنا حتى أننا نفكر جيدًا بأن نأخذ حقنا وحق أسرنا بأيدينا مادام ليس في البلد أمن ولا نظام.

وتحدث واحد من أقرباء عبد العزيز باشا فهمي (وهو من خصوم الوفد) فقال إننا زرنا عبد العزيز باشا وشكونا إليه ما نعانيه وما يعانيه أهل البلد، ووعد بأن يتصل بالمسئولين لمخاطبتهم في الشأن وبعد أيام اتصل بنا وقال لا فائدة إن الحكومة وموظفيها سادرة في غلوائها ولا تلقي سمعًا إلى شكوى الجماهير، ولما قلنا له إننا سنستعمل القوة للوصول إلى حاجاتنا الضرورية لم يعلق بل قال افعلوا ما شئتم فالحالة قد أصبحت لا تطاق.

آلمتني هذه الأحاديث كثيرًا، وأخذت أفكر طويلاً، ولكنني خشيت أن أشجعهم على استعمال القوة فيقع لهم ضرر أو يمسهم شر وأنا بطبيعتي لا أحب أن ينال أي مواطن بأس وخصوصًا في هذه الظروف المضطربة، ولقد أظهرت لهم أسفي وألمي، ولكن لم يطاوعني ضميري أن أنصح بالتريث أو أحرض على استعمال القوة، وكنت في حيرة من أمري.

ولقد ظللت بعد عودتي من شبين الكوم وأنا أفكر في أمر هؤلاء المواطنين وأمثالهم من ألوف وملايين المصريين الذين تتفاقم أحوالهم وتسوء حياتهم، ولا يجدون من سميع ولا معين.

حمل إليّ البريد الخارجي رسالتين إحداهما من بومباي عاصمة الهند وقعها الزعيمان المسلمان الشقيقان محمد علي وشوكت علي وفيها وصف مؤلم لما يلقاه المسلمون في الهند

من طائفة الهندوس التي تمثل أغلبية البلاد، وكيف يعتدون عليهم بالقتل والطعن والجرح في وضح النهار.

وكان مما أثر في نفسي وأمضها عبارات جاءت في الرسالة "إننا لا نشكو إلا إليك أنت بصفتك زعيم أكبر بلد مسلم، فضلاً عن أنك رجل مسلم تكره التعصب وتبغض المتعصبين"، ثم يقولان إن ألوفًا مؤلفة من المسلمين ثائرون وهم يدافعون عن أنفسهم بقدر ما يستطيعون لكنهما يسألان عن رأيي "في أن تقوم حركة إسلامية معادية لهؤلاء، ولو أدى ذلك إلى استشهادنا في سبيل عقيدتنا وديننا."

وقبل أن أرد على هذه الرسالة لاحظت أنها وصلت إليّ مفتوحة وأن الرقيب الانجليزي قرأها وسمح بتسليمها إليّ فاتجه ذهني إلى أنه قد يكون وراء هذا ما وراءه من نية مبيتة ضد الأقلية الإسلامية بحركة عنف يتخذها الاستعمار تكئة ليشدد قبضته على الهند، ويضاعف من استعمال القوة ضدها بحجة أنها مضطربة ولا استقرار فيها.

وانتهيت من هذا إلى أن كتبت إلى الزعيمين المسلمين أطلب إليهما التريث والاعتصام بالصبر وأنني سأكتب للمهاتما غاندي وزميله جواهر لال نهرو أطلب إليهما أن يمنعا أنصارهما من التحرش بالمسلمين، وأن يتركوهم يمارسون طقوسهم الدينية حسب العقيدة الإسلامية حتى لا يستغل الخلاف ضد مصلحة الهند كلها ويؤخر حصولها على حريتها واستقلالها.

وفعلاً حررت رسالتين إحداهما للزعيم غاندي والثانية إلى جواهر لا نهرو بهذا المعنى وشددت فيها على استعمال نفوذهما في طائفة الهندوس حتى يكفوا عن إيذاء إخوانهم في الوطن.

كان الذي خفت أن يكون، فقد علمت أن الملك حرض بعض حاشيته وأمرهم بالاعتداء على رفيق الطرزي فأطلق عليه الرصاص وأصابه إصابة غير قاتلة، ولكن رفيق تحامل على نفسه وأطلق الرصاص على المعتدي فأرداه قتيلاً، وقد نقل رفيق إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية لاستخراج الرصاصة، ومن العجيب أن الملك كان يقف قريبًا من الحادث فلم يكد يشهد مصرع تابعه حتى أسرع بالسيارة إلى حيث لا يعلم أحد وترك القتيل في عرض الطريق.

اتصلت بحفني باشا والد رفيق فطمأنني على أن الحالة مطمئنة وأن عملية استخراج الرصاصة قد تمت بنجاح وقد نجا من الخطر بحمد الله، فحملته إليه تحياتي وتمنياتي ودعواتي إلى الله أن يأخذ بيده ويعجل بشفائه.

حضر وفد من أهالي دمياط، والبلاد التي حولها يدعونني لأقضي صيف هذا العام في مصيف رأس البر لأنه هادئ وبعيد عن ضجة الغارات ورطوبته قليلة وبحره هادئ، ولاحظت مع أبناء دمياط فريق من أبناء المنزلة وبورسعيد فسألتهم لماذا جشموا أنفسهم تلك

الصعاب وقطعوا المسافات الطويلة، فأجابوا لقد كنا حاضرين من تلقاء أنفسنا لزيارتك وتقابلنا في الطريق فاجتمعنا ونحن نضم صوتنا إلى صوت زملائنا أبناء دمياط وعزبة البرج والمطرية ونلح في أن يكون لنا نصيب لنراك هذا الصيف، ولولا أن بورسعيد عرضة للغارات المستديمة وتكاد تكون خالية من السكان لما كان قضاء هذا الصيف إلا في ربوعنا، ولكننا نريد أن تستريح من ضجة الغارات وصوت الطيارات والقنابل حتى تعود من المصيف لاستئناف رسالتك التي وكلناك لأدائها وأخذت على عاتقك القيام بها.

وتكلم علي لهيطة نائب بورسعيد السابق وحامد الألفي رئيس الشباب الوفدي ومحمد شردي وكيل الجهاد فأجادوا وأحسنوا، وقد شكرت لهم جميعًا شعورهم ووعدتهم بأن أحاول تلبية دعوتهم.

استفسرت مرة أخرى عن صحة رفيق الطرزي فأجابني شقيقه عبد الرحمن أنه لايزال طريح الفراش فسألته ألم يجر تحقيق في هذا الحادث من قبل النيابة أو البوليس، أجاب لم يفاتحنا أحد في شيء وقد علمت أن القتيل الذي أطلق الرصاص على رفيق قد دفن دون جنازة أو حتى نشر خبر نعيه في الصحف.

بدأت الحرارة تشتد ورطوبة الريف الذي تحيط به المزارع من كل جانب تزداد، وبدأت أتألم بهذه الزيارات الكثيرة، وبعد أخذ ورد ونقاش طويل بين بعض الوفود أول أمس اتفقنا على أن يختاروا فيما بينهم بلدة يكون موقعها متوسطًا بين هذه وتلك وقريبًا من كفر عشمه قدر المستطاع وأن يجتمع مندوبوهم، وممثلو الهيئة الوفدية واللجان الوفدية والشباب الوفدي والهيئات والطبقات وأن التقي بهم جميعًا لقاء عامًا استمع إلى أحاديثهم وأتحدث إليهم.

وعاد إليّ اليوم وفد مؤلف من محمود فرج ذكري والدكتور محمد محفوظ والأستاذ محمود صبري والدكتور عبد الحميد فهمي وبعض عمد وأعيان تلك البلاد وقالوا إنهم اتفقوا على أن يكون اللقاء الأسبوع المقبل في بلدة دنشواي باعتبارها أشهر بلد في تاريخ مصر بعد أن وقعت حادثة قتل وشنق عدد كبير من أهلها بحجة أنهم قتلوا بعض الجنود إبان الاحتلال، وقد وافقتهم على رأيهم ورحبت بزيارة دنشواي ولقاء أهلها، وبعض الإخوان الذين سيحضرون من البلاد المجاورة ممثلين لمواطنيهم.

اتصل بي محمود فرج ذكري تليفونيًا وقال إن الحكومة علمت بنبأ زيارة دنشواي فبعث إلينا مدير المنوفية وطلب مقابلتنا فذهبنا إليه أمس فأخبرنا أن الوزارة علمت بنبأ الاجتماع المزمع عقده في دنشواي وأنكم ستعرضون بالانجليز والظروف الحالية ليست مناسبة لمثل هذا العمل، وأنا أخبركم بأمر سعادة المدير ألا تذهبوا إلى دنشواي واختاروا لكم أي بلدة أخرى وإلا فأنا مضطر إلى منع هذا الاجتماع بالقوة إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

وقد رد عليه محمود فرج قائلاً إننا نرحب برئيسنا وضيفنا في المنوفية وما لنا والتعريض بالانجليز وغيرهم وإننا مصممون على أن نذهب إلى الاجتماع في موعده

والتعريض بالانجليز وغيرهم وإننا مصممون على أن نذهب إلى الاجتماع في موعده ولتفعل القوة بنا ما تشاء.

وخرج الوفد من عند المدير مصرًا على أن يلتقي المواطنون بي في دنشواي في الموعد الذي حددوه، ولكني رددت عليه بأن لا داعي للاحتكاك برجال السلطة في هذه الظروف وأنا لا أقبل أن تمس مواطنًا واحدًا منكم شوكة من أجل الاحتفال بي فضلاً عن أن يتعرض لأذى أو تتعرضون للاصطدام برجال البوليس، وأنا اقترح عليكم أن تتفقوا على بلدة أخرى نلتقي فيها ولتكن بلدتكم إبشيس.

فوجئت بفارس نمر ومعه اثنان يظهر على سحنتيهما أنهما أجنبيان يزورونني على غير موعد وقد استقبلتهم وقدم لي فارس نمر أحدهما على أنه الكولونيل (ريدر) أحد كبار الضباط البريطانيين في مصر والثاني على أنه مراسل جريدة التيمس.

قال ريدر إن رجال السفارة البريطانية تألموا جدًا من مهاجمتهم والحملة الشديدة التي حملتها عليهم، وأنه لحسن الحظ أن الرقابة منعت نشر أي شيء عن تلك الخطبة، وأحب أن أعلنكم أنه لا السفارة ولا رجال الحرب البريطانيون علموا شيئًا عن منع الاحتفال في دنشواي وبالتالي لم يتعرضوا له من قريب ولا من بعيد، وأن الإدارة المصرية هي التي فعلت هذا من تلقاء نفسها، وأنهم لم يعلموا بنبأ الزيارة ولا الاحتفال ولا الخطاب إلا من مراسلي الصحف المصرية والأجنبية الذين شاهدوه وقد وصفوه بأنه كان احتفالاً كبيرًا دل على تعلق المواطنين خصوصًا الفلاحين بالوفد وزعامته.

فابتسمت وقلت له ماذا تعني بكلمة الفلاحين أتريد أن تقول أن الطبقة المثقفة ليست مع الوفد، إن كنت تقصد هذا فقد أخطأت لأن البلد كلها على رأي واحد ومبدأ واحد لا فرق بين مثقف متعلم وأمي مزارع أو عامل.

فأجاب آسف أنا ما قصدت هذا المعنى ولكنهم أخبرونا أن معظم المحتفلين كانوا من الفلاحين لا أكثر ولا أقل، ثم دخل في المهمة التي جاء من أجلها فقال: إنني طلبت من الدكتور فارس نمر أن يعرفني بكم لأني كلفت أن أبلغكم أمرين أولهما أن دار السفارة وغيرها من رجال بريطانيا الرسميين في مصر لم يكونوا يعلمون شيئًا عن منع زيارتكم لدنشواي لأن تلك حادثة مضى عليها زمن طويل ومعروف أننا نحافظ على الوثائق لا نطلع عليها أحدًا إلا بعد خمس وعشرين سنة، وقد مضى أكثر من هذا الوقت ولا يهم انجلترا أن يقال عنها إنها فعلت منذ أربعين عامًا أو أكثر كذا وكذا.

والأمر الثاني وهو المهم أني كلفت بأن أبلغك أن انجلترا تراك في هذه الظروف رجل الساعة وأن سفيرها في مصر يعمل جهد المستطاع ليزيل العقبات التي تعترض طريق تحملك المسئولية الرسمية في هذه الآونة، وقد تألموا كثيرًا من هجومك العنيف عليهم وهم يخشون أنه عند الساعة الحاسمة سترفض التعاون معهم.

فقلت له في حدة: بلغ من كلفك بهذه المهمة أيا كان أنني لا أطلب حكمًا ولا أسعى

لتحمل مسئولية رسمية إنما الذي يعذبني هو مصلحة بلدي وأني أقول لك بصراحة لو رأيت مصلحة بلادي في مصادقة أعدى أعدائها وأكبر خصومها لما ترددت في مد يدي إليه.

لما أصبح الصباح اتصلت بحفني باشا الطرزي أسأله عن صحة ولده رفيق فأجاب أنه نجا من الخطر، وأن عملية استخراج الرصاصة تمت بنجاح وبعد أن قضى عدة أيام في المستشفى تحت إشراف الأطباء انتقل إلى المنزل، وهو الآن يلازم البيت ويتمشى في الردهة بعض الوقت ويعوده الطبيب يوميًا للاطمئنان عليه، فحملته تحية إليه أخبرته أني سأذهب لعيادته ورؤيته مساء اليوم إن شاء الله أو صباح الغد.

زارني في الصباح مكرم ونجيب وصبري وعدد من أعضاء الوفد فانتهزتها فرصة وتحدثنا في حادث الاعتداء على رفيق الطرزي وتحريض الملك أحد أفراد حاشيته على قتله وقد رأى الحاضرون أن ندعو الوفد للاجتماع للنظر فيما تراكم من أعمال أثناء غيابي ولنستعرض هذه المسألة ضمن ما نستعرض.

ثم صحبني مكرم وصبري إلى زيارة رفيق وقد وصلنا إلى الدار فوجدناه جالسًا على مقعد ولا تزال آثار الألم والشحوب بادية عليه وبعد أن استقر بنا المقام سألته أن يصف لنا كيف وقع حادث الاعتداء عليه فقال: كنت خارجًا مساء من أحد النوادي فإذا بشخص يخرج من الظلام وضوء يلمع من بطارية كانت مع شخص آخر يرافقه ولم يكد يبصرني حتى أطلق الرصاص أصابني في ذراعي وقبل أن أسقط على الأرض تحاملت على نفسي وأطلقت رصاصة من مسدسي عليه أصابته في مقتل لأني رأيته يحاول أن يطلق الرصاص مرة أخرى فسقط في الحال على الأرض وسمعت بين اليقظة والإغماء صوت سيارة تتحرك بسرعة فائقة ثم لم أع شيئًا بعد هذا إلى أن أفقت على صوت الطبيب في المستشفى يقول (جت سليمة) وبعد عشرة أيام زال الخطر عني وأخرجت الرصاصة من ذراعي الذي تراه ملفوفًا بالشاش، وقد علمت من بعض زواري أن الملك كان واقفًا بالقرب من الحادث ينتظر النتيجة فلما رأى أني أطلقت الرصاص على المجرم أسرع بسيارته وكان بصحبة سائقه حلمي حسين.

كما علمت أن الذي أطلق الرصاص ومات من إصابتي إياه يمت بصلة القربى إلى سائق الملك وأنهم بعد أن حملت إلى المسشفى ذهبوا فأخذوا الجثة ودفنوها دون أي خبر عنها أو إشارة إلى الحادث، وانتظرت أن يأتي وكيل النيابة أو أي محقق ليسألني عن الحادث فلم يحضر أحد، وإلى الآن لم يجد جديد، وقد فكرت في أن أبلغ النيابة عن حادث إصابتي وأطلب التحقيق فيه ولكن بعض الأساتذة المحامين نصحوا لي ألا أفعل لأنه ليس هناك شخص توجه إليه الاتهام وسيكون النتيجة أن يأتي المحقق ويفتح المحضر ويأخذ أقوالك ويسألك عمن تتهم أو تظن أنه اعتدى عليك فلا تستطيع أن تتهم شخصًا بعينه وهنا سيحفظ التحقيق ويقيد الحادث ضد مجهول، وقد عملت بالنصيحة.

وعلق عبد الرحمن الطرزي شقيق رفيق وبعض أفراد الأسرة الذين كانوا ...
فقالوا إن هذا الحادث لن يمر بخير ولابد أن ننتقم من الملك شخصيًا أو من كبير رجال
حاشيته إن لم نستطع أن نظفر بفاروق وإننا صعايدة لن نترك ثأرنا أبدًا مهما طال الزمن
ومر من الوقت.

ولكن حفني باشا الوالد وهو الرجل المجرب قال لا داعي لمثل هذا الكلام ونحمد الله
على أن نجا لنا ولدنا ولنأخذ الحيطة والحذر في المستقبل حتى لا يتكرر مثل هذا الحادث
ووافقناه على رأيه وأخذنا نهدئ من ثائرة عبد الرحمن ومن معه، وبعد أن قضينا وقتًا
طويلاً في هذه الزيارة انصرفنا متمنين عاجل الشفاء لرفيق داعين له أن يبعد الله عنه وعن
أسرته شر ذلك الطفل المجنون الذي لا يحسب حسابًا لشيء ولا يفكر في العواقب.

وتحدثنا ونحن في الطريق ألا يمكن أن نفعل شيئًا في هذا الخصوص وأرجأنا الحديث
إلى اجتماع الوفد الذي سنحدده قريبًا.

دعونا الوفد للاجتماع وبعد النظر في جدول الأعمال المعتاد أثار بعض الأعضاء حادث
الاعتداء على رفيق الطرزي فتحدثت إليهم عن الحادث كما سمعته من المعتدي عليه
شخصيًا وشرحت لهم ماذا قالت الأسرة وماذا قال حفني باشا وكان حاضرًا معنا، وتكلم
أكثر من عضو وكان من رأي بعضهم أن نكتب بيانًا نوقع عليه جميعًا نذكر فيه ما نعرفه
عن جرائم الملك الخلقية ونذكر بالتفصيل والأدلة القانونية ما يترتب على مثل هذه الجرائم
من رجل يتولى الملك في البلد وهو بحكم منصبه يجب أن يكون مثالاً يحتذى.

وبعد أن يصاغ البيان ونوقعه نحاول أن نطبعه وننشره بطريقة سرية بين المواطنين
ليعرف كل مصري استهتار الملك الذي يحكم البلاد ولا شك أن هذا سيزيد من نفور
الشعب منه ومن كراهيته له ومن احتقاره إياه، ولعل ذلك البيان يكون نواة لعمل أوسع في
المستقبل متى تهيأت الظروف.

وتحمس بعض الأعضاء وقال لم لا نذهب بأكملنا إلى قصر عابدين بعد أن نعد
احتجاجًا صريحًا نذكر فيه هذه المآسي وننذر الملك ونحمله مسئولية أعماله، وإذا تعرض
لنا البوليس ومنعنا نديرها معركة حامية معه وليكن بعد ذلك ما يكون، ولكن بعض الأعضاء
اعترضوا على هذا الاقتراح بأنه لا فائدة منه وأننا لا نملك الدليل المادي على صحة الوقائع
التي تذكر فيه، وإذا أبلغت النيابة وجاءت لتحقق معنا فليس ما يثبت ما نقول ونكون بهذا
قد وقعنا تحت طائلة العقاب وثبتت علينا تهمة إهانة الملك وحوكمنا وستحكم المحاكم علينا
قطعًا بالإدانة.

وعدلنا عن هذا الاقتراح وأخذنا نفكر كيف نطبع نشرة بجرائم الملك وكيف نوزعها
لتصل إلى أيدي أكبر عدد ممكن واتفق الرأي على أن يعهد إلى إحدى المطابع الموثوق بها
لطبع هذا المنشور بعد صياغته وكتابته بدقة وألا يحمل توقيع أي أحد منا لأنه لا يليق
بالوفد وهو أكبر هيئة في البلاد أن تعمل في الخفاء، فإما أن نظهر عيانًا بيانًا ونتحمل

المسئولية كاملة، وإما أن نترك الأمور تجري على طبيعتها.

ثم تحدثنا كيف يصل المنشور إلى المواطنين بعد طبعه فاقترح أن يرسل بالبريد إلى مختلف الهيئات والطبقات والأسماء البارزة وأن يأخذ بعض الشباب المتحمسين نسخًا منه ويوزعوها في حرص وسرية حتى تصل إلى الجميع، واتفقنا على هذا، واقترح نجيب الهلالي ألا نكتفي بهذا فقد يصادر المنشور أو لا يصل إلى عدد كبير من المواطنين بل يجب أن تكون أحاديثنا الخاصة والعامة ذكر هذه الفضائح وهذه المآسي وحث المواطنين الذين نلتقي بهم على أن يذيعوها في كل مكان وإذا استطعنا أن نبلغها إلى الصحف الأجنبية التي تصدر في القاهرة وفي الخارج يكون ذلك أتم وأنجح.

وانتهينا إلى أن نحاول أن نفعل كل ما نستطيع لكشف ذلك الشاب الطائش الذي يجر البلاد بشهواته ونزواته إلى أسوأ العواقب ويسيء إلى سمعتها أبلغ إساءة.

أما فيما يتعلق بأخذ الثأر الذي تحدثت عنه أسرة حفني باشا فقد رأينا أن لا داعي له الآن لأنه قد يؤول بأنه عمل سياسي، يتخذه الملك تكئة ليستعين بالانجليز لكي يحموا عرشه ونعود القهقرى إلى عهد عمه توفيق وما فعله في ثورة أحمد عرابي واستجارته بانجلترا حتى وقع الاحتلال الذي نئن منه وندفع ثمنه غاليًا حتى الآن.

زارني محمود باشا الأتربي وحسن أبو الفتوح وشقيقه أحمد وأخذوا يتحدثون إلي في أن أقضي هذا الصيف في مصيف رأس البر بعيدًا عن ضجة الغارات وأصوات القنابل، وقد عارضت بادئ ذي بدء لأني لم أجرب هذا المصيف من قبل ولا أظن أني سأجد الراحة فيه لأنه كما يقولون عبارة عن عشش تصنع من القش وبعض الأخشاب وليس فيه وسائل صحية تناسب حالتي، وأجابوا أن في المصيف فنادق وفيها أجنحة يمكن أن نعد لك جناحًا خاصًا فيه كل اللوازم وجميع وسائل الراحة وأن هناك شخصًا اسمه (كورنيل) له فندق مستعد لمثل هذه الأشياء، فاتفقنا على أن يتولى هؤلاء الإخوان إعداد مكان مناسب وأن نتوجه على بركة الله لقضاء هذا الصيف في رأس البر لنلتقي بأهل هذه البلاد ونتبادل وإياهم الأحاديث.

(٧)

حضر البارون إمبان ومعه رجل فرنسي يلبس الملابس العسكرية وقدمه إليّ على أنه الجنرال كاترو الحاكم العسكري لبيروت بلبنان، وأنه حضر إلى مصر لبعض المهام وطلب أن أقابله، وقد استمعت إلى حديثه فقال إن المعلومات التي لديه من عدة مصادر تؤكد أن الألمان أخذوا طريقهم إلى غزو مصر عن طريق الصحراء وأنهم بدأوا يعدون جيشًا كبيرًا بقيادة ضابط معروف لديهم بالكفاءة ومعرفة الصحراء اسمه (روميل).

وأن الانجليز بدورهم أخذوا يعدون جيشًا بقيادة ضابط من أعظم ضباطهم هو الجنرال (مونتجومري) وأنه يرسم خطة بعيدة المدى لا يعرف عنها شيء وأن المعركة لابد واقعة في

الصحراء الغربية، وكان يجب أن تكون الحالة الداخلية في مصر مستعدة لهذه الموقعة.

فأجبته إن هذا شيء يخص المسئولين في مصر، ولم يسألني أحد عن رأيي في مثل هذه الأشياء فهناك السفير البريطاني والحكومة المصرية والقصر الملكي هم الذين يديرون ويعدون.

فقال كيف يتأتى هذا وزعيم الأغلبية الكبرى، وحزبه بعيدون عن تحمل المسؤلية، فقلت له جواب هذا السؤال ليس عندي بل عند غيري من المسئولين، وسألني رأيي لو دخل الألمان مصر واحتلوها ماذا يكون موقف الوفد؟ فأجبته أهذا سؤال من عندك أم أنت مكلف به من أحد؟ فقال بل من عندي، قلت له موقف الوفد يحدد على ضوء الأحداث ونحن نعد للأمر عدته ونقدر مسئوليتنا الملقاة على عاتقنا من جانب جماهير أمتنا ولنترك الأمر للظروف التي تجد.

وقال البارون إمبان إنني أخشى على مصالح البلجيكيين والفرنسيين لو احتل الألمان مصر ودخلوها فاتحين، قلت له شأن مواطنيك وجميع الأجانب المقيمين بمصر شأن جميع السكان من أهل البلد وغيرهم، قال ألا يحسن بنا أن نهاجر إلى بلد يكون فيه أمن أكثر من هنا، فقلت له لك أن تفعل أنت وجاليتك أما نحن فلا نترك بلادنا.

وبعد أحاديث في شتى الأمور استأذنا في الانصراف، وقال الجنرال كاترو إنني سعيد جدًا بالتعرف إلى شخصية سمعت عنها كثيرًا ووددت أن لو التقيت بها، وبادلته عباراته وودعتهما شاكرًا زيارتهما.

ووصلنا إلى رأس البر فإذا الشاطئ مغطى بالناس لا ترى عليه إلا هاتفًا أو مرحبًا أو عازفًا أو مغنيًا أو مهللاً أو داعيًا، والحق أني أخذت بجميع هذه المظاهر، وتضرعت إلى الله أن يعينني على الوفاء لهذا الشعب ببعض حقه عليّ وأن يلهمني ربي التوفيق في خدمته والدفاع عنه حتى أحصل له على استقلاله وحريته واسترداد كرامته بين الشعوب.

وفي المساء زارني عدد كبير من المصيفين وكان معهم محمود الأتربي باشا ومحمود عبد النبي بك ومحمود الجمال وحسن كسبة بك والأستاذ قصير الديل نقيب المحامين وعدد من أصحاب الفنادق والعشش، ورأيت الأستاذ نجيب الريحاني وفرقته وسألت ما الذي جاء بكم؟ فقال نجيب إننا هنا منذ أيام نعرض بعض الروايات، وسنقضي بقية هذا الشهر وشهر أغسطس في المصيف وعسى أن يكون لنا حظ في أن تتفضل فتحضر بعض حفلاتنا، فقبلت دعوتهم ووعدتهم بأن يكون ذلك إن شاء الله.

قضينا الأسبوع الماضي في راحة واستجمام والحق أن جو رأس البر كان جافًا ومصيفها هادئًا جدًا بالنسبة للأسكندرية، ويكاد المصيفون يكونون كأسرة واحدة، وكنت كلما نزلت إلى الشاطئ أتمشى أو قصدت إلى زيارة أحد الإخوان ألقي الحفاوة وإقبال المصيفين والمستحمين يهرعون جميعًا لتحيتي والترحيب بي مما يبعث في النفس السرور ويملأ القلب بالحبور.

استقبلت اليوم محمود أسعد بك سكرتير خاص جلالة الملكة نازلي وقد أخبرني الملكة تصيف هنا على الشاطئ الثاني هي والأميرات ولما علمت بمقدمي أوفدته لتحيتي والسلام عليّ، كما أوفدت كبيرة وصيفاتها لتحية حرمي والسلام عليها، وقد شكرت للملكة الأم شعورها وحملت أسعد بك شكرًا خاصًا لها كذلك فعلت حرمي وتمنينا لها وللأميرات إقامة طيبة وصيفًا مريحًا.

كنت أظن أول ما وصلنا أن رأس البر هادئة الهدوء كله بعيدة عن ضجة الطيارات المغيرة ولكن سمعنا ليلة أمس غارة عنيفة، وصوتًا مدويًا كان صوب طوربيد سقط في الشاطئ الآخر قرب اللسان مما أزعج المصيفين وجعل عددًا كبيرًا منهم يعد العدة للرحيل بالرغم من أن محافظ دمياط والمشرفين على المصيف أكدوا أن هذه حادثة نادرة وأن المعلومات التي وصلت إليهم من بورسعيد تؤكد أن الطائرة التي ألقت الطوربيد اشتد حصارها في بورسعيد فهربت وألقت بحملها في البحر لا تقصد هدفًا ولا ترمي إلى أي إصابة.

حضر وفد كبير من كفر الجرايدة يضم أسرة سراج الدين على رأسها فؤاد بك وأشقاؤه وعدد كبير من المزارعين والأعيان، وبعد أن قدموا التهنئة بوجودي بينهم طلبوا بإلحاح أن أزورهم في بلدهم لأن بلدتهم وما حولها من البلاد كالزعفران والعزب التابعة لها هي التي أعطتني أصواتها بإجماع في انتخابات ١٩٣٨ وأصروا على ألا تفتح الصناديق إلا أمامهم لولا أني طلبت إليهم في حينها أن يتركوا الإدارة تزور وتفعل ما تشاء بعد أن زورت النتائج في الأغلبية الساحقة من الدوائر وبعد أن سمعنا أن جميع رجال الوفد وأعضاء هيئته قد أسقطوهم جميعًا.

مر عليّ بعد الظهر مكرم ومعه جماعة من الأهالي وبعض المصيفين ورأيت أمين معهم فسألت متى جئت، فأجاب حضرت أمس للزيارة وقضاء بعض أيام هنا مع أسرتي، وبعد انصراف الزائرين بقى أمين معي، وحدثني بأن الحالة في مصر تشتد وتسوء وأن الأنباء من الصحراء لا تبعث على الاطمئنان ذلك لأن روميل قائد الجيوش الألمانية على رأس جيش كبير من الألمان والطليان يتجه في الصحراء قاصدًا إلى غزو البلاد عن طريق الصحراء الغربية وأن الانجليز منزعجون من هذه الأخبار، وقد وجهوا جيشًا كبيرًا إلى الصحراء لملاقاة جيوش الألمان، والتقارير التي ترد ليس فيها ما يطمئن.

وأن السفير البريطاني يقول لابد أن تكون الحالة في مصر هادئة والحكومة الحاضرة لا يرضي عنها أكثر المواطنون ولابد من تغيير الحالة، فقلت له: ياأمين لقد شبعنا وأتخمنا من هذه الأنباء التي تنقلها أنت وغيرك عن أصدقائك وقد أصبحت لا أثق فيهم ولا أطمئن إليهم، وأني أكرر وأكرر أن مسئولية تفاقم الحالة تقع عليهم وحدهم لأن جيشهم يحتل البلاد، وقد نكثوا بعهودهم ولم ينفذوا نصوص المعاهدة التي أبرمناها معهم بحجة حالة الحرب وهي حجة واهية.

بعد أن تناولت الإفطار وارتديت ملابسي وهممت بالنزول لأتمشى على الشاطئ كعادتي رأيت عبود باشا ومعه بعض الناس مقبلين عليّ فاستقبلتهم مرحبًا وجلسنا نتحدث وقدم إليّ من كان معه فإذا بهم خليط من رجال الأعمال الأجانب منهم الانجليزي والفرنسي والألماني والبلجيكي والسويسري، وقد اشتركوا جميعًا في أحاديث عن الحالة الحاضرة وهي حالة حرب وعن سيرها وأخذ كل يتنبأ بمن تكون له الغلبة، وكان معظم الحاضرين يظهر خوفه من أن جيوش الألمان والطليان ستكون لها الغلبة ولكن مسيو (رينيه) السويسري تكلم في تؤدة ورصانة وقال: إننا - معشر السويسريين - وإن كنا لا شأن لنا بهذه الحرب ولا ننصر فريقًا على الفريق الآخر لكن تطلعاتي واستنتاجاتي تحدثني بأن الحلفاء سيكسبون الحرب في النهاية إذا اتيح لهم أن يصبروا ويتحملوا وإني بحكم معرفتي بطبيعة الانجليز أعرف فيهم قوة الاحتمال والتخطيط للمستقبل البعيد بعيدًا عن الضجة والضوضاء، وعلى العكس فإن ألمانيا ومحورها وبخاصة إيطاليا تتكلم كثيرًا وتهدد وتتوعد لكنها تكتفي بالنصر السريع، وقد عودنا التاريخ منذ القدم أن الحروب لا تعرف نتائجها على التحديد إلا قبيل انتهائها لكني أستطيع أن أ حدس أن الحلفاء لن يمكنوا خصومهم منهم وأنهم سيقاتلون ويدافعون حتى آخر جندي.

وقبل أن تنتهي الزيارة قال عبود: ياباشا إن الانجليز لا يفتأون يتحدثون عن الحالة الداخلية في مصر ويرون أن لابد من أن تتولى الأمر فيها حكومة موضع ثقة المواطنين ويصرحون علانية بأن الوفد هو المنقذ الوحيد لهذه الحالة، ولكنهم لا يريدون أن يضغطوا على الملك في مثل هذه الظروف ويحاولوا بكل الوسائل أن يوفقوا بين الوفد وبين السراي حتى يمكن الخروج من هذه الأزمة.

فقلت: ياعبود يظهر أنك أنت وأمين عثمان وأصدقاء الانجليز جميعًا على رأي واحد وتنطقون بلسان واحد وأني أحب أن أصرح لك كما صرحت من قبل أكثر من مرة أن مصيبة هذا البلد هو الاحتلال، وأن الأزمة منشؤها وجود الانجليز في مصر وهذا رأيي الذي أصرح به في كل مناسبة.

فقال هل لديك مانع أن تستقبل بعض رجال السفارة الانجليزية ليشرحوا لك رأيهم ورأي حكومتهم، فقلت له: لا حاجة بي إلى رأيهم أو استقبال أحد منهم فإني أعرف مقدمًا ما يطلبون، إنهم يدورون حول أنفسهم ويكررون ويعيدون الكلام فيما يعود عليهم بالنصر في الحرب والخروج من المحنة.

على الرغم من أنه لم يمض يوم منذ حضورنا إلى رأس البر إلا وحضرت وفود واستقبلت زائرين إلا أنني قد استفدت كثيرًا من هدوء الجو وجفافه ومن صوت المدافع والغارات ومن حسن الحظ أنه لم تقع غارة أو نسمع عن أي حادث وقع بالقرب من هذا المكان فكان ذلك مدعاة للراحة والطمأنينة ونسينا الطوربيد الذي وقع منذ أيام.

بكرنا بالذهاب إلى مصيف جمصة تلبية لدعوة البدراوي باشا وأسرته وعلى مشارف

رأينا رب [illegible] عضاءها وعمالها ومزارعيها وموظفيها يقفون في أول الطريق مرحبين يعلنون سرورهم وغبطتهم بلقائنا وتقدم سيد باشا فسلم عليّ ثم قدم لي كبار أبنائه وأعضاء أسرته والموظفين فسلمت عليهم واحدًا واحدًا ووصلنا إلى المصيف ولم نكد نستريح قليلاً حتى خرجنا إلى الشاطئ فرأينا مياه البحر نقية صافية وشاطئه نظيفًا، وجلسنا تحت المظلات فترة من الوقت حتى حل موعد الغداء فتناولناه بين ترحيب وكرم بالغين، وأخذ الخطباء في إلقاء كلمات طيبة والشعراء في إنشاد قصائد عامرة.

ورددت عليهم مكتفيًا بالشكر ولم أشأ أن أعرج على الموقف السياسي ورأيت أن يكون هذا اليوم بعيدًا عن ذكر الحرب ومآسيها وويلاتها، وقبيل المساء عاد بنا الركب إلى رأس البر في وداع حافل وشعور دافق لا يقل عن الاستقبال الذي استقبلنا به في الصباح وقد كررت الشكر لمضيفنا وأسرته وتمنيت لهم التوفيق في أعمالهم وحملتهم تحية عاطرة وشكرًا جزيلاً لمن لم أستطع أن أصافحهم وأسلم عليهم شخصيًا.

ووصلنا إلى رأس البر في المساء نتحدث عن كرم ضيافة أسرة البدراوي وعظيم حفاوتهم مع أنهم لم يكن معظمهم في يوم من الأيام وخصوصًا عميدهم سيد باشا من المنتمين للوفد أو هيئته.

لبيت دعوة الأستاذ نجيب الريحاني لحضور حفلة تمثيلية وقد استقبلنا الحاضرون استقبالاً كريمًا وكان معظم المصطافين يحضرون الحفل حتى ضاق بهم المسرح وما حوله، وبدأت الفرقة في تمثيل رواية (حكم قراقوش) وهي تمثيلية فكاهية هادفة تصور كيف كان الحكام يستبدون بشعوبهم ويسومونهم العذاب، وقد أجاد نجيب الريحاني وحسن فائق وبشارة واكيم وعبد اللطيف جمجوم وماري منيب وجميع أعضاء الفرقة، أجادوا أدوارهم وأدوها بدقة، وصفق لهم الجمهور تصفيقًا حادًا وأعلن إعجابه بهم أكثر من مرة وشجعت من جانبي الفرقة كلها وشكرت للريحاني دعوته اللطيفة وبعد أداء الفصل الأول وقبل رفع الستار عن الفصل الثاني تقدم بديع خيري وألقى زجلاً وطنيًا جميلاً حيا فيه الفن ونصراء الفن وعرج على تحيتي ولما وصل إلى قوله: وكفاية فخر بأن بين الشهود رفعة رئيس الوفد سيد البلد، ضج الحاضرون بالتصفيق في حماسة وأخذوا يهتفون بحياة الوفد ورئيسه وحياة مصر واستقلالها هتافات مدوية.

وانتهت الرواية بعد منتصف الليل فهرع الحاضرون متزاحمين للتسليم عليّ وقد حييتهم وكررت لهم شكري كما كررت إعجابي بالتمثيل والممثلين وصافحت بديع خيري شاكرًا معجبًا، وودعنا المتفرجون وظلوا يتابعونني حتى وصلت إلى الفندق.

فوجئت بأن محافظ دمياط يطلب مقابلتي في أمر عاجل، فوافقت واستقبلته فإذا به يطلب إليّ أن أساعده على أن ترحل فرقة الريحاني من المصيف في أقرب فرصة ذلك أن السراي الملكية قائمة على قدم وساق وأن من فيها كلهم ثائرون لأن بديع خيري قال فيّ زجله (رفعة رئيس الوفد سيد البلد) وأن المسئولين رأوا في هذا تعريضًا بجلالة الملك على

حد تعبير المحافظ وأنه أي المحافظ أراد أن ترحل الفرقة في هدوء وسلام فأبى الريحاني، وقال إنه مرتبط بحفلات وقابض عربونها، وعلم المصيفون بهذا الخبر فاجتمعوا واحتجوا وأصروا على ألا تبرح الفرقة المصيف إلا في الموعد الذي حددته من قبل.

وتوسل المحافظ وتهدج صوته وقال بارفعة الباشا إني أستنجد بك لأني إن لم أنفذ ما طلبته الحكومة مني فسأفقد وظيفتي ويجوع أطفالي.

تأثرت من قوله وقلت له: لنطلب الريحاني لنرى وجهة نظره، وطلبت الريحاني فجاء، ومعه بديع خيري فاستقبلتهما مرحبًا وسألت عن الموضوع فقال نجيب إن سيادة المحافظ جاء يطلب إليّ أن أعود بفرقتي إلى القاهرة حالاً، ولكنني قلت له إنني لا أستطيع قبل أن أرتب أموري وأنظم أعمالي وأقوم بالارتباطات التي ارتبطت بها، وأمثل الروايات التي قبضت عرابينها، ولكنه أصر وهدد بأن يستعمل القوة فلم أجد إلا أن أستعين بالمصيفين فهاجوا وماجوا وهددوا بأن يفعلوا ويفعلوا إذا أرغمتني الحكومة على الرحيل، وأنا لا أريد أن أخلق مشاكل أو أتعرض أنا وفرقتي لإهانات ولكني قبضت مبالغ من جهات مختلفة لأقيم عدة حفلات هنا تنتهي تقريبًا في الأسبوع الأول من سبتمبر فماذا أصنع؟

فتحدثت مع المحافظ وقلت له: إما أن تتركوا الرجل وفرقته يقيم الحفلات التي ارتبط بها أو تعوضوه عن الخسائر التي ستحل به هو وزملائه وتردوا العرابين للذين دفعوها والأجور للممثلين الذين يعملون ليعيشوا وما عليك إلا أن تعرض على رؤسائك أحد الحلين، وخرج المحافظ ضيق الصدر، وقال سأتصل بالمسئولين، أما نجيب فضحك وقال وزميله بديع ما كنت أظن أن كلمة لا أقصد بها إلا تحية وتكريمًا تؤول هذا التأويل وتحدث هذه الضجة.

فأجبت: لقد صدق عليهم المثل العربي (كاد المريب يقول خذوني) وفيما نحن في حديثنا إذ حضر بعض أفراد الفرقة وقالوا إننا مصرون على أن نبقى هنا نؤدي أعمالنا، وإذا لم يعجبهم فليقبضوا علينا وليرحولنا تحت قوة السلاح، وصاح أحدهم أن هذه صناعتنا ومنها نعيش ونقوم بواجباتنا العائلية فهل يعقل أو يتصور أن نحارب في رزقنا ويمنع عن صغارنا القوت والكساء، وانتحب صوته وقال إنني أفضل أن أعيش سجينًا من أن أستسلم لهؤلاء الطغاة الجبارين.

فهدأت من روعه وقلت له: إن المحافظ وهو صنيعة الحكومة استغاث بي لأنه لم يستطع أن يتغلب على قوة الرأي العام وقد اقترحت عليه أحد اقتراحين وخرج ليبلغهما إلى رؤسائه وكلاهما لا يمس واحداً منكم في رزقه، فإما أن تأخذوا أجوركم كاملة وإما أن تتركوا لتؤدوا مهمتكم وإن شاء الله سيكون خيراً.

اتصل بي المحافظ تليفونيًا وقال إنه تحدث مع وزير الداخلية فقال له اتفق مع الفرقة على دفع الخسائر التي ستلحقها إذا رحلت حالاً وألغت حفلاتها، وأنه عرض على رئيس الوزراء يستأذنه في صرف التعويضات، وطلب إليّ أن أخبر الريحاني بذلك حتى يطمئن

وبعد العدة للسفر، واستدعيت الريحاني وأخبرته الخبر فقال أنا لا أثق بوعود الحكومة فليدفعوا التعويض قبل الرحيل، فقلت له اتفق مع المحافظ وإذا عرض لك شيء فخاطبني.

وبعد أن انصرف الريحاني زارني مكرم وبعض المصطافين من إخواني فعجبنا من هذا التصرف الصبياني، وعلق أحد الحاضرين على هذا التصرف بقول الله الكريم في كتابه العظيم بيحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) وقال صبري إن التاريخ يعيد نفسه عام ١٩٢٧ نشرت إحدى الصحف زجلاً بعنوان قصة السيد البدوي وإبراهيم الدسوقي وسعد فعدت السراي هذا تعريضًا بالملك فؤاد وصادرت الصحيفة وقبضت على رئيس التحرير.

كنت قد اتفقت مع لجنة الاحتفال بتكريمي أن يتصل المشرفون عليها بسكرتاريتي ليرشدوهم عن أسماء الوفديين الذين يصيفون في رأس البر لدعوتهم، وقد جاءني الأتربي باشا وقال إن مكرم باشا يطلب أن أوجه الدعوة لمحمد التابعي الصحفي لأنه مصيف فامتنعت وقلت له أنا لا أدعو شخصًا مذبذبًا يكتب بوجهين، ويأكل على مائدتين فبينما يتصل بالوفديين ويتظاهر بصداقتهم إذا به يكتب مطبلاً للسراي وموظفيها ومعرضًا تعريضًا ممقوتًا بالوفديين، ولما ألح مكرم باشا في ضرورة دعوته جئت أسأل الرأي، فوافقته على نظريته وأيدته في رأيه.

وجاء مكرم ونحن نتحدث وأعاد الكرة في وجوب دعوة التابعي إلي الحفل لأنه طلب ذلك بنفسه وعتب على لجنة الاحتفال أنها لم توجه إليه الدعوة، وأضاف إني أرى أن حضور التابعي مكسب لنا فإما أن يكون معنا وإما ألا يكون فينكشف أمره ويغضب عليه أصحابه من رجال القصر.

فقلت لا يامكرم ما لنا والذبذبة والنفاق والرياء وقد شبعنا وأتخمنا وتعبنا من هؤلاء الذين يتأرجحون بين هذا وذاك ولا داعي لأن نجرب بعد كل الذي لقيناه.

دعوت رجال الوفد وبعض أعضاء الهيئة الوفدية الذين يصطافون معنا، وعرضت عليهم أنني سأهاجم الانجليز في كلمتي التي سألقيها في حفل الغد وسأحملهم مسئولية ما يجري في مصر من تجويع الشعب ومساندة القصر، والوقوف إلى جانب الأقليات والحيلولة دون عودة الحياة النيابية الصحيحة إلى البلاد، ثم أطالبهم علانية بأن يقطعوا وعدًا صريحًا بأن يجلو عن مصر ويتركوها حرة مستقلة إذا انتهت الحرب لصالح الحلفاء وإلا فإني سأتقدم أنا وزملائي الصفوف وسنحرض الشعب على أن يحاربهم بكل الوسائل وألا يهادنهم أو يقدم لهم أي مساعدة.

وتناقشنا طويلاً في هذا الموضوع وبعد أن قلبناه على جميع وجوهه استقر الرأي على أن أمضي في طريقي وأعلن العداء السافر لبريطانيا وأطالبها بتحديد موقفها من مصر كما أعلن باسم شعب مصر عن بكرة أبيه أننا لن نقدم لها أي عون في أية ناحية من النواحي.

واتفقنا على أن يظل هذا الأمر مكتومًا حتى أعلنه في خطابي غدًا.

كان اليوم موعد افتتاح برلمانهم وقد ذهب رئيس الوزراء حسن صبري إلى القصر الملكي ليصحب الملك في الموكب الرسمي لحفلة الافتتاح، وانتظر حتى خرج الملك واستقل السيارة وهو إلى جانبه وتوقع أن ينعم عليه برتبة الرياسة (صاحب الدولة) ولكن الملك لم يفعل وظل صامتًا طول الطريق لم يخاطب كبير وزرائه بكلمة.

ووصلوا إلى البرلمان وكان الاستقبال الرسمي وجلس الملك وناوله كبير الأمناء خطاب العرش جريًا على العادة ليعطيه بدوره إلى رئيس الوزارة لإلقائه، وتقدم حسن صبري فأخذ الخطاب وبدأ في إلقائه بصوت مرتجف بدأ عاليًا ثم خفت رويدًا رويدًا، ولم يكد يلقي عدة جمل من الخطاب حتى وقع الخطاب من يده وأصيب بسكتة قلبية وقع في إثرها مباشرة على الأرض وأسرعوا لإسعافه لكن روحه فاضت إلى بارئها وانتهت حياته.

ووقع هرج ومرج وانفضت الحفلة دون إتمامها، وعاد الملك إلى قصر عابدين مضطربًا ولعله أحس في أعماق نفسه أنه تسبب في القضاء على الرجل بتصرفه الأهوج، وعناده الأحمق والواقع إني تأثرت جدًا بهذا الخبر المزعج، وترحمت على حسن صبري باشا وتوقعت أن سيمضي الملك وبطانته إلى نهاية الشوط مادام لا يجد من يصده أو يوقفه عند حده.

جاء أمين فأخبرني أن الملك أرسل أحمد حسنين إلى دار السفارة البريطانية، وقابل السفير مقابلة طويلة جدًا علم بعدها أن السير مايلز نصح حسنين بأن يحاول مع الملك إعادة الحياة الطبيعية إلى البلاد، ولكن حسنين استطاع بصداقته للانجليز إقناعهم بأن المرشح الجديد لرياسة الوزارة صديق لهم ومأمون الجانب، وأنه لن يتمكن من صرف جلالته عن رأيه وطلب الصبر بعض الوقت، وأنه يضمن ألا تثار أي مضايقات للانجليز في هذه الظروف الدقيقة.

أعلن أن الملك عهد إلى حسين سري باشا بتأليف الوزارة الجديدة، وأنه ألفها وزارة محايدة لم يدخل فيها أحدًا من الحزبيين ولا من الذين تورطوا في عمل من الأعمال التي تغضب بريطانيا وأنه تعمد أن يختار وزراءه جميعًا من الذين تربطهم بالانجليز علاقات وثيقة.

تجربة جديدة على حساب مصالح البلاد في هذه الأيام الحالكة والظروف القاسية فاللهم صبرًا.

أعلن رئيس الوزراء الجديد برنامجه فإذا به برنامج إنشائي، وعبارات مطاطة ليس فيها وعد بعمل.

(٨)

قررت دعوة الوفد للاجتماع في برنامج الوزارة الجديدة، وتقرير ما نراه في هذه

الظروف الدقيقة واجتمعنا، وعرضت عليهم ما كان من وفاة حسن صبري فجأة ومسارعة الملك إلى الانجليز يستجديهم بواسطة أحمد حسنين، ويرجوهم أن يوافقوا على تعيين حسين سري رئيسًا للوزارة وأعطاهم الوعود والمواثيق على أنه لن يتعرض لأية مصلحة من مصالح بريطانيا، وأنه رجلهم وآمن لهم من علي ماهر، وقد اقتنع الانجليز بوعد السراي لهم ووافقوا على أن يؤلف حسين سري الوزارة وقد ألفها من أعضاء معروفين بميولهم الانجليزية وعداوتهم للمحور، ثم تناقشنا في برنامج الوزارة وبعد استعراضه تبين أن لا جديد فيه وأن الموقف لايزال كما هو فقررنا بالإجماع أن يظل الوفد على موقفه من النظام الجديد: مقاطعة تامة وعدم تعاون بأي شكل من الأشكال

كانت الوزارة السابقة أعلنت الأحكام العرفية من أول يوم أعلنت فيه الحرب وفرضت رقابة مشددة على الصحف وبخاصة الصحف الوفدية، وكان نصيب جريدة المصري من الرقابة نصيبًا قاسيًا، فقد حرم عليها أن تنشر أي كلمة يشتم منها تأييد الوفد أو معارضة النظام القائم إلى حد أن محرري المصري كانوا في حيرة من أمرهم فالرقابة تفرض عليهم ألا ينشروا أي كلمة أو أي خبر إلا إذا وافق عليه الرقيب وفي الوقت نفسه لا يترك أي جزء من الصحيفة فارغًا بل يجب ملؤه وإلا منعت الصحيفة من الظهور.

وكان المحررون يتفننون في هذا المضمار إلى حد أنهم كانوا يكملون الصفحات بكلمات تافهة لا علاقة لها بالسياسة ولا تمت للصحافة بصلة.

ولعل من الطريف الذي صنعته المصري حين شددوا عليها الرقابة أن كانت تنشر في أبرز مكان منها مقالات تملأ بها الفراغ مثل (فوائد الثوم) و (مزايا البصل).

ولقد قرأت المقال المعنون بفوائد الثوم فطفقت أضحك وأسخر من تلك الرقابة الحمقاء إذ كيف يستبيح الرقيب أو رئيسه أن تصدر جريدة كبرى كالمصري وفيها أن للثوم فوائد جمة ومنافع عظيمة ومنها أنه يخفف مرض الضغط ويجعل للطعام نكهة طيبة وهكذا.

شكا إليَّ الصحفيون أن الرقابة اشتدت عن ذي قبل وأن الرقيب يتدخل حتى في مقابلات أعضاء الوفد والهيئة الوفدية والزائرين الذين تذكر أسماؤهم في الصحف.

ومن السخافات التي وصلت إلى علمي أن مدير تحرير المصري اتصل بي وقال لي إن الرقيب حذف من مقابلات الرئيس الجليل ما تعودنا أن ننشره كل يوم، سألته هل حذف أسماء زائرين قال لا إنه طلب أن تحذف كلمة استقبل الرئيس في داره العامرة فقلت له قل استقبل في داره غير العامرة لينتهي الإشكال.

ارتكب فاروق حادثًا مؤلمًا شنيعًا تناقلته جميع الأوساط المحلية والأجنبية ذلك أنه ذهب للقاء سيدة متزوجة في بيتها ودخل إلى فراشها وبينما هو في لقاء آثم معها إذ جاء زوجها ولما شعر فاروق به قام من فوره وأطلق عليه الرصاص فأرداه قتيلاً.

ولم يستطع أهل ذلك الشاب أن يصنعوا شيئًا بل أعلنوا وفاته إعلانًا عاديًا وأقاموا له

جنازة في بلدهم بإحدى ضواحي مديرية الشرقية، ولم تشر الصحف ولا الإذاعات إلى هذ الحادث من قريب أو من بعيد.

تألمت أشد الألم حين سمعت هذا النبأ المزعج فقد وصلنا إلى حد من الفوضى لا يأمن الإنسان منه على نفسه أو أهله أو عرضه وأصبحت الأرواح تقتل جهارًا نهارًا بلا رقيب ولا ضمير ولا قضاء ولا قانون كأننا نسكن إحدى الغابات أو نأوى إلى أحد الكهوف، فاللهم رفقا بهذا البلد المسكين المغلوب على أمره.

رأيت بين الزائرين أحمد فريد الرفاعي وقد قال لي إن لديه بعض الأنباء يريد أن يخبرني بها واستدعيته هو ومحمود غزالي الذي حضر هو الآخر وقال فريد إنه كان في زيارة لصديقه مستر هولمز أحد كبار رجال الجالية البريطانية وجاء ذكر الخطاب الذي ألقيته في رأس البر وهاجمت فيه الانجليز فعلق عليه بقوله إن النحاس باشا كان عنيفًا جدًا وأنه حمل على انجلترا وعلى رجالها في مصر حملة شعواء مع أنه لو علم أن معظم رجال السفارة يدافعون عنه ويكتبون تقاريرهم في صالحه لما فعل هذا.

ثم قال لي إن هولمز أسر إليه أن بعض الانجليز الذين كانت لهم صفة رسمية في الحكومة المصرية وخرجوا بمقتضى المعاهدة كتبوا تقريرًا إضافيًا إلى الوزارة الانجليزية وصفوا الخطاب بالتهجم الذري، ونعتوا رئيس الوفد بنعوت شديدة وأتهموه بالتهور وتحريض المواطنين على الثورة وطلبوا اعتقاله ونفيه عن البلاد حتى يستتب الأمن ويسود النظام.

وقال غزالي إني أضيف إلى هذا أن رجال السفارة منقسمون في هذا الصدد إلى فريقين فريق يؤيد التقرير الذي أرسله زملاؤهم، وفريق آخر يعارض هذه الفكرة ويقول لسنا في حاجة لأن نفتح على أنفسنا بابًا مغلقًا أو نخلق مشاكل لا داعي لها، وإن كان الخطاب في نظرهم خطابًا عنيفًا ما كان يليق أن يقال.

أما السفير البريطاني فقد رد على هذين الاتجاهين مؤيدًا عدم المساس بالنحاس أو الوفد بشيء وإلا فإنه لا يستطيع أن يستمر في عمله ذلك لأن البلد تغلي كالبركان واعتقال النحاس ونفيه يزيد النار اشتعالاً والحالة تفاقمًا.

وقال فريد إن مستر هولمز كلفه أن يخبرني بأن أخفف من حملتي وألا استمر فيها لأن الظروف غير ملائمة والوقت لا يناسب.

استمعت إلى هذا الكلام ثم ابتسمت ساخرًا وقلت إذا كان الانجليز يتصورون أني أتهيبهم أو أخاف بطشهم فهم واهمون فإنَّا قوم وطَّنا أنفسنا على الجهاد إلى أن ننال حقنا أو نموت في سبيله وإذا كانوا قد نسوا أو تناسوا الماضي فأني أذكرهم بأننا منذ عشرين عامًا اعتقلنا مع سعد ونفينا إلى جزيرة سيشيل النائية البعيدة سيئة الطقس بدائية الحياة، فلم نأبه ولم نتحول عن مبدئنا، وإذا كان لديهم سيشيل أخرى فيتفضلوا [illegible] استعداد لما يريدون.

استدعيت بعض الزملاء وحدثتهم بما أخبرني به غزالي وفريد، واتفقنا على دعوة الوفد للاجتماع لنتحدث في هذا الأمر، وفي غيره من المسائل التي تجمعت منذ أن ذهبنا إلى المصيف.

وفي المساء جاء أمين ثم فارس نمر ثم جورج نعمة الله، وقد نقلوا إليّ أحاديث لا تخرج عن التي قالها غزالي وفريد، وقال أمين إن لديه تفصيلاً أكثر من ذلك وهو أن السفير البريطاني أبرق إلى الحكومة الانجليزية بفحوى خطاب رأس البر مشفوعًا برأيه أن تأمره الحكومة بأن يتدخل فعلاً لتغيير الحالة في مصر ولكنه فوجئ بأن بعض الانجليز وعلى رأسهم كوين بويد وريدر ومكسويل وغيرهم أبرقوا إلى وزير المستعمرات بترجمة للخطبة ترجمة عنيفة وألفاظًا تحمل السباب والشتائم وطلبوا أن يحد من نشاط الوفد، وأن يعتقل النحاس والأعضاء البارزون وينفوا إلى إحدى المستعمرات النائية حتى يمكن للأمن أن يستتب.

ولما علم سير مايلز لامبسون بهذا التقرير غضب غضبًا شديدًا وقال إن هؤلاء القوم يريدون أن يشعلوها نارًا حامية وأن يفتحوا لنا ميدانًا جديدًا للحرب في مصر وأنهم من شدة حقدهم على النحاس والوفد يريدون أن يتخلصوا منهم بأي طريق، وليس هذا التصرف في مصلحة انجلترا ولا في مصلحة الحرب الدائرة الآن، وعقب بأن قال وإذا وافقت وزارة الخارجية أو وزارة المستعمرات على هذا الإجراء فلن أبقى في منصبي ساعة واحدة لأني أدرك بحكم خبرتي وماضي الطويل في السلك السياسي خطورة هذا التصرف ومدى نتيجته العكسية على مصلحة الإمبراطورية.

وقد كررت لأمين أني لا أبالي باعتقال أو نفي ولما قال ألا يشكر السير مايلز لامبسون على هذا قلت لا إنه يعمل لا لأجلي ولا لأجل مصر، ولكنه يعمل لمصلحة إمبراطوريته، ولو كان متأكدًا أن اعتقالي أو نفيي فيه مصلحة لبلاده لما تردد في الموافقة عليه، فدعنا من هذا ولندبر أمورنا على ضوء مصلحة بلادنا ومواطنينا.

حضر وفد من لجنة السيدات الوفديات مؤلفة من أكثر من ثلاثين سيدة وآنسة وحدثتني سكرتيرة اللجنة السيدة سكينة الكفراوي بأن اللجنة علمت بما جرى منذ إلقاء الخطبة وأنهن على أتم استعداد لطبعها وتوزيعها وتحمل المسئولية التي تترتب على ذلك، وشكرت لهن إخلاصهن ووطنيتهن، وقلت لها إني أعفيكن من هذا العمل الخطير فإن لدينا ترتيبات أخرى وإن شاء الله ستصل الخطبة إليكن مطبوعة وعندئذ يمكن أن تتصرفن بشأن توزيعها.

وقالت السيدة أنيسة حرم الضابط حمدي الرشيدي في حماسة وعضب إنك تخشى علينا من قوة الحكومة وإنا لسنا أقل وطنية من الرجال ولا شجاعة منهم وقد جئنا اليوم موطنات النفوس على الموت أو النجاح في التغلب على القوة الغاشمة سواء كانت انجليزية أو مصرية، وتكلمت الصحفية منيرة ثابت بلهجة أعنف وعبارات أشد ولكنني كررت الشكر

لهن وقلت لهن إذا عجزنا أن نعمل سأتصل بكن ولكنني واثق بأننا سنستطيع توزيع الخطبة بإذن الله وأني لأدخركن لعمل أعظم ومجهود أكبر فأنتن نصف الأمة وشطر الشعب ولا يمكن لبلد أن ينال حقوقه إلا إذا قامت المرأة بنصيبها من التضحية والجهاد.

بعد أن انصرف الزوار ومعظم موظفي السكرتارية دخلت حديقة الدار سيارة سوداء ونزل منها فارس نمر ومعه صهره سمارت سكرتير دار السفارة البريطانية وشخص ثالث قدمه لي على أنه مستر سيلي أحد كبار المحامين البريطانيين.

وقد حدثني بأنه يعرفني منذ زمن بعيد لأنه كان يترافع عن بعض المتهمين في قضية المؤامرة الكبرى عام ١٩٢٠ وأنه منذ هذا الوقت يزور مصر من وقت إلى آخر وقد حضر منذ أيام من الهند وطلب إلى فارس نمر أن يزورني.

وتحدث سمارت وقال إني انتهزت هذه الفرصة وطلبت أن تكون الزيارة ليلاً حتى أصحب مستر سيلي لأتحدث معك، فقلت له هات ما عندك، فقال: إن الحالة خطيرة جداً وأن التقارير التي لدينا تنبىء بأن قوات هتلر تتجه إلى مصر وتنوي احتلالها وأن وزارة الحرب تعد العدة لاستقبال جيوش المحور وترتب لهم خطة سرية لا يعرفها أحد ولكن المهم في هذا أن بعض الانجليز بالاتفاق مع رجال السراي يسعون سعياً حثيثاً لاعتقالك ونفيك إلى إحدى المستعمرات البعيدة ويحاولون أن يلقوا في روع رجال السفارة ووزارة الخارجية البريطانية أن هذا في مصلحة انجلترا ويساعد مساعدة كبرى على تهدئة الحالة، ولكن السير مايلز لامبسون يعارض هذا معارضة عنيفة وأغلبية الموظفين ينضمون إليه.

قلت إني سمعت هذا من أمين، فقال الجديد في هذا أن السفير كلفني بأن أحمل إليك تحيته وتقديره وقال لي بلغ النحاس باشا بأنه إذا كان يهاجمنا فهو خصم شريف يقول ما يعتقد وأنا لا أضيق بهذه الخصومة ولكن الذي يضايقه أن وزارة الخارجية تمنعه حتى الآن من أن يتدخل بالقوة لإنهاء حالة الركود التي تعيش فيها البلاد، مع أن الألمان يسارعون في قطع الفيافي والصحراء بغية الوصول إلى مصر في أقرب فرصة، وهو يرجو أن توافق على وزارة قومية تكون الأغلبية فيها للوفد ولو إلى أجل محدود حتى تستقر الأمور بعض الشيء ويمكن إجراء انتخابات حسب طلبك.

وتدخل مستر سيلي وقال ماذا يمنعك من أن توافق على هذا الرأي، فقلت له: إن هذا العرض ليس جديداً ولكنهم أكثر من مرة وحتى قبل إعلان الحرب يحاولون أن أقبله وقد سبق أن شرحت وجهة نظري أكثر من مرة للمسئولين المصريين وغيرهم وشرحت لمستر سيلي المسألة منذ إقالة وزارة الوفد في عهد الملك فؤاد وكانت وزارة ائتلافية وما ترتب على ذلك وما قرره الوفد واتخذه مبدأ له، وأصغى الرجل إلى شرحي وبعد أن انتهيت وافقني عليه وقال مخاطباً مستر سمارت مادام هذا كله قد جرى ومادامت المسائل لها جذور فمن حق مستر نحاس أن يرفض هذه العروض، وإذا كنتم ترون مصلحة الإمبراطورية في إجابة مطالبه فماذا يمنعكم؟

فأجاب سمارت: يمنعنا عناد الملك وركوب رأسه وميوله الظاهرة والخفية نحو المحور واستماعه إلى آراء عدد ممن يحيطون به يلقون في روعه أنه هو كل شيء وأن الشعب كله رعيته وخدمه ويجب أن يسير وراءه.

فقال سيلي: وهل هذه هي الديمقراطية التي تسير انجلترا والبلاد الحرة عليها، وهل هذه هي الدساتير التي تحكم بها البلاد الحرة؟ لقد جاهرت برأيي صراحة أمام السفير وغيره من رجال الجالية، وقلت إن الحرب لا تعرف الحد الوسط فإما إلى ديمقراطية حقة يستشار الشعب فيها في كل صغيرة وكبيرة وتتحمل البرلمانات المسئولية، وإما حكم عسكري تتصرف فيه الحكومة تحت مسئوليتها، ووفق ما تمليه ظروف الحرب عليها، وأحب أن أقول لكم إنني زرت بلادًا كثيرة فلم أر وضعًا شاذًا كهذا الوضع الذي أشهده في هذه البلاد.

وكانت عباراته حادة ولهجته خطابية كأنه يترافع في إحدى القضايا الكبيرة، وجاء دوري فقلت لسمارت: بلغ السير مايلز أنني لن أقبل وزارة قومية أو حتى وفدية صرفة تأتي عن طريقه لأني أعد هذا تدخلاً سافرًا في أخص أمور مصر الداخلية، ولكن قل له ليكن صريحًا أو واضحًا ويعلن تخليه عن مساندة الملك والأقليات، وعندئذ سيكون للبلاد موقف صريح يعرف فيه المواطنون كيف يعملون، ويعرف فيه ممثلو الأمة الحقيقيون أين يقفون.

زارني أمين عز العرب وبعد أن تحدثنا في مختلف الموضوعات قال إن محمد محمود خليل بك يبلغك تحياته ويود أن يزورك لولا أن الظروف السياسية لا تسمح وهو يعتذر إليك، فأجبته ليوفر خليل بك على نفسه الاعتذار أو التفكير في الزيارة فإني لا أحب أن أحرج أحدًا أو يساء إليه بسببي فضلاً عن أنه لا يهمني في قليل ولا في كثير وأنت تعلم أني لا أحب الذين هم من هذا الصنف.

ثم تحدث أمين في شئون مجلس الشيوخ وأموره الإدارية وأنه يقاسي كثيرًا من مختلف التيارات داخل العمل وهو يحاول أن يسايس الجميع حتى تسير الأمور، وأبلغني تحية عدد كبير من الموظفين الذين يخشون على وظائفهم لو زاروني فشكرته وحملته إليهم تحيتي وثنائي.

تجددت الأحاديث والشائعات عن ضيق الملكة فريدة وإصرارها على طلب الطلاق لأن المباذل التي يرتكبها الملك وتشجعه عليها الأميرة شويكار وبوللي ومحمد حسن وحلمي حسين بقية الحاشية قد انكشفت وأصبحت حديث المجالس، وأن الملك كلما سمع شيئًا من هذا وهو جالس إلى موائد القمار وإلى بعض النسوة اللاتي يحطن به يضحك ملء فمه ويقول من حق فريدة أن تسكت ولا تتكلم اليست مكسوفة من أنها لم تأت بولد يصبح ولي عهد لي بدلاً من محمد علي صاحب اللحية التي تشبه لحية (التيس).

هكذا يقول عن الرجل الطاعن في السن والذي كان رئيس مجلس الوصاية عليه، ولكن لا غرابة فهذه هي تربية القصور وتعاليم القصور وألفاظ الأوساط التي يغشاها فاروق

ويقضي فيها أكثر لياليه.

قبضت السلطات المصرية بالاشتراك مع السلطات البريطانية على عدد كبير من المصريين والأجانب قيل أنهم يديرون بيتًا ظاهره للهو والخمر والقمار وباطنه لكتابة التقارير عن نشاط الانجليز وأخبار الحرب وأن بعض هذه التقارير قد ضبط واتضح أن به بعض الأسرار الخطيرة التي كانت ستبلغ لألمانيا، وقد انتهز الانجليز هذه الفرصة فاستحضروا قوات كبيرة من جنودهم المعسكرين في القنال إلى العاصمة لتحافظ على الأمن وتراقب أمثال هذه الجماعات.

من سخرية القدر أن فاروق كان يجلس في نادي الصيد وسط جماعة من المتملقين والمنتفعين وكان منهمكًا في لعب الميسر، ولما وقعت في يده صورة لملك من ملوك أوراق اللعب (الكوتشينة) ضحك بصوت عال سمعه أكثر من في النادي وقال عن قريب لن يبقى من الملوك إلا أنا وملك انجلترا وملك الكوتشينة.

ومن أدراه فقد لا يبقى هو وقد قبل أن يزول سواه.

أصبحت الصحف المحلية عربية كانت أم أجنبية لا تحتوي إلا على برقيات الحرب وأخبار الحرب وليس فيها أي موضوع سوى هذا حتى لقد مل الناس قراءتها وخيم على معظمها الكساد، وقد تحدثت مع لجنة الصحافة الوفدية بأن يتناولوا الكتابة في موضوعات اجتماعية أو أدبية أو ثقافية أو دينية حتى يجد القراء شيئًا من التسلية.

حمل إليّ البريد الخارجي رسالة مطولة من محمد علي جناح الزعيم المسلم الهندي يقول فيها إنه وإخوانه زعماء المسلمين يفكرون جيدًا في أن يعلنوا انفصالهم عن الهند وحكامها ولأن الأحداث الطائفية التي تقع كل يوم تسفر عن عشرات القتلى والجرحى وأن الانجليز يعلنون سرورهم واغتباطهم كلما رأوا المسلمين يموتون ويقتلون كل يوم، وسألني الرأي في هذا.

والحقيقة أني تألمت كل الألم ولكنني حائر كيف أرد عليه، هل أؤيد وجهة نظره وأشجعه على الانفصال، وإذا شجعته كيف ينفصل دون إعداد ولا ترتيب وإذا بقى فهل يمكن السكوت على ما يقع كل يوم وما نسمعه من هذه الأحداث المؤلمة، وقد فكرت في دعوة الوفد لأستشير الإخوان والزملاء في هذا الأمر الخطير، وهذه الفواجع التي تحل بعدد كبير من إخواننا في العقيدة الإسلامية.

وفكرت في أن أكتب للزعيم غاندي وجواهر لال نهرو مرة أخرى في هذا الخصوص وأن تكون لهجة الخطابين شديدة عسى أن تؤتي ثمارها، ولكني أرجأت هذا حتى أري إخواني من أعضاء الوفد.

اجتمع الوفد اليوم برئاستي في النادي السعدي، وقد عرضت عليهم ترجمة دقيقة للرسالة التي تلقيتها من محمد علي جناح، وبعد ان أطلعوا عليها أخذنا نتباحث في الكيفية

التي نرد بها عليها والاقتراحات العملية التي نقترحها، وبعد أن تناقشنا طويلاً عرضت عليهم فكرة إرسال رسالتين إحداهما إلى غاندي وأخرى جواهر لال نهرو نطلب إليهما أن يتدخلا بما لهما من مكانة في نفوس المواطنين طالبين أن يكفوا عن ارتكاب هذه الأعمال الممقوتة.

وقد استقر الرأي على أن نكتب أولاً إلى محمد علي جناح نطلب إليه أن ينتظر هو وإخوانه بعض الوقت حتى تنجلي الأمور بعض الشيء ونحن نؤيدهم على أن يتحينوا أول فرصة مناسبة ويعلنوا انفصالهم عن الهندوس، ونخبره أن الوفد بكامل هيئته أرسل رسالتين إحداهما إلى غاندي والأخرى إلى نهرو ونطلب إليهما أن يعملا جدياً على وقف هذه المآسي وأن يردا علينا سريعاً برأيهما وأن نبصرهما بعواقب هذه الأعمال وهما لا شك يعرفان نتائجها التي تنعكس على استقلال الهند وعلى مستقبله - ثم نوصي المسلمين بالتذرع بالصبر والاحتمال والأناة حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

نفذت قرار الوفد فيما يختص بمشكلة المسلمين في الهند وكتبت الرسائل التي تقررت وبعثت بها إلى أصحابها، وقد أضفت إلى رسالة غاندي عبارات فيها أن شهرته مبنية على عدم التعصب، وأنه يعمل على تحرير المنبوذين من أبناء ملته، أفلا يتسع أفقه - وأنا أعتقد أنه ناضج - فيعمل على حض مواطنيه على ألا يتحرشوا بمواطنيهم من المسلمين حتى تظهر الهند بمظهر الرجل الواحد بقيادة زعيم واحد.

وكتبت لنهرو بهذا المعنى وذكرته بالأحاديث التي كانت تدور بيننا وبين والده ونحن في سيشيل وأننا كلنا ضحية الاستعمار وأن المحتل لا يفرق بين دين ودين ولكنه يلتهم المواطنين جميعًا، وانتظرت في ألم ممض أن يأتيني رد أطمئن فيه على حال إخواننا في الدين والعقيدة.

(٩)

انتشرت الشائعات بأن الملك غضبان لأنه علم أن لأمه صلة بأحمد حسنين، وأنها تزوره في منزله بين الوقت والآخر وأنه وضع رقابة شديدة عليها ولما علم ذات ليلة أنها هناك قصد من فوره إلى دار حسنين ودخل بغير استئذان وفتح حجرة الصالون فرأى أمه جالسة على سجادة وفي يدها مصحف تقرأ فيه وحسنين يجلس إلى جانبها.

وبهتت الملكة ونظرت إلى ولدها في غضب شديد، وقالت له أتتجسس عليّ، وهل تظنني إحدى صاحباتك أو إحدى رعاياك، فقال لها ما هذا الذي أراه، قالت ترى ماذا ترى سيدة جالسة على سجادة الصلاة تؤدي فرض الله وإلى جانبها زوجها فصعق الملك من هذا الخبر وقال لها زوجك؟ ومتى تزوجت؟ قالت ما شأنك أنت، فنظر إلى حسنين وسأله فقال له إننا متزوجان زواجًا عرفيًا على كتاب الله وسنة رسوله ولكننا كتمناه حتى لا نسيء إليك ولا نشمت فيك الخصوم والأعداء.

فخرج الملك مطأطأ الرأس مسرع الخطى وترك أمه في بيت حسنين.

لم أعلق على هذا النبأ إلا متمثلاً بقول الشاعر العربي:

إذا كان رب البيت بالدف ضاربًا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

وليس عجيبًا أن تقول الشائعات أيضًا إن الأميرات كل واحدة منهن مشغولة بسهراتها.

استقبلت اليوم مستر ريد وقدم لي ثلاثة كانوا معه من الأجانب وكذلك محمد فرغلي تاجر القطن المعروف في الإسكندرية تكلمنا في عديد من مشاكل الساعة وجاء ذكر اعتداء البوليس على الذين استقبلوني أو ودعوني فقال ريد إنه اجتمع منذ أيام بالسفير البريطاني في إحدى المآدب وجاء ذكر الاعتداء على مستقبليك فقال لاشك إن النحاس باشا سيتهمنا بأننا وراء هذه الحوادث لكني أؤكد لك أني أعلم بها إلا بعد أن قدم لي بعض أعواننا تقريرًا مستفيضًا بها، وقد عاتبت سري باشا عتابًا شديدًا على هذا التصرف لما التقيت به فأكد لي أن هذا كله جرى بتدبير من السراي وأنه أحيط علمًا به بعد أن دبروه وبيتوه، وأنه حاول منعه فتدخل الملك شخصيًا وأمره ألا يفعل ولم يسعه إلا أن يخضع لإرادة مولاه.

ولما جاء ذكر خطبة رأس البر علق بعض الحاضرين من الأجانب عليها (مستر روبير) بأنها - كما سمع خطبة صريحة جريئة كشفت كثيرًا من الأسرار التي كان الأجانب يجهلونها لكنهم لم يكونوا يعرفون أن الاعتداءات التي وقعت من تدبير الملك وحاشيته لأن الملك لا يجب أن ينزل إلى هذا المستوى من الإسفاف.

وقال ريد إن رجال السفارة مستاءون جدًا من هذه التصرفات وأنهم مجمعون على أنه يجب أن يقف الملك عند حده، وأن السفير أشدهم حماسة ولكنه مقيد برأي وزارة الخارجية البريطانية، وأنه يكرر في كل فرصة ضيقه بالحالة، وخوفه من أن المسائل لو ظلت هكذا وطالت الحرب فإنه يخشى من أن ينفجر البلد ويخرج الأمر حتى من أيدي الجيش البريطاني.

وقال فرغلي باشا إن الانجليز غير ملومين في هذه الظروف، ولكن اللوم على المصريين الذي يأتمرون بأمرهم، وينفذون لهم كل طلباتهم، هم يخدمون بلادهم، ونحن نسيء إلى بلادنا فما أبعد الفرق بين الموقفين.

فقلت أصبت في هذا الرأي، ولكنهم سيظلون يحتجون بالحرب حتى لا يبقوا لمصر شيئًا من مظاهر استقلالها وحريتها ودستورها.

أخبرني حمدي سيف النصر أن (راسبوتين) مصر الشيخ المراغي كان في زيارته وجرى الحديث بينهم حول شائعة زواج الملكة نازلي من أحمد حسنين فقال إن الملك سأله عن الزواج العرفي فقال إنه مباح وأنه لا يخالف الشرع ونصح للملك ألا يتصرف تصرفًا يؤخذ عليه في هذا الخصوص لأن الملكة أمه وسوء سمعتها يؤثر على مركزه وأحمد حسنين رجله وهمزة الوصل بينه وبين الانجليز والإساءة إليه أو إغضابه خسارة كبيرة،

وأن الملك عندما سمع هذه النصيحة صمت ولم يرد.

وقال حمدي إنه ناقش المراغي في أن هذا حكم شرعي صحيح؟ فأجابه بنعم وأخذ يشرح له الزواج وأن الأصل فيه الإيجاب والقبول والمهر، أما الوثائق التي يحررها المأذون فهي لحفظ الحق المدني فقط وأن عدم وجودها لا يحرم الزواج مادام الزوجان بالغين عاقلين يملكان التصرف ومادام أن شاهدين شهدا على هذا الزواج وقالا إنهما حضرا العقد، بل لقد قال المراغي له إن بعض المذاهب الإسلامية تكتفي في الزواج بالإيجاب والقبول دون الحاجة إلى شهادة شهود، وعقب على هذا فقال ومادامت الملكة نازلي بالغة رشيدة وحسنين باشا رجلاً رشيداً وقد قالا إن شاهدين حضرا العقد فلا يوجد مانع شرعي يمنع هذا الزواج، وأن الملك سر من نصيحته وهدأت ثائرته بعض الشيء.

ساءت حالة التموين في البلد بشكل مؤلم وأصبح الجمهور لا يجد حتى الخبز الأسود إلا بشق النفس وقد نقل إلينا أن الناس يقفون على أبواب المخابز ويتخاطفون الخبز من أيدي الباعة وتقوم بينهم مشاجرات تؤدي إلى الاعتداء بالأيدي، وأصبحت الحالة لا تطاق.

أما الحاجات الضرورية فقد اختفت نهائياً من الأسواق ونشط تجار السوق السوداء وأصبحوا يتحكمون في المواطنين بلا ضمير ولا رقيب لأن الحكومة في غفلة عنهم.

على الرغم من أن مصر لم تدخل الحرب رسمياً إلا أن حالتها أسوأ من كثير من البلاد التي تدور فيها رحى الحرب فعلاً ذلك أن مشكلة العطالة ازدادت تفاقماً، وأصبح معظم المرافق غير صالح وعمت الشكوى جميع الجهات وارتفعت الأسعار ارتفاعاً باهظاً بحيث غدت الدخول لا تتناسب مع غلاء الأسعار.

أخبرني محمد عزام بك نقلاً عن شقيقه عبد الرحمن عزام صديق علي ماهر الحميم أن الانجليز بدأوا يظهرون استياءهم من تصرفات علي ماهر وأنهم طلبوا من الحكومة اعتقاله في أحد المعتقلات المصرية، ولكن الملك يحاول جاهداً ألا ينفذ هذا الأمر وأن يحتفظ بعلي ماهر إلى جواره لأنه هو الذي يشير عليه في التصرفات السياسية والشيخ المراغي في المسائل الدينية.

وقلت لعزام بك وأين الحكومة المصرية التي يجب أن تتحمل مسئوليتها كاملة، وكيف يتدخل الملك في كل صغيرة وكبيرة ورئيس وزرائه كالدمية يحركها صاحبها كيف يشاء، وإذا كان الانجليز يريدون اعتقال علي ماهر كما يقولون فلا أظن أن الملك يستطيع أن يعارضهم في أمر كهذا، ولكنها شائعات يروجها ماهر باشا عن نفسه وينقلها عنه انصاره وأصدقاؤه حتى يظهر للناس بمظهر البطولة، وأنه رجل له وزنه.

وأنا أعرف علي ماهر أكثر من أي شخص آخر والذي يؤكد أن هذا الخبر ما هو إلا شائعة ماهرية أن الانجليز طلبوا إبعاد صالح حرب باشا أحد وزراء الوزارة الماهرية السابقة، فأجيبوا إلى طلبهم في الحال، ورحّلت الحكومة حرب باشا إلى أسوان وحددت إقامته في منزله وطلبت ألا يتصل بأحد ولا يتصل به أحد، أوليس علي ماهر الذي يقولون

عنه أنهم ضبطوا لديه ولدى أخصائه وثائق تفيد انه على اتصال بالمحور، ألم يكن أولى بالاعتقال من صالح حرب.

زارني الأستاذ يوسف الجندي وقال لي: إنه يريد أن يقدم استجوابًا لرئيس الوزارة ووزير التموين عن الأزمة التي يقاسيها المواطنون وعن الخبز الأسود الذي لا يجدونه وأتى بأرقام ووقائع تدل على إهمال الحكومة واستهتارها كما أتى بأرقام وإحصائيات على أن البلد مقدمة على مجاعة، وأنه لايوجد لديها من الحبوب ما يكفي لعدة أيام.

وقد درست معه العناصر الرئيسية التي يبنى عليها استجوابه واتفقنا على رؤوس المسائل ووافقته على تقديمه للحكومة في أقرب فرصة.

أمس مساء، بعد أن انصرف الزائرون وعدت إلى الطابق العلوي في المنزل جاء الخادم يخبرني بأن شخصًا لم يفصح عن اسمه يطلب مقابلتي، ويقول إنه جار من جيراني فنزلت مرة أخرى وقصدت إلى الصالون فرأيت مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية فتعانقنا وقال إنه أسف على الحضور في ساعة متأخرة وأن عذره معروف لأنه لا يحب أن يراه أحد عندي فيشي به عند الملك، ثم اعتذر لي عن أنه لم يأت قبل هذا للسلام على بمناسبة عودتي من المصيف لأنه كان يجد المنزل غاصًا بالزائرين لوقت متأخر.

فشكرته على هذه الزيارة ثم دار الحديث عن فاروق ومباذله وعن العبث الذي يرتكبه كل ليلة دون وازع ولا رقيب فأنبأني بأن فضائحه استشرت، وأن سمعته السيئة أصبحت على كل لسان وفي كل يوم تعرف عنه مأساة نسائية أو جريمة سرقة في لعب القمار حتى أن أكثر الذين يلعبون معه على المائدة أخذوا يتهربون ويمتنعون عن الحضور.

ثم سألته عن شائعة زواج الملكة نازلي بأحمد حسنين فقال إنها صحيحة وأن موظفي القصر جميعًا يعرفون هذا وأنها هي شخصيًا تجاهر بها، ومن الأسف أنها لا تكتفي بهذا بل لقد ضمت إلى حاشيتها عددًا من الشبان من أبناء الطبقة الراقية كما يطلقون على أنفسهم، وأن الوصيفات والموظفين يتحدثون عن فضائح مشينة تقع وأنها لا تعود إلى القصر إلا في ساعة متأخرة من الليل وكثيرًا ما يكون بصحبتها أحد شبان التشريفات الذين اختارتهم بنفسها.

وقد سمعت أن شقيقها حسين تحدث معها حول هذا الموضوع من بعيد فثارت في وجهه وقالت أنا حرة في تصرفاتي، وليس لأحد منكم أن يخاطبني في هذا الشأن واحتدت على أخيها وقالت له كلمات نابية عرضت ببعض بناته وبشقيقه شريف باشا وهددته بالمقاطعة التامة.

وقال مراد باشا إن أمثالنا من الرجال الطاعنين في السن أصبح لا يحتمل مثل هذه المناظر المؤذية وإنني أفكر جيدًا في اعتزال العمل والقعود في منزلي بعيدًا عن هذه المشاكل المؤلمة.

عجبت من هذا الحديث وقلت إن الملكة نازلي ليست فتاة طائشة بل هي امرأة كبيرة وهي ملكة وأم ملك أفلا يجوز أن هذه الشائعات مبالغ فيها؟ فقال لا إنها قليلة بالنسبة لما يقع، فأجبته إن العيب ليس عيبها بل عيب ابنها لأنه بفجوره ومجونه فتح لها الباب على مصراعيه.

فقال إن الملك يقول لأخصائه إن ما جره على هذه الأعمال التي يرتكبها كل ليلة هو تصرف أمه المشين وأنه يئس من إصلاحها فألقى بنفسه بين أحضان النساء وموائد القمار ولسنا نعرف أيهما على حق وأيهما على باطل فقد اختلط الحابل بالنابل، وأصبحت المسائل لا تحتمل ولا تطاق، وأصارحك أن الملك فؤاد كان حاكم زوجته وصائنها عن هذا العبث، أما ابنه فهو ولد طائش وشاب مفتون مخدوع ومن حوله من الطليان والمصريين وشويكار يزينون له عمله ويشجعونه على فسوقه، وإني أعتقد أن شويكار تنتقم لنفسها من ابن زوجها الذي طلقها ومن أمه التي تزوجها عليها.

لم أعلق على هذا بشيء إلا أنني أسفت وقلت لمراد باشا هذه أسرار قصور والحمد لله الذي لم يجعلنا من أبناء القصور، ولا من أبناء الأعيان والذوات بل جعلنا من أبناء الشعب المكافحين الذين يأكلون من عرق جبينهم ولا يعتمدون على أب أو أم أو جد، ثم نصحت له بخصوص اعتزاله العمل أن ينتظر خاصة وأنه قارب سن الإحالة على المعاش فلا داعي لأن يعرض نفسه لسفاهة ولد كفاروق أو حاشيته.

فقال لك حق وسأظل في مكاني على مضض حتى ينتهي الأمر.

حضر أشيل صيقلي وبدأ حديثه بأنه يحمل إليّ تحية وسلامًا وتهنئة بالوصول من صاحب المقام الرفيع محمد توفيق نسيم باشا، وأنه أوفده نظرًا لعدم استطاعته الحضور بنفسه لضعف صحته وإقامته في فيلته) بمنطقة الهرم وقال إن رجال السراي يدبرون له مكيدة سافلة لما يضمرونه له من الحقد والكراهية لصلته الوثيقة بالوفد ورئيسه وأنهم ضموا إليهم توفيق دوس المحامي وكلفوه بأن يرفع دعوى أمام المجلس الحسبي يطلب فيها توقيع الحجر على نسيم باشا بحجه أنه يريد أن يتزوج شابة سويسرية اسمها (مس هويلر) تعرف بوالدها وبها عندما كان يستشفى في سويسرا قبيل الحرب وأنه اتفق معها على أن تقوم بخدمته وتسهر على راحته وهو أي نسيم باشا بصفته من رجال القانون ورؤساء المحاكم السابقين يرى أن هذه القضية كيدية ومقصود من ورائها التشهير به.

وهو يسألني بصفتي محاميًا سابقًا أن أبدي له الرأي في مثل هذه القضية ومدى أمل خصومه من كسبها، وهل يرى من المصلحة أن يثير وكيله أمام مجلس السر الذي يكمن وراء هذه الدعوى ومن يشير بتوكيله من الأساتذة المحامين في هذا الخصوص؟

أسئلة كثيرة وخبر مؤلم حقًا، فقلت لأشيل أن يبلغ رفعة نسيم باشا خالص شكري وصادق تمنياتي له بأن يمن الله عليه بالشفاء، وأني كمحام أعتقد أن مثل هذه القضية لا أساس لها من القانون لأن الأصل في كل إنسان أن يتصرف وفق رغباته وطبقًا لما خوله له الشرع

والقانون ولم يعرف عن نسيم باشا أنه رجل طائش أو ماجن وإذا كان قد اختار فتاة لخدمته.ورأى أن يكافئها على إخلاصها بأن يعقد عليها عقدًا شرعيًا فليس في هذا عيب أو أي تصرف خاطئ.

تلقيت رسالة رقيقة من المهاتما غاندي زعيم الهند ردًا على رسالتي قال فيها إنه يعمل جهده لمنع الهندوس من التعرض للمسلمين والاعتداء عليهم وأنه يقضي كل يوم ساعات طويلة يطوف الشوارع ويجوب الطرقات، يحرض على العصيان المدني ومقاطعة البضائع الانجليزية ولبس الملابس الوطنية وهو يصحب معه عنزته ومغزله، وكلما رأى جماعة من الهندوس يهمون بالاعتداء على المسلمين يقف ويعظهم ويشرح لهم مغبة هذا التفرق، وأن الانجليز يتخذونه وسيلة للبقاء في الهند واستعمارها.

وأن دعوته تلقي نجاحًا بطيئًا إلا أنها في طريقها إلى الاستجابة وهو يشكر لمصر ولزعيمها عنايتهم بشئون الهند ووحدتها واستقلالها.

لم أكد أطلع على رسالة غاندي حتى أرسلت ملخصًا وافيًا منها إلى محمد علي جناح مشفوعًا برجاء أن يعمل من ناحيته على تجنب احتكاك المسلمين بالهندوس قدر المستطاع حتى لا تقع حوادث ولا ترتكب جرائم، وكررت له التذرع بالصبر واستعمال الحكمة إلى أن تضع الحرب أوزارها وعندئذ سيكون لهذا الموضوع حل جذري ونهاية موفقة إن شاء الله.

زارني وفد من مستحقي وقف البدراوي وعبد العال بسمنود يشكون من أن الناظر على الوقفين المذكورين لا يصرف لهم مستحقاتهم وأنهم مصممون عل رفع دعوى بعزله وتعيني ناظرًا على الوقفين المذكورين لأنهم كانوا إبان نظارتي يحصلون على جميع مستحقاتهم بنظام ودقة.

لكنني نصحت لهم أن يتريثوا ولا يتقدموا برفع الدعوى التي يريدونها ذلك لأن الظروف غير ملائمة، والحكومة تتدخل في كل صغيرة وكبيرة ولا يضمن أن يحكم القضاء لصالحهم، وعليهم من الآن أن يجمعوا الأدلة والبراهين على أنهم لا يحصلون على حقوقهم وعند الوقت المناسب يرفعون دعواتهم ويحتكمون للقضاء، ولكنهم أصروا على رأيهم وقالوا إننا سنجمع بعض الأموال من بيننا ونذهب إلى أحد المحامين في طنطا ليرفع لنا الدعوى.

وقد جرت العادة أن القضاء لا يحكم في مثل هذه الدعاوي بسرعة بل يطلب أدلة ووثائق ومستندات وشهودًا ومذكرات وما شابه ذلك، وهذه كلها أشياء تحتاج إلى وقت طويل قد ستغرق عامًا أو عامين ونحن نريد أن نستعد من الآن حتى لا نضيع من الوقت أكثر مما ضيعنا.

ولما رأيت إصرارهم وتصميمهم وافقتهم علي أن يحسنوا اختيار المحامي الذي سيتولى القضية وهم وحظهم وقدرهم، فقد سبق أن تحدثوا إليّ في هذه المسألة منذ مدة طويلة ولا يزال العهد هو العهد والموقف هو الموقف ولم يجد جديد.

زارني الشيخ أبو الوفا الشرقاوي للسلام عليّ بمناسبة حضوره إلى القاهرة، وقد قضينا وقتًا طيبًا تبادلنا فيه مختلف الأحاديث وكان مما قاله أن الأمير يوسف كمال يبلغني تحياته وإعجابه بمواقفي الصلبة وخاصة ضد الملك الطائش، وقد انتهزت الفرصة فأجبته بعد شكر الأمير على تحيته ليس فاروق هو الطائش وحده في الأسرة المالكة ولكن هناك طائشين كثير وابتسمت، فقال تقصد أحدًا بالذات، قلت نعم أقصد صاحبك الأمير الذي حملت إليّ تحيته فإني أسمع عنه أنباء غريبة، وأحاديث عجيبة.

قال مثل ماذا؟ قلت يقولون مثلاً إنه يهوى اقتناء الكلاب وإنه خصص لهم راعيًا يتولى أمورهم ويعد لهم أطعمة فاخرة لا يحصل عليها موظفو دائرته ولا عمالها، بل يقال إنه يجلس إلى جوارها على المائدة ويقدم لها أشهى الأطعمة بيده بل ويضع في رقابها سلاسل من ذهب تساوي مئات الجنيهات وأنه يدللهم كما لو كانوا أبناءه وأصدقائه مما لا يحظي بجزء ضيئل منه خدمه الذين أخلصوا في خدمته ومزارعوه الذين يتولون إدارة مزارعه الواسعة، هذا ولا شك – إن صح – شيء مشين وقبيح للغاية.

فقال إن هذه الأخبار التي وصلت إليك مبالغ فيها فالأمير يقتني عددًا من الكلاب النادرة جلبها من الخارج لحراسة قصره في نجع حمادي ولا شك أنك تعلم أن في الصعيد لصوصًا ورؤساء عصابات وهم يسطون بين وقت وآخر على المزارع والأملاك وليس هو وحده الذي يقتني كلابًا حراسًا بل إن كثيرًا من الأعيان وأصحاب الأطيان يفعلون ذلك.

قلت له حتى لو كان ما سمعته مبالغًا فيه لكن الأحاديث تواترت وما من شك في أن فيها من الصحة شيئًا ولو أن الأمير رجل عاقل – كما تقول – وتهمه سمعته ويخشى من رأي الناس فيه لكف عن مثل هذه التصرفات أو في الأقل خفف منها، ولو كان ما يقال عنه شائعات ولا أساس لها من الصحة لعمد إلى تكذيبها خصوصًا بعد أن نشرت بعض الصحف الأسبوعية أخبارًا مستفيضة وأوصافًا غريبة عن كلاب الأمير وحياتها والبذخ الذي تعيش فيه.

فقال الشيخ أبو الوفا إن سموه حين يدعوني إليه وأذهب إلى القصر سواء في نجع حمادي أم في المطرية لا أجد أثرًا لهذه الكلاب وإن كنت سمعت بعض الأخبار عنها، فقلت له إن هذه مجرد ملاحظة جرنا الحديث إليها والحديث ذو شجون – كما تعلم – وإن رأيي في الأسرة المالكة لم يتغير منذ عرفتهم واحتككت بهم منذ الخديوي عباس إلى الآن.

وتطرق الحديث عن فاروق مرة أخرى فقال إنه سمع من رجال حاشيته أن النحاس يعمل هو وأنصاره على أن يقلبوا البلد جمهورية وهو وإن كان لا يهمه الملك إلا إنه لن يمكن لكم طول حياته من الوصول إلى هدفكم، فسخرت من هذا وقلت له بلغ من قال لك هذا إني لا أفكر في مثل هذه الترهات على الإطلاق ولو صح واعتزل فاروق لأي سبب من الأسباب فلن نفكر في تغيير نظام الحكم إلا إذا شاء ممثلو الأمة هذا وطمأن محدثك بأن عرش

فاروق محمي بسادته الانجليز، جاء بعد ذلك وفد من الجيزة على رأسه بيومي مدكور بك ومحمد عزام بك ومحمد قرني بك وسعد مكرم بك وغيرهم، وتحدثنا طويلاً في الموقف الحاضر وتطرق الحديث إلى الحرب وما وصلت إليه، فقال عزام بك أن شقيقه عبد الرحمن عزام حدثه أن بعض رجال السفارة البريطانية والملحق الحربي بها طلبوا إليه أن يساعدهم - باعتباره أكبر خبير في الصحراء العربية - ويرسم لهم رسمًا دقيقًا للطرق التي يمكن لجيش المحور أن ينفذ منها إلى مصر والثغرات التي يمكن له فتحها حتى يستعدوا لذلك ويعملوا حسابهم إذا هو اتجه من طريق تلك الصحراء.

وكان جواب عبد الرحمن الاعتذار عن القيام بهذه المهمة إذ قد مر عليه وقت طويل لم يذهب إلى الصحراء ولعل تغييرات أو طرقًا جديدة جدت فيها وهو لا يعرفها، وعلق محمد بك عزام على ذلك بأن قال إن شقيقه قال له كيف يطلب هؤلاء المحتلون أن أساعدهم على أن يظلوا جاثمين على أنفسنا، ونمد إليهم يد العون في هذا وهم يعلمون أنني كنت عضوًا في وزارة علي ماهر باشا التي قررت قرارها بعدم دخول مصر الحرب وكنت من أول الموافقين عليه، وإذا كنت أعرف طريق الصحراء الغربية ومتاهاتها وثغراتها فهذه معلومات تخصني أنا لمصلحة بلادي لا لمصلحة مستعمر أو غاز أيا كان وكان لونه وجنسيته.

وقد حملت محمد بك تحية تقدير لشقيقه على هذا الموقف الوطني العظيم الذي لا يستغرب من جندي قديم عرف للجندية حقها وللشرف العسكري قيمته وللوطن الذي أنشأه وغذاه حرمته.

كما أرسلت إلى إخواننا في بيروت رسالة تضمنت ملخص ما قلته لكاترو، وكررت لهم النصيحة بضبط الأعصاب، وختمتها بأننا معهم في كل الظروف وجميع الأحوال.

زارني وفد من علماء الأزهر كان من ضمنه الشيخ علي سرور الزنكلوني من هيئة كبار العلماء وهو معروف بأنه صديق لحزب الدستوريين وينتمي إليهم وقد عجبت حين رأيته، ولكنه قطع عجبي بأن قال إنني أجيء لزيارتك أول مرة لأعلن مع إخواني العلماء إننا لا نقر الشيخ المراغي على السير في ركاب فاروق، ولا نرضى عن تحريض طلبة الأزهر على القيام بمظاهرات تؤيد الملك وتهتف له في الشوارع، وإني كنت من الذين يدينون للمراغي بعودته إلى الأزهر بعد فصلي منه لكنني لا أقبل لا أنا ولا أحد العلماء أن يكون شيخ الإسلام ذيلاً للملك ولا لغيره حرصًا على كرامة هذا المعهد العتيد وتمسكًا بكرامة العلم والعلماء.

حمل إليّ الصحفي حبيب جاماتي المحرر بدار الهلال رسالة تحمل توقيع السادة بشارة الخوري وعبد الحميد كرامي وعبد الله اليافي ورياض الصلح وعدد كبير غيرهم، وكلهم من كبار أبناء لبنان الشقيق وقد تضمنت الرسالة أن رجال الحملة الفرنسية المعسكرين في بيروت بقيادة الجنرال كاترو يعاملون أهل البلاد معاملة قاسية، ويحصون عليهم خطواتهم، وحركاتهم ويراقبونهم كأنهم مجرمو حرب، وأن أبناء لبنان ثائرون على

هذا الوضع الشاذ، ويجري في عروقهم حمية العرب ويريدون أن يخربوا ويدمروا ويدخلوا في معركة مع الجنود الفرنسيين وقائدهم، ويطلبون الرأي.

فقلت لجاماتي إني سأرد على هذه الرسالة بعد أن أكتب للجنرال كاترو لأني تعرفت به وزارني عندما كان في مصر، وأطلب منه أن يكف هو وجنوده عن معاملة أهل بيروت بجفاء وقسوة لأن ذلك ليس في مصلحة الحلفاء ولا ينفع فرنسا المحتلة في شيء، وفي ظني أن الجنرال ديجول رئيس الوزارة الفرنسية وقائد الحركة ضد الاحتلال في المنفى لا يرضى عن هذه الأعمال.

وحملته إلى الإخوة في لبنان تحية ونصيحة أن يضبطوا أعصابهم وألا يثوروا أو يتحدوا جنوداً مسعورين فقد لا تكون العاقبة محمودة.

حررت رسالة بالفرنسية إلى الجنرال كاترو وركزت فيها على أن كل استفزاز لأهالي لبنان وكل قسوة معهم لا تنفع قضية تحريرهم هم الفرنسيون بل ربما يسيء إليهم ويخسرون من ورائها عطف كثير من شعوب المنطقة العربية، وذكرته بأن معظم بلاد العالم تشارك فرنسا ألمها وثورتها على احتلال الألمان لهم وتنادي بعودة الأمر إلى أهله، وليس من المعقول أن يشذ ضابط كبير من كبار الضباط مثلك فيعامل بلاداً ضد ما يريده لأهله ولمواطنيه، وحذرته مغبة هذا العمل.

مر على مكرم في المنزل وخرجنا معًا إلى النادي السعدي وتحدث معي في أنه سيلقي كلمة في احتفال عيد الجهاد، وأن (ريد) كلمه في ألا يهاجم الانجليز ورجاه أن يكلمني في هذا الخصوص، فقلت له لا أنا سأقول ما أعتقد، وأنت تعلم أني تعودت أن يكون ظاهري كباطني يعبثون ويشجعون الحكومة على المضي في طريقها مع علمهم بأنها حكومة ضعيفة لا أنصار لها ولا مؤيدين فضلاً عن هذا فإن الحالة خطيرة، وإذا سكتنا عن تبصير المواطنين بواجباتهم في هذه الظروف فستضيع البلد، فإما أن يدخل الألمان والطليان فيحتلوها احتلالاً أبديًا، وإما أن يظل الانجليز فيها إلى ما شاء الله، ونكون قد ضيعنا من عمرنا أكثر من عشرين عاماً في الجهاد والنفي والاعتقال ولم نجن شيئًا لمصر، وتكون المعاهدة التي تعبنا حتى وصلنا إليها حبرًا على ورق، وأنا لا أقبل هذا بحال من الأحوال.

وإذا أتيح لك أن تلتقي بـ(ريد) أو بأي أحد يكلمك في هذا الشأن فقل له إن رأيي هو هو لم يتغير، ولم يتبدل، ولم يجد جديد حتى أهادن الانجليز أو أغير رأيي فيهم.

فقال مكرم إن ريد يؤكد له أن رجال السفارة وعلى رأسهم السفير مايلز يعملون جاهدين على إنهاء الوضع الحالي، ولكن الملك يركب رأسه ويقف حجر عثرة أمامهم، أجبته: ليخلوا بيننا وبين الملك وليكفوا عن مساندته وتأييد حكومات الأقليات التي يجيء بها كل يوم على هواه وعندئذ سيعرفون أن مصر لن تقبل بحال أن تعيش في وضع شاذ وستجاهد وتثور حتى يصان دستورها وتحترم الحياة النيابية فيها.

تلقيت ردًا من الجنرال كاترو على الرسالة التي سبق أن أرسلتها إليه عن تصرفاته في

لبنان وقد جاء رده أنه لم يستعمل أية قوة مع اللبنانيين، ولا مع غيرهم، ولكنه يعمل على صيانة الأمن والنظام، وأن الإجراءات التي اتخذها أو يتخذها هي لهذا السبب وحده، وأنه التقى بكثير من الزعماء السياسيين، وأكد لهم رغبة الجنرال ديجول رئيس الوزارة في المنفى بأنه عندما تنتهي الحرب لصالح الحلفاء سينالون استقلالهم وحريتهم وأنهم مسرورون لذلك ومتفاهمون معه كل التفاهم.

بعثت إلى جبيب جاماتي وإخوانه من اللبنانيين فحضروا إليّ وأطلعتهم على رد الجنرال كاترو فأكدوا أنه يغالط، وأنه يستعمل مع المواطنين هو والجنود الفرنسيون العسف والقسوة ويمنعهم من الحركة والتنقل إلا بإذن منه.

وقد علقت على هذا بأنني أرقب الأحداث فإن وقع تصرف يضر بصالح المواطنين اللبنانيين سأكتب رسالة عنيفة شديدة أحمله فيه مسئولية أعماله ونتيجة تصرفاته.

حضر الزعيم العربي عبد العزيز الثعالبي ومعه عدد من إخواننا من البلاد العربية والشرقية قدمهم إلى وعلمت منهم أنهم من عدة بلاد مختلفة وأنهم لجأوا إلى مصر زعيمة العروبة فرارًا من البطش والإرهاب اللذين لقياهما في بلادهما، وقالوا إننا قد ألفنا جالية عربية شرقية في مصر تضم عدداً من المتوطنين الهاربين من الظلم والعسف مهمتهم أن يبصروا أبناء بلادهم وأصدقائهم بما يدور فيها وبما يقاسونه من عذاب وويلات وهم يطلبون إليّ أن أزور رابطتهم التي اختاروا لها مقرًا في ميدان الأوبرا لأتعرف عليهم وأعرف شيئًا عن كفاحهم وجهادهم، فوعدتهم بأن أفعل في أقرب فرصة إن شاء الله.

تحدث المتصلون بالقصر الملكي أن الملك قد اصطدم بوالدته صدامًا شديدًا وأن مشادة عنيفة وقعت بينهما وأن الملكة نازلي قالت لإبنها لأول مرة بصراحة مادمت خاضعًا لشويكار وبطانتها فستسوء سمعتك أكثر مما ساءت وسيكرهك الشعب كل يوم أكثر من ذي قبل، وقد غضب فاروق من هذا الحديث وقال لها كلمات قاسية تمس السمعة والشرف وصارحها بأن شويكار ليست أسوأ منها، وعندما وصل النقاش إلى هذا الحد خرجت غضبي وأقسمت ألا تكلمه ولا تتصل به لا من قريب ولا من بعيد.

استمعت إلى هذا الحديث فحزنت وتألمت ... إلى هذا وصل الاستهتار في مثل هذه الأيام المباركة التي يتصالح فيها المتخاصمون ويتفق المختلفون، يقع بين الأم وولدها الوحيد مثل هذه المشادة وتصل المسألة إلى التعبير بالأخلاق والسمعة والتصرفات المشينة، اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله.

يطلبني ويخبرني حسن يس أن البوليس قبض على كامل البنا في الساعة الرابعة من صباح اليوم وذهب تحت حراسة مشددة إلى قسم عابدين لإجراء تحقيق معه ولا ندري لماذا، فقررت إلغاء السفر وكلفتهم بأن يبحثوا له عن محام أو اثنين لحضور التحقيق، وأخذت من ناحيتي اتصل بأعضاء الوفد من المحامين فلم أجد مكرم ولا نجيب ولا صبري ولا أحدًا من كبار المحامين لأنهم جميعًا سافروا لقضاء إجازة العيد خارج القاهرة، ولما

أعاد حسن يس والشافعي البنا الاتصال بي سألتهما ألم تجدا محامين قالا إننا نبحث فلم نجد فكلفتهما بأن يبحثا عن أي محام ويتفقان معه على أي أتعاب ليحضر التحقيق وليس من الضروري أن يكون وفديًا، وبعد قليل تحدثا إليّ وقالا إنهما عثرا على الأستاذين مصطفى رجب وحسن حسني المحاميين وذهبا متطوعين لحضور التحقيق وطلبت أن يوافياني بالأخبار أولاً بأول.

ثم اتصل بي عدد من الذين كانوا حاضرين في القسم ينتظرون النتيجة فقالوا إن المحقق انصرف وأودع المتهم السجن وأن المحامين حضروا فرفض إدخالهم قاعة الحقيق، ثم اتصلوا بي في المساء وقالوا إن رئيس النيابة حضر وبدأ التحقيق ونحن في انتظار النتيجة لإخبارك وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل اتصلوا وقالوا إن النيابة قد أمرت بالإفراج عنه نظير كفالة مائة جنيه تقدم شقيقه فدفعها في الحال ونحن في انتظار الإفراج عنه وسنوافيك.

قلت لهم إني سأظل سهران حتى تكلموني، وبعد عدة دقائق اتصلوا مرة أخرى فاجأوني بأن رئيس النيابة انصرف وجاءوا بعد دفع الكفالة ليصحبوا (المتهم) - كما يقولون - فقال لهم المأمور إنه محبوس هنا على ذمة الحاكم العسكري لا علي ذمة النيابة فإن مهمة التحقيق القانوني قد انتهت، فقلت لهم انتظروا واتصلوا بعد نصف ساعة لأني سأتخذ إجراء شديدًا.

وطلبت رئيس الوزراء بصفته الحاكم العسكري العام فأخبروني أنه يقضي إجازة العيد في استراحة القناطر الخيرية فاتصلت به وأيقظته من نومه وخاطبته بلهجة فيها عنف قائلاً كيف يقبض رجالك على سكرتيري في ليلة العيد لجريمة تافهة ويحقق معه المحقق ويأمر بالإفراج عنه بعد دفع كفالة وتدفع الكفالة فيأتي مأمور قسم عابدين ويقول إنه مقبوض عليه ومسجون على ذمة الحاكم العسكري.

فقال رئيس الوزراء سأرد عليك بعد قليل، ثم كلمني سري باشا رئيس الوزراء فقال أنا آسف لهذا الحادث وقد أمرت بالإفراج عن سكرتيرك في الحال وكلفت محافظ القاهرة شاهين بك بصفته حاكم القاهرة العسكري بأن يذهب بنفسه إلى قسم عابدين ويشرف على إطلاق سراحه ولا يبرح القسم إلا بعد أن يطمئن على هذا الأمر بنفسه، فشكرته وانتظرت، وبعد ساعة تقريبًا اتصل بي حسن يس وأخبرني أن المحافظ حضر إلى القسم وأخذ مفتاح السجن من السجان وفتح بنفسه ثم أطلق سراح الأستاذ البنا وسلم عليه وهنأه وعرض عليه سيارته لتوصله إلى ما يريد.

فاسترحت وقلت لهم احضروا الآن ومعكم (المتهم) وكان سروري عظيمًا، ولست أدري لم تألمت ألمًا شديدًا لهذا الحادث ألأنه غير برنامج سفري إلى سمنود - أم لأنه العاطفة الإنسانية غلبت عليّ، أظن أن هذه الأشياء مجتمعة هي التي جعلتني أهتم بهذا الحادث كل الاهتمام وأظل ساهرًا حتى أطمئن على إطلاق سراح هذا الشاب، ذلك لأن الظروف التي

احاطت باعتقاله من برد قارس وليلة موسم ديني كبير وإيداعه السجن بين شرذمة من المجرمين، كل هذه الأشياء مجتمعة جعلتني أمتلئ ألمًا وعطفًا عليه وأهتم بأمره.

وقبيل الفجر حضروا إلى الدار فوجدوني في انتظارهم لم أذهب إلى فراشي وقد قبلت (كامل) وهنأته وقلت له مبتسمًا كفارة وليست هذه الأولى وما أظنها ستكون الأخيرة، وسألته عما كان من أمره وطلبت إليه أن يقص عليّ القصة منذ التفتيش إلى إطلاق السراح، وأخذ يحكي لي التفاصيل وأنا مصغ إليه.

لزمت الدار لم أبرحها لأني كنت متعبًا من جراء سهرة الأمس وقد زارني في المساء مكرم وصبري ونجيب وعدد كبير من أعضاء الوفد والهيئة وكان حديث المجلس قصة اعتقال البنا وأخذت أسرد عليهم التفصيلات كما وقعت وكما سمعتها، فقال مكرم ولم تتعب نفسك وتسهر طول الليل لحادث تافه كهذا إنه شاب ضمن الشباب الوفدي الذي يضحي كل يوم ويقبض عليه كل يوم ويفرج عنه.

فقلت لا يا مكرم إن هذا حادث له ملابساته وله ظروفه تصور ليلة العيد وهذا الجو الشديد البرودة ويؤخذ إلى السجن وأنتم جميعًا تقضون العطلة كل في مكان يستريح فيه ثم يدفع كفالة ولا يخرج وإني أرى أن هذه إهانة موجهة إليّ شخصيًا لأن الخطاب خطابي والمسألة مسألتي.

وأبدى نجيب وصبري وبعض الأساتذة المحامين اعتذارهم لأنهم كانوا جميعًا غائبين عن القاهرة في عطلة العيد وأيدوني في وجهة نظري.

زارني محمود غزالي وجاء بعده فريد رفاعي وقد أخبراني أنهما كانا يجلسان ليلة أمس في فندق سميراميس وأنهما تقابلا صدفة مع جونس وسمارت الموظفين بالسفارة البريطانية وجرهم الحديث إلى قصة اعتقال سكرتيري ليلة العيد وإيداعه السجن وارتكاب تصرفات حمقاء معه فأكد لهما جونس وسمارت أنهما لم يسمعا بهذا الحادث إلا اليوم من رسل باشا الحكمدار وأن السفير حين بلغه أظهر امتعاضه وقال سيعتقد النحاس باشا أني أوعزت إلى سري باشا بهذا التصرف مع أني لم أعلم به إلا بعد وقوعه.

وقد علقت عليه في حينه بأنه صغار وتصرف أحمق، فقلت لغزالي: وماذا يهم هذا أن الوزارة تتصرف أو رجالها يتصرفون ظانين أن تصرفاتهم ترضي ساداتهم وسواء لدي ارضي السفير عن عذا التصرف أو غضب فالمسألة واحدة هي أنه يدخل أنفه في كل صغيرة وكبيرة تقع في البلد حتى لكأنها قطعة من ممتلكات التاج البريطاني.

اذيع في الأوساط التي يسمونها الراقية أن الملكة نازلي ضاقت بتصرفات ولدها وأنها اخذت بناتها الأميرات وسارعت بالسفر إلى الأقصر لقضاء الشتاء قبل الموعد الذي كانت قد حددته من قبل وهو بعد مضي أعياد الميلاد.

اتصل بي فارس نمر وطلب أن يزورني لتهنئتي بالعيد فاستقبلته فكرر علي الحديث بأن

صهره مستر سمارت أكد له أن الحكومة تصرفت مع سكرتيري تصرفًا غير لائق وأنهم جميعًا استاءوا من هذا التصرف وأنه (أي سمارت) يقول أني سأعاتب سري باشا في أول مقابلة له.

زارني مسيو رينيه إمبان حفيد البارون إمبان مؤسس ضاحية مصر الجديدة وهو بلجيكي الأصل وقد حدثني بأن المعلومات التي وصلت إليه من بروكسل عاصمة بلاده أن الألمان يعيثون فيها فسادًا، وأن جنود الاحتلال تضيق على المواطنين الخناق وتحصي عليهم أنفاسهم وأنه يحاول أن يتصل ببعض أفراد أسرته عن طريق الصليب الأحمر ليطمئن عليهم أو يبعث ببعض النقود ليستعينوا بها على الحياة فلم يستجب له وقد علم أنني على صلة ببعض هؤلاء وهو يرجو إن كان في الإمكان أن أساعده، فأبديت له استعدادي ووعدته أني سأتصل بواحد أعرفه منهم فإن كان في القاهرة أرجو أن يساعدك وودعته وأنا آسف على ما فعلت الحرب وما فعل الاحتلال بهؤلاء الأثرياء سادات بلادهم وكبار القوم فيها.

اتصلت بمسيو هنري أنطونيو موصيري وهو فرنسي عرفته في مؤتمر الامتيازات عام ١٩٣٧ حين كنت في مونتريه بسويسرا رئيسًا لوفد مصر في هذا المؤتمر، ومن حسن الحظ أني وجدته وقد قصصت قصة مسيو إمبان ورجوته إن كان يستطيع أن يمد إليه يد المساعدة عن طريق الصليب الأحمر أو غيره في هذه المحنة فوعدني بأنه سينتهز فرصة الاحتفال بعيد الميلاد وحضور الحفل الكبير الذي سيقام بهذه المناسبة بعد غد في فندق شبرد، ولعله يعثر على أحد من الزملاء يستطيع أن يقدم له خدمة في هذا الشأن فشكرته واتصلت بإمبان وأخبرته بذلك.

اجتمع الوفد ظهر اليوم برياستي في النادي السعدي وقد نظرنا مسائل معظمها عادي ولكن المسألة التي أخذت منا وقتًا طويلاً ونقاشًا مستفيضًا هي ما يجب على البلد أن تعمله وعلى الوفد أن ينبه إليه المواطنين إذا دخل الألمان واحتلوا مصر، وهل نظل صامتين حتى نفاجأ باحتلال لبلادنا ونحن سكوت نتفرج، وبعد أن استعرضنا الأمر من جميع نواحيه وقلبنا المسألة وفرضنا كل الاحتمالات اتفق الرأي على أن نكون يقظين بحيث إذا جاءت الأنباء بأن جيش الألمان يوشك أن يدخل البلاد علينا أن نتقدم الصفوف ونقاوم الاحتلال بكل الوسائل الممكنة وغير الممكنة.

وقلت للمجتمعين إن مهمة الوفد هي أن يقود الشعب في السلم وفي الحرب وألا يتخلى عن الجهاد بأي حال من الأحوال وأنتم والحمد لله فيكم أغنياء كثيرون وأعيان من جميع بلاد القطر يملكون الأموال ويستطيعون أن يشتروا السلاح، وأن يجذوه بمختلف الطرق فلا تضنوا على وطنكم بأي تضحية في هذه الظروف العصيبة فالمسألة مسألة حياة أو موت، فإما أن نخرج من هذه المحنة القاسية رجالاً نستحق الحياة وإما أن نموت كرامًا شهداء تصعد أرواحنا إلى جوار الشهداء والصالحين.

وقد تطوع عدد من الأعضاء بأن يسلح رجاله وأهل دائرته وأن ينشر كل واحد هذا الوعي بين المواطنين حتى لا نؤخذ على غرة.

والواقع أني رأيت من حماسة الأعضاء، وتصميمهم على جهاد المحتل الغازي ما سر خاطري وبعث في نفسي الاطمئنان على مستقبل مصر كنانة الله في أرضه التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم (من نالها بسوء قصم الله ظهره)، وقد اتفقنا على أن يكون هذا القرار سريًا جدًا لا يعرفه أحد، وأن يعمل الأعضاء ما اتفقنا عليه في سرية تامة من غير ضجة ولا ضوضاء.

اتفقت مع مكرم أن نسافر إلى الأقصر في اليوم الثاني من شهر يناير المقبل إن شاء الله بعد أن تنتهي احتفالات رأس السنة الميلادية وأن نقضي في الأقصر كالعادة بضعة أيام ثم نبرحها إلى أسوان لقضاء عدة أيام أخر.

زارني بشرى باشا حنا ومعه الممثل المعروف سليمان نجيب ودعاني إلى حضور قداس ابنة أخته في كنيسة الزمالك غدًا ليلة رأس السنة وعلى الرغم من أني استعد للسفر وليس لدي وقت كاف ولكنني لبيت دعوته ووعدته أن أحضر جزءا من القداس تكريمًا له وإحياء لذكرى شقيقه سينوت بك حنا زميلي عضو الوفد المصري الذي تلقى الطعنة عني في عهد صدقي عند زيارة المنصورة في عام ١٩٣٠ .

التحقيق

(١)

حين وقف لامبسون خطيبًا هذا العام (في حفل خريجي كلية فكتوريا) قال بالحرف الواحد:

"... لنكن صرحاء إن بريطانيا العظمى ومصر، مرتبطان بفعل القدر ... أريد أن أقول بفعل العناية الإلهية..".

وعلى الضفة الأخرى كان (موسوليني) يعيد اكتشاف مقولة رومانية قديمة ترى أن "مصر وإيطاليا شعبان متحدان بسبب البحر الأبيض المتوسط" فقد كان المعسكران المتواجهان يبصران من جديد، في وهج الصدام المسلح، جانبًا من أهمية مصر الاستراتيجية.

شيء من هذا كان يختفي - أيضًا - وراء كلمات (لامبسون) لفاروق: ".... إما أن تسبح مصر معنا أو أن نغرق معًا..."

كان المناخ المصري بشكل عام مناهض لإنجلترا، فليس فقط لأن الإنجليز - كما يقول محمد نجيب - "توقعوا من المصريين أن يتصرفوا كحلفاء مطيعين بينما كانوا يعاملونهم كرعايا مقهورين، ولكن لأن انتصارات هتلر الخاطفة والمدوية بعثت في نفوس المصريين بأن انجلترا مهزومة، لا محالة وأن من العبث التعلق بأذيالها، ومن العبث مناصرتها قولاً أو عملاً، وانتقلت هذه الأفكار من حيز التفكير، إلى حيز العقيدة".

لذلك كانت فكرة الحياد في الحرب إنعكاسًا مباشرًا لشعور وطني عام غطى خريطة مصر كلها.

إن هناك من يقول إن إسماعيل صدقي هو أول من طرح فكرة حياد مصر في الحرب، غير أن الوثائق البريطانية تشير إلى أن البارون (فينخندروف) سفير ألمانيا في القاهرة هو أول من دعى إلى فكرة حياد مصر بين المصريين، والتي تبناها الإيطاليون بعد ذلك، وكأنها تريد أن تحرم المصريين من اجتهاد مثل هذه الصيغة، أو أنها لاتراهم إلا تابعين، فإذا لم يكن لانجلترا فلألمانيا.

وفيما ساد انطباع عميق في أغلب الدراسات التاريخية حول المرحلة، بأن علي ماهر هو صاحب رأي حياد مصر في الحرب فكرًا وفعلاً، فإن محمد التابعي يقول إن علي ماهر ادعى في النهاية أنه صاحب هذا الفضل، لكنه لا ينتسب إليه وإنما إلى عبد الرحمن عزام، وأن علي ماهر كان قد اجتمع بأعضاء في وزارته لكي يعلن الحرب ضد ألمانيا بالفعل، ولكن عبد الرحمن عزام هو الذي أوضح له أن المعاهدة لا تعني هذا، وهو ما أكده جميل عارف في كتابه (مذكرات عبد الرحمن عزام). وإن كان حسن يوسف يؤكد في مذكراته، ومن خلال موقعه في القصر الملكي، أن فاروق نفسه هو صاحب هذه السياسة وأنه هو

الذي اختار تجنيب مصر ويلات الحرب.

ومن المؤكد أن انعكاسات ما يحدث في جبهات القتال في أوروبا، لم يكن يعطي أحدًا الفرصة حتى لو أراد لأن يعلن ترف القفز بمصر طوعًا في أتون هذه الحرب.

ولهذا كان صوت أحمد ماهر وحزبه يبدو نشازًا في معزوفة عامة، رغم أنه قدم دفوعًا حارة عن دخول مصر الحرب، مثل أن عدم دخولها يعني إصرارها على أن بريطانيا تحميها، وأن اشتراكها يعطيها الحق في حالة انتصار الحلفاء، في تحقيق جلاء القوات البريطانية عن أراضيها.

لكن الصورة المنقولة من جبهات القتال كانت كفيلة بأن تجعل لمثل هذا الكلام صدى انقباض وتوتر في الرأي العام.

كان علي ماهر بعد أن زادت ضغوط بريطانيا لإعلان الحرب قد اتخذ بعض الإجراءات التي اعتبرت ملطفة - مثل تحويل المطارات المدنية إلى عسكرية، أو ترحيل عدد من راقصات علب الليل (المجريات) بعد أن شاع إتهامهن بالتجسس، ولذلك فإن (التابعي) يؤكد أنه تلقى في الشهور الأولى من الحرب "ثلاثة وثلاثين خطاب شكر من الجنرال (جامبو) ويلسون القائد العام للقوات البريطانية في المنطقة" وإن كان السفير البريطاني لم يعترف إلا بخطاب واحد من بينها. ثم أعاد تكرار شكوكه في عزيز المصري رئيس أركان الجيش (١/١٧) تحت ادعاء انعدام الثقة به لخدمته السابقة في الجيش التركي وإعجابه الذي لايداريه بالعسكرية الألمانية، وقد أعطى رئيس الأركان إجازة إجبارية بالفعل (أحيل إلى الاستيداع بعد ذلك في ١٧ أغسطس) ولم يكن موقفه من وزير الدفاع (صالح حرب) أقل سوءا، وهو القائل عن الشخصين عندما شكل علي ماهر وزارته "... إن اجتماع هارب من الخدمة، ومعجب بالألمان لا يبدو أمرًا مثاليًا"، وهو القائل - أيضًا - لفاروق بعد وفاة والده في أعقاب التوقيع على معاهدة ١٩٣٦ (في ١٢/٢٤):

"... إنني آمل بشدة أمرًا واحدًا، وهو أن يحال بين الجيش المصري المنتظر وبين السياسة..."!

(One thing I wished very much, namely the next Egyptian army be kept out of politics).

ولم يكن الإلحاح البريطاني على إعلان مصر الحرب متجانسًا مع بقية الحلفاء حتى بعد أن تم إعلان الحرب، فالحكومة الأمريكية أعلنت رسميًا الحياد، وانجلترا وفرنسا توقفت إجراءاتهما العسكرية عند إعلان الحرب لغويًا، أو حسب وصف (جان إيبار) فقد "... كانت هناك قاذفات قنابل في السماء لا تلقي أي قنابل ... ومدافع مزودة بجبال من القنابل لا تطلق نيرانها وجيوشًا هائلة يواجه بعضها بعضًا عن بعد..." وفي هذا الصيف "لم تكن معلومات الوزراء المصريين عن الموقف الدولي تزيد فيما يظهر عن معلومات غيرهم من قراء الصحف..." لكن المطلوب على جبهات القتال لم يكن أكثر من إعطاء انطباع للألمان

باتساع جبهات القتال، كجانب من استخدام نظرية الردع. ولم تنجح نظرية الردع، لأنها لم تحقق شروطها الثلاثة في مبادئ علم الاستراتيجيا: (امتلاك القوة الرادعة - التلويح باستخدامها واقناع الخصم بجدية ذلك - الاستعداد لتحويل التهديد إلى فعل عملي في الوقت المناسب).

وحتى بداية العام لم يكن نصيب القوات الفرنسية من الخسائر يتجاوز ١٥٠٠ رجل. أما القوات البريطانية في فرنسا فلم تخسر سوى ثلاثة رجال.

الغريب أن تشرشل يروي في مذكراته أن طائرة عسكرية ألمانية اضطرت للهبوط في بلجيكا (١٠ يناير) وأنه تم اعتقال ضابط ألماني من هيئة أركان الحرب برتبة رائد وبحوزته خطة ألمانية كاملة لغزو بلجيكا وهولندا وفرنسا، وهو ما سمي باسم (أولاف فيسر) وتم تنفيذه بينما العالم يتأمل جاحظ العينين.

في ٩ أبريل شرعت القوات الألمانية في غزو الدانيمارك وفي نفس اليوم الذي تألفت فيه حكومة تشرشل (١٠ مايو) كانت ألمانيا تغزو بلجيكا وهولندا ولكسمبورج، وكان هتلر يمزق كل معاهدات عدم الاعتداء التي وقعها بيديه.

في ١٥ مايو استسلم الجيش الهولندي وتم سحق الجيش الفرنسي التاسع واخترق الألمان جبهة القتال على طول تسعين كيلومترًا بين سيدان وتامور. واندفعت القوات الألمانية من هذه الثغرة الواسعة تسابق الريح في اتجاه الجنوب الغربي نحو باريس. وكان (أيروين روميل) هو الذي وصف ما حدث بعد ذلك بأن "عشرة فرق من الصاعقة الألمانية حققت النصر على فرنسا بسبب ما تميزت به القيادة الانجليزية الفرنسية من تراخ وتخاذل...".

وفي ١٠ يونية هجرت الحكومة الفرنسية باريس إلى توروز وفي اليوم نفسه استهوت إيطاليا، التي وقفت تتأمل ما يحدث في البداية، فكرة الحصول على مغنم سريع في غضون أسابيع معدودة، وأعلنت إيطاليا دخول الحرب، ولم يكن ذلك أكثر من تعبير عملي عن اختلالات جسيمة في موازين القوى في البحر الأبيض، وفي اليوم التالي أعلنت فرنسا أن باريس مدينة مفتوحة، وكان ذلك استهلالاً لاستسلام فرنسا كلها.

في الوقت نفسه بدأت القوات الإيطالية في ليبيا تحت قيادة الجنرال (جراتسياني) تتأهب لكي تتوجه إلى مصر، وتجعل من أراضيها ميادين قتال ضد القوات البريطانية، وأعلنت إيطاليا أنها مضطرة لذلك، وإن كانت نوهت إلى أنها تحترم استقلال مصر.

كان الخطر يدق بقوة على أبواب مصر بعد أن كان مجرد مخاوف في بداية العام، عندما أقدمت إيطاليا على تقوية دفاعاتها العسكرية في ليبيا.

في اليوم نفسه (١٠ يونية) كتب لامبسون) يكتب إلى الخارجية البريطانية أنه "... رغم إستجابة علي ماهر إلا أنني أشعر أنه يتعين على المرء أن يحكم قبضته عليه ...".

قبلها بيوم واحد كان تقريره إلى لندن يقول: "أن هناك دلائل تشير إلى أن حكومة علي

ماهر والملك نفسه جميعهم يحاولون الحصول على ضمانات من إيطاليا ...".

وبعد ذلك بخمسة أيام كتب إلى هليفكس "إنه - أي علي ماهر - لا يستطيع أن يؤدي دوره معنا بأمانة".

قبل ذلك بشهور (٣٩/٢/٢٣) الكونت شانو وزير خارجية إيطاليا في مذكراته الخاصة أنه تلقى نبأ من أوتليكو - السفير الإيطالي في برلين - عن مقابلة جرت بينه وبين مراد سيد أحمد باشا وزير مصر المفوض، استفسر فيها الوزير المصري باسم الملك فاروق عما إذا كان المحور سيكون على استعداد لمساندته إذا أعلنت مصر حيادها وترتب علي ذلك تدخل مباشر أو غير مباشر من بريطانيا...

في ١٢ يونية طرح موضوع موقف مصر من الحرب على البرلمان في جلسة سرية انتهت إلى قرار بأن مصر لن تشارك في الحرب، إلا إذا اتبعت إيطاليا أحد الوسائل التالية في مهاجمتها: غزو الأراضي المصرية - تدمير المدن المصرية عن طريق الجو - القيام بغارات جوية ضد أهداف عسكرية مصرية، وكان لامبسون الذي وصف وزارة علي ماهر عند تشكيلها بأنها "قوية ويرأسها رجل على جانب كبير من الأهمية والنشاط" قد وصل إلى مرحلة هياج، بعد أن تلقى من الأميرال إليوت (قائد القوات البحرية والبريطانية) تقريراً يتضمن رصد أضواء على ساحل الأسكندرية لعدة ليالي، وأن هذه الأضواء إما أن تكون إشارات للغواصات المعادية أو لتسهيل قيام الإيطاليين ببث الألغام. وقد أعطاه (إليوت) صوراً فوتوغرافية للمنزل التي كانت تنبعث منه الأضواء وحين ذهب إلى لقاء الملك فاروق في قصر المنتزه (١٧ يونية) وسلمه التقرير والصور، تمثلت المفاجأة "في أن المنزل الذي أظهرته الصور الفوتوغرافية، لم يكن سوى القصر الملكي الذي تجلس بداخله في هذه اللحظة".

ولكن لامبسون أكمل مفاجآته للملك في كلمات حاسمة: "... إن علي ماهر يجب أن يذهب وأن يذهب سريعاً جداً، وإننا لن نوافق على عودته إلى القصر."

وسأله فاروق مأخوذاً عمن يرشحه ليشكل حكومة بديلة... وأجاب لامبسون بأنه "لا يقترح شخصاً بعينه، ولكن منطق الأمور يتطلب أن يكون من يتولى الأمر قادراً على التعامل معنا بروح الود والتفاهم، ويسعى إلى تطبيق روح المعاهدة، فضلاً عن أنه من الضروري أن يحظى بتأييد البلاد..." واقترح لامبسون في صيغة أمر أن يستشير الملك كلا من محمد محمود والنحاس.

ولكن فاروق قال إنه يأبى التشاور مع النحاس، وأبدى لامبسون تفهماً لذلك "لأن هناك مصاعب يمكن أن تواجه جلالته من جراء تشكيل النحاس للوزارة..." ... "وذلك لا يعبر عن طلباته" ولكنه أكد على "ضرورة إشراك النحاس في المفاوضات"، ثم ختم لامبسون لقاءه بأن حذر الملك من "اللعب بالنار" وألمح له أن الجنرال ويفل - قائد القوات البريطانية - ينتظر عودته...

وغادر الملك الأسكندرية إلى القاهرة، حيث استدعى عدداً من السياسيين إلى اجتماع في قصر عابرين (٢٢ يونية) لمناقشة إنذار لامبسون (وقد حضر الاجتماع: علي ماهر – النحاس – زيور – صدقي – محمود خليل – أحمد ماهر – توفيق رفعت – صالح حرب – حلمي عيسى – محمود بسيوني – بهي الدين بركات – مصطفى عبد الرازق – عبد الحميد بدوي – عبد الوهاب طلعت).

واستمر الاجتماع من الخامسة مساءا حتى العاشرة، حيث انتهى المجتمعون إلى: "إزاء إصرار علي ماهر باشا علي الاستقالة، فإنهم يضعون الأمر بين يدي جلالته ليصرفه بحكمته."

وفي اليوم نفسه، وبينما كان المجتمعون في قصر عابدين يقبلون بالإجماع الرضوخ لإنذار السفير البريطاني كانت فرنسا تتسلم شروط الهدنة (أو الهزيمة بالتعبير الأدق) في حضور هتلر، وفي نفس المكان والقطار الذي تسلم فيه الوفد الألماني شروط الهزيمة في ٢٠ نففمبر ١٩١٨...

وكانت الشروط التي رضخت لها فرنسا تنص على أن تلقي جميع الجيوش الفرنسية أسلحتها براً وبحراً وجواً وأن تستولى ألمانيا على كل ما لدى فرنسا من مدافع ودبابات وطائرات وذخائر على أن تدفع فرنسا نفقات الاحتلال الألماني لجزء كبير من أراضيها «جميع المناطق الصناعية» وتعهد (بيتان) بأن تقدم فرنسا ومستعمراتها لألمانيا المواد الغذائية والخامات والوقود.

ومن المؤكد أن هؤلاء الذين اجتمعوا في قصر عابدين كانوا معزولين تماماً عن الحقائق الجديدة التي شكلتها موازين القوة العسكرية فوق الأرض.

في صباح اليوم التالي (٢٣ يونية) قابل الملك لامبسون مصحوباً هذه المرة بالجنرال ويفل. وشرح الملك للسفير ما حدث في اجتماع الأمس، لكن لامبسون قال له: إن ذلك ليس كافياً.

ثم قرأ عليه رغبة بريطانيا العظمى: "في ضرورة وجود حكومة قوية لتنفيذ المعاهدة وتتمتع بالتأييد في البلاد ... وبعبارة أخرى حكومة يوافق عليها النحاس ... فيجب استدعاء النحاس واتباع نصيحته فيما يتعلق بالتشكيل الفوري للحكومة..."

وقد رفض الملك فاروق ذلك في البداية، ثم وافق، وأبلغه لامبسون أنه سينتظر الرد "حتي غروب الشمس".

وقبل أن تغرب الشمس كان علي ماهر يقدم استقالته، لأن "الاستمرار في الحكم أصبح متعذراً لأسباب قاهرة خارجة عن إرادتنا وإرادة الشعب المصري".

ولم يذهب علي ماهر – وفق تقدير حسن يوسف – لأنه امتنع عن إعلان الحرب، ولكن كمحصلة مجتمعة ومتداخلة تبدأ بفقدان السفير البريطاني للثقة فيه، وتنتهي بنشاط الوفد

المعارض، مرورًا بإعلان كبار السياسيين المصريين استحسانهم لتغيير الوزارة، ولذلك ورغم كل هذه الضغوط على فاروق لاستدعاء النحاس، والاستعانة به، واعتماد وزارة يوافق عليها، فلم يكن المطلوب هو أن يشكل النحاس وزارة وفدية، لا لأن ذلك سيغضب الملك ولكن لأنه كان سيغضب السعديين الذين أظهروا تشددًا أكثر من غيرهم في تأكيد التحالف مع بريطانيا، كان المطلوب باختصار تجميد أي نشاط معارض لانجلترا خلال الحرب، ولذلك كانت معادلة لامبسون المطلوبة هي: إرضاء النحاس، وامتصاص معارضة الوفد، وعدم وجوده في الحكم في الوقت نفسه ... وقد كان له ما أراد!

(٢)

سبقت الإشارة إلى ملاحظة لامبسون حول إزدواجية موقف محمد محمود من التدخل البريطاني في الشئون الداخلية المصرية، حيث رفضه وشجبه عندما تعلق الأمر بمساندة وزارة النحاس، وسعى إليه عندما تعلق الأمر بمساندته هو في مواجهة القصر.

والحقيقة أن هذه الازدواجية في المواقف لم تكن وقفًا على محمد محمود، ولكنها كانت سمة مشتركة لأغلبية المواقف التي تأخذها القيادات السياسية للأحزاب والتيارات، ولم يكن حزب الوفد بشكل عام أو النحاس شخصيًا، بمنجى من ذلك، فالنحاس الذي يرفض بخطاب سياسي حاد النبرة على امتداد وقائع هذا العام أي نية للسفير البريطاني التدخل حتى لصالح الوفد، والذي تبدأ مآخذه على محمد محمود وحزبه وتنتهي باعتماده على دعم الانجليز في مواجهة القصر، هو نفسه النحاس الذي كتب كما توضح الوثائق البريطانية، رسالة إلى السفير البريطاني يطلب منه أن يتدخل في الشئون الداخلية لمصر، كي يقوم بإجلاء وزارة علي ماهر بسرعة عن الحكم، كما مارس نفس الأسلوب محمد محمود.

لقد كتب لامبسون إلى لندن (٦/١٥) يقول: "لقد تلقيت من كل من محمد محمود باشا والنحاس باشا رسائل تكاد أن تكون رسائل يأس، ذلك أنها ترى وبشكل جوهري أنه لا بديل عن أن يذهب علي ماهر وبسرعة، إذا كان المطلوب هو الحفاظ على البلد.."

(I have had almost despairing messages from both Mohammed Mah-moud and Nahas Pashas, that if the country is to be saved, it is essential that Ali Maher should go, and quickly.)

وتبدو مظاهر هذه الازدواجية مرة أخرى في تذبذب المواقف المعلنة للوفد، سواء قضية إعلان الحرب، أو من الدور البريطاني برمته، وهو تذبذب يصل أحيانًا حد التناقض. لقد هاجم الوفد في البداية إعلان قانون الأحكام العرفية، رغم أن موقفه في ذلك التوقيت كان يميل إلى إعلان دخول الحرب، وعندما اشتدت المحنة، وأصبحت المخاطر على أبواب مصر، وعقد اجتماع برلماني مغلق لمناقشة موقف مصر من تطورات الأحداث، المتمثلة في هجوم إيطالي منتظر، التزم ممثلوه داخل البرلمان الصمت، ولم يقدموا اقتراحًا أو يعلنوا موقفًا، برغم أن الوفد كان قد قدم إلى الحكومة البريطانية مذكرة منفردة (في ١ ابريل)

اعتبرت أنها بمثابة "أول صيحة بالخروج على معاهدة ١٩٣٦ من إحدى الهيئات التي وقعتها، ومن الهيئة التي اعتدت بها وروجت لها، وحثت الناس عليها..."

وكان أهم مطالب هذه المذكرة المنفردة، المطالبة بإلغاء الأحكام العرفية، عدم منع القطن المصري من التصدير إلى البلاد المحايدة أو شرائه بسعر مناسب ... تصرح الحكومة البريطانية "بانسحابها من الأراضي المصرية بعد انتهاء الحرب، وعقد الصلح بين الأمم المتحاربة، مع بقاء المحالفة فيما عدا ذلك قائمة، تكون مصر طرفًا في التسوية النهائية، وأن يكون لها اشتراك فعلي في مفاوضات الصلح للدفاع عن مصالحها..."

وقد اعتبر هاليفكس في رده على هذه المذكرة والمسائل التي أثارتها "أنها تؤدي إلى تدخل انجلترا في السياسة الداخلية المصرية،" وهو ما رآه بعض أعضاء البرلمان عندما قدم استجواب حول الموضوع، فقد أكد العضو فكري أباظة أن مسلك الوفد في مخاطبة دولة أجنبية فيه مساس بالسيادة القومية للبلاد.

أما تفسير بريطانيا للمذكرة فقد أعلنته أيضًا، على النحو التالي: "لا تستطيع الحكومة البريطانية إلا اعتبار قرارات الوفد كمحاولة مقصودة للعب دور في السياسة الداخلية..."

لكن الرد البريطاني العملي كان كما يلي: نعم سنفسح لكم دورًا أو مجالاً للعب دور ما، فقد كان ذلك ترجمة لما قاله لامبسون منذرًا فاروق بعد شهرين تقريبًا ... " نريد حكومة يوافق عليها النحاس الذي يجب استدعاؤه واتباع نصيحته فيما يتعلق بالتشكيل الفوري للحكومة....".

وعندما ذهب مندوب الملك إلى النحاس في قرية كفر عشمة حيث أقام في ضيافة أخوال حرمه، رفض بشكل قاطع مبدأ الوزارة القومية، وأصر علي تحرير محضر من صورتين يثبت فيه طلب الملك وأسبابه وردوده عليه وأسبابها (وقد كان يعرف خلفية الموقف ويتوجس شرًا من أن ينقل الملك إلى من يعنيهم الأمر ما قد يكون مخالفًا لما عرضه عليه، أو ما تمسك برفضه.)

واللافت للنظر في هذه الواقعة المترتبة على توجيه إنذار بريطاني للملك، بتغيير الوزارة واستدعاء النحاس، وهي صورة مصغرة لما سيحدث بعد أقل من عامين (فبراير ١٩٢٤)، أن النحاس خلال الإنذارين أو الموقفين كان خارج القاهرة، في المرة الأولى كان في كفر عشمة وعندما ستحين المرة الثانية سيكون في أسوان.

وعندما استدعى النحاس في اليوم التالي وسط عدد من السياسيين المصريين، وقادة الأحزاب إلى قصر عابدين لمناقشة الإنذار الأول، رفض بشكل قاطع مبدأ الوزارة القومية (رغم أن أجواء الحرب كانت تحبذ هذا الخيار) وطالب بوزارة محايدة لإجراء انتخابات برلمانية وهو نفس الموقف الذي سيكرره حرفيًا عندما سيتم استدعاؤه إلى قصر عابدين - أيضًا - بعد عشرين شهرًا بالضبط.

(٣)

كان علي ماهر يقول دائمًا، إن لديه برنامجًا يريد أن ينفذه، أي أن علاقته بالآخرين جميعًا، أيًا كانوا، القصر الملكي أو الأحزاب، أو السفارة البريطانية، هي علاقة صاحب البرنامج بأدوات تنفيذه، أو الأدوات المساعدة على تنفيذه، ومن ثم فإن صياغته لعلاقته بكل فريق تتوقف على إمكانية مساهمته في ذلك.

وهناك من يعقد أواصر صلة في الملامح الشخصية بين ماهر وبين إسماعيل صدقي، علي أساس أن كلا منهما كان قوي العزيمة، إداري من طراز خاص، مستقل عن كافة الأحزاب والتيارات، ولكنهما مختلفان في أن علي ماهر يبطن أكثر مما يظهر، بينما يظهر صدقي أكثر مما يبطن، ولذلك كان الأول إذا طرد خارج الحكم يلتزم بالصمت، ولا يجهر برأي أو تصور، منتظرًا أن يقفز مرة ثانية داخل الإطار، أما الثاني فكان يجهر برأيه بنفس الحدة ودرجة الوضوح، سواء كان حاكمًا أو محكومًا.

وربما يفسر ذلك فهم تلك العلاقة التي استطاع أن يصوغها علي ماهر بدأب شديد مع الملك فاروق، بل وأن يصوغ جانبًا من تكوين وتوجيهات الملك أو (الصبي) علي حد تعبير لامبسون.

وفي رأي الملكة فريدة فإن علي ماهر هو الذي أفسد فاروق «سياسيًا ودستوريًا»، فقد علمه أن يتحكم في بنية الحكم، كيف يفرض على الوزارات أن تستقيل، وعلى البرلمانات أن تحل، وكيف يضع إرادته فوق الجميع، في حمى صراع الإرادات لكنه وبالمفارقة البحتة هو الدي حمل إلى فاروق وثيقة تنازله عن العرش بعد الثورة.

غير أنه وفي الوقت الذي كان الجيمع خارج القصر الملكي - وربما داخله - يشعرون أن علي ماهر يحكم أصابعه حول فاروق ويوجهه بل يخيفه أيضًا، لم تكن صيغة العلاقات بينهما تنطق بذلك على نحو حرفي.

تقول فاطمة اليوسف كشاهدة عيان، إنها كانت في زيارة رئيس الديوان الملكي في مكتبه وأثناء جلوسها دخل موظف يقول له إن الملك آت "... وإذا بي أرى علي ماهر يقفز من مقعده قفزًا ويرتبك غاية الارتباك وهو يبحث عن طربوشه يلبسه وينسق هندامه، ويرتب مكتبه، كما يفعل الموظف الصغير إذا سمع صوت رئيسه الرهيب، ووقفت ذاهلة لا أدري ماذا أصنع حتي سمعت علي يقول مرتبكًا:

إنتي مستنية إيه؟ وكنت في دهشة من هذا الارتباك الغريب، فقلت له: من أي باب أخرج؟ ققال بعصبية من الباب اللي دخلتي منه، ولم يكن ثمة مبالغة في وصفه بالموظف، فقد كان منهجه لتوسيع دائرة حكمه أو تحكمه هو توسيع دائرة نفوذ وظيفته ونفوذ الهيكل الوظيفي الذي يضمه، حتي لو كان القصر الملكي."

كان قصير القامة - وكذلك شقيقه أحمد ماهر - ولذلك كان علي يرتدي طربوشًا

متطاولاً حتى يخفي قصر قامته، كما كان يخفي لون شعره بصبغة واضحة الحدة بينما كان أحمد إلى جانب قصره بدينًا. كان علي يقوم بزيارة سنوية إلى ترينج حيث يعيش على عصير البرتقال، ويعود بأعين ملتهبة ومجمدة. ثعلبًا صغيرًا يتحرك بحرارة الطموح، لا أتصور أبدًا – كما يقول سميث إن درجة حرارته طبيعية.

ولم يكن وصفه بالثعلب وقفًا على الانجليز، فقد كان هو أكثر أوصافه شيوعًا، بعد أن شكل وزارته الثانية والتي وصفها لامبسون بأنها "قوية ويرأسها رجل على جانب كبير من الأهمية والنشاط – كما أن بقية الوزراء يعرفون ما يريدون"، ذهب لزيارة أحمد فرغلي في بيته، وعندما تطرق الحديث إلى تشكيل الوزارة، سأل علي ماهر مضيفه رأيه فيها، فقال له بصراحة إن الوزارة تخلو إلى حد بعيد من الكفاءات.

ولم يبد علي ماهر غضبًا ولكنه علق على ذلك قائلاً:

"أفضل أن يكون أعضاء الوزارة من محدودي الكفاءة على أن يكونوا من الكفاءات البارزة، لأن هذا ييسر أمور الحكم وتسيير دفة السفينة، ويقلل من الخلافات والتنافس بين الوزراء".

ورغم الاختلاف البين بين الأخوين (علي وأحمد) في الانتماء والتوجه، والصفات الشخصية فإن جرافتي سميث – السكرتير الشرقي للسفارة البريطانية في القاهرة – يصفهما معًا بأنهما:

"من وجهة نظر بريطانية ... من أصل رديء" لكنه يتوقف بشكل خاص أمام علي ماهر:

"لم أصادف طموحًا قهريًا أكثر من ذلك ... دعاني للعشاء ومعه زوجته فقط، كان مساءً غير مريح فقد كانا في انتظار حادث يمهد له أن يصبح رئيسًا للوزراء، كان يطلب ذلك بصراحة مفترضًا أن أقدم المساعدة الضرورية العاجلة".

ضمه محمد محمود وزيرًا في وزارته الأولى (١٩٢٨) ولم يجد تفسيرًا لذلك، ولم يستطع أحد أن يحدد أكان سلوكه بضمه إلى الوزارة للإقلال من خطره، أم كان هدفه تطييب خاطر الملك فؤاد.

عندما شكل وزارته الثانية، تبرع الملك لإزالة بعض المخاوف البريطانية، فقد أخبر القائم بأعمال السفارة، أن علي ماهر "مقتنع بضرورة العمل بتعاون نشط مع السفارة وخاصة في مجال الدفاع" ولم يمنع ذلك د. الطيب الناصر من أن يروي في مذكراته أن الكونت ماتسوليني – آخر وزير مفوض لإيطاليا في مصر أبلغه أنه اتفق مع علي ماهر على أن تثور مصر على الانجليز في الوقت المناسب لتمهيد السبيل لجيوش المحور. كما أن خصمه وغريمه في القصر الملكي أحمد حسنين لم يكف عن وصفه بأنه ألماني الهوى، ولذلك لم يكن غريبًا أن تسري في أعقاب استقالته نتيجة الإنذار البريطاني للملك، شائعات بعزم الملك فاروق على الهرب خارج مصر، وهي شائعات بلغت من القوة حدًا أن أثارت زوبعة خلاف

بين السفير البريطاني وبين قائد القوات البريطانية في مصر (الجنرال ويفل) حول السماح للملك بمغادرة البلاد إذا ما قرر الهرب أم لا، فقد أصر الجنرال على عدم جدوى استبقائه، بينما أكد السفير أن تعليمات الخارجية البريطانية تقضي بعدم السماح له بمغادرة مصر إلى إيطاليا، حيث سيكون بمقدوره المطالبة بعرش مصر، ولم تكن لدى فاروق نية لمغادرة مصر، ربما استفادة من درس الخديوي عباس حلمي الذي غادرها في الحرب الأولى فتم خلق أمران ظل علي ماهر حريصًا عليهما، حتى بعد أن تم خلعه من القصر والوزارة، استبقاء نفوذه في القصر وفي بعض المفاصل الحساسة في الدولة (الخارجية - التجارة - الأمن العام) وعدم قطع خيوطه مع الجميع بما في ذلك السفارة البريطانية رغم أنه حمل عليها حملة شعواء داخل البرلمان بعد وصول إنذار خلعه إلى الملك فقد "طعن طعنًا جارحًا على موقف انجلترا من مصر، وعلى تصرف سفيرها الاستبدادي مع وزارة مصر، مما جعل عودته إلى الحكم والحرب قائمة، وجعل منه خصمًا صريحًا لمثل انجلترا، وخصمًا صريحًا لانجلترا".

كان السفير البريطاني قد قدم إلى حكومته مبررات مختلفة لخلع ماهر في مقدمتها عدم تعاونه في اعتقال كل الألمان في مصر، وعدم حماسه للقيام بدعاية مضادة لإيطاليا في الصحف والإذاعة، ولم يشر السفير إلى إنشائه لتنظيمات مسلحة سواء كرديف للجيش أم للبوليس.

لقد تزعم عبد الرحمن عزام - وزير الأوقاف - إنشاء الجيش المرابط وهو عبارة عن تنظيمات مسلحة ذات طابع غير حكومي، تمثل نوعًا من التعبئة الشعبية كما أنشيء تنظيم آخر للبوليس أسندت قيادته إلى محمد طاهر باشا (أحد نبلاء القصر) وتصف الوثائق البريطانية هذا التنظيم، بأنه كان يمثل نوعًا من الطابور الخامس، الذي أداره بعض كبار المصريين المتعاطفين مع المحور، أمثال عباس حليم والأمير عمر الفاروق ومحمد طاهر باشا وقد ألغى التنظيم الأول، وتم حل الثاني مع وزارة الوفد عام ١٩٤٢.

ومن المؤكد أن علي ماهر - أيضًا - هو الذي انتقى أسلوب إضفاء صفة دينية على الملك فاروق في بداية حكمه، ليجهز بشكل نهائي على الوفد، الذي كان يترنح بعد معاهدة ١٩٣٦، كما أن فكرة زواج شقيقات الملك فاروق من ملوك مسلمين تنتسب إليه، وقد بدأت بزواج فوزية من رضا محمد ولي عهد إيران، وكانت هناك فكرة أخرى لم تتم - ربما بسبب تعويق وعجز هذه الزيجة - للبحث عن زيجة ملكية لفايزة في الأردن، ولزيجة ملكية لفتحية في العراق. وكان المطلوب بالضبط أن يكون الجالس على عرش مصر قد تهيأت له ظروف أفضل لكي يدب نبض الحياة في لقبه الجديد «أمير المؤمنين».

وفي السياق نفسه يمكن تفسير تلك الصلات التي أقامها علي ماهر بعمق مع تنظيم مصر الفتاة، وجماعة الإخوان المسلمين، فقد كان علي ماهر يعنيه الهدف لا الأداة، وكما كان ينتقي أدواته بعناية ويستخدمها بمهارة، فقد كان يلقيها عندما تفقد قدرتها على التأثير، ولذلك كان يحتفظ بمسافة بينه وبين أدواته المختلفة.

لقد اتفق مع فاطمة اليوسف على تطوير هجومها ضد الانجليز بأقصى عنف ممكن وحين جاءه أمين عثمان – الذي نخلص منه بعد ذلك – ليناقش معه ردود أفعال ذلك على السفير البريطاني أكد له أن "هذه السيدة تتصرف بما يترآى لها".

بمرور الوقت وتقدم العمر، وطول فترة بعده عن الحكم أصبح الوصول إلى السلطة يستحق أية تضحيات، ولا أحد يستطيع أن يجزم ما إذا كان ذلك قد تم بفعل الزمن وعوامل التعرية، أي أنه جزء وافد أم أنه جزء أصيل ومقيم في تكوين علي ماهر.

من يصدق – مثلاً – أن علي ماهر بعد ذلك بحقبة كاملة من الزمن يمكن أن يتفق مع الانجليز على رئاسة الوزارة بشرط أن تقوم انجلترا بذبح المقاومة الشعبية المسلحة لقوات احتلالها في قناة السويس، بل يشترط أن تنشئ بريطانيا العظمى وحدات عسكرية خاصة لتعقب هؤلاء الإرهابيين وإبادتهم؟!

أكان ذلك جزءا من بنيان جيل كامل لم يكن يبصر مخرجًا من مشكلة العلاقة مع بريطانيا، أو مدخلاً إليها، أي بالتفاهم والحوار.

وهل يمكن أن يحاسب علي ماهر على ذلك وحده أم أنه لم يكن أكثر من مفردة مغلقة في إطار كبير مغلق أيضًا. أيًا كان الأمر ففي أوج أزمة الحكومة بعد ذلك في ديسمبر ١٩٥١ اختار الملك علي ماهر ليرأس الوزارة خلفًا للنحاس، وطلب من السفارة البريطانية أن تتصل بعلي ماهر لمناقشة العروض التي يمكن أن تقدمها له لمساعدته على القيام بمهمته.

وقد قابل الوزير المفوض بالسفارة علي ماهر بالفعل (١٢/١٧) ووافق على أن يتولى الوزارة إلا أنه قدم شرطين، ما يعنينا الآن هو أولهما، فقد اشترط أن تتخذ السلطات العسكرية البريطانية إجراءات صارمة ضد الفدائيين في منطقة القناة ليكون واضحًا للجميع أن جلاء القوات البريطانية لا يمكن أن يتم بواسطة (الإرهاب).

وعندما تبلورت فكرة «الدفاع الإقليمي عن الشرق الأوسط» كان علي ماهر واحد من دعاتها والمدافعين عنها، وهو ما سنتوقف أمامه تفصيلاً في مكانه وزمانه.

(٤)

كان معروفًا وشائعًا مدى الصداقة الوطيدة التي تربط لامبسون برئيس الوزراء الذي تم اختياره كمخرج من الأزمة عقب الإنذار البريطاني بإجلاء علي ماهر من الوزارة والقصر على وجه السرعة. وعلى حد تعبير لامبسون نفسه فإن "الفرصة جاءت بأفضل رجل، ولم يكن خافيًا أنه من المستحيل أن أعترض على ترشيحه".

لقد كان حسن صبري هو المصري الوحيد الذي حطم لامبسون من أجله قواعد البروتوكول حيث زاره مبكرًا في قريته (الصبرية) وهو ما لم يحدث من قبله من أي مندوب بريطاني سام، بل إنه وصف اختيار الملك له في تقريره إلى لندن بأنه: "الرجل الوحيد الذي

اعتقد أننا نضع فيه أقصى ثقتنا، وكلفه بأن يملأ وزارته بوزراء موالين لبريطانيا...".

ومع ذلك فقد قابل لامبسون فاروق في تمام الساعة السادسة (٢٨ يونيو)، حيث قدم إليه الاستعداد للموافقة على وزارة برئاسة حسن صبري وبمجرد مفاتحته في الأمر وقبل أن يتلقى التكليف الرسمي قد سارع بالاتصال بالسفارة البريطانية ليطمئن إلى موقفها من ترشيحه.

كانت الشروط التي قدمها لامبسون إلى الملك تتضمن قيام الوزارة باتخاذ كافة الاجراءات العسكرية التي تطلبها الحكومة البريطانية، قيام القصر بمؤآزرة الوزارة بصدق وإخلاص وأن يحشد البلاد لتأييد سياستها وقد برهنت الوزارة على أنها سوف تنفذ معاهدة ١٩٣٦ نصًا وروحًا، وخاصة المادة الخامسة.

ورغم أنه لم يكن مطروحًا على الملك أو مطلوبًا أكثر من أن يحضر النحاس لمنح رضاه عن وزارة بديلة لوزارة علي ماهر دون أن يرأسها فإن الملك لم يدع الفرصة تفلت منه دون أن يؤكد للسفير البريطاني أنه تبين له بصدد المشاورات مع النحاس أن برنامجه بعيد تمامًا عن السياسة المصرية، وأنه "حافل بالمشروعات البلشفية".

كانت السفارة البريطانية لا تريد - أولاً - حكومة موالية للقصر ولا تريد - ثانيًا - حكومة ضعيفة، ولا تريد - ثالثًا - حكومة وفدية ولذلك كان الحل يتمثل في حكومة موالية للسفارة ويؤيدها الوفد في وقت واحد. ولهذا سعى رئيس الوزراء إلى لقاء النحاس، في مكمن سري، وقدم نفسه وحكومته على أنها حكومة محايدة مهمتها التمهيد لإجراء انتخابات حرة طالبًا الفرصة والتأييد وقد منحهما النحاس له كما يقول بنفسه.

ولم يكن الأمر في الواقع ببعيد عن نظرية المقعد ذي الأرجل الثلاثة التي صاغها لامبسون (السفارة البريطانية - القصر الملكي - الرأي العام ممثلاً في حزب الوفد وأحيانًا تجاوزًا في أحزاب الأقلية) تلك النظرية التي كانت تقود تفاعلات أعمدتها الثلاثة تلقائيًا إلى متوالية رياضية محددة الاتجاه لخصتها د. هدى عبد الناصر على النحو التالي:

١- يتولى الحكم رئيس وزراء مقبول من الملك والحكومة البريطانية ثم يبدأ في فقدان مساندة القصر له نتيجة اعتماده على التأييد البريطاني له وتعامله مع القصر بصلافة مما يؤدي إلى قيام الملك بإقالته بسبب قضية لا يستطيع الانجليز التدخل بشأنها ويقود ذلك إلى المرحلة الثانية:

٢- يتولى الحكم رئيس وزراء يعتبر رجل القصر فينتج عند ذلك تدخل القصر في مختلف نواحي الإدارة السياسية للبلاد مما يؤدي إلى تصاعد الاستياء والتذمر الشعبي الذي كان من الممكن أن يؤدي إلى ثورة لولا وجود القوات البريطانية في البلاد وهنا تتحرك بريطانيا ببطء لاحتواء ذلك التذمر، مما يؤدي إلى المرحلة الثالثة:

٣- تتولى حكومة شعبية الحكم وهي في العادة حكومة وفدية أو يؤيدها حزب الوفد

فتبدأ بتهديد النفوذ والمصالح البريطانية في البلاد مما يؤدي إلى انزعاج الحكومة البريطاينة فتكف عن التظاهر بعدم التدخل في الشئون السياسية للبلاد وتصر على تغيير الحكومة لاجئة بعد توقيع اتفاقية التحالف - إلى الاستناد لنصوصها - وهنا تسعي إلى تعاون الملك فتعمل على تحقيق رغباته إلى حد ما فيقود ذلك إلى الوضع الأول وهو تولي رئيس حكومة مقبولة من الملك والحكومة البريطانية معًا ... أي العودة إلى المرحلة الأولى. لقد تشكلت الوزارة من ١٦ وزيرًا يمثلون الأحرار الدستوريين.

والهيئة السعدية والحزب الوطني والمستقلين، وبدأت أولى المشاكل الداخلية للوزارة بإصرار رئيس الأحرار الدستوريين على عدم إسناد وزارة الداخلية إلى محمود فهمي النقراشي نائب رئيس الهيئة السعدية لأن وزير الداخلية - كما يصف حسنين هيكل - "هو المتصل بمصالح الأعيان في الأقاليم"ووعد رئيس الوزراء بإجابة طلبهم، وأنفق ثلاثة أسابيع لكي يتم التعديل وكان ذلك جانبًا من سلوك رئيس الوزراء الذي "تغير بعد أن تولى رياسة الوزارة عما كان عليه، إذ كان وزيرًا مع محمد محمود باشا فقد كان فيه من العنف والاعتداد بالذات ما باعد بينه وبين كثير من زملائه الوزراء..."

بالدخول في عمق هذا العام كان الإيطاليون يزدادون تعمقًا في صحراء مصر الغربية حتى وصلت قواتهم إلى (سيدي براني) وعند ذلك رأى الوزراء السعديون أن على مصر أن تعلن الحرب. وعقد مجلس الوزراء جلسة خاصة للانتهاء إلى قرار، وحين رأى بعض الوزراء تأجيل مناقشة القرار حتى تبلغ القوات الإيطالية مرسى مطروح بالفعل. كان رئيس الوزراء هو الأكثر تحمسًا للفصل في الموقف وكان رأيه المحدد ألا تعلن مصر الحرب حتى لو تقدم الإيطاليون وبلغوا القاهرة. ولم يخف الرجل على مائدة الاجتماع أن بريطانيا التي كانت تضغط بقوة قبل أسابيع قليلة، لكي تعلن مصر الحرب، قد عادت وغيرت قناعتها وأصبحت ترى أن الأكثر فائدة لها أن تبقى مصر دولة غير محاربة.

وكان الصدام مع السعديين قويًا حتى إنه أطاح بهم خارج الوزارة وهو أمر كان تأثيره على الوزارة سيئًا سواء من جانب القصر الملكي أو من جانب السفارة البريطانية، بل إن السفارة البريطانية تصورت في البداية أن رئيس الوزراء فعل ذلك بتشجيع من القصر، واعتبر هاليفكس أنه لا يمكن إعفاؤه من نتائج معالجته للأزمة مع السعديين رده على تقرير لامبسون حول الموضوع ذلك أنه بعد انتهاء التصويت على قرار إعلان الحرب في اجتماع المجلس وهزيمة اقتراح السعديين. كان حسن صبري هو الذي علق بأن الخلاف جوهري ولا يمكن التعاون مع اختلاف الرأي فيه ولم يكن ثمة بديل عن استقالتهم.

كانت القيادة العسكرية البريطانية العليا في مصر، قد وصلت في ضوء الموقف العسكري البريطاني، إلى قناعة بألا تعلن مصر الحرب، وهي قناعة لم يكن رئيس الوزراء البريطاني متعاطفًا معها، بل كان يشعر بالقلق من عدم إعلان مصر الحرب حتى ذلك التوقيت "لأن حدودها انتهكت، والغزو الإيطالي يتقدم، ومن العبث ألا تعلن الحرب".

ولم يجد (تشرشل) ما يفسر به إصرار فاروق على عدم إعلان الحرب إلا بأن "له أموالاً في بنك إيطالي يخشى عليها من الضياع" لكنه ظل يكرر تساؤلاته بحثًا عن تفسير لموقف القيادة العسكرية البريطانية.

ولم يكن موقف هذه القيادة العسكرية صعب التفسير، فقد كان لدي الإيطاليين على الجانب الآخر ثلاثة أسراب جوية مقاتلة (كل سرب يتكون من ١٨ طائرة) إضافة إلى سرب قاذف ناقل، كما كان هناك على خطوط القتال ١١٠,٠٠٠ مقاتل إضافة إلى وحدات الشرطة العسكرية.

ولم تكن هذه الطاقة الهجومية خاصة الجوية قد استخدمت بشكل مكثف ضد الموانيء وعقد المواصلات المصرية حيث كان السلاح والعتاد يتدفق من خلالها إلى قوات الحلفاء «كما يشير حسن يوسف» وكان إعلان الحرب مصريًا بمثابة تحريض على تكثيف الهجمات الجوية الإيطالية على الموانيء المصرية، وهو ما يعني عسكريًا وسياسيًا مزيدًا من التعقيدات والتبعات غير المحسوبة سواء على جبهات القتال، أو على الجبهة الخلفية للقوات البريطانية في العمق المصري.

في الوقت نفسه فإن أصواتًا مختلفة في مصر كانت قد بدأت شير إلى «حقوق إقليمية» على الجانب الليبي وإلى «حقوق مكتسبة» ينبغي قطفها بالمشاركة كطرف مستقل في مؤتمر السلام بعد أن تضع الحرب أوزارها.

وقبل أن يكمل العام دورته كان تشرشل قد أصبح بدوره أكثر اقتناعًا بفوائد حياد مصر في الحرب. الغريب أن الوثائق الأمريكية هذه المرة هي التي تشير إلى أن السياسة البريطانية قد حبذت بديلاً آخر لإعلان مصر الحرب، تمثل في شراء بريطانيا لبعض الأسلحة المصرية خصوصًا المعدات الميكانيكية والمدفعية (برقية من السفير الأمريكي في القاهرة إلى حكومته يوم ٨ يوليو) ولما لم يكن في حوزة الجيش المصري من هذه الأسلحة سوى أقل القليل، فلم يكن الهدف من وراء الاقتراح هو تعويض افتقار القوات البريطانية إلى الكثير من الأسلحة، حيث لم يكن من الممكن أن تمثل عدة الجيش المصري في ذلك الوقت مصدر تسليح ميداني للقوات البريطانية، بعد أن منيت بهزائم عدة في الصحراء الغربية ولذلك كان الهدف الإساسي هو تجريد الجيش المصري من أية أسلحة مؤثرة يمكن أن تفتح الباب أمام أطماع التغيير، في ضوء التطورات غير المحسوبة على جبهات القتال وعلى الجبهة الداخلية المصرية على السواء.

لقد كانت برقية لامبسون إلى هاليفكس (١٠ أغسطس) تشي بهذه الدلالة تمامًا، حيث أن هناك "... همسات بأن الجيش المصري قد صدرت إليه الأوامر بمقاومتنا إذا أجبرناه على مقاتلة الإيطاليين لذلك فقد اقتربت اللحظة التي علينا أن نكون فيها حازمين مع الحكومة المصرية ومن ورائها السراي حتى لو وصل الأمر إلى اللجوء لاستعمال القوة المسلحة".

وحين تقدم أحد أعضاء مجلس الشيوخ باستجواب حول "بيع ما لدى الجيش المصري من أسلحة إلى الجيش البريطاني" ... أعلنت الحكومة المصرية في بيان لها "عدم صحة الادعاء"!

لم يكف لامبسون عن تقديم طلباته إلى حسن صبري وكان أولها طرد مجموعة علي ماهر من القصر وفي مقدمتهم عبد الوهاب طلعت وحين زادت مخاوف رئيس الوزراء من أن يقدم الملك على تعيين طلعت رئيسًا للديوان بادر - كما يقول حسن يوسف - إلى ترشيح محمد حلمي عيسى (رئيس حزب الاتحاد) وأحمد حسنين (الأمين الأول بالقصر) لكي يختار الملك أحدهما لمنصب رئيس الديوان، واختار فاروق رائده أحمد حسنين (٢٨ يونيو) وكان حسن صبري يتوقع ذلك بالفعل، مثلما أسر إلى حسين هيكل الذي اختار الشخص نفسه حين سأله عن بديل لعلي ماهر.

ولم تتوقف مطالب لامبسون رغم ذلك، فقد طلب اعتقال علي ماهر وهو أمر لم يستطع رئيس الوزراء أن يحققه هذه المرة، وخلافًا لما يقول به النحاس أن الملك لم ينعم على حسن صبري بالوشاح الأخضر حتى ذهابه مع الملك في سيارة (التشريفة الكبرى) إلى البرلمان مما أدى إلى وفاته داخل البرلمان، فالثابت أن رئيس الوزراء نال الوشاح قبل ذلك ببضعة أيام ... وقد اتفق الملك معه على أن يظل الأمر سرًا حتى يوم افتتاح البرلمان ولكن الخبر تسرب رغم إرادة رئيس الوزراء في اليوم التالي إلى الصحافة ويعترف مصطفى أمين أنه هو الذي التقط الخبر وسربه ونشره فقد تابع رئيس الوزراء حتى مكتبه بالخارجية المصرية ثم تصنت تليفونيًا على مكالمة بينه وبين زوجته عقب لقائه بالملك في قصر القبة.

ويسجل مصطفى أمين المكالمة التي تصنت عليها على النحو التالي:

"المقابلة كويسة جدًا، مولانا ربنا يخليه تفضل وأنعم بالوشاح الأكبر من نيشان محمد علي إنما قال أن الخبر لازم يفضل سر وجلالته سيقلدني الوشاح يوم افتتاح البرلمان أوعي تقولي لحد..."

وقد دخل حسن صبري إلى جلسة البرلمان (١٤ نوفمبر) وهو يرتدي الوشاح الأخضر بالفعل وتسلم خطبة العرش من الملك، وبدأ في تلاوتها وكان قد كلف حسين هيكل بكتابتها موجزة، حيث قدر أن تلاوتها لن تستغرق سوى أثنتي عشر دقيقة.

وبدأ رئيس الوزراء يلقي الخطاب بصوت جهوري ممتلئ، صوت رجل قضى حياته مدرسًا ثم محاميًا، واستمر صوته كذلك لمدة ثماني دقائق ثم ... "...بدأ فجأة ينخفض، ثم إذا هو يميل في موقفه مستندًا على رئيس مجلس الشيوخ محمد محمود خليل الجالس إلى جواره، ثم إذا أوراق الخطاب تفلت من يده، وإذا هو يتهالك على الأرض في أناة وينحدر فوقها لا حراك فيه...."

لقد "بدأ كشمعة تذوي" حسب وصف لامبسون، وإذا بهذا الرجل الذي كان يتكلم باسم الحكومة ويلقي خطاب العرش مزهوًا بلباسه الرسمي، وبنيشانه الجديد، قد أصبح جثمانًا لم يبق له بالوشاح حاجة إلا أن يوضع على «نعشه»!

(٥)

كان في مقدمة الطلبات التي ألح عليها لامبسون سواء في اتصالاته مع رئيس الوزراء أو مع أحمد حسنين، تطهير القصر من الإيطاليين الثلاثة ومن بينهم (بوللي).

لم يذعن فاروق لذلك، بل اختار هذا التوقيت ليمنح (بوللي) الجنسية المصرية، ونقل عنه أنه قـال "سأتخلص منهم إذا تخلص هو - أي لامبسون - من زوجته" في إشارة إلى أصول زوجة السفير الإيطالية.

كانت التقارير تنهال على السفارة البريطانية عن انحياز فاروق إلي المحور حتى "وقر في نفس السفير البريطاني أن جلالته محوري الهوى".

ولم يكن فاروق يتورع عن إظهار كراهيته لبريطانيا وعن أمانيه في أن تلحق بها الهزيمة وحتى في حديث له مع سفير أمريكا في القاهرة في ذلك التوقيت (وفقًا لبرقية السفير إلى الخارجية الأمريكية في ١٨ أغسطس) فقد عبر بحرارة عن هذه الأماني بهزيمة بريطانيا، بل إنه أتهم الدول التي تساندها بأنها "تفتقد إلى الحكمة السياسية."

قبل ذلك كانت السفارة البريطانية قد تلقت تقريرًا سريًا بأن كلا من فاروق وعلي ماهر قد شكلا قناة اتصال خلفية مع (فيروتش) المهندس الإيطالي المُبعد عن القصر الملكي إلى روما بضغط بريطاني سابق، وأنه أبلغهما بحصوله على تأكيدات من ملك إيطاليا ومن موسوليني بإيجابية الموقف الإيطالي تجاه مصر.

ورصدت التقارير البريطانية عدة قنوات ملكية خلفية أخرى إلى إيطاليا وإلى ألمانيا من بينها ملحقة سياسية في مفوضية أسبانيا في القاهرة تدعى (دولوس) شكلت قناة إلى سفارة ألمانيا في مدريد، ووزيرًا مفاوضًا في مصر يدعي شوقي الهان يلعب دور "فتاة متحركة بين القاهرة والسفارة الألمانية في أنقرة" وموظفًا سابقًا في تشريفات القصر (يدعي سمير ذو الفقار) يلعب دورًا متصلاً في إيصال رسائل القصر إلى بعض وكلاء الألمان في العاصمة اللبنانية والعاصمة التركية.

ثم أكدت السلطات البريطانية أنها اكتشفت من بين الوثائق الألمانية التي عثر عليها أن علي ماهر كان يتلقى وهو رئيس وزراء مساعدات مالية من المحور عن طريق بنك درسنر ومع ذلك فإن التقارير البريطانية المذكورة لم تستطع الكشف عن عمق الاتصالات بين فاروق وبين المحور أو قناواتها المباشرة الحقيقية.

فوفقًا لما رصده المؤرخ الألماني (لوكازهيروزيد) في كتابة ألمانيا العسكرية والمشرق العربي "فإن أهم الأشخاص الذين قاموا باتصالات مباشرة باسم القصر الملكي بالجهات الألمانية المسئولة السفير المصري في طهران يوسف ذو الفقار (صهر الملك فاروق) وقد قام بنقل رسائل شفوية باسم الملك مباشرة عبرت عن تعاطفه والشعب المصري مع هتلر

واحترامه لألمانيا وأمنياته لها بالانتصار علي بريطانياوأنه ومعه الشعب المصري يودان مشاهدة قوات التحرير الألمانية في مصر في أسرع وقت ممكن وأن المصريين واثقون من أن الألمان قد أتوا كمحررين لا كطغاة جدد".

كما قام القنصل المصري العام في اسطنبول (حافظ عمرو) والقائم بالأعمال المصري في بون، بنقل رسائل مماثلة إلى جهات ألمانية مسئولة.

وقد تلقى الملك فاروق فيما يلي ذلك مذكرة عن طريق يوسف ذو الفقار تضمنت رسالة من هتلر تؤكد أن الحرب الألمانية ليست موجهة ضد مصر أو أي بلد عربي وإنما ضد انجلترا وأن دولتي المحور تريدان طرد بريطانيا من أوروبا والشرق الأدنى إلى غير رجعة وأن هتلر وموسوليني يرغبان في أن يتحقق الاستقلال لمصر وكافة الأقطار العربية.

وقد قام يوسف ذو الفقار في مرحلة تالية (٢٩ يونيو ١٩٤١) بعد فشل الهجوم الانجليزي على الحدود المصرية الليبية بنقل برقية من فاروق إلى السفير الألماني في طهران - وكانت عبارة عن رسالة تحذير تضمنت معلومات بأن الانجليز سيقومون باحتلال مناطق البترول الإيرانية لكي يحموها من الهجوم الألماني المحتمل من ناحية روسيا.

وبعد ذلك كتب فاروق إلى هتلر بعد أن أثارت قلقة الاتصالات بين الخديوي السابق عباس حلمي والألمان "وكان متعاطفاً مع الألمان ومقيماً في برلين حيث التقاه النحاس ومكرم عبيد هناك عام ١٩٣٦ وشجعاه على العودة إلى مصر" يحثه علي قطع هذه الاتصالات، وقد توقفت بالفعل بعد ذلك.

غير أن الفتاة التي حملت هذه الرسالة إلى هتلر، وكذلك الرد عليه كانت جديدة هذه المرة ولم تكن سوى السفارة البلغارية في القاهرة.

ومع تعدد الاتصالات والرسائل والقنوات الخلفية بين القصر الملكي في مصر والمسئولين الألمان والإيطاليين فلم تتسرب إلى هذه الجهات بشهادة الجنرال ويلسون القائد العام لمنطقة البحر الأبيض من مصر عموماً سوى معلومات: "ضئيلة القيمة، فلا أعرف حالة واحدة تضمنت معلومات عن تحركاتنا وعملياتنا العسكرية تسربت إلى العدو في الوقت المناسب الذي يتيح له استخدامها لمواجهتنا".

ولذلك تبرز تلك القناعة التي تقول أن اتصالات فاروق والقصر الملكي في مصر عموماً بالمحور لم تكن تستهدف سوى الحصول على وعود باستقلال مصر في حالة كسب المحور للحرب.

ولكن لامبسون كان يبدو ضيق الصدر جداً تجاه فاروق، ولم يكن صدر أنتوني إيدن - وهو سكرتير عام وزارة الحربية البريطانية - بأقل ضيقاً. فبعد لقاء مع فاروق خلال زيارة سرية للقاهرة (في منتصف أكتوبر) بادر إيدن لامبسون بالقول:

"إنني لا أعرف كيف تصبر على التعامل مع هذا الصبي، وما هو سبيلك إلى ذلك ...

لابد أنها تجربة قاسية..." وعندما التقى إيدن خلال الزيارة نفسها في حفل بقاعة الرقص في السفارة البريطانية (١٩ أكتوبر) بعدد من السياسيين المصريين وكان في مقدمتهم النحاس استوقفه بشدة "أن جميع هؤلاء الزعماء يعتقدون بأن الملك هو الأصل في كل المشاكل التي تعاني منها البلاد..." بالرغم من أن كل هؤلاء الزعماء التزموا الصمت تماماً في زيارته السابقة لمصر (فبراير من العام نفسه).

ولذلك أخبر إيدن سفير بريطانيا في القاهرة أنه توصل إلى نتيجة حاسمة مؤداها أن الشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو طرد الصبي (أي الملك).

"Tells me that he is coming very definetely to the conclusion that the only thing to do is to kick the boy out."

ورد عليه لامبسون قائلاً: بأنها نتيجة قد توصلوا إليها منذ زمن بعيد، لأنه طالما ظل الصبي فلن نحظى بتعاون حقيقي.

وخلال زيارته بعد أيام لبور توفيق أعاد إيدن تكرار قناعته بحتمية ذهاب الصبي، لأنه حتى في فلسطين حدثه المندوب السامي هناك عن "... الأثر السيء الذي أحاط بسمعتنا طبقًا للتقارير الخاصة بمسلك ملك مصر....".

وقبل أن يذهب لامبسون إلى اجتماع القادة العسكريين طلب منه إيدن أن يتشاور معهم في الأمر، حيث عرض السفير على القادة الثلاثة ما يفيد أن الملك فقد سيطرته على الشعب المصري من خلال تقلب أحواله. وافترض لامبسون أنه في حالة عدم سير الأمور سيراً حسنًا على الجبهة فإن وجود الملك فاروق الذي سيلعب من ورائنا دوراً مناوئًا سيكون بمثابة مخاطرة.

لكن الجنرال ويفل أعلن أنه لا يوافق على ذلك ... وكان أرثر لونج مور (مارشال – قائد سلاح الطيران) يميل إلى رأي ويفل وشارك سمارت في المناقشات حيث اتسعت دائرتها لكن ويفل لم يتراجع عن رأيه وهو ما فسره لامبسون بأنه: "كان متخوفًا شأنه شأن الآخرين من أن البلاد لن تستسلم بسهولة".

ولم يكن ثمة جدوى من الاستمرار في المناقشة، وحيث وصلت التقارير والأراء إلى لندن رأت الحكومة البريطانية أو رأي تشرشل تحديداً منح فاروق فرصة أخري، على أن يقوم لامبسون باختيار وقت مناسب ليشرح له أن عليه: "إذا أراد أن يستمر ملكًا على مصر أن يغير موقفه وإلا عرض نفسه للنفي في مكان ما..."

ثم أعطى لامبسون والقادة العسكريين كإجراء أخير سلطة تنفيذ إبعاد الملك (أو الصبي) إذا تفاقمت الحالة وعندما وصلت التعليمات إلى لامبسون أبلغ الخارجية البريطانية، أنه سيفاتح الملك في شأن التقارير التي تفيد اتصالاته بإيطاليا وميوله نحوها.

ولم يتم التخلص من فاروق فقد سادت في أوساط العسكريين البريطانيين قناعة بأن

مصر يمكن أن تتعرض لأحداث شعبية كتلك التي صاحبت ثورة ١٩١٩ وأن ذلك من شأنه إضعاف المركز العربي لبريطاني.

لكن لامبسون استمر يراقب فاروق بل يحاول أن يتفرس فيه من الداخل.

ولعب الأمير الأردني عبد الله بن الحسين دورًا في استراق لامبسون السمع داخل سريرة الملك.

وحيث عاد الأمير عبد الله من لقاء خاص مع الملك فاروق، كان لامبسون في انتظاره (١٣ نوفمبر) حيث سكب الأمير انطباعاته بسرعة في أذان السفير.

قال الأمير له:

إن فاروق ضد وجهات النظر البريطانية، بل ضد المعاهدة، ويعتبرها في غير صالح مصر، ووصفه بأنه يعاني من داء الكبر، ويبدو غير متحمل للمسئولية. وقال الأمير للسفير: أنه أبلغ فاروق أنه - أي الأمير - ومن معه يعملون بكل قلوبهم مع انجلترا نظرًا لظروف الحرب. لكنه فوجئ بأن الملك يقهقه كالحشاشين ويصفه - أي الأمير عبد الله - بالرجعية. ووسط سعادة لامبسون الغامرة طور الأمير هجومه على الملك فدعاه إلى خلعه واقترح البدائل له (الأمير محمد علي أو حتى الخديوي السابق) وحيث أشرقت عيون لامبسون وصف الملك بأنه وصمة عار على العرب والمسلمين!!

(٦)

لم تقع حادثة الاعتداء المسلح على رفيق الطرزي في ذلك التاريخ من أحد أيام عام ١٩٤٠ وإنما وقعت يوم ١٢ مايو عام ١٩٤٩: أي بعد تسع سنوات من التاريخ الذي تورده المذكرات ولقد تركت هذه الواقعه على حالها وفي سياقها، مكتفيًا بالإشارة إلى تاريخها الصحيح، ودون أن أعيد تصنيفها في مكانها المفترض داخل المذكرات، كما فعلت مئات المرات مع وقائع أخرى على امتدادها مفضلاً أن تبقى شاهدًا على ذلك.

كان رفيق الطرزي يوم إطلاق الرصاص عليه يتناول طعام العشاء مع خطيبته في مطعم مونترو بمصر الجديدة وحين أنهيا عشاءهما ودلف إلى سيارته بعد أن أجلسها إلى جواره في المقعد الأمامي، وقبل أن يهم بإغلاق بابه انهمر وابل من الرصاص، استقر منه في جسم السيارة أربع وعشرون طلقة وفي جسده ٦ طلقات، بينما تناثرت مقذوفات أخرى في الفضاء.

ولم يستطع أن يكمل وكيل النيابة (سيد أبو النجا) التحقيق الذي بدأه فقد طلب منه أن يتركه لمحقق آخر (محمد علي إسماعيل) تطوع بأن يدون في المحضر أنه تسلمه لتعب حتى داهم الأول.

غير أن رفيق الطرزي صارع الموت بقوة ولم يمت رغم إصاباته المتعددة، وظل ملقى

بالمستشفى ثلاثة عشر يومًا دون أن تدون أقواله حول الحادث في محضر تحقيق رسمي، ثم طلب منه وهو مازال طريحًا أن يذهب إلى النيابة لتدوين أقواله، وانتظرت النيابة حتى ديسمبر لتستكمل على نحو شكلي التحقيق الذي لم تبدأه أبدًا.

وفي منتصف عام ١٩٥١ كان الطبيب قد انتهى من تقريره حول الحادث الذي تم حفظه دون سؤال المجني عليه.

ولم يتقرر إعادة التحقيق واستجواب جميع من لهم علاقة بالحادث - بما في ذلك مصطفى النحاس نفسه - إلا في ديسمبر ١٩٥٢ أي بعد الثورة ببضعة أشهر.

اللافت للنظر أن النحاس في مذكراته يؤكد على أن أسباب الحادثة شخصية بحتة، وأنها عبارة عن تنافس على امرأة كانت تنافس الطرزي وقال أنها خطيبته وقريبة له وأن ذلك تم من خلال مواجهة بين الطرزي والملك نفسه.

ولم يخرج النحاس في شهادته الرسمية أمام النيابة كثيرًا عن السبب السابق، وإن كان لم يذكر أن التنافس بين الطرزي والملك كان بسبب امرأة بعينها قال إن "الاثنين متنافسين في أشياء لم يذكرها (رفيق) لحد ما ربنا أخذ ما بيده فأراد أن يأخذ بالثأر فأنا منعته".

لكن محمد كامل البنا سكرتير النحاس يشير (في لقاء مع الصحفي مدحت بسيوني) أن السبب وراء محاولة قتل رفيق الطرزي هو إيعاز حاشية الملك أن رفيق يحب الملكة فريدة وأنه يتنافس على حبها مع وحيد يسري.

بينما يؤكد محمد حسن الخادم الخاص للملك في التحقيق الرسمي (بعد الثورة) أن الحرس الحديدي هو الذي نفذ محاولة اغتيال الطرزي بإيعاز من الملك، وأنها ترجع إلى الخلاف بين الوفد والملك لأن الطرزي بعد محاولة نسف بيت النحاس أحضر له حراسة خاصة لحمايته، وأن الملك كان لديه معلومات تفيد أن رفيق سيقوم باغتياله ولذلك صادر أسلحته ويفيد محمد حسن في أقواله أنه رأى الملك يستعرض أسلحة الطرزي المصادرة وكانت حوالي ست بنادق ومسدسات وأنه سمع الملك يقول "أهية دي اللي كان هيضربنا بيها..".

أما الضابط سيد جاد أحد أعمدة الحرس الحديدي فيفسر الحادث بأن الطرزي هدد الملك بالقتل وصرح بذلك أمام أشخاص أبلغوا السراي بذلك وهو ما تؤكده واقعة مصادرة أسلحته قبل اغتياله.

الإضافة الأساسية في الواقعة كلها وفقًا لشهادة ضابطين من الحرس الحديدي هما: جمال منصور وسيد جاد الذي قاد عملية اغتيال الطرزي، وأطلق النار عليه من مدفع رشاش وهو يستقل عربة ملكية لم يكن سوى (حسن التهامي) الذي لعب دورًا خاصًا في تحولات ثورة يوليو وارتبط بعلاقة خاصة مع الرئيس السادات.

(٧)

وصل إلى القاهرة بالفعل (في أول أكتوبر) الجنرال كاترو في زيارة سرية لتهدئة الموقف المضطرب من تطورات الأوضاع على الجبهة العسكرية الأوروبية، ثم العمل كممثل لفرنسا الحرة في سوريا، وكممثل للجنرال ديجول في الشرق الأوسط.

وقد وصل كاترو تحت اسم مستعار هو (كارتير)، وكان تعليق لامبسون على لقائه أنه يعرف سوريا جيداً، وعلى علاقة مع مجموعة من الشخصيات السورية.

وقد أخبره لامبسون أنه يرى أن الحكومتين الفرنسيتين سواء أكانت حكومة فيشي أو حكومة فرنسا الحرة، يتسم موقفهما بالبطء وعدم مواكبة تطورات الأحداث بينما يرى أن الشعب في سوريا يميل إلى اتخاذ خطوات سريعة.

وقبل زيارة كاترو للقاهرة بأيام معدودة (١٩ أغسطس) كان نوري السعيد في القاهرة وفور لقائه بالسفير البريطاني، بادره رئيس وزراء العراق بالسؤال:

ماهو شعورك إزاء ما حدث في هذا الجزء من العالم، وهو على وجه الخصوص سوريا؟

كانت سوريا قد أصبحت قاعدة لقوات تحرير فرنسا التي يقودها الجنرال ديجول بعد الاستسلام الفرنسي، ولذلك كان سؤال نوري السعيد يبدو تحريضاً لكن لامبسون سرعان ما أجابه يقوله:

إنه من المتوقع ألا يرغب أحد منا – انجلترا أو فرنسا – في أن ينافس الطرف الآخر في هذا الوقت بالذات ... وأمسك نوري السعيد طرف الخيط من الجانب الآخر، مؤكداً أن صمود لندن ضد الغارات الألمانية المكثفة سوف يجعل الشرق الأوسط ميداناً للمعركة حيث من الضروري أن يتجه عدوان الألمان، وإن كانت هناك صعوبة في نقل نصف مليون جندي ألماني إلى هنا لكي يمكن تحقيق النجاح.

وتوقع نوري السعيد أن تقايض حكومة (فيشي) على سوريا لكي تشتري السلام في مكان آخر خاصة وأن هناك (١٢٤,٠٠٠) جندي في سوريا "وإذا اتجه الألمان والإيطاليون إلى هناك" "فقد تظهر في الأفق أخطار كثيرة تحيق بنا".

وطالب نوري السعيد بريطانيا بأن تسعى إلى تخفيض عدد القوات الفرنسية في سوريا إلى (٢٤,٠٠٠) جندي لكي "تشل فاعليتها، وحتى يمكن للبلاد التي تحيط بسوريا (والمقصود العراق طبعاً) أن تتعامل مع أية تهديدات أو أخطار من جانب سوريا".

كانت حاسة الشم لدى نوري السعيد فيما يظهر يانعة وخلافاً لما ادعاه لامبسون عن غياب المنافسة بين بريطانيا وفرنسا في ذلك الوقت، فإن بريطانيا كانت تحاول أن تبتلع ما تبقى من فرنسا ومن مستعمراتها.

كان الجنرال ديجول قد قام بعد تسليم فرنسا بإنشاء اللجنة الوطنية لتحرير فرنسا في

لندن، ووقع مع تشرشل (٧ يوليو) اتفاقًا يقضي بمنحه الحق في تأليف قوة من المتطوعين الفرنسيين في بريطانيا تتعهد بريطانيا بتزويدها بما تحتاجه من مواد حربية لكن الحكومة البريطانية ورغم صعوبة موقفها الميداني كانت تعمل لبناء مصالحها المنفردة فإذا كانت قد تقدمت إلى الحكومة الفرنسية (١٦ يونية) بمشروع ينص على الوحدة البريطانية الفرنسية. كان توقيتًا غريبًا لطلب الوحدة، لكنه كان يترجم عمليًا إلى السيطرة على ما تبقى من موارد فرنسا ومستعمراتها وأسطولها، وتحويلها إلى مقاطعة انجليزية ورفضت حكومة (بيتان) بشدة الطلب البريطاني فقد كان شعار أغلب أعضائها "... من الأفضل أن تكون فرنسا مقاطعة ألمانية على أن تصبح دومنيونًا بريطانيًا" بعد ذلك بيومين (١٨ يونية) اجتمع في ميونخ هتلر وموسوليني للبحث في شروط استسلام فرنسا، وبعدها بثلاثة أيام تسلمت فرنسا شروط الهدنة أو شروط الاستسلام.

ولذلك حين وقع تشرشل مع ديجول الاتفاق السابق بادرت بريطانيا عن حركة ديجول بالاستيلاء على وحدات الاسطول الفرنسي المرابطة في ميناء طهران (٣ يوليو) ثم على وحداته المرابطة بميناء الاسكندرية بعد ذلك بأيام، بينما كانت بريطانيا نفسها تكاد أن تكون خالية من أية قوة دفاعية بعد هزيمة دنكرك وقد اعترف تشرشل نفسه فيما بعد بأن "... قوة ألمانية غازية تضم نحو مائة وخمسين ألف رجل في إمكانها أن تنزل في الجزر البريطانية فيما لو فعلت ذلك عام ١٩٤٠".

لكن ذلك كله، لم يمنع الجنرال ويفل حين ذهب نوري السعيد لمناقشته وطرح مخاوفه من الحالة السورية عليه، بأن يبلغ لامبسون في أعقابها بأفق المخاطر التي ساقها نوري السعيد، لكي تقود إلى فكرة تسريح الجنود الفرنسيين من الشام.

قال ويفل للامبسون:

"... إن هناك أهدافًا خفية أخرى من وراء ذلك وأن ما يريده العراق هو إضعاف القوات الفرنسية في سوريا ومن ثم يغدو من السهل على العرب – وخاصة العراق – أن يبدأوا في تنفيذ مشروعاتهم هناك..."

وهكذا تحت أفق الحرب العالمية الثانية الملبد بالدخان، لم تكن بريطانيا المثخنة بالجراح هي التي تدفع وحدها أطماعها إلى الأمام كان هناك بعض العرب وهم تحت نير الاحتلال الأجنبي أيضًا ... ربما لأن توازنات القوى كانت قد اختلت بشدة وذلك هو الدرس الأول في الغواية على المستوى الإقليمي.

(٨)

رغم تلك الوفاة الدرامية الفاجعة لحسن صبري رئيس الوزراء فقد بادرت السفارة البريطانية بالحركة خشية أن تفاجأ بتعيين بديل له غير مرغوب فيه خاصة وقد تردد أن القصر بصدد تكليف محمد محمود خليل برئاسة الوزارة الجديدة، حتى أن السفير البريطاني الذي كان يرى أن (خليل) مجرد عضو في مدرسة علي ماهر سارع بنقل تحذير

إلى أحمد حسنين من مغبة هذا الاختيار ويبدو أن اتساع شائعة تعيين محمود خليل التي لم يكن لها نصيب واضح من الصحة، كان سببه أنه قرأ ما تبقى من خطاب العرش بعد أن سقط رئيس الوزراء ميتًا على أرض البرلمان لأنه كان يجلس إلى جواره حتى أنه مال عليه بأوراقه وهو يترنح قبل السقوط واختار القصر بسرعة حسين سري لرياسة الوزارة، حيث شكل (في ١٥ نوفمبر) وزارته من الأحرار الدستوريين والمستقلين ولم يكن حسين سري سياسيًا مغامرًا ولا رئيس حزب له قواعد في الشارع أو البرلمان، وإنما كان موظفًا قضى حياته في كنف أب تولى وزارة الأشغال، حيث عمل الابن مهندسًا بها، وأتاح له وضع والده أن يرث صعودًا وظيفيًا مبكرًا وعاجلاً في وزارته وأن يحظى بمكانة خاصة عند الملك فاروق الذي كان في الوقت نفسه صهرًا له.

لقد حاول (سري) أن يظهر الود والاستعداد للتعاون للجميع ومع الجميع أسر في أذن لامبسون أنه سيقوي جسور السفارة معه، وسيقلص نفوذ القصر وأعطى القصر انطباعًا بأنه ما جاء إلا بإسمه وعلى هدى رغباته، ووزع ابتسامات مختلفة على الاخرين وخاصة في البرلمان الذي لم يكن له فيه لا سندًا ولا حسيبًا.

وإذا كانت الأسابيع الأخيرة من العام والشهور الأولى من رئاسته عمومًا قد مرت في سلام وسكينة، فقد كان مرد ذلك إلى ما حدث من تحسن في الموقف العسكري البريطاني على الجبهة المصرية، وإلى نجاح الحملة البريطانية - بعد ذلك - في طرد الإيطاليين من الحبشة.

لكن أمر الوزارة ورئيسها بعد ذلك كان قلقًا ... ولم يكن لدى الوفد مساحة تجربة مع هذه الوزارة كسابقتها، فقد أعلن موقفه بشكل مباشر، من أنه لا يشترك فيها ولا يؤيدها برغم أن رئيسها أرسل (صليب سامي) إلى النحاس يعرض عليه الاشتراك في الوزارة بوزراء وفديين ورد النحاس بأن الحل كما يراه هو الحل الدستوري. وعندما عمد رئيس الوزراء الجديد إلى استشارة رؤساء الأحزاب اعتبر الوفد ذلك "سلوكًا عشوائيًا".

ومع أن البريطانيين لم يكونوا أقل طمأنينة إلى حسين سري مما كانوا لسلفه حسن صبري بل لعلهم كانوا مقتنعين بأن سري باشا أقل من سلفه مناقشة لهم في مطالبهم "لكن سري أخفق في أكثر من امتحان، وبدا غير قادر على التوازن لأنه لم يكن قادرًا على إرضاء جميع الفرقاء في وقت واحد ولم يكن قادرًا على إغضاب أي طرف في الوقت نفسه".

لقد كررت السفارة البريطانية عليه مطلبًا قديمًا وهو اعتقال علي ماهر ولم يخبر رئيس الوزراء أحدًا بذلك من أعضاء وزارته، حيث فوجئ مجلس الوزراء كله أن رئيسه يوجه خطابًا مفتوحًا إلى علي ماهر عن طريق الصحف ويطلب منه في خطابه عدم الاشتغال بالسياسة ورد علي ماهر أيضًا في خطاب مفتوح آخر بأنه يقدر حقه، وموقف بلاده من الأحداث المحيطة به أدق تقدير.

وهكذا أراد رئيس الوزراء أن يرضـي لامبسـون، دون أن يغـضب فـاروق، ولكنه تنكب الطريق.

لقد طلب (لامبسون) – أيضًا – الحد من نشاط الشيخ البنا لأن "... الرجل يعمل في أوساط جماعته لحساب إيطاليا..."

ولم يكن الاتهام على هذا النحو دقيقًا – لكن السفارة البريطانية كانت تستشعر خطرًا من هذا التزاوج بين جماعة الإخوان المسلمين في ذلك التوقيت وأهداف من عدتهم موالين للمحور في مصر حيث كانت علاقة الجماعة بعلي ماهر والقصر واضحة وجلية، بل تسببت قبل ذلك بقليل في خلق حالة تمرد داخل الجماعة، ووجه المتمردون إنذارًا إلى الشيخ البنا بطرد أحمد السكري وقطع علاقة الجماعة مع علي ماهر والقصر ولكنه رفض وطرد معارضيه.

ولما كان الشيخ البنا ما يزال مدرسًا للغة العربية في مدرسة المحمدية الابتدائية الأميرية، فقد طلب رئيس الوزراء من الوزير المسئول (حسين هيكل) نقله إلى قنا "... ولم أجد بأسًا بإجابة طلبه... فنقل مدرس في مدرسة ابتدائية أمر ذا بال..."

"... ولكن نقل الشيخ حسن البنا لم يؤد إليه نقل مدرس آخر، فقد جاءني غير واحد من النواب الدستوريين يخاطبني في إعادته إلى القاهرة ويرجوني في ذلك بإلحاح..."

ولم يستجب هيكل لذلك الإلحاح فخاطب عبد العزيز فهمي نفسه رئيس حزب الأحرار الدستوريين، رئيس الوزراء وطلب منه إعادته إلى القاهرة وذكر له إلحاح طائفة من النواب الدستوريين ذوي المكانة..

وتراجع حسين سري وطلب من حسين هيكل إعادة الرجل إلى مدرسته بالقاهرة وتساءل هيكل في إشارات موحية:

"ترى أأحسن سري في تراجعه هذا أم أساء؟ لعله خشى أن يزداد ضغط النواب جسامة... لكن الذي لا شبهة فيه أن تراجعه يعني أن الشيخ حسن من القوة بما يسمح له بمضاعفة نشاطه من غير أن يخشى مغبة ذلك النشاط، وأن هذا الشعور كان له أثره في تطور جماعة الإخوان المسلمين من بعد..."

نعم، كان لذلك أبعد الأثر في تطور جماعة المسلمين لكن أسباب ذلك لا تكمن فقط في ضعف رئيس الوزراء الذي لا يستند إلى أغلبية شعبية أو حتى برلمانية مزيفة ولا إلى أن نواب الحزب الليبرالي الأول هم الذين جاهدوا لإعادة الشيخ، وإنما كانت العلة – دون شك – في صلب ذلك النظام السياسي المأزوم.

(٩)

أسرف الوفد وأدواته الإعلامية في استخدام حكاية الضابط الشاب الذي داهم الملك وهو في أحضان زوجته فأرداه قتيلاً ثم استرضى والده فعينه وزيرًا....

لقد تكرر استخدامها حتي صدقها مستخدموها، وتحولت من طول الإحاح عليها إلى قناعة راسخة.

وحين وقف والد الشاب المحامي علي أيوب بك خلال قضية اغتيال أمين عثمان (وكان محامي المتهم الخامس عشر في القضية: أحمد وسيم خالد وأصر على سماع شهادة مصطفى النحاس واستجوابه خرجت صحيفة الوفد في عنوان كبير تقول: (رحم الله إبن علي أيوب)، وكأنها تسوق للرجل الذي كان يؤدي عمله اتهامًا مكررًا بالجبن أمام السلطة دفاعًا عن دم ولده وشرف أسرته رغم أن شرف أسرته لم يمس ودم ولده لم يرق فلم يكن للاتهام أي نصيب من الصحة.

لقد تأخر الوصول إلى تلك الحقيقة بشكل جازم حتى قيام الثورة، حيث تقرر في عام ١٩٥٢ إجراء تحقيق شامل لكشف أبعاد القضية، حيث تبين أنه لم تكن هناك علاقة ولا جريمة ولا دمًا ذبيحًا بل تأكد أن السيدة التي وجه إليها اتهام بالخيانة الزوجية – وهي إبنة أخت حسين سري رئيس الوزراء – كانت شديدة الاستقامة والتقوى.

أما كيف ألفت القصة، ثم نفخ فيها وأصبحت قناعة فإن مصطفى أمين يستخلص أن السيد علي أيوب (الزوج) هو الذي كان يعيش علاقة مع أمرأة أخرى تستنزفه ماليًا، وأنه هدد والده بالانتحار إذا لم يجب طلبه إلى مزيد من المال وحمل التهديد إليه د. محمود الشاهد (شقيق صلاح الشاهد كبير الأمناء) وحين لم يأبه الوالد نفذ الابن تهديده واطلق الرصاص على رأسه منتحرًا.

وخشى حسين سري رئيس الوزراء من نشر خبر انتحار زوج ابنة شقيقته، الذي سيسيء إليها بالتأكيد، فأصدر أوامره إلى الرقابة بمنع نشر أسباب وفاة د. السيد علي أيوب.

الغريب أن فؤاد سراج الدين قدم استجوابًا في مجلس الشيوخ إلى حسين سري رئيس الوزراء عن تعدي الرقابة اختصاصها في منع أخبار لا علاقة لها بالمجهود الحربي من النشر، وضرب مثلاً بمنع نشر خبر "أسباب وفاة السيد علي أيوب".

ونشر الاستجواب في الصحف، دون تعليق عليه، ثم تكفل آخرون بإن برروا المنع برغبة رئيس الوزراء في إضفاء حماية على شخص أكبر لا يمكن أن يكون غير الملك شخصيًا ثم ساعدت الحرب بين الوفد والقصر والتي تأججت أكثر بعد ذلك في تحول الشائعة إلى حقيقة راسخة، صدقها حتي مستخدموها..

(١٠)

لم يكن الصراع بين أحمد حسنين وعلي ماهر مجرد منافسة على قلب امرأة - كما صور النحاس أكثر من مرة - وإنما كان حرباً متأججة للاستحواذ على عرش مملكة.

وإذا كان علي ماهر قد تميز بأنه «ثعلب صغير» فإن أحمد حسنين لم يكن أقل منه مراوغة وذكاءا وخبثًا، حتى أن محمد التابعي يذهب إلى أن أحمد حسنين نفسه هو الذي دفع علي ماهر إلى منصب رئيس الديوان الملكي لكي يكشفه أمام الملك خاصة وأن مواهب حسنين السياسية لم تكن قد بدت جلية في عين فاروق حتى ذلك الوقت.

لقد ترك علي ماهر عندما ترأس الوزارة منصب رئيس الديوان شاغرًا حتى يعود إلى أحضانه عندما تنتهي مهمته الوزارية لسبب أو لآخر ومن المؤكد أن فاروق كان يحبذ ذلك حتى وقف لامبسون عقبة في سبيل عودته إلى القصر.

ومن المؤكد - أيضًا - أن أحمد حسنين استغل إلى الحد الأقصى مخاوف السفير البريطاني من علي ماهر أو من ظلال الولاء للمحور التي كانت تخيم على القصر الملكي كله ليجعل جسوره مع الانجليز قوية ومفتوحة.

وحتى بعد تعيينه في منصب رئيس الديوان بعدة شهور فقد ظل يعطي انطباعًا قويًا للامبسون بأنه يطرب لكل هزيمة تحيق بالمحور ولكل انتصار ولو جزئي يحرزه جنود بريطانيا، وهكذا كتب لامبسون (٩ ديسمبر) في أعقاب اتصال تليفوني عبر خلاله عن سعادته الغامرة لأنباء اقتحام معسكر إيطالي في (سيدي براني) والقبض على عدد كبير من الأسرى الإيطاليين، يقول:

"ومن المعروف عن حسنين عداوه للإيطاليين ولم يعد سرًا أنه يظهر سعادته إزاء ما تواتر عن أنباء هزائمهم".

واحتاج لامبسون بعض الوقت ليفهم بعمق أكثر أن حسنين لا يحب أحدًا ولا يكره أحدًا ولذلك حين سأله (جوليان أهيدي) الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للطيران البريطاني عن حسنين أجابه بقوله: "... حسنين وراء كل الدسائس ... وباختصار فإنني لا أثق فيه على الإطلاق".

ربما يبدو الفارق بين علي ماهر وحسنين في أن "الثاني كان يحرص على أن يبدو ناعم الملمس متأنق المظهر والعبارة، جزل الأدب، غزير المعرفة بالرغم من أنه مغامر من طراز فريد، ومقتحم كبير الجرأة وواحد من أبرز «أساتذة المدرسة الميكافيلية، فيستطيع أن يصل إلى ما يريد بأي طريقة وبأي وسيلة "على حد تعبير الملكة فريدة ... "ذهب مبكرًا لاقتحام صحراء مصر الغربية، فاكتشف واحة (أرانكو والعوينات) وحدد مكان واحة الكفرة (بين أعوام ١٩٢١ - ١٩٤٢) وذهب مبكرًا أيضًا (١٩٢٠) لاقتحام الفضاء وخاض مغامرة كبرى للطيران من لندن إلى القاهرة، وحين رافق الملك فؤاد أثناء زيارته إلى لندن (عام ١٩٢٩) تخلف عن العودة إلى مصر، وكرر محاولته لاقتحام الفضاء مرة ثانية وثالثة. وحين سقط في المرة الأولى بطائرته في مدينة بيزا الإيطالية وكرر المحاولة وسقط ثانية في مدينة نابولي

ثم تحطمت الطائرة الثالثة تماماً، وذهبت زوجته (لطيفة إبنة سيف الله يسري باشا وأمها الأميرة شويكار مطلقة الملك فؤاد) ضارعة إلى الملك ترجوه أن يمنعه من الطيران مرة أخرى وتوقف عن الطيران ولكنه لم يتوقف عن ركوب المخاطر.

بينما كان جده (أحمد مظهر حسنين) آخر قادة الأسطول المصري، كان والده (محمد) من علماء الأزهر، ومع ذلك فقد تلقى بعد عام من دراسة الحقوق في مصر دراسته في مدرسة باليول ببريطانيا ثم عمل سكرتيراً للجنرال ماكسويل قائد القوات البريطانية في مصر، ثم قدم - كما يقول تقرير المخابرات البريطانية عنه نقلاً عن د. يونان لبيب رزق - معونة طبية للكولونيل تابلون خلال المفاوضات التي أعقبت هزيمة السنوسيين بعد رحيل الجنرال ماكسويل عن مصر رقي في وزارة الداخلية ثم عمل كضابط سياسي مع القوات البريطانية المتجهة إلى الصعيد بقصد قمع الاضطرابات هناك عام ١٩١٩.

ثم عين بعد ذلك (١٩٢٢) سكرتيراً أول مفوض في واشنطن ثم بعد وفاة والده - وبسبب اضطراب أحواله المالية عينه الملك فؤاد أميناً ثانياً بالقصر ثم رقي إلى وظيفة أمين أول، ثم عين رائداً لفاروق وكما تروي الملكة فريدة فإن فاروق كان في أول عهده يطيعه طاعة عمياء ويخافه وكان شديد التأثير عليه وكذلك على السياسة المصرية ولكن بعد أن ساءت الأحوال بينهما - بسبب قضية زواجه عرفياً من أمه - لم يكن فاروق يطيق أن يسمع اسمه".

رافق فاروق في رحلته الأوروبية قبل تتويجه، واقترب جداً من الملكة نازلي طوال الرحلة حتى أن معلم فاروق الانجليزي (فورد) وصفه بأنه "يتصرف مثل كلبها الأليف" بالرغم من أنه يسبغ عليه أوصافاً خاصة لم يمنحها لمصري آخر سواه:

"... أجلس إلى جانبه في معظم الوجبات، ذكاؤه حاد، سريع التصرف، جم الأدب، له اهتمامات بجميع الموضوعات، إلى حد ما نوع غير معتاد من المصريين، رشيق، ملامحه حادة، بشرته صفراء قاتمة وشعره رمادي مرتب إلى الوراء يقال أن دماً اسكتلاندياً دخل في أجداده، له عيون خبيثة تخترق كل شيء، لا تظهر ناعسة أبداً، دمث جداً...".

ورغم ذلك - أيضاً - وحيث زجر المعلم الملك بسبب سلوكه الصبياني خلال الرحلة فاجأه حسنين بالقول: "إن جلالته ملك ويجب أن يتملق وأن يداهن، يجب علينا الإصغاء لكرامته، ولحسه الجيد بدلاً من توبيخه ونهره". وهو ما فسره المعلم فورد بأنه "لم يكن حسنين أميناً في وظيفته، ويعتقد أن الملك سيرفض أي شخص يتصرف أو يتحدث كمعلم له..."

لكن شخصاً مثل (محمد زكي عبد القادر) يصفه بأنه: "دارس، فاهم، لبق، مهذب، عارف بالاتجاهات والتيارات جمع إلى ثقافته الغربية إلماماً كافياً بالحياة المصرية، تمرس بحياة القصور وما فيها من دسائس وتيارات، أراد أن يخلق من الملك شخصية مقدسة، وهو الذي صنع صورة الملك الصالح والخبير بكل شيء..."

ولذلك يصف الرافعي وجوده في القصر منذ تعينه رئيساً للديوان (٢٧ يوليو ١٩٤٠)

بـأنـه "اقترن بحوادث جسيمة وزاد على ما كان لحسن نشأت (١٩٢٤ – ٢٥) ولعلي ماهر (٣٧ – ٣٩).

أما عن قصة تعيينه رئيسًا للديوان كما يرويها حسين هيكل، فإن رئيس الوزراء في ذلك الوقت حسن صبري سأل هيكل عن رأيه فيمن يصلح رئيسًا للديوان لا مطعن على ميوله من ناحية الانجليز وفكرت في الأمر هنيهة ثم اقترحت تعيين أحمد حسنين باشا.. فهو رجل تلقى علومه في أكسفورد وله أصدقاء كثيرون من البريطانيين وكان موضع ثقة الانجليز في الحرب الأولى فقد كان سكرتيرًا لماكسويل".

واكتشف (هيكل) أن حسن صبري قد فكر في الأمر على النحو نفسه متأكدًا "أن الملك سيرحب بهذا الاختيار".

ويبدو أن حسن صبري كان يرد إلى حسنين أيضًا صنيعه فقد كان وراء اختياره رئيسًا للوزارة كمخرج من الصدام بين السفارة البريطانية والملك، بسبب إخراج علي ماهر من الوزارة ومن القصر والغريب أن (حسنين) اعترف لمحمد التابعي – كما يذكر – بأن "إيفاد عبد الوهاب طلعت إلى كفر عشما لم يكن يهدف سوى إلى لفت نظر السفارة البريطانية وعيونها إلى حيث يقيم النحاس وأصرفها عما يجري في القاهرة وهكذا بينما كان عبد الوهاب طلعت في كفر عشما (يعرض على النحاس باسم الملك تشكيل وزارة ائتلافية) كنت اتصل بحسن صبري وأعضاء وزارته وأعد المراسيم بتشكيل الوزارة وهكذا فوجئ السفير البريطاني بالأمر الواقع" ورغم ألعابه السياسية البهلوانية على النحو السابق فقد كان – كما تؤكد فاطمة اليوسف – صديقًا حميمًا للانجليز ما نعرفش نمشي. "وإذا ذكرت له زعماء البلد قال لي: "دول كلهم حرامية ... بس واحد يسرق جنيه وواحد يسرق عشرة...".

"وإذا كان علي ماهر – كما تمضي فاطمة اليوسف – هو المسئول عن جعل الملك طرفًا في شئون الحكم فإن حسنين هو المسئول عن الخطوة الكبرى للفساد: عن إحاطة هذا الملك بحاشية من الحثالات".

بعد سنوات وعندما كانت الجامعة تغلي ضد الإنجليز، وحركات الشباب لمقاومتهم لا تنقطع، اتصل أحمد حسنين بفاطمة اليوسف وقال لها إنه يريدها لأمر مهم وذهبت إليه متعجلة فإذا بها تفاجأ بأنه يطلب منها أن تقنع ابنها إحسان الطالب في كلية الحقوق، بأن يعمل جاسوسًا له في الجامعة.

وعندما حدث الانشقاق الكبير بين مكرم والنحاس كان أحمد حسنين هو الذي أقنع مكرم بأن يجمع «الفضائح» في كتاب وأن يعكف على إعداده على شكل عريضة ترفع إلى جلالة الملك أطلق عليها اسم (الكتاب الأسود).

أما عن حقيقة زواجه من الملكة نازلي بعقد عرفي كما يروي النحاس، فإن هناك تأكيدات كثيرة على صحتها، حتى إن التابعي يروي أن فاروقًا بعد وفاة أحمد حسنين ذهب يزور

أمه نازلي في قصرها الذي ورثته عن أبيها في الدقي ودخل عليها في قاعة القصر الكبرى وتسمرت قدماه عند الباب، رأى أمامه في صدر القاعة صورة لأحمد حسنين بالحجم الطبيعي وقد كللت بالسواد، وأمام الصورة وعلى الأرض جلست أمه وحولها حاشيتها وخادمات القصر وجميعهن متشحات بالسواد ... وعلى جانبي القاعة جلس نحو عشرين شيخًا يتلون الأوراد.

"توقف فاروق لحظة عند باب القاعة وعقدت الدهشة لسانه، ثم مشى إلى حيث كانت تجلس أمه، وقال لها وهو يشير بيده إلى الصورة والسيدات والمشايخ: أية ده كله ... لزوم ده إيه ... خلاص مات ...

لكن نازلي انفجرت في ابنها غاضبة...".

(١١)

كانت أمريكا ماضية في دفع المتغيرات نحو عملية انقلاب شاملة لتغيير أنماط القوى وموازينها في عالم جديد سوف يؤذن بالشروق - بعد ذلك بسنوات قليلة من بين شظايا الحرب وسعيرها.

كان قانون التنافس على المستوى الدولي يعمل فعله وكانت الطبيعة تحدد له مساراته، ولكن الطبيعة لم تكن هي المسئولة وحدها عن إعادة توزيع مناطق النفوذ، وتقسيم الأسواق.

في الثامن عشر من أغسطس وقع في نيويورك اتفاق بين الولايات المتحدة وكندا حصلت أمريكا بموجبه على جميع وسائل كندا الدفاعية ولم تستغل أمريكا - فقط - حاجة انجلترا إلى الأسلحة بعد هزيمة (دنكرك) ولكنها استغلت لأقصى الحدود تلك الروابط الخفية في القاعدة المجتمعية الأنجلو ساكسونية.

لم يكن واضحًا أنها تفرض شروطًا أو تقتنص مقابلاً فلم تطلب بمنطق السوق رغم أنها صاحبته، وإنما طلبت بمنطق الدفاع عن الأشجار الباسقة في حديقة الحضارة والثقافة المشتركة.

وأخذت بريطانيا مأخوذة تعطي بلا حساب.

أعطت بعض المواد ذات الأهمية الاستراتيجية وعددًا من الاختراعات الهامة في عالم الرادار ثم أعطت أهم البحوث البريطانية في عالم الذرة وأصحابها، ثم أعطت خطة التجارب التي وضعتها لقنبلة اليورانيوم وصاحبها (باجيت طوموسون) ولم تبخل حتى بمسودة مشروع كامل لإنشاء مصنع لإنتاج اليوانيوم.

وحين قدمت أمريكا بيدها اليسرى إلى بريطانيا ٥٠ مدمرة كان قد حان وقت إحالتها إلى الإستيداع، مع تعهد غامض بالمشاركة في الدفاع عن الممتلكات البريطانية في النصف الغربي من الكرة الأرضية، أخذت أمريكا بيدها اليمنى جميع القواعد البريطانية في المحيط

الأطلسي على أساس اتفاق لتأجيرها لمدة قرن كامل إلا عامًا واحدًا وتم التوقيع على هذا الاتفاق (في ٢ سبتمبر ١٩٤٠) الذي بسط نفوذًا أمريكيًا كاملاً وعلى نحو استراتيجي على تلك القواعد البحرية والجوية الأمر الذي غير تمامًا من توازن القوى في المحيط الأطلسي.

ولم يكن رحيل أحمد حسنين الفاجع بأقل غرابة منه ومن شخصيته البالغة البساطة والتعقيد في آن واحد ... لقد غادر قصر عابدين في تمام الساعة الثالثة والنصف (يوم ١٩ فبراير ١٩٤٦) في طريقه إلى منزله بالجيزة، وفوق كوبري قصر النيل، انزلقت فوق سيارته شاحنة لوري فحطمت سيارته وقتلته.

لقد سقط ثلاث مرات بطائرات مختلفة في الفضاء إلى الأرض ولم يمت، وفقد مرات أكثر في قلب الصحراء الغربية، ولكنه لم يمت، ثم شاءت المقادير أن يموت في قلب الزحام فوق كوبري قصر النيل، في وضح النهار، وبسبب شاحنة تنتسب إلى عساكر الإمبراطورية البريطانية التي أخلص لها دون شك!

لقد كتب روزفلت إلى الكونجرس خطابًا تنطق حروفه بحالة الذهول التي انتابته نتيجة السهولة التي تم الحصول بها على هذه القواعد من بريطانيا.

"... إن قيمة هذه المراكز الأمامية على صعيد سلامة النصف الغربي من الكرة الأرضية تفوق كل حساب واعتبار ... لقد اغتنمنا الفرصة الراهنة!"

ورغم ذلك وحين وضعت أمريكا في يد بريطانيا ٩٤٥ ألف بندقية، و١٨٤ ألف رشاش طالبت بأن يتم الدفع نقدًا، وكان لها ما شاءت من أرصدة الذهب والاستثمارات البريطانية الخارجية.

إن ما أعطاه تشرشل لأمريكا بموجب صفقة القواعد مازال قابلاً للتساؤل بل والدهشة فلم يكن القائد البريطاني بتكوينه وحجمه غافلاً عما اشتملت عليه وعن قيمتها الاستراتيجية العالية بل وعن عدم تكافؤها البالغ الوضوح، أذكر أنني سألت الأستاذ محمد حسنين هيكل سؤالاً شبيهًا في سياق حوار قبل سنوات، وكانت إجابته مختلفة تمامًا عن إجابة أخرى أعطاها الكاتب الأمريكي (جورج ماريون) من أن تشرشل كان يشعر بالذلة وهو يسلم الولايات المتحدة بما أرادته كاملاً وغير منقوص.

قال لي (هيكل):

"... إن تشرشل كان سعيدًا جدًا بأن يستبدل الجزر والقواعد البريطانية بخمسين مدمرة أمريكية متهالكة، فقد تصور تشرشل أنه يبذل مساعي مخلصة لمجتمع هو المجتمع الأمريكي، يمثل امتدادًا طبيعيًا للمجتمع الانجليزي ذاته ساعده على ذلك أن أمه، كانت تنتسب إلى هذا المجتمع الجديد".

لقد احتدم الجدل في مجلس الوزراء البريطاني في مواجهة عدد من وزراء الوزارة الائتلافية التي كان يقودها تشرشل من أنه كان يسهل على أمريكا الحصول على مكاسب إضافية.

وكان رد تشرشل الثابت وبغض النظر عن نصيبه من المثالية أنه لا يعطي شيئًا بقدر ما يدعم الرابطة الفكرية والثقافية والحضارية بين أجزاء مجتمع واحد، هو المجتمع المتحدث بالانجليزية مثلما كان عنوان واحد من كتبه".

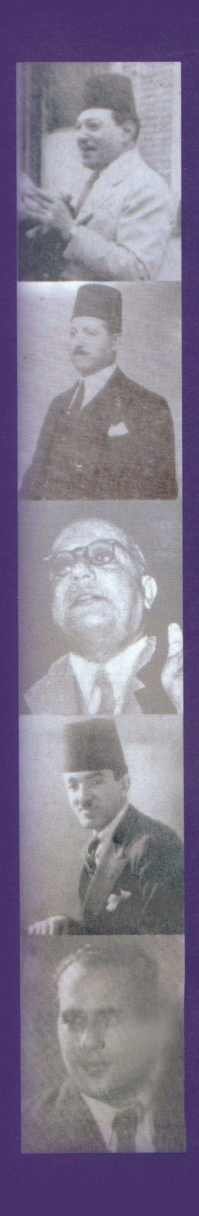
وبغض النظر عن وجاهة التفسير ورقته، فإن أمريكا كانت تتحرك بالفعل وفق رؤية واضحة لتدفع المتغيرات نحو عملية انقلاب شاملة لتغيير أنماط القوى وموازينها في عالم جديد.

على الجانب الآخر كان السعي محمومًا لإدراك هذا العالم الجديد، ففي السابع والعشرين من سبتمبر وقعت ألمانيا وإيطاليا واليابان في برلين ميثاقًا ثلاثيًا سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا للوقوف صفًا واحدًا لإقامة نظام جديد في آسيا وفي أرجاء أوروبا.

وفي التوقيت نفسه (سبتمبر) كان جراسياني يقود زحف القوات الإيطالية في الصحراء الغربية، حيث وصل بها إلى السلوم في الرابع عشر منه قبل أن يحتل (سيدي براني) بعد ذلك بيومين وعلى مسافة ٨٨ كيلومترًا من الحدود أخذ الإيطاليون يتحصنون هناك.

وفي التاسع من ديسمبر كان لامبسون يكتب قائلاً إنه "يسجل في هذه اللحظة أن قواتنا في مصر امتلكت زمام المبادرة في الصحراء الغربية".

لقد استولى الجيش البريطاني على (سيدي براني) وأسر وفق تقديرات السفارة البريطانية ٢٠ ألف أسير وطور هجومه المضاد في اتجاه السلوم، حيث نصب قواعده الدفاعية مؤقتًا فيها قبل أن تبدأ عملية صدام عسكري أكثر عنفًا وضراوة في الصحراء الغربية بعد ذلك ثم على اتساع العالم الفسيح...



مذكرات مصطفى النحاس

ربع قرن من السياسة فى مصر

(١٩٢٧ ـ ١٩٥٢)

دراسة وتحقيق : أحمد عز الدين

الكتاب الأول (١٩٢٧ ـ ١٩٤٠)

ربع قرن من تحولات مصر، وبنيتها السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية، تلمّ خيوطها وتكثّفها كالعدسة المقرّبة، رؤية مصطفى النحاس، الذي انغمس في معاركها وشغل ناسها، والدنيا من حولها، زعيمًا شعبيًا، ومجاهدًا وطنيًا، منذ رحيل الزعيم سعد زغلول عام ١٩٢٧ وحتى انفجار ثورة يوليو ١٩٥٢.

تتوازى مع رؤيته كمذكرات وذكريات دراسة متعمّقة تنقّب في الأقوال والأفعال، مسجلّة ومنقولة، بالوثائق الأجنبية والمصرية، وشهادات المعايشين لأحداثها ومعاصريها، ومؤرخيها، محاولة أن تقيم للمشهد التاريخي الواحد صورتين متقابلتين، سواء في موضع ألفة أم اكتمال أم خصومة.

هذا هو الجزء الأول من مذكرات مصطفى النحاس يبني جسرًا مصريًا من نتائج الحرب العالمية الأولى إلى المقدمات الملتهبة للحرب العالمية الثانية، ولذلك فإنه ليس مجرد تاريخ ذاتي لصاحبه، أو للوفد المصري، أو لمدرسة الليبرالية المصرية، وإنما لمصر ذاتها، متفجرة، ومفعمة بالتغيّر، والتحوّل، والثورة.

